تاريخ فتح وسقوط المدن الأندلسية

٩٢ -٨٩٧هـ/ ٧١٠ -١٤٩٢م

الكتاب: تاريخ فتح وسقوط المدن الأندلسية

٩٢ -٨٩٧ هـ / ٧١٠ -١٤٩٢ م

تأليف: أ.د. حسين جبار العلياوي و أ.د. جاسم ياسين الدرويش

كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة البصرة -قسم التاريخ

الطبعة الأولى: ٢٠٢٣

تصميم الغلاف: أمينة صلاح الدين



طباعة. نشر. توزيع

دمشق/ جوال: ٩٤٤٦٢٨٥٧٠ -٠٠٩٦٣

Email: akramaleshi@gmail.com

تاريخ فتح وسقوط المدن الأندلسية

٩٢ - ٨٩٧هـ / ٧١٠ - ١٤٩٢م

أ.د. حسين جبار العلياوي   أ.د. جاسم ياسين الدرويش

كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة البصرة - قسم التاريخ



المقدمة

بدأت مرحلة الفتح الإسلامي للأندلس سنة٩٢ هـ/٧١٠ م بعبور طارق بن زياد الذي تمكن من هزيمة الجيش القوطي في معركة وادي لكة في رمضان من السنة أعلاه ، ثم اتجه بعدها إلى مدينة شذونة Sidonia ثم إلى قرمونة Carmona ثم إلى إستجةEcija ، وبعد فتحها وجه منها سراياه لفتح مدن قرطبة Cordoba والبيرة Elvira ومالقة Malaga فيما توجه هو مباشرة نحو طليطلة Toledo فوصلها سنة ٩٣هـ/٧١١م وفتح بعض المناطق المحيطة بها ، ثم انتظر حتى عبور موسى بن نصير والذي سار غرباً ففتح مدن إشبيلية Sevilla وباجة Beja وماردة Merida ثم توجه إلى طليطلة حيث التقى طارق سنة ٩٤هـ/٧١٢ م ، ومنها سار الجيش الإسلامي بقيادة موسى ففتح سرقسطة Savagosa وبقية المناطق الشمالية الشرقية من الثغر الأعلى ، بعدها قرر موسى فتح مناطق قشتالة القديمة Castilla Iaveej فقسم جيشه قسمين ، الأول بقيادة طارق الذي اتجه نحو بلاد الباسك Bascons ففتح أستورقة Astorga وليونLeon ، أما موسى فسار حتى فتح لك Lugo ثم تقدم حتى بلغ خيخون Gijon على خليج بسكاي وبعث سراياه نحو الصخرة في جليقية Galicia الغربية حتى وصلت خيلهم البحر ، وفي هذا الأثناء وصلته أوامر الخليفة الوليد بن عبدالملك(٨٦-٩٦ هـ/٧٠٥-٧١٤م) بالعودة فعاد أدراجه في أواخر سنة ٩٥هـ/٧١٣م ، لتنتهي بذلك مرحلة الفتح.

وقد درج المؤرخون على تقسيم التاريخ الأندلسي إلى مراحل حسب الحقب التاريخية التي مرّ بها ، فبعد انتهاء مرحلة الفتح بدأ عصر الولاة(٩٥-١٣٨هـ/٧١٣-٧٥٥ م) وخلالها تولى الأندلس عدد من الولاة كانوا تابعين إلى الخلافة في دمشق حتى سقوطها وما تبعها من فرار عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك وتمكنه من دخول الأندلس وتأسيس الإمارة الأموية فيها ليبدأ عصر الإمارة(١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م) لأن

حكامه من الأمويين تلقبوا بالأمراء حتى مجيء عبد الرحمن الثالث الناصر الذي اتخذ لقب الخليفة سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م ليبدأ عصر الخلافة(٣١٦-٤٢٢هـ/٩٢٨-١٠٣٠م) الذي انتهى بسقوط الخلافة الأموية في الأندلس وتفرق البلاد إلى دويلات مستقلة عرفت بعصر دويلات الطوائفLos، Taifas(٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) والذي انتهى بدخول المرابطين Los ، Almoravdo واسقاطهم تلك الدويلات لتصبح الأندلس تابعة إلى الدولة المرابطية في المغرب وهو ما أطلق عليه المؤرخون عصر المرابطين في الأندلس(٤٨٤-٥٤١ هـ/ ١٠٩١-١١٤٦ م) والذي استمر حوالي ٥٧ سنة ، أعقبه دخول الأندلس تحت نفوذ الموحدين Los ، Almohades (٥٤١-٦٢٦هـ/١١٤٦-١٢٢٨م) والذي استمر حوالي٨٥ سنة ، لتنضوي الأندلس بعدها تحت سلطة بني الأحمر في غرناطةGranda(٦٣٥-٨٩٧هـ/١٢٢٧-١٤٩١م) وكانت مدة حكمهم٢٦٢ سنة وبسقوطهم انتهى الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية بعد أن حكمها المسلمون مدة ٨٠٥ سنة وأصبح مصطلح الأندلس منذ ذلك التاريخ من الماضي.

وعلى الجانب الآخر من حدود الأندلس الإسلامية ومنذ توقف عملية الفتح كانت المنطقة الشمالية والشمالية الغربية من شبه الجزيرة الأيبيرية المسماة جليقية ، وكذلك هضاب كانتبرية Cantabrica في نافارNavarra ، وهي أرض جبلية وعرة ، مأوى للعديد من أهالي البلاد الفارين أمام الجيش الإسلامي ، وقد وفرت لهم الطبيعة مع قلة عددهم الاستقرار هناك لاسيما في منطقة تعرف بالصخرة إذ التجأوا إليها ، وكان بينهم نفر من بيت الملك السابق لذريق عليهم رجل يدعى بلاي Pelayo الذي استطاع قيادة تلك المجموعة وصمد أمام المسلمين فملكوه عليهم مكوناً نواة لإمارة نصرانية تدعى اشتوريس Asturias واستمر حتى وفاته في سنة ١٣٣هـ/٧٥٠ م ، أما هضاب كانتبرية فقد التف فيها مجموعة حول أحد قادة الجيش القوطي يدعى بطرة أو بتروس Pedro لمقاومة المسلمين ، وبذلك ولدت بذرة المقاومة النصرانية للوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية.

ثم خدمتهم الظروف التي مرّ بها المسلمون في عصر الولاة ، ففي أعقاب الثورة البربرية التي قامت في بلاد المغرب سنة ١٢٢ هـ/٧٣٩م واتسع نطاقها إلى الأندلس ، فثار البربر فيها لاسيما أولئك الذين كانوا قد استقروا في أرض جليقية أبان الفتح وكانوا

الأغلبية هناك ، ورافق تلك الثورة حدوث مجاعة في الأندلس عندها ترك البربر مناطقهم هناك متأثرين بروح الثورة وضيق العيش وبذلك خلت تلك المناطق من سكانها مما ولد فراغاً لا بد من ملئه ، وهو ما فسح المجال لتك المجموعات النصرانية من التوسع وشمل نفوذهم معظم جليقية وأشتوريس وكانتبرية.

ومما زاد من قوتهم اتحاد الإمارتين بزواج ابنة بلاي من الفونسو الأول Alfonso 1 ابن الدوق بتروس مكونين دولة واحدة هي مملكة ليون أو جليقية ، وبذلك يعد الفونسو الأول(١٢١-١٤٠ هـ/٧٣٩-٧٥٧ م) المؤسس الحقيقي لأول دولة أسبانية نصرانية أخذت على عاتقها مقاومة المسلمين ، وقد نجح الفونسو الأول فعلاً في دفع المسلمين حتى حدود نهر دويرة Duero وكانت مدينة أستورقة من أوائل المدن التي سقطت بيده وذلك سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م ، ويمكن أن نعد هذا التاريخ بداية سقوط المدن الأندلسية بيد النصارى والذي اختتم بسقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩١م.

إلا أن مقاومة المسلمين لم تقتصر على مملكة ليون إذ ظهرت بؤرة أخرى في منطقة نافار(نبرة) من بلاد الباسك(البشكنس) الجبلية والذين رفضوا الخضوع لحكام ليون ودخلوا في صراع معهم خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي وكان أول من تلقب منهم بلقب الملوكية شانجه غرسيه الأول Sancho Carcia I (٢٩٣-٣١٤هـ/٩٠٥-٩٢٦م) والذي يعد المؤسس الحقيقي لمملكة نافار ، وقد أخذت هذه المملكة بعد ذلك على عاتقها مقاومة المسلمين في منطقة الثغر الأعلى إلى جانب مملكة ليون.

وإلى جانب مملكتي ليون ونافار قامت مملكة أخرى في منطقة قشتالة Castilla والتي كان يطلق عليها اسم ألبه والقلاع وهي تقع إلى الشرق من ليون وغرب نافار وقد تمكن أحد زعمائها المدعو فرناند كونثالث Feranan Conzalez(ت ٣٥٩هـ/٩٦٩م) من التحرر من سلطة مملكة ليون وتأسيس مملكة قشتالة التي قدر لها فيما بعد أن تلعب الدور الأكبر في حروب الاسترداد ضد المسلمين حتى سقوط غرناطة ، وكانت خارطة الممالك الاسبانية النصرانية في نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي تتمثل في ثلاثة ممالك وهم مملكة نافار التي تحاذي منطقة الشمال الشرقي من الثغر الأعلى الأندلسي ، ومملكة قشتالة المواجهة للثغر الأوسط ومملكة ليون المواجهة للثغر الأدنى الأندلسي.

وخلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حدث تطور كبير على الساحة السياسية للممالك النصرانية فقد تمكن الملك القشتالي الفونسو السادس(٤٥٨-٥٠٢هـ/ ١٠٦٥-١١٠٨م) من توحيد مملكتي قشتالة وليون تحت سلطته وعادت المملكة الاسبانية إلى توحدها وتماسكها ، وعلى الجانب الآخر في الشمال الشرقي ضعفت مملكة نافار وتقسمت إذ استولى الفونسو السادس على مناطقها الغربية فيما استقل سانشو راميو Sancho Ramiro(٤٥٥-٤٨٧هـ/١٠٦٣-١٠٩٤ م) بأقسامها الشرقية مكوناً مملكة أراغون والتي قُدر لها فيما بعد أن تلعب دوراً كبيراً في حرب الاسترداد.

وإلى جانب مملكة أراغون Aragon كانت هناك إمارة صغيرة نشأت في مدينة برشلونة Barcelona منذ سقوطها بيد الإفرنجة سنة ١٨٥ هـ/٨٠١م وكانت في بداية الأمر تابعة لهم ثم أخذت في الاستقلال إلا أنها كانت هدفاً لغارات المسلمين حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إذ تمكن أحد أفراد أسرة آل برنجير الكونت رامون برنجير الكبير Ramon Berenguer(٤٢٧-٤٦٩ هـ/١٠٣٥-١٠٧٦ م) من تأسيس إمارة مستقلة وعمل على توسيعها ، كما وطدت علاقتها مع الممالك النصرانية الاسبانية الأخرى وشاركتهم في معظم حملاتهم ضد المسلمين.

وخلال القرن السادس الميلادي / الثاني عشر الميلادي حدث تطور آخر على الساحة السياسية للمالك النصرانية الاسبانية إذ اندمجت إمارة برشلونة مع مملكة أراغون سنة٥٣٢هـ /١١٣٧م ، بعد زواج أمير برشلونة بترونيلا ابنة ملك أراغون راميرو الثاني الراهب Ramiro 11 (٥٢٩-٥٣٢ هـ/ ١١٣٤-١١٣٧ م)(أخو الفونسو الأول المحارب Alfonso 1 Batallador) ، كما تنازل ملك أراغون عن عرشه لصهره أمير برشلونة ، ولذلك لقب أمير برشلونة رامون برنجير الرابع Ramon Barenguer 1V(٥٢٥-٥٥٧ هـ/١١٣٠-١١٦١م) بكونت برشلونة وأمير أراغون ، إلا أنه أعلن بأن يحكم أراغون في ظل ملك قشتالة الفونسو السابع السليطين Alfonso Raimundes (٥٢٠-٥٥٢ هـ/ ١١٢٦-١١٥٧ م) ، وبذلك أصبح لملك قشتالة الفونسو السابع نوعاً من الهيمنة والسيطرة على بقية أمراء الممالك النصرانية.

كما شهد القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أيضاً ميلاد دولة أخرى قُدر لها أن تلعب دوراً كبيراً في حرب الاسترداد لاسيما غرب الأندلس وهي مملكة

البرتغالPortugal ، فقد كافأ الملك القشتالي الفونسو السادس أحد الكونتات الذي جاء من فرنسا لمساعدته في معركة الزلاقة Sagrajas ريمون البرجوني أن جعله والياً على المنطقة ، وبعد وفاته خلفه في حكم الولاية ابن عمّه هنري البرجوني والزوج الآخر لابنة الفونسو السادس غير الشرعية التي تدعى تيريزا وقد حكم زوجها البرتغال باعتباره تابعاً لقشتالة وحارب مع زوجته ضد المسلمين ، وبعد وفاة هنري تولت زوجته تيريزا الوصاية على ابنها الفونسو هنريكيز Alfonao Henrigue حتى سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م حيث نصب أميراً على البرتغال(٥٢٢-٥٨١ هـ/١١٢٨-١١٨٥م) ، وقد عمد الفونسو هنريكيز(وتسمية المصادر الإسلامية ابن الرنق أو الرنك أو الريق) ، إلى العمل على استقلال البرتغال من قشتالة وخاض معها قتالاً حتى تمكن من تحقيق هدفه حيث أعلن نفسه ملكاً على البرتغال سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م ، وعليه فإن الخارطة السياسية للممالك النصرانية الاسبانية في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي تمثلت في اتحاد مملكة قشتالة وليون في الثغر الأوسط ومملكة البرتغال في الثغر الأدنى ومملكة أراغون في الثغر الأعلى وشرق الأندلس ، وكان هناك شبه اتفاق بين هذه الممالك على اقتسام الأراضي الإسلامية فقد اختصت مملكة البرتغال في القسم الغربي وأخذت تجتاح مدن غرب الأندلس ، فيما تولت مملكة أراغون الاستيلاء على مدن شرق الأندلس ، وتكفلت مملكة قشتالة مهمة ما تبقى من أراضي المسلمين لاسيما قاطع قرطبة Corsoba وما دونها.

وخلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي نجح كل من مملكتي أراغون والبرتغال من الاستيلاء على معظم الأراضي المحاذية لهما في شرقي الأندلس وغربها فيما أحاطت مملكة قشتالة بآخر جيوب المسلمين في الجنوب والذي قامت فيه دولة بني الأحمر(٦٣٥-٨٩٧ هـ/١٢٣٨-١٤٩٢ م) في غرناطة ، إلا أن التطور المهم الذي حصل في تاريخ المواجهات بين مملكة قشتالة وبني الأحمر هو اتحاد مملكتي قشتالة وأراغون سنة ٨٧٩ هـ/١٤٧٤ م الذي كان له أسوأ الأثر على مستقبل مسلمي الأندلس ، ففي سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م تزوجت إيزابيلا بنت خوان الثاني ملك قشتالة وأخت الملك القشتالي هنري الرابع(٨٥٩-٨٧٩ هـ/ ١٤٥٤-١٤٧٤ م) من فرناندو بن خوان الثاني ملك أراغون(٨٦٣-٨٨٤هـ/١٤٥٨-١٤٧٩م) ، وعندما توفي هنري الرابع بدون وريث للعرش

توّجت أخته إيزابيلا لعرش قشتالة ، كما ورث فرناندو الأرغوني أباه عند وفاته ، فكان ثمرة ذلك الزواج أن اتحدت المملكتين قشتالة وأراغون ، ولُقبا بالملكين الكاثوليكيين وكان من أجلّ أهدافهما هو إشهار الحرب على غرناطة والقضاء على دولة المسلمين في أسبانيا فكان لهما ذلك بعد ثمانية عشر سنة من اتحادهما.

إن المتتبع لمجمل الصراع الإسلامي النصراني في شبه الجزيرة الأيبيرية على مدى ثمانية قرون يرى أن حرب الاسترداد التي خاضها النصارى ضد المسلمين كانت تتناسب عكسياً مع قوة وضعف كلا الطرفين ، فخلال الاضطرابات الداخلية على الساحة الإسلامية في نهاية عصر الولاة تمكن النصارى من دفع المسلمين حتى نهر دويرة Duero واستردوا خلالها العديد من المدن شمال ذلك النهر منها جليقية ولك Lugo وأربلة Marbella وسقوبية Segovia وفشيتالة وذلك في حدود سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م ، كما كان للثورات الكثيرة التي واجهتها السلطة في عهد عبد الرحمن الداخل دورها في فقدان المسلمين مناطق مهمة في الشمال الشرقي إذ تمكن الافرنجة خلالها من دفع المسلمين من بلاد غالة حتى جرندة Gerona التي سقطت سنة ١٦٩ هـ/٧٨٥ م واستمر تأثيرها السلبي حتى سقوط برشلونة سنة ١٨٥ هـ/٨٠١م.

وبسبب قوة الدولة الإسلامية لم يحدث خرق كبير في حدودها حتى عصر دويلات الطوائف الذي تزامن مع توحد الدويلات النصرانية لاسيما في عهد الملك القشتالي الفونسو السادسAlfonso V1(٤٥٨-٥٠٢ هـ/ ١٠٦٥-١١٠٨م) فقد شهدت مدة حكمه سقوط العدد الأكبر من المدن الأندلسية ، فقد حاز على أكثر من ثمانين منبراً سوى القرى وبناتها وذلك من وادي الحجارة Guadalajara إلى طلبيرةTalavera ، أما الشهيرات منها فكانت مدريد Magerit سنة ٤٧٦ هـ/١٠٨٣ م وطلبيرة وطليطلة ووبذة Huete ووادي الحجارة وطلمنكة Talamaca سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م ، ومدينة سالم Medinace سنة ٤٧٩ هـ /١٠٨٦ م ، وطركونة Tarragona سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠ م ولم ينقذ الأندلس ويوقف المد النصراني مؤقتاً إلا دخول المرابطين.

ولكن ما أن بدا الضعف ينتاب الدولة المرابطية بعد موت يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م حتى عاود الجانب النصراني تمدده ، ففي المدة بين ٥١١ هـ/١١١٧ م حتى

سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م واجهت الدولة المرابطية تحديات كبيرة سواء في الأندلس أم في المغرب جعلها عاجزة في كثير من الأحيان عن مواجهة التمدد النصراني الذي أخذ يتلقى الدعم من أوربا وهو ما يمكن أن يطلق عليه بالحروب الصليبية في الأندلس ، فسقطت العديد من المدن والحصون أشهرها تطيلة Tudela سنة ٥١١ هـ/١١١٧ م ، وسرقسطة Zaragoza وروطة Rueda ٥١٢ هـ/١١١٨م ، وطرسونة Tarazona وقلعة أيوب Calatayud وبرجة Borja سنة ٥١٣هـ/١١١٩م ، وقورية Coria سنة ٥٣٦ هـ/١١٤١م ، ولشبونة Lisbon سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م ، ولاردة Lerida وأقليش Ucles وطرطوشة Tortosa سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، وأفراغة Fraga ومكناسة سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ، وبذلك انتهت سيادة المسلمين على الثغر الأعلى ، حتى تمكن الموحدون من وضع حد لذلك دون أن يتمكنوا من استرجاع ما فات.

ويعد هزيمة الموحدين في موقعة العقاب Las Navas de Tolosa سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م بدأ سلطانهم في الأندلس بالانهيار بسبب انقسامهم على أنفسهم ثم ثورات أهل الأندلس عليهم ، وخلال المدة من هزيمة العقاب حتى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٨م حيث انتهى الوجود الموحدي في الأندلس فقد المسلمون سلسلة أخرى من مدنهم في الشرق والوسط والغرب ، ففي سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م سقطت قلعة رباحCalatava ، وفي سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م سقطت مدينة قصر أبي دانس Alcacer dosal ثم باجة وميرتلة Mertola سنة ٦١٥ هـ /١٢١٨م ثم قيجاطة Quesada وشلبطرة Salvatierra وبرج الحمة Banos de la Encina سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م ، وبياسة Baeza وحصن قبالة Capilla سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦ م وقاصرش Caveres سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦ م.

بعدها سادت حالة من الفوضى السياسية في الأندلس وتعددت مراكز القوى والثورة وكل يمني نفسه أن يملك البلاد ويعيد أمجادها وفي الوقت نفسه لا يملك الجميع مقومات ذلك ، وكان من أشهرهم محمد بن يوسف بن هود الجذامي ومحمد بن يوسف بن الأحمر وأبي جميل زيان بن مردنيش وأخذ كل من هؤلاء يعمل لمفرده ويكيد للآخر ويتحالف مع النصارى ضد بعضهم البعض فكان نتيجة ذلك فقدان المسلمين للكوكبة الذهبية من مدنهم للمدة بين سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٨م حتى سنة ٦٦٥ هـ/١٢٦٦ م ، ففي

سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م سقطت ماردة Merida وبطليوس Badajoz وجزيرة ميورقةMallorca ، وفي سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م سقطت مدينة أبذةUbeda ، وفي سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٤ م هادن ابن هود ملك قشتالة وسلمه ثلاثين حصناً ، وفي السنة نفسها هادن القاضي ابن محفوظ الملك فرناندو الثالث وتنازل له عن عدد من مدن الغرب الأندلسي مثل طبيرةTarragona وشنتمرية الغرب Santa Mariade Algarve وشلب Silves ثم جبل العيون Gidraleon ووادي آنه Rio Cuadiaro وشلطيش Saltis وشنتيل.

ثم توالت سقوط المدن الكبرى ، ففي سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٤م سقطت فحص البلوطLos ، Perdroches وفريش وجزيرة يابسةIbiza ، وفي سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥ م سقطت مدينة قرطبة ، وكان سقوط قرطبة إيذاناً بسقوط معظم المدن والحصون القريبة منها مثل إستجة Ecija والمدور Almodovar وبيانة Baena وبلاي ومرشانة Marchena وقبرة Cabra وأشونة واللسانة Lucena ومورور Moron.

وفي سنة٦٣٦هـ/١٢٣٨م سقطت مدينة بلنسية Valencia وتبعها سقوط معظم مدن شرق الأندلس منها شاطبة Jativa ودانية Denia ولقنت Alicant وأريولة Orihuela وقرطاجنة Catragena وجنجالة Chinchilla وذلك بين سنتي ٦٤١هـ/١٢٤٣م و٦٤٤هـ/١٢٤٦م ، وكان جملة ما أعطاه ابن الأحمر لملك قشتالة من بلاد المسلمين من المدن والحصون مئة مسور وخمس مسورات من بلاد شرق الأندلس.

وفي سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م سقطت مدينة إشبيلية Sevilla وكان ذلك إيذاناً بسقوط سائر المدن والحصون بينها وبين مصب نهر الوادي الكبيرRio Guadal Quivir ، ففي السنة نفسها سقطت طلياطة Tliata وشريش Jerez وشذونة Sidonia وروطة Rueda وأركشArcos ، وفي سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦١م سقطت كل من قادس Algeciras ولبلةNiebla.

وهكذا انحصر نفوذ المسلمين في نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي في المثلث الصغير في جنوب الأندلس والممتد بين جيان Jaen شمالاً والبحر جنوباً وأهم قواعده الثلاثة مالقة Malaga وغرناطة Garnada والمرية Almeria وقدر لها أن تبقى ردحاً من الزمن لتواجه المد النصراني بما تمتلكه من مقومات وبمساعدة الدولة المرينية في المغرب ، ولكن ضعف دولة بني مرين في نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر

الميلادي واستيلاء البرتغاليين على سبتة Ceuta سنة٨١٨ هـ/١٤١٥ م حرم دولة غرناطة الإسلامية من حليف مهم وجعلها تواجه مصيرها بمفردها فيما ازداد نشاط الجانب النصراني وقويت شوكتهم لاسيما بعد توحد مملكتي قشتالة وأراغون بزواج إيزابيلا بنت خوان الثاني ملك قشتالة وأخت الملك القشتالي هنري الرابع Henry 1V من فرناندو بن خوان الثاني ملك أراغون واعتلائها العرش ولُقبا بالملكين الكاثوليكيين وكان أول أهدافهما القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس وأخذا يعملان من أجل ذلك بكل جد ونشاط منذ اعتلائهما العرش سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م.

وهكذا أخذت مدن وحصون غرناطة تتهاوى أمام هجمات ملكي قشتالة ، ففي سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م سقطت مدينة الحمةAlhama ، وفي سنة٨٩٠هـ/١٤٨٥م سقطت كل من قرطمة Cartama ودكوين Coin ورندة Ronda وقنبيل ، وفي سنة٨٩٢ هـ/١٤٨٦م سقط حصن بلش مالقة Velez Malaga وبسببه أرسل أربعين مدينة وحصن من إقليم البشارات Alpuxarras طاعتهم للملك القشتالي بدون قتال ، وأعقبها سقوط مدينة مالقة في السنة نفسها.

وفي سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م سقطت مدينة بسطة Baza ومن نتائجها أن معظم المدن والحصون القريبة منها اضطرت إلى التسليم والدخول في طاعة ملكي قشتالة ، وفي طريق الجيش القشتالي إلى المرية كان لا يمر على قرية أو حصن إلا وحازه دون حصار أو قتال في حالة من اليأس وانهيار المعنويات التي حلت بالمسلمين بعد سقوط بسطة حتى حلّ بالمريةAlmeria ، وعلى نفس المنوال وفي السنة نفسها سقطت مدينة وادي آشGuadix ، وهذا أدى إلى عزل مدينة غرناطة التي بات سقوطها أيضاً محتوماً ، وقد تحقق للنصارى ذلك بعد حوالي سنتين ، إذ تمكن الملكان الكاثوليكيان من الاستيلاء عليها في الثاني من ربيع الأول سنة٨٩٧هـ/ الموافق الثاني من كانون الثاني١٤٩٢م.

ولنا في هذا الكتاب مع سقوط معظم المدن الأندلسية وقفة ، فمع سقوط كل مدينة مأساة تبدأ بحصارها من قبل القوات النصرانية يقابلها مقاومة أهلها في الدفاع عنها وتشبثهم في أرضهم ، وبعد عجزهم يرسلوا الصريخ للنجدة ، وعندما ييأسوا من الناصر والمعين تفتح صفحة المفاوضات والتسليم ، ثم بعدها صفحة الغدر بهم من قبل المحتلين

لتنتهي بالقتل والسبي والتهجير ، يكاد يكون هذا الأمر هو الطابع السائد عند تتبع سقوط معظم المدن الأندلسية.

وقد حاولنا عند تناول سقوط أي مدينة التطرق أولاً وبشكل سريع إلى موقعها ثم فتحها من قبل المسلمين ثم استعراض موجز لأهم الأحداث التي شهدتها المدينة خلال تاريخها والتي آلت بها إلى النهاية ، عندها نعمل على سرد معظم الروايات التي تناولت سقوطها وما صاحب ذلك من أعمال حربية ، ولما كان تاريخ كل مدينة يبدأ بالفتح وينتهي بالسقوط لذا أسميناه(تاريخ فتح وسقوط المدن الأندلسية) ، وتتبعنا فيه التسلسل الزمني في تاريخ السقوط بدءاً من سقوط أستورقة سنة ١٣٦ هـ/٧٥٣ م حتى سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م ، نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم الموفق.

مدينة أستورقة Astorga الأندلسية

(٩٤ -١٣٦ هـ/ ٧١٢ -٧٥٣ م)

ورد اسم المدينة في المصادر العربية بأسماء مختلفة بعض الشيء ، فجاءت بلفظة(أسترفة ، أو أشترقة ، أو أستورقة ، أو أشتورقة ، أو أشتيرقية ، أو أستورة)[١].

وأشارت المصادر إلى أنها مدينة قديمة[٢] ، وهذه اللفظة تدل على إنها كانت موجودة قبل الإسلام ، إذ ذكر أرسلان أنها كانت مركزاً لجنوبي أستوريس Asturias[٣] ، ولعل ذلك يدل على أن بناؤها يرجع إلى عهد الرومان الذين دخلوا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia في حدود سنة ٢١٨ ق.م[٤].

ويبدو أن المدينة والمناطق المحيطة بها ، أصبحت جاذبة للسكان ، إذ وصفها الإدريسي بأنها مدينة متحضرة[٥] ، كان يحيط بها جبال يسكنها جيل من الناس يقال لهم المغاراتوس Magaratos يُظن أنهم أقدم سلالة للأمة الأيبيرية ، وهم أهل نشاط ذوو زراعة وصناعة ، ولكنهم على أشد ما يكون من المحافظة على عاداتهم القديمة ، ولهم أزياء خاصة بهم ولا يتزوج بعضهم إلا من بعض[٦].

---

١) ينظر الألفاظ أعلاه : مجهول، أخبار مجموعة ،ص ٣٩، ٦٢ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ٢٢ ؛ البكري، المسالك والممالك، ٨٩١/٢ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٣١/٢ ؛ مجهول، تاريخ الأندلس ص ٤٥، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤.

٢) مجهول، أخبار مجموعة ،ص ٣٨ -٣٩ ؛ البكري، المسالك والممالك، ٨٩١/٢.

٣) الحلل السندسية، ٥٨/٢.

٤) عندما بسط الرومان نفوذهم على شبه الجزيرة الأيبيرية سنة ٢١٨ ق. م، ومنذ ذلك العهد أصبحت شبه جزيرة أيبيرية ولاية رومانية، وقد صبغ الحكم الروماني تلك البلاد بصبغته التي ظلت أهم خصائصها حتى الفتح الإسلامي، ينظر : العلياوي، البشكنس ،ص ٣٧.

٥) نزهة المشتاق، ٧٣١/٢.

٦) أرسلان، الحلل السندسية، ٥٩/٢.

تقع مدينة أستورقة شمال غرب شبه الجزيرة الأيبيرية[1] ، وهي من مدن أستوريس[2] ، إذ تبعد عن مدينة ليون Leon مرحلة[3] ، ومنها إلى جبل منت راد اثنا عشر ميلا[4] ، وتبعد عن جبل منت فبرير اثنا عشر ميلاً ، وتبعد عن مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela ثلاثة أيام[5].

أما فتحها فبعد فتح مدينة سرقسطة Zaragoza سنة٩٤هـ/٧١٢ م من قبل موسى بن نصير ، قرر موسى أن يفتح مناطق قشتالة القديمة Castill la Vieja في السنة نفسها ، فقسم جيشه إلى قسمين ، كان الأول بقيادة طارق بن زياد ، أما الثاني فكان بقيادة موسى نفسه[6] ، وسار طارق بمحاذاة الجهة الشمالية لوادي نهر الابرو Ebro ، فهاجم منطقة البشكنس Bascons ، ثم افتتح أماية Amaya ، وأستورقة وليون[7].

أما موسى فقد مضى ببقية الجيش إلى الجنوب من وادي نهر الابرو ، فتمكن من فتح مدينة لك ، ومنها أرسل عدة حملات صغيرة لافتتاح المناطق المجاورة حتى صخرة بلاي Pena de Pelayo ، وخيخون Gijon على المحيط الأطلسي[8] ، وفي أثناء هذه الحملات كان كلا من موسى وطارق يقومان بوضع حاميات إسلامية في المناطق المحررة[9] ، وفي رواية لابن القوطية أن موسى وطارق التقيا بأسترقة إذ قال إن موسى تقدم(... فدخل جليقية من فج هو منسوب إليه ، فخرقها حيث دخلها ، ووافى طارقاً

---

١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس،ص ٣٥ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى ،ص ٨٠ -٨١.

٢) أرسلان، الحلل السندسية، ٥٨/٢.

٣) المرحلة تعادل أربعة وعشرون يوماً أي ما يعادل ٣٧ كم ونصف وفي حالة السير السريع ٤٦ كم، ينظر : كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ٩٧٢/٢.

٤) الميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان ،ص ٩٥.

٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٣١/٢.

٦) مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٠٤ ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٠٢ -١٠٣ ؛ الحجي، أندلسيات، ٣٣/١ -٣٤.

٧) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ،ص ٣٥ ؛ مجهول، أخبار مجموعة ،ص ١٥ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٦٥/١ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن فتح المنطقة ينظر : طه، الفتح والاستقرار ،ص ١٨٢ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ٨٠ -٨٤ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ١٠٣.

٨) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٩ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧٦/١.

٩) طه، دراسات أندلسية، ص ٢١.

بأسترقة ، ثم أتاهما عهد الوليد بن عبد الملك بالانصراف ، فانصرفا ...)[١].

وفي ابن الأثير أن طارق بن زياد عندما فتح طليطلة اخترق أرض جليقية حتى وصل إلى أسترقة ثم رجع إلى طليطلة حيث وافاه موسى بها[٢] ، وعلى هذا فإن فتح مدينة أستورقة كان سنة٩٤هـ/ ٧١٢م.

وخلال عهد الولاة(٩٥-١٣٨ هـ/٧١٣-٧٥٥م) ظهرت المقاومة النصرانية التي تزعمها بلاي(ت١٣٣هـ/٧٥٠م) ، وقد اتخذ من هضاب استوريس في الشمال الغربي مقراً له ، وتحصن هؤلاء في مغارة تسمى كوفادونجا Covadonga الواقعة في سلسلة جبال كانتبريه ، وأطلق المسلمون على مكانهم اسم صخرة بلاي وحددوها في جليقية[٣].

ومن هذا المكان أخذ بلاي بالتوسع وشن هجماته على القوات الإسلامية القريبة منه وبخاصة على منطقتي شمال نهر دويرة[٤] Rio El Duero وأستورقة ، لذلك حين عيّن الوالي عقبة بن الحجاج السلولي(١١٦-١٢٣هـ/ ٧٣٤-٧٤٠م) وجه قواته إلى قتال بلاي وكانت بقيادة علقمة اللخمي سنة١١٨هـ/ ٧٣٦م ، وقد انضم إلى هذه القوات أهالي مدينة أستورقة وتمكنوا من محاصرة بلاي وأتباعه في مغارة كوفادونجا ، إلا أن الأمور لم تسير في صالح المسلمين لأن أعداءهم انتصروا عليهم ، وارتد المسلمون إلى أستورقة بعد أن قتل قائدهم علقمة اللخمي[٥].

وفي هذا الأثناء نشب صراع داخلي بين المسلمين في الأندلس كانت له أبعاده المباشرة على الأوضاع في جليقية ، إذ حدث صراع بين العرب والبربر ، وساهم في هذا الصراع مشاركة بربر مدينة أستورقة مع أبناء جلدتهم بربر المناطق الشمالية في الأندلس ، إذ ثاروا ضد العرب في ولاية عبدالملك بن قطن الثانية سنة١٢٣هـ/٧٤٠م ، وكانت المشاركة

---

١) تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٥ ؛ ينظر أيضاً: المقري، نفح الطيب، ٢٧١/١.

٢) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٥ ؛ ينظر أيضاً: المقري، نفح الطيب، ٢٦٥/١.

٣) مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٩/٢.

٤) وهو من الأودية الأربعة التي تصب في المحيط وهي وادي مينو Rio mino، وتاجه Tajo، وآنه Guadiana، وهو ينحدر من جبال قشتالة القديمة ويصب عند البرتغال Portugal في بورتو غربي الجزيرة، ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٦٧/٢.

٥) مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٩/٢ ؛ وينظر أيضاً: مؤنس، فجر الأندلس ، ص ٣٣٥؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس،١/ ٢٠٩ ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٦٩

البربرية كبيرة إذ ضمت بربر جليقية وأستورقة ومـاردة Merida وقورية Coria وطلبيرة Talavera[1] ، وقاموا بإخراج العرب من بين أظهرهم ، فذكر مؤلف مجهول أنه لما(سمع بربرها بظهور بربر العدوة وتمكنهم فوثبوا بعرب جليقية وعرب أستورقة وأخرجوهم من بين ظهرانيهم)[2].

ويبدو أن النصارى بزعامة بلاي قد استغلوا الخلافات الداخلية التي نشبت بين المسلمين لتوسيع مناطق نفوذهم وإحكام سيطرتهم على العديد من المناطق الحدودية واسترجاعها[3] ، وعلى ما يبدو كانت مدينة أستورقة هدفهم الأساسي لأنها تشكل النقطة المتقدمة للمسلمين في الشمال الغربي ومصدر قوتهم ، إذ كان المسلمون يشنون هجماتهم من هذه المدينة بالإضافة إلى المناطق القريبة منها الخاضعة للمسلمين على قوات بلاي وجماعته والتي استمرت مدة من الزمن ، وقد أشار مؤلف مجهول إلى ذلك بقوله(...ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل أستورقة زماناً طويلاً حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابة...)[4].

ويبدو أن هدف بلاي خلال هذه المرحلة هو الاحتفاظ بمناطق نفوذه وحمايتها من هجمات المسلمين ، ومنتظراً الفرصة المناسبة لمهاجمة المسلمين المتواجدين بالمناطق القريبة من حدود منطقته ، ومنها مدن أستورقة وليون وشنت ياقب ولك وأقش ، وهو ما عناه المقري بقوله(...سما بهم—يقصد النصارى أتباعه—إلى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم...)[5].

وفي سنة١٣٣هـ/٧٥٠ م في عهد الوالي يوسف الفهري(١٢٩–١٣٨هـ/ ٧٤٦–٧٥٥م) تمكن بلاي من استرداد بعض المدن في جليقية وتشريد أهلها إلى مدينة أستورقة ، وقد علق على ذلك مؤلف مجهول بقوله:(فلما كان في سنة ثلث وثلثين هزمهم وأخرج عن

---

١) مجهول، أخبار مجموعة، ص ٣٩ -٤٠.
٢) أخبار مجموعة، ص ٣٨.
٣) مجهول، أخبار مجموعة، ص ٥٩ -٦٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣٥/٢ -٣٨.
٤) أخبار مجموعة، ص ٦١ -٦٢.
٥) نفح الطيب، ١٧/٣.

جليقية كلها وتنصر كل مذبذب في دينه إلى خلف الجبل إلى أستورقة...)[١].

ويبدو أن أستورقة أصبحت الحاضنة الأساسية للمسلمين في الشمال الاسباني ، إلا أنها أيضاً لم تدم طويلاً بيدهم ، إذ سرعان ما تم استرجاعها من قبل النصارى لاسيما بعد التغيرات التي حدثت في الدويلات النصرانية ، فبعد وفاة بلاي سنة١٣٣هـ/٧٥٠م قام اتحاد بين إمارتي كانتبريه وأستوريس في حكومة واحدة أطلق عليها المؤرخون المسلمون جليقية[٢] ، إذ تزوج الفونسو الأول الملقب بالكاثوليكي Alfonso I(١٢١-١٤٠هـ/٧٣٨-٧٥٧م) من ابنة بلاي أرمسندا Ermesinda سنة ١٣٤هـ/٧٥١م[٣] ، وكان هذا الاتحاد يمتد من المحيط الأطلنطي غرباً حتى بلاد البشكنس شرقاً ، ومن مضيق بسكاي شمالاً إلى نهر دويره جنوباً ، وقد عدّ الفونسو الأول المؤسس الحقيقي للمملكة النصرانية ، لأنها توسعت وزاد نفوذها السياسي وقوتها في عهده.

كانت أولى المهام التي واجهته هي كيفية استرجاع المدن التي بقيت بيد المسلمين ولاسيما مدينة أستورقة ، لما تشكله هذه المدينة من خطورة على النصارى الأسبان ، وفعلاً تمكن من إزاحة ونفي المسلمين الذين كانوا يسكنون جليقية وأستورقة عن هاتين المدينتين إلى مناطق الجنوب سنة١٣٦هـ/٧٥٣م[٤].

وقد أوضح ذلك مؤلف مجهول بقوله(...فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة وغيرها وانضم الناس إلى ما رواء الدرب الآخر والى قورية وماردة في سنة ست وثلثين...)[٥].

وبذلك انتهت سيطرة المسلمين على مدينة أستورقة سنة١٣٦هـ/٧٥٣م ، وأصبحت المدينة خاضعة لسيطرة النصارى بعد أن حكمها المسلمون ٤٢ سنة ، وعلى الرغم من المحاولات العديدة التي قام بها المسلمون فيما بعد لاسيما المنصور بن أبي عامر لاستعادة المدينة إلا أنهم فشلوا في الاحتفاظ بها[٦].

---

١) أخبار مجموعة، ص ٦٢.
٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٣٢٣ ؛ وينظر أيضاً : الحجي، أندلسيات، ٤٢/٢.
٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ،٢ / ٣٢٣
٤) مجهول، أخبار مجموعة، ص ٦٢ ؛ العلياوي، البشكنس، ص ٤٩.
٥) أخبار مجموعة، ص ٦٢.
٦) ينظر التفاصيل عن محاولات فتح مدينة أستورقة طيلة المدة من القرن الثاني الهجري حتى نهاية القرن الرابع الهجري : الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(١) ص ١٩٠ -١٩٧

مدينة جرندة Gerona الأندلسية
(٩٤ -١٦٩ هـ/ ٧١٢ -٧٨٥ م)

ورد اسم المدينة في المصادر التاريخية باسم جرندة[١] ، وفي المراجع الحديثة أطلق عليها اسم جيرونة أو جيروندة[٢] وخيرونة[٣] ، وهي مدينة قديمة[٤] ، وهذه اللفظة تدل على أنها كانت موجودة قبل الإسلام[٥] ، إذ يرجع بناؤها إلى عهد الرومان ، وكان اسمها الروماني القديم جيرندة ، وبعد أن فتحها المسلمون سميت باسم جيرونة[٦].

تقع مدينة جرندة في أقصى الشمال الشرقي من شبة الجزيرة الأيبيرية Iberia قريبة من حدود بلاد غالة وتحد مدينة برشلونةBarcelona[٧] من الشمال الشرقي[٨] إذ تبعد عنها مسافة١٠٠ كيلو متر[٩] ، وتحدها من الشمال فرنسا ، ومن الشمال الغربي لاردةLerida ، ومن الشرق البحر المتوسط[١٠] ، وهي إحدى مقاطعات إقليم قطلونية Cataluna الأربعة ، إذ تبلغ

١) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٣٢ -٢٦٧ هـ / ٨٤٦ -٨٨٠ م)، ص ٣ ؛ البكري، المسالك والممالك، ٨٩٢/٢ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٨٣/٢ -٥٨٤، ٧٣٥.

٢) أرسلان، الحلل السندسية، ٢٧٢/٢، ٢٨٢ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص ٤٥ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٩٨ ؛ البهادلي، قطلونية، ص ٢٧.

٣) حتاملة، أيبيريا، ص ٦٥.

٤) أرسلان، الحلل السندسية، ٢٠٤/٢.

٥) سمى الجغرافيون العرب المدينة التي كانت موجودة قبل الإسلام بالقديمة أو الأزلية، أما التي أنشأها المسلمون بالمحدثة.

٦) أرسلان، الحلل السندسية، ٢٠٤/٢، ٢٨٠.

٧) تقع مدينة برشلونة في الشمال الشرقي للأندلس على البحر المتوسط، ينظر : الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٣٤/٢ ؛ مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٣١.

٨) البهادلي، قطلونية، ص ٢٧ .

٩) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٣٢ -٢٦٧ هـ / ٨٤٦ -٨٨٠ م)، تعليقات المحقق، هامش ١٦، ص ٤١٥

١٠) ويكيبيديا، مادة جرندة، على الموقع الالكتروني ar.wikipedia.org.

مساحتها٥٨٦٥ كيلو متر مربع[١] ، وشريطها الساحلي على البحر المتوسط يدعى ساحل برافا Brava[٢] ، أضف إلى ذلك فأن ممر برت جاقة Jaca الذي يعد من أهم الطرق البرية التي تربط الأندلس بأوربا يمتد من مدينة برشلونة إلى جرندة إلى أربونة Narbonne وهو بذلك عدّ من أكبر الممرات وأقدمها[٣].

أما فتحها فكان بعد الفتح الإسلامي لمدينة سرقسطة سنة٩٤هـ/٧١٢م[٤] من قبل القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد ، إذ توجه القائدان نحو مدن إقليم قطلونية(كتلونية) وهي طرطوشة وبرشلونة وجرندة ، وقد فتحت هذه المدن مباشرة بعد فتح مدينة سرقسطة أي في السنة نفسها[٥].

ظهرت أهمية مدن قطلونية الساحلية ولاسيما برشلونة وجرندة منذ عهد الولاة (٩٥-١٣٨هـ/٧١٣-٧٥٥م) إذ كانت قواعد متقدمة للجيوش الإسلامية المتجه إلى بلاد الغال ، ففي عهد الوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير(٩٥-٩٧ هـ/٧١٣-٧١٥ م) ذكرت بعض المصادر إلى أنه عند ولايته الأندلس فضبطها ، وسدد أمورها ، وحمى ثغورها ، وافتتح في إمارته مدائن كثيرة[٦].

ويرجح السيد عبدالعزيز سالم إلى أن فتوحات عبدالعزيز بن موسى امتدت إلى مدينة أربونة ، وأن مدينتي برشلونة وجرندة فتحت من قبل عبدالعزيز بين سنتي(٩٥ ، ٩٧هـ/٧١٣ ، ٧١٥م) ، ويستند في ذلك على ما ذُكر من أن كلاً النعمان بن عبدالله الحضرمي ومحمد بن حبيب المعافري اللذين ذكرها ابن الفرضي عادا إلى دمشق من الأندلس وقابلا الخليفة سليمان بن عبدالملك فقضا حوائجهما ، ثم سأله النعمان أن

---

١) أرسلان، الحلل السندسية، ٢٥٥/٢ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن أقاليم قطلونية الأخرى ينظر : السامرائي، الثغر الأعلى الأندلس، ص ٥٦ -٥٧.

٢) حتاملة، أيبيريا، ص ٦٢ ؛ ويكيبيديا، مادة جرندة، على الموقع الالكتروني ar.wikipedia.org

٣) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٩٨.

٤) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٢/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧٣/١ -٢٧٤.

٥) مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧٣/١ -٢٧٤ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص ٧٦.

٦) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٥٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٤/٢ ؛ النويري، نهاية الأرب، ٥٥/٢٤

يرده إلى الأندلس فخرج وقتله الروم هناك ، ويضيف السيد عبد العزيز سالم إلى أن النعمان بن عبد الله حارب في أقصى شمال أسبانيا بعد أذن له الخليفة بالعودة والجهاد ، ولا بد أن يكون ذلك في عهد عبد العزيز بن موسى[١] ، كما أشار بعض الباحثين إلى أن عبد العزيز بن موسى وصلت فتوحاته معظم الساحل الشرقي الأندلسي حتى شملت الساحل بين برشلونة وأربونة[٢].

إلا أن اشتعال نار الفتنة بالأندلس في أواخر عهد الولاة بين العرب أنفسهم من القيسية واليمانية ، ثم بين العرب والبربر[٣] قد أشغل المسلمين عن حماية ثغورهم وهو ما شجع الملك الأفرنجي ببين بن مارتل(١٢٤-١٥١هـ/٧٤١-٧٦٨م) على الاستيلاء على أربونة وطرد المسلمين منها سنة١٣٣هـ/٧٥٠م[٤] ، وذهبت رواية أخرى إلى أن الأفرنجة لم يتمكنوا من افتتاحها إلا بعد حصار لها دام أربعة سنوات في حوالي سنة١٤١هـ/٧٥٨م أو ١٤٢هـ/٧٥٩م[٥] ، وبسقوط أربونة انتقل خط المواجهة الأول مع الأفرنجة إلى مدينة جرندة.

عقب سقوط مدينة أربونة شهدت الساحة السياسية والعسكرية لكل من دولتي الأفرنجة[٦] والإسلامية في قرطبة Cordoba[٧] ظروف صعبة ربما أشغلتهم بعض الوقت عن أحداث الثغر الأعلى ، واكتنفت الغموض أحداث مدينة جرندة خلال العقدين الرابع والخامس من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، وقد طالعتنا المصادر بالقول إنه في حدود سنة١٥٧ هـ/٧٧٣ م كان الوالي على كل من برشلونة وجرندة هو سليمان بن يقظان

---

١) تاريخ المسلمين، ص ١١١ -١١٢.

٢) محمود، المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالافرنجة، ص ٩ ؛ البهادلي، قطلونية، ص ٥٩.

٣) ينظر التفاصيل عن الفتنة بين القيسية واليمانية ثم مع البربر : مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٧٧ -٢٩٩ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٧١ -٨٠ ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ١٥٣ -١٦٧.

٤) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٣٤٢ ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٥٠.

٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٣٧/١ ؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٩٠ -٢٩١.

٦) انشغل شارلمان ملك الأفرنجة آنذاك بالحرب مع كل من اللومبارد في ايطاليا والسكسون في ألمانيا، ينظر : إينهارد، سيرة شارلمان، ص ٦٠ -٧٣.

٧) انشغل المسلمون في الأندلس في نهاية عصر الإمارة بأحداث الحرب الأهلية بين القيسية واليمانية ثم دخول عبد الرحمن بن معاوية وصراعه مع اليمانية، كما انخرط ولاة الثغر في ذلك الصراع، ينظر: سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٥٣ -١٩٦.

الكلبي الملقب بالأعرابي[1] ، ويفهم من رواية العذري أن سليمان الأعرابي كان في قرطبة ثم غادرها وهو يعتزم الثورة على عبد الرحمن الداخل بسبب موقفه من اليمانية ، ولما كان مقتل زعيم اليمانية أبو الصباح يحيى اليحصبي سنة١٤٩ هـ/٧٦٦م[2] ، لذا فالراجح أن هروب سليمان الأعرابي إلى الثغر كان بعد هذا التاريخ ، وبسبب اضطراب الأوضاع هناك وانشغال عبد الرحمن الداخل(١٣٨-١٧٢ هـ/٧٥٥-٧٨٨م) بالقضاء على المناوئين له في الجنوب ، لذا استغل الفرصة وتمكن بمساعدة الحسين بن يحيى الأنصاري وقومهما اليمانية من السيطرة على الثغر الأعلى ، ثم اقتسما النفوذ هناك ، فكانت مدينتي برشلونة وجرندة المحاذيتين لبلاد الأفرنجة من حصة سليمان الأعرابي ، فيما تولى الحسين الأنصاري سرقسطة وتحالفا على مقاتلة عبد الرحمن الداخل وخلعه[3].

من جانبه أرسل الأمير عبد الرحمن الداخل في سنة١٥٨ هـ/٧٧٤م قوة عسكرية لمحاربتهم بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي ، إلا أن والي جرندة وبرشلونة سليمان الأعرابي تمكن من هزيمتهم وأسر قائد الحملة ثعلبة[4].

ويبدو أن خطورة الموقف العسكري على الأعرابي والأنصاري وإدراكهم عدم قدرتهم على مواجهة الأمير عبدالرحمن الداخل ، هذا الأمر دفعهم أن يستنجدوا بملك الأفرنجة شارلمان(١٥١-١٩٩ هـ/٧٦٨-٨١٤ م) ، وقد وجدت دعوتهم استجابة من قبل شارلمان لأنه كان يسعى إلى مد سلطته إلى الأندلس أو على الأقل على القسم الشمالي منها ، وذلك لضعف سلطة المسلمين فيها بوجود النصارى الأسبان أولاً ، ثم وجود حاكم مدينة جرندة وبرشلونة سليمان الأعرابي وحاكم مدينة سرقسطة الحسين الأنصاري المتمردين على الحكم الإسلامي[5].

١) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٣ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٥٨/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٦٨/١.

٢) مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص ١٠٠ -١٠١ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٩٨

٣) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٢٥، ٢٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٦٨/١.

٤) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١١٢ -١١٣ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٨ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٢٩/٤.

٥) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٢٢ -١١٣ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٠٨.

وتشير الرواية اللاتينية إلى لقاء شارلمان مع نفر من أصحابه في ربيع سنة٧٧٦م الموافق ١٦٠ هـ وكان شارلمان آنذاك يقيم في بلاطه في مدينة بادربون في شمال غرب ألمانيا وهناك عرض عليه المحالفة ، واقترح عليه تسليم الولايات الأندلسية الشمالية والانضواء تحت حكمه ، فضلاً عن تسليمه القائد ثعلبة بن عبيد[١].

وتشير المصادر العربية إلى أن سليمان الأعرابي استدعى شارلمان ووعده بتسليم جرندة وبرشلونة وسرقسطة وكذلك ثعلبة بن عبيد الجذامي[٢] ، وفعلاً تم تسليم ثعلبة قائد الأمير عبد الرحمن الداخل قبل حملة شارلمان مما شجعه على غزو الأندلس[٣].

وعلى إثر ذلك أعد شارلمان جيشاً كبيراً في سنة١٦٢هـ/٧٧٨م تألف من أطياف مختلفة من البافاريين واللومبارديين والأستراسيين والبرجنديين وأهل سبتمانيا[٤] ، وسارت القوات باتجاهين ، الأول كان بقيادة دوق برنهارد[٥] الذي وصل إلى الأندلس عن طريق سبتمانيا قاصداً جرندة وبرشلونة ، أما القسم الثاني فكان بقيادة شارلمان نفسه الذي سلك ممرات جبلية ضيقة ووعرة عبر طريق رونسنفالة[٦] Roncevlles[٧].

وبعد ذلك توجه شارلمان إلى مدينة سرقسطة بعد ضمان حسن نوايا المتحالفين معه المتمثلين بالأعرابي والأنصاري ، وكان المتحكم الفعلي في شؤون سرقسطة الحسين الأنصاري ، إلا أنه بدل من التعاون مع شارلمان قام بإغلاق أبواب المدينة بوجهه واعتصم

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٦٩/١ ؛ البهادلي، قطلونية، ص ٧١.

٢) مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص ١٠٥ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٨ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٢٩/٤.

٣) سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٠٢.

٤) طرخان، المسلمون في أوربا، ص ١٧٤.

٥) دوق برنهارد أو أجنهارد EgginHard : ورد ذكره في المصادر باسم السنجال وهي ترجمة للكلمة الفرنسية Seneschal وأصلها اللاتيني Serescallus، ومعناها النائب أو الكامل أو الكفيل، وقد انتهى أمرهم مقتولاً في هذه الواقعة، ينظر : البهادلي، قطلونية، ص ٧٦.

٦) ويطلق عليه أيضاً ممر الشزري أو ممر رونسفال ويمر فيه الطريق من مدينة بنبلونة إلى بلاد الأفرنجة، ويعد نقطة الاتصال بين الأندلس وبلاد الأفرنجة، وهو من الأبواب الرومانية القديمة في جبال البرت، ويبلغ طوله في عرض الجبل ٣٥ ميلاً، ولا يمكن لأحد أن يدخله إلا بصعوبة لضيق مسلكه، ينظر : أرسلان، الحلل السندسية، ٦٠/١

٧) طرخان، المسلمون في أوربا، ص ١٧٥ ؛ الحايك، عبد الرحمن الداخل، ص ١٤٦ ؛ محمود، المسلمون بالأندلس وعلاقتهم بالافرنجة، ص ١٧٩.

بداخلها ، وبذلك أخفق شارلمان في الاستيلاء عليها[1].

وعلى إثر ذلك اضطر شارلمان إلى الانسحاب من الأندلس بعد أن استعصت عليه سرقسطة ، فضلاً عن تجدد ثورات السكسون ضد حكمه في بلاد الأفرنجة[2] ، فعاد إلى بلاده مصطحباً معه والي مدينة جرندة وبرشلونة سليمان بن يقظان الأعرابي كأسير حرب محملاً إياه سبب إخفاقه ومتهماً له بأنه ضالعاً ومتورطاً في مؤامرة حيكت ضده بالاتفاق مع الأنصاري[3].

ومن أجل إنقاذ والي مدينة جرندة وبرشلونة من الأسر تحالف أبناؤه مطروح وعيشون مع حاكم سرقسطة الحسين الأنصاري وجمعا قواتهما[4] ، وانضمت إليهم قوات من البشكنس Vasconia بعد أن دمر شارلمان مدينتهم بنبلونة Pamplona أثناء هذه الحملة ، لذلك كانوا عازمين على الثأر لما أصابهم من خراب على يديه[5] ، وفعلاً نجح المتحالفون في القضاء على مؤخرة جيش شارلمان وتمكنوا من السيطرة على عدد كبير من الغنائم وأنقذوا الرهائن والأسرى وعلى رأسهم حاكم مدينة جرندة وبرشلونة سليمان الأعرابي[6].

أما مصير الحملة الأخرى التي أرسلها شارلمان بقيادة دوق برنهارد التي اتجهت نحو جرندة وبرشلونة فلم تشر المصادر العربية القديمة إليها ، ويبدو أنها لاقت هي الأخرى مقاومة عنيفة من قبل القوات الإسلامية المتواجدة في جرندة ، فقد أشار طرخان إلى أن الدوق برنهارد قتل في المواجهات في تلك الجبهة[7] ، لذا فبعد فك أسر سليمان الأعرابي رجع إلى عمله في مدينة برشلونة[8].

بعد هذه الأحداث لم يستمر سليمان الأعرابي طويلاً في حكم برشلونة وجرندة ، إذ سرعان ما أحيكت مؤامرة ضده بين الحسين الأنصاري والأمير عبدالرحمن الداخل ،

---

١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٠٣ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٨

٢) عاشور، أوربا في العصور الوسطى، ٢٠٢/١ ؛ دوزي، تاريخ مسلمي الأندلس، ص ٢٣٠.

٣) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٣ ؛ الشيخ، دولة الأفرنجة، ص ١٤٧ -١٤٨.

٤) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٣.

٥) أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ١٢٢ ؛ الصوفي، تاريخ العرب في أسبانيا، ص ١٥ -١٦.

٦) عنان، دولة الإسلام في الأندلس ١/ ١٧٧ -١٧٨ ؛ العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٠٨

٧) المسلمون في أوربا، ص ١٨٧ ؛ وينظر أيضاً : البهادلي، قطلونية، ص ٧٦.

٨) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٥.

فاتفق الداخل مع الأنصاري أن يوليه حكم مدينة سرقسطة إن قتل سليمان الأعرابي ففعل ذلك ، إذ هيأ رجلاً من أعوانه وتمكن من اغتيال الأعرابي في مسجد سرقسطة سنة ١٦٤هـ/٧٨٠م[١].

وبعد مقتل سليمان الأعرابي هرب أولاده مطروح وعيشون إلى مدينتي برشلونة وجرندة[٢] ، والراجح أن الأمير عبد الداخل أقرّ عيشون بن سليمان الأعرابي عليها ، فقد أشار العذري إلى أن عيشون الأعرابي كان بجرندة محارباً للأفرنجة ، وفي إحدى المواجهات تمكن الأفرنجة من أسر عيشون ، واقتادوه إلى ملكهم(قارلة) ، وكان لعيشون غلام اسمه عمروس يخدمه ويأتيه بما يحتاجه من جرندة ووقع في الأسر معه ثم ساعده على الهروب[٣]

ويتضح من رواية العذري أن عيشون الأعرابي كان قد دخل في طاعة الأمير عبد الرحمن الداخل وأخذ يقاتل الأفرنجة ثم أسر ، وبعد هروبه رجع إلى جرندة وتولى الحكم فيها ، وبقي كذلك حتى أتاه غلامه عمروس بعد أن أطلق قارلة سراحه ، ووفاء منه لغلامه أسند إليه حكم برشلونة وجرندة مع أخيه مطروح فيما تسلل هو إلى سرقسطة وذلك للانتقام من الحسين الأعرابي قاتل أبيه[٤] ، وفعلاً فقد تمكن عيشون من التسلل إلى سرقسطة خلال وجود الأمير عبد الرحمن الداخل فيها ، وتمكن من قتل قاتل أبيه إلا أن الأمير الداخل قتله بعد أن ارتاب منه[٥].

أما مطروح بن سليمان الأعرابي فقد استقر في مدينة جرندة ، إلا أنه لم يدم فيها طويلاً ، فأشار العذري إلى أن الأمير عبد الرحمن الداخل عمل على عزل عمال الثغر ، وهو ما دفع مطروح وعمروس إلى ترك جرندة والزحف نحو سرقسطة للاستيلاء عليها ، مما ولد فراغاً مكن الأفرنجة من سده إذ دخلوا جرندة واستولوا عليها[٦] سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م[٧] ،

---

١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١١٤ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ٢٦.
٢) النويري، نهاية الأرب، ٦٩/٢٢.
٣) ترصيع الأخبار، ص ٢٨ -٢٩.
٤) ترصيع الأخبار، ص ٢٨ -٢٩.
٥) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١١٤ -١١٥.
٦) ترصيع الأخبار، ص ٢٩.
٧) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١/ ٢٢٣.

فيما أشار البعض إلى أن انسحاب مطروح بن سليمان الأعرابي دفع أهالي جرندة إلى استدعاء الأفرنجة لدخولها وسلموها إليهم[1] وعين لويس بن شارلمان(١٩٩-٢٢٦هـ/ ٨١٤-٨٤٠م) حاكماً عليها[2] ، وهكذا سقطت جرندة بعد أن حكمها المسلمون مدة ٧٥ سنة.

وبذلك أصبحت جرندة ولاية إفرنجية في أقصى الشمال الشرقي من الأندلس مما يلي جبال البرت ، وأصبحت سداً بين المسلمين وبلاد الأفرنجة وسميت بالثغر الغوطي ويتألف من جرندة وسولسونة Solsona وأزونة[3].

---

١) سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٠٤ ؛ البهادلي، قطلونية، ص ٨٢.

٢) سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٠٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٧/١

٣) السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص ٢٤١.

مدينة برشلونة Barcelona الأندلسية

(٩٤ -١٨٥ هـ / ٧١٢ -٨٠١م)

ورد اسم المدينة في المصادر التاريخية بألفاظ مختلفة بعض الشيء ، فجاءت بلفظ (برشلونة ، وبرشنونة ، وبرجلونة) والنسبة إليها برجلوني[١] ، وهي مدينة قديمة[٢] ، إذ يرجع بناؤها إلى عهد القرطاجيين الذين تمكنوا من فرض سيطرتهم على إقليم قطلونية(كتلونية) Catalogne في القرن الثالث قبل الميلاد ، وفيه تمكن القائد القرطاجني أسدروبال برقة Adrubal Berca[٣] من بناء مدينة برشلونة ، التي كان اسمها في القديم بارسينو Bercino أو برسلونة[٤] ، وقد أقيم بناؤها على موقع مدينة فينيقية قديمة[٥] ، وتعد مدينة برشلونة قاعدة إقليم كتلونية ، وحدود كتلونية جبال البرت Pirineo من الشمال ، وبلاد أراغون Arago من الغرب ، وولاية بلنسية Valencia من الجنوب ، والبحر المتوسط من الشرق[٦].

تقع مدينة برشلونة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia على البحر المتوسط[٧] ، وصنفت ضمن إقليم البرتات(البرت) والذي يضم مدينة طرطوشة Tortosa وطركونة وبرشلونة ، وهو أحد الأقاليم الجغرافية الأربعة التي تتكون منها منطقة الثغر الأعلى الأندلسي[٨].

---

١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٩٤ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٧ ؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٦٣، ١٠٠، ١١٠، ١٦٢ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٦ ؛ مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٤٥.

٢) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٧.

٣) عرف هذا القائد باسم آخر وهو أميلكار باركا Hamilca Barca، ينظر : لودر، اسبانيا شعبها وأرضها، ص ١٩٠.

٤) أرسلان، الحلل السندسية، ٢٠٠/٢ -٢٠١ ؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص ٧ ؛ وقيل إنه ليس لمدينة برسينو صلة باسم القائد هملكار، وإنما هي مدينة ليتاني Laeetani القديمة، التي حلت على التدريج محل مدينة تراكو أي طركونة الواقعة إلى الجنوب الغربي منها، البهادلي، قطلونيا دراسة في أحوالها العامة، ص ٢٢ ؛ دائرة المعارف الإسلامية، ٥٤٣/١(مادة برشلونة).

٥) لودر، أسبانيا شعبها وأرضها، ص ١٩٠.

٦) أرسلان، الحلل السندسية، ١٩٩/٢ ؛ البهادلي، قطلونيا دراسة في أحوالها العامة، ص ١٩.

٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٣٤/٢ ؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٥٤٥ ؛ مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٣١.

٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢.

وقد تحدث عنها الزهري عن موقعها البحري بقوله :(وكذلك على ساحل هذا البحر من بلاد الإفرنج مدينة برشلونة ، وهي مما استفتح المسلمون في أول فتح الأندلس ، وهي مدينة لا بالصغيرة ولا بالكبيرة ، وهي في الحوز الذي يحيط به جبل أطريجرش[1] ، وهذا الجبل يفصل بين بلاد الأندلس وبلاد الإفرنج)[2]..

أما فتحها ففي بداية سنة٩٤هـ/٧١٢م سار القائدان موسى بن نصير وطارق بن زياد نحو مدينة سرقسطة وتمكنا من فتحها[3] ، بعدها اتجه القائدان نحو مدن إقليم كتلونية طرطوشة وطركونة وبرشلونة وجيرونة حيث تم فتحها مباشرة بعد فتح مدينة سرقسطة Saragosa[4] ، ومما يؤيد ذلك ما ذكرته بعض المصادر بأن جيوش موسى وبعوث طارق وصلت إلى المناطق الشمالية الشرقية من الأندلس لاسيما مدينة برشلونة[5] ، وهذا يدل على أن مدن إقليم كتلونية فتحت مباشرة بعد فتح مدينة سرقسطة وقبل أن تتجه القوات الإسلامية إلى الشمال الغربي من الأندلس[6]

وقد وصف لنا ابن خلدون فتح المسلمين لمدينة برشلونة والمناطق الأخرى بقوله: (...وأثخنوا في أمم الكفر وافتتحوا برشلونة من جهة الشرق ، وحصون قشتالة وبسائطها من جهة الجوف[7] ، وانقرضت أمم القوط وارزا الجلالقة ومن بقى من أمم العجم إلى جبال قشتالة وقرمونة وأفواه الدروب فتحصنوا بها ، وأجازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلوا بسائط وراءها...)[8].

---

١) يقصد به جبال البرت، ينظر : المياح، أوربا في كتب البلدانيين العرب المسلمين، ٩٣/١.
٢) كتاب الجغرافية، ص ٧٧.
٣) مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب ،١٢/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧٣/١ - ٢٧٤ ؛ الغنيمي، كيف ضاع الإسلام من الأندلس، ص ٨٤.
٤) مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧١/١ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص ٧٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس ٥٢/١ ؛ طه، دراسات أندلسية، ص ٢٠ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٩١ -٩٢.
٥) ابن خلدون، العبر، ١٢٢/٤ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧٣/١ -٢٧٤.
٦) الزهري، كتاب الجغرافية، ص ٢١٠ -٢١١ ؛ البهادلي، قطلونيا دراسة في أحوالها العامة، ص، ٥٤
٧) الجوف المقصود به غرب الأندلس : ينظر : ياقوت الحموي، الأندلس من معجم البلدان، ص ١١٥ - ١١٦ ؛ ويقصد به أيضاً الشمال، أرسلان، الحلل السندسية، ٥٨/١ -٥٩.
٨) العبر، ١٢٣/٤.

وخلال عهد الولاة(٩٥-١٣٨ هـ/٧١٣-٧٥٥م) تحولت برشلونة إلى قاعدة عسكرية مهمة للقوات الإسلامية للانطلاق منها تجاه بلاد الغال Gaulia(الجنوب الفرنسي) إذ تجتمع فيها القوات الإسلامية الوافدة من مختلف أنحاء الأندلس ، ومنها تسير إلى أربونة ، التي تعد القاعدة المتقدمة لفتح مناطق بلاد الغال[١].

إن من أوائل الأحداث المهمة التي تعرضت لها برشلونة منذ دخول المسلمين إليها هي محاولة الإفرنجة السيطرة عليها ، إذ طمع شارلمان في الاستيلاء على ثغر برشلونة الحصين ليحمي أملاك الإفرنجة جنوب البرت ، ويكون حلقة اتصال بحري بين هذه المدينة من جهة ومملكة الإفرنجة من جهة أخرى ، وقد أمدت الثورات والاضطرابات المندلعة في شمال الأندلس وما آلت إليه المنطقة من فتن شارلمان بفرصة جديدة لمد نفوذه وتوسيع نطاق أملاكه إلى الشمال الشرقي للأندلس[٢] ، أضف إلى ذلك أن شارلمان ربما أراد الثأر لخسارته وقتل العديد من قادته عندما فشل في السيطرة على سرقسطة[٣] ، ومنها أيضاً التجاء عبد البلنسي عمّ الأمير الحكم(١٨٠-٢٠٦ هـ/٧٩٦-٨٢١م) إلى شارلمان مستنجداً به ، وقد أشار إلى ذلك ابن حيان قائلاً: (...ومضى عبدالله بن الأمير عبدالرحمن على وجهه فاراً ، حتى انتهى إلى قارله ملك الفرنج ومعه ولده عبدالله وعبيدالعزيز. فغلغل يبغي العز كل مغلغل)[٤] ، وقد لبى شارلمان دعوته[٥].

لذلك أرسل شارلمان في سنة١٨٥هـ/٨٠١م ابنه لويس المعروف بالتقي حاكم أكيتانية بالجيش اللإفرنجي إلى برشلونة ، وقد قسم لويس جيشه إلى ثلاث فرق ، الأولى تحاصر مدينة برشلونة ومن ثم الهجوم عليها ، والثانية برئاسة جيوم كونت طولوشة ، ومقرها بين مدينتي لاردة وطركونة لمنع المسلمين من إنقاذ مدينتهم ، وقطع الاتصالات عنها ، والثالثة

---

١) الدرويش والعلياوي، برشلونة بين الإسلام والنصرانية، ص ٥٠ -٥٤.

٢) ابن خلدون، العبر، ١٣١/٤ ؛ الشيخ، دولة الإفرنجة، ص ١٦٩.

٣) ينظر التفاصيل عن تحالف شارلمان مع سليمان الأعرابي والحسين الأنصاري وفشله في دخول سرقسطة : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٠٣ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٣ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٢٩/٤

٤) المقتبس(الحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/ ٧٩٦ -٨٤٦ م) ص ٩٧ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٩/٢.

٥) الشيخ، دولة الإفرنجة، ص ١٦٣.

بقيادة لويس نفسه ، وكان مقرها في أعالي جبال البرت ليتمكن من مهاجمة القوات الإسلامية عندما تسنح له الفرصة المناسبة[1].

وبالنسبة لبرشلونة فقد كان لخروج واليها مطروح بن سليمان الأعرابي منها إلى سرقسطة ثم مقتله آثار سيئة عليها ، إذ أحدث خروجه فراغاً عسكرياً مكن الإفرنجة استثماره والاستيلاء على المدينة ، وقد أشار إلى ذلك العذري بقوله: كان مطروح ببرشلونة فلما عزله الإمام هشام عنها خمل ذكرها وخرج مطروح إلى سرقسطة ودخل معه عمروس وشبريط ، فنعد ذلك تمكن العدو من برشلونة وجرندة[2].

وعن كيفية اقتحامها فقد أخذ الجيش الإفرنجي المحاصر لها بالضغط في أعمال الحصار ، فقسم ينصب السلالم لتسلق أسوار وأبراج المدينة ، وقسم مهمته هدم الأسوار ، وقسم وكل إليه جلب الميرة والعدة[3] ، وقد قاومت برشلونة الحصار ما يقارب سبعة أشهر ، وكان عاملها سعدون الرعيني في موقف حرج ، وأرسل صريخه يطلب المدد ، ولكن لم يصله شيء بسبب إحكام الإفرنجة الحصار ، فضلاً عن أن عمال الثغر كانوا يضمرون الخروج على السلطة ويودون اضطراب الأمور[4] ، مما اضطره إلى مغادرة المدينة تحت جنح الظلام للذهاب إلى قرطبة Cordoba لغرض طلب العون والمساعدة بنفسه ، إلا أنه أكتشف أمره وتم أسره[5].

لم تستطع مدينة برشلونة مقاومة الحصار ، فاضطرت إلى التسليم ، بعد أن هدمت أسوارها وقتل أعداداً كبيرة من أهلها ، وغنموا الكثير من الأسلحة والخيول ، فأرسل لويس جزءاً من الغنائم إلى والده شارلمان ، وبذلك فقدت منطقة الثغر الأعلى هذه المدينة ، وكان فقدان المسلمين لها خسارة كبيرة ، لأنهم فقدوا مركزاً عسكرياً مهماً في الثغر الأعلى ، إذ حوله الإفرنجة مقراً لقواتهم العسكرية ، والتي صارت تشن هجماتها

---

١) أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ١٣١ -١٣٢ ؛ محمود، المسلمون في الأندلس، ص ١٦٩.
٢) ترصيع الأخبار، ص ٢٩.
٣) أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ١٣٢ ؛ الحلل السندسية، ٢/٢١١.
٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١/ ٢٣٥ ؛ البهادلي، قطالونيا، ص ٩٣.
٥) أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ١٣٢ ؛ الشيخ، دولة الإفرنجة، ص ١٧١ ؛ الصوفي، تاريخ العرب في أسبانيا، ص ٢٨ ؛ العلياوي، البشكنس، ص ٨٧ -٨٨.

على مناطق الثغر الأعلى الأخرى ومنها مدينتي طرطوشة وطركونة[1] ، وهكذا سقطت المدينة بعد أن حكمها المسلمين مدة ٩١ سنة.

وقد علق ابن حيان على هذه الأحداث بقوله: (فيها غلب العدو من الفرنجة— قصمهم الله—على مدينة برشلونة ، قاصية ثغر المسلمين الشرقي مما يليهم ، انتهز فيها الفرصة أيام اضطراب أهل الثغر الأعلى على الأمير الحكم ، وانشتغاله عنهم بحرب عمّيه ، سليمان وعبد الله ابني الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، فأصاب العدو غرّته من المسلمين ، وفلّ ثغرهم هذا ، فحازه إليه ، ونقل رابطته إليه ، وقهر برابطة المسلمين إلى ما دون برشلونة ، وأناخ عليها بكلكله ، وحصرها بجمعه ، وأميرها يومئذ سعدون الرّعينيّ ، لم يمده أحد من المسلمين ، فملكها العدو عليهم ، وانتقلت إليها يومئذ رابطة الفرنجة عن مدينة جرندة ، فعظمت بذلك على أهل الإسلام الحسرة)[2].

أما ابن الأثير فقد تحدث عن ذلك بقوله: (وفيها ملك الفرنج ، لعنهم الله ، مدينة برشلونة بالأندلس ، وأخذوها من المسلمين ، ونقلوا حماة ثغورهم إليها وتأخر المسلمون إلى ورائهم ، وكان سبب ملكهم إياها اشتغال الحكم صاحب الأندلس بمحاربة عمّيه عبد الله وسليمان)[3].

وقد أشار أحد الباحثين إلى خطورة سقوط المدينة بقوله : وترتب على فقدان المسلمين لثغر برشلونة أن تقهقرت حدودهم إلى مدن الثغر الأعلى وفقدوا أهم نقاط ارتكازهم في هذه الجهات ، وقواعد انطلاقهم إلى ما وراء جبال البرت حيث الأراضي الإفرنجية[4].

وبعد سقوط مدينة برشلونة تمكن شارلمان من ضمان حماية حدوده الجنوبية براً ، من خلال إقامة منطقة إدارية مع المسلمين في الأندلس ، عرفت باسم ماركية أسبانيا March of Spain أو الأطراف الاسبانية لمملكة الإفرنجة ، وشحنها بقوة عسكرية للدفاع عنها ، وهي أشبه ما يعرف بحرس الحدود ، وكانت هذه الماركية تتكون من المدن(جيرونة وأورجل وأوزونه وجزر البليار ثم برشلونة)[5].

---

١) أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ١٣٢ ؛ العمايرة، مرحل سقوط الثغور الأندلسية، ص ٥١ -٥٢ ؛ المياحي والعلياوي، الموقف الشعبي من هجمات النصارى على الأندلس، ص ١٤٣ -١٤٤.

٢) المقتبس(الحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/ ٧٩٦ -٨٤٦ م) ص ١١٦ -١١٧

٣) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٣٢ -١٣٣.

٤) الغنيمي، كيف ضاع الإسلام من الأندلس، ص ١٨٣.

٥) عاشور، أوربا في العصور الوسطى، ص ٢٠١ -٢٠٤ ؛ السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٣٢

مدينة سمّورة Zamora الأندلسية

(٩٥ -٣٩٥ هـ / ٧١٣ -١٠٠٤ م)

ورد اسم المدينة في المصادر العربية بألفاظ مختلفة بعض الشيء ، فجاءت بلفظة (سمّورة أو سمرة أو صمورة)[١] ، وقد وصفها الحميري بقوله(وسمّورة مدينة جليلة ، قاعدة من قواعد الروم ، وعليها سبعة أسوار من عجيب البنيان ، وقد أحمته الملوك السالفة ، وبين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة وسمّورة مدينة محدثة)[٢].

تقع سمورة في الضفة الشمالية من نهر دويرة(Duero) ، في شمال شرقي البرتغال ، بينها وبين البحر ستون ميلا[٣] ، والى الشمال منها بانحراف إلى الشرق تقع مدينة ليون[٤] ، أن المسافة بينهما مائة ميل[٥] ، وكذلك تبعد عن مدينة الكامبو(Medina delcompo) التابعة لمقاطعة بسقاية(بسكاية Vizcaya) حوالي ٩٠ كم وتفصل بينهما بلد(نفدو) التي تقع أعالي الوادي الجوفي[٦] ، وقد عدّ الإدريسي مدينة سمّورة من ضمن بلاد البرتغال بقوله(فأما بلاد برتقال فمنها مدينة قلمرية ومنت ميور ونجاو وسرتان وشلمنقة وسمّورة وآبلة)[٧].

كانت مدينة سمّورة قبل الفتح الإسلامي لشبه جزيرة أيبيريا تحت السيطرة القوطية ومن قواعدهم المهمة ، وتمّ فتحها من قبل المسلمين أثناء فتح المدن الشمالية لشبه الجزيرة[٨] ، إلا أن المصادر لم تحدد سنة فتحها ، وربما راجع ذلك إلى الفتوحات السريعة والمتواصلة عند

---

١) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٧٧، ٧٩، ٨٠ ؛ البكري، المسالك والممالك، ٣٤١/١ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٤٨ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٢٤ ؛

٢) الروض المعطار، ص ٣٢٤.

٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٢٤.

٤) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٨٥ .

٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/ ٧٣١.

٦) أرسلان، الحلل السندسية، ٧٣١/٢.

٧) نزهة المشتاق، ٧٢٥/٢.

٨) عنان، الآثار الأندلسية، ٣٥٢.

عملية الفتح للمناطق الشمالية ، أضف إلى ذلك هو عدم معرفة المسلمين بأغلب أسماء المدن الشمالية باعتبارها بلاد أجنبية غريبة مما يصعب عليهم في بعض الأحيان ذكر أسماء المناطق التي فتحت ، والراجح أن سمّورة ومنطقتها وقعت تحت نفوذ المسلمين في عهد موسى وطارق إذ تشير إحدى الروايات أن موسى بن نصير عندما توجه إلى جليقية لاطف (مغيثا رسول الخليفة وسأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه في الدخول إليها والمسير معه في البلاد أياما ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك فأقام هناك وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي على البحر الأخضر)[١] ، وقد رجح الحجي أن حصن بارو يقع في منطقة بلد الوليد[٢] القريبة من سمّورة ، كما أن حصن لك يقع إلى الشمال منها[٣] ، ومن جانب آخر تشير رواية إلى أن طارق بن زياد بلغ مدينة أسترقة[٤] التي تقع إلى الشمال من سمّورة مباشرة وبمقدار مرحلة[٥] ، ولذلك نرجح فتح مدينة سمّورة كان أيام موسى وطارق وقبل مغادرتهما الأندلس سنة٩٥هـ/٧١٣م.

كان السقوط الأول لمدينة سمورة في عهد الفونسو الأول الملقب بالكاثوليكي Alfonso I Elcatolico(١٢١-١٤٠ هـ /٧٣٨-٧٥٧ م) فقد سيطر على أهم المدن الشمالية مثل افراغة وليون وأسترقة واماية وسمّورة[٦] ، لذلك عُدّ الفونسو الأول المؤسس الحقيقي للمملكة النصرانية ، لأنها توسعت وزاد نفوذها السياسي وقوتها في عهده ، إذ نفى المسلمون الذين كانوا يسكنون جليقية Galicia واستورقة Asorga عن هاتين المنطقتين إلى الجنوب[٧].

ثم تحولت مدينة سمّورة إلى منطقة صراع بين المسلمين والنصارى حتى تمكن المسلمون من استردادها في نهاية عهد الفونسو الأول نفسه ، وبعد وفاته ومجيء ابنه فرويلا الأول استطاع السيطرة عليها ، فقد أشار ابن الأثير في حوادث سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧م

---

١) المقري، نفح الطيب، ٢٧٦/١.
٢) التاريخ الأندلسي، ص ١٠٨.
٣) ابن الشباط، صلة السمط، ص ١٥١.
٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٥.
٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٣١/٢.
٦) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٠٦ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص ١١٢ -١١٣ ؛ طه، دراسات أندلسية، ص ١٥٩ ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٦٩.
٧) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٦٢.

إلى أن فرويلا(يسميه تدويلية) لما ملك(قوى أمره وعظم سلطانه وأخرج المسلمين من ثغور البلاد وملك مدينة لك ، وبرطقال ، وشلمنقة ، وشمورة ، وإيلة ، وشقوبية ، وفشتيالة ، وكل هذه من الأندلس)[١] ، وهكذا استغل فرويلا الخلافات الداخلية التي نشبت بين المسلمين[٢] لتوسيع مناطق نفوذه وإحكام سيطرته على العديد من المناطق الحدودية ، وتمكن من الاستيلاء على مناطق إسلامية عدة مثل شقوبية Segovia وأبلة Avila وسمّورة وشلمنقة Salamanca وغيرها من المدن ، إلا أن فرويلا الأول لم يستمر طويلاً ، إذ سرعان ما قامت ثورة ضده من قبل النصارى أنفسهم وانتهت باغتياله سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م[٣].

بقيت مدينة سمورة بيد النصارى أكثر من قرنين بذل المسلمون خلالها محاولات عدة لاسترجاعها[٤] إلى أن تمكن ابن أبي عامر من تحقيق ذلك ، إذ شن عليها ثلاث حملات[٥] تمكن خلالها من استرجاعها إلى حوزة المسلمين ، وقد أشار ابن خلدون إلى أن ابن أبي عامر قام بتعميرها وتحصينها ٣٨٩ هـ/٩٩٨م ثم أسكنها عدداً من المسلمين ، وولى عليها أبا الأوس معن بن عبد العزيز التجيبي[٦] ، إلا أنها لم تستمر بيد المسلمين سوى بضع سنوات ، إذ أشار ابن خلدون إلى أن معن بن عبد العزيز التجيبي كان على المغرب عند وفاة المنصور[٧] ، مما يعني أن ولايته عليها لم تستمر طويلاً ، كما أن المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر(٣٩٢-٣٩٩هـ/١٠٠١-١٠٠٨م) غزاها سنة٣٩٥هـ/١٠٠٤م ، فقد أشار ابن عذاري إلى أن عبد الملك المظفر خرج بقواته سنة٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م وهي غزوته الثانية إلى مدينة

---

١) الأندلس الكامل في التاريخ، ص ٩٣ ؛ ينظر أيضا : ابن خلدون، العبر، ١٢٢/٤، ١٨٠ ؛ المقري، نفح الطيب، ٣٣٠/١ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٢/١.

٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الخلافات ينظر : ابن عذارى، البيان المغرب، ٥١/٢ وما بعدها ؛ النويري، نهاية الإرب، ٦٢/٢٢ وما بعدها.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٤/١.

٤) ينظر عن محاولات المسلمين استرجاع سمورة : الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٣)، ص ٧٩، ٨١ -٨٥، ٨٨.

٥) ينظر عن حملات ابن أبي عامر على سمورة : العذري، ترصيع الأخبار، ص ٧٧، ٧٩، ٨٠ ؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ٢١٦/١ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٢٧، ٢٢٩.

٦) ابن خلدون، العبر، ٤/ ٢٣١

٧) العبر، ٣٣/٧.

سمّورة وجليقية قال: فلما دخل في أرض العدو(أخرج واضحاً فتاه على سرية من خمسة آلاف فارس ساروا ليلتهم فصبحوا مدينة سمورة الخراب من فتح المنصور بن أبي عامر غداة يوم السبت بعده فأصابوا قوماً من النصارى يأوون إلى أبراج اتخذوها بعد الفتح بمدة ، فقتلوا رجالهم وسبوا نساءهم وذريتهم وانبسطوا بالغارة على بسائط سمورة..)[1] ، إلا أنه لم يحقق نتائج ايجابية[2] ، مما يُرجح أنه لم يستطع استرجاعها ، ويستفاد من رواية ابن عذاري أن النصارى عادوا إليها بعد فتح ابن أبي عامر لها وبنوا فيها أبراج للمراقبة تحسباً لكل طارئ ، ولعل حملة عبد الملك المظفر كانت رد فعل على سيطرة النصارى عليها إلا أنه لم يفلح ، مما يرجح أن سقوطها النهائي كان سنة٣٩٥هـ/١٠٠٤م

كانت حملة عبد الملك المظفر آخر حملات المسلمين على مدينة سمّورة وذلك حسب المصادر التي بين أيدينا ، وربما راجع ذلك إلى انهيار الدولة العامرية ثم الفتن والانقسامات التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وظهور دويلات الطوائف وهو ما أضعف من نشاط المسلمين بالتقدم نحو عمق الشمال الأسباني ، بل أن المبادرة انتقلت إلى النصارى الأسبان الذين قاموا بدفع حدود المسلمين إلى جنوب نهر تاجة وأصبحت سمّورة عند عبور المرابطين هدفا بعيد المنال.

---

١) البيان المغرب، ١١/٣.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦١٢/١.

مدينة قلهرة Calahorra الأندلسية
(٩٤ -٤٣٧ هـ/٧١٢ -١٠٤٥ م)

تقع مدينة قلهرة شمال شرق الأندلس في منطقة الثغر الأعلى[١] ، ويقابلها بلاد قشتالة Castilla[٢] ، وهي تعد من أعمال مدينة تطيلة Tudela[٣] ، وضبطها ياقوت بقوله :(قَلَهُرَّةٌ : بفتح أوله وثانيه ، وضم الهاء ، وتشديد الراء وفتحها)[٤] ، وهي مدينة أيبيرية قديمة ، وكانت تدعى كالاغوريس ناسيكا Calagurris Nassica[٥].

وقد حددها الإدريسي ضمن الجزء الأول من الإقليم الخامس من الأندلس بقوله: (وفيه من بلاد هيكل سولى وتطيلة ووشقة وجاقة[٦] وقلهرة...)[٧].

إن موقع المدينة في منطقة الثغر الأعلى جعل بعض الأنهار تمر بأراضيها فهي ضمن منطقة حوض نهر الأبرو Ebro وعدة أنهار أخرى أصغر منه ، وأشار الإدريسي إلى مصادر مياه نهر الأبرو وتجمعها وانصبابها ومرورها بمدينة قلهرة بقوله: (يأتي بعضه من بلاد الروم وبعضه من جهة جبال قلعة أيوب وبعضه من نواحي قلهرة فتجتمع مواد هذه الأنهار كلها فوق مدينة تطيلة ثم تنصب إلى مدينة سرقسطة إلى أن تنتهي إلى حصن جبرة إلى موقع نهر الزيتون ثم إلى طرطوشة فيجتاز بغربيها إلى البحر...)[٨].

---

١) المنجم، آكام المرجان، ص ١٠٨ ؛ ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/٩١٢ -٩٤١م)، ص ٩٨
٢) المنجم، آكام المرجان، ص ١٠٨.
٣) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣٣.
٤) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣٣.
٥) الساعدي، بنو قسي ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس، ص ٢٠.
٦) مدينة تقع إلى الشمال من مدينة وشقة، وتبعد عن مدينة سرقسطة مسافة ١٣٣ كم ولها سور وأبراج، ينظر : أرسلان، الحلل السندسية، ١٨٣/٢.
٧) نزهة المشتاق، ٧٢٥/٢.
٨) نزهة المشتاق، ٥٥٤/٢ ؛ ينظر أيضاً : المياح، أوربا في كتب البلدانيين العرب المسلمين، ١٦٧/١.

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة عن كيفية فتحها ووقت دخول المسلمين إليها ، إلا أن بعض المصادر أشارت إلى فتح مناطق الثغر الأعلى الأندلسي ولاسيما مدينتي سرقسطة وتطيلة والتي تعد قلهرة من توابعها ، إذ سار موسى بن نصير نحو الشمال والشمال الشرقي[1] لهذه المناطق في سنة٩٤هـ/٧١٢م وفتحها ، وقد أشار إلى ذلك مؤلف مجهول بقوله: (... ثم سار حتى افتتح سرقسطة ومداينها...)[2].

كان لموقع مدينة قلهرة على الحدود مع نافار(نبرة) البشكنسية أثر كبير على حياتها السياسية والعسكرية ، فقد تحولت منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامي إلى منطقة ثغرية ترابط بها قوات من الجانبين وتأثرت بالأوضاع الداخلية وحالة الاستقرار لكليهما ، ففي السنوات الأخيرة لعهد الولاة(٩٥-١٣٨هـ/٧١٣-٧٥٥م) شهدت الدولة الإسلامية في الأندلس اضطرابات وحروب أهلية استنفذت الكثير من إمكانياتهم وأضعفت قواتهم وأشغلتهم عما كان يجري على حدودهم الشمالية[3] ، إذ شهدت قيام إمارة نصرانية امتدت من بلاد البشكنس شرقاً إلى شاطئ المحيط الأطلسي غرباً ومن خليج بسكاي شمالاً إلى نهر دويرة جنوباً وانتهزوا فرصة انشغال المسلمين بالاقتتال الداخلي فيما بينهم فاستولوا على العديد من المناطق والضياع المجاورة لهم[4].

كانت قلهرة من أولى المناطق التي استهدفتها القوات النصرانية إلا أن المصادر لم توضح كيفية ذلك أو تاريخ مهاجمتها ، ويبدو أن ذلك في بداية عهد الإمارة وبعد وفاة الفونسو الأول حاكم جليقية سنة١٤٧هـ/ ٧٦٤م وتولي فرويلا الأول(١٤٧-١٥٩ هـ/٧٦٤-٧٧٥م) الحكم والذي استغل الخلافات الداخلية التي نشبت بين المسلمين[5] لتوسيع مناطق نفوذه وإحكام سيطرته على العديد من المناطق الحدودية ، إذ تمكن من الاستيلاء على مناطق

---

١) مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٠٤ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ١٠١.

٢) أخبار مجموعة، ص ١٨ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦/٢.

٣) للمزيد من التفاصيل ينظر : ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٤٠ -٤٤ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ٣٦ -٤٩ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٢/١ -١٢٩.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٣/١ -٢١٤.

٥) للمزيد من التفاصيل عن هذه الخلافات ينظر : ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥/٢ وما بعدها ؛ النويري، نهاية الأرب، ٦٢/٢٢ وما بعدها.

إسلامية عدة مثل شقوبية Sogovia وأبله Avila وسمورة Zamora وشلمنقة Salamanca[1] ، ولا نستبعد أن تكون مدينة قلهرة من ضمن المناطق التي تعرضت لغزو الملك النصراني ، بدليل أن عبدالرحمن الداخل(١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٥-٧٨٨م) هاجم قواتهم فيها سنة ١٦٤هـ/٧٨٠م ، والراجح أن مهاجمة فرويلا الأول لها كان في سنة ١٤٧ هـ/٧٦٤م ، فقد أشار ابن الأثير إلى أن فرويلا(يسميه تدويلية) كان أشجع من أبيه الفونسو(يسميه أذفنش) فلما ملك قوي أمره وعظم سلطانه وأخرج المسلمين من ثغور البلاد[2] ، ومنذ ذلك التاريخ غدت مدينة قلهرة منطقة صراع بين الجانبين الإسلامي والنصراني طيلة عهدي الإمارة(١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م) والخلافة(٣١٦-٤٢٢هـ/٩٢٨-١٠٣٠م).

وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس تقسمت البلاد إلى دويلات طوائف متناحرة[3] ، وكان نصيب الثغر الأعلى الأندلسي أن استقل بنو هود في سرقسطة ، وبني ذي النون بطليطلة ، وكانت قلهرة تابعة إلى حكام سرقسطة من بني هود ، وقد دخلت الأسرتان في صراع مرير ، ودار هذا الصراع بين سليمان بن محمد بن هود حاكم سرقسطة(٤٣١- ٤٣٨هـ/١٠٣٩- ١٠٤٦م) والمأمون بن ذي النون حاكم طليطلة(٤٣٥-٤٦٧هـ/١٠٤٣-١٠٧٤م) وكانت مجموعة المدن والحصون الواقعة بين سرقسطة وطليطلة موضع الاحتكاك بين الجانبين ، إذ دارت مواجهات عنيفة بين الطرفين ، وقد استعان كلا الطرفان بحكام الممالك النصرانية مقابل أن يدفعوا لهم الجزية ، فتحالف ابن هود مع ملك قشتالة فرناندو الأول Fernando I (٤٢٦-٤٥٨ هـ/ ١٠٣٤-١٠٦٥م) ، وتحالف المأمون بن ذي النون مع ملك نافار Navarra غرسيه(٤٢٦-٤٤٦ هـ/ ١٠٣٤-١٠٥٤م) ، واستمر ملكا قشتالة ونافار يعملان على توسيع هذا الخلاف ، فيغير الأول على أراضي طليطلة بجانب ابن هود ، ويغير الثاني على أراضي سرقسطة لحساب ابن ذي النون ، ولم ينتهي هذا

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٤/١.

٢) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٩٣ ؛ إلا أن ابن الأثير يجعل وفاة الفونسو وتولية ابنه فرويلا سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م، فهو يضطرب في ذلك، والراجح ما ذهبت إليه الرواية النصرانية بأن ذلك كان سنة ١٤٧ هـ/٧٦٤ م، ينظر : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٥/١.

٣) ينظر التفاصيل عن سقوط الخلافة الأموية في الأندلس : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٥٨٨ -٦٢٢ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٠٩ -٢١٧.

الصراع إلا بعد موت ابن هود سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م[١].

وبالنسبة إلى مدينة قلهرة فإنها لم تستمر طويلاً تحت حكم أسرة بني هود ، إذ سرعان ما تمكن المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة بالتعاون مع حليفه ملك نافار غرسيه من انتزاعها من أيدي سليمان بن هود المتحالف مع ملك قشتالة وذلك سنة٤٣٧هـ/١٠٤٥م ثم قام المأمون بن ذي النون بتسليمها إلى ملك نافار في السنة أعلاه لقاء مساعدته ضد ابن هود ، وبذلك أصبحت مدينة قلهرة وحصنها ضمن أملاك ملك نافار ، وقد أشار إلى ذلك ابن الخطيب أثناء تناوله هذه الأحداث بقوله: (... ، استعان ابن هود بالنصارى ، وخرج إلى أرض ابن ذنون ، واسترجع ما ظهر عليه ابن ذنون من حصونه ، وناغاه ابن ذنون ، فأخرج للعام بعده النصارى إلى بلد ابن هود ، فافتتح قلعة قلهرة التي كانت فتحها ابن أبي عامر ، وفازت بها أيدي الروم ، وذلك صدر عام٤٣٧ ،...)[٢].

وقد أبدى ابن الخطيب أسفه لاستيلاء النصارى على مدينة قلهرة والمدن والقلاع والحصون الأخرى بقوله: (وفي أثناء هذا الهرج ، وهيجان هذه الفتنة وانفراد كل يد بما ملكت ، استولى العدو على مدائن جليلة ، وقلاع حصينة منيعة ، وثغور شريفة ، وعمالات نصيبة ، وربوع آهلة ، وأطراف بعز الإسلام وطئها شاهدة ، مثل مدينة قلهرة ، وأنتيشة ، ومدينة سالم ، والمدينة البيضاء سرقسطة)[٣] ، وهكذا فقد المسلمون قلهرة بعد حكم دام ٣٤٣ سنة.

---

١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٦٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٨٢/٣ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٧٨/٢.

٢) أعمال الأعلام، ١٧٨/٢.

٣) أعمال الأعلام، ٢٩٣/٢.

مدينة قلمرية Coimbra الأندلسية
(٩٥ -٤٥٦هـ/٧١٣ -١٠٦٣م)

ورد اسم المدينة في المصادر بألفاظ مختلفة بعض الشيء ، فجاءت بلفظ (قلمرية أو قلنبرية أو قلمورية)[١] ، وتقع في غرب الأندلس[٢] قرب المحيط الأطلسي إذ تبعد عنه اثنا عشر ميلاً[٣] ، كما تعد ضمن الثغر الأدنى الأندلسي الذي يشمل المنطقة الواقعة بين نهري دويرة Rio El Duero وتاجة Rio Taja ، ومن مدن هذا الثغر هي قورية Coria وقلمرية وشنترين Santarem وماردة Merida[٤].

وضع البكري مدينة قلمرية في الجزء الخامس ، إذ قسم الأندلس إلى ستة ولايات ، والجزء الخامس يشمل اثنتي عشر مدينة بما فيها مدينة قلمرية[٥].

في حين أشار الإدريسي لموقع مدينة قلمرية بقوله: (الإقليم الخامس تضمن قطعة من شمال الأندلس فيها بلاد جليقية وبعض قشتالة ،... ، وبعض بلاد غشكونية من أرض الإفرنج ، فأما بلاد برتقال فمنها مدينة قلمرية ،... ، وبحر الظلمات ،... ، ويجاور شنترة ولشبونة من بلاد إشبانية مدينة قلمرية ،...)[٦].

---

١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٥٠١ ؛ ابن حيان، المقتبس،(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/٨٨٨ -٩١٢ م)، ص ٤٣ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ٨٠ ؛ البكري، المسالك والممالك، ٨٩٢/٢ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٧/٢ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٤/٤ ؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٨٥.

٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٢٦/٢.

٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٧١ ؛ والميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.

٤) البكري، المسالك والممالك، ٨٩٢/٢.

٥) المسالك والممالك، ٨٩٢/٢.

٦) نزهة المشتاق، ٧٢٥/٢ -٧٢٦.

وعليه فإن مدينة قلمرية تعد من بلاد البرتغالPortugal ، وقد وصف الإدريسي البرتغال بقوله: (وبرتقال أرض معمورة بالقرى والحصون والعمارات المتصلة وبها خيل ورجال حرابة يغيرون على من جاورهم ولا يستضاء بنارهم)[١].

وتبعد مدينة قلمرية عن مدينة قورية أربعة أيام[٢] ، وبين قلمرية وشنترين ثلاث مراحل[٣] ، كما أن قلمرية تقع إلى الشرق من مدينة شلمنقة Salamanca إذ المسافة بينهما مرحلتان[٤].

كما أن هناك عدة طرق تربط مدن الأندلس بمدينة قلمرية ، وقد أشار الاصطخري إلى ذلك بقوله: (من قرطبة إلى إشبيلية إلى باجة إلى ماردة إلى قورية إلى قلمرية إلى مدينة شنترين العظمى ،...)[٥].

كما تحدث الإدريسي عن الطريق بين قلمرية وشنت ياقوب Santiago de Compostela بقوله: (والطريق من قلمرية إلى شنت ياقوب وذلك إن شئته في البحر سرت من حصن منت ميور إلى موقع نهر بوغو سبعين ميلا وهو أول أرض برتقال ،...)[٦].

إن موقع المدينة القريب من البحر(المحيط الأطلسي) قد جعل بعض الأنهار من الشرق تنحدر نحو أراضيها ، ومنها نهر منديق الذي أشار إليه الإدريسي بقوله: (... ، وهي على نهر يسمى نهر منديق وهو يجري منها في شرقيها ،...)[٧].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة عن كيفية فتحها وتاريخ ذلك ، ولكن خط سير الفتح الإسلامي بقيادة موسى بن نصير قد أخذ من إشبيلية Sevilla غرباً باتجاه ماردة التي حاصرها عدة أشهر حتى استطاع فتحها ثم توجه إلى طليطلة[٨] ، أي

---

١) نزهة المشتاق، ٧٢٦/٢.
٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٧١.
٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٢٦/٢، والمرحلة تساوي أربعة وعشرين ميلاً، ينظر : الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، ٥٢٢/١.
٤) ابن سعيد، الجغرافية، ص ١٨٧ ؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٨٥.
٥) المسالك والممالك، ص ٤٧.
٦) نزهة المشتاق، ٧٢٦/٢.
٧) نزهة المشتاق، ٧٢٦/٢.
٨) لمزيد من التفاصيل عن خط سير فتوح موسى بن نصير، ينظر : السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص ٩٥ -٩٦ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٣٦ -٣٨ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي.٨٣

أنه لم يمر بمدن الساحل الغربي لاسيما مدينة قلمرية ، ثم إنه واصل سير فتوحاته المشتركة مع قائده طارق بن زياد في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia[١].

وأشار بعض الباحثين إلى أن فتح مدن الساحل الغربي تم على يد عبد العزيز بن موسى[٢](٩٥-٩٧ هـ/٧١٣-٧١٥ م) ، ومما يدل على ذلك ما ذكره مؤلف مجهول بقوله: (افتتح في ولايته مداين كثيرة)[٣] ، في حين تحدث عن ذلك ابن عذاري بقوله: (لما قفل موسى بن نصير ، استخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس ، فضبط سلطانها ، وسد ثغورها ، وافتتح مدائن كثيرة)[٤]

ويبدو أن المدينة فتحت صلحاً ، إذ لم تزودنا المصادر المعتمدة بأخبار عن معارك جرت في شمال غرب شبه الجزيرة الأيبيرية ، ولعل ذلك يعود إلى طلب سكان المنطقة السلم من الجيش الإسلامي حيث لا جدوى من المقاومة بعد أن فرّ معظم الجيش القوطي وقتل ملكهم ، وفي هذا الصدد قال المقري: (... ، وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية)[٥].

ثم قام عبد العزيز بن موسى خلالها بعقد معاهدات السلم مع أهالي مدينة قلمرية ، وهو ما يعكس تسامح المسلمين مع أهالي البلاد التي يفتحونها بحرية العيش بسلام وعدم التعرض إلى ممتلكاتهم وعقائدهم[٦] ،وبعد فتح عبد العزيز بن موسى قلمرية صلحاً عين عليها حاكماً عربياً وهو أبو عاصم بن محمد بن الأحمر بن طريف وذلك سنة٩٧هـ/٧١٥م ، وكانت المدينة آنذاك عامرة وبها كنيسة كبيرة ، فعهد أبو عاصم على المدينة قومس من قبله يسمى ايدولفو Aidulfo ، ولما مات خلفه ابنه أتاناجيلدو Atanagildo وأعقبه ابنه تيودوس Theodus ، كما أقام على الأسقفية قساً يسمى لوربان Lorban ، وأعقب أبو عاصم في حكمها شخصاً عربياً آخر يدعى مروان بن موسى وسار على طريقته في التودد إلى السكان

---

١) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٣٨ -٣٩.

٢) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٣٩ -٤١ ؛ طه، دراسات أندلسية، ص ٢٤٤.

٣) أخبار مجموعة، ص ٢١.

٤) البيان المغرب، ٢/٢٤.

٥) نفح الطيب، ١/٢٧٦.

٦) الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٣)، ص ١٩٣ -١٩٤.

والإحسان إليهم[1].

وذكر أن أبا عاصم كان يوقر الرهبان ويقربهم ، وقد ألزم أهل قلمرية أن يدفعوا جزية معينة ، وجعل على كل كنيسة جزية قدرها خمسة وعشرون مثقالاً ، وكان على كل دير خمسين مثقالاً ، واستثنى من ذلك دير لوربان فقد أعفاه من كل شيء لأن رئيسه كان حليف الأندلسيين ، فترك رهبانه أحراراً[2].

وعليه يمكننا أن نستشف تاريخ فتح قلمرية أنه كن بعد مغادرة موسى بن نصير الأندلس وأثناء ولاية عبد العزيز بن موسى ، أي في المدة بين سنتي٩٥هـ/٧١٣ م حيث غادر موسى وسنة٩٧هـ/٧١٥م حيث قتل عبد العزيز بن موسى.

ويبدو أن مدينة قلمرية أو قسماً منها قد خضع للنصارى الأسبان في أحداث الفتنة في عصر الولاة(٩٥-١٣٨هـ/٧١٣-٧٥٥م) ذلك أن القبائل البربرية التي كانت تسكن نواحي أشتوريس Asturias وكنتبرية Cantabrica وجليقية والتي يسميها مؤلف مجهول(خلف الدروب)[3] هجروا مساكنهم وانحدروا إلى الجنوب بسبب الحروب الداخلية التي تعرضت لها الأندلس في عهد الولاة[4] ، أضف إلى ذلك المجاعة والقحط التي حلت في عموم الأندلس سنة١٣٣هـ/٧٥٠م[5] ، وبذلك قلت تلك القبائل المستوطنة هناك ، وعليه فإن الحزام الأمني في تلك المناطق أصبح خالياً من الناحية البشرية تقريباً ، وما تبع ذلك من خلو تلك المناطق من التحصينات والقوة العسكرية الإسلامية بعد انسحاب حامياتها[6] ، وعلى إثر ذلك اتسعت مملكة جليقية في عهد الفونسو الأول الملقب بالكاثوليكي(١٢١- ١٤٠ هـ/٧٣٨-٧٥٧م) وسيطر على معظم الأراضي الأندلسية شمال نهر دويرة[7] ،وغدت مدينة قلمرية منذ ذلك التاريخ تمثل خط المواجهة بين

---

١) مؤنس، فجر الأندلس، ٥٠٨ -٥٠٩.

٢) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٥٠٨ -٥٠٩ ؛ السامرائي، الثغر الأدنى الأندلسي، ص ٧٧.

٣) أخبار مجموعة، ص ٣٨.

٤) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٣٨ -٤٠ ؛ مؤنس، فجر الأندلس، ١٩٦ -١٩٧.

٥) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٦١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣٨/٢.

٦) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٣٥٠.

٧) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٦٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٨٠/٤.

الجانبين الإسلامي والنصراني هناك وتبادل الطرفان فيها عمليات الكر والفر.

ويبدو أن النصارى تمكنوا فيما بعد من السيطرة على مدينة قلمرية والمناطق الثغرية الأخرى في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني(٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢١-٨٥٢م) مما دفع الأخير إلى استرجاعها ، ولم ترد تفاصيل عن كيفية ذلك ولكن كان قبل سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م ، إذ أشار ابن حيان أنه في هذه السنة أرسل الأمير عبد الرحمن الثاني قواته إلى الثغر لاسترجاع تلك المناطق ومنها قلمرية بقوله: (وفيها أيضاً غزا عباس بن عبد الله القرشي جليقية في عسكر آخر ، فدخل على بازو[١] ، ودخل أخوه مالك بن عبد الله على قلمرية ،...)[٢].

والراجح أن مدينة قلمرية قد تأرجحت تبعيتها بين المسلمين والنصارى خلال مدة حكم الأمير عبدالله(٢٧٥-٣٠٠ هـ/٢٨٨-٩١٢م) وعبدالرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) ولم تكن النصوص المتوفرة تفصح كثيراً عن ذلك ، ولعل ذلك بسبب موقعها الثغري في أقصى الغرب بين حدود المسلمين ومملكة ليون Leon وهيمنة الأحداث الكبيرة التي وقعت سواءً بين الجانبين الإسلامي والنصراني أم داخل دولة المسلمين في الأندلس على اهتمامات المصادر[٣] ، ففي أحداث سنة٣٠٣هـ/٩١٥ م أشار ابن حيان عرضاً إلى قلمرية عندما تحدث عن الصراع داخل البيت النصراني بأن مدينة قلمرية كانت قبل هذه المدة تحت الحكم النصراني بقوله: (... ، وامتنع عليه أخوه أردون بن أذفونش[٤] في غربي أرضهم ، من غليسية ، طرف جليقية إلى قلمرية الدانية من أرض الإسلام التي قد كان العدو حازها

١) مدينة تقع في غرب الأندلس في البرتغال الحالية، ينظر : ابن حيان، المقتبس(الحقبة ١٨٠. ٢٣٢ هـ/ ٧٩٦ -٨٤٦ م)، ص ٤٢١.

٢) المقتبس(للحقبة ١٨٠. ٢٣٢ هـ/ ٧٩٦ -٨٤٦ م)، ص ٤٢١.

٣) يأتي في مقدمة ذلك حركات التمرد التي شهدتها الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي والتي استمرت حتى عهد عبد الرحمن الناصر والتي أخذت منه الكثير من الوقت والجهد حتى تمكن من إخمادها لاسيما حركة ابن حفصون، ينظر عن الجبهة الداخلية الإسلامية آنذاك : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٠٨/١ وما بعدها ؛ وعلى صعيد العلاقة مع النصارى ازدادت هجماتهم على الأراضي الإسلامية بسبب ظروف حكومة قرطبة أعلاه، ينظر التفاصيل : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٧/١ وما بعدها.

٤) هو اردونيو الثاني بن الفونسو الثالث ملك ليون حكم للمدة(٣٠١ -٣١٢ هـ/٩١٣ -٩٢٤ م)، ينظر : العلياوي، البشكنس، ص ١٣٥.

قبل ذلك بمدة ...)[1] ، ويفهم من هذا أن قلمرية وقعت تحت السيطرة النصرانية وأن المسلمين حاولوا استرجعوها في عهد الأمير عبد الرحمن الثالث.

والراجح أن مدينة قلمرية استمرت تحت السيطرة النصرانية حتى عهد الخليفة هشام المؤيد(٣٦٦-٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٨م) إذ برز دور الحاجب محمد بن أبي عامر وهو واحد من كبار الشخصيات المهمة في الدولة والذي كان له دور في تثبيت السيادة الإسلامية في معظم أراضي أسبانيا ، فقد أحصيت عدد الحملات ضد النصارى في عهده أكثر من خمسين حملة[2] ، وقد كان لمدينة قلمرية نصيباً من هذه الحملات ، ففي غزوته السادسة والعشرون وكانت في حدود سنة٣٧٦هـ/٩٨٦ م والتي عرفت بغزوة قندياجشة ، تمكن المنصور من الدخول إلى مدينة قلمرية وحرق أرباضها[3] ، كما ذكر العذري غزوة أخرى قام بها محمد بن أبي عامر سنة٣٧٦هـ/٩٨٦ م عرفت بغزوة قلنبرية الأولى إلا أنه لم يذكر تفاصيل هذه الحملة ونتائجها بقوله: (وغزا محمد بن أبي عامر قلنبرية الأولى وكانت ربيعية مفردة من الجامع إثر صلاة الجمعة مستهل ذي القعدة سنة ست وسبعين وثلثمائة والرابع من شهر مارس)[4] ، ويبدو أن المنصور ابن أبي عامر لم يستطع النيل من مدينة قلمرية خلال الحملتين أعلاه لذا عاود الكرة عليها في حملته الثامنة والعشرين إذ تمكن من فتحها وتخريبها وبعدها رجع ، وقد أشار مؤلف مجهول إلى ذلك دون أن يحدد تاريخها بقوله :(الثامنة والعشرون غزوة أيضاً ، نزل عليها فقاتلها يومين ثم فتحها في اليوم الثالث فخرج وسباها وانصرف)[5] ، والراجح أن هذه الحملة كانت سنة٣٧٧هـ/٩٨٧ م ، وفي هذه الحملة أيضاً لم يستطع الاحتفاظ بها وإنما كانت حملات استعراضية اكتفى فيها بالنيل من عدوه وغنم وسبى.

وفي سنة٣٨٧هـ/٩٩٧م قاد المنصور بن أبي عامر حملة عسكرية كبيرة باتجاه منطقة

---

١) المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/٩١٢ -٩٤١م)، ص ١٢٣.

٢) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٢٦ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣٠١/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٥٢/٤.

٣) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٢٩.

٤) ترصيع الأخبار، ص ٨٠.

٥) تاريخ الأندلس، ص ٢٣٠.

جليقية وتمكن خلالها من فتح العديد من المدن ومنها قلمرية وبازو[1] ، ويبدو أن المنصور بن أبي عامر تمكن في حملته هذه الرابعة والأخيرة على قلمرية من ضمها إلى المسلمين ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك ضمناً عند حديثه عن سقوط المدينة سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م بقوله: إنها كانت من(الفتوح العامرية.. وكانت مدة الإسلام بها بضعاً وسبعين سنة)[2].

وفي عهد دويلات الطوائف تغلب بنو الأفطس على منطقة غرب الأندلس اتخذوا بطليوس Badajoz قاعدة لإمارتهم وكانت مدينة قلمرية ضمن نفوذهم إذ شمل نفوذهم المناطق الممتدة من منتصف نهر وادي آنه Rio Guadiana حتى المحيط الأطلسي ، وشمل كذلك قسم من نهر وادي تاجة شمالاً حتى مدينة قلمرية[3].

وفي أيام محمد بن الأفطس(٤٣٧-٤٦١ هـ/١٠٤٥-١٠٦٨م) تعرضت الجهات الشمالية لإمارة بني الأفطس إلى هجمات الملك القشتالي فرناندو الأول(٤٢٦-٤٥٨هـ/ ١٠٣٤-١٠٦٥م) الذي اغتنم فرصة صراع بني الأفطس مع بني عباد فتمكن من الاستيلاء على مدينتي لاميجو وبازو الواقعة شمال قلمرية ثم أخذ يهاجم مدينة شنترين مما اضطر ابن الأفطس إلى مهادنته ودفع جزية سنوية له مقابل كفه عن مدينة شنترين[4].

عندها قرر الملك القشتالي فرناندو الأول القضاء على ما تبقى من نفوذ للمسلمين شمالي نهر تاجة ، وكانت أهم مدن المنطقة هي قلمرية وذلك في حملة قام بها سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣ م أدت في النهاية إلى سقوطها ، وقد اختلف الروايات في ذكر بعض تفاصيل سقوطها ، فالرواية الإسلامية تحدثت عنها بالقول: إن مدينة قلمرية كانت يومئذ تحت حكم مولى من موالي المظفر بن الأفطس(٤٣٧-٤٦١هـ/١٠٤٥-١٠٦٨م) يدعى راندة ، وكان لديه للدفاع عن المدينة خمسة آلاف جندي ، ويقال أن الذي أشار على الملك القشتالي فرناندو الأول بغزو قلمرية هو مستشاره ششنند الذي كان من أهل المدينة ، فسار فرناندو بنفسه إلى قلمرية في قوات كبيرة وضرب حولها الحصار ، واستمر ستة

---

١) دولة الإسلام في الأندلس، ٥٦٠/١ -٥٦١ ؛ ولمزيد من التفاصيل حول هذه الحملة واستيلاء المنصور بن أبي عامر على منطقة جليقية ينظر : ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٩٤/٢ -٢٩٩.
٢) أعمال الأعلام، ١٨٤/٢.
٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨١/٢.
٤) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٢٦. عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨٦/٢.

أشهر ، والضيق يشتد بالمدينة المحصورة يوماً بعد يوم ، وفي النهاية تفاهم راندة مع فرناندو سراً على أن يخرج من المدينة آمناً على نفسه وأهله ، وفي الصباح لم يجد أهل المدينة قائدهم فعرضوا التسليم على أن يمنحوا الأمان ، فرفض فرناندو واستمر الحصار حتى فتك الضيق ونفاذ الأقوات بالحامية وأهل المدينة ، وأخيراً اقتحم النصارى المدينة عنوة ، فسلمت الحامية ، واعتبر جنودها أسرى ، وسبي الكثير من أهلها نساءً ورجالاً ، وخرج منها من استطاع منهم تاركين متاعهم وأموالهم ، وبذلك سيطر النصارى على مدينة قلمرية وذلك سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م ، وقد عين فرناندو مستشاره ششنند حاكماً عليها وأعمالها ومنحه لقب(الكونت) أو(الوزير)[1]

ولما سقطت المدينة بيد نصارى قشتالة Castilla قصد واليها السابق راندة إلى إمارة بطليوس ، وكان قبل ذلك قد لجأ إلى المعسكر النصراني ، ثم غادره طمعاً في عفو سيده ابن الأفطس فاستقبله الأخير بجفاء وأنبه على فعله الشنيع ، ثم أمر بضرب عنقه جزاء خيانته[2]

وقد علق ابن عذاري على هذه الأحداث بقوله: (ولم يزل عدو الله فرذلند يقوى والمسلمون يضعفون بغرم الجزية للنصارى إلى أن نزل اللعين على مدينة قلمرية... فحاصرها اللعين فرذلند حتى فتحها وذلك أن قائدها في هذا الوقت كان عبداً من عبيد ابن الأفطس يسمى راندة فخاطب فرذلند في السر أن يؤمنه في نفسه وأهله ويخرج إليه من البلد ليلاً ، فأعطاه اللعين الأمان فخرج اللعين سراً إلى عسكر النصارى ، وأصبح أهل البلد وقد أخذوا أهبة القتال ، فقال لهم النصارى: كيف تقاتلوننا وأميركم عندنا ، ولم يكن لأهل المدينة علم بذلك ، فلما لم يجدوه وعلموا صحة خبره طلبوا من العلج الأمان فلم يجبهم إليه ، ونفذت أقواتهم وعلم عدو الله ذلك منهم ، فجد في حربهم حتى دخلها عنوة فقتل الرجال وسبى الحريم والذرية وذلك في سنة ستة وخمسين وأربعمائة ، وانصرف راندة غلام ابن الأفطس إلى مولاه فوبخه على فعله الذميم ، ثم أمر بضرب عنقه ،...)[3].

---

١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٨٤/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨٥/٢ ؛ السامرائي، الثغر الأدنى الأندلسي، ص ٣٥ -٣٦.

٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٨٤/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨٦/٢.

٣) البيان المغرب، ٢٣٨/٣ -٢٣٩، ٢٥٣.

كما أشار ابن الخطيب إلى ذلك بقوله: (وفي مدته ، أخذ العدو مدينة قلمرية من الفتوح العامرية بعد محاصرة طويلة ، وكان قائده عليها مملوكاً له استأمن العدو في السر ، وخرج إليه بأهله وولده ، وأصبح المسلمون بها ، وقد أخذوا أهبة القتال ، فقال لهم العدو: كيف القتال وقائدكم عندنا منذ البارحة ، فصبروا إلى أن نفذت أقواتهم ، ودُخلت عليهم عنوة ، فقتل الرجال ، وسبي الذرية والحريم وذلك في سنة ٤٥٦ هـ ، فكان الفجع بها أكبر ، وكانت مدة الإسلام بها بضعاً وسبعين سنة ، وأقبل المملوك قائدها إلى ابن الأفطس ، وكان له محل من قبيلته ، فأمر به ، فضربت عنقه ، وكلب الطاغية على هذه الثغور الغربية وضرب على أهلها الإتاوة حتى ضعفت ، لولا أن الله أهلكه سنة ٤٥٨هـ ...)[١].

أما الرواية النصرانية فتتفق مع الرواية الإسلامية حول تاريخ سقوط مدينة قلمرية في سنة٤٥٦هـ/١٠٦٣م ، إلا أنها تختلف معها في بعض التفاصيل ، إذ ذكرت : أن فرناندو كان على إثر إخضاعه لملوك بطليوس وطليطلة إشبيلية لصولته وإرغامهم على دفع الجزية ، بيد أنه رأى قبل مسيره أن يستمد العون والبركة من القديس شنت ياقب[٢] ، وقضى ثلاثة أيام في صلوات ودعوات وخشوع ، ثم سار إلى قلمرية في جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار ، بيد أن أهل قلمرية دافعوا عن أنفسهم أشد دفاع ، واستمر الحصار حولها زهاء ستة أشهر ، حتى نضبت أقوات الجيش المحاصر نفسه ، وكاد يرفع الحصار ، ولكن رهبان دير لورفان القريب ، أمدوه بمؤنهم المخزونة في الجبال ، وأخيراً نجح القشتاليون في إحداث عدة ثغرات في أسوار المدينة ، واضطر قائد المدينة إلى طلب الأمان ، واتفق على أن يسمح لأهلها بأن يخرجوا مع نسائهم وأولادهم ، تاركين أموالهم للفاتح ، ولكن الجند المدافعين رفضوا هذا الاتفاق ، واستمروا في الدفاع حتى نفدت سائر الأقوات ، وعندئذ اقتحم القشتاليون المدينة ، وأسروا من المدافعين ، ومن أهل المدينة ، أكثر من خمسة آلاف ، ودخل فرناندو قلمرية في اليوم الحادي عشر من يوليه ، ومعه الملكة دونيا سانشا ، ورهط من الأساقفة ورجال الدين[٣].

---

١) أعمال الأعلام، ١٨٤/٢.

٢) وهو أحد حواري المسيح عليه السلام وأصبحت له مكانة مقدسة بعد وفاته وادعت الرواية النصرانية أن قبره في شمال اسبانيا وهو يزار من قبل الحجاج المسيحيين، ينظر : العتبي والعامري، تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، ص ٢٢٣.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٧٠/٢ -٣٧١.

كما قام فرناندو بعد ذلك بإخراج السكان المسلمين من سائر الأراضي الواقعة بين نهري دويرة ومينو وذلك تنفيذاً لخطته في إجلاء المسلمين عن الأراضي المتاخمة لمملكة قشتالة شيئاً فشيئاً[1].

وبعد سيطرة فرناندو الأول على مدينة قلمرية ، جعل من هذه المنطقة ولاية مستقلة باسم البرتغال بالاشتقاق من اسم بورتوكالي Porto Cille وهي الثغر الواقع عند مصب نهر دويرة ، وجعل قاعدتها مدينة قلمرية ثم ضمت هذه الولاية الجديدة قبيل وفاة فرناندو بقليل إلى مملكة قشتالة التي تركها فرناندو إلى أصغر أولاده الثلاثة غرسيه[2].

بعد ذلك حاول الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين(٥٠٠-٥٣٧هـ/١١٠٦- ١١٤٢م) استرجاع مدينة قلمرية من النصارى ، ففي جوازه الثالث سنة٥١١هـ/١١١٧م ، هاجم مدينة قلمرية ، وهذا ما أكده ابن عذاري بقوله: (وفي سنة إحدى عشر وخمسمائة تحرك أمير المسلمين علي بن يوسف من حضرته مراكش إلى بلاد الأندلس فأجاز البحر في أواخر محرم ويمم إشبيلية ،... ، ثم تحرك أمير المسلمين بجميع العساكر من إشبيلية لغزو قلمورية فحاصرها عشرين يوماً وضيق بها ثم انصرف عنها إلى إشبيلية ،...)[3].

كما أشار ابن الخطيب إلى ذلك بقوله: (... ، ثم أجاز ثالثة ، ونازل قلمرية ، ثم قفل عنها ،...)[4] ، كما تحدث مؤلف مجهول أيضاً بالقول :(في سنة إحدى عشر وخمسمائة ، افتتح فيها مدينة قلمرية ، ودوخ بلاد الشرك بجيوش لا يحصى ، وكان أثره بها عظيماً)[5].

إلا أن القوات المرابطية لم تستمر طويلاً في مدينة قلمرية بعد مهاجمتها والدخول إليها ، ويعلل عنان انسحاب القوات عنها بسبب موقعها النائي ، وصعوبة الاحتفاظ بها لأنها في منطقة يحيط بها النصارى من كل صوب[6] ، وتعد محاولات المرابطين هذه لاستعادة قلمرية هي الأخيرة ، وبذلك فقد المسلمون أي أمل في استعادتها منذ سقوطها بيد النصارى سنة٤٥٦هـ/١٠٦٣م.

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨٥/٢ -٨٦.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٢٢/٣ -٥٢٣.

٣) البيان المغرب، ٦٤/٤.

٤) أعمال الأعلام، ٢٤٧/٢.

٥) الحلل الموشية، ص ٨٦.

٦) دولة الإسلام في الأندلس، ٨١/٣ ؛ ينظر أيضاً : السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٢٣٣.

مدينة مجريط (مدريد) Magerit الأندلسية

(٩٣ -٤٧٦ هـ/٧١١ -١٠٨٣م)

تسمي المصادر الإسلامية مدريد باسم مجريط[١] ، ولم نجد في مصادرنا العربية القديمة التي بين أيدينا تفسيراً لمعنى مجريط ، وفي كتب اللغة الجرط تعني الغصة[٢] ، واستدرك الزبيدي عليها بالقول : مجريطة مدينة بالمغرب منها الفيلسوف المجريطي[٣] ، كما ذكرها في مكان آخر بلفظ مرجيطة إلا أنه قال: إن مجريطة أشهر[٤] ، وفي فتاوى ابن حجر الهيثمي جاءت بلفظ آخر وهو مخريط ، قال: ومخريط من قرى الأندلس منها المخريطي[٥] ، وينطقها الأسبان أيضاً مخريط[٦] ، ولا نجد في المعنى اللغوي أعلاه تفسيراً شافياً.

واختلف الباحثون المحدثون في تفسيرها ، فذهب البعض إلى أنها كلمة تتألف من مقطعين: الأول عربي وهو(مجرى) ويشير إلى مجرى المياه ، والثاني إيتو وهو لاتيني ويعني الوفرة ، فهي تعني مجاري المياه الوفيرة[٧] ، وهناك من قال إن اسم مدريد هي من(ما دريد) أي (ماء دريد) بعد أن رخمت همزة الماء[٨] ، فيما أرجع البعض اسمها الأصلي إلى

---

١) ابن بسام، الذخيرة، ١٦٢/٧ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٢/٢ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٦ ؛ ابن الأبار، التكملة، ١٥/١ ؛ ابن سعيد، المغرب، ٧/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٢٣ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٦٥/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢٧١/٧ ؛ وذكرها المراكشي مشريط، المعجب، ص ٢٦٤ وهو تصحيف.

٢) ابن منظور، لسان العرب، ٢٧٩/٧ ؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ٦٦١(مادة جرط)

٣) تاج العروس، ٩١/٢٠(مادة مجرط).

٤) تاج العروس، ٢٠/ ٩٥(مادة مرجط).

٥) الفتاوى الحديثية، ص ٩٣.

٦) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٣٣١.

٧) Stewart , Madrid. The History. p. 4. ؛ عجاج، مدريد، تاريخ عربي يلفه النسيان، مقال على الموقع الالكتروني : www.aljazeera.net.

٨) ينظر: الخطابي، مدريد، حضور إسلامي على امتداد العصور، على الموقع الالكتروني m.hwspress.com.

أورساريا Ursaria أي أرض الدببة وذلك لارتفاع عدد الدببة في الغابات المجاورة التي مع شجرة التوت بالأسبانية تسمى: مادرونيو Madrono[١] ، وهناك من يرجع اسمها إلى القرن الثاني قبل الميلاد في العهد الروماني حيث بنيت قرية صغيرة على ضفاف نهر مانزاناريس تعرف باسم ماتريس Matrice على اسم النهر ، وبعد فتح المسلمون لشبه الجزيرة الأيبيرية Iberia تغير الاسم لمجريط من مصطلح مجرى العربي وأيط الروماني الأيبيري بمعنى مكان[٢].

كما اختلف الباحثون فيمن أول من أسسها أو استوطنها ، فهناك من ذهب إلى الأصل الإغريقي لها ، معتمداً على اكتشاف لصورة تنين منحوتة في بويرتا سرّادا (Puerta Cerrada) في أحد الأسوار القديمة وذلك سنة١٠٠٥هـ/١٥٩٦م ، وأن الإغريق كانوا يستعملون التنين في تزيين دروع المدن وبالتالي فإنها كانت ذات يوم مستوطنة هيلينية[٣] ، وهناك من أرجعها إلى العصر الفينيقي معتمداً على تأويل أن التنين كان في الحقيقة أفعى ، وبالتالي فإن المدينة أوجدها الفينيقيون[٤] ، أما الذين يدافعون عن الأصل الروماني للمدينة فزعموا أن رمز التنين هو عبارة عن صورة للإله جوبتير[٥].

وفي أحد الأساطير أن من أسس مدريد هو أوكنو بييانور Ocno Bianor ابن الملك تيرينيوس Tyrrhenius من توسكاني[٦] ومانتوفا وكان اسم المدينة ميترأخيرتا Metragirta أو مانتو[٧].

ويرى Stewart أن مدريد كانت مستوطنة صغيرة شبه منسية ، وبحلول القرن الخامس الميلادي بدأت هذه القرية المهجورة—والتي ستصبح مدريد فيما بعد—بالامحاء من التاريخ ، وعلى الرغم من أن القوط الغربيين Visigoths أقاموا فيها بعض التحصينات الطفيفة ، إلا أنه ضاع ما قد تبقى فيها من حياة مدنية وتحولت إلى تجمع

---

١) الموسوعة الحرة على البريد الالكتروني : ar.m.wikipedia.org

٢) الموسوعة الحرة على البريد الالكتروني : ar.m.wikipedia.org

3) Stewart , Madrid. The History. p. 3

4) Stewart , Madrid. The History. p.3 .

5) Stewart , Madrid. The History. p. 3

٦) توسكانيا مقاطعة في ايطاليا الوسطى قاعدتها فلورنسا، ينظر : الخوند، الموسوعة الجغرافية التاريخية، ٣١٨/٤.

٧) الموسوعة الحرة على البريد الالكتروني : ar.m.wikipedia.org

زراعي صغير ، وبحلول القرن السادس الميلادي أخذ الكثير من سكانها بالهجرة جنوباً إلى مدينة طليطلة Toledoالتي أصبحت آنذاك مركز أسبانيا القوطية[1].

فيما ذهب باحث آخر إلى أن ما قيل إن مدريد كلمة عربية تعني مجرى المياه هو رأي اجتهادي وليس قاطع ، وأنها سميت باسم قبيلة بربرية نزلتها تدعى بني مجريط[2] ،ولم نجد في المصادر التي بين أيدينا قبيلة بربرية بهذا اللفظ ، ولعل هناك من التصحيفات في الأسماء ما يصعب التثبت منها ، فقد أشار ابن خلدون إلى أن من بطون قبيلة هوارة بنو مجريس كان موطنهم الأول في طرابلس[3] ، وذكر ابن حزم أن بعض بطون هوارة كانوا أمراء في الثغر الأندلسي منهم بنو رزين بالسهلة وبنو ذي النون بوبذة[4] ، فإذا صح انتساب اسم مجريط إلى قبيلة بربرية فالأقرب إلى ذلك هم بنو مجريس لاسيما وأن مِنّ هوارة مَنّ سكن المنطقة ، وفي تقديرنا أن هذا مجرد افتراض وليس لدينا ما يقطع بذلك.

تقع مجريط في مقاطعة قشتالة الجديدة Castilla la Nueva ، على بعد٥٠كم من طليطلة[5] ، وهي أكثر عاصمة أوربية ارتفاعاً عن سطح البحر ، إذ ترتفع بنحو٦٧٠م ، وهي عقدة مواصلات برية ونهرية[6] ، فسلسلة الجبال المحيطة بها تتخللها ممرات توصلها بباقي المناطق ، منها ممر سوموسيرا Somosirra بين مدريد وبرغش Burgos ، وممر الأسود بين مدريد وبلد الوليد Valladolid ، وممر مالقون Malagon الذي تمر فيه سكة الحديد الحالية بين مدريد وأفيلا ، فضلاً عن واد عميق بينها وبين شقوبية Segovia[7].

وحسب المصادر الإسلامية فإن مجرًيط تقع في الثغر الأوسط[8] ، ويطلق الإدريسي على هذا النطاق من بلاد الأندلس اسم إقليم الشارات Monts des sierra[9] ، قال: (إقليم

---

1) Madrid. p. 3. The History

٢) الخطابي، مدريد، حضور إسلامي على امتداد العصور، على الموقع الالكتروني m.hwspress.com.

٣) العبر، ١٨٣/٦، ١٨٧.

٤) جمهرة أنساب العرب، ص ٤٩٩.

٥) السرجاني، العاصمة الأوربية التي أنشأها العرب، على الموقع الالكتروني : islamicstory.com.

٦) الخوند، الموسوعة الجغرافية التاريخية، ٣٦٢/١ ؛ Stewart , Madrid The History. p. 3

٧) حتاملة، أيبيريا، ص ٣٢.

٨) المراكشي، المعجب، ص ٢٦٤.

٩) معنى كلمة Sierra في اللغة الأسبانية المنشار، وقد نقل العرب إلى لغتهم الكلمة إلى شارة مفرد وشارات للجمع، وهي سلسلة الجبال التي تشبه في تعاقبها أسنان المنشار، كولان، الأندلس، ص ٥٣.٥٢

الشارات وفيه طلبيرة وطليطلة ومجريط والفهمين ووادي الحجارة واقليش ووبذة...)[١] ، ومجريط تقع على سفح جبل الشارات Sierra Morada[٢] ، الذي يبدأ مما يلي طرطوشة Tortsa شرقاً وينتهي عند لشبونة Lisbon غرباً[٣].

أول ذكر لمدينة مجريط في مصادرنا الإسلامية يعود إلى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط(٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦ م) ، إلا أن المنطقة كان قد مضى على فتحها من قبل المسلمين حوالي قرن ونصف ، إذ أن مدينة طليطلة والمناطق المحاذية لها شمالاً قد فتحها طارق بن زياد سنة٩٣هـ/٧١١م ، فذكر مؤلف مجهول أن طارقاً بعد أن دخل طليطلة سلك إلى وادي الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه وبلغ مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائدة ثم مضى إلى أمايه Amaya عاد بعدها إلى طليطلة وذلك سنة ٩٣هـ/٧١١م[٤] ، وبعد توغل الفاتحين شمالاً إلى منطقة الثغر الأعلى أصبحت طليطلة ونواحيها ممراً للجيوش العابرة إلى هناك سالكين الطريق الروماني القديم الذي يشق البلاد من جنوبها إلى شمالها وقد سلكه الرومان ثم المسلمون[٥].

بعد منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي زادت هجمات نصارى جليقية على مناطق الثغر الأوسط فعمل الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط على تحصين المناطق الشمالية من طليطلة ، ففي سنة٢٤١هـ/٨٥٥م قام بتحصين مدينة طلبيرة التي تبعد عن طليطلة سبعين ميلاً[٦] إلى الشمال الغربي من طليطلة وشحنها بالمقاتلة[٧] ، وأشارت المصادر إلى أن الأمير محمد بنا أيضاً لأهل ثغر طليطلة عدة حصون منها مجريط وطلمنكة Talamaca وبنه فراطة[٨][٩] ،وهما عبارة عن خطوط دفاعية في الثغر الأوسط لمواجهة لمملكة

---

١) نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢ ؛ ينظر أيضاً : كولان، الأندلس، ص ٥٣.
٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٢/٢.
٣) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٤٦.
٤) أخبار مجموعة، ص ٢٣ -٢٤ ؛ ينظر أيضاً : ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٥ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٤.
٥) ينظر عن الطريق الروماني القديم : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٠٤/٣.
٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢٥٥١ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥.
٧) ابن عذاري، البيان المغرب، ٩٥/٢ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٩٥.
٨) أسماها ياقوت بنة وقال هي من أمال مدينة الفرج(وادي الحجارة) بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن، الأندلس من معجم البلدان، ص ٩٠.
٩) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٦٧.٢٣٢ هـ/ ٨٨٠.٨٤٦ م) ص ١٣٢ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٢، ٢٥٧ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٣، ٥٢٣ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٩٦، ٩٧، ١٩٢.

ليون ، ولم تحدد تاريخ ذلك ، وبالنسبة إلى مجريط فإن عنان ذهب إلى أن الأمير محمد بناها في حدود سنة ٢٤٦ هـ/٨٦٠م[١] ، وعليه فإن مدينة مجريط تأسست لأغراض عسكرية يرابط بها الجند لمراقبة تحركات النصارى من موقعها المنيع ، ثم توسعت بسبب حشدها بالمقاتلين حتى غدت مدينة ينزلها العمال والولاة ، وكان لها — كما قال الإدريسي- في زمن الإسلام مسجد جامع وخطبة قائمة[٢] ، وسلم إدارتها إلى بني سالم بن ورعمال المصمودي الذي نزل مدينة سالم ثم انتشر أفراد أسرته في الدائرة الواسعة المحيطة بها والتي تضم شنتبريه Santebria والسهلة Albarracin ووادي الحجارة التي نسبت إلى الفرج بن سالم فسميت مدينة الفرج نسبة إليه[٣] ، وهذه الأسرة معروفة بولائها لإمارة قرطبة[٤] حكمهم فيها حتى سنة٣١٧هـ/٩٢٩م عندما عمل عبد الرحمن الثالث الناصر على تنحيتهم[٥] حيث عملت حكومة قرطبة على تعيين ولاة عليها من قبلهم[٦].

أصبحت طليطلة وأعمالها(ومنها مجريط) في عهد الطوائف تحكم من قبل بني ذي النون (٤٢٧-٤٧٨ هـ/١٠٣٥-١٠٨٥م) ، وفي سنة٤٦٧هـ/١٠٧٤م توفي المأمون بن ذي النون (٤٣٥-٤٦٧هـ/١٠٤٣-١٠٧٤م) فخلفه حفيده يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر وكان كما يقول ابن الخطيب: (مُضعفاً كثير الحلية ، خبيث الفكرة)[٧] ، فقبض على أركان دولة جده الفقيه أبو بكر الحديدي وحبسه على الرغم من وصية جده له بالعمل برأيه ، ثم أطلق بعض من اعتقلهم الحديدي أيام حكم جده خشية انتفاضهم ، فأغروه بالأخير حتى سلمه إليهم وقتلوه ، وفي تلك الأثناء كان الفونسو السادس Alfonso VI(٤٥٨-٥٠٢هـ/١٠٦٥-١١٠٨م) ملك قشتالة يطالب القادر بتسليم الحصون القريبة منه وبمزيد من المال حتى نضبت خزائنه ، فثار أهل طليطلة عليه فخرج منها هارباً إلى أحد الحصون في حماية الفونسو ، عندها استدعى

---

١) الآثار الأندلسية الباقية، ص ٣٣١.
٢) نزهة المشتاق، ٥٥٢/٢.
٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٢/٢ ؛. طه ، الفتح والاستقرار، ص ٢٨٥ . ذكر اليعقوبي أن عليها في أيامه رحل من البربر يقال له مبتل بن فرج الصنهاجي يدعو لبني أمية ، البلدان، ص ١١١.
٤) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ١٣٢ -٢٦٧ هـ/ ٨٤٦ -٨٨٠ م) ص ٣١٥ -٣١٨ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ٢٩ -٣١.
٥) المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/ ٩١٢ -٩٤١م) ص ٢٥٤.
٦) ينظر : الدرويش والعلياوي : دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٤)، ص ٢٧ -٣٠.
٧) أعمال الأعلام، ١٧٨/٢ ؛ ينظر أيضا: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٩.

أهل طليطلة المتوكل بن الأفطس لحكم مدينتهم فدخلها ابن الأفطس سنة٤٧٢هـ/١٠٧٩م وبقي فيها عشرة أشهر ثم انسحب منها عندما علم بقدوم الفونسو والقادر ، فدخلاها لقاء مبلغ كبير من المال وتنازل له عن بعض الحصون منها حصن سرية وحصن قورية Coria وحصن قنالش Caniles وهما من ثغور طليطلة[١].

بعد هذه الأحداث غدا موقف القادر ضعيفاً جداً وتحت رحمة الفونسو السادس الذي بدأ منذ سنة٤٧٤هـ/١٠٨١م يعد العدة للاستيلاء على طليطلة عن طريق شن الغارات المتكررة على ثغورها المتبقية وتجريدها من مواردها ، ولم تجد صرخات القادر بن ذي النون بالاستنجاد بأمراء الطوائف أذن صاغية سوى مما كان من المتوكل بن الأفطس الذي أرسل قوة في سنة٤٧٤هـ/١٠٨١م للتصدي لهجمات الفونسو السادس ، وقد أشار ابن بسام إلى أن المتوكل بن الأفطس طاف في مناطق الثغر يستنفرهم للدخول في طاعته لمواجهة النصارى فأجابه أهل مجريط ورفض دعوته أهل وادي الحجارة ، وقد امتدح موقف أهل مجريط هذا الشاعر أبو الخطاب عمر بن أحمد بن عطيون التجيبي الطليطلي[٢] بقصيدة قال فيها:

بمثلك مِن مَولى ومثلي من عبدِ	يرى الناس كيف المجد أو صفة المجدِ
رميت قصيَّ الثغر بالخيل شُزّياً	هبطنَ على غوْر فأصعدن في نجد
فما شئته من لاحقٍ بطنه طوىً	وأقرابُهُ نيطت إلى كفل نهد
وأقبلتها مجريط شُعْثاً كأنها	كواسرُ عقبانٍ تقضيّن من فند
تدوسُ الإكام الجُّردَ فترتمي	سجوداً إلى أيدي سوابقك الجرد
فلما رأت مجريطُ وجهك أقبلتْ	لعزّتك القعساء في ذلّة العبد
ومدّوا يد السلم الذي أنت ربُهُ	إليك ولاذوا بالمواثيق والعهد
فأوسعتهم مناً بأمنهمُ وقد	تطلّع سيفُ الإنتقام من الغمد

---

١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣ -٨٤.
٢) وهو أحد شعراء عصر الطوائف بالأندلس امتدح المتوكل بن الأفطس واختص به، ينظر : ابن بسام، الذخيرة، ٧٧٣/٦ -٧٨٣ ؛ ابن سعيد، المغرب، ١٦/٢ -١٧.

وما حامد من ذا الورى فعل حامدٍ وقد أبرزَ البَهْمَ الضعافَ إلى الأسد

كأني أرى وادي الحجارة قد جرى دماً بهمُ حتى يُعافَ عن الورد[1]

إلا أن المتوكل بن الأفطس لم يستطع مواجهة قوى النصارى فاضطر إلى الانسحاب بعد أن خاض معارك دامية معهم[2].

وقد وصف ابن بسام حال أهل طليطلة مع القادر بن ذي النون والفونسو السادس وكيفية سقوط مدينة مجريط بيد النصارى بقوله: (... فلما كان يوم النحر سنة أربع وسبعين ، نهدوا له في عددهم وعديدهم ، وزحفوا إليه بجدهم وحديدهم ، فتجاولوا عامة يومهم في شوارعها ، يترامون بدوامغ الحتوف وقوارعها ، فأجلت الحرب عنهم قد شرقوا بغصتها ، وخلوا بينه وبين عرصتها ، وتساقطوا على أذفنوش يشكون ابن ذي النون إليه ويستصرخونه عليه ، فرماهم بحجر ، ولبس لهم جلدة نمر ، فتفرقوا بكل سبيل ، وطاروا على كل صعب وذلول ، حتى مات ابن مغيث كبيرهم الذي علمهم السحر ، وطاغوتهم الذي شرع لهم الكفر. بشيمتور من أرض قشتيلة بين الدنان والصلبان ، فسار وإلى الله إيابه ، وعليه حسابه ، ورجع بنوه أخيرا فانتزوا بمدينة مجريط ، وانحشر إليهم ذؤبان الوقائع ، وأذبة المطامع فكانت بين ابن ذي النون وبينهم أيام عدتهم له عدا ، وساقتهم إليه وردا ، حتى باد جمهورهم ، وتلاحقت أعجازهم وصدورهم ، وبلغ ابن ذي النون من هدم ربوعهم ، وصلبهم على جذوعهم ، ما يبرد صدر الموتور ، ويضحك سن الموت المبير)[3].

ويذهب بعض الباحثين إلى أن سقوط مجريط كان سنة٤٧٦ هـ/١٠٨٣م[4] ، ونص ابن بسام هنا يشير إلى أن أهل طليطلة بعد ما لحقهم الذل والصغار وضاق عليهم الحصار ، ورأوا القادر بن ذي النون يمشي ذليلاً راجلاً وراء الفونسو وحاولوا قتله في ذلك الأثناء إلا أنهم فشلوا ، فلما كان في ذي الحجة من سنة٤٧٤هـ/١٠٨١م ثاروا إلا إنهم فشلوا أمام قوة النصارى وقُتِلَ عدد منهم عندها اضطروا إلى مفاوضة الفونسو يشكون

---

١) الذخيرة، ٧٧٦/٦ -٧٧٧.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١١١/٢.

٣) الذخيرة، ١٦٢/٧ -١٦٣.

٤) Stewart , Madrid. The History. p .4. ؛ عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٣٣٢ ؛ ذنون، آفاق غرناطة، ص ١٣٤.

ابن ذي النون إليه إلا أنه لم يجبهم عندها تفرقوا البلاد ، وأشار النص إلى شخص يدعى ابن مغيث ولعله كان من نصارى طليطلة المتعاون مع الفونسو ، أو ما يعرف بالحزب المدجني أي الموالي لملك النصارى(1) ، ولهذا وصفه ابن بسام بأنه طاغوتهم الذي شرع لهم الكفر ، وكان ابن مغيث هذا يقيم في شيمتور من أرض قشتالة ، فلما توفي رجع أولاده وتغلبوا على مجريط ، فجرت بينهم وبين ابن ذي النون حروب عدة أسفرت عن قتلهم وصلبهم ، ولم يوضح النص من الذي قاتل أولاد ابن مغيث في مجريط لاسيما وأن ابن ذي النون كان مغلوباً شبه أسير عند الفونسو وقد تفرق عنه أهل طليطلة ، ولعل الثائرين من أهالي طليطلة بعد أن فقدوا الأمل في الدفاع عن طليطلة تجمعوا في مدينة مجريط لحصانتها وقهروا أبناء ابن مغيث وتشفوا بهم قتلاً وصلباً.

والراجح أن سقوط مدينة مجريط بيد النصارى كان في المدة بين٤٧٤هـ/١٠٨١م وهو تاريخ ثورة أهل طليطلة بعد انسحاب ابن الأفطس ورجوع القادر بن ذي النون تحت حماية الفونسو السادس ، وسنة٤٧٨هـ/١٠٨٥ م وهو تاريخ سقوط طليطلة نهائياً بيد الفونسو السادس وطرد القادر بن ذي النون منها ، ويرى Stewart إلى أن الفونسو زحف بقواته نحو طليطلة من مدريد التي اتخذها قاعدة لجنوده ومنها شن الغارات على طليطلة حتى تمكن من اقتحامها(2) ، وقد شرع النصارى بعد سيطرتهم عليها مباشرة إلى هدم مسجدها الجامع وبناء كنيسة عرفت فيما بعد بكنيسة سيدة المدينة Nuestra Sra. Almedina(3) ، وأصبحت فيما بعد سُنة متبعة من قبل النصارى بتحويل المساجد في المناطق التي يسيطرون عليها إلى كنائس(4) ، وهكذا سقطت مدريد بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون ومنطقتها مدة٣٨٣ سنة.

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/١١٠.

2) Stewart , Madrid. The History. p. 7.

٣) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٣٣٢.

٤) ينظر عن تحويل المساجد إلى كنائس من قبل النصارى بعد طرد المسلمين منها على سبيل المثال، مسجد قرطبة ومسجد تطيلة ومسجد سرقسطة ومسجد طليطلة ومسجد إشبيلية، سالم، المساجد في الأندلس، ص ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٣.

مدينة طليرة Talavera الأندلسية
(٩٤ -٤٧٧ هـ / ٧١٢ -١٠٨٤ م)

طلبيرة مدينة أندلسية ضبطتها المصادر بالقول: إنها بفتح أوله وثانيه ، وكسر الباء الموحدة ثم ياء مثناة من تحت ساكنة ، وراء مهملة(١) ، وهي من أعمال مدينة طليطلة Toledo وتوابعها(٢) ،ضمن منطقة الثغر الأوسط الأندلسي(٣) ، وتقع إلى الشمال قليلاً باتجاه الغرب من مدينة طليطلة إذ تبعد عنها مسافة سبعين ميلاً(٤) على الضفة اليمنى لنهر تاجه Rio Tajo(٥) ،وعلى مسافة١٣٥كم من مدينة مجريط Magerit(مدريد)(٦) ، وهي الآن تقع في منطقة كاستيا لا منتشا ومن أكبر مدن طليطلة(٧) ،وفي الحقبة الإسلامية لعبت المدينة دوراً ثغرياً مهماً ، فالبكري ذكر أنها(أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب الّتي يدخل منها إلى أرض المشركين)(٨) ، فيما قال ابن غالب : إنها(كانت حاجزاً بين المسلمين والمشركين)(٩) ، وأشار ياقوت إلى أنها(كانت حاجزاً بين المسلمين والإفرنج إلى أن استولى الإفرنج عليها ، فهي في أيديهم إلى الآن فيما أحسب ،...)(١٠)

---

١) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩١ ؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ٨٩٠/٢.
٢) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٠ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩١ ؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ٨٩٠/٢ ؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٣٢٢ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٩٥.
٣) المراكشي، المعجب، ص ٢٢٦.
٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٢/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥ ؛ والميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥ ؛ فيما قال ابن حيان : إن طلبيرة تقع على مسافة خمسين ميلا من طليطلة، ينظر : المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/ ٩١٢ -٩٤١م)، ص ٢٧٩.
٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥١/٢ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩١ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥.
٦) أرسلان، الحلل السندسية، ٤٣/٢.
7) Wikipedia. org
٨) المسالك والممالك، ٩٠٨/٢ ؛ ينظر أيضاً : الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥.
٩) فرحة الأنفس، ص ٢٠.
١٠) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩١.

وقد وصفتها المصادر بأنها مدينة قديمة أزلية ، فقال الإدريسي عنها: إنها(أزلية العمارة قديمة الآثار)[1] ، وقال الزهري: إنها(من بناء القوط Visigoths الغربيين)[2] ، فيما قال ياقوت إنها مدينة كبيرة قديمة البناء[3].

بنيت مدينة طلبيرة على جبل الشارات Sierra Morena الذي يمتد من مدينة طرطوشة Tortosa في الشمال الشرقي وينتهي عند لشبونة في الغرب على المحيط الأطلسي وهو يقسم شبة الجزيرة الأيبيرية إلى قسمين[4] ، وقد وصف القزويني موقعها الجبلي بقوله : إنها(مبنية على قلّة جبل عظيم)[5] ، والقلّة لغة هو رأس كل شيء[6] ، وهذا يعني أنها أنشئت على رأس الجبل ، وبنيت فيها قلعة وأحيطت بسور لزيادة تحصينها ، وقد امتدحت المصادر حصانتها ، فقال الإدريسي: (هي مدينة كبيرة وقلعتها أرفع القلاع حصناً ومدينتها أشرف البلاد حسناً)[7] ، وقال ابن غالب: (هي منيعة الأسوار ، عالية المنار)[8].

أما فتحها فالراجح أنه كان بجهد مشترك بين طارق بن زياد وموسى بن نصير ، إذ أن طارق بن زياد عندما عبر إلى شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia سنة٩٢هـ/٧١٠م وبعد انتصاره على الملك لذريق في معركة شذونة توجه مسرعاً نحو العاصمة طليطلة ثم توجه شمالاً حتى مدينة وادي الحجارة Guadajara ثم عاد أدراجه إلى طليطلة وذلك سنة ٩٣هـ/٧١١م وبقي بها طوال العام بانتظار موسى بن نصير[9] ، أما موسى فأنه لما عبر سلك غير الطريق الذي سله طارق حيث توجه غرباً لحماية الجانب الأيسر ، وللإشغال العدو بفتح جبهة جديدة ، فلما فتح ماردة سار منها إلى طليطلة وطلب من طارق

---

١) نزهة المشتاق، ٥٥١/٢.
٢) الجغرافية، ص ٨٥.
٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩١ ؛ ينظر أيضاً : القزويني، آثار البلاد، ص ٥٤٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥.
٤) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٣٨ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٤٦.
٥) آثار البلاد، ص ٥٤٥ ؛ ينظر أيضاً : الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥.
٦) الفراهيدي، العين، ٢٥/٥(مادة قلّ).
٧) نزهة المشتاق، ٥٥١/٢ ؛ ينظر أيضاً : الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥
٨) فرحة الأنفس، ص ٢٠.
٩) ينظر عن عمليات طارق حتى طليطلة : ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٥ -٣٦ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٤ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ٣٩ -٤٤.

الخروج لملاقاته ، وقيل إن طارق حينما توجه غادر موسى ماردة خرج لملاقاته تعظيماً له ومبادرة منه فكان اللقاء قرب طليطلة[1] في شوال من سنة ٩٤هـ/٧١٢م ، وذكر مؤلف مجهول أن اللقاء كان في طلبيرة بموضع منها يقال له بابد[2] ، ويقال كان في مكان يدعى المعرض Almaraz بين نهري تاجه والتيتار Tietar[3] ، وحسب هذه الرواية أنه في ذلك المكان التقى موسى مع لذريق ، الذي كان فرّ إلى هذه المنطقة بعد هزيمته في معركة شذونة أمام طارق سنة٩٢هـ/٧١٠م ، وتمكن موسى فيها من قتل لذريق ثم التقى بمولاه ودخلا طليطلة سنة٩٤هـ/٧١٢م[4].

إن خروج طارق من طليطلة غرباً لملاقات موسى بعد مغادرة الأخير ماردة لابد أن يكون قد صاحبه عملية تأمين الطريق الغربي المحاذي لنهر تاجه ، كما أن لقاءهما في طلبيرة يعني أنها أصبحت آمنة عسكرياً ولهذا بعد اللقاء توجها نحو طليطلة ، كما يعني أيضاً أن طريق طارق ذهاباً لوحده وإياباً مع موسى كان عبر طلبيرة ، وهو ما يرجح أن فتحها كان في ذلك الأثناء ، أي في النصف الثاني من سنة ٩٤هـ/٧١٢م.

لم تتمتع طلبيرة بعد الفتح بالهدوء قليلاً إذ شهد عصر الولاة(٩٥-١٣٨هـ/٧١٣ – ٧٥٥م) ما يسمى بالفتنة البربرية هو ثورة البربر في المغرب سنة١٢٢هـ/٧٣٩م([5]) ، فكان من أهم نتائجها على الأندلس وثغوره أن ثار بربر الأندلس(في السنة أعلاه) ولاسيما البربر القاطنين في جليقية وأخرجوا العرب من بين أظهرهم[6] ، وقد توج النصارى تلك الأحداث أن قاموا باجتياح المنطقة الواقعة بين نهري دويرة وتاجة وتمكنوا من الاستيلاء عليها وإخراج من تبقى من المسلمين منها ، وقد أشار ابن الأثير في حوادث سنة١٤٠هـ/ ٧٥٧م إلى ذلك بقوله: (في هذه السنة هلك أذفنش ملك جليقية وملك بعده ابنه تدويلية

١) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٧ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧١/١.
٢) أخبار مجموعة، ص ٢٦ -٢٧.
٣) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٣٨.
٤) مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٥٨ -١٥٩.
٥) ينظر عن ثورة البربر في المغرب سنة ١٢٢ هـ/ ٧٣٩م : ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٤٦ -٢٤٨ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٦٢ -١٦٧ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٢/١ -٥٤.
٦) ينظر التفاصيل عن تلك الفتنة وأحداثها : مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٥٣ -٢٦٤.

– وكان أشجع من أبيه وأحسن سياسة للملك وضبطاً له– وكان ملك أبيه ثماني عشرة سنة[١] ، ولما ملك ابنه قوي أمره وعظم سلطانه وأخرج المسلمين من ثغور البلاد وملك مدينة لك. وبرطقال[٢]. وشلمنقة وشمورة وأيلة وشقوبية وفشتيالة ؛ وكل هذه من الأندلس)[٣] ، وهكذا انحدرت حدود الأندلس الإسلامي إلى الخط الممتد من قلمرية Coimbra غرباً مروراً بقورية Coria وطلبيرة وطليطلة على نهر التاجه إلى وادي الحجارة وتطيلة Tudela وبنبلونة Pamplona[٤] ، إن التطورات أعلاه جعلت مدينة طلبيرة تتحول إلى مدينة ثغرية وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض المشركين[٥] ، ويكفي للتدليل على ذلك أن ابن أبي عامر انطلق منها في أحد عشر غزوة من غزواته[٦].

---

١) هناك بعض الاختلاف عن هذه الرواية عند ابن الخطيب إذ أشار إلى أن أول من ملك من النصارى في عهد الإسلام في الأندلس هو بلاية(بلاي) الذي تحصن في أرض أشتوريش مع عدد قليل من الرجال ودافع عن جهته، فقدمه أهل تلك الجهات ملكا وذلك سنة ٩٩ هـ/٧١٧ م ودام ملكه ثلاث عشرة سنة، ملك بعده ابنه أقيلة لمدة عامين ثم قتله دب بالصيد، ولي بعده صهره دون الفنش بن الروز دون بطرة(وهو أذفونش، أذفنش أعلاه) وذلك سنة ١١٤هـ/٧٣٢ م ودام ملكه تسع عشرة سنة فلما هلك ملك ابنه فريولة(لعله تدويلية عند ابن الأثير) وذلك سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠ م، قال: وفي عهده دخل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، ولما هلك فريولة ملك بعده أخوه ابن بلية واستولى على أرض أشطوريش وغليسية وأرض برتقال، وبعض ليون وكان ملكا كبيرا وكانت ولايته سنة ١٤٨ هـ/٧٥٥ م، أعمال الأعلام، ٢٧٧/٢ –٢٧٨ ؛ أما قائمة ابن خلدون فهي تختلف عما ذكره ابن الأثير وابن الخطيب إذ قال : إنهم ملكوا عليهم ابن ناقلة فأقام ملكا تسع عشرة سنة وهلك سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وولي ابنه قافلة سنتين ثم هلك، فولوا عليهم ادفونش بن بطرة وكان مهلكه سنة اثنتين وأربعين ومائة، وولي بعده ابنه فرويلة إحدى عشرة سنة فاسترجع مدينة لك وبرتغال وسمورة وسلمنقة وشقوبية وقشتالة بعد أن كانت للمسلمين في الفتح وهلك سنة ثمان وخمسين ومائة، تاريخ، ١٨٠/٤. وواضح أن هناك اضطراباً في بعض التواريخ والأسماء بين القوائم الثلاثة، راجع مناقشة ذلك : مؤنس، فجر الأندلس، ص ٣٨٩ –٣٩٥ ؛ عنان، دولة الإسلام، ١/ ٢١٣ –٢١٦.

٢) قال البكري : برتقال مدينة بالأندلس تقع عند مصب آنه على البحر المحيط، المسالك والممالك، ١٨٠/١ ؛ وقال الإدريسي : البرتقال بلاد تضم عدة مدن وعرض أرضها مسيرة يوم، نزهة المشتاق، ٧٢٥/٢، ٧٣١.

٣) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٩٣ ؛ ينظر أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٥/١.

٤) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٦٢ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ١٣٥.

٥) البكري، المسالك والممالك، ٩٠٨/٢.

٦) ينظر : الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٥)، ص ١٥٠ –١٥١.

وبعد سقوط الخلافة الأموية[1] تمزقت الأندلس إلى طوائف ودويلات وأصبحت طلبيرة ومنطقتها من ضمن مناطق بني ذي النون ، وفي عهد أميرها القادر(٤٦٧–٤٧٨هـ/١٠٧٤–١٠٨٥م) وبسبب ضعفه تهالكه في أحضان ملك قشتالة الفونسو السادس Alfonao VI (٤٥٨–٥٠٢ هـ/١٠٦٥–١١٠٨م) فقد اسخط أهالي طليطلة عليه الذين قاموا بطرده منها واستدعوا أمير بطليوس المتوكل بن الأفطس(٤٦٠– ٤٨٧هـ/١٠٦٧–١٠٩٤م) سنة٤٧٢هـ/١٠٧٩م الذي بقى في طليطلة عشرة أشهر ثم اضطر للخروج منها تحت ضغط قوات الفونسو السادس الذي أعاد القادر إليها شبه أسير ، وقد أخذ يعد العدة لاجتياحها بشن الغارات على أطرافها من سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م ثم ضرب عليها الحصار في خريف سنة٤٧٧هـ/١٠٨٤م وبعد تسعة أشهر تمكن من اجتياحها واتخاذها عاصمة له بعد أن حكمها المسلمون مدة٣٧٠ عاماً[2].

كانت مدينة طلبيرة تابعة إلى أملاك بني ذي النون حكام طليطلة ولهذا واصل الفونسو السادس استيلائه على جميع أملاك مدينة طليطلة إذ أشار ابن الكردبوس إلى أنه (لما حصل الطاغية الفنش لعنه الله بطليطلة شمخ بأنفه ، ورأى أن زمان الأندلس قد حصل في كفه ، فشن غاراته على جميع أعمالها ، حتى فاز باستنزاف جميع أقطار ابن ذي النون واستأصلها وذلك ثمانون منبراً ، سوا البنيات والقرى المعمرات وحاز من وادي الحجارة إلى طلبيرة وفح اللج وأعمال شنتمرية كلها)[3]

والراجح أن سقوط طلبيرة بيد الفونسو السادس كان قبيل سقوط مدينة طليطلة ، إذ ليس من المعقول أن يقوم الملك النصراني بمحاصرة طليطلة ويترك خلفه مدينة طلبيرة بيد المسلمين وهو ما يشكل خطراً عسكرياً عليه ، وقد أشار ابن بسام إلى ذلك بقوله :(فغرا الطاغية أفونش بن فرذلند فمه على ثغوره المثغورة ، فجعل لوقته يطويها طي

---

١) ينظر التفاصيل عند سقوط الخلافة الأموية في الأندلس، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦٤٢/١ وما بعدها؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٠٩ – ٢١٧.

٢) ينظر عن سقوط طليطلة، ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس، ص ٨٧، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ١٠٧ – ١١٣ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٣٤ – ٣٣٥ ؛ العمايرة ، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص ١٢٨ -١٣٢.

٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٧. ينظر أيضاً : اشباخ ، تاريخ الأندلس، ٦٥/١.

السجل للكتاب ، وينهض فيها نهضة الشيب في الشباب ، وابن ذي النون يلقمه أفلاذ كبده ، ويرجمه بسبده ولبده ، وأذونش لعنه الله لا يقنع منه بصيد العنقاء ، ولا ببيض الأنوق ، بل يكلفه إحضار الأبلق العقوق ، ويسومه درك الشمس ، ويطلبه برد أمس ، فلما أكل الإنفاق ثبج ماله ، وأخذ الخناق بكظم احتياله ، وأحس العدو المشاق بذلك من حاله ، سما إلى معاقله المنيعة ، وذرى أملاكه الرفيعة...)[١] ، وهذا يعني أن الفونسو أخذ بالاستيلاء على أعمال طليطلة وتوابعها وأطرافها حتى أحكم الحصار عليها وقطع الميرة عنها ، وعليه فالراجح أن سقوط طلبيرة كان في المدة بين سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م وهي السنة التي تنازل فيها القادر بن ذي النون للفونسو عن عدد من حصون طليطلة أهمها حصن سرية[٢] وحصن قورية Coria وحصن قنالش Caniles[٣] ، وسنة٤٧٧ هـ/١٠٨٤م وهي السنة التي أحكم فيها الفونسو الحصار التام على طليطلة[٤].

وعندما دخل النصارى المدينة كان أهم عمل قاموا به هو أنهم عملوا على تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة[٥] ،وكان ذلك سُنة متبعة من قبل النصارى بتحويل المساجد في المناطق التي يسيطرون عليها إلى كنائس[٦] ، وهكذا سقطت طلبيرة بعد أن حكمها المسلمون مدة ٣٨٣ سنة.

---

١) الذخيرة، ١٥٦/٧.

٢) عند ابن بسام حصن سرنه، الذخيرة، ٢٤٩/٣.

٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣ .

٤) ابن بسام، الذخيرة، ١٦٣/٧ -١٦٩.

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٢/٤.

٦) ينظر عن تحويل المساجد إلى كنائس من قبل النصارى بعد طرد المسلمين منها على سبيل المثال مسجد قرطبة ومسجد تطيلة ومسجد سرقسطة ومسجد طليطلة ومسجد إشبيلية : سالم، المساجد في الأندلس، ص ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٣.

طليطلة Toledo الأندلسية

(٩٣ -٤٧٨ هـ/٧١١ -١٠٨٥ م)

وهي قاعدة بلاد أسبانيا قبل الإسلام ومن بناء القوط ودار ملكهم ، ومن أمهات مدن الأندلس الأربعة وهم: قرطبة وإشبيلية وماردة وطليطلة[١] ، ومعنى طليطلة في اللسان اللاتيني "فرح ساكنها" وذلك لحصانتها ومنعتها[٢] ، وقيل بل سماها القيصر بزليطة أي أنت فارح ، فعربها العرب طليطلة[٣] ، وقال ياقوت: ضبطها الحميدي: (بضم الطاءين وفتح اللامين ، وأكثر ما سمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية)[٤] ، وتسمى مدينة الملوك لأنه ملكها اثنان وسبعون إنساناً[٥].

وهي قاعدة الثغر الأدنى الأندلسي[٦] ومتوسطة بلاد الأندلس[٧] ، وصفها ابن بسام بقوله: (وهي من الجزيرة كنقطة الدائرة ، وواسطة القلادة ، تدركها من جميع نواحيها ، ويستوي في الأضرار بها قاصياً ودانيها)[٨] ، كما وصفها الإدريسي بالقول :(وهي مدينة عظيمة القطر كثيرة البشر حصينة الذات لها أسوار حسنة ولها قصبة فيها حصانة ومنعة وهي أزلية من بناء العمالقة وقليلا ما رؤي مثلها إتقانا وشماخة بنيان وهي عالية الذرى حسنة البقعة زاهية الرقعة وهي على ضفة النهر الكبير المسمى تاجه ولها قنطرة من عجيب البنيان وهي قوس واحدة والنهر يدخل تحت تلك القوس كله بعنف وشدة

---

١) البكري، المسالك والممالك، ٩٠٧/٢ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٩ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٩١.

٢) البكري، المسالك والممالك، ٩٠٧/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.

٣) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٨/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٦١/١.

٤) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٤.

٥) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٤ ؛ القزويني، آثار البلاد، ص٥٤٥ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٦١/١.

٦) المقري، نفح الطيب، ١٦١/١.

٧) المراكشي، المعجب، ص ٣٦٤.

٨) الذخيرة، ٢٤٩/٣.

جري ومع آخر القنطرة ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعا وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة والماء يجري على ظهرها فيدخل المدينة)[١].

أما المسافات بينها وبين ما جاورها من بلاد الأندلس ، فقال الإدريسي هي مركز البلاد (وذلك أن منها إلى مدينة قرطبة بين غرب وجنوب تسع مراحل ، ومنها إلى لشبونة غرباً تسع مراحل ، ومن طليطلة إلى شنت ياقوب على بحر الانقليشين تسع مراحل ، ومنها إلى جاقاً شرقاً تسع مراحل ، ومنها إلى مدينة بلنسية بين شرق وجنوب تسع مراحل ، ومنها أيضا إلى مدينة المرية على البحر الشامي تسع مراحل)[٢].

أما فتحها فقد كان في سنة٩٣هـ/٧١١من قبل طارق بن زياد ، ذلك أنه عندما عبر إلى شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia سنة٩٢هـ/٧١٠م وبعد انتصاره على الملك لذريق في معركة شذونة توجه مسرعاً نحو العاصمة طليطلة فوجدها خالية إذ لحق من كان بها إلى خلف الجبل ، ثم توجه شمالاً حتى مدينة وادي الحجارة Guadajara ثم عاد أدراجه إلى طليطلة وذلك سنة٩٣هـ/٧١١م وبقي بها طوال العام بانتظار موسى بن نصير[٣].

كانت مدينة طليطلة في أغلب تاريخها حتى سقوطها مصدر قلق للسلطة في قرطبة ، ولعل ذلك يرجع إلى تأثير البيئة الجغرافية على الأحداث التي مرّت بها المدينة تحت الحكم الإسلامي ، فقد شجعت وبشكل كبير على بث روح التمرد والثورة ضد حكومة قرطبة وقدمت الحماية الطبيعية لهم ، فنهر تاجة إلى جنب السلاسل الجبلية العالية جعل من الصعب على الجيوش الوصول إليها إلا بعد جهد كبير فضلاً عن الوقت الذي تحتاجه ما يجعلها تصل إلى طليطلة وهي منهكة[٤] ، ثم التركيبة السكانية للمدينة الذي كان مزيجاً من العرب[٥] والبربر[١] والمولدين[٢]

---

١) نزهة المشتاق، ٢/٥٥١.

٢) نزهة المشتاق، ٢/٥٣٦.

٣) ينظر عن عمليات طارق حتى طليطلة : ابن عبد الحكم، فتح مصر والمغرب، ص ٢٣٤ -٢٣٥ ؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٥ -٣٦ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٤ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ٣٩ -٤٤ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ١/٢٦٥.

٤) الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، مدن حصون طليطلة، سلسلة رقم(٤)، ص ٧.

٥) ينظر عن استقرار العرب في طليطلة : مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤١١، ٤١٣، ٤١٦ ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٢١، ١٢٢ ؛ السلمي، تاريخ مدينة طليطلة، ص ١٧٣.

١) ينظر عن استقرار البربر في طليطلة : مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٢٦ ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٢٥

٢) كانت طليطلة تضم اكبر طائفة من المولدين : ينظر : سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٢٩ ؛ السلمي، تاريخ مدينة طليطلة، ص ١٧٥.

والمستعربين من النصارى[1] ثم اليهود[2] ، ومن كثرة الثورات التي شهدتها أشيع عنها يوجد (في كتب الحدثان كان يقال: طليطلة الأطلال ، بنيت على الهرج والقتال ، إذا وادعوا الشرك ، لم يقم لهم سوقة ولا ملك ، على يد أهلها يظهر الفساد ، ويخرج الناس من تلك البلاد)[3] ، وأنها(على قديم الدهر أهل فتنة وقيام على الملوك)[4].

ويكفي للتدليل على ذلك أنها شهدت في مدة حكم الأمير عبدالرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٥-٧٨٨م) فقط خمس ثورات ، فيوسف الفهري عندما فرّ أمام قوات عبدالرحمن الداخل سنة١٤١هـ/٧٥٨م توجه إلى طليطلة للاحتماء بها[5] ، ثم ثورة هشام بن عذرة الفهري سنة ١٤٤هـ/٧٦١م والتي استمرت أعواماً عديدة[6] ، بعدها ثار أحد قادة عبد الرحمن ويدعى السلمي وفرّ نحو طليطلة وتحصن بها[7] ، كما أن محمد بن يوسف الفهري عندما فرّ من سجنه سنة١٦٨هـ/٧٨٤م توجه نحو طليطلة[8] ، وبعد مقتله خلفه في الثورة أخوه القاسم بن يوسف الفهري[9] ، وهكذا طيلة عهد الإمارة(١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م) شهدت العديد من الثورات[10] ، واستمروا مصدر قلق في بداية عهد عبد الرحمن الناصر حتى غزاهم سنة٣٢٠هـ/٩٣٢م حيث وأوقع بهم وهجّر العديد منهم[11] ، بعدها وبسبب قوة الدولة ركنوا إلى الهدوء والطاعة.

أصبحت طليطلة في عهد الطوائف تحكم من قبل بني ذي النون(٤٢٧-٤٧٨ هـ/ ١٠٣٥-١٠٨٥م)[1] ، وفي سنة٤٦٧هـ/١٠٧٤م توفي المأمون بن ذي النون(٤٣٥-٤٦٧هـ/١٠٤٣-١٠٧٤م) فخلفه

---

١) ينظر عن المستعربين في طليطلة: سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٣١، ١٣٢ ؛ السلمي، تاريخ مدينة طليطلة، ص ١٧٤.

٢) ينظر عن اليهود في طليطلة: السلمي، تاريخ مدينة طليطلة، ص ١٧٤.

٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٧٦/٣.

٥) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٩١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٤٩/٢.

٦) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٩٤.

٧) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٠١ -١٠٢ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٧

٨) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١١١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٧/٢ -٥٨.

٩) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١١٢ ؛ النويري، نهاية الأرب، ٢٠٤/٢٣.

١٠) ينظر التفاصيل عن الثورات في طليطلة في عهد الإمارة : السلمي، تاريخ مدينة طليطلة، ص ٣٩ -٧٤

١١) ينظر التفاصيل عن ثورة أهل طليطلة سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م : ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/٩١٢ -٩٤١م)، ص ٢٨٧ -٢٨٨، ٣١٧ -٣٢٢ ؛ السلمي، تاريخ مدينة طليطلة، ص ٧٥ -٨٠

١) ينظر التفاصيل عن حكم بني ذي النون في طليطلة : ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٧٦/٣ -٢٨٣ ؛=

حفيده يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر وكان كما يقول ابن الخطيب: (مُضعفاً كثير الحلية ، خبيث الفكرة)[1] ، وكان المأمون قد أوصى حفيده أن يعتمد على الفقيه أبي بكر بن الحديدي الذي كان أحد أركان دولته وأن يأخذ برأيه ، كما أخذ على الحديدي النصح له ، ولكن لم تمض سوى مدة قليلة حتى وشى إلى القادر بعض خصوم الحديدي فقبض عليه وحبسه وأغرى به خصومه فقتلوه وذلك سنة٤٦٨هـ /١٠٧٥م[2] ، وقد أثار ذلك العمل أهل طليطلة فثاروا على القادر وسادت حالة من الفوضى في طليطلة لم يستطع القادر مواجهتها ، فكتب إلى الفونسو السادس(٤٥٨-٥٠٢هـ/١٠٦٥-١١٠٨م) بالمساعدة ، فوجه إليه أن أرسل المال إن كنت تريد الدفاع ، فجمع القادر الرعية وطالبهم بالمال فلما رفضوا هددهم قائلاً: (أقسم لئن لم تحضروني هذا المال الذي طلب في الحين ، لأجعلن عنده رهناً جميع من عندكم من العيال والبنين)[3] ، فقرروا عدم طاعته وهاجوا ضده ففر مع بعض أعوانه إلى قونقة تاركاً طليطلة بدون حاكم فاستدعى أهل طليطلة المتوكل عمر بن المظفر بن الأفطس حاكم بطليوس فدخلها سنة٤٧٢هـ/١٠٧٩م وأقام فيها نحواً عشرة أشهر ، وكان فيها كما يقول ابن بسام: (أضل من يد في رحم ، وأذل من لحم على وضم)[4].

عندها التجأ القادر مرة أخرى إلى الفونسو واتفقا على إخراج ابن الأفطس منها على أن يجعل جميع أموالها في يديه وأن يعطيه حصن سرية وقورية رهناً فأعطاها له ، وحاصر طليطلة أشد الحصار مما اضطر ابن الأفطس على الفرار منها ، وقد وصف ابن بسام حال طليطلة عند فرار ابن الأفطس منها بقوله: (فرّ وتركهم كالسفينة خانتها الريح ، والجسد بان عنه الروح ، بين ناب الطاغية أذفونش وظفره)[5] ، ودخل الفونسو والقادر المدينة واستأصل الأخير جميع أموالها ، فلم يقبلها الفونسو منه ، ثم أحضر جميع ما كان عنده من نفيس الذخائر الموروثة عن أبيه وجده فلم يف بما قاطعه ، فقال له الفونسو أعطني حصن قنالش

=ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٧٥/٢ -١٧٩ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٩٤/٢ -١١٦.

١) أعمال الأعلام، ١٧٨/٢ ؛ ينظر أيضا: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٩.

٢) ابن بسام، الذخيرة، ١٥٤/٧ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٣/٢.

٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٢.

٤) ابن بسام، الذخيرة، ١٥٩/٧.

٥) الذخيرة، ١٦١/٧.

فأعطاه إياه عنها انصرف الفونسو إلى قشتالة وكان ذلك سنة٤٧٤هـ/١٠٨١م[١].

هال أهل طليطلة ما حدث بهم ففر بعضهم إلى خارجها ، منهم من ذهب إلى مجريط ومنهم من التجأ إلى ابن هود ، كما ثار من بقي منهم ضد القادر ، قال ابن بسام: (نهدوا له في عددهم وعديدهم ، وزحفوا إليه بجدهم وحديدهم ، فتجاوالوا عامة يومهم في شوارعها ، يترامون بدوامغ الحتوف وقوارعها ، فأجلت الحرب عنهم قد شرقوا بغصتها ، وخلوا بينه وبين عرصتها ، وتساقطوا على أذفنوش يشكون ابن ذي النون إليه ويستصرخونه عليه ، فرماهم بحجر ، ولبس لهم جلدة نمر ، فتفرقوا بكل سبيل ، وطاروا على كل صعب وذلول)[٢].

وإزاء الخلل الكبير الذي حلّ بطليطلة ضعف دفاعاتها وتفرق أهلها كان أمراء الطوائف في الأندلس كما أن نصارى قشتالة يتنافسون للحصول على نصيب من الدويلة الضعيفة كل من جهته فابن عباد من الجنوب أخذ يقتطع أملاكها وابن هود من الشرق دون أن يعوا خطورة ذلك على مصير المدينة ، وقد علق ابن الكردبوس على ذلك بقوله: (وزحف كل ثائر إلى بلاد القادر طمعاً في تملكها ، والحصول على قطب فلكها ، فابن عباد يشن عليه الغارات من الغرب ، وابن هود يذيقه من الشرق ، غصص الكرب)[٣].

بعد هذه الأحداث غدا موقف القادر ضعيفاً جداً وتحت رحمة الفونسو السادس الذي بدأ منذ سنة٤٧٢ هـ/١٠٧٩م يعد العدة للاستيلاء على طليطلة عن طريق شن الغارات المتكررة على ثغورها المتبقية وتجريدها من مواردها ، ناكثاً بذلك العهود وروابط الصداقة التي كانت تربطه ببني ذي النون[٤] ، وقد أشار أشباخ إلى ذلك قائلاً: (نسي

---

١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣ -٨٤ ؛ السلمي، تاريخ مدينة طليطلة، ص ١٢٥.

٢) الذخيرة، ١٦٣/٧.

٣) تاريخ الأندلس، ص ٨٤.

٤) كان الملك فرناندو الأول(٤٢٦ -٤٥٨ هـ/١٠٣٤ -١٠٦٥ م) قد قسم المملكة الاسبانية بين أولاده فكانت قشتالة من نصيب سانشو وليون من حصة الفونسو وجليقية والبرتغال من حصة غرسية، وبعد وفاته نشب النزاع بين الأخوة حول مناطق النفوذ، فهاجم سانشو ليون واضطر أخوه الفونسو إلى الفرار والتجأ إلى طليطلة سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨م فرحب به ملكها المأمون بن ذي النون وأنزله بجوار قصره، وبقي بضيافة المأمون تسعة أشهر كان خلالها يتربص بجنبات المدينة ويفكر في وسائل اقتحامها إذا سنحت له الفرصة، وفعلاً شاءت الأقدار أن تتطور الأحداث في قشتالة، ذلك أن سانشو طمع في الاستيلاء على أملاك أخيه الأصغر=

الأمير الظمىء إلى الفتح كل ما يفرضه العرفان والصداقة ، وتفرضه العهود ، واستعان بمعرفته لنواحي طليطلة أيام إقامته منفياً بها ، على الغدر بأولئك الذين أولوه حمايتهم ورعايتهم ، وقد شعر المؤرخون النصارى بلا ريب بفداحة هذا العدوان)[1] ، ولم تجد صرخات القادر بن ذي النون بالاستنجاد بأمراء الطوائف أذن صاغية سوى مما كان من المتوكل بن الأفطس الذي أرسل قوة في سنة٤٧٤هـ/١٠٨١م للتصدي لهجمات الفونسو السادس ، وقد أشار ابن بسام إلى أن المتوكل بن الأفطس طاف في مناطق الثغر يستنفرهم للدخول في طاعته لمواجهة النصارى فأجابه أهل مجريط ورفض دعوته أهل وادي الحجارة[2] ، إلا أن المتوكل بن الأفطس لم يستطع مواجهة قوى النصارى فاضطر إلى الانسحاب بعد أن خاض معارك دامية معهم[3].

ومنذ ذلك الحين أخذ الفونسو السادس في حصار طليطلة وذلك لاستنزاف طاقاتها وتجريدها من كل وسائل المقامة ، ففي كل عام يجتاح بقواته أراضيها من سائر جنباتها ، ويخرب الضياع ، ويقطع الأشجار ، ويبيد الزروع ، ويسبي الذرية ، ولا يجد أمامه من يرده عن ذلك العيث ، وكان من الواضح أن هذه الأعمال المدمرة ، سوف تنتهي بالقضاء على كل موارد طليطلة ، وبتجريدها من وسائل الدفاع عنها[1] ، فيما كانت الجبهة

= غرسية، وكان الأخير قد أساء السيرة في معاملة الرعية حتى ضاقوا به ذرعاً، ولهذا لم يجد سانشو صعوبة في الإطاحة به، ثم توجه نحو مدينة سمورة وأثناء حصارها قتل من قبل أحد الجنود وذلك سنة ٤٦٥ هـ /١٠٧٢ م، عندها قرر القشتاليون استدعاء الفونسو ليتولى الحكم مكان أخيه، فلما وصل النبأ إلى المأمون بن ذي النون أبدى سروره واستعداده لمساعدته على أن يقطع عهداً له بأن يحترم صداقته، فقطع له الفونسو له ما شاء من الوعود، فقدم له المأمون الهدايا وأوصله إلى حدود بلاده واعتلى العرش في كل من ليون وجليقية وبذلك أعاد توحيد أسبانيا النصرانية، ولم تمض مدة يسيرة حتى توفي المأمون بن ذي النون وتولية حفيده القادر بالله الحكم في طليطلة عندها عمل الفونسو السادس على تنفيذ مشروعه الذي خطط له عندما كان لاجئاً بالاستيلاء على طليطلة، وهكذا أخذ يغير على أراضيها وينتسف زروعها مما اضطر حاكمها القادر إلى الخضوع له ودفع الجزية وذلك سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م، ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٤/ ٥٠ -٥٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٣٨٩ -٣٩٧ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٣٤ -٣٣٥.

١) تاريخ الأندلس، ١/ ٦١.

٢) الذخيرة، ٦/ ٧٧٦ -٧٧٧.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ١١١.

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ١١٠.

الداخلية بطليطلة مفككة بسبب الثورات التي قام بها الأهالي على حاكمها القادر والذي من جانبه سامهم العذاب والهوان ، وقد وصف ابن بسام حالتهم مع أميرهم بقوله: (وأخذ ابن ذي النون أهل طليطلة لحين استقراره فيها بفك تلك المعاقل ، وأداء ما كان ضمن لأذفنوش من الأموال الجلائل ، فضرب مدبرهم بمقبلهم ، وولى آخرهم كبر أولهم ، حتى طمع فقيرهم في غنيهم ، واجترأ ضعيفهم على قويهم ، وأصبح الرجل منهم يرتاع من ظله ، ويلتفت وإنما هو بين أهله)[1].

وأمام شدة الحصار واليأس من الحاكم أو النجدة من الخارج قرر أهالي المدينة التوجه إلى الفونسو السادس من أجل دفعه عنهم بتقديم الأموال له على أن يبقيهم على حالهم ، وقد صور ابن بسام ذلك اللقاء بقوله: (فأدخل على أذفنوش يومئذ جماعة فوجدوه يمسح الكرى من عينيه ، ثائر الرأس ، خبيث النفس ، وجعلوا ينظرون إليه وهو يضعف ثغامة رأسه ، فما نسوا دفر أطماره ، ودرن أظفاره ، ثم أقبل عليهم بوجه كريه ، ولحظ لا يشكون أن الشر فيه ، وقال لهم: إلى متى تتخادعون ، وبأي شيء تطمعون—قالوا: بنا بغية ، ولنا في فلان وفلان أمنية ، وسموا له بعض ملوك الطوائف ، فصفق بيديه ، وتهافت حتى فحص برجليه ، ثم قال: أين رسل ابن عباد – فجيء بهم يرفلون في ثياب الخناعة ، وينبسون بألسنة السمع والطاعة ، فقال لهم: مذ كم تحومون عليّ ، وترومون الوصول إليّ–ومتى عهدكم بفلان ، وأين ما جئتم به ولا كنتم ولا كان– فجاءوا بجملة ميرة ، وأحضروا بين يديه كل خيرة خطيرة ، ثم ما زاد على أن ركل ذلك برجله ، وأمر بانتهابه كلّه ، ولم يبق ملك من ملوك الطوائف إلا أحضر يومئذ رسله ، وكانت حاله حال من كان قبله ، وجعل أعلاجه يدفعون في ظهورهم ، وأهل طليطلة يعجبون من ذلّ مقامهم ومصيرهم ، فخرج مشيختها من عنده وقد سقط في أيديهم ، وطمع كل شيء فيهم...)[2].

وأمام هذا الحال كانت نهاية مدينة طليطلة بعد أن قطعوا الأمل في الناصر والمعين وأرهقهم الحصار والذل المهين ، وتحقق للقادر أن لا طاقة له في الدفاع عنها ، فكتب للفونسو السادس تخلى له عنها على أن يعينه على تملك بلنسية ، فأسرع إليه الأخير ودخل المدينة

---

1) الذخيرة، ١٦٣/٧.

2) الذخيرة، ١٦٦/٧ -١٦٧ ؛ ينظر أيضا : ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٨٠/٢.

واتفق مع أهلها على العديد من الأمور أجملها ابن الكردبوس بقوله: (وأخلى له البلد ، وحصل فيها بالأهل والولد ، بعد أن شرط عليه من فيها من المسلمين أن يؤمنهم في أنفسهم وأموالهم وبنيهم ، وأن من أحب منهم الخروج لم يمنع منه ، ومن أحب المقام لم يلزمه سوى أداء الجزية على عدد ما عنده من الأشخاص ، وإن رجع بعد رحيله نزل على ما كان بيده من عقار دون تعرض عليه في كثيره ولا في قليله ، فعاهدهم على ذلك ، وأعطاهم صفقة يمين ، وأقسم لهم أن لا يغدر في ذلك ولا يمين)[1].

أما القادر بالله فقد وصف ابن بسام حاله عند دخول النصارى طليطلة بقوله: (وخرج ابن ذي النون خائباً مما تمناه ، شرقاً بعقبى ما جناه ، والأرض تضج من مقامه ، وتستأذن في انتقامه ، والسماء تود لو لم تطلع نجماً إلا كدرته عليه حتقاً مبيداً ، ولم تنشئ عارضاً إلا مطرته عذاباً فيه شديداً ، واستقر بمحلة أذفنوش مخفور الذمة ، مذال الحرمة ، ليس دونه باب ، ولا دون حرمه ستر ولا حجاب ، حدثني من رآه يومئذ بتلك الحال وبيده اصطرلاب يرصد فيه أي وقت يرحل ، وعلى أي شيء يعول ، وأي سبيل يتمثل ، وقد أطاف به النصارى والمسلمون ، أولئك يضحكون من فعله ، وهؤلاء يتعجبون من جهله)[2].

وأشار ابن الأثير إلى سقوط طليطلة بقوله: (وسبب ذلك أن الأذفونش ، ملك الفرنج بالأندلس ، كان قد قوي شأنه ، وعظم ملكه ، وكثرت عساكره ، منذ تفرقت بلاد الأندلس ، وصار كل بلد بيد ملك ، فصاروا مثل ملوك الطوائف ، فحينئذ طمع الفرنج فيهم ، وأخذوا كثير من ثغورهم ، وكان قد خدم قبل ذلك صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيى بن ذي النون ، وعرف من أين يؤتى البلد ، وكيف الطريق إلى ملكه ، فلما كان الآن جمع الأذفونش عساكره وسار إلى مدينة طليطلة فحصرها سبع سنين ، وأخذها من القادر)[3].

أما الفونسو السادس ملك قشتالة فقد علا شأنه وتوطدت منزلته بين الملوك الأسبان وتلقب بالإمبراطور ورأى في نفسه أنه سيملك الجزيرة بأكملها وباشر باستخلاص جميع أعمال طليطلة فيما تهاوى إليه ملوك الطوائف مذعنين إليه مجيبين لما يبتغيه ، وقد وصف

---

١) تاريخ الأندلس، ص ٨٤ -٨٥ ؛ ينظر أيضاً : أشباخ، تاريخ الأندلس، ٦٤/١.

٢) الذخيرة، ١٦٧/٧.

٣) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٠٠.

ابن الكردبوس حاله وشموخه وحال أمراء الطوائف بقوله: (ولما حصل الطاغية الفنش لعنه الله بطليطلة ، شمخ بأنفه ، ورأى زمام الأندلس قد حصل في كفه ، حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبراً سوى البُنيّات ، والقرى المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة إلى طلبيرة ، وفحص اللج وأعمال شنتمرية كلها ، فلم يكن بالجزيرة مَن يلقى أقلّ كلب من كلابه ، فعند ذلك وجه كل رئيس بالأندلس رسله إلى الفنش مهنئين ، وبأنفسهم وأموالهم مفتدين ، وفي أن يشركهم في بلادهم له عاملين ، ولأموالهم إليه جابين ، حتى أن صاحب شنتمرية حسام الدين ابن رزين نهض إليه بنفسه وتحمّل هدية عظيمة القدر سنية متقرباً إليه وراغباً أن يقره في بلده عاملاً بين يديه ، فجازاه على هديته بقرد وهبه إياه ، فجل ابن رزين يفخر به على سائر الرؤساء ويعتقد أنه جُنّتُه مما كان يحذر من الفنش من وقوع البأساء ، وانتحى الفنش انتحاء الجبابرة ، وأنزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله الإعجاب ما احتقر به كل ماش على التراب ، وتسمى بالإمبراطور ، وهو بلغتهم أمير المؤمنين ، وجعل يكتب في كتبه الصادرة عنه من الإمبراطور ذي الملتين وأقسم لأرْسال الرؤساء ، أنه لا يترك في الجزيرة من الثوار أحداً ، ولا يبقى لهم ملتحدا ، سوى ما اكتنفته رعايتي ، وشملته عنايتي)[1].

وكان سقوط طليطلة بيد النصارى في منتصف محرم من سنة٤٧٨هـ/١٠٨٥م[2] ، وقيل يوم الأربعاء العاشر من محرم من سنة٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، وقيل في مستهل صفر من السنة نفسها[3] ، وقيل سنة٤٧٧هـ/١٠٨٤م[4] ، وقيل سنة٤٧٥هـ/١٠٨٢م[5] ، ويرجح عنان أن سقوطها كان في فاتحة صفر سنة٤٧٨هـ الموافق الخامس والعشرين من مايو سنة١٠٨٥م[1] ، وفي ربيع من السنة نفسها عمل الفونسو على تحويل مسجدها إلى كنيسة[2] ، وهكذا سقطت المدينة بعد أن حكمها المسلمون مدة٣٨٥ سنة.

---

١) تاريخ الأندلس، ص ٨٧ -٨٩.
٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥.
٣) المقري، نفح الطيب، ٣٥٣/٤.
٤) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٤.
٥) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ١٣/٢.
١) دولة الإسلام في الأندلس، ١١٤/٢ ؛ ينظر أيضاً : أشباخ، تاريخ الأندلس، ٦٤/١.
٢) ابن بسام، الذخيرة، ١٦٨/٧.

مدينة وبذة Huete الأندلسية

(٩٣ -٤٧٨ هـ / ٧١١ -١٠٨٥ م)

ورد اسم المدينة في المصادر العربية بألفاظ مختلفة بعض الشيء ، فجاءت بلفظ (وبذة أو وبذى)[١] ، وذكرها مؤلف مجهول بلفظ وبرة[٢] ، والراجح أن ذلك فيه تصحيف ، ويبدو أن الاختلاف في رسم اللفظ قد اختلط على ياقوت أيضاً فذكرها مرتين في مكانين مختلفين مرة بلفظ وبذة وأخرى بلفظ وبذى[٣].

تقع مدينة وبذة في الثغر الأوسط الأندلسي ، وتعد من أعمال كورة شنتبرية Santebria[٤] ، كما أن الأخيرة تعد من مدن طليطلة Toledo المهمة[٥] ، إذ أن المسافة بين مدينتي شنتبرية وطليطلة سبعون ميلاً[٦] ، وهي من مدن الثغر الأوسط الأندلسي[٧].

وجعل الإدريسي مدينة وبذة ضمن إقليم الشارات Morena بقوله: (إقليم الشارات وفيه طلبيرة وطليطلة ومجريط والفهمين ووادي الحجارة واقليش ووبذة...)[٨] ، وهي تبعد عن مدينة أقليش Ucles مسافة ثمانية عشر ميلاً[٩] ، وقد أشار الحميري إلى قرب المسافة بين المدينتين بقوله: (وبذة مدينة بالأندلس ، وهي حصن على وادٍ بقرب أقليش ،...)[١] ،

---

١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢، ٥٦٠ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٩٣ ؛ مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٧.

٢) تاريخ الأندلس(تحقيق مولينا) ص ٥٨.

٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٩٣ .

٤) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٩٣.

٥) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ -٩١٢ م) ص ٣٦.

٦) مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٨ ؛ والميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٨.

٧) المراكشي، المعجب، ص ٢٦٦

٨) نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢.

٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٠/٢ ؛ أرسلان، الحلل السندسية، ١١٦/١.

١) الروض المعطار، ص ٦٠٧.

كما تبعد مدينة وبذة عن قونكة Cuenca ثلاث مراحل[1].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة عن كيفية فتحها ودخول المسلمين إليها أثناء عمليات الفتح ، إلا أن الراجح أنها فُتحت خلال فتح المسلمين لمدينة طليطلة ، وذلك لأنها من توابعها وتقع إلى الشمال الشرقي منها ، فعندما سار طارق بن زياد إلى مدينة طليطلة تمكن من فتحها سنة ٩٣هـ/ ٧١١م ، ثم استمر في الفتوح شمال طليطلة لتأمين المناطق القريبة منها وللتعرف عليها ، ثم توجه إلى مدينة وادي الحجارة Guadalajara حتى وصل إلى مدينة المائدة ، وقيل إنه واصل تقدمه إلى مناطق شمال شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia ثم عاد إلى طليطلة قبل حلول فصل الشتاء في السنة أعلاه[2].

وفي عهد الأمير عبد الله بن محمد(٢٧٥-٣٠٠هـ/ ٨٨٨- ٩١٢ م) ظهر دور أسرة بني ذي النون على المسرح السياسي في المنطقة ، وعلى الرغم من أن نفوذهم في منطقة شنتبرية كان قبل هذا الوقت ، إلا أنهم في المدة أعلاه عملوا على بناء العديد من الحصون في المنطقة مثل حصن وبذة وحصن أقليش واتخذوا منها داراً وسلطاناً لحكمهم وكان عميدهم آنذاك موسى بن ذي النون[3] ، وفي عهد ابنه المطرف بن ذي النون وذلك قبيل سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧ م[4] ، واستمر نفوذ أسرة بني ذي النون في وبذة وفي طاعة حكومة قرطبة حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، إذ خدمت الأوضاع السياسية في الأندلس أسرة بني ذي النون وأخذوا بتوسيع نفوذهم حتى ضموا إليهم مدينة طليطلة[5] وأصبحت مقراً لحكمهم[6].

وفي عهد القادر بن ذي النون تولى مدينة وبذة له بنو لبون[7] ، فقد أشار ابن الابار إلى

---

١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/٥٦٠.

٢) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٤ -١٥ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٦٦.

٣) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ -٩١٢ م)، ص ٣٦.

٤) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ -٩١٢ م)، ص ٣٧، ٣٨.

٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ١٧٧.

٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/١٧٣.

٧) يرجع نسب بني لبون إلى المولدين، ولبون تعني الذئب الأندلسي، ينظر : ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٢.

أن أبا شجاع أرقم بن لبون كان والياً على مدينة وبذة للقادر بن ذي النون[1] ، إلا أن بني لبون عارضوا القادر بن ذي النون في سياسته المهينة مع النصارى ، فتردي الأوضاع في مدينة طليطلة فسح المجال أمام النصارى الأسبان بالتدخل في شؤونها ، فكتب القادر إلى ملك قشتالة Castilla الفونسو السادس Alfonso IV(٤٥٨-٥٠٢هـ/١٠٦٥-١١٠٨م) ، يطلب منه المساعدة من أجل السيطرة على الأمور في طليطلة ، إلا أن الأخير اشترط مساعدته مقابل تقديم المال اللازم له ، وبالتالي أدى ذلك إلى إرهاق الرعية ، وهذا ما أشار إليه ابن الكردبوس بقوله: (... ، فكتب القادر إلى الفنش–يقصد به الفونسو السادس– يعلمه بما جرى ، ويرغب أن يوجه إليه عسكراً ، فراجعه أن وجه إليّ مالاً إن كنت تريد الدفاع عن أنحائك ، وإلاّ سلمتك لأعدائك ، وكان أسرّ شيء عند الفنش فتنة تقع بين الولاة المسلمين ، فيعين هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيستجلب بذلك أموالهم ، طمعاً منه أن يعجزوا ، فيظفر هو بملك الجزيرة كلها ، فلما لم يقم القادر بما رسم عليه من المال ، جمع الرعية وأهل الحضر وجميع العمال ، وقال لهم: أقسم لأن لم تحضروني هذا المال الذي طلب في الحين ، لأجعلنّ عنده رهناً جميع من عندكم من العيال والبنين)[2].

إن هذا الإجراء الذي اتخذه القادر بن ذي النون لم يكن موضع رضا من قبل بعض القادة ، ومنهم القائد أبي شجاع أرقم بن لبون[3] أخو حاكم مدينة وبذة أبو وهب عامر بن لبون ، وقد أشار ابن الكردبوس إلى ذلك بقوله: (فلم يجبه أحد بحرف غير القائد أبي شجاع ابن لبون ، فإنه قال له: لقد خلعت نفسك بما قلت ، وربما أزمعت عليه وعولت ، ففسدت نفوس الجماعة ، ورأوا أنه لا تجب عليهم له طاعة)[4] ، وعليه فإن بني لبون من حكام وبذة وقفوا ضد سياسة القادر بن ذي ورفضوا استقباله عندما أخرجه أهل طليطلة.

ولم تشر المصادر المتوفرة بعد ذلك إلى مصير أبي عامر بن لبون ، والراجح أنه استمر

---

١) الحلة السيراء، ١٦٩/٢.

٢) تاريخ الأندلس، ص ٨١ -٨٢.

٣) يرجع نسب القائد أبي شجاع أرقم بن لبون إلى المولدين، ولبون تعني الذئب الأندلسي، وتوفي سنة ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨م، ينظر : ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٢.

٤) تاريخ الأندلس، ص ٨٢ -٨٣ ؛ ولمزيد من التفاصيل ينظر : العمايرة، مراحل سقوط الغور الأندلسية، ص ١١٠.

في حكم وبذة حتى وفاته التي لم تشر مصادرنا المتوفرة إلى تاريخها ، ولكن ابن الابار أشار إلى أن القائد أبا شجاع بن لبون كان والياً على وبذة وأنه توفي قبل وفاة أخيه أبي محمد عبد الله بن بون والي لورقة Lorca الذي توفي بعد معركة الزلاقة Sagrajas — التي حدثت سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م – بقليل[1] ، وهذا يعني أن أبا شجاع بن لبون تولى وبذة بعد وفاة أخيه أبي عامر ، وأن حكم مدينة وبذة استمر في أيديهم حتى وفاة الأخير.

ولعل مدينة وبذة استمرت تحت حكم بني لبون ، حتى سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ /١٠٨٥م[2] ، فقد أشار ابن الكردبوس إلى ذلك بقوله: (ولما حصل الطاغية الفنش لعنه الله بطليطلة ، شمخ بأنفه ، ورأى أن زمام الأندلس قد حصل في كفه ، فشن غاراته على جميع أعمالها ، حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها ، وذلك ثمانين منبراً ، سوى البنيات ، والقرى المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة إلى طلبيرة ، وفحص اللج وأعمال شنتمرية كلها ،...)[3] ، والراجح أن الفونسو السادس سارع بالاستيلاء على مدينة وبذة مباشرة بعد طليطلة وذلك لأن واليها القائد أبو شجاع بن لبون كان من المعارضين لسياسة القادر بن ذي النون ، ولعل ابن لبون عمل على مقاومة النصارى ما دفعهم بالتعجيل باحتلال وبذة ، ونرجح أيضاً أن أبا شجاع بن لبون سقط شهيداً وهو يدافع عن مدينة وبذة إذ رثاه الشاعر أبو عيسى لبون بن عبد العزيز بن لبون[4] بقصيدة قال فيها:

قل لصرف الْحمام لم ذَا التناهي … فِي تلقيك لي بهذي الدَّوَاهِي

نَ فِي عَامر وأرقم مَا يَكْفِي … إ فَهَلا أبقيت عبد الْإِلَه[1]

---

١) الحلة السيراء، ١٦٩/٢.

٢) لمزيد من التفاصيل عن سقوط طليطلة ينظر : ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٤ –٨٥ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٠٠ –٣٠٢ ؛ الذهبي، دول الإسلام، ٥/٢ –٦ ؛ المقري، نفح الطيب، ٣٥٢/٤.

٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٧.

٤) كان من أصحاب القادر بن ذي النون كان تولى القضاء في بلنسية أيام أبي بكر بن عبد العزيز، ثم غادر أبو عيسى بن لبون بلنسية بعد وفاة ابن عبد العزيز سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م إلى مربيطر، ينظر : ابن الابار، الحلة السيراء، ١٦٧/٢ –١٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب، ٣٧٦/٢ –٣٧٧.

١) عبد الإله وهو أخو كل من أبي عامر بن لبون وأبي شجاع بن لبون.

فبـه بعـد كنـت أسـتدفع الْخطــب   وأســـطو علـــى العـــدا وأباهـــي

أَي شمــــس وايْ عَلَيْهَـــا أفـــول   فـــلّ غربـــي عزائمـــي ونـــواهي[1]

وبعد سقوط وبذة بيد الملك الفونسو السادس سنة٤٧٨هـ/١٠٨٥م جرت محاولات عدة لاسترجاعها لاسيما تلك التي كانت في عهد الموحدين في سنة٥٦٧هـ/١١٧١م ، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلوها إلا أنهم فشلوا في فتحها[2] ، وهكذا سقطت وبذة بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٣٨٥ سنة.

---

١) ابن الابار، الحلة السيراء، ١٦٩/٢.

٢) ينظر التفاصيل عن محاولات الموحدين استعادة فتح مدينة وبذة : ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٥٠٨ -٥٠٩، ٥٢٨ -٥٢٩، ٥٣٥ -٥٣٨، ٥٤٠ -٥٤١ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٧٨.

مدينة وادي الحجارة Guadalajara الأندلسية
(مدينة الفرج)
(٩٤ -٤٧٨ هـ/ ٧١٢ -١٠٨٥ م)

يبدو أن لموقع مدينة وادي الحجارة علاقة كبيرة باسمها ، فهي تبعد مسافة ٥٧ كم عن مدينة مدريد Magerit(مجريط)[١] ، وأهم ظاهرتين طبيعيتين حددت اسمها هما الجبال والأنهار ، فالمدينة تقع ضمن المنظومة الوسطى من الجبال والتي يطلق عليها اسم كورديرا كربيتانا Cordillera Carpetana وتتألف من سلسلة جبال تتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ويصل ارتفاعها إلى أكثر من٢٠٠٠ متر ثم تتصل بسلسلة جبال وادي رامة(الرمل) Guadarrama–وهو جبل الشارات Sierra Morena–إلى الشمال الغربي من مدينة مدريد ، وتتخلل هذه السلاسل الجبلية ممرات منها ممر سوموسيرا Somosierra بين مدريد وبرغش Burgos ، ووادي عميق Navacerrada بين مدريد وشقوبية Segovia ، ووادي رامه بين مدريد وبلد الوليد Valladolid[٢] ، وفي قلب هذه المنطقة تقع مدينة وادي الحجارة ، أما الظاهرة الثانية فهي الأنهار ، إذ تقع المدينة عند منابع نهر تاجه Rio Tajo وهو أطول أنهار شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia ، فهو ينبع من جبل سان فيليب San Felipe بين مدينتي طوريل Teruel وقونقة Cuenca ثم يعبر وادي الحجارة ثم يخترق طليطلة Toledo وطلبيرة Talavera ثم يتابع سيره نحو شنترين Santarem ثم خليج لشبونة Lisboa[٣] ، ومدينة وادي الحجارة تقع على غربي نهر يعرف باسمها[٤](أي نهر وادي الحجارة).

---

١) أرسلان، الحلل السندسية، ٧٣/٢ ؛ شمهود، مدينة وادي الحجارة الأندلسية، آثار وعمارة، مقالة على الموقع الالكتروني : http://almothaqaf.com.

٢) حتاملة، أيبيريا، ص ٢٩ -٣٢.

٣) حتاملة، أيبيريا، ص ٨٥ -٨٦.

٤) ابن سعيد، الجغرافيا، ١٧٩.

وعلى سفوح تلك الجبال الوعرة التي تتخللها وديان الأنهار العميقة ذات المياه السريعة الجريان التي شقت لنفسها مجاري بين الصخور وهي الفاصلة بين شقي شبه الجزيرة الشمالي والجنوبي شيّدت العديد من المدن ومنها مدينة وادي الحجارة والتي جاءت تسميتها من طبيعة سطح المنطقة التي قامت عليها ، ويذكر المؤرخون الأسبان بأن معنى وادي الحجارة هو وادي القلاع ، كما أن هناك٣٠ موقعاً اثرياً في المدينة معظمها تتكون من الحصون والقلاع[١] ، وجاءت تسميتها بالفرج أو مدينة الفرج[٢] نسبة إلى بني الفرج بن سالم أول من نزل المنطقة[٣].

تقع مدينة وادي الحجارة تحت جبل الشارات في منطقة الثغر الأوسط الأندلسي ، ذلك أن جبل الشارات يبدأ من المغرب ويذهب مشرّقا مع آخر الجزء من شماليّه فينتهي إلى مدينة سالم فيما بعد النّصف منه وتحت هذا الجبل طلبيرة في الشّرق ثمّ طليطلة ثمّ وادي الحجارة ثمّ مدينة سالم[٤] ، وهي من طليطلة على مسافة خمسين ميلاً وإلى شرقها أيضاً مدينة سالم خمسين ميلاً[٥].

أما فتحها فقد أشار مؤلف مجهول في كتابة أخبار مجموعة أن طارقاً بعد فتحه مدينة طليطلة سلك طريق وادي الحجارة ثم قطع الجبل وبلغ خلف الجبل مدينة تسمى مدينة المائدة ثم مضى إلى أمايا Amaya فأصاب بها حلياً ومالاً ثم رجع إلى طليطلة سنة٩٣هـ/٧١١م[٦] ،ومدينة المائدة التي فتحها طارق هي نفسها قلعة هنارس Henares الواقعة على نهر هنارس الذي اسماه المسلمون نهر وادي الحجارة[٧] ،والتي تقع إلى

---

١) **شمهود، مدينة وادي الحجارة الأندلسية، آثار وعمارة، مقالة على الموقع الالكتروني:** http://almothaqaf.com.

٢) **ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٠٢ ؛ ابن سعيد، الجغرافيا، ص ١٧٩ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٦٠٦ ؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٣٢٢ وأسماها الهرج وهو تصحيف عن الفرج ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٨.**

٣) **ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٥٠١.**

٤) **ابن خلدون، العبر، ٨٤/١.**

٥) **الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٣/٢ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٨ -١٠٩ وقال إن بينهما ستون ميلاً.**

٦) **ص ٢٣، ٢٤ ؛ ينظر أيضاً : ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٤.**

٧) **الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٦٤ ؛ أرسلان، الحلل السندسية، ٦٩/٢**

الجنوب من موقع مدينة وادي الحجارة ، وهذا يعني أن طارقاً لم يصل مدينة وادي الحجارة سنة٩٣هـ/٧١١م ، وإنما كان فتحها في بداية سنة ٩٤هـ/٧١٢م ، ففي طليطلة تدارس القائدان خطة الفتح حيث قررا أن يسير طارق بقواته شمالا تاركاً موسى بن نصير إكمال فتح المناطق الأخرى ، وقد سلك طارق الطريق الروماني القديم الذي يربط طليطلة بسرقسطة حيث تكمن من فتح جميع المدن الواقعة على هذا الطريق ومن ضمنها منطقة مدينة وادي الحجارة[١].

استمر بنو الفرج بن سالم المصمودي في حكم المنطقة كولاة مخلصين للدولة الأموية حتى سنة٣١٧هـ/٩٢٩م عندما عمل الخليفة الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) على استبدالهم بولاة من قبله ضمن سياسته الإدارية التي كانت قائمة على التغييرات السريعة في مناصب الولاة على المدن والنواحي في الأندلس[٢].

وخلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي غدت معظم مدن ثغور طليطلة ومنها مدينة الفرج(وادي الحجارة) قد ضعفت وأصبحت مهددة من قبل النصارى ، ولم ينقذها آنذاك إلا انشغال أسبانية النصرانية بحروبها الداخلية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي[٣] ، وأصبحت طليطلة وأعمالها(ومنها وادي الحجارة) في عهد الطوائف Los، Taifas تحكم من قبل بني ذي النون(٤٢٧-٤٧٨هـ /١٠٣٥-١٠٨٥م) إلا أنهم دخلوا في خصومات مع جيرانهم من دويلات الطوائف ، وكان فرناندو الأول(٤٢٦-٤٥٨ هـ/١٠٣٤-١٠٦٥م) ملكاً طموحاً وقد أدرك مدى الضعف الذي وصل إليه أمراء الطوائف بالأندلس ، فأخذ يشن الغارات على نواحي الأندلس المختلفة ، وكانت سلسلة مدن الثغر الأوسط بين مدينة سالم وطليطلة هدفاً مهماً له لكونها تقع محاذية لمملكته ، فخرج في سنة٤٥٤هـ/١٠٦٢م في جيش من الفرسان والرماة وانقض على أراضي

---

١) السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص ٧١.٧٠ ؛ أبو عبية، موجز عن الفتوحات الإسلامية، ص ١٠١.

٢) ينظر التفاصيل عن دور بني سالم وابنه الفرج في وادي الحجارة والمناطق المجاورة : الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٤)، ص ٧٤ -٩٠.

٣) ينظر عن أوضاع الممالك النصرانية الأسبانية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٧٨/٢ -٣٨٢.

دويلة طليطلة الشمالية ، منها مدينة سالم وطلمنكة Talamaca ووادي الحجارة وعاث فيها تخريباً وسبياً ولم ينقذها منه إلا تعهد المأمون بن ذي النون بدفع الجزية له واعترافه بطاعته[1].

وأشار ابن الكردبوس إلى أنه في سنة٤٥٥هـ/١٠٦٣م (خرج من الأرض الكبيرة[2] جيوش كثيرة ، فانتشر جميعهم على الجزيرة يقتلون ويأسرون... وقصدوا وادي الحجارة فلقيهم قائدها ابن الكناني فهزموه وأثقلوه جراحاً ، ووثب البيطين[3] فألقى على الثوار الجزية فأدوها على رغم أنوفهم ، وذلك وأيم الله أعظم من لقاء جيوشهم)[4] ، ولعل ابن الكناني هذا هو أحد ولاة المدينة استقل بها وتولى الدفاع عنها عندما ضعف بني ذي النون في طليطلة ، كما أن هؤلاء الغزاة كانوا من النورمانديين الذين شاركوا في الحملة الصليبية على مدينة بربشتر Barbastro شمالي سرقسطة سنة٤٥٦هـ/١٠٦٣م[5].

وفي سنة ٤٥٨ هـ/١٠٦٥ م توفي الملك القشتالي فرناندو الأول وأعقب ذلك انقسام بين أبنائه إلا أن ذلك لم يدم طويلاً إذ سرعان ما برزت شخصية الفونسو السادس Alfonso VI القوية(٤٥٨-٥٠٢هـ/١٠٦٥-١١٠٨م) والذي تمكن من توحيد صفوف النصارى تمهيداً لتنفيذ مشروعه التوسعي في الأندلس ، وفي المقابل كان حاكم طليطلة يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر كما قال ابن بسام: (...أجبن من قبره ، إن حزم لم يعزم ، وإن سدى لم يلحم...)[6] ، وقال عنه ابن الكردبوس: (ضعيف المنية قليل المعرفة ، ربي في أحجار النساء والدايات ، ونشأ بين الخصيان والغانيات)[7] ، فأرهقه الفونسو السادس بالمغارم والجزية وأجبره على تسليم العديد من الحصون التابعة لمدينة طليطلة ، فتنازل له عن عدد من الحصون أهمها حصن

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٨٣/٢ -٣٨٤.

٢) الأرض الكبيرة أطلقه المسلمون على بلاد الأفرنجة، البكري، المسالك والممالك، ٨٩٣/٢، ٩١٥.

٣) البيطين هو تصحيف للاسم الحقيقي له وهو بلدوين دي فلاس الذي عهد إليه الوصاية على الملك الفرنسي فيليب الأول، العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ٥٧.

٤) تاريخ الأندلس، ص ٧١ -٧٢.

٥) ينظر عن سقوط بربشتر : ابن بسام، الذخيرة، ١٧٩/٥ -١٨٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٢٥/٣ - ٢٢٦ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ٥٥ -٥٩.

٦) الذخيرة، ١٠٥/٧.

٧) تاريخ الأندلس، ص ٧٩.

سرية[1] وحصن قورية Coria وحصن قنالش Caniles وكان ذلك سنة٤٧٤هـ/١٠٨١م[2] ، وكان الأخير من الحصون التابعة إلى مدينة وادي الحجارة[3].

بعد هذه الأحداث غدا موقف القادر ضعيفاً جداً وتحت رحمة الفونسو السادس الذي بدأ منذ سنة٤٧٤هـ/١٠٨١م يعد العدة للاستيلاء على طليطلة عن طريق شن الغارات المتكررة على ثغورها المتبقية وتجريدها من مواردها حتى تمكن من احتلالها في محرم من سنة٤٧٨هـ/١٠٨٥م[4].

ما أن تمكن الفونسو من دخول طليطلة حتى سارع بضم جميع حصونها وتوابعها إليه ، فأرسل قائده البرهانس Alvar fanez[5](فشن غاراته على جميع أعمالها ، حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها ، وذلك ثمانين منبراً ، سوى البنيات ، والقرى المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة إلى طلبيرة ، وفحص اللج وأعمال شنتمرية كلها)[6] ، وعليه فإن سقوط مدينة الفرج(وادي الحجارة) كان سنة٤٧٨هـ/١٠٨٥م وبعد سقوط مدينة طليطلة ، وهكذا سقطت مدينة وادي الحجارة بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة٣٨٤ سنة.

---

١) في ابن بسام حصن سرتة، الذخيرة، ٢٤٩/٣.

٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣.

٣) أرسلان، الحلل السندسية، ٣٥/٢ -٣٦.

٤) ابن بسام، الذخيرة، ٧/ ١٦٣ - ١٦٩.

٥) أسماه ابن القطان البار هامش، نظم الجمان، ص ٦٣ ؛ وقال ابن أبي زرع أن البرهانس هو أحد قادة الفونسو أرسله لمحاصرة بلنسية، الأنيس المطرب، ص ١٤٦.

٦) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٧.

مدينة طلمنكة Talamac الأندلسية

(٩٣ -٤٧٨ هـ/ ٧١١ -١٠٨٥ م)

عرفت مدينة طلمنكة منذ القدم باسم سالاماتيكا[١] ، واسماها العرب المسلمون طلمنكة Talamaca[٢] ، وضبطها ياقوت قائلاً: (طلمنكة بفتح أوله وثانيه ، وبعد الميم نون ساكنة ، وكاف)[٣] ، وجاءت في نسخ أخرى للزهري بلفظ قلمنكة وكلنكة[٤] ، كما ذكرها كلٌ من البكري والإدريسي بلفظ شلمنقة Salamanca[٥] ، وذكرها العذري بلفظ شَلَمَنْتَقَه[٦](Salamantica) فيما ذكرها المراكشي بلفظ شلمنكة[٧] ، أما الأسبان فيلفظونها سلمنكة(سلمنكا) بالسين Salamanca[٨] ، وقيل شلمنقكة[٩] وقيل سلمنقة[١٠] ، ومعظم هذه الألفاظ متقاربة في الرسم والصوت ، ولعل الاختلاف كان بسبب النقل أو التصحيف.

تقع مدينة طلمنكة في الثغر الأوسط الأندلسي[١١] ، وعلى الضفة اليمنى لنهر تومرس

---

١) أرسلان، الحلل السندسية، ٥٢/٢.

٢) ينظر : ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٣٢ -٢٦٧ هـ/ ٨٤٦ -٨٨٠ م) ص ١٣٢ ؛ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ٣٢/٨ ؛ ابن بشكوال، الصلة، ص ٤٩ ؛ الزهري، كتاب الجغرافية، ص ١٤٥ ؛ ابن الخراط، اختصار اقتباس الأنوار، ص ١٥٠ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٧/٢ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٥٢/٢٩ ؛ مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٩٧ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٦٥/١.

٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩١ -١٩٢.

٤) كتاب الجغرافية، ص ١٠٤ هامش(١٤).

٥) المسالك والممالك، ٢/ ٣٨١ ؛ نزهة المشتاق، ٧٣١/٢، ٧٣٢، ٧٣٣.

٦) ترصيع الأخبار، ص ٧٤، ٧٩، ٨٠.

٧) المعجب، ص ٢٦٦.

٨) أرسلان، الحلل السندسية، ٥١/٢ ؛ العبادي، مقدمة تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ص ٢٨.

٩) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٣٥٧.

١٠) لودر، أسبانيا شعبها وأرضها، ص ١٥٢.

١١) ينظر عن مدن الثغر الأوسط : البكري، المسالك والممالك، ٣٨١/٢.

أحد أفرع نهر دويرة Rio El Duero[١] ، وتعد من أعمال مدينة وادي الحجارة Guadalajara (مدينة الفرج)[٢] ، وقد أشار إلى ذلك مؤلف مجهول بقوله: (ومدينة الفرج بين الشرق والجنوب من قرطبة ،... ، وبها مدن وحصون كثيرة منها مدينة مجريط ومدينة طلمنكة...)[٣] ، إذ تبعد طلمنكة عن مدينة وادي الحجارة عشرين ميلاً[٤] ، كما تبعد عن مدينة سمورة Zamora ستين كيلو متراً[٥] ، كما أن مدينة وادي الحجارة هي نفسها تعد من توابع مدينة طليطلة Toledo المهمة[٦] ، إذ أن المسافة بينهما خمسة وستون ميلاً[٧] وبذلك تكون كلا المدينتين(طلمنكة ووادي الحجارة) من توابع طليطلة[٨].

لم تشر المصادر التاريخية المتوفرة بين أيدينا إلى تاريخ فتحها ، ووقت دخول المسلمين إليها ، إلا أنها يبدو فتحت بعد الفتح الإسلامي لمدينة طليطلة مباشرة ، إذ سار القائد طارق بن زياد إلى مدينة وادي الحجارة سنة٩٣هـ/٧١١م وتمكن من فتحها[٩] ، وهناك رواية أخرى تشير إلى أن موسى بن نصير بعد فتح ماردة Meridi لم يتوجه إلى طليطلة فاستدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة فسار طارق نحو مائة وخمسين ميلاً وانتظر مولاه في وادي الأرّوكامبو في مكان يسمى العرض بين نهر التاجة Rio Tajo والتيتار ، فيما سار موسى في طريق روماني قديم يصل ماردة وسلمنقة (طلمنكة) بحذاء نهر فالموتا(أي نهر موسى) ، وحسب الرواية أنه في ذلك المكان جنوب سلمنقة(طلمنكة) التقى موسى مع لذريق ، الذي كان فرّ إلى هذه المنطقة بعد هزيمته في

---

١) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٣٥٧.

٢) ابن سعيد، المغرب، ٤٢/٢.

٣) تاريخ الأندلس، ص ١٠٨ -١٠٩.

٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٣ ؛ والميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.

٥) أرسلان، الحلل السندسية، ٥٥/٢.

٦) المقري، نفح الطيب، ١٦٥/١.

٧) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٣.

٨) المقري، نفح الطيب، ١٦٥/١ ؛ ينظر أيضاً : أرسلان، الحلل السندسية، ٢٠٥/١.

٩) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ١٤ -١٥ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٤ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٢/٢.

معركة وادي لكة أمام طارق سنة٩٢هـ/٧١٠م ، وتمكن موسى فيها من قتل لذريق ثم التقى بمولاه ودخلا طليطلة سنة٩٤هـ/٧١٢م[١] وعلى اختلاف الروايات فإنها أشارت إلى أن منطقة مدينة طلمنكة فُتحت من قبل طارق بن زياد ، وأن ذلك كان في أواخر سنة ٩٣هـ/٧١١م أو أوائل سنة ٩٤هـ/٧١٢م.

بعد الفتح بمدة وجيزة ثارت نار الفتنة في أواخر عهد الولاة(٩٥-١٣٨هـ/٧١٣- ٧٥٥م) بعد ثورة بربر المغرب سنة١٢٢هـ/٧٣٩م[٢] ، فكان من أهم نتائجها على الأندلس وثغوره أن ثار بربر الأندلس(في السنة أعلاه) ولاسيما البربر القاطنين في جليقية وأخرجوا العرب من بين أظهرهم[٣] ،وليت البربر بفعلتهم هذه أقاموا بمواضع العرب وعمروها ، ولكنهم فعلوا العكس ، فتركوا مناطقهم وراء ظهورهم وعزموا على القضاء على العرب جملة وطردهم من الأندلس ، فحشدوا(... من جليقية ، واسترقة ، وماردة ، وطلبيرة ، فأقبلوا في شيء لا يحصيه عدد ، حتى أجازوا نهراً يقال له : تاجة ، يريدون عبد الملك...)[٤] وهكذا ، اتجهوا جنوباً في هيجة غير محسوبة على مستقبل البلاد التي فتحوها ، والتقوا مع العرب بقيادة عبدالملك ابن قطن الذي استعان بمن تبقى من عرب العدوة المغربية وكانوا بقيادة بلج القشيري[٥] في جند من أهل الشام ، فكانت معركة وادي سليط من أرض طليطلة سنة١٢٤هـ/٧٤١م التي انهزم فيها البربر ، وفي ذلك يقول مؤلف مجهول: (... ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وأقبل أهل الشام عليهم حنقين ، فقاتلوا قتال مستبسلين ، فمنحهم الله أكتاف البربر ، وقتلوهم قتلاً ذريعاً أفنوهم به ، فلم ينج منهم إلا الشريد)[٦]

وقد استغل النصارى تلك الأحداث أحسن استغلال فقاموا باجتياح المنطقة الواقعة

---

١) مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٥٨ -١٥٩.

٢) ينظر عن ثورة البربر في المغرب سنة ١٢٢ هـ/ ٧٣٩م : ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٤٦ -٢٤٨ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٦٢ -١٦٧ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٢/١ -٥٤.

٣) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٤٢.

٤) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٤٣.

٥) بلج بن بشر القشيري ابن عمّ كلثوم بن عياض القشيري. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٧٧ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٤/١.

٦) أخبار مجموعة، ص ٤٤.

بين نهري دويرة وتاجة وتمكنوا من الاستيلاء عليها وإخراج من تبقى من المسلمين منها ، وقد أشار ابن الأثير في حوادث سنة١٤٠هـ/٧٥٧م إلى ذلك بقوله: (في هذه السنة هلك أذفنش ملك جليقية وملك بعده ابنه تدويلية – وكان أشجع من أبيه وأحسن سياسة للملك وضبطاً له– وكان ملك أبيه ثماني عشرة سنة ، ولما ملك ابنه قوي أمره وعظم سلطانه وأخرج المسلمين من ثغور البلاد وملك مدينة لك. وبرطقال وشلمنقة وشمورة وأيلة وشقوبية وفشتيالة ؛ وكل هذه من الأندلس)[١] ، وعليه فقد خرجت طلمنكة من أيدي المسلمين بعد حكم دام سبع وأربعين سنة ، وهي من أوائل الثغور التي سقطت بيد النصارى وبقيت بأيديهم حتى استرجع المسلمون قسم منها بعد ذلك.

بعد ذلك بدأ النصارى بالهجرة إلى المناطق الخالية الواقعة بين نهري دويرة وتاجة ، فعمرت لُك Lugo وليون وسلمنقة وآبلة وشقوبية وأماية Amaya ، إلا أن مقامهم بها لم يطل ، فعندما اشتد ساعد المسلمين استعادوا العديد من المناطق الواقعة بين نهري دويرة وتاجة وقد ثبت حدود دولة الإسلام عند خط في منتصف المسافة بين نهري دويرة وتاجة[٢].

ويبدو أن طلمنكة(شلمنقة) كانت في الحد الفاصل الحرج بين مناطق نفوذ المسلمين والنصارى ، وبقيت متأرجحة في تبعيتها حسب قوة وظروف كل طرف ، كما أقام كلا الطرفين فيها تحصيناتهم الدفاعية لمواجهة الآخر ، ويبدو أن ذلك استمر حتى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي عندما بدأ ميزان القوى يتغير كلياً لصالح النصارى.

وخلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي كانت معظم مدن ثغور طليطلة ومنها مدينة طلمنكة قد ضعفت وأصبحت مهددة من قبل النصارى ، ولم ينقذها آنذاك إلا انشغال أسبانية النصرانية بحروبها الداخلية في تلك الحقبة[٣] ، وفي سنة٤٢٢هـ/١٠٣٠م سقطت الخلافة الأموية في الأندلس ، وتقسمت البلاد إلى دويلات طوائف متناحرة[٤] ، وكان نصيب ذلك أن استقل بنو هود في سرقسطة ، وبنو ذي

١) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٩٣ ؛ ينظر أيضاً : عنان، دولة الإسلام، ٢١٥/١.
٢) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٥٤٠ –٥٤١.
٣) ينظر عن أوضاع الممالك النصرانية الأسبانية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٧٨/٢ –٣٨٢.
٤) لمزيد من التفاصيل عن سقوط الخلافة الأموية في الأندلس ينظر: عنان، دولة الإسلام في=

النون بطليطلة ، وكان قسم من مدينة طلمنكة آنذاك لا تزال بيد المسلمين ، ففي مسجدها كانت تقام حلقات الدرس في الحديث ، فروى ابن بشكوال سعيد بن مكادة المحدث كان يحدث بجامع طلمنكة سنة٤٢١هـ/١٠٣٠م[1] ، كما أن أبا عمر الطلمنكي الذي كانت له رحلة شملت مناطق واسعة من العالم الإسلامي آنذاك عاد إلى موطنه طلمنكة وتوفي بها سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م[2] ، إذ كانت آنذاك رباطاً وثغراً يقصده المتطوعة للجهاد.

وفي سنة٤٥٤هـ/١٠٦٢م ، سار ملك قشتالة فرناندو الأول(٤٢٦-٤٥٨هـ/١٠٣٤-١-٦٥م) بجيش كبير من الفرسان والرماة لمهاجمة مناطق طليطلة ، وأغار على الحدود الشمالية الشرقية ، فاستباحت قواته مدينة سالم وطلمنكة ووادي الحجارة وقلعة هنارس وعاث في بسائطها تخريباً ، مما أجبر حاكمها المأمون على إرسال كميات كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة الثمينة إلى الملك الاسباني من اجل المصالحة ، والتزم أيضاً بالطاعة ودفع الجزية له فقبل فرناندو المال والعهد[3] ، وهكذا استباح النصارى أراضي الدولة الإسلامية وانهارت خطوط الدفاع وساءت أحوال الثغور من وطأة الحروب وثقل الجباية.

وفي عهد الملك القشتالي الفونسو السادس(Alfonso VI458-٥٠٢هـ/١٠٦٥-١١٠٨م) تمكن من توحيد صفوف النصارى تمهيداً لتنفيذ مشروعه التوسعي في الأندلس ، وفي المقابل كان حاكم طليطلة يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر كما قال ابن بسام: (...أجبن من قبره ، إن حزم لم يعزم ، وإن سدى لم يلحم...)[4] ،فأرهقه الفونسو السادس بالمغارم والجزية وأجبره على تسليم العديد من الحصون التابعة لمدينة طليطلة ، فتنازل له عن عدد من الحصون أهمها حصن سرية[5] وحصن قورية Coria وحصن قنالش Caniles وكان ذلك سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م[6].

=الأندلس، ٥٨٨/١ -٦٢٢ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٠٩ -٢١٧.

١) الصلة، ص ٢١٣.

٢) ابن بشكوال، الصلة، ص ٥٠.

٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٦٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٩/٢ -٣٧٠ ؛ السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٩٠.

٤) الذخيرة، ١٥٠/٧.

٥) عند ابن بسام حصن سرنه، الذخيرة، ٢٤٩/٣.

٦) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣.

وفي سنة٤٧٧هـ/١٠٨٤م زحفت القوات النصرانية بقيادة الفونسو السادس وضربت الحصار على طليطلة ، وعبثاً حاول الأهالي المقاومة ، وقد أرهقهم الحصار وانقطعت عنهم المؤن حتى اضطروا إلى تسليم المدينة في محرم من سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م[١].

ما أن تمكن الفونسو من دخول طليطلة حتى سارع بضم جميع حصونها وتوابعها إليه ، فأرسل قائده البرهانس Alvar fanez[٢](فشن غاراته على جميع أعمالها ، حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها ، وذلك ثمانين منبراً ، سوى البنيات ، والقرى المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة إلى طلبيرة ، وفحص اللج وأعمال شنتمرية كلها ،...)[٣] ، وعلى هذا الأساس أصبح خط نهر التاجه بما فيه من مدن وضياع تحت سيطرة النصارى[٤] ، وعليه فإن سقوط مدينة طلمنكة كان في حدود سنة٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م ، وبذلك سقطت المدينة بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة٣٨٥ سنة.

١) ابن بسام، الذخيرة، ١٦٣/٧ -١٦٩.

٢) أسماه ابن القطان البار هامش، نظم الجمان، ص ٦٣ ؛ وقال ابن أبي زرع أن البرهانس هو أحد قادة الفونسو أرسله لمحاصرة بلنسية، الأنيس المطرب، ص ١٤٦.

٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٧.

٤) العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص ١٣٢.

مدينة سالم الأندلسية

(٩٤ - ٤٧٩ هـ / ٧١٢ -١٠٨٦ م)

تقع مدينة سالم حالياً في مقاطعة سوريا بأسبانيا على بعد١٥٣كم شمال غرب مدريد وعلى الطريق بينها وبين سرقسطة[١] ، والجغرافيون العرب المسلمون عدوها واحدة من المدن التي تقع على الطريق الواصل بين طليطلة وسرقسطة ، فذكروا أن من طليطلة إلى مدينة وادي الحجاز٥٠ ميلا[٢] ، ثم إلى مدينة سالم٥٠ كم ثم إلى سرقسطة٥٠ ميلا[٣] ، وذكر الإدريسي أن مدينة سالم تقع في وطاء من الأرض[٤] ، والوطاء لغة هي(ما انخفض من الأرض بين النشاز والأشراف)[٥] ، أو هي المكان على(طريق ينزلون بقرية فيطؤهم أهله)[٦] ، ومن هنا جاءت أهمية هذه المدينة ، فهي عبارة عن فسحة من الأرض تحيط بها مرتفعات من اغلب جهاتها ، فمن ظهرها يأخذ الجبل الكبير المعروف بالشارات والذي يمتد إلى غرب الأندلس قاسما البلاد إلى نصفين[٧] ، وعندها تقع منابع أكبر أنهار اسبانيا ، فهي تقع على الضفة اليسرى لنهر شالون (جالون Jalon)[٨] الذي يصب في نهر الابرو قرب مدينة سرقسطة ، والابرو من أنهار الثغر الأعلى الأندلس الذي يصب في بحر المتوسط[٩] ، كما ينبع قرب مدينة سالم نهر وادي الحجارة الذي يشكل احد روافد

---

١) العبادي ، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص ٣٧٩.

٢) الميل يساوي ٢ كم، ينظر: هنتس ، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.

٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/ ٥٥٢.

٤) نزهة المشتاق، ٢/ ٥٥٢.

٥) الفيروزابادي ، القاموس المحيط، ٣٤/١، مادة(وطئه).

٦) م.ن. و الصفحة.

٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٢/٢ ؛ مؤلف مجهول ، تاريخ الأندلس، ص ٤٦ ؛ ابن خلدون، العبر، ٦٦/١.

٨) بروفنسال، دائرة المعارف الإسلامية، ٦٨/١١.

٩) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس ص ٤٨ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ٥١ -٥٢.

نهر تاجة حيث يلتقي به قرب طليطلة ويصب في محيط الأطلسي[١] ، وفي غربيها تقع منابع نهر دويره الذي يصب في محيط الأطلسي أيضا[٢].

أما الأوصاف الجغرافية لها فأنهم ركزوا على وظيفتها الرئيسية التي واكبتها من نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، وهي أنها أحد الثغور العسكرية المهمة للمسلمين ، لذا جاءت المعلومات الطبوغرافية عنها قليلة ومقتضبة ، فقد اكتفى ابن حوقل بالقول إن مدينة سالم(لها سور عظيم ورساتيق وإقليم واحد وماشية ، رفهة في جميع أسبابها وهي أكثر الأندلس غزوا وحرباً)[٣]

كانت مدينة سالم عندما فتحها المسلمون عبارة عن خرائب لبعض القلاع الرومانية القديمة ، وأشار ياقوت إلى أن(طارق لما فتح الأندلس ألفاها خرابا فعمرت)[٤] ، وقد كان الأسبان يقولون لها مدينة(سالي) و يلفظونها بالثاء لا بالسين[٥] ، ويبدو أن طارق بن زياد(لم يصل إلى مدينة سالم في توغله الأول قبل التحاق موسى بن نصير به ، إذا أشار صاحب مؤلف مجهول إلى أن طارق بن زياد بعد فتح طليطلة سلك(إلى وادي الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعة في فج يسمى فج طارق وبلغ مدينة خلف الجبل تسمى المائدة وإنما سميت مدينة المائدة وجد فيها مائدة سليمان بن داود عليه السلام[٦].... ثم مضى إلى مدينة أمامه فأصاب بها حليا ومالا ولم يخلو ثم رجع إلى طليطلة سنة ثلاثة وتسعون)[٧] ، وفي طليطلة تدارس القائدان خطة الفتح حيث قررا أن يسير طارق بقواته

---

١) الإدريسي، نزهة المشتاق ،٥٥٣/٢ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى، ٢٩٨/٢ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس ص ٤٨.

٢) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٤٨.

٣) صورة الأرض، ص ١١٧.

٤) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٤١ ؛ ينظر أيضا : ارسلان ، الحلل السندسية، ٨١/٢ ؛ جمال محمد، مدينة سالم ص ١.

٥) ارسلان، الحلل، ٨١/٢ ،

٦) عن المائدة ينظر، ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة(منسوب)، ٩٥/٢ ؛ ابن الفقيه، البلدان ، ص ٧٩. وحقيقة المائدة هي محض أسطورة و إنما عثر عليه طارق هو مذبح لكنيسة طليطلة حمله القساوسة بعد هروبهم منها، ينظر، مؤنس، فجر الأندلس، ص ٧٨ ؛ السامرائي، تاريخ العرب، ص ٣٣.

٧) أخبار مجموعة، ص ١٤ -١٥ ؛ ينظر أيضا : ابن عذاري ، البيان المغرب، ١٣/٢ ؛ المقري ، نفح الطيب، ١٢/١ ؛ وهناك روايات تشير إلى أن طارق استمر في فتوحه فوصل إلى جليقية واستورقة، ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٤ ؛ وهو أمر يصعب تصديقه بسبب حلول فصل الشتاء السامرائي، و آخرون، تاريخ العرب، ص ٣٤؛ مؤنس، فجر الأندلس ص ٧٩.

شمالا تاركاً موسى بن نصير إكمال فتح المناطق الأخرى ، وقد سلك طارق الطريق الروماني القديم الذي يربط طليطلة بسرقسطة حيث تكمن من فتح جميع المدن الواقعة على هذا الطريق ومن ضمنها مدينة سالم[1].

نزل مدينة سالم من أول الفتح أحد رجالات البربر وهو سالم بن ورعمال بن وكذات بن أكلله بن مقر بن اكلل بن مسالة بن ناكور بن يوطافان بن مسقاط بن مصاذ بن مصمودة[2] ، وكانت عبارة عن أطلال المدينة الرومانية القديمة التي كانت تدعى اوسيلس(Ocilis)[3] ، حيث عمل على ترميمها واسكنها أسرته ، وتوارثوها حتى أصبحوا أمراء في تلك الثغور كما يقول ابن حزم[4] ، ثم انتشر أفراد أسرته في الدائرة الواسعة المحيطة بها والتي تضم شنتبريه والسهلة ووادي الحجارة التي نسبت إلى الفرج بن سالم فسميت مدينة الفرج نسبة إليه[5] ، وهي المدن التي أطلق عليها الاصطخري بمدن بني سالم[6] ، واستمروا حتى عزلهم عبد الرحمن الثالث الناصر سنة٣٠٨هـ/٩٢٠م وعمل على إعادة بنائها لتصبح قاعدة الثغر الأوسط وعين عليها أمراء من قبله[7] وبذلك غدت مركزاً ادرياً وعسكرياً لمواجهة هجمات النصارى.

وبعد سقوط الدولة العامرية سنة٣٩٩هـ/١٠٠٨م وقيام الفتنة قام الأمويين بانقلاب في قرطبة بقيادة محمد بن هشام الملقب بالمهدي وكان هذا مدعوماً بعدد من الغوغاء والعامة الذين أثاروا الرعب في قرطبة ، وقام الخليفة الجديد بإجراءات غير حكيمة عندما سرح الصقالبة وهم عماد الجيش الضخم الذي حقق الانتصارات أيام ابن أبي عامر ، ولم يبق من الصقالبة في صفوف محمد المهدي سوى قائد قوات الشمال وصاحب مدينة سالم واضح الصقلبي الذي أرسل كتابا إليه يؤكد فيه طاعته ، فبعث إليه المهدي كتاباً

---

١) السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص ٧٠ -٧١.
٢) ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٥٠١
٣) العبادي، في التاريخ العباسي الأندلسي، ص ٤١٨ ؛ العتبي وآخرون ، تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٧٩
٤) جمهرة انساب العرب، ص ٤٩٩.
٥) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٩٩ ؛ طه ، الفتح والاستقرار، ص ٢٨٥ ؛ ذكر اليعقوبي أن عليها في أيامه رحل من البربر يقال له مبتل بن فرج الصنهاجي يدعو لبني أمية ، البلدان، ص ١١١.
٦) المسالك والممالك، ص ٣٥، ٣٦.
٧) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/١٧٦، ٣١٤.

يشكره ويعينه والياً على الثغر كله ، ولكن إجراءات محمد المهدي ضد البربر أدت إلى التفافهم حول شخصية أموية أخرى ناقمة على المهدي وهو سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر فبايعه البربر ولقبوه بالمستعين[1].

وفي هذا الأثناء كان شانجة بن غرسيه(٣٨٥-٤١٢هـ/٩٩٥-١٠٢١م) ملك قشتالة يراقب تطورات الإحداث في قرطبة فعرض عليه زعماء البربر التنازل له عن بعض القلاع والحصون لقاء مساعدتهم ضد محمد المهدي ، ولكن واضح القصلبي صاحب مدينة سالم كان من الموالين للمهدي فتصدى لهم ودارت معركة بين البربر أتباع المستعين ومعهم جند من قشتالة وبين واضح الصقلبي عند أبواب مدينة سالم فوقعت الهزيمة على واضح الصقلبي وفرّ باتجاه قرطبة ووقعت بعض الحصون على أطراف مدينة سالم بيد المستعين بمساعدة ملك قشتالة ، ثم قاموا بمطاردة واضح الصقلبي نحو قرطبة وتمكنوا من دخولها حيث فرّ منها محمد المهدي وواضح تجاه طليطلة والثغور وصفت قرطبة بيد المستعين وحلفاءه البربر ، ثم حاول المستعين مطاردة محمد المهدي وواضح الصقلبي وضرب حصارا على مدينة سالم إلا أن الأهالي كانوا على ولائهم للمهدي وواضح فمنعوه من دخولها ، وخلال ذلك حاول محمد المهدي وواضح الارتماء في أحضان النصارى وطلبا من أمير برشلونة لكونت رامون والكونت ارمنجو أمير اورقلة المساعدة ضد البربر وحليفهم المستعين مقابل جزية من المال والتنازل لهم عن مدينة سالم[2] ، وهكذا زحف واضح الصقلبي مع النصارى نحو طليطلة حيث سلم إليهم بالفعل مدينة سالم بعد أن أخلى سكانها المسلمون منها وذلك سنة٤٠٠هـ/١٠٠٩م ، وأضاف ابن عذاري قائلاً: (فدخل الإفرنج مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط وملكوها وأول ما لحظوا من المدينة الجامع وضربوا فيه الناقوس وحولوا قبلته)[3] ، وهو أول احتلال نصراني لها منذ فتحها على يد طارق بن زياد سنة٩٣هـ/٧١١م.

ومن جانب آخر فأن واضح الصقلبي قد ضاق ذرعاً بتصرفات الخليفة محمد المهدي في قرطبة فقام بالقبض عليه و قتله واخرج هشام المؤيد الذي كان محجوزا في

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٧٦/٣ -٧٧.
٢) ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/ ٩٥ -٩٦؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١١٤/٢.
٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٩٤/٣. عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٩٥/٢.

أحد بيوت قرطبة وأرجعه إلى كرسي الخلافة باعتباره الخليفة الشرعي ، إلا أن البربر وسليمان المستعين رفضوا ذلك واستمرت الحروب سجالا بين الجانبين ، وقد اغتنم سانشو ملك قشتالة حالة الفوضى في قرطبة فأرسل وفدا إليها مهددا بضرورة تسليم جميع الحصون والقلاع التي أخذها منهم محمد بن أبي عامر والتي تعد قواعد أمامية للمسلمين ، فأضطر واضح الصقلبي وهشام المؤيد إلى الإذعان لطلبه[1] ، وبذلك سقط الخط الدفاعي الأول على حدود الدولة الإسلامية في الأندلس.

ويبدو أن النصارى جند أمير برشلونة وأمير اورقلة قد اخلوا مدينة سالم بسبب هزيمتهم أمام البربر في قرطبة ومقتل نحو من ثلاثة آلاف من جنودهم بينهم لكونت ارمنجو أمير اورقلة(يسميه ابن خطيب ارمنقد) حيث انسحبوا عائدين إلى بلادهم[2].

وبعد سقوط الخلافة الأموية[3] تمزقت الأندلس إلى طوائف ودويلات وكان نصيب الثغر الأندلسي أن استقل بنو هود في سرقسطة ، وبني ذي النون بطليطلة ، وكانت مدينة سالم تابعة إلى طليطلة على الحد الفاصل بين دولتي بني هود وبني ذي النون ، وغدت مجموعة المدن والحصون الواقعة بين طليطلة وسرقسطة موضع الاحتكاك بين الجانبين ، فقد قام سليمان بن هود بمهاجمة وادي الحجارة سنة٤٣٦هـ/١٠٠٤م بدعوى مراسلة أهلها له وتمكن من دخولها عنوة ولم يستطع المأمون بن ذي النون مواجهته فأرتد إلى طليطلة ، وفي محاولة الانتقام من خصمه استعان بملك قشتالة فرناندو الأول(٤٢٦ -٤٥٨هـ/١٠٣٤-١٠٦٥) على أن يقر بسيادته ويدفع له الجزية ، فاستجاب فرناندو الأول لذلك وأخذ جنده يغيرون على أراضي ابن هود المتاخمة لقشتالة وأمعنت فيها تخريباً ، أما ابن هود فقد انحدر في نفس الطريق فأرسل إلى فرناندو يبعث إليه بالأموال ليعمل بأراضي خصمه نفس ما عمل بأراضيه ، ثم رد عليه المأمون بمحالفة غرسيه ملك نافار ، وهكذا استباح النصارى أراضي المسلمين ومساعي حكامهم الذميمة ، وانهارت خطوط الدفاع الأمامية المهمة.

---

١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١١٧/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٩٧/٢.

٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١١٥/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٩٤/١ – ٥٩٥.

٣) ينظر التفاصيل عند سقوط الخلافة الأموية في الأندلس، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٨٨/٢ وما بعدها ؛ السامرائي و آخرون، تاريخ العرب، ص ٢٠٩ – ٢١٧.

وقد استغل ملوك النصارى الأسبان ذلك الظرف إلى درجة كبيرة إذ تبلورت لديهم سياسة حرب الاسترداد على يد فرناندو الأول الذي بعث إلى أهل طليطلة قائلاً: (إنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول أمركم ، فقد سكنتموها ما قضى لكم ، ولقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم)[1].

وبناء على هذه السياسة فقد خرج بجيشه إلى مدينة سالم ووادي الحجارة وعاث فيها تخريبا ولم يستطع المأمون صاحب طليطلة رده إلا بعد أن سار بنفسه وقدم إليه المال واعترف بطاعته[2].

توفي المأمون بن ذي النون سنة٤٦٧هـ/١٠٧٤م فخلفه حفيده يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر(٤٦٧–٤٧٨هـ/١٠٧٤–١٠٨٥م) الذي وصفه ابن أبي الخصيب بالقول: (كان هذا الحفيد يحيى مضعفاً ، كثير الحيلة خبيث الفكرة)[3] ، ولتهالكه في أحضان الفونسو السادس(٤٥٨–٥٠٢هـ/١٠٦٥–١١٠٨م) فقد اسخط أهالي طليطلة عليه الذين قاموا بطرده منها واستدعوا المتوكل بن الأفطس(٤٦٠–٤٨٧هـ/١٠٦٧–١٠٩٤م) سنة٤٧٢هـ/١٠٧٩م الذي بقي في طليطلة عشرة أشهر ثم اضطر للخروج منها تحت ضغط قوات الفونسو السادس الذي أعاد القادر إليها شبه أسير ، وقد اخذ يعد العدة لاجتياحها بشن الغارات على أطرافها من عام٤٧٤هـ/١٠٨١م ثم ضرب عليها الحصار في خريف عام٤٧٧هـ/١٠٨٤م وبعد تسعة أشهر تمكن من اجتياحها واتخاذها عاصمة له بعد أن حكمها المسلمون مدة٣٧٠ عاما[4] .

كانت مدينة سالم تابعة إلى أملاك بني ذي النون حكام طليطلة ولهذا واصل الفونسو السادس استيلائه على جميع أملاكه ، حيث أشار ابن الكردبوس إلى أنه(لما حصل الطاغية الفنش لعنه الله بطليطلة شمخ بأنفه ، ورأى أن زمان الأندلس قد حصل

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٨٢/٣ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٩٩

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٩/٢ ؛ دوزي، ملوك الطوائف، ص ٢٦٦ – ٢٦٨.

٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٧٩/٢.

٤) ينظر عن سقوط طليطلة، ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس، ص ٨٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ١٠٧٠ – ١١٣ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٣٤ – ٣٣٥ ؛ المعايرة ،مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص ١٢٨ -١٣٢.

في كفه ، فشن غاراته على جميع أعمالها ، حتى فاز باستنزاف جميع أقطار ابن ذي النون واستأصلها وذلك ثمانون منبرا ، سوا البنيات والقرى المعمرات وحاز من وادي الحجارة إلى طليبرة وفح اللج وأعمال شنتمرية كلها)(١) .

وعلى الرغم من عدم ورود تاريخ محدد عن سقوط مدينة سالم بيد الفونسو السادس إلا أنه يفهم من نص ابن الكردبوس أن المدينة سقطت بعد سقوط طليطلة مباشرة ، كما أشار في موضوع آخر إلى أن الفونسو السادس بعد فراغه من طليطلة توجه بجيشه إلى سرقسطة وضرب عليها(واقسم أن لا يبرحها حتى يدخلها) ولكنه اضطر إلى الانسحاب منها عندما علم بعبور المرابطين إلى الأندلس(٢) ، ويبدو أن المستعين بن هود(٤٧٨-٥٠٣هـ/١٠٨٥-١١٠٩م) تمكن من استعادة مدينة سالم وعدد من المدن الواقعة شمال طليطلة بعد هزيمة الفونسو السادس في موقعة الزلاقة(٣) ولكن ابن هود لم يتمكن من الاحتفاظ بها طويلا إذ سرعان ما تمكن الفونسو السادس من احتلالها ، إذ أشار المقري أن شعاع مولى المستعين بن هود قال: (لما توجهتُ إلى اذفونش وجدته في مدينة سالم وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره وامرأته متكئة إلى جانبه فقال لي ياشجاع: أما تراني ملكت بلاد المسلمين ، وجلست على قبر ملكهم؟ قال: فحملتني الغيرة أن قلت له : لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه ، ولا استقر بك قرار ، فهم بي ، فحالت امرأته بينه وبيني وقالت صدقك فيما قال ، أيفخر مثلك بمثل هذا)(٤) ، وعليه فإننا نميل إلى أن مدينة سالم قد سقطت نهائياً بين سنتي٤٧٩هـ/١٠٨٦م وهو تاريخ وقعة الزلاقة و٤٩٧ هـ/١١٠٣م لأن ابن عذاري أشار إلى أن القائد المرابطي أبو عبد الله بن فاطمة حاول استعادة المدينة في هذا العام بعد أن نزلها الفونسو السادس(٥) ، وبذلك سقطت مدينة سالم بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٣٨٥ سنة.

---

١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٧. انظر أيضاً : أشباخ ، تاريخ الأندلس، ٦٥/١.

٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٩١. أشباخ، تاريخ الأندلس، ٨٤/١.

٣) أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٠٧/١.

٤) المقري، نفح الطيب، ٢١٠/١ ؛ ينظر أيضا، ارسلان، الحلل، ٨٤/٢.

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ٤٤/٤.

مدينة طركونة Tarrgona الأندلسية

(٩٤ -٤٨٣هـ/٧١٢-١٠٩٠ م)

ورد اسم المدينة في المصادر بألفاظ مختلفة بعض الشيء ، فجاءت بلفظة (طركونة ، أو تركونة ، أو طرقونة)[١] ، وذكر الحميري أن معنى طركونة عند أهل العلم هي: (الأرض المشبهة بالجنة)[٢] ، والجنة اسم مكان من الجنة[٣] ، ويبدو أن موقع المدينة وجمالها كان له علاقة بهذا المعنى ، ومما يدلل على ذلك كان يقصدها الأباطرة الرومان للاصطياف بضواحيها الجميلة[٤] ، وتذكر المصادر أنها مدينة قديمة[٥] ، وهذه اللفظة تدل على أنها كانت موجودة قبل الإسلام ، ويرجع بناؤها إلى عهد الأيبيريين ، ويقال إن أول من سكن فيها قبيلة من هؤلاء اسمها السيسيتان(cesselains[٦].)

تقع مدينة طركونة في شمالي شرق شبه الجزيرة الأيبيرية ، على البحر المتوسط[٧] وهي الميناء الرئيس لمنطقة الثغر الأعلى ، وقد صنفت ضمن إقليم البرتات(البرت) والذي يضم مدينة طرطوشة Tortosa وطركونة ، وبرشلونة Barcelona ، وهذا الإقليم هو أحد

---

١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢، ٥٥٥، ٧٣٤ ؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٢٧، ص ١٦٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٢ ؛ لودر، اسبانيا شعبها وأرضها، ص ٤٠.

٢) الروض المعطار، ص ٣٩٢.

٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان ،٥٨/٥ -٥٩.

٤) عنان، الآثار الأندلسية، ص ١١٨.

٥) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٧ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٨٩ ؛ مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٣١.

٦(ارسلان، الحلل السندسية، ج ٢، ص ٢٦٣، ٢٦٥.

٧) القزويني، آثار البلاد، ص ٥٤٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٢ ؛ مجهول ، تاريخ الأندلس، ص ١٣١ ؛ وينظر : دائرة المعارف الإسلامية ،ج ١٥، مادة طركونة ، ص ١٧٨ ؛ البستاني، دائرة المعارف ،ج ١١ ، مادة طركونة، ص ٢٥٣.

الأقاليم الجغرافية الأربعة التي تتكون منها منطقة الثغر الأعلى الأندلسي[1] ، وهي تتوسط بين مدينتي برشلونة وطرطوشة ، إذ أن المسافة بينها وبين برشلونة خمسون ميلاً[2] ، وكذلك إلى طرطوشة خمسون ميلاً أيضاً[3] ، والتي تعد طرطوشة من أعمالها[4] ، كما أن المسافة بينها وبين مدينة لاردة Lerida خمسون ميلاً[5] ، وهذا يدل على أن المسافة بينها وبين المدن الثلاث برشلونة وطرطوشة ولاردة تكون متقاربة حسب ما أوردته المصادر التاريخية.

أما فتحها فبعد الفتح الإسلامي لمدينة سرقسطة سنة٩٤هـ/٧١٢م من قبل القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد[6] إذ سار القائدان نحو مدن إقليم قطلونية وهي طرطوشة وطركونة وبرشلونة وجيرونة ، وقد فتحت هذه المدن مباشرة بعد فتح مدينة سرقسطة[7].

إن من أوائل الأحداث المهمة التي تعرضت لها طركونة منذ دخول المسلمين إليها هو محاولة الأفرنجة عزلها عن بقية الأندلس من أجل سهولة السيطرة على مدينة برشلونة ، ففي سنة١٨٥هـ/٨٠١م ، أرسل شارلمان(١٥١- ١٩٩هـ/٧٦٨- ٨١٤م) ابنه لويس بالجيش الفرنسي إلى برشلونة ، وقسم الجيش إلى ثلاث فرق ، الأولى تهاجم برشلونة ، والثانية برئاسة جيوم مقرها بين منطقتي لاردة وطركونة ، والثالثة عند جبال البرت

---

١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢ ؛ ولمزيد من التفصيل عن الأقاليم الثلاثة الأخرى ومدنها ينظر : السامرائي الثغر الأعلى الأندلسي، ص ٥٦ -٥٧.

٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٢ ؛ والميل يساوي ٢ كم، هنتس ، المكاييل والأوزان ، ص ٩٥.

٣) الإدريسي، نزهة المشتاق ،٥٥٥/٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٢ ؛ ويذكر ياقوت إن المسافة بين طركونة وبين كل من برشلونة وطرطوشة تساوي سبعة عشر فرسخا. ينظر : الأندلس من معجم البلدان، ص ١٨٩.

٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٠٠، هامش(١) ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٨٩.

٥) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٢.

٦) مجهول، أخبار مجموعة ، ص ١٩ ؛ ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب ، ٢/ ١٩ ؛ المقري ، نفح الطيب، ١/ ٢٧٣ - ٢٧٤ ؛ العمايرة، مراحل ، ص ٢١ - ٢٢.

٧) مجهول ، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ المقري، نفح الطيب، ١/ ٢٧١ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي ، ص ٧٦.

برئاسة لويس ، وكان هدف الجيشين الآخرين –الثاني والثالث– منع المسلمين من إنقاذ مدينتهم ، وقطع الاتصالات عنها وبعد حوالي سبعة أشهر من الحصار ، سقطت المدينة وكان فقدان المسلمين لها خسارة كبيرة ، لأنهم فقدوا مركزاً عسكرية مهماً في الثغر الأعلى ، حوله الأفرنجة مقراً لقواتهم العسكرية ، والتي صارت تشن هجماتها على مناطق الثغر الأعلى ، ومنها مدينة طركونة وطرطوشة ، إذ هاجم الفرنجة ، في سنة١٩٢هـ /٨٠٧ م طرطوشة بقيادة لويس بن شارلمان[١] ، ومعنى هذا كما ذكر السامرائي أن مدينة طركونة قد وقعت تحت السيطرة الإفرنجية لأنها تقع شمال طرطوشة ، كما ذكر السامرائي بأن الجانبين الإسلامي والإفرنجي كانا يتناوبان السيطرة عليها[٢].

والراجح أن المسلمين فقدوا السيرة على ثغر طركونة منذ سنة١٩٢هـ/٨٠٧م وطيلة عهد الإمارة وقسم من عهد الخلافة ، فعندما تولى عبد الرحمن الناصر(٣٠٠–٣٥٠هـ /٩١٢–٩٦١م) حاول استرجاع هذا الثغر من النصارى ، وقام بعدة حملات عسكرية نحوه ، إلا أنه لم يتمكن من استرجاعه وبقيت برشلونة ومنطقة قطلونية ومن ضمنها مدينة طركونة خارجة من حكم العرب المسلمين[٣] ، ومما يدلل على ذلك أيضاً ما ذكره ابن خلدون عن قدوم سفارة إلى بلاط قرطبة من قبل مغيرة بن شبير ملك برشلونة وطركونة ، راغباً في الصلح مع المسلمين ، فقبل الخليفة ذلك وكان ذلك في سنة٣٤٧هـ /٩٥٨م[٤] ، وفي سنة٣٦٠هـ/٩٧٠ م(بعث ملكا برشلونة وطركونة سفراءهم إلى الخليفة الحكم المستنصر يسألان تجديد الصلح ، وإقرارهما على ما كانا عليه...)[٥].

وخلال خلافة هشام المؤيد(٣٦٦–٣٩٩هـ/٩٧٦–١٠٠٨م) والأحداث التي سبقت

---

١) ارسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٣١ – ١٣٢.

٢) الثغر الأعلى الأندلسي ، ص ٢٤٤، هامش(١).

٣) ارسلان ، الحلل السندسية ، ٢/ ٢١٢.

٤) العبر ، ٤/ ١٤٨.

٥) ابن خلدون، العبر، ٤/ ١٥٠ ؛ أقتصر ابن حيان على ذكر حاكم برشلونة فقط ، ولم يتطرق إلى سفير حاكم طركونة ، إلا أنه يضيف إلى الهدية ثلاثين أسيراً مسلماً بين رجال ونساء وأطفال. ينظر : المقتبس(للحقبة ٣٦٠ –٣٦٤هـ/٩٧٠ –٩٧٤ م) ، ص ٢٠ – ٢١ ؛ الحجي ، أندلسيات ، ص ٩١.

سقوط الخلافة الأموية في الأندلس ، برز محمد بن أبي عامر وهو واحد من كبار الشخصيات المهمة في الدولة والذي كان له دور في تثبيت السيادة الإسلامية في معظم أراضي أسبانيا ، وقد أحصيت الحملات التي سيرها ضد النصارى أكثر من خمسين حملة[1] ، كان نصيب ثغر طركونة منها حملتين الأولى سنة٣٧٤هـ/٩٨٤م[2] ، والثانية غزوته الحادية والثلاثين ، إذ ذكر مؤلف مجهول بأن المنصور بن أبي عامر بعد غزوة أشتورقه(استرقة) Astorga[1] ارتحل إلى طركونة فخربها وحمل رخامها إلى قرطبة ، وفتح عدة حصون ، وانصرف بالغنائم والسبي)[3] ، ولكنه لم يحدد تاريخ هذه الغزوة ، إلا إننا نستطيع أن نقدر سنة حدوثها من عدد الحملات التي قام بها المنصور بعد حملة سنة ٣٧٤هـ/٩٨٤م والتي تبلغ ثمان حملات وعلى اعتبار قيامه بحملتين في كل سنة يمكننا أن نخرج برأي توافقي لسنة حدوثها أي سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م.

وقد تمكن المنصور بن أبي عامر بعد هذه الحملة أن يبسط نفوذه على معظم أراضي الثغر الأعلى بما فيها طركونة ، وبذلك عادت طركونة إلى حكم المسلمين بعد أن بقيت بيد النصارى حوالي القرنين ، وقد ولى المنصور حكم هذا الثغر يحيى بن عبدالرحمن التجيبي سنة٣٧٩هـ/٩٨٩م ، الذي ظل حاكماً عليه حتى وفاته سنة٤٠٨هـ/١٠١٧م ثم تتابع أولاده من بعده على حكم منطقة الثغر الأعلى حتى سنة٤٣٠هـ/١٠٣٨م[4] ، لينتهي في هذا التاريخ حكم بني تجيب لتبدأ أسرة أخرى وهي أسرة بني هود[5].

ويبدو أنه مع بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بدأت الثغور الأندلسية تواجه حرباً نصرانية صليبية[1] ، بفعل التجزئة التي فتحت المجال أمام الممالك الأسبانية لتعيد بناء نفسها ، وبالتالي زيادة قوتها وتجديد نشاطها لتستولي على أكبر المدن

---

١) ابن الأثير ، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٢٦ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢/ ٣٠١ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ٤/ ١٥٢.

٢) مجهول ، تاريخ الأندلس ، ص ٢٢٩ ؛ وينظر : السامرائي وآخرون ، تاريخ العرب ، ص ١٩٣.

٣) تاريخ الأندلس ، ص ٢٣٠.

٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٣/ ١٧٥ – ١٧٨ ؛ السامرائي وآخرون ، تاريخ العرب ، ص ٢٣٧.

٥) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ٢٤٦/٢ – ٢٤٧ ؛ ابن خلدون ، العبر ،٤/ ١٦٧ – ١٦٨.

١) العمايرة، مراحل ، ص ٥٣ ؛ الدرويش ، مدينة سالم الأندلسية ، ص ١٦.

الثغرية وتعيدها نصرانية كما كانت ، وهذا ما حدث بالفعل لمدينة طركونة ، ومما زاد من سرعة سقوطها هو الخلاف بين أمراء بني هود أنفسهم ، والذي شجع النصارى الأسبان على مواصلة سياستهم التوسعية ، فبعد أن توفي المقتدر بن هود في سنة٤٧٤هـ/١٠٨١م ، قسمت مملكته بين ولديه المؤتمن وأخيه المنذر ، وقد اختص المنذر بن هود بالجانب الشرقي من مملكة سرقسطة وفيه ثغر طركونة وطرطوشة ، ثم توفي المنذر بن هود في سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ، وخلفه ولده الطفل سليمان الملقب بسعد الدولة[١] ، وفي ذلك الوقت واصلت مملكة برشلونة الاسبانية توسعها على أراضي الثغر الأعلى[٢] ، وكان الكونت رامون برنجير الثاني أمير برشلونة(٤٦٨- ٤٨٩هـ/١٠٧٥- ١٠٩٥م) ومن ورائه أحبار برشلونة يأملون إلى انتزاع ثغر طركونة من المسلمين وإعادته كما كان مركزاً للكنيسة البرشلونية فكتبوا بذلك إلى البابا اوربان الثاني Urbain II(٤٨١- ٤٩٣هـ/١٠٨٨- ١٠٩٩م) وهو محرك الحرب الصليبية في المشرق وقد شجع البابا مشروعهم وباركه ، وأسبغ عليه الصفة الصليبية ، واصدر طائفة من المنح والمزايا الدينية للذين يشتركون في هذه الحملة ، وكتب إلى سائر الأمراء والفرسان ورجال الدين في البلاد المجاورة ، يحثهم على الاشتراك في هذه الحملة المقدسة[٣] ، وهكذا جهزت حملة صليبية قوية لافتتاح طركونة على رأسها رامون برنجير الثاني ، وجاءت وفاة المنذر بن هود في تلك المدة بالذات مشجعة للغزاة ، وقد سارت الحملة إلى طركونة واستطاعت انتزاعها من المسلمين بسهولة سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠ م ، لضعف وسائلها الدفاعية ، وتخلى المستعين بن هود صاحب سرقسطة عن أنجادها ولأن الجيوش المرابطية لم تكن قد وصلت يومئذ في زحفها نحو الشمال إلى الثغر الأعلى[٤] ، وبذلك سقت مدينة طركونة بعد أن حكمها المسلمون على فترات حتى سنة٤٨٣هـ/١٠٩٠م.

---

١) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص ٨٦ هامش(١).

٢) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب ، ص ٢٥٦.

٣) عنان ، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ١١٦.

٤) عنان ، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ١١٦ - ١١٧ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس ، ص٩٢.

مدينة تطيلة Tudela الأندلسية
(٩٤ -٥١١ هـ/ ٧١٢ -١١١٧ م)

تقع مدينة تطيلة(Tudela) في الثغر الأعلى الأندلسي شمال مدينة سرقسطة (Saragosa)[١] ، وفي الشمال الشرقي من قرطبة(Cordoba)[٢] التي تبعد عنها خمسون ميلاً[٣] ، وهي بذلك(محاذية لأرض الشرك الذين يُقال لهم البسكنس)[٤][٥] ، والى الشمال منها تقع مدينة وشقة Huesca التي تتصل بأعمالها[٦].

ومن أعمال مدينة تطيلة طرسونة Tarazona إذ إن المسافة بينهما اثنا عشر ميلاً ، ومدينة ناجرة Najera وفارة Faro[٧] ، كذلك مدينة أرنيط Ornedo التي تقع في شرق الأندلس والمسافة بينهما عشرة فراسخ[٨] ، في حين ذكر الحميري أن المسافة بينهما

---

١) اليعقوبي، البلدان، ص ١٩٥.

٢) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٠٤.

٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٣٣/٢ ؛ والميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان ، ص ٩٨

٤) وردت كلمة البشكنس في المصادر التاريخية بأسماء متعددة فجاءت بلفظة البسكنس والبشكنس والبشكنش وبشكونس والبشاكسة، وفي المراجع الحديثة أطلق عليهم اسم الباسك للتنويه إلى خليج بسكاي المحاذي لمناطقهم، والبشكنس هم سكان نافار وهو إقليم يمتد عبر جبال البرت الغربية على الحدود ما بين فرنسا وأسبانيا، ينظر : اليعقوبي، البلدان، ص ١٩٥ ؛ ابن حوقل صورة الأرض، ص ١٠٩ ؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٥٠٢ ؛ ابن حيان، المقتبس(الحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ /٧٩٧ -٨٤٦ م) تحقيق مكي، ص ٣٠٦، ٣٠٧ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٧١/٥ ؛ ارسلان الحلل السندسية، ٣٢١/١ ؛ لودر، أسبانيا شعبها وأرضها، ص ١٩٦ ؛ العلياوي، البشكنس، ص ١١

٥) اليعقوبي، البلدان، ص ١٩٥.

٦) اليعقوبي، البلدان، ص ١٩٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٣٣.

٧) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٨.

٨) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٧ ؛ والفرسخ يساوي ٦ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان، ص ٩٤.

ثلاثون ميلاً[1] ، ومن إعمال تطيلة أيضا مدينة بقيرة Viguera التي تقع في شرق الأندلس والمسافة بينهما أحد عشر فرسخاً[2] ، ومن توابعها أيضا مدينة قلهرة Calahorra التي قال ياقوت عنها(مدينة من أعمال تطيلة في شرق الأندلس...)[3].

وقد عدّ الإدريسي مدينة تطيلة من ضمن إقليم أرنيط وهو أحد الأقاليم التي تتكون منها منطقة الثغر الأعلى الأندلسي ، وهو يضم مدن عدة منها قلعة أيوب Calatayud ودروقة Daroca وسرقسطة ووشقة فضلا عن تطيلة[4].

بدأت عملية الفتح الإسلامي لمدينة تطيلة من قبل القائد موسى بن نصير ، فبعد أن التقى بطارق بن زياد في مدينة طليطلة Toledo ، واصل كلاهما جهودهما الرامية لإكمال الفتح الإسلامي لشبه الجزية الأيبيرية Iberia ، وانقسمت قواتهم إلى قسمين ، إذ توجه طارق بن زياد إلى الغرب والشمال الغربي ، في حين سار موسى بن نصير إلى مدينة سرقسطة متوجها نحو الشرق والشمال الشرقي[5] ، ولا نستبعد أن تكون مدينة تطيلة من ضمن المناطق التي فتحت من قبل موسى بن نصير ، وذلك لوقوعها في خط سير قواته ، أضف إلى ذلك أنها تعد من توابع سرقسطة المهمة لما تتمتع به من موقع استراتيجي ، وقد أشار مؤلف مجهول لعملية فتحها بقوله(..ثم سار حتى افتتح سرقسطة ومداينها...)[6] ، في حين علق ابن عذاري على ذلك بقوله (ولما التقى موسى بطارق ، وجرى له معه ما جرى ، تقدم من طليطلة إلى سرقسطة ، فافتتحها وافتتح ما حولها من الحصون والمعاقل...)[7] وكان ذلك سنة ٩٤هـ/٧١٢م[8].

برز الدور العسكري لمدينة تطيلة بعد سقوط مدينة برشلونة Barcelona بيد

---

١) الروض المعطار، ص ١٣٣.
٢) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٨١.
٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣٣.
٤) نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢.
٥) مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٠٤ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ١٠١.
٦) أخبار مجموعة، ص ١٩.
٧) البيان المغرب، ١٦/٢.
٨) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٨.

النصارى سنة١٨٥هـ/٨٠١م[١] ، الأمر الذي أدى بالأمراء الأمويين في الأندلس إلى الاهتمام بهذه القاعدة المهمة لمواجهة النصارى لتكون سداً منيعاً لصد هجماتهم ، إذ قام الأمير الحكم بن هشام(١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢١م) ببناء مدينة تطيلة سنة١٨٦هـ/٨٠٢م ، وقد أسكنها أعداداً كبيرة من المسلمين للدفاع عنها ومنع تقدم النصارى إلى المناطق الأندلسية الأخرى[٢] ، وقد أكد ذلك ابن حيان بقوله(...ضمّ إليها من كان حواليها من المسلمين بغرر عليهم ، وكثروا وأضحوا شجىً في حلوق العدو...)[٣].

خضعت مدينة تطيلة لحكم أسرة بني قسي Banu Casi[٤] في أغلب فتراتها والذين لعبوا دوراً كبيراً في مناطق الثغر الأعلى منذ عهد الأمير الحكم بن هشام(١٨٠-٢٠٦هـ /٧٩٦-٨٢١م) حتى سقوطهم النهائي سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م[٥] ،ثم أعقبهم في حكم المنطقة أسرة بني تجيب[٦] وتتابعوا على حكم منطقة الثغر الأعلى حتى سنة٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م[٧] ، لينتهي دور حكم بني تجيب في هذه السنة وتبدأ دور أسرة أخرى في حكم منطقة الثغر الأعلى وهي أسرة بني هود[٨].

وخلال مدة حكم أحمد المستعين بن هود(٤٧٨- ٥٠١هـ/١٠٨٥-١١٠٩م) تعرضت مدينة تطيلة لحملة عسكرية نصرانية سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨م بقيادة ملك أراغون سانشو

---

١) لمزيد من التفاصيل حول ذلك ينظر : ابن حيان، المقتبس(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/٧٩٦ -٨٤٦ م) ص ١١٧ ؛ ابن الأثير، الكامل، ١٤٩/٦ ؛ النويري، نهاية الإرب، ٨٢/٢٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٢٥/٤.

٢) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٨١.

٣) المقتبس،(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/٧٩٦ -٨٤٦ م) ص ١١٨.

٤) يرجع نسبهم إلى زعيمهم فرتون بن قسي حاكم إقليم شيّه، إذ اعتنق الدين الإسلامي سنة ٩٤هـ/ ٧١٢ م وقصد بلاد الشام لمقابلة الخليفة الوليد بن عبد الملك(٨٦ -٩٦ هـ/٧٠٥ -٧١٤ م)، ولم تشر المصادر إلى دورهم ورجالاتهم الذين حكموا الأندلس طيلة المدة من أيام فرتون بن قسي حتى نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، إذ ذكرت أن مطرف بن موسى بن فرتون بن قسي قتله أهل بنبلونة سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م، ينظر : ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٢٠٥ ؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٥٠٢ ؛ ابن حيان، المقتبس(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/ ٧٩٦ -٨٤٦ م)، ص ١١٥ ؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٠٤.

٥) ينظر التفاصيل عن حكم أسرة بني قسي : الساعدي، بنو قسي ودورهم السياسي والعسكري، ص٤٣-٥٠.

٦) العذري، نصوص عن الأندلس، ص ٤٠.

٧) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٧٥/٣ -١٧٨ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٣٧.

٨) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٤٦/٢ -٢٤٧ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٦٧/٤ -١٦٨.

راميرث Sancho Ramirez(٤٥٥—٤٨٧هـ/١٠٦٣-١٠٩٤ م) بلغ عددها أربعمائة ألف مقاتل ، إلا أنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، وقد أوضح ذلك ابن الكردبوس بقوله(واستعجل في تلك المدة ابن رذمير—يقصد به سانشو راميرث—لما جرى على الفنش[1] التدمير ، وانضمت إليه جميع النصرانية ، فنزل بهم على تطيلة في نحو أربعمائة ألف نسمة ، فردهم الله عنها خائبين ، واستولى على حصون من عمل ابن هود...)[2].

ثم واصلت مملكة أراغون Aragon الاسبانية توسعها على حساب أراضي الثغر الأعلى الأندلسي(سرقسطة وأعمالها) ، وتمكن ملكها بيدرو الأول Pedro I (٤٨٩-٤٩٩هـ/ ١٠٩٥-١١٠٥م) يسانده أخوه الفونسو الأول المحارب(٤٩٩-٥٢٩هـ/١١٠٥-١١٣٤م) من السيطرة على مدينة وشقة سنة٤٨٩هـ/١٠٩٥م[3] الأمر الذي حفز الفونسو الأول المحارب فيما بعد مواصلة عملياته العسكرية ضدّ المناطق الإسلامية ، لاسيما أنه لم يبق من قواعد سرقسطة المهمة بعد وشقة سوى مدينة تطيلة ، فسارت قواته نحوها ، وأسرع المستعين بن هود لإنجادها ، وحدثت بين الجانبين الإسلامي والنصراني معركة عنيفة عند مدينة بلتيرة Valtierra ، هُزِمَ فيها المسلمون وقتل أحمد المستعين وذلك سنة٥٠١هـ/١١٠٧م[4].

ويبدو أن القوات النصرانية على الرغم من هذا الانتصار لم تتمكن من دخول مدينة تطيلة والسيطرة عليها ، إذ بعد مقتل المستعين خلفه في الحكم ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة[5] ، وخلال هذه المدة تمكن المرابطون Almoravides Los من دخول مدينة سرقسطة سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م ، وبذلك انتهى دور بني هود السياسي في مدينة سرقسطة.

---

١) وهو الفونسو السادس ملك ليون وقشتالة الذي حكم للمدة(٤٥٨ -٥٠٢ هـ/ ١٠٦٥ -١١٠٨م) وكان قائد النصارى في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م والتي مُنِيَ فيها بهزيمة كبيرة أمام المرابطين، لمزيد من التفاصيل ينظر : ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٩١ -٩٧ ؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٥٢ وما بعدها..

٢) تاريخ الأندلس، ص ٩٩.

٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٧٢/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٦٣/٤.

٤) ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ١٧٤/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٢٨٠ -٢٨١ ؛ وذكر القلقشندي بأن المستعين بن هود قتل شهيداً سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م في المعركة أعلاه، ينظر : صبح الأعشى، ٢٥٥/٥.

٥) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٧٣ -٧٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٢٨١.

ثم دخل المرابطون في سلسلة من العمليات العسكرية ضد الأسبان ولاسيما مملكة أراغون ، ويبدو أن سببها الأساسي هو الموقع المهم لمدينة سرقسطة وأعمالها ، كونها القاعدة العسكرية الأخيرة للمسلمين في منطقة الثغر الأعلى ، ومن يحتفظ بها يُمكنه إدارة العمليات العسكرية في معظم تلك المنطقة بنجاح ، وهو ما أدركه الأسبان ، إذ شعروا بالقلق إزاء استمرار حكمها من قبل المرابطين ، باعتبارها معسكراً للجيش المرابطي المعادي لهم.

ومن أجل الدخول إلى منطقة الثغر الأعلى وإحداث ثغرة فيه ، سارع الفونسو الأول المحارب Alfonso el Batallador ملك أراغون بمهاجمة مدينة تطيلة سنة٥١١هـ/١١١٧م ، لأنها كانت القاعدة الأساسية المتقدمة للمسلمين باتجاه أراضي النصارى ، وفعلا تمكنت قوات مملكة أراغون من السيطرة عليها وانتزاعها من المسلمين[١].

وبسقوط تطيلة انهار حصن سرقسطة الأمامي التي كانت تعد خطاً دفاعياً قوياً عنها[٢] ، وأصبحت قواعد الثغر الأعلى مهددة أمام الفونسو الأول المحارب الذي سيطر على مدينة سرقسطة سنة٥١٢هـ/١١١٨م مباشرة بعد سقوط تطيلة بحملة صليبية من قوات أسبانية وأوربية مشتركة[٣] ، وبعدها سقطت مدينة روطة Rueda المنيعة في السنة نفسها[٤] ، وتتابعت بقية أعمال الثغر بالسقوط ، فقد نجح الفونسو الأول المحارب بالسيطرة عليها الواحدة تلو الأخرى ، ففي سنة ٥١٣هـ/١١١٩م سيطر على مدينة طرسونة وأعاد إليها مركز الأسقفية القديمة التي كانت قبل فتح المسلمين لها[٥] ، ثم سار إلى مدينة برجة واستولى عليها ، كما فرض سيطرته على مدينة قلعة أيوب وكانت من أمنع ما بقي من معاقل الثغر الأعلى[٦] ، وهكذا سقطت مدينة تطيلة بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٤١٧ سنة.

---

١) ابن القطان، نظم الجمان، ٨/٦ هامش(١) ؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٤٨/٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٤/٤ -٥٥ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٤١٢/١ -٤١٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨٩/٣.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠/٥.

٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٦٣ ؛ السلاوي، الاستقصا، ٦٧/٢ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ١٠٢ وما بعدها.

٤) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٤٦/٢ هامش(٢).

٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٠٢/٣.

٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٦٣ ؛ أرسلان، الحلل السندسية، ١٠٥/١.

مدينة سرقسطة Saragosa ـ Saragoza الأندلسية
(٩٤ -٥١٢ هـ/٧١٢ -١١١٨م)

سرقسطة واحدة من أهم مدن الثغر الأعلى الأندلسي ، وهي مدينة قديمة ذكر العذري إلى أن اسمها في اللسان اللاتيني مشتق من اسم القيصر أوغسطس الذي بناها[١] ، وتلفظ(بفتح أوّله وثانيه ثمّ قاف مضمومة ، وسين مهملة ساكنة ، وطاء مهملة)[٢] ، وصفها الإدريسي بالقول: (سرقسطة قاعدة من قواعد مدن الأندلس كبيرة القطر آهلة ممتدة الأطناب واسعة الشوارع والرحاب حسنة الديار والمساكن متصلة الجنات والبساتين ولها سور مبني من الحجارة حصين وهي على ضفة النهر الكبير المسمى ابره وهو نهر كبير يأتي بعضه من بلاد الروم وبعضه من جهة جبال قلعة أيوب وبعضه من نواحي قلهرة فتجتمع مواد هذه الأنهار كلها فوق مدينة تطيلة ثم تنصب إلى مدينة سرقسطة إلى أن تنتهي إلى حصن جبرة إلى موقع نهر الزيتون ثم إلى طرطوشة فيجتاز بغربيها إلى البحر ومدينة سرقسطة)[٣] ، وتسمى المدينة البيضاء لكثرة جصها وجيارها[٤] ، وقال الزهري عرفت بالمدينة البيضاء لأنها تبّيَض وعليها نور أبيض لا يخفى على أحد لا في ليل ولا نهار كما تزعم الروم ، ويقول المسلمون إن ذلك النور منذ دفن بها الرجلان الصالحان حنش الصنعاني وفرقد السنجاري)[٥] ، كما تسمى أم الثغر

---

١) ترصيع الأخبار، ص ٢١ ؛ ينظر أيضاً : المقري، نفح الطيب، ١٥٠/١.

٢) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٤٤.

٣) نزهة المشتاق، ٥٥٤/٢.

٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٤/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣١٧ ؛

٥) الجغرافية، ص ٨١.

الأعلى[1] ، وأيضاً عروس الابرو لوقوعها على نهر الابرو[2].

أما المسافات بينها وبين مدن الأندلس الأخرى ، فبينها وبين قلعة أيوب خمسون ميلاً ، وبينها وبين وشقة أربعون ميلاً ، وبينها وبين تطيلة خمسون ميلاً[3] ، وبينها وبين بلنسية تسع مراحل[4] ،وبينها وبين قرطبة عشرة أيام[5] ، وبينها وبين طرطوشة مائة وعشرون ميلاً[6].

أما فتحها فكان الفتح الإسلامي لمنطقة الشمال الشرقي الأندلسي من قبل موسى بن نصير سنة٩٤هـ/٧١٢ م ، فبعد فتح طليطلة من قبل طارق بن زياد ثم لحوق موسى بن نصير له ، فقد أشارت المصادر إلى أن فتح سرقسطة وما والاها من المدن كان من قبل موسى[7] ، وكان فتحها صلحاً بدون قتال[8].

هناك عدة عوامل تحكمت في سير الأحداث فيها منها أنها كانت قاعدة الثغر الأعلى ومقر الولاة ثم بعدها عن قرطبة ووقوعها بالقرب من الممالك النصرانية وحدود الفرنجة فضلاً عن تركيبتها السكانية من الأسر العربية العريقة والمولدين.

فمن أشهر الثورات التي شهدتها مبكراً ثورة سليمان الأعرابي والحسين الأنصاري سنة١٥٧هـ/٧٧٤م وتعاونهما مع شارلمان[9] ، ثم ظهر بنو قسي في المنطقة واستمر دورهم حتى سنة٣١٧هـ/٩٢٩م[10] ، وبعد أفول نجم بني قسي ظهر دور بنو تجيب الذين استمروا

---

١) المقري، نفح الطيب، ١٦٦/١.
٢) الحساني، تاريخ مدينة سرقسطة، ص ٣.
٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٤/٢.
٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٦/٢.
٥) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٦.
٦) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٢٥.
٧) ينظر : ابن قتيبة(منسوب)، الإمامة والسياسة، ٢٤١/٢ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٨ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦/٢.
٨) مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٦٣ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٩١.
٩) ينظر التفاصيل : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٠٢ -١٠٣ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ٢٥ - ٢٦ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٢، ١٠٨-١٠٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٦/٢-٥٧.
١٠) ينظر التفاصيل عن بني قسي ودورهم في الثغر الأعلى : العذري، ترصيع الإخبار، ص ٣٧ -٤٠.

حتى سقوط الخلافة الأموية وظهور دويلات الطوائف وتمكن بنو هود من إنهاء حكم التجيبيين في سرقسطة سنة٤٣١هـ/١٠٣٩م وحلوا محلهم[١] ، واستمر نفوذ بني هود في سرقسطة حتى الفتح المرابطي لها سنة٥٠٣هـ/١١٠٩م[٢].

شهد الثغر الأعلى الأندلسي تطورات خطيرة لاسيما بعد هزيمة النصارى بقيادة الفونسو السادس في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ/١-٨٦ م ، فقد استشعر الأخير خطر التحالف بين شمال إفريقية والأندلس فأرسل صريخه إلى أوربا بضرورة إنقاذ أسبانيا النصرانية وإلا فإن الخطر الإسلامي سيمتد إلى خلف جبال البرت فاستعد ملوك أوربا لذلك إلا أن رجوع يوسف بن تاشفين هدأ من روعهم[٣] ، ولكن حاكم برشلونة رامون برنجير الثالث الملقب بالبرشلوني Ramon Berenguer III(٤٨٥-٥٢٥هـ/١٠٩٢- ١١٣٠م) والفونسو الأول المحارب Alfonso el Batallador(٤٩٩-٥٢٩هـ/١١٠٥-١١٣٤م) ملك أراغون تزعما الحركة الصليبية لطرد المسلمين من منطقة الثغر الأعلى الأندلسي فرحبوا بالمتطوعة القادمين من بلاد الأفرنجة وصبغ حملاتهم على المسلمين بالصبغة الصليبية ، ومن جانبهم كان المرابطون في أوج قوتهم فقاموا بإرسال قواتهم لاسترجاع مدينة برشلونة في سنة٤٩٥هـ/١١٠١م[٤] ، ثم أرسلت حملة أخرى في سنة٥٠٢هـ/١١٠٨م ، بقيادة والي مدينة مرسية أبي بكر بن تافلوت[٥] أسفرت عن خسائر كبيرة لكلا الطرفين[٦].

---

١) ينظر عن دور بني تجيب في سرقسطة : التميمي، التجيبيون في الأندلس، ص ٤٧ -٨١ ؛ الحساني، تاريخ مدينة سرقسطة، ص ٦١ -٧٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٦٤/٢ -٢٧٠.

٢) ينظر التفاصيل عن دور بني هود في سرقسطة : الحساني، تاريخ مدينة سرقسطة، ص ٨٨ -١١٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٧١/٢ -٢٩٣.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣١/٢.

٤) السلاوي، الاستقصا، ٥٨/٢ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٥٦ -٢٥٧.

٥) هو أبو بكر بن إبراهيم المعروف بابن تفلويت ابن عمّ علي بن يوسف بن تاشفين كان يسكن الصحراء ثم وفد على علي بن يوسف فزوجه أخته وولاه مرسية ثم بلنسية وكانت وفاته بسرقسطة سنة ٥١٠ هـ/ ١١١٦ م، ابن الخطيب، الإحاطة، ٢١٨/١ – ٢٢١.

٦) الأنيس المطرب، ص ١٦١ ؛ وحدد أشباخ تاريخ هذه الغزوة سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠ م، ينظر : تاريخ الأندلس، ١٤٨/١.

وفي سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م تحرك القائد المرابطي محمد بن الحاج[1] نحو مدينة سرقسطة وتمكن من دخولها وإنهاء حكم بني هود فيها[2].

وفي سنة٥٠٨هـ/١١١٤م قاد محمد بن الحاج من سرقسطة حملة كبيرة إلى مدينة برشلونة ، أسفرت عن استشهاده ، وقتل عدد كبير من قواته ، وأشار ابن أبي زرع إلى هذه الحملة وأحداثها بالقول: (... ، فخرج في غزاة له فأخذ على الطريق البرية ، فغنم وسبا وكان معه جماعة من قواد لمتونة ، فبعث بالمغنم على الطريق الكبير ، وأخذ هو على الطريق البرية لقربه من بلاد المسلمين ، ومر أكثر الناس مع المغنم ، وكان طريق البرية الذي أخذه محمد بن الحاج لا يسلك إلا عن طريق واحد لصعوبته وشدة وعره ، فلما توسط الأمير محمد بن الحاج وأخذته الأوعار والمضايق ، وجد النصارا قد كمنوا له في جهة من تلك الجهات ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، قتال من أيقن بالموت واغتنم الشهادة ، إذ لم يجد منفذا يخلص منه ، فاستشهد رحمه الله واستشهد معه جماعة من المتطوعة ،...)[3].

وبعد مقتل ابن الحاج عين المرابطون أبا بكر بن إبراهيم بن تافلوت[4] على سرقسطة وباقي شرق الأندلس الذي قام في السنة نفسها بالزحف على برشلونة ، إلا أن النصارى سرعان ما أتوا لنجدتهم بقيادة الفونسو الأول المحارب ودخلوا في مواجهة عنيفة مع المسلمين أسفرت عن خسائر لكلا الطرفين ، وقد علق عل ذلك ابن أبي زرع بقوله: (...وولا مكانه أبا بكر بن إبراهيم بن تافلوت ، وكان عاملاً على مرسية ، فاجتمع إليه من كان بها من الجند إلى جند سرقسطة ، وسار بها إلى برشلونة ، فنزلها وأقام عليها عشرين يوماً حتى هتكها وقطع ثمارها وخرب إنحاءها وقراها ، فأتاه ردمير في جيوش كثيرة من حشود لبيط وبرشلونة وبلاد أربونه ، فكانت بينهم حروب عظيمة مات فيها خلق

---

١) هو أبو عبد الله محمد بن الحاج أحد قادة المرابطين ولي قرطبة ثم بلنسية، وتغلب على بني هود في سرقسطة، وغزا برشلونة واستشهد فيها سنة ٥٠٨ هـ/ ١١١٤ م، ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٦٠.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٣/٤ -٥٤ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٦٠.

٣) الأنيس المطرب، ص ١٦٠ -١٦١.

٤) هو أبو بكر بن إبراهيم المعروف بابن تفلويت ابن عمّ علي بن يوسف بن تاشفين كان يسكن الصحراء ثم وفد على علي بن يوسف فزوجه أخته وولاه مرسية ثم بلنسية وكانت وفاته بسرقسطة سنة ٥١٠ هـ/ ١١١٦ م، ابن الخطيب، الإحاطة، ٢١٨/١ – ٢٢١.

كثير من الروم واستشهد فيها من المسلمين نحو السبعمئة رجل)[١].

وفي رجب من سنة٥١١هـ/١١١٧م توفي الأمير أبو بكر بن تفلويت[٢] وكان خلال مدة بقائه في سرقسطة بذل جهود كبيرة في دفع القوات النصرانية عنها وحمايتها ، وقد وصفه ابن عذاري بقوله: (... وكان مقيماً بها فتولى الأمر فيه وأخذ العزم والحزم ، وثقف أمور المملكة ونظر في مصالح الرعية)[٣] ، فولى المرابطون القائد عبد الله بن مزدلي بلنسية وسرقسطة وحاول مدافعة النصارى عنها عاماً كاملاً ثم توفي فيها فبقيت سرقسطة دون والياً يدافع عنها ، وقد علق ابن أبي زرع على ذلك قائلاً: (وفي سنة إحدا عشر وخمسمئة ولي عبد الله بن مزدلي بلنسية وسرقسطة ، فسار إليها من غرناطة ، فوجد ابن ردمير اللعين قد أذاق أهلها شراً ، وكانت بينهما حروب عظيمة حتى هزمه وأخرجه عن البلاد ، وأقام عبد الله بن مزدلي على سرقسطة عاماً كاملاً ، فتوفي ، فبقيت سرقسطة دون أمير)[٤].

وهنا يتساءل عنان قائلاً: وإنه لما يلفت النظر أنه لم يعين في تلك الآونة العصيبة ، التي لاح فيها الخطر داهماً على سرقسطة ، والٍ جديد يخلف على الفور واليها المتوفى ، خصوصاً وقد كان أمير المسلمين علي بن يوسف موجوداً في تلك الفترة بالذات(٥١١هـ /١١١٧م) في شبه الجزيرة ، عقب جوازه الثالث إليها ، وأعجب من ذلك هو أن علي بن يوسف ، بدلاً من أن يتجه بجيوشه الجرارة العابرة معه ، إلى مواطن الخطر في الثغر الأعلى ، يؤثر أن يضطلع بغزوات عقيمة في أراضي البرتغال Portugal ، يستولي خلالها على مدينة قُلمرية Coimbra ، ثم يتركها عقب افتتاحها[٥].

ولكن رواية ابن أبي زرع–على الرغم من وجود بعض التناقض فيها فيما يخص عبدالله بن مزدلي–أشارت إلى أن الفونسو المحارب ملك أراغون اغتنم فرصة وفاة عبدالله بن مزدلي

---

١) الأنيس المطرب، ص ١٦١ ؛ وحدد أشباخ تاريخ هذه الغزوة سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠ م، ينظر : تاريخ الأندلس، ١٤٨/١.

٢) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٧٧/٢.

٣) البيان المغرب، ٦١/٤ -٦٢؛ ينظر أيضاً: ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٢١/١.

٤) الأنيس المطرب، ص ١٦٢.

٥) دولة الإسلام في الأندلس، ٨٩/٣ -٩٠.

فرجع إلى محاصرة سرقسطة ، إلا أنه فضل الاستيلاء على لاردة أولاً ، قال: (فأتاها الفونسو الأول ملك أراكون فنزلها ، وأتا الفنش أيضا في أمم لا تحصى من الروم فنازل لاردة من بلاد الجوف ، فاتصل الخبر بأمير المسلمين علي بن يوسف ، فكتب إلى أمراء غرب الأندلس بالمسير إلى ناحية تميم ، وكان والياً على شرق الأندلس ، ليسيروا معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة ، فقدم على تميم عبد الله بن مزدلي وأبو يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة بعساكرهما ، فخرج تميم بن يوسف بن تاشفين من بلنسية مع أمراء لمتونة ، فقصد لاردة وكان بينه وبين الفونسو الأراكوني قتال عظيم أقلعه عن لاردة خاسئا خاسرا ، بعد أن بذل جهده في حصارها وقتالها ، وفقد عليها من جيوشه ما يزيد على عشرة آلاف فارس ، ورجع تميم إلى بلنسية)[1] ، وعلى الرغم من وجود بعض التناقضات في هذه الرواية مثل تكرار اسم الفونسو الأول والفنش وهما واحد وهو الفونسو الأول المحارب ملك أراغون وكذلك تكرار اسم عبد الله بن مزدلي وكان قد توفي[2] ، إلا أن هذه الرواية ينبغي أن توضع في سياقها ، فحملة تميم بن يوسف استطاعت أن تنقذ مدينة لاردة من السقوط في أيدي النصارى سنة ٥١١هـ/١١١٧م ، إلا أنها عجلت في سقوط سرقسطة.

إذ أن الفونسو المحارب لما رأى صعوبة اقتحام لاردة ركز جهوده على سرقسطة فقام بمحاصرتها ووصلت إليه تعزيزات كبيرة على شكل قوات صليبية ، ففي سنة٥١١هـ/١١١٧م ، عبرت حملة قوية من الأفرنج بقيادة جاستون دي بيارن وأخيه سانتولو–وكانا قد اشتركا بالمشرق في الحرب الصليبية الأولى– ، إلى اسبانيا ، لتشترك مع الأرغونيين في افتتاح سرقسطة ، وفي العام التالي(أي ٥١٢هـ/١١١٨م) عقد بمدينة تولوز(تولوشة) مؤتمر من أساقفة آرل ، وأوش ، ولاسكار ، وبنبلونة ، وببشتر ، وتقرر فيه أن ترسل حملة صليبية أخرى إلى اسبانيا يقودها الكونت دي تولوز ، وحشدت فوق ذلك قوات كبيرة من البشكنس ، ومن قطلونية ، ومن أورقلة تحت إمرة سادة هذه المناطق ، وكان بين المقاتلين كثير من الأساقفة

---

١) الأنيس المطرب، ص ١٦٢ -١٦٣ ؛ ينظر أيضا : السلاوي، الاستقصا، ٦٧/٢ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٤٣/٢ -١٤٤.

٢) ينظر : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٩٣/٣.

ورجال الدين[1].

وقد وصف ابن أبي زرع تلك القوات الصليبية المحاصرة لسرقسطة بقوله: (فلما رأى الفونسو الأول الاراكوني ذالك بعث إلى طوائف الأفرنج يستنصر بهم على سرقسطة ، فأتوا في أمم كالنمل والجراد ، فنزلوا معه بها وشرعوا في قتالها ، وصنعوا أراجاً من خشب تجري على بكارات وقربوها منها ، ونصبوا فيها الرعادات ، ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً ، ووقع طمعهم فيها ، فاستمر الحصار عليها حتى فنيت الأقوات وفني أكثر الناس جوعاً ، فراسلوا الفونسو الأول على أن يرفع عنهم القتال إلى أجل ، فإن لم يأتهم من ينصرهم أخلوا البلاد وسلموها له ، فعاهدهم على ذالك ، فتم الأجل ودفعوا إليه المدينة ، وخرجوا عنها إلى بلنسية ومرسية ، وذالك في سنة اثني عشر وخمسمئة ، وبعد دخولها تملك النصارا إياها ، وصل من العدوة جيش من عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين علي لاستنقاذها ، فوجدوها قد فرغ منه وملكها ونفذ حكم الله فيها)[2].

وعلى الرغم من أن ابن الكردبوس يجعل أخذ النصارى سرقسطة من ابن هود إلا أن في روايته بعض التفاصيل عن كيفية اقتحامها وشروط تسليمها إذ قال: (وحاصر ابن ردمير البلد—يقصد سرقسطة— شهوراً ، وأذاق أهله ويلاً وثبوراً ، إلى صالحه أهلها على أن يسلموا البلد إليه ، ويجعلوه في يديه ، فمن أحب منهم الإقامة على أداء الجزية خاصة أقام ، ومن أحب أن يرحل بما عنده إلى حيث شاء من البلاد فله الأمان التام ، إلى أن يصل إلى بلاد الإسلام ، وعلى أن يسكن الروم المدينة والمسلمون ربض الدباغين وعلى أن كل أسير يفلت للروم من المدينة ويحصل عند الإسلام ، فلا سبيل لمالكه إليه ، ولا اعتراض له عليه ، فرقع على ذلك الاتفاق ، وانعقدت فيه بينهم عقود بالعهد الوكيد والميثاق ، وأسلموا إليه البلد ، فيا له من مصاب قطع الأكباد وأذهب الجلد ، فلما استقرت به"لعنه الله"الدار ، أخذ أكثر المسلمين في الرحيل والفرار ، فبلغ عددهم نحواً خمسين ألف نسمة ما بين صغير وكبير ونساء وذكور ، فلما ساروا من المدينة على مرحلة ، ركب بنفسه مع من استصحبه واحتمله ، فوقف عليهم وأمرهم أن يبرزوا جميع

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٩٠/٣ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٠٢ -١٠٣.

٢) الأنيس المطرب، ص ١٦٣.

ما لديهم من القليل والكثير فرأى أموالاً لا تحصى كثرة ، ولا كان راجياً أن يرى جزءاً منها دهره ، فقال لهم : لو لم أقف على ما عندكم من هذه الأموال ، لقلتم لو رأى بعضها لم يسمح لنا بالرحيل ، فسيروا الآن حيث شئتم في أمان ، ووجه معهم من رجاله ، من يشيعهم إلى آخر أعماله ، ولم يأخذ منهم سوى غير مثقال ، على الرجال والنساء والأطفال ، فتملكها"لعنه الله" من ذلك التاريخ إلى هلم)[1].

والجدير بالذكر هنا أن بعض أهالي سرقسطة حاولوا خلال مدة الحصار لها الاستنجاد بالأمير المرابطي تميم بن يوسف بن تاشفين ، فخرج منهم الفقيه علي بن مسعود الخولاني والخطيب أبي زيد بن منتيال والتقوا بالأمير(أبي الطاهر تَمِيم بن يوسُفَ بن تاشَفِين في حصارِ سَرَقُسْطَةَ وكلَّماهُ عن أهلها بَمَحْضَر أبي الغَمْر السائبِ بن غرّونَ في مُناجَزة العدوّ ، فجَبُنَ عن ذلك ، وكان انتقالُه بالجيوش عنها سببَ نَجاح الرُّوم إلى أن مَلَكوها)[2] ، كما وجه قاضي سرقسطة ثابت بن عبد الله رسالة إلى الأمير تميم بعد ستة أشهر من حصار المدينة يتضرعون فيها لإنقاذ سرقسطة ووصفوا له فيها أهوال الحصار والجوع ويحمل المرابطين ما يترتب من سقوط سرقسطة بقوله: (فما هذا الجبن والفزع ، وما هذا الهلع والجزع ، بل ما هذا العار ، والضيع ، أتحسبون يا معشر المرابطين ، وإخواننا في ذات الله المؤمنين ، إن سبق على سرقسطة القدر ، بما يتوقع منه المكروه والحذر ، أنكم تبلغون بعدها ريقاً ، وتجدون في ساير بلاد الأندلس عصمها الله ، مسلكاً من النجاة أو طريقاً - كلا والله ليسومنّكم الكفار عنها جلاء وفراراً ، وليخرجنّكم منها داراً فداراً ، فسرقسطة حرسها الله هي السد الذي إن فتق ، فتقت بعده أسداد ، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله ، استبيحت له أقطار وبلاد ، فالآن أيها الأمير الأجل ، هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالمنية ولا الدنية ، والنار ولا العار ، فأين النفوس الأبية ، وأين الأنفة والحمية ، وأين الهمم المرابطية ، فلتقدح عن زنادها ، بانتضاء حدها ، وامتضاء جدها ، واجتهادها ، وملاقاة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله هم الغالبون)[3].

---

١) تاريخ الأندلس، ص ١١٧ -١١٩.

٢٢) ابن الابار، التكملة، ١٨٤/٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٣٤٤/٢.

٣) ينظر نص الرسالة كاملة : مؤنس، الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، ص ٤٤ -٤٨.

ومن خلال الرسالة والوفد أعلاه فقد حمل أهالي مدينة سرقسطة الأمير المرابطي تميم بن يوسف بن تاشفين سقوط سرقسطة ، إلا أن ابن أبي زرع أشار إلى أن الأمير تميم فعلاً أرسل قوة لإنجاد سرقسطة ولكنها وصلت متأخرة بقوله :(... وبعد دخولها تملك النصارا إياها ، وصل من العدوة جيش من عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين علي لاستنقاذها ، فوجدوها قد فرغ منه وملكها ونفذ حكم الله فيها)[1] ، وتشير الرواية النصرانية إلى أن هذا الجيش قد وصل إلى حصن سانتا ماريا الواقع على بعد ثمانية عشر كيلومتراً من سرقسطة وأن معركة عنيفة وقعت بين المرابطين والنصارى هزم فيها المرابطون[2].

وقد علق عنان على تقاعس المرابطين عن سرقسطة بقوله : إنه ليحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن البواعث التي حملت قائد الجيش المرابطي الأمير أبا الطاهر تميم ، على اتخاذ هذا الموقف السلبي ، في مثل هذه الآونة العصيبة من حياة المدينة المسلمة العظيمة ، وحملت الجيش المرابطي على الإحجام عن لقاء العدو في محاولة يائسة لإنقاذها ، فأما من الناحية العسكرية ، فإنه يمكن أن يقال إن ذلك قد يرجع إلى تفوق النصارى في الكثرة على الجيش المرابطي ، تفوقاً خشي معه الأمير تميم أن يدخل في معركة غير مأمونة العواقب ، وتميمٌ لم يكن من أكابر القادة المرابطين ، وإنما كان يقود الجيش بصفته الأميرية ، وكان الجيش المرابطي قد فقد إلى ذلك الحين معظم قادته العظام ، أمثال سير بن أبي بكر ، ومزدلي ، وعبد الله بن فاطمة ، ومحمد بن الحاج ، ويمكن أن يقال أيضاً إن موقع سرقسطة بعيداً عن مراكز تموين الجيش المرابطي وإمداده في بلنسية ومرسية وقرطبة ، لم يكن مما يشجع على القيام بأية محاولة عسكرية خطيرة ، على أن هذه الأعذار العسكرية وأمثالها ، لم تكن تكفي لتبرير موقف الجيش المرابطي ، وإحجامه عن القيام بعمل إنقاذ مشرف ، واتقائه بذلك صدع هيبته في أنحاء شبه الجزيرة ، ولوم التاريخ والأجيال ، وإنما قد ترجع البواعث الحقيقة لتقاعس المرابطين عن المغامرة بإنقاذ سرقسطة ، إلى أنهم كانوا يشعرون بأن الاحتفاظ بهذه المنطقة النائية من شبه الجزيرة – منطقة الثغر الأعلى – كان يلقي عليهم مسئوليات عظيمة ،

---

١) الأنيس المطرب، ص ١٦٣.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/٩٩.

لوقوعها بين أعداء أقوياء يتربصون بها باستمرار ، وأن سرقسطة لم تكن بظروفها وروح شعبها كثيرة الولاء لحكمهم ، ومن ثم فإن المرابطين لم يعنوا فيما يبدو ، بأن يتجشموا في سبيل إنقاذها تضحيات عسكرية عظيمة[1].

وأشار ابن الابار والمقري إلى أن تاريخ سقوط سرقسطة بيد النصارى كان يوم الأربعاء الرابع من شهر رمضان سنة اثنتي عشر وخمسمائة[2] الموافق١٨ ديسمبر سنة١١١٨م[3].

وعندما دخل ألفونسو المحارب وحلفاؤه المدينة ، بعد أن قطع لأهلها المسلمين العهود المذكورة ، وسمح لهم مدة قصيرة باستبقاء قاضيهم ، وبالإحتكام إلى شريعتهم ، ولكن مسجد سرقسطة الجامع حول إلى كنيسة سلمها ألفونسو المحارب إلى الرهبان البرنارديين ، وسميت كنيسة لاسيو La Seo أي الكنيسة العظمى ، وجعلت سرقسطة عاصمة مملكة أراغون ، وجعل منها مركز لأسقفية ، ومنح سكانها النصارى امتيازات الأشراف وكوفيء سائر الفرسان الذين عاونوا في الفتح[4] ، وبذلك سقطت سرقسطة ، بعد أن حكمها المسلمون منذ الفتح أكثر من أربعة قرون ولعبت في تاريخ الثغر الأعلى الأندلسي ، أعظم دور ، سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو الحضارية[5].

وبسقوط سرقسطة أصبحت قواعد الثغر الأعلى مهددة إمام الفونسو الأول المحارب ، فسيطر على مدينة روطة سنة٥١٢هـ/١١١٨م مباشرة بعد سقوط سرقسطة ، ونجح سنة ٥١٣هـ/١١١٩م في السيطرة على طرسونة ثم سار منها إلى برجة واستولى عليها كما فرض سيطرته على قلعة أيوب[6] ، وهكذا سقطت سرقسطة بيد النصارى الأسبان بعد أن حكمها المسلمون ٤١٨ سنة.

---

١) دولة الإسلام في الأندلس، ٩٩/٣ -١٠٠.

٢) الحلة السيراء، ٢٤٨/٢ ؛ نفح الطيب، ٤٧٢/٤.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٠١/٣.

٤) أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٥٢/١.

٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٠١/٣

٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٦٣ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٥٢ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٠٩.

مدينة طرسونة Tarazona الأندلسية
(٩٤ -٥١٣هـ / ٧١٢ -١١١٩م)

طرسونة ضبطها ياقوت بقوله: (بفتح أوله وثانيه ثم سين مهملة ، وبعد الواو الساكنة نون)[١] ، وهي إحدى مدن الثغر الأعلى الأندلسي ، وتقع إلى الجنوب من مدينة تطيلة Tudela[٢].

وأشارت بعض المصادر إلى أن طرسونة Tarazona هي من بنات تطيلة[٣] ، ذلك أنه جرت العادة بالأندلس بأن تسمى المدينة الرئيسية بالأم والجمع أمهات ، والمدن الفرعية بالبنات ، مفردها بنت ، وقد تتحول الأم إلى بنت إذا زادت عليها في العمارة إحدى بناتها[٤] ، انطبقت هذه الحالة على طرسونة ، فقد كانت هي المدينة الأم وتطيلة من توابعها ، إلا أن الأخيرة خطفت منها تلك المكانة بعد أن تكاثر الناس بها فأصبحت تطيلة الأم وطرسونة من بناتها ، وقد أشار الحميري إلى ذلك بقوله: طرسونة(بالأندلس كانت مستقر العمال والقوّاد بالثغر ، وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان[٥] المعروف بصاحب الأرض اختارها محلاً وآثرها على مدن الثغور منزلاً ، وكانت ترد عليه عشور مدينة أربونة وبرشلونة ، ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس بتطيلة

---

١) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٨٤.

٢) فرحة الأنفس، ص ١٨ ؛ ينظر أيضاً : الحميري، الروض المعطار، ص ٣٨٩.

٣) البكري، المسالك والممالك، ٢ / ٩٠٩ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٣٣، ٣٨٩ ؛

٤) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٦٠٠ ؛ الخلف، نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ٣١٧/٢.

٥) أبو عثمان عبيد الله بن عثمان أحد قادة الأمير عبد الرحمن الداخل وابنه هشام وتوفي في أيام الأمير الحكم سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م، وكانت ولادته في الشام سنة ١٠٨ هـ/٧٢٦ م، ودخل الأندلس مع طاعة بلج القشيري، ينظر : ابن حيان، المقتبس،(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/٧٩٦ -٨٤٦ م)، ص ٢٢٢.

وإيثارهم لها ، لفضل بقعتها واتساع خطتها)[1].

وبذلك أصبحت طرسونة من أعمال تطيلة إلا أنها احتفظت بمكانتها ، إذ أن المصادر استمرت تصفها بأنها من مدن الثغر الأعلى الأندلسي[2] ، فيما قال عنها ابن سعيد عند حديثه عن مدن الثغر الأعلى: (مدينة مشهورة الذكر في القديم والحديث)[3] ، أما المقري فقد نقل عن ابن اليسع[4] قوله: إن طرسونة أخت تطيلة[5].

كان الفتح الإسلامي لمنطقة الثغر الأعلى الأندلسي من قبل القائد موسى بن نصير ، فبعد أن التقى بطارق بن زياد في مدينة طليطلة Toledo ، واصل كلاهما جهودهم الرامية لإكمال الفتح الإسلامي لشبه الجزية الأيبيرية Iberia ، وانقسمت قواتهم إلى قسمين ، إذ توجه طارق بن زياد إلى الغرب والشمال الغربي ، في حين سار موسى بن نصير إلى مدينة سرقسطة Saragosa متوجها نحو الشرق والشمال الشرقي[6] ، وعليه فإن مدينة طرسونة من ضمن المناطق التي فتحت من قبل موسى بن نصير ، وذلك لوقوعها في خط سير قواته ، فضلاً عن أنها من الحصون المهمة القريبة من سرقسطة ، وكان ذلك سنة ٩٤هـ/٧١٢م[7] ، ولم تتوفر معلومات عن ظروف فتحها ، إلا أن تقدم المسلمين السريع في المنطقة دفع أهلها النصارى إلى إبرام معاهدات صلح مع الفاتحين الجدد تضمن لهم التعايش مع الوضع الجديد ، وهو ما حدث مع مدينة وشقة Huesca القريبة من طرسونة ، إذ وقع أهلها معاهدة ضمنت لهم البقاء على

---

١) الروض المعطار، ص ٣٨٩.

٢) ابن بسام، الذخيرة، ٩١٣/٦ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٨ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٨٤ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٣/٢ ؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ٨٤٤/٢.

٣) المغرب في حلى المغرب، ٢/ ٤٥٧

٤) هو أبو يحيى اليسع بن عيسى بن اليسع الغافقي، من أهل بلنسية سكن المرية ثم مالقة، صاحب كتاب المعرب في آداب المغرب، جمعه بمصر للسلطان صلاح الدين الأيوبي، وتوفي بمصر سنة ٥٧٥ هـ /١١٧٩م، ينظر : ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٨٨/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٣٧٩/٢.

٥) نفح الطيب، ٤٥٥/٤.

٦) مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٠٤ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ١٠١.

٧) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٨ ؛ طه، الفتح والاستقرار، ص ١٦٥.

الجزية[1] ، لذا لا يستبعد أن يكون فتح المسلمين لطرسونة على غرار فتحهم لوشقة.

عندما أتم المسلمون فتح المناطق الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة الأيبيرية ساروا في نشاط حثيث إلى عبور جبال البرت والتوغل في جنوب بلاد الأفرنجة طيلة عهد الولاة (٩٥-١٣٨هـ/٧١٣-٧٥٥م)[2] ، وتحولت طرسونة إلى قاعدة لمنطقة الشمال الشرقي الأندلسي ومستقر العمال والولاة وأصبحت المناطق التي تم فتحها من الجنوب الفرنسي تابعة إدارياً إلى الوالي بطرسونة[3] ، ثم جاء بناء تطيلة سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م مما أثر على الدور الإداري الذي كانت تلعبه طرسونة بمنطقة الثغر الأعلى ، إلا أن أهميتها استمرت كقاعدة للجيوش المتجه من وإلى الحدود مع النصارى.

شهدت منطقة الثغر الأعلى منذ نهاية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي بروز عدد من الأسر المتنفذة التي استغلت حساسية الأوضاع في منطقة الثغر الأعلى بسبب تنامي أطماع النصارى فيها فكونت لها مناطق نفوذ ما دفع حكومة قرطبة إلى التعامل معها كواقع حال ، إلا أن المثير في الأمر هو أن تلك الأسر كانت متأرجحة في ولاءاتها بين حكومة قرطبة والدويلات النصرانية المجاورة لها ، وفي مقدمة الأسر التي ظهرت على مسرح الأحداث هناك هي أسرة بني قسيBanucasi ، الذين لعبوا دوراً كبيراً في طرسونة ومناطق الثغر الأعلى منذ عهد الأمير الحكم بن هشام(١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م) حتى سقوطهم النهائي سنة٣١٧هـ/ ٩٢٩م[4] حيث حلت محلهم أسرة بني تجيب الذين انتقلت الزعامة في منطقة الثغر الأعلى إليهم ، وقد سجل الأمير عبدالرحمن الثالث لهم على مدينة تطيلة وذواتها[5] ، وبذلك أصبحت مدينة طرسونة ضمن أملاك بني تجيب ، وقد لعبوا نفس دور أسلافهم في التذبذب في ولائهم لحكومة قرطبة واستمر حكمهم هناك حتى سقوطهم

---

١) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٥٦ -٥٧ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٦١٢.

٢) ينظر التفاصيل عن فتوحات المسلمين عبر جبال البرت وجنوب بلاد الفرنجة : ارسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ٥٠ -١٣٩.

٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٨٩ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ١٨٦ -١٨٧.

٤) ينظر التفاصيل عن حكم أسرة بني قسي : : العذري، ترصيع الأخبار، ص ٤٠ ؛ الساعدي، بنو قسي ودورهم السياسي والعسكري، ص ٤٣ وما بعدها.

٥) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٤٣ — ٤٤.

النهائي سنة٤٣٠هـ/١٠٣٨م[١] ، لينتهي دور حكم بني تجيب في هذه السنة وتبدأ دور أسرة أخرى في حكم منطقة الثغر الأعلى وهي أسرة بني هود[٢] والذين استمروا في حكم الثغر الأعلى حتى سنة٥٠٣هـ/١١٠٩م[٣] حيث دخلها المرابطون Almoravides Los.

خاض المرابطون سلسلة من العمليات العسكرية ضد الأسبان ولاسيما مملكة أراغون ، ويبدو أن سببها الأساسي هو الموقع المهم لمدينة سرقسطة وأعمالها ، كونها القاعدة العسكرية الأخيرة للمسلمين في منطقة الثغر الأعلى ، ومن يحتفظ بها يُمكنه إدارة العمليات العسكرية في معظم تلك المنطقة بنجاح ، وهو ما أدركه الأسبان ، إذ شعروا بالقلق إزاء استمرار حكمها من قبل المرابطين ، باعتبارها معسكراً للجيش المرابطي المعادي لهم.

ومن أجل الدخول إلى منطقة الثغر الأعلى وإحداث ثغرة فيه ، سارع الفونسو الأول المحارب Alfonso el Batallador (٤٩٩-٥٢٩هـ/١١٠٥-١١٣٤م) ملك أراغون بمهاجمة مدينة تطيلة سنة٥١١هـ/١١١٧م ، لأنها كانت القاعدة الأساسية المتقدمة للمسلمين باتجاه أراضي النصارى ، وفعلاً تمكنت قوات مملكة أراغون من السيطرة عليها وانتزاعها من المسلمين[٤].

وبسقوط تطيلة انهار حصن طرسونة وسرقسطة الأمامي والتي كانت تعد خطاً دفاعياً قوياً عنها[٥] ، وأصبحت قواعد الثغر الأعلى مهددة أمام الفونسو الأول المحارب الذي سيطر على مدينة سرقسطة سنة٥١٢هـ/١١١٨م مباشرة بعد سقوط تطيلة بحملة صليبية من قوات أسبانية وأوربية مشتركة[٦] ، وبعدها سقطت مدينة روطة Rueda المنيعة في السنة نفسها[٧] ، وتتابعت بقية أعمال الثغر بالسقوط ، فقد نجح الفونسو الأول

١) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٧٥/٣ -١٧٨ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٣٧.
٢) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٤٦/٢ -٢٤٧ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٦٧/٤ -١٦٨.
٣) ينظر عن نهاية بني هود في الثغر الأعلى : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٧١/٢ -٢٩٣.
٤) ابن القطان، نظم الجمان، ٨/٦ هامش(١) ؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٤٨/٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٤/٤ -٥٥ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٤١٢/١ -٤١٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/ ٨٩.
٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥/ ٢٠.
٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٦٣ ؛ السلاوي، الاستقصا، ٦٧/٢ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ١٠٢ وما بعدها.
٧) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٤٦/٢ هامش(٢).

المحارب بالسيطرة عليها الواحدة تلو الأخرى.

وبخصوص سقوط مدينة طرسونة فهناك روايات عدة ، منها ما ذكره ابن غالب من أن مدينة تطيلة وطرسونة تغلب علها النصارى على رأس المائة السادسة[1] ، فيما قال ياقوت(ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) إنها في أيديهم في أيامه[2] ، أما ابن أبي زرع فذكر أن قوات الفونسو المحارب ملك أراغون سيطر على بلاد الشرق حتى قلعة أيوب وذلك في سنة ٥١٣هـ/١١١٩[3] ، وذهب المقري إلى أبعد من ذلك إذ قال: (أخذ العدو مدينة تطيلة وأختها طرسونة سنة أربع وعشرين وخمسمائة)[4] ، وأشار عنان إلى أن الرواية النصرانية عن سقوط طرسونة توافق ما ذكره ابن أبي زرع أي سنة ٥١٣هـ/١١١٩م[5] ، وهذا التاريخ هو الراجح لأن طرسونة تقع بين مدينتي تطيلة وسرقسطة ، وكان سقوط الأولى سنة٥١١هـ/١١١٧م والثانية سنة ٥١٢هـ/١١١٨م ، بعدها عمل الفونسو المحارب على تصفية جيوب المسلمين فيما بين المدينتين ، وعندما دخل إلى طرسونة تفرق أغلب أهلها المسلمون عنها ، وأعاد إليها مركز الأسقفية القديمة التي كانت قبل فتح المسلمين لها[6] ، وهكذا سقطت مدينة طرسونة بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٤١٩ سنة.

---

١) فرحة الأنفس، ص ١٨،

٢) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٨٤.

٣) الأنيس المطرب، ص ١٦٣.

٤) نفح الطيب، ٤/٤٤٥.

٥) دولة الإسلام في الأندلس، ٤/١٠٣

٦) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/ ١٠٢.

مدينة قلعة أيوب Calatayud الأندلسية
(٩٤ -٥١٣هـ/ ٧١٢ -١١١٩م)

وردت كلمة القلعة عند ابن الخراط بأنها حصن منيع في الجبل ، وجمعها قلاع ، وقلع واقتلعوا هذه البلاد فجعلوها كالقلعة ، وقيل: القلعة بسكون اللام حصن مشرف ، وجمعه قلوع وقلاع جمع قلع وهو الكنف الذي يكون فيه المتاع ، والقلاع بالأندلس كثيرة فأشهرها قلعة أيوب من جهة سرقسطةSaragaosa ، وقلعة رباح Calatrava بين قرطبة Cordoba وطليطلة Toledo وقلعة المسور وقلعة خولان وغيرها[١].

وأشارت المصادر إلى أن قلعة أيوب محدثة[٢] ، وهذه اللفظة تدل على أنها أنشأت بعد الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية Iberia ، إذ هناك من يرجع بناؤها إلى عهد الوالي أيوب بن حبيب اللخمي التي سميت نسبة إلى اسمه وهو ابن أخت الوالي موسى بن نصير الذي حكم الأندلس بعد مقتل الوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير[٣] ، إذ ذكر أن موقع قلعة أيوب كان عبارة عن حصن روماني قديم يسمى Bilbills ، إلى أن قام أيوب بن حبيب اللخمي ببناء هذا الحصن فتحول إلى مدينة سميت باسمه[٤].

وليس لدينا ما يرجح ذلك ، لاسيما وأن مدة حكم أيوب اللخمي كانت قصيرة وهي ستة أشهر من سنة٩٧هـ/٧١٥م[٥] ، وكان المسلمون آنذاك منشغلين بعملية الفتح العسكري للمناطق التي كانت خاضعة للقوط الغربيينVisigoths ، فليس من المرجح أن يقوم ببناء مدينة هناك في وقت كانت العمليات العسكرية مستمرة ، كما لم ترد في المصادر المتوفرة

---

١) اختصار اقتباس الأنوار، ص ١٨٤.
٢) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٤١ ؛ البكري، المسالك والممالك، ٩٠٩/٢.
٣) أرسلان، الحلل السندسية، ٩٣/٢ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص ٥٢.
٤) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٤٤.
٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٤/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٥١/٤.

لدينا سبب تسميتها بذلك ، ولعل أيوب اللخمي الذي كان أحد القادة العرب في جيش موسى بن نصير[1] قد أسكن بعض جنده في هذا الحصن فنسب إليه إلى أن تم بناءها سنة٢٤٨هـ/٨٦٢م في إمارة محمد بن عبدالرحمن الثاني(٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م).

تقع مدينة قلعة أيوب في الثغر الأعلى الأندلسي ، وتعد من أعمال مدينة سرقسطة[2] ، إذ تبعد عنها خمسين ميلاً[3] ، وهي أيضاً على مقربة من مدينة سالمMedinaceli ، إذ أن المسافة بينهما خمسون ميلاً[4] إلى الجنوب الغربي ، كما أنها تقع أيضاً بالقرب من مدينة دروقة[5] إذ تقع الأخيرة إلى الجنوب الشرقي منها ، وقد تحدث عن ذلك الإدريسي بقوله: ومن مدينة قلعة أيوب في جهة الجنوب إلى قلعة دروقة Daroca ثمانية عشر ميلاً[6] ، ومن المدن الأخرى القريبة من قلعة أيوب مدينة ركلة ، إذ أشار إلى ذلك الحميري بقوله: (ركلة مدينة بالأندلس بقرب سرقسطة وقلعة أيوب...)[7].

صنفت مدينة قلعة أيوب ضمن إقليم أرنيط والذي يضم مدينة قلعة أيوب وقلعة دروقة ومدينة سرقسطة ووشقة Huesca وتطيلة Tudela[8] ، وقد وصف الإدريسي حصانتها ومناعتها بقوله: (... ، مدينة رائقة البقعة حصينة شديدة المنعة بهية الأقطار ،...)[9].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة عن كيفية فتح منطقتها ، ووقت دخول المسلمين إليها ، ولكن بعد أن التقى موسى بن نصير بطارق بن زياد في مدينة طليطلة سنة٩٤هـ/٧١٢م[1] ، واصلا جهودهما الرامية لإكمال الفتح الإسلامي لشبه جزيرة

١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٩/٦.
٢) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٩ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣١ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٦٦/١.
٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٤/٢ ؛ الميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.
٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٤/٢.
٥) الحميري، الروض المعطار، ص ٢٣٥.
٦) نزهة المشتاق، ٥٥٤/٢.
٧) الروض المعطار، ص ٢٦٨.
٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن الأقاليم الثلاثة الأخرى، ينظر : السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص ٥٦ -٥٧.
٩) نزهة المشتاق، ٥٥٣/٢.
١) المقري، نفح الطيب، ٢٦٥/١ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٨٣.

أيبيريا ، وانقسمت قواتهم إلى قسمين ، إذ توجه طارق بن زياد إلى الغرب والشمال الغربي ، في حين سار موسى بن نصير إلى الشرق والشمال الشرقي متوجهاً إلى مدينة سرقسطة[1] ، ولا نستبعد أن مدينة قلعة أيوب قد فتحت من قبل موسى بن نصير ، وذلك لوقوعها على خط سير قواته ، أضف إلى ذلك أنها تعد من توابع سرقسطة المهمة لما تتمتع به من موقع مهم ، ومما يرجح ذلك ما أشار إليه مؤلف مجهول بقوله: (... ، ثم سار حتى افتتح سرقسطة ومداينها ،...)[2] ، في حين تحدث ابن عذاري عن ذلك بقوله: (ولما التقى موسى بطارق ، وجرى له معه ما جرى ، تقدم من طليطلة إلى سرقسطة ، فافتتحها ، وافتتح ما حولها من الحصون والمعاقل...)[3] ، وكان ذلك سنة ٩٤هـ/٧١٢م[4].

ظهر اهتمام المسلمين بمدينة قلعة أيوب منذ عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن الثاني(٢٣٨- ٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م) ، إذ كان الدافع وراء ذلك عسكرياً للتصدي لأسرة بني قسي والوقوف بوجهها وإبعاد خطرها ، لذلك قام الأمير ببناء هذه المدينة ، وأسكنها التجيبيون وولى عليها زعيمهم عبدالرحمن بن عبدالعزيز بن عبدالله بن المهاجر التجيبي سنة٢٤٨هـ/٨٦٢م[5] واستمر نفوذهم بها طيلة القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[6].

وفي عهد الخليفة هشام المؤيد(٣٦٦-٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٨م) حدث خلاف بين الحاجب محمد بن أبي عامر(٣٦٦- ٣٩٢هـ/٩٧٦-١٠٠١م) وبين قائد الجيش غالب بن عبد الرحمن ، وتطور الخلاف إلى صراع عسكري بين الاثنين[7] ، نتج عنه قيام تحالف

---

١) مؤنس، فجر الأندلس، ١٠٤ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ١٠١.
٢) أخبار مجموعة، ص ١٩.
٣) البيان المغرب، ١٦/٢.
٤) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٨.
٥) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢ م)، ص ٣٩ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ٤٩
٦) ينظر التفاصيل عن دور بني تجيب في قلعة أيوب : الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٥)، ص ٧٨ -٩٦.
٧) بعد أن تمكن محمد بن أبي عامر من التخلص من بعض مناوئيه وعلى رأسهم الوزير جعفر بن عثمان المصحفي، لم يبق أمامه منافس غي القائد غالب بن عبد الرحمن والد زوجته الذي كان يتمتع بسمعة في ميدان القيادة العسكرية على مستوى عموم الأندلس، لذا وجد المناؤون لسياسة ابن أبي عامر في غالب الرجل المناسب للمقاومة، ولهذا عمد محمد بن أبي عامر إلى منافسة غالب برجل لا يقل عنه شئناً وهو جعفر بن علي بن حمدون شدة وبأساً فاستدعاه مع قواته من المغرب ومنحه لقب وزير وجعله من خاصته وأمّره على جيش الحضرة، مما أثار غالب بعد أن تنبه إلى ما يدبره ابن أبي عامر وما يهدف إليه، وتطور الخلاف بين الاثنين وانتهى إلى معركة قتل فيها القائد غالب بن عبد الرحمن سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠ م، ينظر : ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٧٨/٢ -٢٧٩ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٦٠/٢ -٦٥.

النصارى مع القائد غالب بن عبد الرحمن ضد محمد بن أبي عامر ، وكانت مملكة نافار بقيادة أحد أمرائها وهو راميرو بن ملك نافار شانجه غرسيه الثاني Sancho Garci II (٣٥٩-٣٨٥هـ/٩٦٩-٩٩٥م) ، أحد المشاركين في هذا التحالف ، إضافة إلى ملك ليون راميرو الثالث Ramiro III(٣٥٥- ٣٧٢هـ/٩٦٥-٩٨٢ م) الذي أمد القائد ببعض قواته[١].

وهكذا فقد استغل النصارى الخلافات الداخلية التي نشبت بين المسلمين لتوسيع نفوذهم على حساب المناطق الإسلامية ، فقد تمكنوا خلال هذه الأحداث من السيطرة على بعض مدن الثغر الأعلى الأندلسي مثل أنتيسة Atienza وقلعة أيوب ، ولا يستبعد أن يكون ذلك بالتعاون مع القائد غالب بن عبد الرحمن الذي تحالف معهم ، وربما كان ذلك ثمن مساعدتهم له ، ومن جانبه ، ومن أجل القضاء على هذا التحالف سار محمد بن أبي عامر لمواجهتهم ، ووقف التجيبيون من حكام قلعة أيوب إلى جانبه ، ووقع اللقاء بين الطرفين أمام حصن شنت بجنت San Vicent على مقربة من أنتيسة ، وحدثت بينهما معركة شديدة سنة٣٧٠هـ/٩٨٠م انتهت بمقتل القائد غالب بن عبدالرحمن[٢].

بعد مقتل غالب دبّ الخوف في قواته والنصارى المتحالفين معه ، إذ طاردتهم قوات ابن أبي عامر ، وقد قتل عدد كبير من النصارى ، وكان من بين القتلى أمير نافار راميرو بن شانجه غرسيه الثاني[٣] ، وقد عرفت هذه الغزوة عند العذري باسم غزاة النصر ، وغزوة قلعة أيوب عند مؤلف مجهول ، واستمرت من أربع خلون من ذي القعدة سنة٣٧٠هـ/ ٩٨٠م إلى ثمان بقين من محرم سنة٣٧١هـ/٩٨٠م ، أي استغرقت ثمانية وسبعين يوماً ، وتم خلالها إعادة فتح قلعة أيوب وأنتيسة مرة أخرى بعد أن كانت قد سقطت بيد النصارى[٤] ، وكان ذلك السقوط الأول لها.

وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس سنة٤٢٢هـ/١٠٣٠م[١] ، تمزقت إلى طوائف

---

١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٦٠/٢ -٦٣.

٢) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٧٧ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٧٩/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٦٣/٢ -٦٤.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٧٩/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٦٣/٢ -٦٤ ؛ دوزي، المسلمون في الأندلس، ١١٥/٢ -١١٦.

٤) ترصيع الأخبار، ص ٧٧ ؛ تاريخ الأندلس، ص ٢٢٨.

١) ينظر التفاصيل عن سقوط الخلافة الأموية في الأندلس : ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٦٦ -٢٦٩ ؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٣١٧/١ -٣٢١ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٠٩ -٢١٧.

ودويلات ، فكان نصيب الثغر الأعلى الأندلسي أن استقل بنو هود بسرقسطة فكانت قلعة أيوب من ضمن مناطق حكمهم واستمروا بذلك حتى دخول المرابطين ، وكانت قلعة أيوب آنذاك تحكم من المستعين بن هود(٤٧٨-٥٠١هـ/١٠٨٥-١١٠٧م) ، وخلال تلك المدة واصلت مملكة أراغون Aragon الاسبانية توسعها على حساب الثغر الأعلى الأندلسي (سرقسطة وأعمالها) وحاول ملكها الفونسو الأول المحارب Alfonso el Batallador(٤٩٩-٥٢٩هـ/١١٠٥-١١٣٤م) السيطرة على مدينة سرقسطة وأعمالها ، فسارت قواته نحوها ، وأسرع المستعين بن هود لإنجادها ، وحدثت بين الجانبين الإسلامي والنصراني معركة شديدة قرب مدينة بلتيره Valtierra ، هزم فيها المسلمون وقتل المستعين بن هود وذلك في سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م[١].

وعلى الرغم من ذلك الانتصار ، لم تستطع القوات النصرانية من دخول سرقسطة ، إذ أنه بعد مقتل المستعين خلفه في حكم مدينة سرقسطة وأعمالها ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة[٢] ، وخلال هذه المدة تمكن المرابطون من دخول مدينة سرقسطة سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م وأصبحت جزءاً من أملاكهم[٣] ، وبذلك انتهى الدور السياسي لبني هود في مدينة سرقسطة وأعمالها بما فيها قلعة أيوب.

بعد ذلك دخل المرابطون في سلسلة من العمليات العسكرية ضد الأسبان ، ولاسيما مملكة أراغون ، ويبدو أن سببها الأساسي هو الموقع المهم لمدينة سرقسطة وأعمالها ، كونها القاعدة العسكرية الأخيرة للمسلمين في منطقة الثغر الأعلى ، تُمكن من يحتفظ بها إدارة العمليات العسكرية في معظم تلك المنطقة بنجاح ، وهو ما أدرك الأسبان حقيقته ، إذ شعروا بالقلق إزاء حكمها من قبل المرابطين باعتبارها معسكراً للجيش المرابطي يهدد سيادتهم[١].

---

١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٧٤/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٨٠/٢ -٢٨١ ؛ وذكر القلقشندي بأن المستعين بن هود قتل شهيداً سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م في المعركة أعلاه، ينظر : صبح الأعشى، ٢٥٥/٥.

٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٧٣ -٧٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٨١/٢.

٣) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٤٨/٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٤/٤ -٥٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٧٤/٣.

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨٧/٣ -٨٩.

ومن أجل السيطرة على منطقة الثغر الأعلى ، وإحداث ثغرة فيه ، قام ملك أراغون الفونسو الأول المحارب بمهاجمة مدينة تطيلة سنة٥١١هـ/١١١٧م ، لأنها كانت القاعدة المتقدمة للمسلمين باتجاه مناطق النصارى ، واستطاع فعلاً من السيطرة عليها وانتزاعها من المسلمين[١].

وبسقوط مدينة تطيلة انهار حصن سرقسطة الأمامي التي كانت تعد خطاً دفاعياً قوياً عنها[٢] ، وأصبحت قواعد الثغر الأعلى مهددة أمام قوات الفونسو المحارب الذي سيطر بعدها مباشرة أي في سنة٥١٢هـ/١١١٨م على مدينة سرقسطة بحملة صليبية مكونة من قوات أسبانية وأوربية مشتركة[٣] ، بعدها سقطت مدينة روطة Rueda في السنة نفسها[٤] ، ثم تتابعت بقية أعمال الثغر الأعلى بالسقوط الواحدة تلو الأخرى ، ففي سنة٥١٣هـ/١١١٩م سيطر الفونسو على مدينة طرسونةTarazona ، ثم سار إلى مدينة برجة Berja وسيطر عليها[٥] ، كما فرض سيطرته على مدينة قلعة أيوب في السنة نفسها ، وكانت من أمنع ما بقي من معاقل الثغر الأعلى ، وقد علق ابن أبي زرع على ذلك بقوله: (وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمئة تغلب العدو الفونسو الأول ملك أراكون على بلاد شرق الأندلس واستولا على أكثرها ، وملك قلعة أيوب التي ليس في بلاد الشرق أمنع منها ،...)[٦].

ولعل سقوط مدينة قلعة أيوب والقواعد الإسلامية الأخرى مكنت ملك أراغون الفونسو الأول المحارب من أن يوطد حدود مملكته ويوسع رقعتها ، وأصبحت معظم مناطق الأندلس الأخرى مهددة بالسقوط أيضاً[١] ، وبذلك سقطت مدينة قلعة أيوب بعد أن حكمها المسلمون مدة ٤١٩ سنة.

---

١) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٤٨/٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٤/٤ -٥٥ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٤١٢/١ -٤١٧.

٢) العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ١٠٢.

٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٦٣ ؛ السلاوي، الاستقصا، ٦٧/٢ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ١٠٢ وما بعدها

٤) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٤٦/٢ هامش(٢).

٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٠٢/٣ ؛ السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٢٥٠.

٦) الأنيس المطرب، ص ١٦٣ ؛ ينظر أيضاً : أرسلان الحلل السندسية، ١٠٥/١ ؛ مؤنس، الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، ص ١٦.

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٠٢/٣، ١٢٥.

مدينة قورية Coria الأندلسية

(٩٥ -٥٣٦ هـ/ ٧١٣ -١١٤١م)

قُورِيَةُ ضبطها ياقوت بالقول: (بالضم ثم السكون ، والراء مكسورة ، وياء خفيفة)[١] ، وهي مدينة في غرب الأندلس وهي تعد من توابع مدينة ماردة Merida[٢] ، إذ تقع في منتصف الطريق بينها وبين سمورةZamora ، وهذا ما أشار إليه ياقوت بقوله: (مدينة من نواحي ماردة بالأندلس كانت للمسلمين وهي النصف بينها وبين سمّورة)[٣].

كما أن مدينة قورية تقع جنوبي جبل الشارة Sierra Morana وإلى الجنوب منها مدينة شنترينSantarem ، وهذا ما أكده ابن سعيد بقوله: (... ، وعلى جنوبي جبل الشارة مدينة قورية ، وهي كانت ثغر المسلمين ،... وفي جنوبيها وجنوب نهر طليطلة مدينة شونترين ،...)[٤].

أما موقعها بالنسبة إلى مدن الأندلس المحيطة بها ، فهي تبعد عن قنطرة السيف مرحلتان[٥] ، ومن قورية إلى مدينة قلمرية Coimbra أربعة أيام[٦] ، وبينها وبين سمورة ١٢ مرحلة[١] ، ويربطها بقرطبة الطريق الغربي إذ المسافة بينهما اثني عشر يوماً[٢] ، وهذا الطريق وصفه الاصطخري بقوله: (ومن قرطبة إلى قورية١٢ يوماً ومن قورية إلى ماردة٤ أيّام ومن قورية إلى باجة ٦ أيّام ويأخذ في طريق ماردة ممّا يلي أخشنبة)[٣].

---

١) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣٨.
٢) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢١ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٨٥.
٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣٨.
٤) كتاب الجغرافيا، ص ١٧٩ ؛ وينظر أيضاً : أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٨٥.
٥) المرحلة تساوي أربعة وعشرين ميلاً، ينظر : الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، ٥٢٢/١.
٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٤٧ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٧/٢.
١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٤٧.
٢) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٧.
٣) المسالك والممالك، ص ٤٧.

وتذكر المصادر أن قورية مدينة قديمة[١] ، تقع مدينة على نهر تاجة Rio Tajo[٢] وعلى الضفة الشمالية منه ، وهو ما جعلها وفيرة المياه خصبة التربة تكثر فيها بساتين الفاكهة[٣].

كما تمتعت مدينة قورية بحصانتها ، وقد أشار إلى ذلك الإدريسي بقوله: (... ، ولها سور منيع وهي في ذاتها أزلية البناء واسعة الفناء من أحصن المعاقل وأحسن المنازل ،...)[٤].

لم تشر المصادر المتوفرة لدينا إلى كيفية فتح مدينة قورية ووقت دخول المسلمين إليها ، إلا أن بعض المؤرخين أشاروا بأن فتح مدن الساحل الغربي لشبه الجزيرة الأيبيرية Ibeeria تم على يد الوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير(٩٥-٩٧هـ/٧١٣-٧١٥م)[٥] ، ومما يرجح ذلك ما أكده ابن القوطية بقوله: (وأقام عبد العزيز بفتح ما بقي من مدين الأندلس)[٦] ، لذا يمكن القول إن فتح مدينة قورية كان على يد الوالي عبد العزيز موسى ، ويبدو أن ذلك كان صلحاً ، إذ لم تزودنا المصادر بأخبار عن مواجهات عسكرية في غرب شبه الجزيرة الأيبيرية لاسيما في مدينة قورية ، ولعل ذلك يرجع إلى طلب سكان المنطقة السلم مع الجيش الإسلامي بعد ما شاهدوا الانهيار الكبير للقوات القوطية ، وفي ضوء ذلك يقول المقري: (... ، وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية)[١] ، كما أشار احد الباحثين إلى ذلك بقوله : واستمر عبد العزيز بن موسى بن نصير في فتوحاته ولعله افتتح قورية في هذه المدة وربما عقد معها صلحاً لا يختلف عن صلح قلمرية[٢] ، وعلى الرغم من أن المصادر تحجم عن ذكر أي شيء حول افتتاحها والصلح الذي أبرم معها ، إلا أنه قام على الأرجح بفتحها والمناطق الأخرى المجاورة لها[٣].

---

١) **الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٧/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٨٥.**

٢) **البكري، المسالك والممالك، ٨٩٢/٢ ؛ طه، الفتح والاستقرار، ص ٢٨١.**

٣) **نزهة المشتاق، ٥٤٧/٢.**

٤) **نزهة المشتاق، ٥٤٧/٢.**

٥) **السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٣٩ -٤١ ؛ طه، دراسات أندلسية، ص ٢٢٤.**

٦) **تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٦ ؛ ينظر أيضا : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢١ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٥٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٤/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧٦/١**

١) **نفح الطيب، ٢٧٦/١.**

٢) **لمزيد من التفاصيل عن صلح قلمرية ينظر : مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٩٩.**

٣) **السامرائي، الثغر الأدنى الأندلسي، ص ٧٧.**

وفي عهد الأمير عبدالرحمن الداخل(١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٥-٧٨٨م) ثار في غرب الأندلس شقيا بن عبد الواحد المكناسي سنة ١٥١هـ/٧٦٨م وتبعه العديد من البربر وتمكن من السيطرة على العديد من المدن منها قورية واستمرت ثورته حتى سنة١٦٠هـ/٧٧٦ م عندما تمكن الأمير الداخل من القضاء عليها[١] ، وخلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي خضعت مدينة قورية لسيطرة عبد الرحمن الجليقي ، إذ استولى الجليقي على قسم كبير من منطقة الثغر الأدنى الأندلسي بما فيها قورية[٢] ، وصار رئيس المولدين هناك[٣].

وفي عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) لم تكن النصوص المتوفرة تفصح كثيراً عن الأوضاع في مدينة قورية ، ولعل ذلك بسبب موقعها الثغري في أقصى الغرب بين حدود المسلمين ومملكة ليون Leon وهيمنة الأحداث الكبيرة التي وقعت سواءً بين الجانبين الإسلامي والنصراني أم داخل دولة المسلمين في الأندلس على اهتمامات المصادر[٤] ، ويفهم من بعض النصوص أن مدينة قورية تعرضت أيام الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠- ٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م) إلى حملة عسكرية نصرانية تمكنت من اقتحامها وعاثوا فيها إلا أنهم انسحبوا منها تحت ضغط القوات الإسلامية وذلك سنة٣٥٣هـ/ ٩٦٤م[١].

وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس سنة٤٢٢هـ/١٠٣٠م[٢] ، انقسمت الأندلس إلى دويلات طوائف ، وكانت منطقة غرب الأندلس تغلب عليها بنو الأفطس ، واتخذوا

---

١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١١١ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٥/٢ ؛ النويري، نهاية الأرب، ١٦٣/٢٢ -١٦٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٢٣/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٦٥/١.

٢) السامرائي، الثغر الأدنى الأندلسي، ص ٢٥٩.

٣) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٠٨.

٤) يأتي في مقدمة ذلك حركات التمرد التي شهدتها الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي والتي استمرت حتى عهد عبد الرحمن الناصر والتي أخذت منه الكثير من الوقت والجهد حتى تمكن من إخمادها لاسيما حركة ابن حفصون، ينظر عن الجبهة الداخلية الإسلامية آنذاك : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٠٨/١ وما بعدها ؛ وعلى صعيد العلاقة مع النصارى ازدادت هجماتهم على الأراضي الإسلامية بسبب ظروف حكومة قرطبة أعلاه، ينظر التفاصيل : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٧/١ وما بعدها.

١) المقري، نفح الطيب، ٢٨٢/١ -٢٨٣.

٢) لمزيد من التفاصيل عن سقوط الخلافة الأموية في الأندلس، ينظر : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٨٨/٢ -٦٢٢ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٠٩ -٢١٧.

بطليوس Badajoz قاعدة لإمارتهم ، وكانت مدية قورية ضمن مناطق نفوذهم ، إذ شمل نفوذهم المناطق الممتدة من منتصف نهر وادي آنه Rio Guadiana حتى المحيط الأطلسي ، وشمل كذلك قسم من نهر وادي تاجة شمالاً حتى مدينة قورية[(١)].

وشهدت إمارة بطليوس في عهد أميرها عمر المتوكل(٤٦٠-٤٨٨هـ/١٠٦٧-١٠٩٥م) هجوماً شرساً عليها من قبل الفونسو السادس(٤٥٨-٥٠٢هـ/١٠٦٥-١١٠٨م) ملك قشتالة Castilla ذلك أن الأخير أرسل إلى المتوكل في بداية حكمه يطالبه بتقديم الأتاوة إليه ويهدده بشر العواقب وجاء ذلك في رسالة بعثها ابن الأفطس إلى يوسف بن تاشفين (٤٥٣-٥٠٠هـ/١٠٦١-١١٠٦م) ، قال: (وقد وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير ، وأحكام العزيز القدير ، يرعد ويبرق ، ويجمع تارة يفرق ، ويهدد بجنوده الوافرة ، وأحواله المتضافرة ،...)[(٢)] ، ولما لم يستطع تلبية طلبه قام بمهاجمة مدينة قورية والاستيلاء عليها في سنة٤٧١هـ/١٠٧٨م ، وقد أشار إلى ذلك ابن أبي زرع بقوله: وفي هذه(السنة ملك الفنش مدينة قورية فأخرج منها المسلمون)[(٣)] ، وكان هذا السقوط الأول لها بيد النصارى.

ولعل سقوط مدينة قورية بيد النصارى شكل خطورة وإنذار مبكر على تواجد المسلمين في الأندلس حتى وصف المتوكل بن الأفطس سقوطها بالنازلة وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء[(١)] ، فقرر أمراء الطوائف استدعاء أمير المرابطينAlmoravides ، Los يوسف بن تاشفين ومكاتبته قبل سقوط مدينة طليطلة[(٢)] أي سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م ، وهذا ما أكده مؤلف مجهول بقوله: (وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وفد عليه جماعة من أهل الأندلس ، وشكوا إليه ما حل بهم من أعدائهم ، فوعدهم بإمدادهم ، وإعانتهم ، وصرفهم إلى أوطانهم)[(٣)].

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٩٠/٢ ؛ سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية، ص ٢٠٦، ٣٥٨.
٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٣٦.
٣) الأنيس المطرب، ص ١٦٨ ؛ ينظر أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٩٠/٢ إلا أنه أشار أن قورية سقطت بيد النصارى سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠ م.
١) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٣٥.
٢) سقطت مدينة طليطلة بيد النصارى سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م، لمزيد من التفاصيل ينظر : ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ ص ٣٠٢،٣٠٠ ؛ الذهبي، دول الإسلام، ٦٥/٥ ؛ المقري، نفح الطيب، ٣٥٢/٤.
٣) الحلل الموشية، ص ٣٣.

وكان في مقدمة من كتب إليه المتوكل بن الأفطس ، وقد أشار ابن القطان في رسالته ما حل من نكبة بالمسلمين بسبب سقوط مدينة قورية بيد النصارى ، ويستنصره إلى الجهاد ، وجاء فيها: (لما كان نور الهدى -أيدك الله- دليلك ، وسبيل الخير سبيلك ، ووضحت في الصلاح معالمك ، ووقفت على الجهاد عزائمك ، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعي ، لما أعضل الداء ، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها أهلكهم الله ، عند إفراط تسلطها واعتدائها ، وشدة كلبها واستشرائها ، تلاطف بالاحتيال ، وتستنزل بالأموال ، ويخرج لها عن كل ذخيرة ، وتسترضى بكل خطيرة ، ولم يزل دأبها التشطط والعناد ، ودأبنا الإذعان والانقياد ، حتى نفد الطارف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، وأيقنوا الآن بضعف المنن ، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن ، واضطرمت في كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ،... ، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك ، أعزك الله ، بالنازلة في مدينة قورية ، أعادها الله للإسلام ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ، ومن فيها من المسلمين بالجلاء ،...)[1].

ويبدو أن يوسف بن تاشفين لم يستجب لهذه الدعوة إلا بعد سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، إذ عبر بقواته إلى الجزيرة الخضراء Algeciras يوم الخميس منتصف ربيع الأول من سنة٤٧٨هـ/٣٠ حزيران١٠٨٥م ، على رأس كتيبته الخضراء المؤلفة من اثني عشر ألف من جنوده[1] ، ثم سار صوب مدينة إشبيلية Sevilla وبعث المعتمد بن عباد ولده عبد الله لاستقباله ، ورتب تقديم المؤن والأطعمة للجيش المرابطي على طول الطريق لإشبيلية واستعد لذلك استعداداً كبيراً ، الأمر الذي أسرّ يوسف بن تاشفين[2] ، ولما اقترب يوسف من المعتمد استقبله بحفاوة ، حيث قدم له الهدايا والتحف ، وفي اليوم التالي سار أمير المرابطين إلى إشبيلية وأقام هناك ثلاثة أيام[3].

---

١) الحلل الموشية، ٣٤ -٣٥.

١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٩٠ ؛ وذكر ابن خلكان أن عدد القوات التي عبرت معه عشرة آلاف مقاتل، ينظر : وفيات الأعيان، ٢٩/٥.

٢) عنان، مواقف حاسمة، ص ٢٨٢.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣١٠/٢.

وبعدها سارت القوات الإسلامية المتمثلة بقوات المرابطين وقوات أمراء الطوائف نحو بطليوس ، ولم تذهب مباشرة إلى طليطلة ، لأنهم كانوا يعلمون إذا فعلوا ذلك اشتد توغلهم في ديار النصارى فيطول خطوط مواصلاتهم ويسهل على الفونسو السادس وقواته أن ينقضوا عليهم من الخلف ، فضلاً عن ذلك فإن وجود الجيش الإسلامي بالقرب من بطليوس يمكنه من الاحتماء داخل أسوارها في حالة الهزيمة ، كما كان في نية الجيش الإسلامي التقدم نحو مدينة قورية التي احتلها الفونسو السادس سابقاً[١].

وفيما يخص الفونسو السادس ملك قشتالة فقد تعمد المسير بقواته المشتركة إلى أراضي بطليوس حسب خطة عسكرية مدروسة تدل على مدى التحوط لنتائج هذه المعركة ، إذ تعمد الفونسو عدم لقاء المسلمين في أحواز طليطلة لأسباب ذكرها لوزرائه ، وذلك خشية الهزيمة مما يؤدي إلى تمكن الجيش الإسلامي في مدينة طليطلة ، لذلك فهو خطط للسير إلى بطليوس للتمكن من بلاد المسلمين في حالة هزيمتهم ، وعدم اللحاق به في حالة هزيمته[٢].

وبعد ذلك دارت رحى المعركة بين الجانبين في سهل الزلاقة Sagrajas إلى الشمال الشرقي من مدينة بطليوس والقريب من مدينة قورية[٣] ، واستمرت يوماً واحداً وهو الثاني عشر من رجب سنة٤٧٩هـ/٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦م[١] ، وانتهت بانهزام ساحق للجيش النصراني بقيادة الفونسو السادس إلى فرّ إلى تل بالقرب من مملكته برفقة خمسمائة فارس بعد أن قتل وأسر معظم جنوده[٢].

في حين أشار أشباخ إلى أن وجهة الفونسو في فرارة هو إلى مدينة قورية على بعد عشرين مرحلة من ميدان الموقعة[٣] ، ونحن لا نستبعد ذلك بحكم قرب المسافة بين شمال بطليوس وقورية ، كما أن قورية كانت خلال ذلك تحت السيطرة النصرانية

١) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٣٥ ؛ محمود، قيام دولة المرابطين، ص ٢٧٤ -٢٧٥ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ٨٢.
٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٢٨٩.
٣) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٠٦.
١) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٠/٤.
٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٢٩٠ -٢٩٢.
٣) تاريخ الأندلس، ٨٦/١ ؛ ينظر أيضا : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣١٦/٢.

وبالتالي إلتجأ إليها لحماية نفسه وأتباعه الفارين معه لحصانتها.

إلا أن الفونسو السادس لم يمكث طويلاً في مدينة قورية خوفاً من ملاحقة القوات الإسلامية له إذ سرعان ما فرّ إلى طليطلة ، وقد أشار الحميري إلى ذلك قائلاً: (... ، ولما جاء الليل تسلل ابن فرذلند وهو لا يلوي على شيء ، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحداً بعد واحد من أثر جراحهم ، فلم يدخل طليطلة إلا في دون المائة)[1] ، وأعقب ذلك قيام القوات المرابطية مع قوات ابن الأفطس حاكم بطليوس إلى السيطرة على معظم أراضي البرتغال الحالية مما يلي نهر تاجة[2] ، وعليه دخلت قورية مرة أخرى تحت نفوذ المسلمين بعد بضع سنوات من سقوطها.

وفي العهد المرابطي(٤٨٤-٥٤١هـ/١٠٩١-١١٤٦م) تعرضت مدينة قورية لهجمات النصارى من أجل السيطرة عليها ، ففي سنة٥٣٣هـ/١١٣٨م ، اتجه الفونسو ريموندیس السابع (السليطين) Alfonso Raimuotez(٥٢٠-٥٥٢هـ/١١٢٦-١١٥٧م) ملك قشتالة إلى غزو الأندلس ، فسار بقواته نحو مدن جيان Jaen وبياسة Baeza وأبدة وأندوجر Andujar ، وهو يعيث فيها تخريباً وقتلا وسبياً ونهباً ، ولم يلق النصارى من المرابطين مقاومة شديدة في البداية ، ولكن حدث أن فرقة من النصارى عبرت نهر الوادي الكبير Rio Guadalquivir لتتابع النهب والسبي ، ولكنها لم تستطع العود إلى اقتحام النهر لهطول الأمطار الغزيرة ، وفيضان الماء ، ففتك بها الجند المرابطون وأبادوها جميعاً أمام أعين الفونسو وجنده ، فارتد الأخير إلى مدينة طليطلة ، وعلى إثر تلك الحادثة حاول أن ينتقم وذلك بمحاصرة مدينة قورية ، إلا أن المسلمين دافعوا عنها بكل شجاعة ، ولم يتمكن من الدخول إليها ، مما ترك أثراً في نفسه[1].

ومن أجل السيطرة على مدينة قورية فقد تكررت هجمات مملكة قشتالة عليها ، وتشير الرواية النصرانية إلى أن الفونسو السابع حشد جيشاً كبيراً ، وسار بنفسه إليها في سنة٥٣٦هـ/١١٤١م وحاصرها لمدة شهرين حتى سقت بيده وذلك بعد أن يئست حاميتها الإسلامية من تلقي أي نجدة وإمداد[2] ، وقيل إن الفونسو السابع تمكن بعد اقتحامه

---

١) الروض المعطار، ص ٢٩١.

٢) أشباخ، تاريخ الأندلس، ٨٩/١.

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٠٤/٣ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٩١/٢.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٠٦/٣ -٥٠٧، ٥١٣.

قورية من أسر عشرة آلاف من المسلمين أخذهم أسرى إلى طليطلة[1].

وذهب أحد المراجع الحديثة إلى أن مدينة قورية استرجعت فيما بعد من قبل الموحدين Los، Almohades ، ودخلت تحت نفوذهم ، وأصبحت معقلاً إسلامياً ونقطة دفاع مهمة ، إلا أنها لم تستمر طويلاً إذ سرعان ما تمكن نصارى قشتالة من السيطرة عليها في عهد ملكها الفونسو الثامن(٥٥٣ـ٦١١هـ/١١٥٨ـ ١٢١٤م) وذلك سنة٥٩٧هـ/١٢٠٠م[2] ، إلا أن المصادر المتوفرة لم تسعفنا إلى ذلك ، ولما كانت مدينة قلمرية الواقعة إلى الشمال من قورية قد سقطت بيد النصارى منذ سنة٤٥٦هـ/١٠٦٣م[3] وجعلوها قاعدة لولاية البرتغال[4] ، ومنها أخذوا يشنون الغارات على مناطق المسلمين جنوباً ، كما أن مدينة شنترين القريبة من قورية كانت قد سقطت بيد النصارى سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م[5] وأعقبها لشبونة Lisboa سنة٥٤٢هـ/١١٤٧م واتخذها الملك البرتغالي عاصمة لمملكته[6] ، وعبثاً حاول المنصور الموحدي(٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٨م) استرجاع المدينتين ، ففي حملته سنة٥٩٢هـ/١١٩٥م التي استطاع فيها اختراق غرب الأندلس ثم التوجه إلى طلبيرة ثم طليطلة[7] إلا أن تلك الحملة الكبيرة لم تسفر عن نتائج مهمة على الأرض ولم تغير من الواقع شيئاً[1] ، ما يعني أنها كانت حملة استعراضية أثبت خلالها قوته ، ولم نلحظ بعدها حملات عسكرية كبيرة للموحدين وصلت إلى نهر تاجة واكتفى الموحدون ببذل غاية جهدهم للحفاظ على مناطق جنوب بطليوس من غرب الأندلس.

وعلى هذا فإننا نرجح أن سقوط مدينة قورية النهائي بيد النصارى كان سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م وذلك في أواخر أيام المرابطين ، وهكذا سقطت مدينة قورية بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٤٤١ سنة.

---

١) أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٩٢/٢.
٢) السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٢٢٨.
٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٣٨/٣ -٢٣٩ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٨٤/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨٥/٢ ؛ السامرائي، الثغر الأدنى الأندلسي، ص ٣٥ -٣٦.
٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٢٣/٣.
٥) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٦٢.
٦) الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٣)، ص ٢١٣.
٧) ينظر التفاصيل عن تلك الحملة : ابن عذري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٢٣ -٢٢٤.
١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٠/٤.

مدينة لشبونة Lisbonne الأندلسية

(٩٧ -٥٤٢ هـ /٧١٥ -١١٤٧ م)

ورد اسم المدينة في المصادر العربية بألفاظ مختلفة بعض الشيء ، فجاءت بلفظة (لشبونة ، أو الأشبونة ، أو أشبونة)[1] ، وادخلها الفيروز آبادي في مادة(شأن) التي من معانيها مجرى الدمع إلى العين[2] ، ولعل لموقعها على مصب نهر تاجة علاقة بهذا المعنى ، كما يجعل النسبة إليها(الأشباني) بالضم وهي تعني أيضا الوجه الأحمر[3] ، وتذكر المصادر أنها مدينة قديمة[4] ، وتقع في منطقة الثغر الأدنى ضمن الولاية الرومانية القديمة التي تعرف(لوزيتانيا)[5] ، والتي كانت تضم كل من: باجة وأكشبونة ويابرة وشنترة وشنترين ولشبونة وقلنبرية وقورية وشلمنقة وغيرها[1] ، وذكر الحميري أنها تقع على(سيف البحر تنكسر أمواجه في سورها)[2] ، وذلك السيف هو خليج كبير يمثل مصب نهر تاجة الذي يقسم الأندلس إلى قسمين[3] ، ويصب عند مدينة لشبونة في المحيط ويسميه أبو الفدا (نهر أشبونة الكبير الذي يمر على طليطلة أربعون ميلا وذكر المسافرون أن عرض هذا النهر عند

---

١) البكري، المسالك والمملك، ٨٩٥/٢ ؛ ياقوت، معجم البلدان، ١٦٥/١. القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥. الحميري، الروض المطار، ص ٦١ ؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ١٧٢.

٢) الفيروز آبادي، القاموس، ٢٤٠/٤(مادة شأن).

٣) م. ن، والصفحة.

٤) ياقوت، معجم البلدان، ١٦/٥. الحميري، الروض المعطار، ص ٦١.

٥) أطلق العرب اسم البرتقال على المنطقة الواقعة عند مصب نهر دويرة باسم مدينة هناك تدعى (Porto – Calle) فوسع البرتغاليون الاسم الى بلادهم كلها بدلا من الاسم القديم لوزيتانيا، مكي، البرتغال الإسلامية، ص ٢٢.

١) البكري، المسالك والممالك، ٨٩٢/٢ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص ٢٤.

٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٦١.

٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٦/٢. شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٤٦.

مصبه في البحر عشرة أميال)[1] ، ولكن الإدريسي يشير أن عرض النهر أمام لشبونة ستة أميال[2] ، ولعل ذلك صحيحا لأن لشبونة لا تقع على ساحل المحيط مباشرة ، وإنما على الخليج الذي يمثل مصب نهر تاجة وعلى مسافة ٣٠ ميلا(٦٠ كم)[3] وبذلك فأن عرض مصب النهر يضيق كلما توجهنا نحو الداخل ، وقد جعل منها ذلك الموقع ميناء صالحا للملاحة ويمكن التحكم في مداخله و مخارجه عند الحاجة كما حولها إلى احد ثغور الأندلس البحرية في الغرب.

لم ترد في المصادر المتوفرة إشارة مباشرة عن كيفية فتحها ووقت دخول المسلمين إليها ، كما أن خط سير الفتح لموسى بن نصير الذي يأخذ من اشبيلية غربا باتجاه ماردة التي حاصرها عدة أشهر حتى تمكن من فتحها ثم توجه إلى طليطلة[4] ، أي أنه لم يمر بمدن الساحل الغربي وخاصة لشبونة ، ثم إنه واصل سير فتوحاته المشتركة مع قائده طارق بن زياد في شمال اسبانيا[5] ، ولهذا يرجح المؤرخون أن فتح مدن الساحل الغربي تم على يد ابنه عبدالعزيز بن موسى[1] ، ومما يعزز ذلك ما ذكره بعض المؤرخين من أن عبد العزيز الذي خلف أباه في الأندلس قام بفتح مدائن كثيرة بقيت بعده[2] ، ويبدو أن فتحها تم صلحاً ، إذ قام عبد العزيز خلالها بعقد معاهدات مع أهالي المدن التي فتحها والتي قد لا تختلف عن تلك التي عقدت مع أهالي ماردة والتي ورد فيها أن لا يتعرض المسلمون بالأذى للسكان المحليين ولهم الخيار في البقاء أو مغادرتها إلى أي مكان آخر ، وضمنت لهم حرياتهم وكنائسهم وشعائرهم الدينية ، وأن للمسلمين ممتلكات الذين قتلوا في الحرب أو الهاربين من

---

١) ابو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٧٠

٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٧/٢ .والميل يساوي ٢ كم، انظر: هنتس، المكاييل، ص ٩٥.

٣) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٧٣.

٤) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٨٣. السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٣٦. السامرائي، الثغر الأعلى، ص ٤٧ -٥١.

٥) السامرائي وآخرون، تاريخ، ص ٣٨ -٣٩. السامرائي، الثغر الأعلى، ٥٣ -٦٤.

١) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ٤١،٣٩. السامرائي، الثغر الأعلى، ص ٧٧،٧٦. طه، دراسات، ص ٢٢٤.

٢) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٥٥ ؛ المراكشي، المعجب، ١١/١ ؛ الذهبي، سير، ٥٠٤/٤؛ المقري، نفح الطيب، ٢٨١/١.

القوط إلى جليقية[1] ، وهو ما يعكس تسامح المسلمين مع أهالي البلاد التي يفتحونها بحرية العيش بسلام وعدم التعرض إلى ممتلكاتهم وعقائدهم ، أما تاريخ ذلك الفتح فالراجح أن ذلك كان بعد مغادرة موسى بن نصير الأندلس وأثناء ولاية عبدالعزيز أي في المدة بين٩٥هـ/٧١٣م حيث غادر موسى الأندلس وسنة٩٧هـ/٧١٥م حين قتل عبد العزيز بن موسى.

ولعل الحادث الأكثر شهرة الذي تعرضت له مدينة لشبونة أثناء حكم المسلمين لها والذي جلب الأنظار إلى الساحل الغربي للأندلس بشكل عام ولشبونة خاصة ، هو تعرض تلك السواحل إلى هجمات النورمان ، فقد هاجم النورمان لشبونة سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م[2] ، ثم عاودوا الهجوم بعد أكثر من قرن وذلك سنة٣٥٥هـ/٩٦٥م[3] ، وكان من أهم نتائجه أن تحولت المدينة إلى ثغر بحري وقاعدة متقدمة للأسطول الأندلسي على ساحل البحر المحيط(الأطلسي)[4].

وفي سنة٤٢٢هـ/١٠٣٠م سقطت الخلافة الأموية في الأندلس وتقسمت البلاد إلى دويلات طوائف متناحرة بعد أن كانت جميع بلاد الأندلس من ثغر طرطوشة في الشمال الشرقي إلى ثغر لشبونة في الغرب تابعة إلى سلطة الدولة المركزية في قرطبة[1] ، وأصبح غرب الأندلس بما فيه لشبونة من نصيب دولة بني الأفطس ، وهم أسرة بربرية من قبيلة مكناسة ، ومن قاعدتهم بطليوس حكموا المنطقة حتى سقوطهم على أيدي المرابطين سنة٤٨٨ هـ/١٠٩٥م[2].

وفي أواخر حكم بني الأفطس قرر المرابطون إسقاط دويلات الطوائف عندها عمل حاكمها أبو محمد عمر المتوكل(٤٦٠–٤٨٧ هـ/١٠٦٧–١٠٩٤م) إلى الاستعانة بالملك القشتالي

---

١) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٣٦. السامرائي، الثغر الأعلى، ص٥١. وفي نص ابن الأثير أن المسلمين صالحوا أهل ماردة في عيد الفطر عام ٩٤هـ/٧١٢م على(أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص٤٦. ووردت المعاهدة في المقري(فصالحوه على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين الى جليقية للمسلمين وأموال الكنائس وحليها لها ثم فتحوا المدينة يوم الفطر سنة أربع وتسعين) نفح الطيب، ٢٧٠/١

٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٨٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢،٨٧ ؛

٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ٢٣٨/٢ -٢٣٩.

٤) طرخان، المسلمون في أوربا، ص ٦٦. السامرائي، الثغر الأعلى، ص ١٩٩.

١) المراكشي، المعجب، ٤٢/١.

٢) انظر التفاصيل عن دولة بني الأفطس، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨١/٢ -٩٣.

الفونسو السادس(٤٥٨-٥٠٢هـ/١٠٦٥-١١٠٩م) وعقد معه صفقه يساعده فيها على مواجهة المرابطين مقابل تنازله عن لشبونة وشنترة وشنترين[١] ، وقام الفونسو السادس من قبله بتعيين واليا على لشبونة وهو صهره الكونت ريمون البرجوني[٢] ، وبذلك سيطر الفونسو على جميع حوض نهر تاجة من طليطلة(التي سبق أن استولى عليها سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م) حتى لشبونة ، وكان هذا السقوط الأول لها بعد الفتح الإسلامي ، ولكن ذلك أثار حفيظة الأهالي على المتوكل بن الأفطس ، ويفهم من بعض النصوص أن ثورة عارمة قامت ضده رافضة الخضوع لسلطة ملك قشتالة في لشبونة والمدن المجاورة لها وقام الأهالي بمراسلة المرابطين لإنقاذهم[٣] ، فأرسل المرابطون قواتهم بقيادة سير بن أبي بكر الذي قام بمهاجمة بطليوس والقبض على عمر المتوكل بن الأفطس آخر ملوك بني الأفطس مع ولديه حيث تم إعدامهم بتهمة الخيانة ومراسلة النصارى[٤] ، ثم زحفت القوات المرابطة نحو مدينة شنترين ولشبونة لهم استرجاعها من أيدي ملك قشتالة وذلك[٥] سنة٤٨٧هـ/١٠٩٤م.

وهكذا دخلت لشبونة وعدد من مدن غرب الأندلس تحت سلطان المرابطين ، ولكنها كانت فترة حرجة لأنها شهدت ميلاد دولة البرتغال الحالية ففي عهد أمراء الطوائف (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) إذ استغل ملوك قشتالة حالة التردي والتمزق في الأندلس وعملوا على توسيع حدودهم لتشمل المناطق جنوب نهر دويرة ذلك النهر الذي بقي فاصلاً طوال الفترة السابقة ، وقد تمكنوا من السيطرة على عدد من المدن الواقعة بين نهري دويرة وتاجة مثل فيزو وقلمرية وقورية إضافة إلى مدينة بورتو كالي(porto calle) الواقعة عند مصب نهر دويرة ، وقد جعل فرناندو الأول هذا القسم من مملكته ولاية مستقلة اسماها البرتغال نسبة إلى المدينة أعلاه وجعل عاصمتها قلمرية[١] ، كما شجع

---

١) ابن خلدون، العبر، ١٨٧/٦. عاشور، أوربا، ص ٥٤٦.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٧٠/٢.

٣) دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٨/٢ -٣٦٩.

٤) ابن الابار، الحلة السيراء، ٩٦/٢ -١٠٢. المراكشي، المعجب، ص ١٢٧ -١٢٨. عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٩/٢. مكي، البرتغال الإسلامية، ص ٢٥.

٥) المراكشي، المعجب، ص ٢٢٨. عاشور، أوربا، ص ٥٤٦. عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٧٠/٢

١) طه، دراسات أندلسية، ص ١٨٩.

الأسبان على استيطانها بعد أن نكل بأهلها المسلمين وقتل وهجر العديد منهم[١].

وفي عهد الملك القشتالي الفونسو السادس كافأ أحد الكونتات الذي جاء من فرنسا لمساعدته في معركة الزلاقة ريمون البرجوني أن جعله واليا على المنطقة ، وبعد وفاته خلفه في حكم الولاية ابن عمه هنري البرجوني والزوج الآخر لابنة الفونسو السادس غير الشرعية التي تدعى تيريزا وقد حكم زوجها البرتغال باعتباره تابعا لقشتالة وحارب مع زوجته ضد المسلمين[٢] ، وبعد وفاة هنري تولت زوجته تيريزا الوصاية على ابنها الفونسو هنريكيز حتى سنة ٥٠٣هـ/١١٢٨م حيث نصب أميرا على البرتغال ، وقد عمد الفونسو هنريكيز (وتسمية المصادر العربية ابن الرنق أو الرنك أو الريق)[٣] ، إلى العمل على استقلال البرتغال من قشتالة وخاض معها قتالا حتى تمكن من تحقيق هدفه حيث أعلن نفسه ملكا على البرتغال سنة٥٣٧هـ/١١٤٢م[٤].

كان المرابطون آنذاك يمرون بمحنة عصيبة ، ففي المغرب تعرضت جيوشهم إلى هزائم متكررة على أيدي الموحدين[٥] ، وفي الأندلس واجهوا ثورات عديدة منها ثورة أهل شرق الأندلس وأهل قرطبة ومالقة[١] ، ثم جاء ثورة الجنوب الغربي للأندلس لتضع حدا لنفوذ المرابطين هناك ولتسقط وإلى الأبد مراكز مهمة بيد ملك البرتغال مثل لشبونة وشنترين وشنترة وباجة وماردة ، وكان زعيم ذلك التمرد هو أحمد بن الحسين بن قسي في شلب الذي ادعى المهدية وأطلق على حركته اسم(ثورة المريدين) وهزم المرابطين في أكثر من مكان مما حفز الناس على الدخول في طاعته وانضمت إليه مدن ميرتلة ويابرة وباجة ولبة ولبلة وتقهقر المرابطون أمامه إلى اشبيلية إلا أن انشقاقا حدث في صفوف أتباعه أحبط محولاته

---

١) العلياوي، الحملات الصليبية، ص ٥٤.

٢) طه، دراسات أندلسية، ص ١٨٩ . السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٥٥.

Paiter;History; P 194. Payne, History of Spain and Portugal , P. 115.

٣) ينظر : طه، دراسات أندلسية، ص ١٩٠.

٤) مكي، البرتغال الإسلامية، ص ٢٦ . عاشور، أوربا، ص ٥٤٨ وقد رجح تاريخ اتخاذه لقب ملك سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م. أما Payne فيذكر انه اتخذ لقب ملك البرتغال واقسم يمين الولاء للبابوية ودفع ضريبة سنوية لها إلا أن البابوية لم تعترف به ملكا إلا في سنة ٥٧٥ هـ /١١٧٩م،

History of Spain and Portugal P. 11.

٥) السامرائي وآخرون، تاريخ المغرب، ص ٢٨٨ -٢٨٩.

١) انظر التفاصيل : السامرائي وآخرون، م. ن، ص ٢٧٦ -٢٨١.

الاستيلاء على اشبيلية وقرطبة مما دفعت الأحداث إلى الإسراع بطلب النجدة من الموحدين في المغرب إذ سارت حملة موحدين سنة٥٤١هـ/١١٤٦م أعادت ابن قسي مرة أخرى إلى شلب[١].

إن ما حدث من حركات تمرد في معظم مناطق الأندلس وبالأخص في الغرب أعطى فرصة ذهبية لملك البرتغال الطموح الفونسو هنريكيز في توسيع نفوذه والاستيلاء على المزيد من المدن في غرب الأندلس والتي بقيت فريسة سهلة بيده بعد أن انهارت الجيوش المرابطية في المغرب على أيدي الموحدين وفي الأندلس على أيدي ثوارها وبقيت تلك المدن تقاوم بإمكانياتها الذاتية وبدافع الجهاد في سبيل الله دون أي دعم سياسي أو عسكري من دولة تجمعهم ، أو خارجي ، من دولة تساندهم ، فقام بمهاجمة بعض فلول المرابطين على نهر تاجة وأوقع بهم هزيمة في معركة أوريك[٢] ، ثم واصل زحفه تجاه مدن الغرب الأندلسي وكانت مدينة لشبونة الهدف الأول له وذلك لموقعها المهم على مصب نهر تاجة وحصانتها ولكونها أحد أهم معاقل المسلمين في المنطقة[٣] بسبب تجمع المجاهدين فيها كونها ثغر المسلمين في غرب الأندلس[٤].

وفي طريقه إلى لشبونة تمكن الفونسو هنريكيز من الاستيلاء على مدينة شنترين القريبة منها ثم ضرب حصارا على مدينة لشبونة من ثلاث جهات ، وقد أظهر أهالي المدينة مقاومة عنيفة ، ويبدو أن عدم امتلاك الفونسو لأسطول بحري جعل تلك الجهة مفتوحة أمام المسلمين وسهلت عليهم الاتصال لجلب بعض المساعدات[١] مما أطال في أمد الحصار على المدينة ، ولكن –وكما يقال – لحسن حظ الفونسو أنه وبينما يحاصر لشبونة أن قدمت حوالي مئتي سفينة صليبية تحمل مقاتلين من انكلترا وهولندا وألمانيا متجه نحو فلسطين وقد رست أمام نهر دويرة للتزود بالمياه ، وقد اضطرت للبقاء هناك نظرا لاضطراب الريح ، فقام الفونسو بالتفاوض معهم من اجل مساعدته في اقتحام لشبونة ووعدهم بحصة من الغنائم ، وأطمعهم بما ينالونه من ثواب في مقاتلة المسلمين ، فالجهاد ضد المسلمين هو واحد سواء في

---

١) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٧٤ -٢٧٥. الجبوري، عبد المؤمن، ص ٦٥ -٦٦.

٢) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٥٦. العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ١٢٧.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٤/٣.

٤) المقري، نفح الطيب، ٢٣٣/٤.

١) العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ١٢٨.

فلسطين أم في الأندلس ، عندها استجابوا لطلبه فسارت السفن الصليبية وضيقت الحصار على المسلمين من جهة البحر مما أدى إلى انقطاع الإمدادات عنها ، وقد آثر السكان أول الأمر الدفاع عن المدينة أملا في وصول مساعدات إليهم ، ولكن حال باقي مناطق الأندلس الأخرى ليس بأحسن حال منهم ، كما أن الموحدين لم يتمكنوا بعد من دخول الأندلس ، وأمام نقص الأقوات وشدة الحصار وحالة اليأس اضطر سكان المدينة إلى التسليم مقابل الأمان والرحيل بأنفسهم على أن يتركوا أموالهم وأسلحتهم ، فوافق الطرفان على ذلك وتم تسليم المدينة بعد حصار دام أربعة أشهر[١].

أما عن تاريخ سقوط مدينة لشبونة بيد الملك البرتغالي الفونسو هنريكيز ، فذهب ابن الأثير إلى أنها سقطت سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م[٢] ، فيما قال ابن عذاري أن سقطت سنة٥٤٣هـ/١١٤٨م[٣] ، فيما ذهب البعض أن ذلك كان سنة٥٤٢هـ/١١٤٧م[٤] ، ويشير عبدالواحد ذو النون طه إلى أن سقوطها كان سنة٥٤٣هـ/١١٤٨م[٥] ، فيما ذهب Paiter إلى أن ذلك حدث في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[٦] ، ويبدو أن سقوط لشبونة كان في سنة٥٤٢هـ/١١٤٧م هو الراجح لان ذلك تم بمساعدة الحملة الصليبية الثانية التي حدثت في المدة من(٥٤٢هـ /١١٤٧م و٥٤٤هـ/١١٤٩م).

وبعد دخول الفونسو المدينة قام الصليبيون والبرتغاليون بأعمال الحرق والقتل والاغتصاب ونهبوا المدينة ثم قاموا باقتسام الغنائم وحولوا مسجدها إلى كنيسة وعين لها أسقفا وهو الأسقف جلبرتو[١] ، وقد اتخذها الملك البرتغالي عاصمة لمملكته[٢] بعد حكم المسلمين لها والذي دام ٤٤٥ سنة.

---

١) انظر عن اقتحام لشبونة : الحجي، التاريخ، ص ٤٦٠ -٤٦١. أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢٣٥/١ -٢٣٦. العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٢٨ -١٢٩.

Paiter , History , P. 194.. Payne , History of Spain and Portugal , P , 119 . Barton, Leon and Castile and the struggle against Islam , P.

٢) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٦٢.

٣) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٠.

٤) الحجي، التاريخ، ص ٤٦١ ؛ عاشور، أوربا، ص ٥٤٨ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ المغرب، ص ٣١٣

٥) طه، دراسات أندلسية، ص ١٩٠.

6) Paiter , History , P , 194 .

١) أشباخ، تاريخ الأندلس، ١/ ١٣٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٥/٣. العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٢٩.

2) Paiter , History , P. 194.

مدينة لاردة Lerida الأندلسية
(٩٤ -٥٤٣هـ / ٧١٢ -١١٤٨م)

وهي أحدى مدن الثغر الأعلى الأندلسي[١] ، وتقع إلى الشرق من مدينتي سرقسطة Saragosa ووشقة Huesca[٢] ، وحدد الاصطخري المسافات بينها وبين مدن الثغر الأعلى قائلا: (...ومن قرطبة إلى سرقسطة١٠ أيّام[٣] والى تطيلة١٣ يوماً ومن تطيلة إلى لاردة٤ مراحل[٤])[٥] ، أما الإدريسي فقال: (...ومن مدينة سرقسطة إلى وشقة أربعون ميلا[٦] ومن وشقة إلى لاردة سبعون ميلا ومن سرقسطة إلى تطيلة خمسون ميلا)[٧] ، وتتصل أعملها بأعمال مدينة طركونة Tarragona[٨].

وهي مدينة قديمة[٩] ، أزلية[١٠] ، تعد من أمهات مدن الثغر الأعلى الأندلسي ، قال عنها المقدسي إنها من بلدان قرطبة Cordoba[١١] ، وقال عنها الإدريسي إنها(مدينة متوسطة القدر كثيرة المنافع)[١٢] ، ووصفها الرشاطي بالقول: (هي حصينة كثيرة المنعة وأهلها موصوفون

---

١) المقري، نفح الطيب، ١٦٦/١.
٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٠٧.
٣) اليوم : هو المسافة التي يقطعها المسافر على الدابة وتقدر بمرحلة واحدة أي ثمانية فراسخ، ينظر : هنتس، المكاييل والموازين الإسلامية، ص ٥٦.
٤) المرحلة تعادل مسيرة ٣٧ كم في حالة السير الاعتيادي، كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٩٧٣.
٥) المسالك والممالك، ص ٤٦.
٦) الميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.
٧) نزهة المشتاق، ٥٥٤/٢.
٨) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٤٣.
٩) الرشاطي، الأندلس في اقتباس الأنوار، ص ٥٠ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٠٧.
١٠) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٣١.
١١) أحسن التقاسيم، ص ٥٧.
١٢) نزهة المشتاق، ٧٣٣/٢.

بالنجدة)[1] ،وتحدث عنها ياقوت قائلا: (مدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة تتصل أعمالها بأعمال طرّكونة منحرفة عن قرطبة إلى ناحية الجوف)[2] ، ونعتها الزهري بالقول: (لاردة مدينة عظيمة ، لم يكن في بلاد الأندلس في مدة الروم أكبر منها جرما)[3] ،وأشار ابن سعيد إلى أنها من قاصية ثغور الأندلس[4] ، وقال عنها مؤلف مجهول: (مدينة لاردة كبيرة منحرفة ، لم يكن في بلاد شرق الأندلس أكبر منها ولا أبدع ولا أعظم)[5].

كان الفتح الإسلامي لمنطقة الشمال الشرقي الأندلسي من موسى بن نصير سنة ٩٤هـ/٧١٢م ، فقد أشارت المصادر إلى أن فتح سرقسطة وما والاها من المدن كان من قبل موسى[6] ، ويمكن القول إن موسى هو من تولى فتح مدينة لاردة ، فبعد أن فتح سرقسطة اتجه نحو لاردة ثم طركونة وأوغل في قطالونيةCataluna ، وربما وصل إلى جبال البرت Pirineos ثم عاد إلى سرقسطة ، وكان ذلك سنة ٩٤هـ/٧١٢م.

رسم لنا ابن حزم خارطة أمراء الثغر الأعلى الأندلس منذ عهد الإمارة حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بقوله: (وكان الأمراء بها من المولدين أيضاً: بنو قسي بتطيلة ، ووناط ، وأرنيط ، وبنو عمروس بوشقة ، وبنو شبراط ، وهم بنو الطّويل ، بوشقة وبربشتر ، وكان الأمراء بالثغر من العرب: بنو المهاجر من تجيب خاصّة: أصلهم دروقة وقلعة أيوب ؛ ثم ملكوا سرقسطة وغيرها)[7] ، وكان آخرهم بنو تجيب الذين انتهى نفوذهم هناك في سنة٤٣٠هـ/١٠٣٨م وحل محلهم بنو هود وكان دخولهم لاردة سنة٤٣١هـ/١٠٣٩م[8] واستمر حكمهم فيها حتى سنة٤٨٦هـ/١٠٩٣م[9] حيث دخلت المنطقة في حوزة المرابطين.

---

١) الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ٥٠.

٢) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٤٣.

٣) الجغرافية، ص ٨٢.

٤) الجغرافيا، ص ٥٧.

٥) تاريخ الأندلس، ص ١٣١.

٦) ينظر : ابن قتيبة(منسوب)، الإمامة والسياسة، ٢٤١/٢ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٨ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦/٢.

٧) جمهرة أنساب العرب، ص ٤٩٩ -٥٠٠ ؛ وينظر التفاصيل عن تلك الأسر ودورهم في الثغر الأعلى : العذري، ترصيع الأخبار، ص ٢٥ -٤٨، ٥٥ -٧٣.

٨) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٢١/٣.

٩) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٥٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٩٠/٢

كانت أولى المحاولات النصرانية للاستيلاء على لاردة في العهد المرابطي سنة٥١١هـ/١١١٧م ، فأشار ابن أبي زرع بقوله :(فأتاها الفونسو الأول ملك أراكون فنزلها ، وأتا الفنش أيضاً في أمم لا تحصى من الروم فنازل لاردة من بلاد الجوف ، فاتصل الخبر بأمير المسلمين علي بن يوسف ، فكتب إلى أمراء غرب الأندلس بالمسير إلى ناحية تميم ، وكان والياً على شرق الأندلس ، ليسيروا معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة ، فقدم على تميم عبدالله بن مزدلي وأبو يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة بعساكرهما ، فخرج تميم بن يوسف بن تاشفين من بلنسية مع أمراء لمتونة ، فقصد لاردة وكان بينه وبين الفونسو الأراكوني قتال عظيم أقلعه عن لاردة خاسئاً خاسراً ، بعد أن بذل جهده في حصارها وقتالها ، وفقد عليها من جيوشه ما يزيد على عشرة آلاف فارس ، ورجع تميم إلى بلنسية)[١] ، وعلى الرغم من وجود بعض التناقضات في هذه الرواية مثل تكرار اسم الفونسو الأول والفنش وهما واحد وهو الفونسو الأول المحارب ملك أراغون(٤٩٩-٥٢٩هـ /١١٠٥-١١٣٤م)[٢] ، إلا أن هذه الرواية ينبغي أن توضع في سياقها ، فحملة تميم بن يوسف استطاعت أن تنقذ مدينة لاردة من السقوط في أيدي النصارى سنة٥١١هـ/١١١٧م ، ويبدو أن هذه الحملة كان لها الأثر في تأخير سقوط لاردة لعدة عقود على عكس سرقسطة التي سقطت في العام التالي أي سنة٥١٢هـ/١١١٨م ، وربما يرجع ذلك إلى قوة تحصيناتها التي وصفها الحميري بالقول: (وحصنها منيع فلا ترام بقتال ولا يطمع فيها بطول حصار)[٣].

تسلم مهمة الدفاع عن مدينة لاردة بعد سقوط سرقسطة رجلاً من أهل الأندلس يدعى أبو محمد عبدالله(وقيل عبدالرحمن) بن عياض وعن مدينة أفراغة محمد بن مردنيش الجذامي[٤] ، وقد وصف المراكشي ابن عياض بقوله: (رجل من أعيان الجند اسمه عبدالرحمن بن عياض ، وكان عبد الرحمن هذا من صلحاء أمة محمد وخيارهم ، بلغني عن غير واحد من أصحابه أنه كان مجاب الدعوة ، من عجائب أمره أنه كان أرق الناس

---

١) الأنيس المطرب، ص ١٦٢ -١٦٣ ؛ ينظر أيضا : السلاوي، الاستقصا، ٦٧/٢ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٤٣/٢ -١٤٤.

٢) ينظر : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٩٣/٣.

٣) الروض المعطار، ص ٥٠٧.

٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤٤٧/١٤.

قلبًا وأسرعهم دمعة ، فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ولا يستطيع لقاءه بطل ، كان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس ، إذا رأوا رايته قالوا: هذا ابن عياض هذه مائة فارس فحمى الله تلك الجهات ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح ، وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ما ردهم عن البلاد)[1].

كان وجود قوة من الأندلسيين بزعامة ابن عياض المدعومة من المرابطين في مثلث لاردة أفراغه طرطوشة شغل بال الفونسو المحارب ملك أراغون ، فهم فضلاً عن هجماتهم المتكررة على أراضيه ، كانوا حائلاً دون اتصال عاصمته سرقسطة بالبحر المتوسط ، عندها عمل على التغلب على تلك المناطق ، فبدأ بأفراغة وضرب الحصار عليها سنة٥٢٨هـ/١١٣٣م ، فهرعت قوات الثغر للدفاع عنها ، ووصف ابن الأثير الموقف والمعركة بقوله: (وكان ابن ردمير في اثني عشر ألف فارس ، فاحتقر جميع الواصلين من المسلمين ، فقال لأصحابه: اخرجوا وخذوا هذه الهدية التي أرسلها المسلمون إليكم ، وأدركه العجب ، ونفذ قطعة كبيرة من جيشه ، فلما قربوا من المسلمين حمل عليهم ابن عياض وكسرهم ، ورد بعضهم على بعض ، وقتل فيهم ، والتحم القتال ، وجاء ابن ردمير بنفسه وعساكره جميعها مدلين بكثرتهم وشجاعتهم ، فحمل ابن غانية وابن عياض في صدورهم واستحر الأمر بينهم وعظم القتال فكثر القتل في الفرنج ، وخرج في الحال أهل أفراغة ذكرهم وأنثاهم ، صغيرهم وكبيرهم ، إلى خيام الفرنج ، فاشتغل الرجال بقتل من وجدوا في المخيم ، واشتغل النساء بالنهب ، فحمل جميع ما في المخيم إلى المدينة من قوت وعدد وآلات وسلاح وغير ذلك ، وبينما المسلمون والفرنج في القتال إذ وصل إليهم الزبير في عسكره فانهزم ابن ردمير وولى هارباً واستولى القتل على جميع عسكره فلم يسلم منهم إلا القليل ، ولحق ابن ردمير بمدينة سرقسطة ، فلما رأى ما قتل من أصحابه مات مفجوعاً بعد عشرين يوماً من الهزيمة)[2].

كان من أهم نتائج انتصار المسلمين في موقعة أفراغه أن قل الخطر عما بقي بأيدي

---

١) المعجب، ص ١٥٤.؛ وقال كان محمد بن سعد بن مردنيش من خدم ابن عياض ورجاله.

٢) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٦٠ -٣٦١ ؛ ينظر أيضا : ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٤٣ -٢٤٨ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤١/٣٦ -٤٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٠/٣ -١٢٤ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ١/ ١٦٤ -١٦٥.

المسلمين من أراضي الثغر الأعلى ، لاسيما وأن هلاك الفونسو الأول المحارب شكل صدمة كبيرة لهم ، لأنه كما وصفه ابن الأثير بأنه كان(من أشد ملوك الفرنج بأساً ، وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين ، وأعظمهم صبراً ، كان ينام على طارقته بغير وطاء ، وقيل له: هلا تسريت من بنات أكابر المسلمين اللاتي سبيت؟ فقال: الرجل المحارب ينبغي أن يعاشر الرجال لا النساء)[1].

إلا أن المسلمين لم يستثمروا انتصارهم في أفراغة ، فضيعوا بذلك فرصة مهمة كان يمكن من خلالها استعادة بقية مناطق الثغر الأعلى وخاصة سرقسطة ، ثم تعرضت الدولة المرابطين إلى تحديات خطيرة وكبيرة في ثلاثينيات القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي سواء في المغرب أم الأندلس ، ففي المغرب توسع نفوذ الموحدين وسيطروا على أغلب مدنه ولم تبق بيدهم سوى العاصمة مراكش[2] ، وفي الأندلس قامت الثورات ضدهم في مختلف المدن والأقاليم وشُغل المرابطون بالدفاع عن أنفسهم ومكافحة الثورات ، فضلا عن أن العديد من الثوار كانت لهم علاقات مشبوهة مع النصارى ضد المرابطين[3].

عندها شعر النصارى بأن الفرصة سانحة للقضاء على ما تبقى من نفوذ للمسلمين في الثغر الأعلى ، وبخصوص لاردة فأن المصادر لم تسعفنا عن مدة بقاء محمد بن عياض فيها حيث تولى الدفاع عنها ضد النصارى مدة من الزمن ، والذهبي أشار إلى أنه بقي إلى حدود سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م[4] ،وعن حروبه أشار إلى أن(ابن عياض التقى البرشلوني ، وانتصر المسلمون فلما انفصل المصاف ، قصد المسلمون الماء ليشربوا ، وتجرد ابن عياض من درعه ، ونحو الخمس مائة من الروم في الغابة عند الماء ، فالفت ابن عياض إلى أصحابة أن ارموا الروم بالنبل ، فجاءه سهم في قفار ظهره ، فأخرج منه بعد أن قتل أولئك الخمس مائة ، وإذا بالسهم قد أصاب النخاع ، فوصل مرسية وتوفي بعد ولايته إياها بأربع سنين ، ووجد

---

١) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٦١.

٢) ينظر عن نشاط الموحدين في المغرب : السامرائي وآخرون، تاريخ المغرب العربي، ص ٢٨٨ -٢٩٤

٣) ينظر عن الثورات في الأندلس في نهاية عصر المرابطين : دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٤٧ -١٠٠.

٤) سير أعلام النبلاء، ٦٣/١٥.

المسلمون لفقده)[1] ، لكن لم توضح الرواية أين كان اللقاء بين ابن عياض وأمير برشلونة ، هل عند مدينة لاردة لأن ابن عياض كان قائدا فيها منذ معركة أفراغه سنة٥٢٨هـ/١١٣٣م ، ولعل بعض الغموض يتبدد من خلال استعراض رواية ابن الأبار عن ابن عياض ، إذ ذكر أن عبدالله بن عياض قدم على مروان بن عبد الله بن عبد العزيز صاحب بلنسية[2] سنة٥٣٩هـ/١١٤٤م فولاه الثغر ، ولما اضطربت الأمور في مرسية استدعاه أهلها فدخلها في جماد الأولى من سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م ، قال: ثم إن ابن عياض بقي في مرسية حتى وفاته من أثر السهم الذي أصابه في أحد حروبه مع الروم وذلك سنة٥٤٢هـ/١١٤٧م[3].

من روايتي ابن الأبار والذهبي يمكن أن يُفْهم أن عبدالله بن عياض بقي في لاردة حتى سنة٥٣٩هـ/١١٤٤م ، وأن لقاءه مع أمير برشلونة حين أصابه السهم كان في حدود سنة٥٣٨هـ/١١٤٣م ، فيكون من خروجه من لاردة حتى وفاته حوالي أربع سنوات.

وبعد وفاة عبدالله بن عياض آلَ حكم المنطقة الشرقية من البلاد الأندلسية إلى محمد بن سعد بن مردنيش بوصية منه[4] ، واستطاع ابن مردنيش أن يتغلب على شرق الأندلس بأجمعه من ثغر طرطوشة حتى مرسية جنوبا[5] ، ولكي يحافظ على سلطانه عمل على مصالحة النصارى على حدوده ، وفي ذلك يقول ابن الخطيب: (وألجأه الخروج عن الجماعة ، والانفراد بنفسه إلى الاحتماء بالنصارى ، ومصانعتهم ، والاستعانة بطواغيتهم ، فصالح صاحب برشلونة لأول أمره على ضريبة ، وصالح ملك قشتالة على أخرى ، فكان يبذل لهم في السنة خمسين ألف مثقال ، وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات وحانات للخمور ، وأجحف برعيّته لأرزاق من استعان به منهم ،

---

١) سير أعلام النبلاء، ٦٣/١٥.

٢) تولى حكم بلنسية سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٣ م أواخر أيام المرابطين ثم أخرج عنها سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م وكانت وفاته سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م، ينظر : ابن الابار، الحلة السيراء، ٢١٨/٢ -٢٢٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٣١/٢ -٢٣٢.

٣) الحلة السيراء، ٢ /٢١٩، ٢٢٣٠ -٢٣١ ؛ ينظر أيضا : ابن خلدون، العبر، ٢١٣/٤.

٤) المراكشي، المعجب، ص ١٥٥ ؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٣٢/٢.

٥) ينظر عن توسع سلطان ابن مردنيش : ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٣٢/٢ -٢٣٣ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٧٠/٣ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٣/٤، ٣١٨/٦ -٣١٩.

فعظمت في بلاده المغارم وثقلت...)[1] ، وهكذا دخل في صلح مع أمير برشلونة برنجير الرابع(٥٢٥-٥٥٧هـ/١١٣٠-١١٦١م) وملك قشتالة الفونسو السابع السليطين(٥٢٠-٥٥٢هـ/ ١١٢٦-١١٥٧م) مقابل ضرائب باهضة أرهق بها الرعية[2].

وبسبب سياسة ابن مردنيش هذه باتت المنطقة المحصورة بين طرطوشة وأفراغة ولاردة منعزلة عن باقي مناطق الأندلس وغدت فريسة سهلة بيد أمير برشلونة برنجير الرابع ، إذ لم يستطع كلاً من المرابطين والموحدين عمل أي شيء تجاهها ، بسبب أن المرابطين كانوا آنذاك في النزع الأخير ، فيما انشغل الموحدون في توطيد سلطانهم في المغرب أولاً ، فابتدأ أولا بطرطوشة حيث قاد حملة صليبية بمباركة البابا مكونة فضلاً عن قوات برشلونة ، قوات من جنوا وبيزا الايطاليتين وضربت الحصار على المدينة ، وصمد أهلها أربعين يوما آملين أن تردهم إمدادات من بلنسية أو غيرها من مناطق الأندلس ولكن دون جدوى ، إذ لم يحرك ابن مردنيش الذي تربطه مع أمير برشلونة معاهدة صداقة ساكنا ، مما اضطر أهلها إلى التسليم ، بعدها توجهت القوات الصليبية إلى لاردة بقيادة صاحب برشلونة ، وكان من الطبيعي أن لا تستطيع الصمود بعد سقوط طرطوشة فسقطت هي الأخرى بيد النصارى[3] ، وحول مسجدها الأعظم إلى كنيسة فضلاً عن مساجد المدينة الأخرى[4].

أما عن تاريخ سقوطها بيد النصارى فذهب ابن غالب وابن الأثير وابن عذاري إلى أنها سقطت سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م[5] وهو الراجح ، فيما ذهبت بعض المراجع الحديثة إلى أن سقوطها كان سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م[6] ، وهكذا سقطت مدينة لاردة بعد أن حكمها المسلمون مدة ٤٤٩ سنة.

---

١) الإحاطة، ٧٢/٢.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٣٦٧.

٣) ينظر: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٩/٣ -٣٧٠ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ١١٥ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ١٣٣ -١٣٤.

٤) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ١١٥.

٥) فرحة الأنفس، ص ١٧ ؛ الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٦٥ ؛ البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٠ ؛ ينظر أيضا : ابن الوردي، تاريخ، ٤٦/٢.

٦) ينظر: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٧٠/٣ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ١٣٤ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ١١٥.

مدينة أقليش Ucles الأندلسية

(٩٣ - ٥٤٣هـ/ ٧١١ - ١١٤٨م)

ورد اسم المدينة في المصادر العربية بألفاظ مختلفة بعض الشيء ، فجاءت بلفظة (أقليش ، أو أقليج ، أو أفليس)[١].

تقع مدينة أقليش في الثغر الأوسط إلى الشمال الشرقي الأندلسي ، وهي قاعدة كورة شنتبرية Santebria ، وقد تحدث عن ذلك الحميري بقوله: (أقليش مدينة لها حصن في ثغر الأندلس ، وهي قاعدة كور شنتبرية ...)[٢] ، وأضاف الحميدي قائلاً: (أقليش بلدة من أعمال طليطلة)[٣] ، ويبدو ذلك صحيحاً لأن أقليش تابعة إلى كورة شنتبرية والأخيرة من مدن طليطلة Telodo[٤] المهمة ، إذ أن المسافة بين مدينتي شنتبرية وطليطلة سبعون ميلاً[٥].

كما وضع الإدريسي مدينة أقليش من ضمن إقليم الشارات بقوله: (إقليم الشارات وفيه طلبيرة وطليطلة ومجريط والفهمين ووادي الحجارة واقليش ووبذة ...)[٦] ، وهي تبعد عن مدينة وبذة Huete مسافة ثمانية عشر ميلاً[٧] ، وقد تحدث الحميري عن قرب المسافة بين المدينتين بقوله: (وَبّذة مدينة بالأندلس ، وهي حصن على وادٍ بقرب أقليش ...)[١] ،

---

١) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠هـ/ ٩١٢ -٩٤١م)، ص ٤٥٧ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢، ٥٦٠ ؛ الزهري، كتاب الجغرافية، ص ٨٣ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٦٠ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٣٦/٢ ؛ مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٦٦، ١٠٧ ؛ ٢٤٧.

٢) الروض المعطار، ص ٥١ ؛ وينظر : ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٣٨.

٣) جذوة المقتبس، ص ١٤٢ ؛ وينظر : الضبي، بغية الملتمس، ص ٤٦١.

٤) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠هـ/ ٨٨٨ -٩١٢م) ص ٣٦.

٥) مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٨ ؛ والميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان، ص ٩٥.

٦) نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢.

٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٠/٢ ؛ وينظر : أرسلان، الحلل السندسية، ١١٦/١.

١) الروض المعطار، ص ٦٠٧.

كما تبعد أقليش عن مدين شقورة Segura ثلاث مراحل[1].

وذكرت المصادر أن أقليش مدينة محدثة[2] ، وهذه اللفظة تدل على أن الذي أنشأها هم المسلمون ، واشتهرت بحصانتها ، وقد تحدث عن ذلك مؤلف مجهول عند ذكره لمدينة شنتبرية بقوله: (...ولها حصون كثيرة منها حصن أقليش وحصن وبذه وحصن القليعة ،..)[3] ، كما أشار ابن حيان إلى عدد من الحصون التابعة لشنتبرية ومنها حصن أقليش بقوله: (... ، وإلى شنت مرية ، من عمل برية ، وإلى حصن وبذه منها ، وإلى حصن أقليش منها ،..)[4] ، أما ابن غالب فقد أكد على كثرة الحصون التابعة لمدينة شنتبرية والتي من ضمنها حصن أقليش بقوله: (مدينة شنتبرية وهي شرق من قرطبة ولها حصون كثيرة)[5].

أما بالنسبة للطرق البرية المهمة التي تربط المدن الأندلسية بمدينة أقليش ، فقد حدد العذري موقع مدينة أقليش ووضعها في الطريق بين مدينتي قرطبة Cordoba وسرقسطة Saragosa بالقول: (من قرطبة إلى الصخرة[6] ،... إلى أرميش إلى جيان زيد ، إلى كركي إلى قلعة رباح... إلى أقليش من شنت برية ، إلى ولبه إلى كونكة إلى دروقة إلى سرقسطة)[7].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة عن كيفية فتح منطقتها ودخول المسلمين إليها ، إلا أنه على ما يبدو أنها فتحت أثناء عملية فتح المسلمين لمدينة طليطلة لقربها منها ومن توابعها ، فعندما سار طارق بن زياد إلى طليطلة عاصمة القوط الغربيين Visigoths ماراً بمدينة جيان Jaen وفتحها عامل أهلها بكل إنصاف ، تاركاً لهم حرياتهم كاملة ، وقد استمر طارق في الفتوح شمال طليطلة لتأمين وإخلاء المناطق القريبة منها وحولها من التجمعات ،

---

١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/ ٥٦٠ ؛ والمرحلة تعادل ٣٧ كم ونصف، وفي حالة السير السريع ٤٦ كم، ينظر : كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٩٧٣.

٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٥١ ؛ مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٨.

٣) تاريخ الأندلس، ص ١٠٧.

٤) المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/ ٩١٢ -٩٤١م)، ص ٣٦٢.

٥) فرحة الأنفس، ص ١٩.

٦) في الأندلس العديد من الأماكن تسمى الصخرة، أما المقصودة هنا فهي الصخرة التي تقع بين قرطبة وسرقسطة كما وردت عند العذري، ترصيع الأخبار، ص ٢١، وينظر عن الصخرات في الأندلس، ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٧٩ هامش(٩).

٧) ترصيع الأخبار، ص ٢١.

وللتعرف عليها ، ثم توجه إلى منطقة وادي الحجارة حتى وصل إلى مدينة المائدة ، وقيل إنه واصل تقدمه إلى مناطق في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia ، ثم عاد إلى طليطلة قبل حلول فصل الشتاء ، وكان ذلك سنة٩٣هـ/٧١١م[١] ، ويبدو أن المنطقة التي تضم مدينة أقليش فتحت خلال سنة ٩٣هـ/٧١١م ، إذ أن طارق بن زياد بعد فتحه لمدينة طليطلة مكث فيها سنة كاملة لم يتجاوزها حتى التقى بموسى بن نصير أواخر سنة ٩٤هـ/٧١٢م[٢] ، وليس من المعقول أن يبقى طارق هناك دون أن يقوم بأي نشاط عسكري ، إذ أن الموقف يحتم عليه أن يقوم بتطهير المناطق المحيطة به من جيوب المقاومة ولاسيما منطقة شنتبرية لما تمثله من أهمية كبيرة لأنها ذات موقع استراتيجي مهم.

تعد منطقة شنتبرية ومن ضمنها مدينة أقليش معقل بني ذي النون وكان أولهم بها ذو النون بن سليمان بن طويل بن الهيثم بن إسماعيل بن السمح بن ورد الهواري[٣] واستمر نفوذهم بها تابعين لحكومة قرطبة حتى عصر الطوائف[٤] ، فقد خدمت ظروف الأندلس في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بني ذي النون ، فبعد سقوط الدولة العامرية حافظوا على ممتلكاتهم في شنتبرية ، وأخذ عبد الرحمن بن ذي النون من مدينة أقليش يترقب الأحداث في قرطبة فلما آل الأمر إلى الخليفة سليمان المستعين الذي قرب إليه البربر خطب له في أقليش فولاه إيّاها ، ومنها أخذ يتوسع حتى ضمّ إلى نفوذه حصون شنتبرية كلها ، وبعد وفاة واضح الصقلبي حاكم قونقة Cuenca استولى عليها وحاز ما فيها من أموال وتقوى بها على توسيع سلطانه ، وكل ذلك بدعم وتأييد من الخليفة سليمان المستعين الذي منح إسماعيل بن ذي النون رتبة الوزارة ولقبه ناصر الدولة[٥] ، ثم سما طموحه أكثر بعد سقوط الخلافة وأخذ يعمل لنفسه حتى ضمّ إليه طليطلة التي نقل إليها مقر حكمه[٦] بعد أن كان في أقليش ، وبالتالي فقد أصبحت مدينة أقليش جزءاً من دولة بني ذي النون وعاصمتها طليطلة.

---

١) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٦٦.

٢) المقري، نفح الطيب، ٢٦٥/١ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٨٣.

٣) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ -٩١٢ م)، ص ٣٦ -٣٧.

٤) ينظر التفاصيل عن نفوذ بني ذي النون في أقليش في عصري الإمارة والخلافة : الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٤)، ص ١٤٢ -١٥٦.

٥) ابن بسام، الذخيرة، ١٤٣/٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٩٦/٢.

٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٧٦/٢.

ويبدو أن مدينة أقليش استمرت تحت حكم المسلمين من بني ذي النون حتى سقوط طليطلة سنة٤٧٨هـ/١٠٨٥م[1] ، ولعلها سقطت بيد النصارى بعد سقوط الأخيرة مباشرة أي في السنة نفسها ، كان ذلك السقوط الأول لها ، وقد رجح عنان ذلك بقوله : ولما سقطت طليطلة في أيدي القشتاليين في صفر سنة٤٧٨هـ/١٠٨٥م وانتهى سلطان بني ذي النون في تلك المنطقة ، كانت أقليش ضمن القواعد والحصون العديدة ، التي استولى عليها القشتاليون نتيجة لافتتاح مدينة طليطلة[2].

وهو ما نرجحه أيضاً بدليل أن التوسع النصراني أخذ حيزاً كبيراً وأصبحت سيادة ملك قشتالة Castilla الفونسو السادس Alfonso VI(٤٥٨-٥٠٢هـ/١٠٦٥-١١٠٨م) على معظم المناطق الواقعة من وادي الحجارة إلى طلبيرة وفحص اللج وشنتبرية ، وبذلك ضمت عملية السيادة الأسبانية التوسعية مناطق عدة واقعة على نهر التاجه Rio Tajo ، وصارت مدينة طلبيرة وقلعة رباح المنطقة الحدودية الفاصلة بين المسلمين والنصارى في الأندلس ، وقد علق ابن الكردبوس على ذلك بقوله: (ولما حصل ، الطاغية الفنش لعنه الله بطليطلة ، شمخ بأنفه ، ورأى أن زمام الأندلس قد حصل في كفه ، فشن غاراته على جميع أعمالها ، حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبراً ، سوى البنيات ، والقرى المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة إلى طلبيرة وفحص اللج وأعمال شنتبرية كلها ،...)[3].

إلا أن المعتمد بن عباد تمكن من فتحها مرة أخرى لكنه لم يتمكن من الاحتفاظ بها طويلاً ، فبعد معركة الزلاقة Sagrojas التي حدثت بين المسلمين والنصارى سنة ٤٧٩هـ /١٠٨٦م[4] ، جهز المعتمد بن عباد حملة عسكرية ، وهاجم أراضي مدينة طليطلة الخاضعة

---

١) لمزيد من التفاصيل عن سقوط مدينة طليطلة ينظر : ابن بسام، الذخيرة، ١٦٥/٧ -١٦٨ ؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٤ -٨٥ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٠٠ -٣٠٢ ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٧/٥ ؛ الذهبي، دول الإسلام، ٥/٢ -٦ ؛ المقري، نفح الطيب، ٣٥٢/٤.

٢) دولة الإسلام في الأندلس، ٦١/٣.

٣) تاريخ الأندلس، ص ٧٨ ؛ وينظر : ابن الأبار، الحلة السيراء، ١٧٧/٢ حاشية(٣).

٤) لمزيد من التفاصيل حول معركة الزلاقة ينظر : ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٠٢ -٣١٠ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٩٤ وما بعدها، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٠/٤ وما بعدها ؛ دوزي، ملوك الطوائف، ص ٢٩٧ وما بعدها.

للنصارى ، وتمكن من خلالها الاستيلاء على مدينتي أقليش وقونقة ، وواصل زحفه إلى مدينة مرسية Murcia ، إذ تصدت له هناك قوات أسبانية كانت تهاجم الأراضي الإسلامية ، وتمكنوا من هزيمته ، فتحصن بقلعة لورقة Lorca ، ثم رجع مسرعاً إلى قرطبة تاركاً المدن والحصون التي سيطر عليها[1].

ويبدو أن مدينة أقليش بقيت تحت نفوذ النصارى حتى تمكن المرابطون من استرجاعها ، وقد حاول المرابطون بعد وفاة يوسف بن تاشفين سنة٥٠٠هـ/١١٠٦م وتولي ابنه علي بن يوسف بن تاشفين(٥٠٠-٥٣٧هـ/١١٠٦-١١٤٢م) ، استرجاع هذه المدينة ، لاسيما بعد أن أولى اهتمامه الكبير بالأندلس ، إذ كتب في أوائل سنة٥٠١هـ/١١٠٧م إلى أخيه أبي طاهر تميم والي غرناطة وقائد الجيوش المرابطية في الأندلس ، أن يستأنف الجهاد ضد النصارى ، ويسترجع الأراضي التي بحوزتهم ، على إثر ذلك جهز الأمير تميم الجيوش الأندلسية ، وخرجت من غرناطة في أواخر شهر رمضان سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م شمالاً باتجاه جيان واستقر فيها حتى وافته حشود قرطبة بقيادة أبي عبدالله محمد بن أبي بكر[2] ، بعدها توجه بالقوات صوب أراضي مملكة قشتالة ، وفي طريقه وافته حشود مدينة مرسية بقيادة أبي عبد الله محمد بن عائشة ، كذلك توافدت إليه حشود مدينة بلنسية Valencia بقيادة محمد بن فاطمة ، فاخترقت هذه الجيوش أراضي قشتالة ، وسارت باتجاه مدينة أقليش فوصلت إليها في يوم الأربعاء١٤ من شوال سنة ٥٠١هـ/١١٠٧ م[3].

فقامت القوات المرابطية بمحاصرة مدينة أقليش ، ومن ثم مهاجمتها بكل قوة ، ولم يستطع النصارى من المقاومة ، فتمكن المرابطون من فتحها في يوم الخميس ١٥ شوال من السنة نفسها ، وعلى إثر ذلك انسحب المدافعون عنها من النصارى إلى قصبة أقليش الحصينة ، وامتنعوا بها ، آملين وصول الإمدادات إليهم من الفونسو السادس ملك قشتالة[4].

وفي أثناء دخول القوات المرابطية المدينة أسرع إليهم جماعة من المسلمين الذين

---

١) أشباخ، تاريخ الأندلس، ٩٣/١ -٩٤.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٤٩/٤.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٠/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦١/٣.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦٢/٣.

ظلوا تحت الحكم الاسباني ، ويسمون بالمدجنين ، وشرحوا لإخوانهم حال المدينة ودخلوا تحت حمايتهم[1].

وعندما وصلت أنباء هذه الأحداث إلى مسامع الفونسو السادس ، جهز حملة عسكرية لمواجهة المرابطين ، وقد أشار ابن الكردبوس إلى أن الفونسو السادس قاد هذه الجيوش ، واشترك في محاربة المرابطين ، إذ تحدث بالقول: (وفي سنة إحدى وخمسمائة جمع الفنش واحتفل ، وحشد أهل بلاده وقصد شرق الأندلس ، وأقبل فتصدى له الأمير تميم ، فتقاتلا ، وتضاربا ، وتجاولا ، وتحاربا ، فنصر الله جيش المسلمين ، وانهزم العدو اللعين ، بعد أن جرح وقتل ابنه ، لعنه الله ، واستبيح عسكره ، وقتل وسبي أكثره ،...)[2].

واختلف ابن القطان عن ابن الكردبوس حول مشاركة الفونسو السادس في هذه المعركة ، إذ ذهب إلى أن الفونسو لم يشارك ، بل أرسل ابنه في عشرة آلاف فارس لإغاثة أقليش ، وقد جاء ذلك بقوله: توجهت(... ، عساكر المسلمين إلى أقليش ، فاقتحموها عليهم ولجأ من كان أسفلها من النصارى إلى القصبة العليا ، ونزلت جميع العساكر عليها وأحاطوا بها ، فأرسل اذفونش ابنه بنحو عشرة آلاف فارس لإغاثة أقليش ومدافعة المسلمين ، فأتوا والتقوا مع المسلمين وتصافت عند ذلك العساكر ، وكان مع ابن اذفونش البرهانش[3] وغرسيا ردونس ، وهو المدعو بالفم المعوج وغيرهما من صناديد الكفرة ، فتوقفوا)[4].

وقد أيد ابن أبي زرع ابن القطان حول عدم مشاركة الفونسو السادس في هذه المعركة ، فقد أشار بأن الفونسو بعد ما علم بأن تميم بن يوسف بن تاشفين هو قائد الجيش الإسلامي ، أشارت عليه زوجته أن يوجه ولده عوضاً عنه فيكون مواجهاً لتميم ، لأن تميم ابن أمير المسلمين ، وشانجه ابن ملك الروم ، فاستجاب لرأيها[5].

أما المراجع الحديثة فقد اتفقت مع ابن القطان وابن أبي زرع حول عدم مشاركة

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٣٥/٣ ؛ السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٢٠١.

٢) تاريخ الأندلس، ص١١٤ ؛جعل ابن أبي زرع تاريخ هذه المعركة سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٨م؛الأنيس المطرب،ص١٥٩.

٣) وهو القائد الاسباني المعروف Aivar Hanez ابن أخي السيد القمبيطور، وكان من كبار قادة الفونسو السادس ملك قشتالة، ينظر : ابن القطان، نظم الجمان، ص ٦٤.

٤) نظم الجمان، ص ٦٤.

٥) الأنيس المطرب، ص ١٦٠.

الفونسو السادس في المعركة ، إلا أنها اختلفت معهم في الأسباب التي دعته إلى عدم المشاركة ، وأرجعتها إلى أن الفونسو السادس لم يشترك فيها بسبب كبر سنه ومرضه ، فعهد بالقيادة إلى ولده الوحيد سانشو من زوجته زايدة الأندلسية ، وسير معه كبار قواده من أمثال: الكونت البرهانس Alvar Fanez وغرسيه أوردونيت Garcia Ordonez ورامون دي بورجونيا زوج دونيا اوراكا Dona Urraca ابنة الفونسو السادس ، ولهذا عرفت هذه الموقعة باسم أقليش أو الأقباط السبعة[1].

وبعدها سارت القوات الاسبانية باتجاه أقليش وبأعداد كبيرة تفوق الجيوش المرابطية[2] ، وقد ذكر ابن أبي زرع أن الأمير تميم لما رأى كثرة الجيش النصراني أحجم في لقائه ، فنصحه بقية القواد على مواصلة الصمود ولقاء العدو بقوله(... ، فلم يكن إلا عشي يومهم ذاك حتى أتتهم جيوش الروم في ألوف كثيرة ، فأراد تميم الفرار وأحجم عن قتالهم ، فلم يجد سبيلاً للفرار ولا للروغ مَخلصاً ، وصمم قواد لمتونة إلى لقاء العدو ومناجزته ،...)[3] ، وفي فجر يوم الجمعة الموافق١٦ شوال من سنة٥٠١هـ/٢٩مايس١١٠٧م بدأت طائع المعركة[4] ، وأخذت الجيوش المرابطية بالتقدم ، ووقعت المواجهة بين المسلمين والنصارى ، كانت في بدايتها ضد قوات قرطبة – حسب رسالة تميم إلى علي بن يوسف – فارتدت إلى الوراء ، ومن ثم تقدمت قوات مرسية وبلنسية ، وتمكن الأمير تميم من التوغل بقواته إلى قلب المعركة ، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين[5] ، وأثناء شدتها رمى الأمير الاسباني سانشو نفسه في قلب المعركة في ثمانية من النصارى ، إلا أنه سرعان ما تراجع معهم إلى حصن بلشون ، وكان فيه لهم رعية من المسلمين ، فاختبئوا عندهم متأملاً أن ينجو هو ورفاقه من القتل ، فلحق بهم المسلمون وقتلوهم[1].

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦٢/٣ ؛ السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٢١١ ؛ مكي، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، ص ١٥٤.

٢) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٦٤ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٤٩/٤ -٥٠.

٣) الأنيس المطرب، ص ١٦٠.

٤) أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٢٢/١ -١٢٤ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٢٥.

٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٥٣٧.

١) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٦٦ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٠/٤.

وعلى إثر ذلك انهارت معنويات الجيش الاسباني ، وكثر القتل بهم ، ولجأ الكثير منهم إلى الفرار ، وسقط معظم القادة والكونتات قتلى ، كما ارتد البرهانس مع من بقي من الأسبان إلى مدينة طليطلة[1] ، وذكر ابن أبي زرع إلى أن الفونسو السادس مات بعد عشرين يوماً من المعركة بقوله: (... ، فاغتم لقتل ولده ودخول بلده وهلاك عسكره ، فمرض بالفقعة ومات لعشرين يوماً من الكائنة)[2].

وقدر ابن أبي زرع خسائر الجيش الاسباني بثلاثة وعشرين ألفاً ونيف ، وهو رقم مبالغ فيه بقوله: (... ، فالتقوا فكانت بينهم حروب عظيمة لم يسمع مثلها ، فهزم الله تعالا العدو ونصر المسلمين ، وقتل ولد الفونسو السادس وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون الفاً ونيف ، ودخل المسلمون أقليج بالسيف ، واستشهد فيها جماعة من المسلمين رحمهم الله ،...)[3].

أما الرواية النصرانية فقد قدرت خسائر النصارى بعشرين ألفاً[4] ، ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه أيضاً ، فقد أشار الأمير تميم في رسالته إلى أن المسلمين عقب الموقعة جمعوا رؤوس القتلى من النصارى فبلغ ما جمع منها أكثر من ثلاثة آلاف رأس ميزت منها رؤوس غرسيه اردونيت والكونت دي قبرة وقواد طليطلة ، واستولى المرابطون على مقادير كبيرة من الأسلاب والغنائم[5]

ويبدو أن خسائر المسلمين كانت أقل من ذلك بكثير ، وكان ممن استشهد في المعركة الإمام الجزولي وجماعة من الأعيان والعربان ، وقد أشار إلى ذلك ابن القطان بقوله: (... ، ودخلت أقليش وحصلت في أيدي المسلمين ، واستشهد في هذه الوقعة الإمام الجزولي وكان رجل صدق ، وجماعة من الأعيان والعربان رحمهم الله تعالى ،...)[6].

وهكذا رجعت مرة أخرى إلى حاضنة الدولة المرابطية ، وترتب عليها أن سقطت في أيديهم عدة من المدن والحصون المجاورة لها[1] ، مثل وبذة وقونقة كما تمكنوا المرابطون من

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦٥/٣.

٢) الأنيس المطرب، ص ١٦٠.

٣) الأنيس المطرب، ص ١٦٠.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦٥/٣.

٥) ينظر ما جاء في رسالة الأمير تميم عن خسائر النصارى : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٣٨/٣.

٦) نظم الجمان، ص ٦٦.

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٦٦.

استعادة شنتبرية والتوجه بعدها إلى سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى ، وبذلك تم لهم فتح شرقي الأندلس والثغر الأعلى ، وانتهت إمارات الطوائف كلها في تلك الأنحاء[١].

ويبدو أن موقعة أقليش أصابت القشتاليين بصدمة كبيرة لم يجرءوا بعدها على مهاجمة المدينة على الرغم من قربها من عاصمتهم مدينة طليطلة ، فيما توجه اهتمامهم مع حلفاءهم النصارى إلى تصفية مناطق الثغر الأعلى من الوجود الإسلامي فتمكنوا من الاستيلاء على سرقسطة سنة٥١٢هـ/١١١٨م[٢] ، ثم استولوا على طرطوشة Tortosa ولاردة Lerida وأفراغة Fraga والمرية Almeria في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م[٣] ، وعند ذلك قرروا مهاجمة حصن أقليش واستولوا عليه في السنة نفسها[٤] ، ساعدهم في ذلك انهيار سلطة المرابطين في الأندلس وانشغال الموحدين بتكوين دولتهم مما أدى إلى انهيار سلطة المسلمين في منطقة الثغر الأعلى والأوسط وامتداد حدود مملكة قشتالة إلى شمال قرطبة[٥] ، وهكذا سقطت مدينة أقليش بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٤٥٠ سنة.

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٣٦٨.

٢) ينظر عن سقوط سرقسطة : ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٦٢ -١٦٣.

٣) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٦٥ ؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٤٦/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٠/٤ ؛ عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ١١٤، ١٢٠ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ١٣٣ -١٣٤ ؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص ٢١١ -٢١٤.

٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ٧٣/٢.

٥) دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ١٢٢ -١١٥.

مدينة طرطوشة Tortosa الأندلسية

(٩٤ -٥٤٣هـ/٧١٢ -١١٤٨م)

وهي إحدى مدن الثغر الأعلى الأندلسي القريبة من البحر المتوسط تتصل بكورة مدينة بلنسية وهي إلى الشمال الشرقي من بلنسية وقرطبة وتقع عند مصب نهر أبره[١] ، وهي برية بحرية[٢] ، وصفها ياقوت بقوله: (مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية وهي شرقي بلنسية وقرطبة قريبة من البحر متقنة العمارة مبنية على نهر أبره ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعدّ في جملتها تحلّها التجار وتسافر منها إلى سائر الأمصار)[٣].

أما المسافات بينها وبين بقية مدن الأندلس ، فبينها وبين بلنسية مائة وعشرة أميال ، وبينها وبين طركونة خمسون ميلاً ، وبينها وبين البحر عشرون ميلاً[٤] ، وبينها وبين أفراغة خمسون ميلاً[٥] ، وبينها وبين سرقسطة مائة وعشرون ميلاً[٦].

أما فتحها فبعد الفتح الإسلامي لمدينة سرقسطة سنة٩٤هـ/٧١٢م من قبل القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد[٧] ، إذ سار القائدان نحو مدن إقليم قطلونية وهي طرطوشة

---

١) البكري، المسالك والممالك، ٢٤٠/١ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٦ -١٧ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٨٥ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٢٦٩ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩١ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٣٤.

٢) القزويني، آثار البلاد، ص ٥٤٤.

٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٨٥.

٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩١.

٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٣٤/٢.

٦) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٢٥.

٧) مجهول، أخبار مجموعة ، ص ١٩ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢/ ١٩ ؛ المقري ، نفح الطيب، ١/ ٢٧٣ - ٢٧٤ ؛ العمايرة، مراحل ، ص ٢١ - ٢٢.

وطركونة وبرشلونة وجيرونة ، وقد فتحت هذه المدن مباشرة بعد فتح مدينة سرقسطة[١].

من الأحداث التي شهدتها مدينة طرطوشة هي ثورة سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري سنة١٧٢هـ/٧٨٨م إلا أن الأمير هشام بن عبدالرحمن(١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م) تمكن من القضاء عليها[٢] ، إلا أن الحدث الأهم في تاريخها هو سقوط مدينة برشلونة بيد الإفرنجة سنة ١٨٥هـ/٨٠١م[٣] ، فقد تحولت طرطوشة إلى ثغر من ثغور المسلمين من جهتي البر والبحر ، ففي سنة١٩٢هـ/٧٠٨م هاجموا مدينة طرطوشة بقيادة لويس بن شارلمان ، ورد عليهم الأمير الحكم بإرسال جيش كبير بقيادة ابنه عبدالرحمن ، لردع عدوان الإفرنجة ، واشتبك الجيشان في معركة عنيفة ، انتصر فيها المسلمون ، وأبادوا معظم القوات الإفرنجية وأنقذوا المدينة من السقوط ، وفي سنة١٩٣هـ/٨٠٨م أعادت القوات الإفرنجية المحاولة ، ولكنها أخفقت أيضاً ، ونجح المسلمون في سنة١٩٦هـ/٨١١م من صدهم عنها أيضاً[٤].

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/الثامن الميلادي اضطربت أحوال الأندلس ، وقام بمدينة طرطوشة العديد من الثوار حتى تمكن عبدالرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) من إعادتها إلى الطاعة سنة٣٢٣هـ/٩٣٤م[٥].

وبعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس ما يسمى بالفتنة[٦] في بداية القرن

---

١) **مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ١٩ ؛ المقري، نفح الطيب، ١/ ٢٧١ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي ، ص ٧٦.**

٢) **ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١١٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٢/٢ ؛ النويري، نهاية الأرب، ٧٣/٢٢ -٧٥ ؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ٧٢/٢.**

٣) **ينظر التفاصيل عن سقوط برشلونة : ابن حيان، المقتبس(الحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/ ٧٩٦ -٨٤٦ م) ص ١١٦ -١١٧ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٣٢ -١٣٣ ؛ الدرويش والعلياوي، برشلونة بين الإسلام والنصرانية، ص ٦٥ -٧٠.**

٤) **ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٤٢ -١٤٥ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٤٠/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٧٢/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٦٣/٤ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ص ٢٤٧ -٢٥٣.**

٥) **ينظر التفاصيل عن أحداث طرطوشة آنذاك : العذري، ترصيع الأخبار، ص ٦٠، ٦٦، ٧٠.**

٦) **يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ /١٠٣٠ م، ينظر : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٥/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.**

الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وما تلاها من سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ /١٠٣٠م بدأ عصر جديد في الأندلس أطلق عليه المؤرخون عصر دويلات الطوائف Taifas Los (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) كان شرق الأندلس من نصيب الفتية العامريين الذين فروا إلى هناك وتمكنوا من حكم المنطقة ، فكان لبيب الفتى العامري أول من سيطر على طرطوشة[١] وبقي فيها حتى وفاته سنة٤٣٣هـ/١٠٤١م فخلفه فتى آخر يدعى مقاتل حتى وفاته سنة٤٤٥هـ/١٠٥٣م فخلفه الفتى يعلى العامري ثم بعده نبيل العامري الذي انتزعها منه المقتدر بن هود سنة٤٥٢هـ/١٠٦٠م[٢] ، فدخلت طرطوشة وجميع أعمالها تحت نفوذ بني هود[٣] ، وأهم حدث تعرضت له المدينة في عهد بني هود هو مهاجمة نصارى برشلونة ومعه أساطيل جنوا وغيرها إلا أنهم فشلوا في الاستيلاء عليها واضطروا إلى الانسحاب عنها[٤] ، واستمرت في أيدي بني هود حتى دخلها المرابطون ، وقد رجح عنان دخولها في حوزة المرابطين سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م[٥] ، ونحن نرجح أن المرابطين ملكوا طرطوشة سنة٤٨٦هـ/١٠٩٣م ، وذلك لأنهم ملكوا في هذه السنة السابقة دانية وشاطبة وبلنسية وفي السنة التالية (أي ٤٨٦هـ /١٠٩٣ م) ملكوا أفراغة[٦] ، ولما كانت الأخيرة تقع إلى الشمال من طرطوشة فليس من المعقول أن يتركها المرابطون ، ومما يرجح ذلك ما أشار إليه ابن عذاري من أن طرطوشة كان عليها في سنة٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م والياً مرابطياً يدعى سيد الدولة[٧].

وفي نهاية عهد المرابطين ومستهل عهد الموحدينAlmohades تمكن محمد بن سعد بن مردنيش من السيطرة على منطقة الشرق الأندلسي سنة٥٤٢هـ/١١٤٧م من ضمنها مدينة طرطوشة[٨] ، وعقد تفاهمات وعلاقات سلمية مع العديد من الدويلات النصرانية من داخل

---

١) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٧٩.

٢) ابن خلدون، العبر، ٤/ ٢١٠ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٧٣/٢ -٢٧٤.

٣) المراكشي، المعجب، ص ٦٠ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٤٣.

٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٠٠.

٥) دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٢٩٠.

٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٥٦.

٧) ابن عذاري، البيان المغرب، ٤/ ٤٠.

٨) الضبي، بغية الملتمس، ص ٤٤ ؛ المراكشي، المعجب، ص ١٤٧ ؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ٢/ ٢٣٢ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٢/ ٢٢٠ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٣٤.

الأندلس وخارجها[1] ، وقد استغل نصارى أراغون سياسة السلم التي عقدوها مع محمد بن سعد بن مردنيش ، وأخذوا بالتفرغ لمهاجمة المناطق الأندلسية الواقعة تحت نفوذ المرابطين ومنها مدينة المرية حيث تمكنوا من الاستيلاء عليها سنة٥٤٢هـ/١١٤٧م بحملة صليبية باركتها البابوية[2].

وبعد سقوط مدينة المرية بيد النصارى ، شجعهم هذا الأمر على مهاجمة مدينة طرطوشة القريبة من برشلونة ، والتي كان لها أهمية كبيرة عند النصارى الأسبان ، لكونها من ثغور الشمال الشرقي البحرية ، أضف إلى ذلك أنها كانت مأوى المسلمين المجاهدين الذين كثيراً ما كانوا يرابطون في هذا الثغر ، ويكررون هجماتهم على إمارة برشلونة وأراغون وشواطئ بلاد الغال ، حتى اعتقد النصارى أن المسلمين بطرطوشة ربما يتمكنون من إسقاط إمارة برشلونة ومملكة أراغون ، بل ربما يستطيعون أن يرجعوا مدينة سرقسطة إلى عهدها الإسلامي[3] ، ولعل هذا الأمر كان دافعاً كافياً لنصارى أراغون من أن يهاجموا مدينة طرطوشة[4].

وحسب الرواية النصرانية فإن ملك أراغون رامون برنجير الرابع Ramon Berenguer V(٥٢٥-٥٥٧هـ/١١٣٠-١١٦١م) سار بقواته بمباركة البابا أيوجنيوس الثالث(٥٤٠-٥٤٨هـ/١١٤٥-١١٥٣م) يعاونه أسطول من الجنويين وقوات أسبانية وأوربية وطوقت قولتهم المدينة من البر والبحر ، وعجز أمير شرق الأندلس محمد بن سعد بن مردنيش من إنقاذها فسقطت بعد حصار دام ستة أشهر من بداية يوليه إلى٣١ ديسمبر١١٤٨م ، واستولى الجنويون والبيزيون وجيوم صاحب مونبلييه حلفاء الملك الارغوني على ثلثي المدينة نظير معاونتهم وترك الباقي لملك أراغون[5] ، وفي رواية أخرى أن المسلمين دافعوا عن المدينة بمنتهى البسالة ، وصمدوا للحصار أربعين يوماً ، مؤملين أن ترد إليهم أمداد من بلنسية أو غيرها ، فلما يئسوا من كل

---

١) ابن خلدون، العبر، ١٧١/٤ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤٤٢/١ -٤٤٣.

٢) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٦٤ ؛ المراكشي، المعجب، ص ١٤٧ ؛ ابن الأبار، التكملة، ٥٢/١ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤٦١/٤ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢٣٣/١ -٢٣٥.

٣) علام، الدولة الموحدية، ص ١٧٦ ؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص ٢١١ -٢١٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١١٦/٣.

٤) أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢٣٦/١.

٥) أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢٣٦/١ -٢٣٧ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٣٣.

عـون ، اضـطروا إلى تسـليم المدينـة صـلحاً في آخـر ، سـنة١١٤٨م/١٦ شـعبان سـنة٥٤٣هـ ، مشترطين الاحتفاظ بأملاكهم ومساجدهم[١].

وكانت الرواية العربية مقتضبة جداً لم تكن بمستوى النكبة التي حلت بفقدها ، فذكر ياقوت قائلاً: (واستولى الأفرنج عليها في سنة ٥٤٣هـ)[٢] ، وجاءت عند ابن الأثير بقوله: (في هـذه السـنة ملـك الفـرنج بالأنـدلس مدينـة طرطوشـة ، وملكـوا معهـا جميـع قلاعهـا وحصـونها)[٣] ، وأشـار ابـن أبـي زرع في أحـداث سـنة٥٤٣هـ/١١٤٨م قـال: (فيهـا ملـك الـروم أشبونة والمرية وطرطوشة وماردة وأفراغة وشنترين وشـنترية)[٤] ، وقـال ابـن الخطيـب: (واسـتولى العـدو في مـدة ابـن سـعد عـلى مدينـة طرطوشـة عـام ثلاثـة وأربعـين وخمسـمائة)[٥] ، وهكـذا سقطت طرطوشة بيد النصارى الأسبان بعد أن حكمها المسلمون مدة ٤٤٩ سنة.

وكان من أهم نتائج سقوط ثغر طرطوشة أن أصبحت المناطق الإسلامية الواقعة إلى الشمال منها عبارة عن جيوب سهلة المنال ، فسقطت بعدها أفراغة ومكناسة وأقليش وبذلك انتهت سيادة المسلمين على الثغر الأعلى الأندلسي[٦].

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/٣٧٠ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٣٤.

٢) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٨٥.

٣) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٦٥ ؛ ينظر أيضاً : ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ٣٠/٢٧ ؛ أبو الفدا، المختصر، ٢٠/٣ ؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٦٨/١.

٤) الأنيس المطرب، ص ٢٦٣.

٥) الإحاطة، ٧٣/٢.

٦) العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٣٤ ؛

مدينة قلعة رباح Calatrava الأندلسية

(٩٣ – ٦٠٩ هـ/ ٧١١ - ١٢١٢ م)

تقع مدينة قلعة رباح بين مدينتي قرطبة(Cordoba) وطليطلة(Toledo) والى الغرب من الأخيرة[١] ، وتعد من أعمالها[٢] ، وهي مدينة محدثة في عهد الإمارة الأموية ، وقد عُمرت بخراب مدينة أوريط(Oreto)[٣] ، إذ كانت أوريط مدينة قديمة مرتبطة مع مدينة طليطلة وملاصقة لها في حد واحد من قسمة قسطنطين[٤].

وقد تحدث أبو الفدا عن ذلك بقوله(ومن معاقل الأندلس قلعة رباح ، وكانت من مضافات طليطلة فلما ملك الفرنج طليطلة[٥] انضافت قلعة رباح إلى قرطبة وهي من المعاقل الحصينة)[٦]

ووصف مؤلف مجهول حصانتها ومناعتها عند ذكره لمدينة طليطلة بقوله: (طليطلة هي مدينة عظيمة خصيبة من أمنع معاقل الأندلس... ، وبها محارث عظيمة ومدن كثيرة ، وأقاليم واسعة ، وحصون منيعة منها طلبيرة وقلعة رباح بناها الإمام ابن عبد الرحمن وسكنها بالناس في سنة إحدى وأربعين ومائتين)[٧] ، وتمر عند أراضي مدينة قلعة رباح بعض الأنهار ، منها نهر آنه(يانة Rio Guadiana) الذي يتجه بعد ذلك إلى حصن مدلين (Madelin) ثم إلى مدينة بطليوس(Badajoz) حيث يصب في البحر عند حصن مرتلة

---

١) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٠ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦٩.

٢) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٢٥.

٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦٩.

٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٦٦.

٥) استولى النصارى الأسبان على مدينة طليطلة سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م، ينظر : ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٥.

٦) تقويم البلدان، ص ١٨٦.

٧) تاريخ الأندلس، ص ٩٥.

(Martola) من كورة أشكونبة(أو أكشونبة Ocsonba) من بلاد غرب الأندلس ، ويبلغ طوله ثلاثمائة وعشرون ميلاً[1].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة عن كيفية فتحها ووقت دخول المسلمين إليها ، ولكن طارق بن زياد بعد هزيمته الجيش القوطي في معركة وادي لكة(بكة Rio Guadalete) اندفع شمالاً باتجاه إستجة(Ecija) ، وعندها وزع جيشه لفتح المناطق الأخرى ، فأرسل مغيثا الرومي إلى قرطبة ، وجيشاً آخر إلى مالقة(Malaga) ، وآخر إلى البيرة (Elvira) وتدمير(Tudmir) ، فيما سار هو إلى عاصمة القوط طليطلة ماراً بجيان (Jaen) حيث تم له فتحها[2] ، وقد استغرق طارق في فتح تلك المناطق بين رجب سنة ٩٢ هـ/٧١٠ م حتى أواخر سنة ٩٣هـ/٧١١م.

وهذا يعني أن المنطقة الواقعة بين قرطبة وطليطلة قد وقعت تحت سيطرة المسلمين أو نفوذهم خلال تلك المدة إذ فرّ معظم أهالي تلك المناطق لما(... سُقط في أيديهم ، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل ، وصعد ذوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طليطلة...)[3] ، ثم إن طليطلة عندما دخلها طارق وجدها خالية من الجنود ولم يبق فيها إلا قلة من الأهالي[4] ، ويبدو أن المنطقة التي تضم قلعة رباح قد فتحت خلال سنة ٩٣هـ/٧١١م ، إذ أن طارق بن زياد بعد فتحه لطليطلة مكث فيها سنة كاملة لم يتجاوزها حتى التقى بموسى بن نصير في أواخر سنة ٩٤هـ /٧١٢ م[5] ، وليس من المعقول أن يبقى هناك دون حركة ، إذ أن الموقف يحتم عليه أن يقوم بتطهير المناطق المحيطة به من جيوب المقاومة ولاسيما جنوب طليطلة التي تمثل حلقة اتصاله بالجنوب.

استمرت مدينة قلعة رباح محط أنظار السلطة طيلة عهد الإمارة والخلافة ، وفي أعقاب سقوط الخلافة الأموية في الأندلس سنة٤٢٢هـ/١٠٣٠م تمزقت البلاد إلى طوائف

---

١) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٤٧.

٢) ينظر عن فتوحات طارق بن زياد في الأندلس قبل عبور موسى بن نصير : ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٤-٣٥ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩-٢٤ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢-١٣.

٣) المقري، نفح الطيب، ٢٦٠/١.

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٢/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٦٤/١.

٥) المقري، نفح الطيب، ٢٦٥/١ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٨٣.

ودويلات متناحرة ، وقد أدى هذا إلى أن استقل بني ذي النون بحكم طليطلة ، وكانت مدينة قلعة رباح تابعة في ذلك الوقت إلى طليطلة[١] ، وبعد سقوط طليطلة بيد النصارى سنة٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، أصبحت مدينة قلعة رباح تابعة إلى قرطبة[٢] ، وعند دخول المرابطين (Almoravides) قرطبة سنة٤٨٤هـ/١٠٩١م والسيطرة عليها من أمراء الطوائف ، أخذوا في ذلك الوقت الاهتمام بمدينة قلعة رباح قاصية بلاد المسلمين لأنها تشكل الخط الفاصل بينهم وبين النصارى ، لذلك بعث المرابطون بعد سيطرتهم على قرطبة قوة عسكرية تقدر بألف فارس إلى مدينة قلعة رباح لضبط أمورها وسد ثغورها[٣].

تعرضت مدينة قلعة رباح في بداية الربع الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي لهجمات النصارى ، ولعل الغرض من ذلك هو النفاذ منها إلى العاصمة قرطبة القريبة منها ، إذ كانت قلعة رباح حلقة الوصل التي تربط مدينة طليطلة بقرطبة ، ففي سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م خرجت حملة عسكرية من مملكة قشتالة وانطلقت من طليطلة إلى جهة قرطبة وحدثت معركة بالقرب من قلعة رباح هزم فيها النصارى وتكبدهم خسائر كبيرة[٤] ، إلا أن المكاسب التي تحققت للمسلمين على النصارى لم تستمر طويلاً ، إذ سرعان ما عاد التفوق النصراني مرة أخرى مع نهاية الدولة المرابطية وقيام دولة الموحدين (Los، Almohades) ، إذ سادت فترة من الاضطراب السياسي والعسكري في الأندلس بعد أن ثارت أغلب المدن الأندلسية ضد الحكم المرابطي[٥] ، ولعل هذا الأمر قد سهل للنصارى تحقيق أهدافهم ، ففي أواخر سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م قاد ملك قشتالة الفونسو السابع (السليطين) (Alfonso Raimudez)(٥٢٠-٥٥٢هـ/١١٢٦-١١٥٧م) حملة عسكرية إلى مدينة قلعة رباح التي تعد آنذاك من أهم معاقل الثغر الأوسط الأندلسي ، وتمكن من الاستيلاء عليها محدثاً بذلك ثغرة خطيرة في خطوط الدفاع الأندلسية[٦] ، ثم تتابعت المدن الأخرى بالسقوط بيد

---

١) ابن الآبار، الحلة السيراء، ١٧٧/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٥٨/٢-١٥٩ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٦٦/٤.

٢) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٣٩/٢ ؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٦٨.

٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٥٤ -١٥٥

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٨٥/٤ -٨٦ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٤٥١/١ -٤٥٢.

٥) لمزيد من التفاصيل عن هذه الثورات، ينظر : دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٤٧ -١٠٠.

٦) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٧١/٣.

النصارى ، ففي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م سقطت مدينة المرية[١] ، ومن ثم مدينة طرطوشة (Tortosa) سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م[٢].

وبعد إحكام النصارى سيطرتهم على مدينة قلعة رباح ، أصبحت الأخيرة في مقدمة المعاقل الأمامية التي تحمي مداخل مملكة قشتالة ، فضلا عن أهميتها الدفاعية ، إذ كانت تشرف على مقاطعة جيان الأندلسية ، وكان الفونسو السابع قد عهد بالدفاع عنها إلى فرسان الداوية[٣] ، إذ كانت القوات الموحدية تهاجم هذه المدينة من وقت لآخر دون التمكن من السيطرة عليها[٤].

إلا أن القوات الموحدية تمكنت من استرجاعها عي عهد الخليفة الموحدي المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٨م) بعد الانتصار على النصارى في موقعة الارك سنة٥٩١هـ/ ١١٩٤م[٥] ، إذ بعث الخليفة المنصور قواته مباشرة إلى أراضي مدينة قلعة رباح ، واستطاعت الاستيلاء على عدة حصون في هذه المدينة ، بعدها هاجموا المدينة نفسها[٦] ، وتمكنوا من اقتحامها بعد قتال شديد ، وانتزاعها من أيدي فرسان جمعية قلعة رباح الموكلة إليهم الدفاع عنها ، وقد قتل في هذه المعركة رئيس الجمعية نونيو دي فوينتس ، وغادر الفرسان قلعة رباح ، ولجأوا إلى قلعة شلبطرة القريبة منها[٧] ، وهكذا تمكن المسلمون من استرداد مدينة قلعة رباح المنيعة بعد أن لبثت بيد النصارى منذ سقوطها في أيديهم زهاء نصف قرن ، وقد أمر الخليفة المنصور

---

١) ابن الأثير، الكامل، ١٢١/١١ ؛ المراكشي، المعجب، ص ١٤٧ ؛ ابن الآبار، التكملة، ٥٢/١ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤٦١/٤.

٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٠٠ ؛ ابن الأثير، الكامل، ١٣٦/١١ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٢٦/٢ ؛ ابن السباط، صدق الأخبار، ٨٩/١.

٣) هم فرقة من الصليبيين حبسوا أنفسهم لقتال المسلمين وامتنعوا عن النكاح وغيره، ولم يكن عليهم لأحد طاعة وكانوا ينسبون إلى حصن حصين من نواحي الشام، وقد أطلق المسلمون هذا على فرسان المعبد Templers وهم الجماعة التي أسسها Hughda payns سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م لحماية طرق الحجاج المسيحيين بين يافا والقدس، ثم تحولت إلى هيئة عسكرية دينية أصبح لها شأنها في الحروب الصليبية، ينظر : ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م ٤، ٣٨/٢ ؛ حاشية(١٤١).

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥١٩/٣.

٥) ينظر التفاصيل عن معركة الارك : ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٨/٧ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٢٧ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٢٣.

٦) المراكشي، المعجب، ص ٢٠١.

٧) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٤/٣.

بتطهير جامعها الذي كان قد حول إلى كنيسة ، وجعل على حاميتها يوسف بن قادس[1] ، وبعد معركة الارك عقدت هدنة بين الطرفين ابتداءً من سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧ م ولمدة عشر سنوات[2].

ويبدو أن هزيمة النصارى في موقعة الارك ومن ثم استرجاع المسلمين لمدينة قلعة رباح ، كان دافعاً للنصارى لأخذ الثأر ، وأثار حفيظتهم وحثهم على التحشد ضد المسلمين ، كما سارع في وصول الدعم الأوربي إليهم ، وبذلك أخذت حروبهم مع المسلمين تأخذ الصفة الصليبية ، لاسيما بعد سقوط شلبطرة وهي مركز فرسان قلعة رباح في أيدي الموحدين ، وقد أيد البابا أنسونت الثالث(٥٩٥-٦١٣هـ/١١٩٨-١٢١٦ م) ذلك وكتب إلى الأساقفة يدعو النصارى في جنوب فرنسا وغيرها إلى التطوع لقتال المسلمين[3].

كانت الوفود المتطوعة تأتي تباعاً إلى مدينة طليطلة ، بعد أن أصبحت مكاناً لتجمع الجيوش النصرانية ، فجاءت أعداد كبيرة من المتطوعين الفرنسيين ، فضلاً عن وفود أخرى من المدن الاسبانية وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وفرسان الجمعيات الدينية ، وهم: فرسان قلعة رباح ، وشنت ياقب(Orden de Santiago La) ، والأسبتارية (Aospitalarios) ، والداوية(فرسان المعبد) ، واجتمع كذلك سائر القوامس والفرسان القشتاليين ، ثم التحق بهم المحاربين الصليبيين من جميع إنحاء أوربا لمساعدة نصارى اسبانيا ، وبلغ أعداد هذه الوفود المتطوعة زهاء سبعين ألف مقاتل لمؤازرة الجيوش الاسبانية التي تتألف من جيوش قشتالة وأراغون ونافار(Navarre) ، ومن إمدادات من جليقية والبرتغال(Portugal) ، وتلقى ملك قشتالة أيضا مقادير من الأموال والسلاح والمؤن أرسلت إليه من أنحاء فرنسا وايطاليا ، وقد بلغت المحصلة النهائية لهذه الجيوش أكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة ألف من الرجالة ، وأمر البابا أنسونت الثالث في روما بالصوم ثلاثة أيام ، التماسا لانتصار الجيوش النصرانية في أسبانيا على المسلمين ، وأقيمت الصلوات العامة ، وألقى البابا نفسه موعظة صليبية ، طلب فيها إلى النصارى التضرع إلى الله لنصرة النصرانية[4].

---

١) المراكشي، المعجب، ص ٢٠١ ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٨/٧ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦٩.
٢) المراكشي، المعجب، ص ٢٠٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٣٨٢/٤.
٣) المراكشي، المعجب، ص ٢٢٨ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٤٤.
٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٩٤/٣.

وقد وصف المراكشي أعداد النصارى واستنفارهم بقوله: (وخرج الادفنس لعنه الله إلى قاصية بلاد الروم ، مستنفرا من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم ، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن السام[1] ، حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنوني لعنه الله)[2].

وبالمقابل أخذت الاستعدادات العسكرية للموحدين ، وقد استنفر الخليفة الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ/١١٩٨- ١٢١٣م) الناس من سائر الجهات بلغت أعداداً كبيرة لمواجهة التحالف النصراني ، ففي يوم١٧ من محرم سنة٦٠٩هـ/٢٠ يونيه١٢١٢م خرجت الجيوش النصرانية من مدينة طليطلة باتجاه الجنوب ، وكانت تتكون من ثلاثة أقسام ، الأول جيش الطليعة ويتألف من قوات الوافدين وبلغ عددهم ستين ألف مقاتل ، وقدره البعض بمائة ألف مقاتل وكان يقوده القائد القشتالي ديجولوبيت دي هارو يعاونه عدد من أكابر الأحبار والقوامس ، ويتكون الجيش الثاني من قوات أراغون وقطلونية وفرسان الداوية ، ويقوده بيدرو الثاني ملك أراغون ، أما الجيش الثالث وهو جيش المؤخرة فكان يتألف من قوات قشتالة وليون والبرتغال وفرسان قلعة رباح وشنت ياقب والاسبتارية ويقوده الفونسو الثامن ملك قشتالة يعاونه عدد من القواد والأحبار وفي مقدمتهم ردريك مطران طليطلة[3].

وخرج الخليفة الناصر الموحدي بقواته من مدينة إشبيلية(Sevilla) في سنة٦٠٩هـ/ ١٢١٢م باتجاه مدينة جيان ، قاصدا لقاء التحالف النصراني ، إذ كانت القوات النصرانية تسير نحو المناطق الأندلسية ووصلت في زحفها إلى حصن ملجون ، وهو من الحصون الحدودية الإسلامية ، فتمكنت هذه القوات من السيطرة عليه ، ثم واصلت زحفها باتجاه مدينة قلعة رباح التي تعد من أكبر وأمنع القواعد الإسلامية في تلك المنطقة ، إذ كان الخليفة المنصور قد استولى عليها بعد معركة الارك من فرسان قلعة رباح وعين لقيادتها أبا الحجاج يوسف بن قادس لغرض الدفاع عنها ، وكان لديه حامية عسكرية تتألف من

---

١) لعله يقصد بذلك الألمان بسبب اشتراك الجيوش الأوربية في هذا التحالف ومنها الألمانية، ينظر: المراكشي، المعجب، ص ٢٢٨ هامش(٥).

٢) المعجب، ص ٢٢٨.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٩٥/٣ -٢٩٦.

سبعين فارسا أثناء تقدم النصارى إليها[1].

وقد وصف ابن أبي زرع تقدم النصارى نحو مدينة قلعة رباح بقوله :(... فلما استوفت لدى الفونسو الثامن جيوشه وحشوده ، وتكاملت لديه وفوده ، أقبل في جيوشه حتى نزل ثغرا من ثغور المسلمين يقال له قلعة رباح...)[2].

في حين وصف المراكشي ذلك بقوله: (... وخرج الأدفنش لعنه الله من مدينة طليطلة في جموع ضخمة ، حتى نزل على قلعة رباح ، وهي كانت للمسلمين...)[3].

واجه النصارى بعض العقبات خلال تقدمهم إلى مدينة قلعة رباح وبخاصة عند عبور نهر آنه الذي تقع قلعة رباح على مقربة من ضفته الجنوبية ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبيه الصنانير والخوازيق الحديدية ، فلما عبروا النهر ، حاصروا قلعة رباح في الحال ، إلا أن القلعة كانت تتمتع بأسوار وأبراج في منتهى الحصانة ، فضلاً عن مناعتها الطبيعية بوقوعها جنوبي النهر ، لذلك تردد النصارى في مهاجمتها في بادئ الأمر ، وبقوا تحت أسوارها ثلاثة أيام لكي يجدوا ثغرة لاقتحامها ، وفعلا هوجمت قلعة رباح وتمكن النصارى المتحالفين أن يحتلوا قسمها الخارجي الذي يحاذي النهر ، الذي هو الأضعف من بين أقسامها ، بعدها دخل الطرفان–الإسلامي والنصراني– في تفاهم حول تسليم قلعة رباح إلى النصارى مقابل منح الأمان لحاميتها ، وتركهم أحرارا في مغادرتها إلى بلادهم ، وقد أيد هذا الرأي واليها يوسف بن قادس الذي أيقن بعدم جدوى المقاومة وتعريض جنوده إلى الهلاك ، كما أنه يأس من الاستنجاد بالخليفة الناصر ، لذا رأى من المصلحة التفاوض مع النصارى بدلاً من الدخول في معركة خاسرة ، وقد وافق الفونسو الثامن ملك قشتالة على الحل السلمي الذي يتمكن فيه من الاستيلاء على مدينة قلعة رباح دون تأخير أو مصادمات ، إلا أن حلفاءه النصارى من الأرغونيين والأجانب الوافدين عارضوا أي تسوية تحقن بها دماء الحامية الإسلامية ، ولكن في المحصلة النهائية تمت الموافقة على ذلك ، بعد أن رأوا أن يوسف بن قادس مصمم على الدفاع عن المدينة إذا لم يجب طلبه ، لذلك تم الاتفاق على

---

١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٣٧.

٢) الأنيس المطرب، ص ٢٣٧.

٣) المعجب، ص ٢٢٩.

أن يغادر الفرسان المسلمون دون سلاح ، ومعهم خمسة وثلاثون من الخيل ، وهكذا تمكن الفونسو من الاستيلاء على مدينة قلعة رباح سنة٦٠٩هـ/١٢١٢م ، وفي الحال سلمها إلى فرسان قلعة رباح أصحابها السابقين(١).

وقد علق على ذلك ابن أبي زرع بقوله: (... فلما طال الحصار على ابن قادس ونفذ ما كان عنده بالحصن من الأقوات والسهام ويئس من الإغاثة وخشي أن يدخل الحصن على من به من المسلمين فلما خرج المسلمون من حصن قلعة رباح وملكه العدو...)(٢).

وبعد أن تمكن النصارى من الاستيلاء على مدينة قلعة رباح ، حصل خلاف بين القشتاليين وحلفاءهم النصارى الوافدين ، وذلك لأن الوافدين الصليبيين وجدوا في خروج المسلمين أحرارا أحياءً ، عملا غير مبرر ، ولا يتفق مع أغراض الحرب الصليبية ، كما أن الفونسو الثامن وجد في قلعة رباح كميات كبيرة من المؤن وقد قسمها بالتساوي بين النصارى الوافدين والمحاربين الأصليين ، ولكن ظهرت إشاعة بين النصارى الوافدين بأن الفونسو الثامن قد عثر بقلعة رباح على تحف وذخائر كثيرة استأثر بها لنفسه ، الأمر الذي أسخط جموع كثيرة من الوافدين ، وقرروا الرجوع إلى بلادهم بعد أن وفوا بعهودهم في مقاتلة المسلمين في ملجون وقلعة رباح ، وقد أيدهم في ذلك مطران بوردو (Bordeaux) أعظم أحبارهم ، ولم تنجح جهود ملك قشتالة والنصارى الأسبان الآخرين في إقناعهم بالعدول عن قرارهم ، وغادر معظم النصارى الوافدين المعسكر القشتالي ، ولم يبق منهم سوى أرنولد أسقف مدينة أربونة(Nardonne) مع رجاله ، والكونت تيوبالد بلاسكون وهو قشتالي الأصل ، وكان عدد رجالهم مائة وثلاثون فارساً ، أما الذين غادروا فبلغ عددهم زهاء خمسين ألف مقاتل اخترقوا قشتالة باتجاه جبال البرت عائدين إلى بلادهم(٣).

وقد وصف المراكشي حالة الخلاف التي وقعت بين النصارى بعد السيطرة على مدينة قلعة رباح بقوله(... فسلمها إليه المسلمون الذين بها ، بعد أن أمنهم على أنفسهم ، فرجع عن الادفنش لعنه الله بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منعهم من قتل

---

١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٣٧ -٢٣٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٩٦/٣ -٢٩٧.

٢) الأنيس المطرب، ص ٢٣٧ -٢٣٨.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٩٧/٣.

المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا : إنما جئت بنا لتفتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ، ما لنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه)[1].

أما بالنسبة لمصير يوسف بن قادس قائد قلعة رباح فبعد أن رجع إلى بلاده وسلم للنصارى مدينة قلعة رباح ، أتهم بالخيانة فأمر الخليفة الناصر الموحدي بإعدامه مع صهره دون أن يستمع إليه أو يستوضح رأيه[2].

ويبدو أن مقتل يوسف بن قادس وصهره من قبل الخليفة الناصر لم يلق قبولاً من قواد الأندلس ، إذ أوضح ابن أبي زرع ذلك بقوله(... فجمد الناس عند قتلهما وحقدوا على محمد الناصر ، وفسدت نيات قواد الأندلس ، ثم خرج الوزير ابن جامع إلى مخيم الساقة فأمر بإحضار قواد الأندلس ، فاحضروا بين يديه فقال لهم : اعتزلوا من جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم...)[3].

وكان لسقوط مدينة قلعة رباح في أيدي النصارى أثر كبير في نفس الخليفة الناصر ، كما أن الفونسو الثامن بعد استيلائه على هذه المدينة تمكن من التغلب بسرعة على ما حدث في المعسكر النصراني ، بسبب رحيل بعض الجنود الوافدين ، فنظم ما تبقى من قواته المكونة من قوات قشتالة وأراغون وجليقية والبرتغال ، كما انضم إليه ملك نافار أيضاً بالرغم من خصومته القديمة لمملكة قشتالة ، وبذلك توحدت جهودهم لمواجهة المسلمين[4].

ومن جانب آخر وكرد فعل من قبل المسلمين ، خرج الخليفة الناصر بقواته لمواجهة التحالف النصراني الذي كان بقيادة الفونسو الثامن لأخذ الثأر منهم ، وقد التقى الطرفان سنة٦٠٩هـ/١٢١٢م في موضع عرف بالعقاب يقع بين مدينتي جيان وقلعة رباح ، وفيها خسر الموحدون المعركة ، وقتل أعدادا كبيرة منهم ، وعلى اثر هذه الموقعة تغير ميزان القوى ، ولم يعد في مقدور دولة الموحدين حماية الثغور الأندلسية من هجمات النصارى[5] ، وهكذا سقطت مدينة قلعة رباح بعد أن حكمها المسلمون حوالي٥١٦سنة.

---

١) المعجب، ص ٢٢٩.
٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٣٨.
٣) الأنيس المطرب، ص ٢٣٨.
٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٩٩/٣ -٣٠٠.
٥) لمزيد من التفاصيل ينظر : المراكشي، المعجب، ص ٢٣٠ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ٢٧٠/٢ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٩١ وما بعدها.

مدينة قصر أبي دانس Alcacer do Sal الأندلسية
(٩٣ – ٦١٤هـ/٧١١ -١٢١٧م)

قصر أبي دانس إحدى مدن غربي الأندلس في القسم الجنوبي من البرتغالPortugal الحالية ، جاء بألفاظ متعددة فذكره ابن حوقل بلفظ قصر بني وردانس[١] ، أما ابن حيان فذكر قصر بن أدانس[٢] ، وجاء لفظه عند الإدريسي مكرراً مرة قصر أبي دانس وأخرى القصر[٣] ، واكتفى ابن غالب بذكر القصر فقط وأضافه إلى باجة Baja بقوله: (باجة من مدائنها القصر)[٤] ،وإلى ذلك أيضاً ذهب ياقوت بقوله: (قصر باجة مدينة بالأندلس من نواحي باجة قريبة من البحر)[٥] ، أما الحميري فذكرها مرتين–كما فعل الإدريسي–مرة قصر أبي دانس وأخرى القصر[٦] ، وذكرها أبو الفدا بقصر بودانس[٧] ، ويبدو أن الاختلاف في لفظ أبي دانس راجع إلى التصحيف عند النساخ

أما أبو دانس فذكره ابن حزم بالقول: بنو دانس بن عوسجة كانوا أصحاب مدينة قلنبيرة Colenbeira وإلى جدهم أبي دانس ينسب قصر أبي دانس بالجوف[٨] ، وبنو عوسجة هم من قبيلة مصمودة البربرية أسلم جدهم عوسجة بين يدي الخليفة الوليد بن عبدالملك(٨٦-٩٦هـ/٧٠٥- ٧١٤م)[٩].

---

١) صورة الأرض، ص ١١٥.
٢) المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/ ٩١٢ – ٩٤١م)، ص ٢٥٤، ٤٩٠.
٣) نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢، ٥٤٤.
٤) فرحة الأنفس، ص ٢١.
٥) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٢٩.
٦) الروض المعطار، ص ٤٧٥، ٤٧٦.
٧) تقويم البلدان، ص ١٦٩.
٨) جمهرة أنساب العرب، ص ٥٠١.
٩) مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص ١٨٨.

وهناك تسمية أخرى لها وهي قصر الفتح ، قال ابن الابار: قصر الفتح المنسوب إلى أبي دانس[1] ، ويبدو أن هذه التسمية أطلقت على المدينة بعد استعادتها من قبل الموحدين Los، Almohaes سنة٥٨٧هـ/١١٩١م ،وقد عبر عنها ابن عذاري بقوله هي: (فتح الفتوحات)[٢].

وإطلاق اسم قصر أبي دانس على المدينة يوحي بأنها إسلامية محدثة ، ولكنها في الحقيقة مدينة قديمة اسمها القصر ، استوطنها الأيبيريون(١٠٠٠- ٥٠٠ ق.م) وكانت تعرف آنذاك بمدينة القصر Caceres(استرامادورا)[٣] ، وبقي اسمها القصر في العصر الفينيقي الذين أسسوا مراكز تجارية لهم في شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia في القرنين الثامن والسابع ق.م حيث وجدت آثار فينيقية في مدينة القصر[٤] ، وكانت المدينة تعرف في العصر الروماني Salacia[٥] ، ويسمى الموضع الآن بالاسبانية Alcacer do Sal أي قصر الملح[٦] ، ولا تزال آثاره قائمة وهو الآن مركز إداري في مديرية يابرة Evora في البرتغال بين باجة ولشبونة Lisbon[٧].

وهذا يعني أن اسم القصر كان أقدم من الحقبة الإسلامية ، ولهذا عندما تكلم الإدريسي عن أقاليم الأندلس جعل إقليم القصر قائماً بذاته وفيه مدن عدة بقوله: (إقليم القصر وفيه القصر المنسوب لأبي دانس وفيه يابورة وبطليوس وشريشة وماردة وقنطرة السيف وقورية)[٨] ، فضلاً عن أن كلمة القصر في المفهوم الجغرافي الأندلسي تعني مدينة[٩].

أشرنا إلى أنها من مدن غرب الأندلس تقع على ضفة نهر يدعى شطوبر Sado ، قال الإدريسي: (... ، والقصر مدينة حسنة متوسطة على ضفة النهر المسمى شطوبر وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية كثيراً ...)[١] أي أن النهر المفضي إليها من البحر

---

١) الحلة السيراء، ٢٧٢/٢.
٢) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢١١.
٣) حتاملة، أيبيريا، ص ١٠٩ -١١٠.
٤) حتاملة، أيبيريا، ص ١٣١.
٥) سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية، ص ١٩٦.
٦) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٧٢/٢ هامش رقم(١).
٧) الخلف، نظم حكم الأمويين، ٥٨١/٢.
٨) نزهة المشتاق، ٦٣٨/٢.
٩) طه، الفتح والاستقرار، ص ٢٧٤.
١) نزهة المشتاق، ٥٤٤/٢.

المحيط(المحيط الأطلسي) صالح للملاحة مما حولها إلى ميناء مهم من موائي الساحل الغربي الأندلسي ، وقد أطلق أبو الفدا اسم المدينة على النهر فقال: نهر بودانس[١].

أما المسافات بينها وبين ما جاورها من المدن الأندلسية ، فإن بينها وبين مدينة شلب Silves أربع مراحل[٢] وبينها وبين البحر المحيط عشرين مرحلة ، وبينها وبين مدينة يابرة مرحلتين[٣] ، ومن فم نهر شطوبر الذي تقع عليه مدينة قصر أبي دانس إلى مدينة لشبونة مسافة يوم[٤] على البحر[٥] ، فيما ذكر أبو الفدا أن بين مدينة قصر أبي دانس ولشبونة أربعين ميلاً[٦].

لم ترد في المصادر المتوافرة إشارة مباشرة عن كيفية فتحها ووقت دخول المسلمين إليها ، ولكن المصادر اتفقت على أن موسى بن نصير قرر السير في فتوحاته على طريق آخر ليتمكن من فتح المزيد من المناطق التي لم يتيسر لطارق فتحها فأشار عليه الأدلاء على سلوك الجانب الغربي من البلاد فإن فيه مدائن كثيرة[٧] ،ونحن هنا أمام روايتين ، ذهبت الأولى إلى أن موسى عندما عبر إلى الأندلس سنة٩٣هـ/٧١١م اتجه غرباً فافتتح إشبيلية Seevilla ثم اتجه إلى ماردة Merida التي استعصت عليه بعض الوقت مما اضطره إلى حصارها بضعة أشهر وفي أثناء حصارها حدثت تمرد في إشبيلية على من بها من المسلمين وسيطروا عليها بعد أن قتلوا ثمانين رجلاً من المسلمين وجاءتهم الإمدادات من المدن المجاورة مثل لبلة وباجة[١] ، وهو ما اضطر موسى بعد الفراغ من ماردة إلى إرسال ابنه عبد العزيز إلى إشبيلية الذي تمكن من إعادة فتحها ثانية ثم تقدم إلى لبلة وباجة

---

١) تقويم البلدان، ص ١٥٣.

٢) المرحلة تساوي أربعة وعشرون ميلاً أو ثمانية فراسخ، ينظر : الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، ٥٢١/١ -٥٢٢.

٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٤/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٧٦، ٤٧٧، ٦١٦.

٤) اليوم هو المسافة التي يقطعها المسافر على الدابة وتقدر بمرحلة واحدة أي ثمانية فراسخ، ينظر : محمد، المكاييل والموازين الشرعية، ص ٥٦.

٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١١٥.

٦) تقويم البلدان، ص ١٦٩.

٧) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٤ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣/٢.

١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٦ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥/٢.

فافتتحهما ثم رجع إلى أبيه في ماردة[1] ، فيما أشار المقري إلى أن عبد العزيز بن موسى بعد أن أنهى تمرد إشبيلية وأخضع باجة ولبلة ثم أقام بإشبيلية[2].

أما الرواية الثانية فأشارت إلى أن موسى بن نصير عندما حلّ بإشبيلية خرج بعدها إلى أكشونبة Ocsonoba على شاطئ البحر فافتتحها وغيرها سلماً وحرباً[3] ، وأضافت أن موسى ومن معه(اتفق رأيهم على المشي إلى إشبيلية وأن يبدءوا بغزو ما بقي من غربها إلى أقصى ساحل البحر بأكشونبة... فمشوا على رأيهم وفتحوا غرب الأندلس إلى ساحل أكشونبة)[4].

فنحن هنا أمام روايتين أحدهما أشارت إلى أن فتح الساحل الغربي— بما فيها قصر أبي دانس—كان على يد عبد العزيز بن موسى سنة٩٣هـ/٧١١م وفي أيام أبيه عندما كان في ماردة ، أما الثانية فأشارت إلى أن فتح الساحل الغربي كان من قبل موسى إذ عرج بعد إشبيلية على مدن الساحل وافتتحها ثم توجه إلى ماردة ، ويبدو من الروايتين أن موسى قرر التريث في ماردة حتى ينتهي ابنه عبد العزيز من تطهير مناطق الساحل من فلول القوط ، لأنه من غير المعقول أن يترك موسى مدن الساحل بيد فلول من القوط ويتجه شمالاً تاركاً خطوطه الخلفية عرضة لهجمات أعدائه ، ونرجح أن فتح الساحل الغربي كان من قبل عبد العزيز بن موسى بعدما قضى على تمرد إشبيلية لذا قرر — ربما بتوجيه من أبيه — أن يأتي على مدن الساحل كي لا تتكرر تجربة إشبيلية التي جاءتها المساعدات من بقايا القوط في باجة ولبلة والتي تركها موسى خلفه عندما توجه نحو ماردة ، أما بخصوص الإشارة التي وردت في الرواية الثانية من أن موسى اتجه نحو الساحل فأياً كان الذي دخل المنطقة موسى أم ابنه عبد العزيز فإن الفتح كان تحت راية موسى.

وهي كغيرها من مدن الساحل الغربي الأندلسي فقد تعرضت إلى هجمات النورمان

---

١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٦ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧١/١.

٢) نفح الطيب، ٢٧١/١.

٣) مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٤.

٤) مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٩.

الذين كان أول ظهور لهم سنة٢٢٩هـ/٨٤٣م ، ثم عاودوا الهجوم سنة٢٤٥هـ/٨٥٩م إلا أن قوات الإمارة الأندلسية تمكنت من صدهم[1] ، وبعد قرن أي في سنة٣٥٥هـ /٩٦٥ م كانت القوة المرابطة في قصر أبي دانس والمكلفة بمراقبة الساحل الغربي رصدت عدداً من مراكب النورمان ، فأرسلوا صريخهم إلى قرطبة وأهل الساحل بالتحفظ والاحتياط وتمكنوا من هزيمتهم[2] ، وكان من أهم نتائج هجمات النورمان على الساحل الغربي أن غدت مدينة قصر أبي دانس قاعدة مهمة للأسطول الأندلسي.

وفي سنة٤٢٢هـ/١٠٣٠م سقطت الخلافة الأموية في الأندلس وتقسمت البلاد إلى دويلات طوائف متناحرة ، ويبدو من بعض النصوص التي بين أيدينا أن صراعاً للسيطرة على بعض مراكز غرب الأندلس حدث بين بني عباد في اشبيلية وبني الأفطس في بطليوس[3] وأن بني عباد تمكنوا في بداية الأمر من إرسال قواتهم إلى هناك ، ويشير ابن الأثير إلى أن أبا القاسم محمد بن عباد(٤١٤-٤٣٣هـ/١٠٢٣-١٠٤١م) أرسل ابنه إسماعيل الذي ووصل إلى لشبونة فملكها في حدود سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م[4] ، وهذا يعني أن مدينة قصر أبي دانس أصبحت ضمن أملاك بني عباد.

وبعد دخول المرابطين Los، Almoravides إلى الأندلس وقضائهم على أمراء الطوائف ولاسيما دولة بني عباد أصبح غرب الأندلس بأجمعه تحت سلطان المرابطين ولكنها كانت حقبة حرجة لأنها شهدت ميلاد دولة البرتغال الحالية ففي عهد أمراء الطوائف(٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) استغل ملوك قشتالة Castilla حالة التردي والتمزق في الأندلس وعملوا على توسيع حدودهم لتشمل المناطق جنوب نهر دويرة ذلك النهر الذي بقي فاصلاً طوال الحقبة السابقة ، وقد تمكنوا من السيطرة على عدد من المدن الواقعة بين نهري دويرة وتاجة Roi Tojo حتى مدينة بورتو كالي(porto calle) الواقعة عند مصب نهر دويرة ، وقد جعل فرناندو الأول هذا القسم من مملكته ولاية مستقلة اسماها البرتغال نسبة إلى المدينة أعلاه

١) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/ ٧٩٦ -٨٤٦ م)، ص ٣٠٧ -٣٠٨ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٩٦/٢.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٣٩/٢.

٣) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٢٤.

٤) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٦٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨٥/٢.

وجعل عاصمتها قلمرية[1] ، وشجع الأسبان على استيطانها بعد أن نكل بأهلها المسلمين وقتل وهجر العديد منهم[2].

وفي أواخر عهد المرابطين شهدت الأندلس قيام ثورات عديدة منها ثورة أهل شرق الأندلس وأهل قرطبة ومالقة Malaga[3] ، ثم جاءت ثورة الجنوب الغربي للأندلس لتضع حدا لنفوذ المرابطين هناك ، وكان من زعماء الثورة في غرب الأندلس سيدراي بن عبد الوهاب بن وزير القيسي[4] الذي تمكن من التغلب على الساحل ومنها قصر أبي دانس ثم دخل في صراع مع أحد الثوار في غرب الأندلس وهو أحمد بن الحسين بن قسي[5] في شلب سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م ، إلا أن الثائرين بعد انضمامهما إلى الموحدين اتفقا على محاربة المرابطين وتمكنا من دخول إشبيلية[6] ، وعليه فقد دخلت مدينة قصر أبي دانس في طاعة الموحدين وكان واليها من قبلهم سيدراي بن وزير القيسي.

وخلال العهد الموحدي تعرضت مدينة قصر أبي دانس إلى هجمات متكررة من قبل نصارى البرتغال الذين تمكنوا من احتلالها وعلى مرحلتين:

١ - الاحتلال البرتغالي الأول سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م :

بقيت مدينة قصر أبي دانس تدار مباشرة من قبل ولاة الموحدين حتى سنة٥٥٥هـ /١١٦٠م عندما تغلب عليها البرتغاليون[1] بقيادة الفونسو هنريكيز بعد أن حاصروها مدى

---

١) طه، دراسات أندلسية، ص ١٨٩.

٢) العلياوي، الحملات الصليبية على الأندلس، ص ٥٤.

٣) انظر التفاصيل: السامرائي وآخرون، تاريخ المغرب العربي، ص ٢٧٦ -٢٨١.

٤) أبو محمد سيدراي بن عبد الوهاب بن وزير القيسي من ثوار غرب الأندلس ثم لجأ إلى الموحدين وحظي عندهم، وقد اعتمده ابن صاحب الصلاة في بعض كتابه ينظر : تاريخ المن بالإمامة، ص ٦٨، ١٥٢ ؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ٢/٢٧١ -٢٧٢.

٥) أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي رومي الأصل نشأ بشلب وتصوف وادعى المهدوية وتسمى بالإمام وكسب الناس وسمى أتباعه المريدون وغلب على عدد من مدن غرب الأندلس وأعلن طاعة الموحدين الذي عينوه على شلب سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م ثم ثار عليه أهل شلب وقتلوه سنة ٥٤٦ هـ/١١٥١م، ينظر : ابن الابار، الحلة السيراء، ٢/١٩٧ -٢٠٠.

٦) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢/٢٧١ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٧٠ -٧٥

١) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢/٢٧٣.

شهرين من البر والبحر ، وكان سقوطها في ٢٤ يونيه من العام المذكور[١].

وكان لاحتلال النصارى قصر أبي دانس أن أصبح قاعدة يُشن منها الغارات على بقية مناطق غرب الأندلس ولاسيما مدينة باجة القريبة منها ، ففي سنة٥٥٧هـ/١١٦١م هاجموا المدينة واستولوا عليها ومكثوا فيها أربعة أشهر ثم انسحبوا منها بعد أن خربوها وهدموا أسوارها[٢] ، ثم أعادوا الكرة عليها سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م ودخلوها بعد أن فرّ عاملها الموحدي المدعو عمر بن سحنون وقتلوا وأسروا الكثير من أهلها ثم غادرها بعد خمسة أشهر بعد أن تركها قاعاً صفصفاً وهاجر معظم أهلها في أعقاب هذه الحادثة[٣] ، ويعزو ابن عذاري سبب حلّ في باجة ومدن الساحل الغربي من نكبات إلى خلع سيدراي بن وزير والي قصر أبي دانس وبقية مدن الساحل ومجيء ولاة غير كفوئين من الموحدين مثل عمر بن تيمصلت التينملي الذي شجع النزاع بين أعيان المنطقة فطعنوا عليه وعزلوه فولى الموحدون والياً آخر من البربر يدعى عمر بن سحنون الذي وصف بأنه أشأم طالع ، فظلم الناس وأخذ الأموال وسفك الدماء وقتل العديد من الأعيان ، وهو ما دفع أعيان باجة وعلى رأسهم بنو الوزير رهط الوالي السابق سيداري بن وزير إلى الطلب من الخليفة الموحدي بترك البلاد والخروج إلى إشبيلية ، ثم رفع سيدراي بن وزير إلى الخليفة يعزو فيها ما حدث في باجة والساحل إلى ابن سحنون فأمر الخليفة بقتله إلا أنه فرّ ولم يقبض عليه[٤].

وبعد انسحاب النصارى من باجة أعيد عليها عمر بن تيمصلت ، وحاول الأخير في سنة٥٧٣هـ/١١٧٧م طرد النصارى من مدينة قصر أبي دانس فأغار عليها بقواته وبمساعدة بعض أعيان بني وزير ، وعندها وصلت إمدادات للقوات البرتغالية النصرانية المتمركزة في قصر أبي دانس ودارت معركة عنيفة بين الفريقين انهزم فيها المسلمون وأسر ابن تيمصلت وأحد أعيان بني وزير وهو علي بن وزير ، ثم قتلوا ابن تيمصلت وقام الخليفة أبو يعقوب يوسف الموحدي بدفع فدية عن ابن وزير[١].

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٥/٤.

٢) ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٣٩٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٥/٤.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٢٧.

٤) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٢٨ -١٢٩.

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٤٣ -١٣٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٩٧/٤ -٩٨

بقيت مدينة قصر أبي دانس بيد البرتغاليين حتى جماد الأولى من سنة٥٨٧هـ /١١٩١م عندما عزم الخليفة المنصور الموحدي(٥٨٠-٥٩٥ هـ/١١٨٤-١١٩٨م) على استرجاعها من أيدي نصارى البرتغال ، فحشد لها قوات من البر والبحر وبعد معركة كبيرة حدثت بين الجانبين تمكنت القوات الموحدية من اقتحام المدينة عندها طلبوا الأمان فحملوا في المراكب وأرسلوا إلى إشبيلية ، ثم عمل الخليفة المنصور على أصلاح حال المدينة وشحنها بالمقاتلة والمؤن وعين عليها أبا بكر محمد بن سيدراي بن وزير ، وهو ابن حاكمها السابق قبل سقوطها سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م ، وقد علق ابن عذاري على معركة استعادة قصر أبي دانس بقوله: (... ، كان الحلول على قصر أبي دانس وتقسمت الحشود وترتبت الجنود ، وأهل الخدمة من العبيد يردمون خندق المدينة من جهاتها الأربع وطوائف من المقاتلة الأنجاد قد زحفوا إلى السور يستعذبون طعم المنايا ، ويبيعون من الله أنفسهم بالرزايا ، ولما عاين المنصور صبر المسلمين على القتال ، وقد كثرت فيهم الجراحات بالحجارة والنبال ، روح القتال ثلاثة أيام ، وقصد تجديد الفكر والاعتزام ، وانتظار ما كان أعده لذلك المقام ، إلى أن وصلت الأجفان البحرية العدد الحربية وقد تسابقت لدخول الوادي بتيسير تعجز العقول عن تكييفه ويشكر القدير سبحانه على أحكامه وتصريفه فبهت الذي كفر ، وسقط في أيدي المشركين من كل من ألقى السمع والبصر ، فنصبت في يوم وليلة أربعة عشر منجنيقاً إذ كانت معدة بعد الفراغ من عملها فأحدق منها بالبلد منايا زاحفة وصواعق صاعقة ، ولما كان الخامس عشر لجمادي الأولى أمر الجيش بأسره بأخذ الأسلحة ونشر القتال عليهم من كل الجهات ، ورمى المجانيق مرة واحدة على مر الأوقات فاشتد القتال وتضاعف عليهم النكال ، ولما رأوا أنفسهم في لهوات المنون ، وأنهم مع ما لديهم من أهل ومال في بحر القوات مغرقون ، تطارحوا كالفراش على الأسوار ، ورضوا بالفرار من الرمضاء إلى النار ، ونزلوا على الحكم مستسلمين لائذين بما للخليفة من الأجمال والأفضال وهبطوا من البلد صاغرين ، وانسلخوا عنه أجمعين فأودعوا بطون الجوار المنشآت ، وضحكت لمناجاتهم كتب البشارات ، وحملوا إلى إشبيلية فكانوا عنوان الفتوحات ، وشرع المنصور في النظر في أمور الحصن وأحواله ، وصلاح ما ظهر من اختلاله ، وثقله بأنجاد رجاله ، ورسم لسكانه رسوماً مشاهرة ومسانهة في مخازن إشبيلية وسبتة على الاستمرار والدوام ،

والتيسير والتمام ، وقدم على الحصن المذكور ابن وزير)[1].

وذهب ابن أبي زرع إلى أن الذي استرد قصر أبي دانس وبقية مدن غرب الأندلس الأخرى من النصارى هو والي قرطبة الموحدي محمد بن يوسف بقوله: (في سنة ست وثمانين دخل النصارا مدينة شلب ومدينة باجة ويابورة من بلاد غرب الأندلس ، وذلك لما علموا أن المنصور قد بعُد عنهم واشتغل بإفريقية ، فاغتنموا الفرصة فاتصل الخبر بالمنصور ، فاستعظم ذلك وغاظه ، وكتب إلى قواد الأندلس يوبخهم ويأمرهم بغزو بلاد الغرب ويعلمهم أنه قادم عليهم في إثر كتابه ، فاجتمع قواد الأندلس إلى محمد بن يوسف والي قرطبة ، فخرج بهم في جيش عظيم من الموحدين والعرب والأندلس حتى نزل شلب فحاصرها وشد عليها القتال حتى فتحها وفتح قصر أبي دانس ومدينة باجة ويابورة ورجع إلى قرطبة ، فدخلها بخمسة عشر ألف سبية وثلاثة آلاف أسير من الروم ، وأدخلهم في القطائن بين يديه ، وجعل خمسين علجاً في كل قطينة ، وذلك في شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة)[2] ، وعلق عنان على هذه الرواية بقوله: وهي رواية ظاهرة الضعف والخلط ، خصوصاً وأنها تغفل ذكر المنصور بالمرة وتنسب لغيره قيادة هذه الغزوة[3].

وبذلك فقد عادت مدينة قصر أبي دانس إلى الدولة الموحدية بعد أن بقيت بيد نصارى البرتغال اثنتين وثلاثين سنة كما أعيد إلى حكمها ولاتها السابقون من بني وزير.

استمر أبو بكر محمد بن سيدراي بن وزير حاكماً على قصر أبي دانس وتابعاً للموحدين وأبدى تعاوناً معهم ، ففي عهد الناصر الموحدي(٥٩٥-٦١٠هـ/١١٩٨-١٢١٣م) دعا الخليفة إلى حملة كبرى ضد بلاد قشتالة فلبى الدعوة صاحب مدينة قصر أبي دانس أبو بكر محمد بن سيدراي واشترك مع القوات الموحدية بقيادة الناصر في موقعة العقاب Las. Navas de Tolosa[1] سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م وعقب الهزيمة التي حلت بالقوات الموحدية توفي أبو

---

١) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢١٠ -٢١١ ؛ ينظر أيضاً : ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٧٣/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٨٦/٤ -١٨٧.

٢) الأنيس المطرب، ص ٢١٩ ؛ ينظر أيضاً : السلاوي، الاستقصا، ١٨٤/٢.

٣) دولة الإسلام في الأندلس، ١٨٩/٤.

١) وهو موضع يقع بين جيان وقلعة رباح، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦.

بكر محمد بن سيدراي كمداً وقد علق ابن الابار على ذلك قائلاً:(وأقام والياً عليه ساميَ الرتبةناميَ الحظوة ، إلى أن توفي في صدر المائة السابعة بعد حضوره لوقعة العقاب)[1].

وبعد وفاته تولى قصر أبي دانس والثغر الغربي ابنه أبو محمد عبد الله بن محمد بن سيدراي بن وزير القيسي[2] ، ولم ينعم ولم تطل مدته ، فقد تغير ميزان القوى في الأندلس ، ولم يعد في مقدور الدولة الموحدية حماية الثغور الأندلسية من هجمات النصارى ، فكانت موقعة العقاب ضربة قاضية ، لقوى الموحدين في الأندلس والمغرب ، ولم يمض على وقوعها سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى تسقط تباعاً في أيدي النصارى في وابل من المحن المؤلمة[3].

٢ - السقوط الثاني والنهائي للمدينة بيد البرتغاليين سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م

بالنسبة للغرب الأندلسي كانت أولى النكبات التي حلت بهم بعد موقعة العقاب هي سقوط قصر أبي دانس بيد البرتغاليين وبمساعدة قوات صليبية ، وكانت لمناعة مدينة قصر أبي دانس وحصانتها أن وقفت سداً في وجه تقدم البرتغاليين جنوباً[4] ، ولكن بعد هزيمة الموحدين في موقعة العقاب وانقسامهم أخذ الملك البرتغالي الفونسو الثاني(٦٠٨-٦٣٠هـ/١٢١١-١٢٣٢م) يعد العدة لغزو مدينة قصر أبي دانس لما تشكله من عقبة في طريقه إلى الجنوب ، ووافق في ذلك أن رست قوة صليبية قادمة من أوربا ومتجه إلى فلسطين في ميناء لشبونة للتزود بالمؤن وإصلاح ما فسد من سفنهم ، وكان الأسطول الصليبي يتكون من ثلاثمائة سفينة محملة بمقاتلين ألمان ، فعرض عليهم الملك البرتغالي المشاركة معه في حملة ضد المسلمين فاستجاب معظم رجال القوة الصليبية للدعوة رغبة بالغنائم العظيمة التي مناهم بها الملك البرتغالي ، فساروا جميعاً بقيادة الفونسو الثاني نحو قصر أبي دانس وضربوا عليه الحصار وذلك في أوائل سنة٦١٤هـ/١٢١٧م[1].

---

١) الحلة السيراء، ٢٧٣/٢.

٢) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٩٥/٢.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٨/٣.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٨/٤.

١) أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢٠٥ -٢٠٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٨/٤.

عندها أرسل حاكمها أبو محمد عبدالله بن وزير يطلب النجدة من الموحدين فبعث الخليفة المستنصر الموحدي(٦١٠-٦٢٠هـ/١٢١٣-١٢٢٣م) إلى ولاة الموحدين في قرطبة وجيان Jaen وإشبيلية وبقية مدن غرب الأندلس بالإسراع لنجدة قوات قصر أبي دانس ، فسارت الجيوش الموحدية براً فيما سارت قوات أخرى بحراً لفك الحصار عن المدينة ، ودارت حول مدينة قصر أبي دانس معركة كبيرة انهزم فيها المسلمون ، وأرجع ابن الابار سبب الهزيمة بقوله: نازل الإفرنج قصر أبي دانس(وتغلبوا عليه في جماد الأولى سنة أربع عشرة وستمائة ، بعد وقيعة هناك فقد فيها الآلاف من المسلمين ، بتخاذل رؤسائهم يوم التقى الجمعان)[١] ، وعزا ابن أبي زرع هزيمة المسلمين إلى ما حلّ بهم من الرعب والخذلان بعد هزيمة العقاب بقوله-: كان العدو قد نزل(قصر أبي دانس وحاصره فخرج جيش إشبيلية وجيش قرطبة وجيش جيان وجنود بلاد غرب الأندلس بأمر أمير المؤمنين يوسف المنتصر — المستنصر- لاعانته واستنقاذه فساروا نحوهم فلم تجتمع العين بالعين إلا والمسلمون قد خامر قلوبهم الرعب وولوا الأدبار وأخذوا في الفرار لما سبق لهم من الرعب في هزيمة العقاب ، لأن العدو كان قد تكالب وقوى واستأنس ، فركبهم بالسيف وقتلوهم عن آخرهم ورجع الفونسو الثاني ملك البرتغال إلى قصر أبي دانس فحاصره حتى دخله بالسيف فقتل كل من به من المسلمين)[٢].

كما علق الحميري على الهزيمة بقوله :(كانت الوقيعة على المسلمين للروم في سنة أربع عشرة وستمائة ، وأعانهم أهل الأشبونة وغيرها من مملكة ابن الرنق ، فأخذوا في نقب الأرض تحت الحصن إلى أن أفضوا إلى السور ، وأفضى الناس إلى الهلكة ، وبلغ الأمر إلى الولاة الذين في غرب الأندلس: اشبيلية وقُرطُبة وجيان فتجهزوا لدفاع العدو ، وجاء منهم جيش عظيم لكنهم تخاذلوا على عادتهم ، فكانت الهزيمة عليهم وولوا منهزمين ، ووقع القتل والأسر ولم يبرز للمسلمين من الروم إلا نحو سبعين فارساً ، ورأى أهل الحصن ذلك فأيقنوا بالتغلب عليهم)[١].

---

١) الحلة السيراء، ٢/٢٩٥.

٢) الأنيس المطرب، ص ٢٤٢ -٢٤٣ ؛ ينظر أيضاً : السلاوي، الاستقصا، ٢/٢٢٧.

١) الروض المعطار، ص ٤٧٥.

وقد عزا النصارى سبب انتصارهم إلى المشيئة الإلهية قال أشباخ : ونسب النصارى نصرهم في تلك الموقعة إلى معونة فرقة من الملائكة في صفة الفرسان كانوا يقاتلون إلى جانبهم في ثياب بيض[1].

بعد هزيمة الجيوش الموحدية تحصن حاكم مدينة قصر أبي دانس داخل حصن المدينة فضرب الفونسو الثاني عليه الحصار وعلى الرغم من شدة الهجوم إلا أنه تمكن من المقاومة ، فلما رأى النصارى عدم تمكنهم من اقتحام الأسوار نصبوا برجين عاليين وضربوا المدينة منهما فلما أيقن ابن وزير وقواته أن لا أمل بالصمود بسبب تفرق القوات الموحدية عنه عرض عليهم التسليم على أن يخرج أهل المدينة بأموالهم فرفض النصارى ذلك ووافقوا أن يسمحوا لهم بالخروج أحياء من دون أن يحملوا شيئاً ، وسلمت المدينة بعد شهرين ونصف من بدء الحصار ، وسلم قائدها وهو عبد الله بن وزير نفسه للنصارى ، وتظاهر باعتناق النصرانية طلباً للسلامة ولكنه تمكن بعد أيام من الفرار ، ولجأ فيما بعد إلى مدينة إشبيلية ، ودخل النصارى على مدينة القصر أو قصر أبي دانس ، وقتلوا كل من كان فيها من المسلمين[2].

أما عن تاريخ هذه الوقعة فإن ابن أبي زرع ذكر أن هزيمة الجيوش الموحدية كانت سنة٦١٤هـ/١٢١٧م أما دخول البرتغاليين لحصن المدينة فكان سنة٦١٥هـ/١٢١٨م[3] ، فيما ذكر ابن الابار أن الهزيمة الأولى كانت في أحد الربيعين من سنة٦١٤هـ/١٢١٧م[4] ، ودخول حصن المدينة وأسر قائدها ابن وزير كان في جمادي الأولى سنة٦١٤هـ/١٢١٧م[1] ، فيما ذهبت الرواية النصرانية إلى أن الوقعة كانت في١٠ سبتمبر١٢١٧م/٦١٤هـ ، وبعد ستة أسابيع تمكنوا من دخول الحصن أي في٢١ أكتوبر ١٢١٧م[2].

---

١) تاريخ الأندلس، ص ٢٠٥.

٢) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٩٥/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٤٠/٤.

٣) الأنيس المطرب، ص ٢٤٣، ٢٧٣ ؛ الذخيرة السنية، ص ٥٠، ٥١.

٤) التكملة، ١٠٧/٢ ؛ ينظر أيضاً : ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٤٥١/٤.

١) الحلة السيراء، ٢٩٥/٢.

٢) أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢/ ٢٠٥.

كانت خسائر المسلمين فيها كبيرة جداً وصداها واسعاً وذلك لأهمية موقع مدينة قصر أبي دانس كونها ثغر حال دون تقدم البرتغاليين نحو الجنوب ، فذكر ابن الابار أن المسلمين فقدوا فيها الآلاف قال: (وهي إحدى الكوائن المنذرة حينئذ بما آل إليه أمر الأندلس الآن)[1] ، وذكر ابن أبي زرع أن العدو قتل من المسلمين في قصر أبي دانس أمم لا تحصى[2] ، كما وصفها بأنها(من الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب)[3] ، وقال في مكان آخر: (هزم المسلمون بقصر أبي دانس من بلاد غرب الأندلس واستشهد في هذه الكائنة من المسلمين ما يزيد على ستة عشر ألفاً)[4] ، والغريب أن ابن عذاري على الرغم من اهتمامه بأخبار الموحدين وشهرة هذا الحدث إلا أنه عندما أتى على أحداث سنتي ٦١٤—٦١٥هـ/١٢١٧–١٢١٨م قال: (ولم أتحقق خبراً أذكره في سنة أربع عشرة وخمس عشرة)[5].

ولأهمية مدينة قصر أبي دانس بالنسبة للأندلس فقد شارك في الدفاع عنها عدد من العلماء الذين استشهدوا في تلك الوقعة منهم : المحدث محمد بن عبد النور بن أحمد الشيباني الإشبيلي المكنى أبا بكر ، كان صالحاً زاهداً متواضعاً ، وكان كثيراً ما يحضر الغزوات ويبلي فيها البلاء الحسن[6] ، كذلك المحدث أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري الإشبيلي كان محدثاً خيراً فاضلاً خرج مجاهداً واستشهد في وقعة قصر أبي دانس سنة٦١٤هـ/١٢١٧م[1] ، وهكذا سقطت مدينة قصر أبي دانس بعد أن حكمها المسلمون حوالي٥٢١ سنة.

---

١) الحلة السيراء، ٢/٢٩٥.

٢) الأنيس المطرب، ص ٢٧٣.

٣) الأنيس المطرب، ص ٢٤٢.

٤) الذخيرة السنية، ص ٥٠.

٥) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٦٦.

٦) ابن الابار، التكملة، ١٠٧/٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٤٤٩ -٤٥١ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤٢١/١٣.

١) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٥٤٦/١.

مدينة باجة Beja الأندلسية

(٩٤ -٦١٥هـ/ ٧١٢ -١٢١٨م)

هناك أكثر من موضع يدعى باجة[١] ، أما باجة الأندلس فهي إحدى مدن الغرب الأندلسي ، وهي مدينة أزلية قديمة قيل إنها من بناء يوليوس قيصر هو سماها باجة وتفسيرها في لغتهم الصلح[٢] ، وقيل السلم[٣] ، وقيل سماها باجة باسم ابنته[٤] ، وتقع في بلاد الجوف غربي قرطبة ومتصلة بأعمال ماردة[٥] ، وصفها ابن غالب بقوله: (كورة باجة تتصل بكورة ماردة وهي ارض زرع وضرع ونوارها يحسن للنحل ويكثر عنه العسل ، لمائها خاصية في دبغ الأديم لا يبلغه دباغ في الجودة ، وخطتها واسعة ، ولها مدن ومعاقل وأقاليم)[٦].

أما المسافات بينها وبين مدن الأندلس الأخرى ، فبينها وبين ماردة للراكب ثلاثة أيام[٧] ،وبينها وبين قرطبة مائة فرسخ[٨] ، وبينها وبين قورية ستة أيام ، وبينها وبين شنترين اثني عشر يوماً[٩] أما فتحها فكان من جهة موسى بن نصير عندما عبر إلى

١) منها باجة بإفريقية تدعى باجة القمح وتسمى هري باجة بينها وبين طبرق مرحلة وبينها وبين البحر مرحلتان، ينظر : البكري، المسالك والممالك، ٧١٨/٢ ؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص ١٦٠ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢٩٠/١ ؛ أما باجة المغرب فهي على مرحلة من سوق إبراهيم الواقع على نهر شلف، ينظر : الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢٥١/١ ؛ وباجة الصين فهي مدينة ملك الصين وإليها ينتهي المسافرون العرب، ينظر : الإدريسي، نزهة المشتاق، ٨٤/١ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٧٥.

٢) ينظر : الحميري، الروض المعطار، ص ٧٥ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٣ -١٠٤

٣) الرشاطي، الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ١٠٧.

٤) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٤.

٥) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٤.

٦) فرحة الأنفس، ص ٢١.

٧) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢١ ؛

٨) الحميري، الروض المعطار، ص ٧٥.

٩) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٧.

الأندلس سنة٩٣هـ/٧١١م فتقدم إلى شذونة ثم إلى قرمونة ومنها إلى إشبيلية فلما فتحها هرب من بها من القوط إلى باجة ولبلة واتجه موسى إلى ماردة وفتحها في رمضان سنة ٩٤هـ/٧١٢م ، وفي ذلك الأثناء رجع القوط الفارين إلى إشبيلية وقتلوا المسلمين بها فأرسل موسى ابنه عبد العزيز الذي تمكن من إعادة فتح إشبيلية ثانية[1] ، فلما فرغ من الثائرين سار عبد العزيز إلى لبلة ففتحها[2] ، أما باجة فلم يرد كيف تم فتحها ولكن المقري ذكر أن عبد العزيز بعد أن فتح لبلة(استقامت الأمور فيما هنالك ، وعلا الإسلام)[3] ، وأضاف إلى أن أحد العرب المدعو عبد الجبار بن سلمة الزهري دخل مع جيش موسى وكان على ميسرته وهو من نزل باجة[4] ، مما يرجح أن القائد عبد الجبار الزهري هو من تولى فتحها أما بأمر من موسى أو ابنه عبد العزيز وأن ذلك كان في سنة٩٤هـ/٧١٢.

ومن الأحداث المهمة التي شهدتها مدينة باجة ثورة عروة بن الوليد المعروف بالذمي سنة١٢٩هـ/٧٤٦م في ولاية يوسف بن عبدالرحمن الفهري[5] ، وفي عهد الأمير عبدالرحمن الداخل ثار العلاء بن مغيث اليحصبي في باجة سنة١٤٦هـ/٧٦٣م ودعا للعباسيين[6] ، وفي عهد عبد الرحمن الأوسط(٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢١-٨٥٢م) ثار محمود بن عبد الجبار المصمودي وسيطر على مناطق من الغرب الأندلسي ومنها باجة في سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م واستمرت حتى سنة٢٢٥هـ/٨٣٩م[7] ، وخلال عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨-

---

١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٥ -٢٦.
٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧١/١.
٣) نفح الطيب، ٢٧١/١.
٤) نفح الطيب، ٦٤/٣.
٥) ينظر عن ثورة عروة الذمي : ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٧٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣٨/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٦/٣.
٦) ينظر التفاصيل عن ثورة العلاء اليحصبي : ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٥٤ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٩٣ -٩٥ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٩٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥١/٢ -٥٢.
٧) ينظر عن ثورة عبد الجبار المصمودي : ابن حيان، المقتبس(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/٧٩٦ -٨٤٦ م) ص ٤٣٦ -٤٤٥ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٦٦ -١٦٧ ؛ حسين، ثورات البربر في الأندلس، ص ٣٥ -٣٨.

٢٧٣هـ/٨٢١-٨٨٦م) وابنه عبدالله بن محمد(٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م) شغلت منطقة الغرب الأندلسي ومنها باجة بثورة المولدين وعلى رأسهم عبد الرحمن بن مروان الجليقي[١] حتى تمكن عبدالرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) من القضاء عليهم وإخضاعهم للطاعة ، وكان دخول عبد الرحمن الناصر إلى باجة سنة٣١٧هـ /٩٢٩م[٢].

وبسبب قوة الدولة خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كانت مدينة باجة تنعم ببعض الهدوء ، وفي عهد دويلات الطوائف كانت مدينة باجة منطقة للصراع بين أمراء الطوائف لاسيما بني الأفطس وبني عباد ، ففي بداية الأمر كانت باجة ضمن نفوذ بني الأفطس ثم تمكن ابن عباد من انتزاعها منهم سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م[٣] واستمرت حتى دخول المرابطين وقضائهم على إمارة بني عباد سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م وعلى إمارة بني الأفطس سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥ م[٤].

وفي أواخر عهد المرابطين شهدت الأندلس قيام ثورات عديدة ، وكان من زعماء الثورة في غرب الأندلس سيدراي بن عبد الوهاب بن وزير القيسي الذي تمكن من التغلب على الساحل والغرب ثم دخل في صراع مع ثائر آخر في غرب الأندلس وهو أحمد بن الحسين بن قسي في شلب سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥م ، إلا أن الثائرين بعد انضمامهما إلى الموحدين اتفقا على محاربة المرابطين وتمكنا من دخول إشبيلية[٥] كما دخلت في حوزتهم العديد من مدن الغرب الأندلسي ومنها باجة[٦].

إن ما حدث من ثورات في معظم مناطق الأندلس وبالأخص في الغرب أعطى

---

١) ينظر التفاصيل عن ثورة الجليقي في ماردة : ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/٨٨٨ - ٩١٢م) ص ٣٢ -٣٣ ؛ أبو الخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص ١٧٢ -١٧٦ ؛ سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية، ص ٢٨٩ -٣٢٨.

٢) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/٩١٢ -٩٤١م) ص ٢٣٨ -٢٤١، ٢٧١.

٣) ينظر عن الصراع بين بني الأفطس وبني عباد على باجة : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥/٢، ٣٦، ٤٤، ٨٣، ١٥٠.

٤) سالم، تاريخ بطليوس، ١٢٢/٢ -١٣٢.

٥) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٧١/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣١٢/٦ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٧٠ -٧٥

٦) أشباخ، تاريخ الأندلس ،٢١٧/١.

فرصة ذهبية لملك البرتغال الطموح الفونسو هنريكيز(٥٢٢-٥٨١ هـ/١١٢٨-١١٨٥ م) في توسيع نفوذه والاستيلاء على المزيد من المدن في غرب الأندلس والتي بقيت فريسة سهلة بيده بعد أن انهارت الجيوش المرابطية في المغرب على أيدي الموحدين وفي الأندلس على أيدي الثوار وبقيت تلك المدن تقاوم بإمكانياتها الذاتية وبدافع الجهاد في سبيل الله دون أي دعم سياسي أو عسكري من دولة تجمعهم ، أو خارجي ، من دولة تساندهم ، فقام بمهاجمة بعض فلول المرابطين على نهر تاجة وأوقع بهم هزيمة في معركة أوريك[١] ، ثم واصل زحفه تجاه مدن الغرب الأندلسي وكانت مدينة لشبونة الهدف الأول له وذلك لموقعها المهم على مصب نهر تاجة وحصانتها ولكونها أحد أهم معاقل المسلمين في المنطقة[٢] وتمكن من احتلالها سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م[٣].

وبخصوص مدينة باجة فقد أشار ابن الأثير إلى أن النصارى تمكنوا من احتلالها سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م ، إذ قال :(وفيها ملك الفرنج ، لعنهم الله ، مدينة شنترين ، وباجة ، وماردة ، وأشبونة ، وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس ، وكانت للمسلمين)[٤] وإذا صحت هذه الرواية فإن ذلك كان ذلك السقوط الأول لباجة بيد نصارى البرتغال.

وعند تتبع الأحداث حتى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م نرى أن سيدراي بن وزير المتغلب في بطليوس وباجة وبعض مدن الغرب الأندلسي قد دخل في طاعة الموحدين منذ سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م وقد أشار ابن عذاري إلى ذلك بقوله: إنه لما جاز عسكر الموحدين إلى إشبيلية ثم إلى لبلة ثم إلى شلب ثم نهضوا إلى باجة(فأطاع سدراي بن وزير وخرج إلى الموحدين فأدخلهم باجة على أيمن حال ، وطاع جميع أهل الغرب والجوف من الأندلس)[٥] ، وهذا

---

١) السامرائي وآخرون، تاريخ، ص ٢٥٦. العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٢٧.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/٢٤.

٣) انظر عن اقتحام لشبونة : الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٦٠ -٤٦١. أشباخ، تاريخ الأندلس، ١/٢٣٥ -٢٣٦. العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٢٨ -١٢٩.

Paiter , History , P. 194.. Payne , History of Spain and Portugal , P , 119 . Barton, Leon and Castile and the struggle against Islam , P.

٤) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٦٢.

٥) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٥.

يعني أن باجة كانت قد دخلت في حوزة الموحدين في سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م ، ولعل النصارى لم يمكثوا فيها طويلاً إذ فضلوا الانسحاب عندما علموا بتوجه قوات الموحدين إليها

والراجح أن مدينة باجة بقيت بيد المسلمين حتى أواخر سنة٥٥٧هـ/١١٦١م ، إذ أشار ابن أبي صاحب الصلاة إلى أن نصارى شنترين غدروا بمدينة باجة فدخولها وسكنوها (أربعة أشهر وثمانية أيام ، ثم هدموا أسوارها وأقفروها)[1] ، كما أشار ابن الابار إلى ذلك عند ترجمته لأحد أعيان باجة المدعو أحمد بن إسماعيل بن يوسف بن صاحب الصلاة بقوله: (استشهد عند باب الجامع في غدر العدو بلده وذلك ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وخمسين وخمسمائة)[2] ، وهو ما دفع الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي(٥٢٤-٥٥٨ هـ/١١٢٩-١١٦٢ م) إلى الاستعداد والتجهز للجهاد في الأندلس إلا أن المنية وافته قبل أن يحقق ذلك[3].

وعلى الرغم من تهديم مدينة باجة من قبل النصارى إلا أنهم أعادوا الكرة عليها سنة٥٦٨هـ/١١٧٢م ودخلوها بعد أن فرّ عاملها الموحدي المدعو عمر بن سحنون وقتلوا وأسروا الكثير من أهلها ثم غادرها بعد خمسة أشهر بعد أن تركها قاعاً صفصفاً وهاجر معظم أهلها في أعقاب هذه الحادثة[4] ، فكان ذلك السقوط الثاني لها بيد النصارى ، ويعزو ابن عذاري سبب ما حلّ في باجة ومدن الساحل الغربي من نكبات إلى خلع سيدراي بن وزير والي باجة وبقية مدن الساحل ومجيء ولاة غير كفوئين من الموحدين مثل عمر بن تيمصلت التينملي الذي وصفه ابن عذاري بقوله: (كان قصير القامة صغير الهامة كوسجاً أعرج لا يفهم ولا يُفهم ، فدخلها في أشأم طالع وأعظم محنة لسامع ، واتصل به سفالها فقربهم لنفسه وأدناهم من محل مجلسه ، التباغض بين عامتها وخاصتها... واستخلص عمر بن سحنون المذكور وزيراً لنفسه وسميراً لأنسه رجلاً بدوياً من سفال باجة فجرأه على سفك الدماء وأخذ أموال الناس بالباطل وضربهم بالسياط على اقل الأشياء... ورفع أبو محمد بن

---

١) تاريخ المن بالإمامة، ص ٣٦٩.

٢) التكملة، ٦١/١.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٧٩.

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٢٧.

وزير بعد ذلك رفعاً إلى الخليفة وقال: إن لي بباجة أصهاراً وهم بنو صاحب الصلاة وبنو الأنصاري ورغب أن يأذن لهم في الخروج عن باجة إلى إشبيلية ، فخرجوا عنها بما خف من أموالهم ودخلوا إشبيلية يوم الخميس الخامس وعشرين لجمادي الآخرة من عام سبع وستين وخمسمائة)[1] ، وهكذا كان نتيجة ظلم ولاتها أن غادرها معظم سكانها وعلى رأسهم بنو الوزير رهط الوالي السابق سيداري بن وزير وتقدموا بطلب إلى الخليفة الموحدي بترك البلاد والخروج إلى إشبيلية ، ثم رفع سيدراي بن وزير إلى الخليفة يعزو فيها ما حدث في باجة والساحل إلى الوالي ابن سحنون فأمر الخليفة بقتله إلا أنه فرّ ولم يقبض عليه[2].

أما النصارى فإنهم انسحبوا منها-كما مرّ أعلاه-بعد خمسة أشهر ، إذ أشار ابن عذاري إلى ذلك بقوله: (ولما أخذ ابن الرنك اللعين ودخلها عاين كبرها وأنها لا يمكن امتناعها لاتساعها فأخلاها وحرقها وهدم سورها وأسر أهلها)[3] ، فكان هذا السقوط الثالث لها.

ثم أمر الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن(٥٥٨-٥٨٠ هـ/١١٦٢-١١٨٤م) بإعادة بناء مدينة باجة ، وفي ذلك أشار ابن عذري بقوله: (وكان أمير المؤمنين قد علم قدم باجة وإنها قاعدة الغرب وبما جرى فيها من النوائب والكرب فنظر بنور الله في إسكانها وإسكان الحصون المجاورة لها)[4].

ومن أجل تنفيذ ذلك الأمر أرسل إلى وجهاء أهل باجة الذين غادروها وتفرقوا في البلاد بالاجتماع بهم في إشبيلية وكان ذلك في ربيع الآخر سنة٥٧٠هـ/١١٧٤م وبعد المداولة قال لهم: (تمشون إن شاء الله إلى بلدكم وتسكنونها بعد نظرنا لكم فر زوال روعكم والتئام صدعكم ، ويرجع جند أهل بلدكم ورعيتها ، وأهل تلك الحصون المجاورة لكم الاستيطان بها كما كنتم ونتبعهم إثر هذا بقبيل من الموحدين المنجدين بفرسانهم ورجالهم يسكنون معكم بأولادهم وعيالهم... وانصرفوا شاكرين بعد أن ولى عليهم أبا بكر بن وزير... وخرج أهل باجة

---

١) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٢٨ -١٢٩.
٢) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٢٨ -١٢٩.
٣) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٢٩.
٤) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٣٢.

في الحادي والعشرين من الشهر المذكور ووصلوا إلى باجة يوم الخميس غرة جمادي الأولى فعاينوا منها الدمار وأنكروا الأوطان والديار… بل والله تهدمت بتداول الأيام وعدوانها ، وتفرق أهلها وسكانها ، وتحكم الكفرة في أوطانها ، وعند دخولهم إليها مشى كل واحد منهم إلى داره وموضع قراره فأبصروا ما يشيب له الوليد أسفاً ويبكي عليه الجماد لهفاً قد حرق منها الدور ومزق المعمور… ولما كان يوم الأربعاء السابع من جمادي الأولى من سنة سبعين المؤرخة وصل عمر بن تيمصليت من شلب وغيرها بخمس مائة رجل من الحشد والبنائين واستاقوا قواتهم في شهر كامل وجميع ما يحتاج إليه من آلة البناء واتصل العمل والاجتهاد في بناء السور إلى آخر الشهر المذكور وعاد ابن تيمصليت أيضاً إلى شلب)[1].

وعلى الرغم من إعادة المدينة ورجوع معظم سكانها وحشدها بالجيوش الموحدية للدفاع عنها وبناء سورها فإن خلاف حدث بين واليها ابن وزير وبعض سكانها فرفع أعيان باجة إلى الخليفة الموحدي بإعادة عمر بن تيمصليت والياً عليهم فاستجاب الخليفة لرغبتهم فهدأت الأوضاع في المدينة وعادت إليها الحياة وحرثوا الناس أرضهم وبنوا رباعهم[2].

إلا أن أهل باجة لم يهنئوا كثيراً بالهدوء فقد قام الملك البرتغالي الفونسو هنريكيز في سنة٥٧٣هـ/١١٧٧م بمهاجمة مدينة باجة وكاد أن يحتلها إلا أنه فشل في ذلك فانسحب عنها بعد أن أفسد زروعها ، واتجه جنوباً ، وفي ذلك الأثناء قام والي باجة عمر بن تيمصليت بمهاجمة النصارى في قصر أبي دانس في محاولة منه لاستعادة المدينة البحرية المواجهة لباجة والتي كانت قد سقطت في أيديهم سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م ، إلا أن والي باجة انهزم إمام النصارى فانهزم وقتل عدد من رجاله ، وعندما وصل الخبر إلى أهل باجة خافوا على أنفسهم وفروا منها بأموالهم إلى مدينة مرتلة وذلك في محرم من سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م ، وقد علق ابن عذاري على تلك الأحداث بقوله: (نكث العهد اللعين ابن الرنك وخرج بجمعه إلى باجة ونازلها عام ثلاثة وسبعين وبقي عليها أياماً وأفسد زروعها حتى كاد أن يتغلب عليها ، ثم أقلع عنها ووصل جهة إشبيلية ودخل قرية طريانة ، وتغلب وحرق القطائع في وادي إشبيلية وانصرف

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٣٢ -١٣٣.
٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٣٤.

فوجد باجة البائسة قد أفقرها أهلها وخرجوا منها بأولادهم وعيالهم وتفرقت جميع أموالهم وفروا على وجوههم إلى مرتلة)[١].

وحسب الرواية النصرانية فإن الجيش النصراني كان بقيادة ابن الفونسو هنريكيز وإنه بعد أن هزم الموحدين في طريانة رجع إلى باجة وهزم الموحدين فيها وبذلك دخلت باجة بحوزتهم وذلك سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م[٢] ، فكان ذلك السقوط الرابع لها بيد النصارى.

والراجح أن غزوة شنترين التي قادها الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف سنة٥٨٠هـ /١١٨٤م ثم هزيمتهم فيها ومقتل الخليفة[٣] لم تؤثر على الوضع في باجة إذ استمر تواجد النصارى بها ، وقد شجعهم هزيمة الموحدين في شنترين على مهاجمة قواعد الغرب الأندلسي الأخرى فكانت شلب بعد باجة إذ تمكن الملك البرتغالي سانشو الأول(٥٨١-٦٠٩هـ/١١٨٥-١٢١٢م) من الاستيلاء عليها بمساعدة قوات صليبية وذلك سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩م[٤].

بقيت مدينة باجة بيد البرتغاليين حتى جمادي الأولى من سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م عندها عزم الخليفة المنصور الموحدي(٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٨م) على استرجاع مدن الغرب الأندلسي من أيدي نصارى البرتغال فسار بقواته إلى قصر أبي دانس وتمكن من إعادة فتحها ثم تقدم إلى شلب وتم طرد الجيش البرتغالي منها وذلك سنة٥٨٧هـ/١١٩١م ثم عاد إلى إشبيلية[٥] ، وفي رواية ابن أبي زرع أن الذي قام بفتح شلب وباجة ويابرة وقصر أبي دانس هو والي قرطبة الموحدي محمد بن يوسف بقوله: إن المنصور(كتب إلى قواد الأندلس يوبخهم ويأمرهم بغزو بلاد الغرب ويعلمهم أنه قادم عليهم في إثر كتابه ، فاجتمع قواد الأندلس إلى محمد بن يوسف والي قرطبة ، فخرج بهم في جيش عظيم من الموحدين والعرب والأندلس حتى نزل شلب فحاصرها وشد عليها القتال حتى فتحها وفتح قصر أبي

---

١) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٣٤.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٩٨/٤.

٣) ينظر التفاصيل عن غزوة شنترين : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٥٩ -١٦٤.

٤) ينظر التفاصيل عن الاستيلاء على شلب : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٧٠/٤ -١٧٤.

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢١٠ -٢١٢.

دانس ومدينة باجة ويابورة ورجع إلى قرطبة ، فدخلها بخمسة عشر ألف سبية وثلاثة آلاف أسير من الروم ، وأدخلهم في القطائن بين يديه ، وجعل خمسين علجاً في كل قطينة ، وذلك في شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة)[1] ، وعلق عنان على هذه الرواية بقوله: وهي رواية ظاهرة الضعف والخلط ، خصوصاً وأنها تغفل ذكر المنصور بالمرة وتنسب لغيره قيادة هذه الغزوة[2] ، والراجح أن تداخل في الأحداث في رواية ابن أبي زرع فهو نسب استرجاع مدن الغرب الأندلسي إلى والي قرطبة ، وفي رواية ابن عذاري أعلاه أن الخليفة المنصور الموحدي هو من أعاد فتح قصر أبي دانس وشلب ثم رجع ، ويبدو أنه بعد رجوعه كلف والي قرطبة الموحدي محمد بن يوسف لاستكمال المهمة وفعلاً قام الأخير بفتح مدينة باجة ويابرة من أيدي النصارى عندئذ يمكن أن تستقيم الروايتين ، وعليه فقد رجعت مدينة باجة إلى سلطان المسلمين بعد أن بقيت بيد البرتغاليين حوالي ثلاثة عشر سنة.

وبعد هزيمة الموحدين في موقعة العقاب Las. Navas de Tolosa سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م لم يعد في مقدور الدولة الموحدية حماية الثغور الأندلسية من هجمات النصارى ، فكانت موقعة العقاب ضربة قاضية ، لقوى الموحدين في الأندلس والمغرب ، ولم يمض على وقوعها سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى تسقط تباعاً في أيدي النصارى في وابل من المحن المؤلمة[3] ، وبالنسبة للغرب الأندلسي كانت أولى النكبات التي حلت بهم بعد موقعة العقاب هي سقوط قصر أبي دانس بيد البرتغاليين وبمساعدة قوات صليبية سنة٦١٤هـ/١٢١٧م[4].

أما مدينة باجة فلم تشر المصادر المتوفرة إلى تاريخ سقوطها ، فقد أشار عنان إلى أن باجة سقطت بيد البرتغاليين سنة٥٥٦هـ/١١٦٠م بقيادة ملكهم الفونسو هنريكيز في الوقت

١) الأنيس المطرب، ص ٢١٩ ؛ ينظر أيضاً : السلاوي، الاستقصا، ١٨٤/٢.

٢) دولة الإسلام في الأندلس، ١٨٩/٤.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٨/٣.

٤) ينظر عن سقوط قصر أبي دانس : ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٩٥/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٧٥ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٤٢ -٢٤٣ ؛ السلاوي، الاستقصا، ٢٢٧/٢ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ٤٥١/٢.

الذي هاجم فيه مدينة بطليوس ثم استرد المسلمون بطليوس واحتفظ النصارى بباجة[1] ، إلا أن المصادر لم تؤيد ذلك فقد مرّ بنا إلى أن الخليفة المنصور الموحدي تمكن من استرجاعها سنة٥٨٧هـ/١١٩١م ، وأشار المراكشي عند كلامه عن المدن التي سقطت بيد النصارى قبل سنة٦٢١هـ/١٢٢٤م بقوله: (وفي الحد المغربي الذي هو ساحل البحر الأعظم أقيانس ، مدن أيضًا ، منها: مدينة الأشبونة ، وشنترين ، وباجة ، وشَنْتَرة ، وشَنْت ياقُو ، ومدينة يابُرَة ، ومدن كثيرة ذهبت عني أسماؤها ، يملكها رجل يعرف بـ ابن الريق ، لعنه الله)[2] ، والراجح أن مدينة باجة سقطت بيد الملك البرتغالي بعد سقوط مدينة قصر أبي دانس بيده سنة٦١٤هـ/١٢١٧م ، وذلك لأن والي باجة وقصر أبي دانس وعدد من مناطق غرب الأندلس آنذاك كان عبد الله بن محمد بن وزير الذي أسره البرتغاليون في معركة قصر أبي دانس وبعد تخلصه منهم لم يرجع إلى ولايته بل توجه إلى مراكش[3] ، ما يعني أن مدينة باجة خرجت هي عن سيطرته ، والراجح أن السقوط النهائي لمدينة باجة كان في حدود سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨م وهي السنة التي حددها ابن أبي زرع لدخول البرتغاليين حصن قصر أبي دانس والقضاء على جميع المقاومة الإسلامية فيه[4] ، وقد أشار عنان في كتابه الآخر إلى أنه بعد سقوط هذا الثغر المنيع(أي أبي دانس) ، أصبح الطريق مفتوحاً أمام البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين نحو الجنوب فساروا نحو باجة وميرتلة[5] ، وهكذا سقطت مدينة باجة بعد أن حكمها المسلمون ٥٢١ سنة.

---

١) الآثار الأندلسية الباقية، ص ٤٠٧.

٢) المعجب، ص ٢٦٥.

٣) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢/٢٩٥.

٤) الأنيس المطرب، ص ٢٤٣، ٢٧٣ ؛ الذخيرة السنية، ص ٥١.

٥) دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٣٤٠.

مدينة قيجاطة Quesada الأندلسية
(٩٢ -٦٢٢ هـ/ ٧١٠ -١٢٢٥ م)

ورد اسم المدينة في المصادر بألفاظ مختلفة بعض الشيء ، فجاءت بلفظ قيجاطة[١] ، وقيشاطة[٢] ، وقبحاطة[٣] ، قيجيطة[٤] ، وبنجيطة[٥] ، ويبدو أن الاختلاف في الألفاظ كان لاختلاف النقل من اللغة الاسبانية إلى العربية أو حدوث تصحيف عليها ، وقد اندثرت المدينة بعد ذلك وبقي اسمها دالاً على سلسلة من الجبال تنسب إليها تسمى Sierra Quesnda[٦].

تعد قيجاطة من عمل جيان Jaen[٧] ، وقد أشار إلى ذلك الحميري بقوله: (مدينة بالأندلس من عمل جيان ،...)[٨].

وقد عدها مؤلف مجهول من مدن متوسطة الأندلس بقوله: (وأما مدن المتوسطة مثل شريش وقرمونة وبسطة وطليطلة وأبدة وبياسة وباجة وقيجاطة...)[٩].

وتقع مدينة قيجاطة إلى الجنوب الشرقي من جيان وشمالي شرقي مدينة بسطة Baza وجنوبي شرقي مدينة أبذةUbada ، وهذه المنطقة هي عبارة عن حصون متصلة بعضها ببعض وصفها الإدريسي بقوله: (... ، فمن ذلك أن بشرقي جيان وقبالة

---

١) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٨٨.

٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٩/٢ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣٩.

٣) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢١١

٤) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/٧٦٩ -٨٤٦ م)، ص ٩٤.

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ٧٠/٢.

٦) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/٧٦٩ -٨٤٦ م)، ص ٤٦٨ التعليق(٩) لمحمود علي مكي.

٧) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢١١.

٨) الروض المعطار، ص ٤٨٨ ؛ ينظر أيضاً:أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٧٧ ؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٣٢١.

٩) تاريخ الأندلس، ص ٤٥.

بياسة حصناً عظيماً يسمى شوذر وإليه ينسب الخلاط الشوذري ومنه في الشرق إلى حصن طوية اثنا عشر ميلاً ومنه إلى حصن قيشاطة...)[1] وحصن قيجاطة يتوسط مدن جنوبي شرقي قرطبةCordoba ، إذ حدده الإدريسي بقوله: (... ، وبين جيان وهذا الحصن – أي قيجاطة– مرحلتان[2] ومنه إلى وادي آش مرحلتان ومنه إلى أغرناطة مرحلتان ومن وادي آش المتقدم ذكرها إلى أغرناطة أربعون ميلاً)[3].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة إلى كيفية وتاريخ فتح مدينة قيجاطة ، والراجح أنها فتحت أثناء فتح المسلمين لكورة جيان كونها من توابعها ، فبعد انتصار المسلمين بقيادة طارق بن زياد على ملك القوط الغربيين Visigoths لوذريق في معركة وادي لكة Rio Guudalete في شوال من سنة٩٢هـ/٧١٠م سار طارق شمالاً نحو طليطلة Toledo عاصمة القوط الغربيين وترك فرقاً من قواته لفتح ما تبقى من المناطق التي تجمع فيها القوط وهي قرطبة والبيرة Elvia ومالقة Malaga وتدميرTudmir ، وتمكن المسلمون من فتح هذه المناطق بأكملها[4].

أما كورة جيان الواقعة إلى الشرق من قرطبة والتي يمر بها الطريق الروماني القديم والذي يدعى هانيبال ، فإن طارقاً بعد أن عبر نهر الوادي الكبير تقدم شمالاً سالكاً ذلك الطريق ، وقد أشار المقري إلى ذلك بقوله: إن طارق بعد بعثه بعضاً من جيوشه إلى مناطق شرق الأندلس(سار هو في معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة)[5] ، وهذا يعني أن جيان وتوابعها بما فيها مدينة قيجاطة قد فتحت على يد طارق بن زياد وهو في طريقه إلى طليطلة.

والراجح أن ذلك كان في أواخر سنة٩٢هـ/٧١٠م ، لأن معركة وادي لكة التي انهزم

---

١) نزهة المشتاق، ٥٦٩/٢.

٢) المرحلة تساوي أربعة وعشرين ميلاً، ينظر : الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، ٥٢٢/١، والميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.

٣) نزهة المشتاق، ٥٦٩/٢.

٤) للمزيد من التفاصيل حول هذه الفتوحات ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ -٢٢ ؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٤٧ وما بعدها ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٦٤/١ -٢٦٥.

٥) نفح الطيب، ٢٦١/٢.

فيها القوط الغربيين كانت كما قال المقري: (يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعد تتمة ثمانية أيام)[1] وكان فتح قرطبة في شوال من السنة نفسها[2] ، ووصل إلى مدينة طليطلة في أوائل سنة ٩٣هـ/٧١١م[3] ، وهذا يعني أن دخول جيان وتوابعها بما فيها مدينة قيجاطة تحت سيطرة المسلمين قبل هذا التاريخ ، أي خلال المدة بين شوال وذي الحجة من سنة٩٢هـ/٧١٠م.

إن من أوائل الأحداث المهمة التي حدثت في مدينة قيجاطة هو الصراع بين الأمير الحكم بن هشام(١٨٠-٢٠٦ هـ/٧٩٦-٨٢١م) وعمّه سليمان بن عبدالرحمن الأول إذ رفض الأخير الاعتراف بحكم ابن أخيه ، ففي سنة١٨٢هـ/٧٩٨م جال في بلاد الأندلس لجمع الأتباع والتحشيد ضد الأمير الحكم ، وقد وجد في كورة جيان بعض المؤيدين له من عرب الكورة ، وقد اتخذ من مدينة قيجاطة منطلقاً لحركته وتمكن من الاستيلاء على جيان والبيرة واتجه نحو قرطبة إلا أن قوات الأمير الحكم تمكنت من هزيمته[4].

ثم إن مدينة قيجاطة عاشت بعد ذلك هادئة بعيدة عن الأحداث الكبيرة ، فلم تكن هناك أحداث مهمة فيها تسترعي الانتباه حتى ظهور الموحدين على الساحة السياسية إذ تمكنوا من ضمها إلى دولتهم في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠ هـ/١١٦٢-١١٨٤م) وعين عليها إبراهيم بن همشك الذي بقي فيها حتى وفاته سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥م[5].

استمرت مدينة قيجاطة تحت الحكم الموحدي ، إلا أنه في نهاية عهدهم تعرضت المدينة لعدة أحداث على أثر اضطراب الأوضاع السياسية داخل الأسرة الموحدية ، فبعد وفاة الخليفة الموحدي المستنصر(٦١٠-٦٢٠ هـ/١٢١٣-١٢٢٣م) بايع أهل مراكش عبد الواحد بن يوسف بن عبدالمؤمن(٦٢٠-٦٢١ هـ/١٢٢٣-١٢٢٤م) فعارض بيعته ابن أخيه أبو محمد

---

١) نفح الطيب، ٢٥٩/١.
٢) المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.
٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.
٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٧٠/٢ ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٢٠ -٢٢١.
٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ١٢٦/١ -١٢٧.

عبدالله بن يعقوب المنصور الذي كان والياً على مدينة مرسيةMurcia ، وقد دعا الأخير أشياخ الموحدين إلى بيعته فتم له ذلك سنة٦٢١هـ/١٢٢٤م ، وتلقب بالعادل(٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٦م) ، وسار إلى مدينة إشبيلية Sevilla وأخذ في تدبير حكمه ، فأصبح للدولة الموحدية خليفتين أحدهما في مراكش والآخر في إشبيلية ، إلا أن الأمور لم تنتهي إلى هذا الحد ، ذلك إلى أن ابن عم العادل أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن خلع بيعة العادل ودعا لنفسه خليفة للموحدين ، ومما عزز ذلك طاعة أهل جيان وأبذة وبياسه Baeza له ، ولقب بالبياسي لأنه اتخذها مقراً له ، وأرسل إلى ملك قشتالة Castella فرناندو الثالث Fernando III(٦١٤-٦٥١هـ/١٢١٧ ١٢٥٣م) يطلب الخضوع والطاعة له مقابل مساعدته في التصدي للجيش الموحدي ، وتمكن فعلاً من مهاجمة القوات الموحدية في مدينة بياسة وتمكن بمساعدة النصارى من هزيمتهم[١].

وأدرك البياسي أن موقفه قد قوي بمساعدة ملك قشتالة له وتيقن من ضعف قوات الخليفة العادل بسبب انهزام جيش الأخير ، فسار البياسي مع الملك القشتالي من أجل السيطرة على بقية المدن والمعاقل الإسلامية فكانت وجهتهم مدينة قيجاطة ، واخترق الملك فرناندو الثالث أراضي مدينة أبذة قاصدها[٢] ، ويبدو أن ملك قشتالة كان يدرك أهمية مدينة قيجاطة بالنسبة إلى المدن الأخرى فأخذ يتقدم بقواته ، ونظراً لعدم وجود منفذ لدخولها بسبب حصانتها ، عمل فرناندو الثالث على القفز على إحدى الجدران التي كان عليها أحد الحراس ، فتمكن من ضرب الحارس ضربة قوية على رأسه فقتله في الحال وفتح بوابات المدينة لجيوشه وذلك سنة٦٢٢هـ/١٢٢٥م[٣].

ومن خلال ذلك يمكن أن نستنتج أن البياسي وحلفائه النصارى قد واجهوا مقاومة عنيفة من قبل أهالي مدينة قيجاطة ، بدليل أن الأهالي أغلقوا الأبواب وقرروا المقاومة ولم يتمكن المهاجمون من الدخول إليها إلا بعد اقتحام الأسوار والأبراج الموجودة فيها.

وبعد اقتحام المدينة تمكن البياسي وحلفائه النصارى من قتل أعداداً كبيرة من أهالي

---

١) الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٢/٤ -٣٥٣.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٧/٤.

٣) المالكي، حركة البياسي وآثارها على الأندلس، ص ٦٩ -٧٠.

المدينة وأسروا الكثير منهم[1] ، وقد وصف Doval الملك القشتالي فرناندو الثالث بأنه كان كالأسد الهائج الذي يريد أن يحقق نذراً في أثناء دخوله لمدينة قيجاطة[2] ، وهذا يعني أنه مارس أيشع أنواع الشدة والتنكيل بأهالي المدينة ، ولم يسلم أحد منهم حتى رجال العلم والزهد ، فكان من ضمن الذين أسروا القاريء أبا عمرو الغافقي[3][4] ، وقد تحدثت المصادر عن الأعمال الوحشية التي مارسها النصارى عند دخولهم قيجاطة ، فقد أشار الحميري إلى ذلك بقوله: (... ، وسار مع الفنش ليدخل معاقل الإسلام باسمه ، فدخل قيجاطة هذه بالسيف وقتل العدو فيها خلقاً وأسر آخرين ، وكان حديثها شنيعاً تنفر منه الأسماع والقلوب ،...)[5].

كما أشار ابن عذاري إلى ذلك بقوله: (... ، واستعان—أي البياسي—بالنصارى عليهم ودلهم على عورات تلك البلاد وأدخلهم قيجاطة وغيرها من بلاد المسلمين فتملكوا الأموال وقتلوا الرجال وسبوا الحريم والأولاد ،...)[6].

وبذلك غدت مدينة قيجاطة مدينة مدمرة بعد أن كانت جنة من جنات الأندلس زاخرة بالثروات والأموال والخيرات[7] ، إلا أنه في ليلة وضحاها تحولت إلى مدينة مهدمة

---

١) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٨٨.

2) Ferando III atatves de las cronicas mefievales, p 51 ؛
المالكي، حركة البياسي وآثارها على الأندلس، ص ٧٠.

٣) هو أبو عمرو نصر بن عبد الله بن عبد العزيز بن بشير الغافقي الأندلسي سكن قيجاطة، كان عالماً بالقراءات وتصدر الإقراء في قيجاطة وقصد الناس قيجاطة للتعلم منه، وكان من أهل الزهد والورع، وعندما دخل القشتاليون قيجاطة سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م أخذوه أسيراً على كبر سنه في جمع من أهلها، ثم أفرج عنه وسكن لورقة وتوفي بها سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦ م وقيل سنة ٦٢٧ هـ/١٢٢٩م وقيل سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥ م، ينظر : ابن الابار، التكملة، ٢١٣/٢ -٢١٤ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٧٢/٤٦ ؛ المستلمح من كتاب التكملة، ص ١٨٣.

٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٢٤/١٤.

٥) الروض المعطار، ص ٤٨٨.

٦) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ وجعل ابن عذاري هذه الأحداث سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦ م.

٧) ابن سعيد، اختصار القدح، ص ٢١١.

الأسوار محطمة الحاميات قاحلة وخالية أذلة أهلها ، وقد وصف ابن سعيد هذه الحالة المأساوية التي حلت بقيجاطة بقوله: (وقد تركها عباد الصليب أفقر من جوف العير[1])[2] ، وقد رثاها أبو المعالي القلطي[3] أحد الشعراء من أهلها ممن عاصر تلك الأحداث بقصيدة تدمع لها العيون[4].

ويبدو أن البياسي أعطى مدينة قيجاطة في السنة نفسها ، أي سنة٦٢٢هـ/١٢٢٥م إلى النصارى مقابل الوقوف إلى جانبه ضد أبناء جلدته الموحدين ، وهذا ما أشار إليه ابن أبي زرع بقوله: (وفي سنة اثنتين وعشرين قام السيد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبدالمؤمن البياسي ببياسة ودعا لنفسه ، وفيها أعطى البياسي بياسة وقيجاطة للنصارى ،...)[5] ، وهكذا سقطت مدينة قيجاطة بعد أن حكمها المسلمون مدة٥٣٠ سنة.

---

١) يقال للمكان الذي لا خير فيه هو كجوف العير، لأن جوف العير لا ينتفع مما فيه، ينظر : الميداني، مجمع الأمثال، ١/٢٥٧ ؛ السخاوي، سفر السعادة، ٢/١٠١٢.

٢) اختصار القدح، ص ٢١١.

٣) هو أبو المعالي أحمد بن أبي البركات الملقب بالقلطي، شاعر من أهل قيجاطة عاصر دخول النصارى مدينته ووصف تلك المأساة بعدد من الأبيات لما أخنى عليها العدو، ينظر : ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٢/٦٣ -٦٤.

٤) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٢/٦٤ .

٥) الأنيس المطرب، ص ٢٧٣.

مدينة بيّاسة Baeza الأندلسية

(٩٢ -٦٢٣هـ/ ٧١٠ -١٢٢٦م)

تقع مدينة بيّاسة حالياً ضمن المركز الإداري لمديرية جيّان(Jaen) وتبعد ٤٠ كم شمالي شرقي المديرية[١] ، وهي كذلك في المصادر الإسلامية ، إذ أشاروا إلى أن بيّاسة من أعمال كورة جيان[٢] التي تتوسط الأندلس بين غرناطة(Garnada) وطليطلة(Toledo) ومرسية(Murcia)[٣] ، إلا أن المقدسي أشار أن بيّاسة إقليم تابع لقرطبة(Cordoba) ثم أضاف إلى أن الإقليم عند أهل الأندلس يقابل الرستاق عند أهل المشرق[٤] ، ويمر بمدينة بيّاسة نهر الوادي الكبير(Rio Guadalquivir) وهو واحد من أهم أنهار الأندلس[٥] ، الذي ينحدر من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي ، وينبع من جبال شقورة(Segura) مما يلي بلنسية(Valencia) ثم ينحدر فيمر بالقرب من مدينة أبدة(Ubeda) ثم جنوب مدينة بيّاسة وعندها يقل انحداره حيث يسير في أرض سهلة بعدها يمر بمدينة قرطبة ثم يواصل جريانه إلى إشبيلية(Sevilla) ثم إلى قادس(Cadiz) حيث يصب في بحر الظلمات[٦].

---

١) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢/ ٢٥٣ هامش(٢).

٢) البكري، المسالك والممالك، ٨٩٣/٢ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢ ؛ ابن غالب فرحة الأنفس، ص ١٥ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٩٤ ؛ ابن سعيد، المغرب، ٤٩/٢ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٩١ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢١٧/٣.

٣) ابن سعيد، المغرب، ٤٩/٢.

٤) أحسن التقاسيم، ص ٢٣٥ ؛ وأشار إلى ذلك ياقوت أيضاً إذ قال : "...لأهل الأندلس خاصة، فإنهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة إقليماً، وربما لا يعرف هذا الاصطلاح إلا خواصهم... فإذا قال الأندلسي : أنا من إقليم كذا، فانه يعني بلدة، أو رستاقاً بعينه " الأندلس من معجم البلدان، ص ١٨.

٥) حتاملة، أيبيريا، ص ٨٠ .

٦) ينظر التفاصيل عن مجرى نهر الوادي الكبير والمدن الواقعة عليه من منبعه حتى مصبه: الزهري، الجغرافية، ص ٩٧-١٠٠ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦١/٢ ؛ المراكشي، المعجب، ٢٦٩ ؛ مؤلف مجهول،=

أما المسافات بينها وبين ما جاورها من البلدان ، فبين بيّاسة وأبدة خمسة أميال[1] ، وبينها وبين جيّان عشرون ميلا[2] ، وذكر الإدريسي أن(بيّاسة تظهر من جيّان وجيّان تظهر من بيّاسة وبيّاسة على كدية تراب مطلة على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة..)[3] ، وبين جيّان وقرطبة خمسون ميلاً[4] ، ومن جيّان إلى غرناطة مرحلتان[5] ، ومن جيّان إلى البحر الرومي(المتوسط) ثلاث مراحل[6].

لم تشر المصادر التي بين أيدينا بشكل مباشر إلى تاريخ فتح المسلمين لها ، ولعل ذلك يعود إلى أنها مدينة تابعة إلى كورة جيّان ، فضلاً عن أن قربها من قرطبة جعلها تتأثر بما يجري بها من أحداث ، فالمصادر تشير إلى أن طارق بن زياد بعد هزيمته لملك القوط لذريق في معركة وادي لكة(Rio Guadalete) في شوال من سنة٩٢هـ/٧١٠م اتجه إلى مدينة إستجة(Ecija) التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي ، وبعد هزيمتهم قرر الزحف مباشرة إلى طليطلة عاصمة القوط ، وقبل أن يشرع بذلك ، أرسل فرقاً من جيشه لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط ، وهي قرطبة وإلبيرة(Elvira) ومالقة (Malaga) وتدمير(Tudmir)[7] ، وأشار صاحب كتاب أخبار مجموعة إلى أنه لما فتح

=تاريخ الأندلس، ص ٤٦ -٤٧ ؛ حتاملة، ايبيريا، ص ٨٠ -٨٣ ؛ وبحر الظلمات أسماه ياقوت البحر المحيط، الأندلس من معجم البلدان، ص ٦٥

١) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٩١ ؛ والميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، الموازين والمكاييل الإسلامية، ص ٩٥.

٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١.

٣) نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢ -٥٦٩ ؛ ينظر أيضاً : الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١.

٤) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٥.

٥) المراكشي، المعجب، ٢٦٩ ؛ والمرحلة تعادل أربعة وعشرين يوماً أي ما يعادل ٣٧ كم ونصف، وفي حالة السير السريع ٤٦ كم، ينظر : كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ٩٧٣/٢.

٦) المراكشي، المعجب، ص ٢٦٩.

٧) ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ مؤلف مجهول، فتح الأندلس(تحقيق مولينا)، ص ٢٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١ -١٩ ؛ يرى مؤنس أن مناطق إلبيرة ومالقة ومرسية(أي شرق الأندلس) فتحت على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير، ولكنه يستدرك قائلاً : ولا يستبعد أن يكون طارقاً قد أرسل سرايا صغيرة إلى هذه النواحي، فجر الأندلس، ص ١٣٨.

الله على المسلمين(قذف الله الرعب في قلوب العلوج لما رأوه اقتحم في البلد... فهربوا إلى طليطلة وغلقوا مدائن الأندلس)[1].

أما كورة جيّان الواقعة إلى الشرق من قرطبة والتي يمر بها الطريق الروماني القديم[2] ، فقد سلكه طارق بن زياد إلى طليطلة ، فذكر الرازي أن طارقاً بعد بعثه بعضاً من جيوشه إلى مناطق شرق الأندلس(سار هو في معظم الناس إلى كورة جيّان يريد طليطلة)[3] ، وهذا يعني أن كورة جيّان وتوابعها(منها مدينة بيّاسة) قد فتحت على يد طارق بن زياد وهو في طريقه إلى طليطلة.

أما عن تاريخ فتحها فيمكن القول إن ذلك كان في أواخر سنة٩٢هـ/٧١٠م ، لأن معركة وادي لكة التي انهزم فيها القوط كما قال الرازي: (كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام)[4] ، وكان فتح قرطبة في شوال من نفس العام[5] ، ولما كان طارق في طليطلة أوائل سنة٩٣هـ[6] أواخر سنة٧١١م ، فهذا يعني أن دخول جيّان ومنها بيّاسة في حوزة المسلمين كان في المدة بين شوال وذي الحجة من سنة٩٢هـ/٧١٠م.

كان للتركيبة السكانية في جيّان وأعمالها أثر في تاريخ الكورة لمدة طويلة ، إذ أن معظم سكانها أول الفتح من العرب ثم أضيف إليهم من جند الشام موالي بني أمية ، وقد شكل عرب جيّان قطب الرحى في الصراع القبلي الذي دار بين القيسية واليمانية في الأندلس بحكم أن زعيم القيسية الذين كانوا في جيّان هو الصميل بن حاتم[7] ، فبجهود عرب جيّان من جند قنسرين تمكن القيسية من إنزال هزيمة كبيرة بالبلدين بالقرب من قرطبة سنة ١٢٤هـ

---

١) مؤلف مجهول، ص ١٩.

٢) طه، الفتح والاستقرار، ص ١٥٥.

٣) المقري، نفح الطيب، ٢٦١/١(عن الرازي) ؛ ينظر أيضاً : ابن الخطيب، الإحاطة، ١٩/١.

٤) المقري، نفح الطيب، ٢٥٩/١(عن الرازي).

٥) المقري، نفح الطيب، ١٢/٣(عن الحجاري في المسهب).

٦) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.

٧) ينظر عن الصراع بين القيسية واليمانية ودور الصميل بن حاتم : مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٧٥ -٣٠٠.

/٧٤١م[1] ، ولعب موالي بني أمية دورا مهماً في التمهيد لدخول عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) إلى الأندلس[2] ، كما أن الصميل بن حاتم عندما انهزم من قرطبة عند دخول عبدالرحمن الداخل إليها توجه إلى جيّان يستصرخ من فيها من القيسية[3].

ويبدو أن للطبيعة الجغرافية للمنطقة من وفرة المياه والأشجار والحصون التي توفر ملاذاً للثائرين على السلطة فضلاً عن شعور الزعماء هناك أنهم لا يقلون مكانة وقدرة عن حكام قرطبة وهو ما دفعهم إلى الثورة كلما وجدوا ضعفاً أو تراخي عند حكام قرطبة ، وهذا ما حدث أبان ثورة عمر بن حفصون في إقليم ريّة(Rayya) والتي امتدت من سنة٢٦٧هـ/٨٨٠م إلى سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م[4] ، وقد تحالف معه العديد من ثوار جيان[5] ، وبقيت بياسة تحت نفوذه حتى تم فتحها من قبل قوات الإمارة سنة ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩م[6].

وفي عهد عبدالرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) استهل عهده باجتثاث أسباب التوتر في كورتي جيّان وإلبيرة[7] ، فكان ذلك سبباً في خضوعها وانقيادها طيلة القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

وبعد سقوط الدولة العامرية سنة٣٩٩هـ/١٠٠٨م عمل الخليفة المستعين(٤٠٠-٤٠٧هـ/ ١٠٠٩-

---

١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٤١ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٤٦ – ٤٧ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٣/٢ ؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٨٣.

٢) ينظر عن دور موالي بني أمية في التمهيد لعبد الرحمن الداخل ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٤٤، ٤٩ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٦٦، ٨٦ ؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٣٦،٤٣٩.

٣) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٨٥.

٤) ينظر التفاصيل عن ثورة عمر بن حفصون : ابن حيان، المقتبس(الحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/٨٨٨ -٩١٢م) ص ٧٢ -١١٢. ابن عذارى، البيان المُغرب، ٢/ ١٣١ – ١٣٣ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٣٢/٢ -٣٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٢٣/١ -٣٢٦، ٣٧٥ -٣٨٦.

٥) من الثوار في جيّان الذين تحالفوا مع ابن حفصون : عبد الله بن أمية بن الشالية الذي ثار في جبل شمنتان من كورة جيّان، وخير بن شاكر الذي قام بقرية شاكر من كورة جيّان سنة ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م، وعمر بن مضر الهترولي المعروف بالملاحي الذي قام بقرية ملاحة من كورة جيّان، وسعيد بن هذيل في حصن المنتلون من كورة جيّان، ينظر عن الثوار في جيّان ومظاهرتهم لابن حفصون : ابن حيان، المقتبس (الحقبة ٢٧٥-٣٠٠ هـ/٨٨٨ -٩١٢ م) ص ٢٥،٢٧، ٤٤ ؛ ٤٥، ٤٦ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٥/٢،١٣٧.

٦) ابن حيان، المقتبس(الحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/٨٨٨ -٩١٢ م) ص ١٦٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٤٥/٢.

٧) ينظر التفاصيل: ابن حيان، المقتبس(الحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/ ٩١٢ -٩٤١م) ص ٢٠٠.

١٠١٦م) على أعطاء جيّان وأعمالها إلى بني يفرن[١] ، ثم استولى عليها محمد بن عبدالملك المظفر[٢] وذلك سنة٤١٢هـ/١٠٢١م وبقيت في حوزته حتى سنة٤١٩هـ/١٠٢٨م[٣] ، وبعد سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٠ م وتشرذمت البلاد إلى دويلات طوائف ، كانت بيّاسة وجيّان أول الأمر ضمن حدود دولة بني جهور[٤] ، ثم سيطر عليها الفتيان العامريين[٥] ، وفي أيام حاكمها زهير العامري(٤١٩-٤٢٩هـ/١٠٢٨-١٠٣٧م) دخل في حرب مع أمير غرناطة باديس بن حبوس الصنهاجي(٤١١-٤٦٥هـ/١٠٢٠ -١٠٧٢م) الذي تمكن من انتزاع بياسة وجيان منه ٤٢٩هـ/١٠٣٧ م[٦] ، واستمرت تدار من قبل حكام غرناطة الصنهاجيين حتى انتزعها منهم المعتمد بن عباد[٧] ، الذي استمر حكمه لها حتى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م إذ دخلها المرابطون (Almoravides) بقيادة القائد المرابطي سير بن أبي بكر وقتلوا حاكمها المأمون بن المعتمد[٨] فخضعت المدينة للحكم المرابطي.

وفي أواخر العهد المرابطي تعرضت قواتهم إلى محنة كبيرة ، ففي الوقت الذي

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، ١١٣/٣؛ وبنو يفرن عائلة مغربية من زناتة، وهم بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا، أول من دخل منهم الأندلس محمد بن يدر بن محمد اليفرني الذي اختلف مع ابن عمّ له فعبر إلى الأندلس في خلافة هشام المؤيد وخدم المنصور ابن أبي عامر، ولما وقعت الفتنة تسلموا جيّان ثم سكنوا تاكرنا وقلعتها رنده، ينظر عن دورهم في الفتنة : ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/ ١١٣ ،٢٧٠،٢٧٣؛ ابن خلدون، العبر، ١٥/٧، ٣٢.

٢) هو محمد بن عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي العامر لم ينكب بعد سقوط الدولة العامرية بسبب أمّه الذلفاء التي تعاونت مع الثوار، ينظر : ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٤/٣، ١٣٣.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٣/٣.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢/٢.

٥) ينظر التفاصيل عن دويلة الفتيان العامريين شرق الأندلس : : ابن بسام، الذخيرة، ٧٢٩/٢ -٧٦٩ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٦١ ؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ٧٨/٢ -٩٠ ؛ ابن سعيد، المغرب، ١٩٥/٢ -٢٠٣ ؛ النويري، نهاية الأرب، ٢٦٩/٢٤ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٨٣/٢ -١٨٦ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢٠٨/٤ ؛ المقري، نفح الطيب، ٣٦٦/٣ -٣٦٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ١٥٨ -١٧٣.

٦) ابن بلقين، التبيان، ص ٤٥ -٤٦ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦٦/٣ -١٦٧ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٠٢/٢ ؛

٧) ابن بلقين، التبيان، ص ٦٥.

٨) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٥٤ -١٥٥ ؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٥٢ -٥٣ ؛ السلاوي، الاستقصا، ٥٤/٢.

كانت فيه القوات الموحدية وأنصارها يُخضعون المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى كانت قوات قشتالة تنتزع ما أمكنها من المدن والحصون وبالأخص القريبة من قرطبة معقل القائد المرابطي يحيى بن غانية ، في مثل هذه الظروف رأى القشتاليون أن من الفطنة مهادنة ابن غانية في قرطبة ليكون سدا بينهم وبين الموحدين(Los، Almohades) على أن يكون تابعا لهم ويؤدي الجزية وذلك في أوائل سنة٥٤١هـ/١١٤٦م[١] ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد فنفوذ الموحدين في الأندلس أخذ بالتوسع بعد أن عبرت وفود من أهل الأندلس للاستنجاد بهم[٢] ، وأن الملك القشتالي اشتط في مطالبه وأخذ يضيق عليه ، فطالبه بالتنازل له عن بيّاسة وأبدة لقاء الاستمرار في محالفته ، ثم عاد فطالبه التخلي عن جيّان كلها أو مضاعفة الجزية[٣] ، وكان امتلاكهم لبيّاسة في جماد الأولى من سنة٥٤٢هـ/١١٤٧م[٤] ، فكان هذا السقوط الأول للمدينة بيد النصارى.

بقيت بياسة بيد النصارى حتى سنة٥٤٦هـ/١١٥١م ، ذلك أن الموحدين أرسلوا في هذه السنة قواتهم إلى شرق الأندلس بقيادة الشيخ أبي حفص الهنتاني[٥] الذي عبر بصحبة أبي سعيد أحد أبناء عبد المؤمن بن علي وحاصروا النصارى في مدينة المرية فاستغاثوا بالفونسو السابع المعروف بالسليطين فأرسل إليهم حليفه محمد بن سعد بن مردنيش إلا أنهم لم يستطيعوا فك الحصار عن المرية عندها انسحب النصارى من المرية مع ابن مردنيش ، وقام الفونسو السابع بإخلاء بيّاسة وأبدة خوفاً عليهم وعاد إلى بلاده فدخلها الموحدون[١] بعد أن بقيت بيد النصارى أربع سنوات.

---

١) ابن الخطيب، الإحاطة، ٣٠١/٤ ؛ أعمال الأعلام، ٢٢٩/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٢/٣.

٢) وينظر عن الوفد الأندلسي إلى عبد المؤمن بن علي : ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٤٦/٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٣ -٣٤.

٣) الضبي، بغية الملتمس، ص ٥٤ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٣٠١/٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣١٤/٦ ؛ السلاوي، الاستقصا، ١١٨/٢؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٣٣٢.

٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٥٢/٩ ؛ النويري، نهاية الأرب، ٣٠٠/٢٤ ؛ السلاوي، الاستقصا، ١١٨/٢.

٥) هو أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب محمد بن تومرت العشرة وإليه ينتسب الحفصيين في تونس، وكانت وفاته سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥ م، ابن خلدون، العبر، ٥٠٧/٧.

١) السلاوي، الاستقصا، ١٢٢/٢.

وفي سنة٥٩١هـ/١١٩٤م حدثت معركة الأرك[1] التي أحرز الموحدون فيها انتصاراً كبيراً على القشتاليين ، وعلى أثرها وقع الطرفان هدنة لمدة عشر سنوات[2] ، وفي سنة ٦٠٦هـ /١٢٠٩م عند اقتراب أمد الهدنة أخذ ملك قشتالة يشن الغارات على مناطق شمال قرطبة فسار صوب جيّان وبيّاسة وانتسف زروعها وحقولها وخرب ضياعها ، وكرر ذلك في العام التالي وعاث في أراضي جيّان وبيّاسة ثم عاد إلى طليطلة[3] ، عندها وجهت صرخات الاستغاثة للخليفة الموحدي الناصر(٥٩٥-٦١٠هـ/١١٩٨-١٢١٣م) بإسعافهم ، وبعد إتمام استعداداته خرج الناصر الموحدي في جيوشه من إشبيلية نحو جيّان ، فأبدة وبيّاسة ثم سار شمالاً لملاقات النصارى فكان اللقاء في موضع العقاب سنة٦٠٩هـ/١٢١٢م[4] فكانت الهزيمة على الجيش الموحدي[5] ، بعدها سار ملك قشتالة لاستثمار النصر إلى مدينتي بيّاسة وأبدة القريبتين من ساحة المعركة ، فما أن سمع أهل بيّاسة بذلك حتى غادرها معظم أهلها ولم يبق فيها إلا الجرحى والضعاف فأحرق دورها ، وخرب المسجد الجامع ، وقتل معظم من وجده بها ، ثم سار إلى مدينة أبدة وقد تحصن بها أهلها مع من فرّ إليها من أهل بيّاسة فاقتحمها وقيل إنه قتل فيها زهاء ستين ألفاً ، وقال المراكشي يصف ما حلّ بالمدينتين أن الفونسو الثامن(قصد مدينتي بيّاسة وأبذة ، فأما بيّاسة فوجدها أو أكثرها خالية ، فحرق دورها وخرب مسجدها

١) ينظر عن معركة الأرك : المراكشي، المعجب، ص ٢٠٦-٢٠٧ ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٦/٧-٩ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٢٧ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢١٧ -٢٢٢ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٢٠ -٢٢٩ ؛ النويري، نهاية الأرب، ٣٣٢/٢٤ -٣٣٥ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٠٥٦/١٢ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/١٣ ؛ اليافعي، مرآة الجنان، ٣٦٣/٣ -٣٦٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣٢٠/٦ -٣٣٠ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤٤٣/١ ؛ السلاوي، الاستقصا، ١٨٧/٢ -١٩٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٩٧/٢ -٢١٤.

٢) المراكشي، المعجب، ص ٢٠٧ ؛ المقري، نفح الطيب، ٣٨٢/٤.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٢٨٤ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ١/ ١٠٧.

٤) العقاب موقع بين جيّان وقلعة رباح، الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦.

٥) ينظر عن موقعة العقاب : المراكشي، المعجب، ص ٢٣٥ -٢٣٦ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ٢٥٨ -٢٦٤ ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٥/٧ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٣٩/٤٣ ؛ اليافعي، مرآة الجنان، ١٦/٤ ؛ المقري، نفح الطيب، ٣٨٣/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٨٣/٢ -٣٢٦ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ١/ ١٠٥ -١٢٤.

الأعظم ، ونزل على أبذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهل بيّاسة وأهل البلد نفسه ، فأقام عليها ثلاثة عشر يومًا ، ثم دخلها عنوة فقتل وسبى وغنم ، وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والصبيان بما ملئوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة)[١] ، ويصف أشباخ ما فعله النصارى في بيّاسة بقوله: (فتحوا عقب الموقعة بأيام قلائل عدة حصون مثل... بيّاسة ، ولم يكن في بيّاسة سوى المرضى والضعاف ، والظاهر أنها كانت المستشفى للجيش ، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ، ينتظرون مصيرهم جزعين ، فشاءت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعاً بالسيف ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى ، بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوة النصر في قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك حينما هاجموا مدينة أبدة..فقتل من المسلمين في أبدة زهاء ستين ألفاً ، وسبي مثل هذا القدر ، وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها ، عندئذ أبدى الأحبار رضاهم ، ورتلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته)[٢] ، ولكن الملك القشتالي لم يبق في المناطق التي دخلها فاضطر إلى الانسحاب بسبب مصاعب التموين وامتلاء أيديهم بالغنائم وانتشار الوباء بينهم[٣] ، فكان ذلك السقوط الثاني للمدينة بيد النصارى.

بعد هزيمة الموحدين في العقاب دخلت دولتهم في مرحلة من الضعف والانحلال ، فشب صراع داخلي على السلطة بين أسرة بني عبد المؤمن ، وفي الأندلس تحفزت القوى المحلية للانفراد بالسلطة في مختلف المناطق والثورة على الموحدين على الصورة نفسها التي جرت في أواخر عهد المرابطين ، وبخصوص مدينة بيّاسة فقد تأثرت بما جرى من منافسات بين أبناء بني عبد المؤمن ، فتولى حكم الدولة الموحدية بعد وفاة الخليفة الناصر ابنه المستنصر بالله[٤] الذي حكم حتى سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م إذ توفي فجأة فبايع أهل

---

١) المعجب، ٢٣٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/٣٢٣.

٢) تاريخ الأندلس، ١/ ١٢٣ -١٢٤.

٣) دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٣٢٤.

٤) تولى الخلافة في الدولة الموحدية للمدة ٦١٠ - ٦٢٠ هـ/ ١٢١٣ - ١٢٢٣ م)، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٤١ -٢٤٣

مراكش عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن(٦٢٠-٦٢١هـ/ ١٢٢٣-١٢٢٤م) بالخلافة فعارض بيعته ابن أخيه أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور الذي كان والياً على مرسية بالأندلس فدعا أشياخ الموحدين إلى بيعته فتم له ذلك في سنة٦٢١هـ/١٢٢٤م وتلقب بالعادل(٦٢١-٦٢٤هـ /١٢٢٤-١٢٢٦م) وسار إلى إشبيلية وأخذ في تدبير الأمور ، فأصبح للدولة الموحدية خليفتين أحدهما في مراكش والأخر في إشبيلية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ذلك أن ابن عمّ العادل أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبدالمؤمن خلع بيعة العادل ودعا لنفسه خليفة للموحدين وأطاعه أهل جيّان وأبدة وبيّاسة ، ولقب بالبيّاسي لأنه اتخذها مقراً له ، عندها بعث العادل الموحدي جيشاً للقضاء عليه ، فراسل البيّاسي ملك قشتالة يطلب الخضوع والطاعة وأن يسلم إليه قصبة بياسة لقاء مساعدته ، ولما ضرب الجيش حصاراً على مدينة بيّاسة كان الوقت شتاء ومع هطول الإمطار وارتفاع منسوب المياه ، فضلاً عن خشيتهم من مداهمة القشتاليين حلفاء البياسي ، اضطر الجيش الموحدي إلى الانسحاب ، فكرر العادل الموحدي إرسال قوة أخرى إلا أن البياسي تمكن بمساعدة القشتاليين من هزيمتها[١].

كان فشل قوات العادل الموحدي القضاء على حركة البياسي سبباً في زيادة طموحه ، فأرسل قواته سنة٦٢٢هـ/١٢٢٥م تجاه مدينة قيجاطة فتمكن من اقتحامها بمساعدة الجند القشتالي ، وفي السنة التالية تمكن مع حلفائه من إخضاع معظم الحصون في كورة جيّان ، ثم قرر التوجه إلى إشبيلية ومعه جيش من النصارى ، وبالقرب من طلياطة(Tliata) اشتبك مع الجيش الموحدي وانزل بهم هزيمة كبيرة وقتل منهم نحو من ألفي رجل وكان نتيجة ذلك أن خضعت للبياسي معظم الحصون الواقعة بين إشبيلية وقرطبة ، وعندما رأى أهل قرطبة ذلك خلعوا طاعة واليهم الموحدي ودخلوا في طاعة البياسي[٢].

ثم إن الملك القشتالي طلب منه أن يسلم إليه طائفة من الحصون في منطقة قرطبة

---

١) الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١.

٢) ينظر : الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٣.

وهي شلبطرة(Salvatierra)[1] وبرج الحمة[2] فضلاً عن قصر بيّاسة فأدخل(الروم قصبة بيّاسة وأسكنهم فيها ، والمسلمون معهم في سائر المدينة ، وكان دفعه القصبة إليهم على سبيل الرهن في مال كان لهم تعين عليه ، فبقوا في القصبة ساكنين ، والمسلمون في البلد يداخلونهم ويعاملونهم ، وهو إذ ذاك في قرطبة مقيم)[3].

بعدها قرر البياسي - بعد أن فرض سيطرته على معظم مناطق الأندلس الوسطى - أن يستولي على إشبيلية ويقضي على منافسه نهائياً ، فخرج بقواته صوبها سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦ م فاستعد الجيش الموحدي للقائه ونشبت معركة هُزم فيها البياسي ، ومزق جيشه ، وارتد إلى قرطبة ، ولما رأى أهل قرطبة افراطه في التحالف مع النصارى وتسليم الحصون إليهم ثاروا ضده ، ففر منها إلى حصن المدور(Almodovardel Roi) ولكن ثوار قرطبة اقتحموا عليه الحصن وقتلوه وبعثوا برأسه إلى حاكم إشبيلية الموحدي[4] ، ويعلق الحميري على ذلك بقوله: "فلما غزا اشبيلية وانصرف عنها مفلولاً مكسوراً ثار به أهل قرطبة ، إذ توهموا أنه يريد إدخال النصارى مدينتهم ، فخرج عنها فاراً إلى الحصن المدور ، فأقام هناك وبقيت بيّاسة بيد الروم"[5].

لبثت ثورة عبد الله البياسي ثلاثة أعوام كان من أهم نتائجها أنه مهد للنصارى السيطرة على العديد من المدن والحصون المهمة ، وقد أعطى صورة قاتمة عن شخصيته ، فابن عذاري اتهمه بالارتداد عن الإسلام بقوله :(وذكر عن البياسي أمر شنيعة منها أنه دخل في دين النصرانية)[6] ، وعلق ابن أبي زرع على تسليمه حصن شلبطرة بالقول: (أعطى البياسي حصن شلبطرة للنصارى وبالأمس بذل الناصر في أخذه الأموال الجليلة حتى ملكه المسلمون)[7] ،وعلق عنان بقوله: ونستطيع أن نعتبر البياسى بالفعل على

١) شلبطرة وهي حصن من عمل قلعة رباح، الحميري، الروض المعطار، ص ٣٤٤ -٣٤٥.
٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/٣٦٠.
٣) الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١ ؛ ينظر أيضاً : ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٣.
٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٤.
٥) الروض المعطار، ص ١٢١.
٦) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١
٧) ابن أبي زرع، روض الأنيس المطرب، ص ٢٧٣.

ضوء ما تقدم ، من أعماله وخياناته المتوالية لقضية الإسلام ، وقضية الأندلس ، تحقيقاً لأطماعه الوضيعة ، شخصية بغيضة مثيرة ، تستحق أن يدمغها التاريخ بأقسى الأحكام[1].

أما أهالي بيّاسة لما وصلتهم أنباء مقتل البياسي تنفسوا الصعداء ، ويوضح الحميري موفقهم الحرج ومعاناتهم بالقول: (وأحب أهل بيّاسة إخراج الروم عن قصبتهم فداخلوا صاحب جيّان: عمر بن عيسى بن أبي حفص بن يحيى وسألوه المسير إليهم في جموعه ، فجاءهم بحشوده ومعه محمد بن يوسف المسكدالي ، فدخلوا بيّاسة ، وأما من كان بالقصبة من الروم فلم يبالوا شيئاً ، وأما من كان منهم بالمدينة فأتى عليه القتل بعد أن أبلوا في الدفاع ، إلا أنهم غلبوا بالكثرة ، وبقي أهل القصبة لا يستطيع أحد الوصول إليهم لحصانتها ، ولو أراد الله تعالى لوفق هذا الوالي إلى المقام ، فإن أهل القصبة لم يكن عندهم شيء يقتاتونه إلا ما يأتيهم من المدينة مَياومةً ، فلو مكث عليها يوماً أو يومين لضاقوا وخرجوا ، ولم يكن أهل ملتهم نصروهم إلا في مدة بعيدة لبعد المسافة ، ولكن أبى المقدار أبى إلا أن يفرغ في يومه ذاك ولم يجسر على المبيت ليلة واحدة ، وظن أن الفجاج ترميه بالخيل والرجال ، فقال لأهل البلد: أنا راجع فمن أحب أن يخرج فليخرج ومن أحب أن يقعد فليقعد ، فرغبوا أن يمكث يوماً أو يومين فأبى عليهم إلا الرجوع في يومه ، فلم يكن لأهل البلد بد من فراق بلدهم والخروج عن نعمتهم ، فتفرقوا في البلاد وبقي الروم في جميع المدينة وملكوها كلها)[2].

وبذلك سقطت مدينة بيّاسة بيد النصارى في أواخر سنة٦٢٣هـ/١٢٢٦م ، وكما أسهم عبد الله البياسي في ضياع العديد من الحصون ومكن النصارى فيها ، فإن ما فعله الوالي الموحدي عمر بن عيسى في مدينة بيّاسة وتسليمها للنصارى دون أي مقاومة يمثل صورة بغيضة وخيانة لقضية الأندلس ، فسيطر عليها النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٥٣١ سنة.

---

١) دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٢٦١ -٢٦٢.

٢) الروض المعطار، ص ١٢٢.

مدينة ماردة Merida الأندلسية

(٩٤ -٦٢٧هـ/٧١٢ -١٢٢٩م)

وهي إحدى مدن الغرب الأندلسي ، تقع بجوفي قرطبة منحرفة إلى الغرب قليلاً ، وهي مدينة قديمة ، تعني في لسانهم مسكن الأشراف[١] ، أشارت المصادر إلى أن ملوك القوط أول من نزلوها ثم انتقلوا إلى طليطلة ، لذلك أفاضت المصادر في ذكر آثارهم[٢] ، وصفها ياقوت بقوله: (كورة واسعة من نواحي الأندلس متصلة بحوز فرّيش بين الغرب والجوف من أعمال قرطبة إحدى القواعد التي تخيرتها الملوك للسكنى من القياصرة والروم ، وهي مدينة رائقة كثيرة الرخام عالية البنيان فيها آثار قديمة حسنة تقصد للفرجة والتعجب)[٣] ، وهي تقع على نهر آنه ويسمى أيضاً نهر ماردة[٤].

ويتبعها عدد من والأقاليم أجملها البكري بقوله: (ولماردة حصون وأقاليم ، من ذلك مدلّين وحصن مورش وحصن أمّ غزالة وحصن الأرش وحصن أمّ جعفر وحصن الجزيرة وحصن الجناح وحصن الصخرة المعروفة بصخرة أبي حسّان وحصن لقرشان وحصن سنت أقروج في غاية الارتفاع لا يعلوه طائر البتّة لا نسر ولا غيره ، وغيرها من الحصون يكثر ذكرها)[٥] ، وقيل إن لها من القرى يصل عددها إلى ثلاثة آلاف قرية كلها

---

١) الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٨.

٢) ينظر عن آثار ماردة : البكري، المسالك والممالك، ٩٠٦/٢ ؛ الرشاطي، الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ٥٥٥ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٥/٢ -٥٤٦ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢١ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٣ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٨ -٥١٩ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٤ -١٠٧ ؛ عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٣٨٤.

٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٣.

٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٢/٢.

٥) المسالك والممالك، ٩٠٦/٢.

متصلة بعضها ببعض بأشجار الزيتون والعنب وسائر الفواكه[1].

أما المسافات بينها وبين ما جاورها من مدن الأندلس ، فبينها وبين بطليوس على نهر آنه ثلاثون ميلاً[2] ، ومنها إلى قنطرة السيف يومان[3] ، ومنها إلى مدلين مرحلتين[4] ، ومنها إلى حصن الحنش مرحلة[5] ، وبينها وبين قرطبة أربعة أيام[6] ، ومنها إلى قورية أربعة أيام[7].

أما فتحها فكان على يد موسى بن نصير ، فبعد عبوره سنة٩٣هـ/٧١١م إلى الأندلس عسكر بجيشه بالقرب من مدينة الجزيرة الخضراء Algeciaras حيث عقد مؤتمراً حربياً مع قواده الذين بحثوا معه خطة سير الحملة العسكرية واتجاهها ، وقرر الجميع أن أفضل الخطط هي الاتجاه صوب منطقة إشبيلية وغربي البلاد التي لم يتم فتحها بعد من قبل طارق بن زياد ، فتقدم موسى نحو مدينة شذونةMedia Sidonoa ، ومنها إلى مدينة قرمونة Carmona الحصينة التي لم يفلح في فتحها إلا بعد استخدام حيلة حربية محكمة[8] ، وبعدها سار موسى إلى مدينة إشبيلية ، فضرب عليها الحصار عدة أشهر ، تمكن بعدها من دخول المدينة عنوة حيث هربت حاميتها القوطية إلى مدينة باجة Beja[9] ،ثم إلى ماردة ، وقد وصف ابن عذاري فتح موسى لماردة بقوله: (وتقدم موسى إلى مدينة ماردة ، وكانت دار ملك في سالف الأيام ، وكانت فيها آثار عجيبة ، وقنطرة ، وقصور ، وكنائس ، تفوق وصف الناظرين ، وهي إحدى القواعد الأربع بالأندلس التي ابتناها أكتبيان قيصر ، وهي قرطبة ، وإشبيلية ، وماردة ، وطليطلة ، فخرج أهلها إلى حربه نحو الميل منها ، فحاربهم حتى صرفهم إلى المدينة ، فلما

---

١) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٦.

٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٥/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٩ وقال بينهما عشرون ميلاً.

٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٦/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٧٣.

٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٠/٢.

٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٨١/٢.

٦) اليعقوبي، البلدان، ص ١٩٤ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٣ وقال بينهما ستة أيام.

٧) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٧.

٨) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٦.

٩) البيان المغرب، ١٤/٢.

انجلت الحرب ، وكفَّ عن القتال ، طاف موسى بالمدينة ، فرأى نقبا كان لمقاطع الصخر ، فكمن فيه الرجال ليلاً ، فلما أصبح ، زحف إليهم ، فخرجوا كخروجهم في اليوم قبله ، فخرج عليهم الكمين وزحف إليهم المسلمون ، فركبوهم ، فقتلوا أبرح قتل ، ولجأ من بقى منهم إلى المدينة ، فحاصرهم أشهراً ، حتى عمل دبابة ، فدب المسلمون تحتها إلى برج من أبراجها ، فنقبوا صخرة ، فلما نزعوها ، أفضوا إلى صخرة صماء نبت المعاول عنها ويئسوا منها ، فبينا هم يضربون عليها ، إذ استثار العلوج عليهم ، فاستشهد المسلمون تحت الدبابة ، فسمى ذلك البرج برج الشهداء ، وبه يعرف إلى اليوم ، فحميت عند ذلك نفوس العلوج ، وثابت إليهم أنفسهم ، ثم خرجت إليهم رسل ، وتعرضت للصلح ، فساروا إلى موسى ، فرأوا رجلا أبيض الرأس واللحية ، فكلموه بما لم يوافقهم عليه ولم يرضه ، فرجعوا عنه ، ولم يعقدوا شيئاً ، ثم عاودوه يوما آخر ، فألفوه قد حمر رأسه ولحيته بالحناء ، فعجبوا منه ، وراعهم ما رأوه ، ولم يتم لهم أمر ، ثم عاودوا إليه في اليوم الثالث ، وذلك يوم عيد الفطر ، فألقوه قد سود رأسه ولحيته ، فرجعوا إلى المدينة ، وقالوا لمن فيها: ويحكم! إنها تقاتلون أنبياء يتشببون بعد المشيب ، قد عاد ملكهم حدثا بعد أن كان شيخا!) فقالوا: اذهبوا إليه وأعطوه ما سألكم ، فوصلوا إليه ، وصالحوه ، وانعقد أمرهم على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الغائبين بجليقية وأموال الكنائس ، ذلك كله للمسلمين ، ثم فتحوا له الباب من يومهم ذلك ، وهو مستهل شوال من سنة ٩٤ من الهجرة)[1]

ومن الأحداث التي تعرضت لها مادة في عصر الإمارة ثورة يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي فرّ من سجن عبد الرحمن الداخل في قرطبة سنة١٤١هـ/٧٥٨م إلى ماردة وتمكن عبدالرحمن من القضاء عليه بعد سنة[2] ، ثم ثار فيها شقيا بن عبد الواحد المكناسي وادعى أنه من ولد فاطمة ومدّ نفوذه إلى معظم مدن الغرب الأندلسي وشغل قوات الإمارة

١) البيان المغرب، ١٤/٢ -١٥ ؛ ينظر أيضاً : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ٢٦ -٢٧ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٦ -٤٧.

٢) ينظر التفاصيل : ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٩٠ -٩١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٤٩/٢.

من سنة١٥١هـ/٧٦٨م حتى سنة١٦٠هـ/٧٧٦م[1] ، وفي عهد الحكم الربضي(١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م) شغلت الإمارة الأندلسية بثورة أحد زعماء البربر هناك وهو أصبغ بن عبدالله بن وانسوس المكناسي والذي امتدت ثورته من سنة١٩٠هـ/٨٠٥م إلى سنة١٩٢هـ/٨٠٧م[2].

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط(٢٠٦-٢٣٨ هـ/٨٢١-٨٥٢م) عصفت بماردة ثورة البربر ومن أشهر رجالاتها محمود بن عبد الجبار المصمودي الذي استمر عامل قلق لحكومة قرطبة من سنة٢١٣هـ/٨٢٨م حتى سنة ٢٢٥ هـ/٨٣٩م[3] ، وخلال عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن(٢٣٨-٢٧٢ هـ/٨٥٢-٨٨٥م) وابنه عبد الله بن محمد(٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م) شغلت منطقة الغرب الأندلسي بثورة المولدين وعلى رأسهم عبد الرحمن بن مروان الجليقي[4] حتى تمكن عبدالرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) من القضاء عليهم وإخضاعهم للطاعة سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م[5].

وبسبب قوة الدولة خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كانت مدينة ماردة تنعم ببعض الهدوء ، وفي عهد دويلات الطوائف تغلب بنو الأفطس على منطقة غرب الأندلس اتخذوا بطليوس Badajoz قاعدة لإمارتهم وكانت مدينة ماردة ضمن دولتهم إذ شمل نفوذهم المناطق الممتدة من منتصف نهر وادي آنه Rio Guadiana حتى المحيط

---

١) ينظر التفاصيل عن ثورة شقيا المكناسي : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٩٧ -٩٨ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٩٩ -١٠١، ١٠٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٤/٢ ؛ النويري، نهاية الأرب، ٢٠١/٢٣ ؛ الخفاجي، التشيع في الأندلس، ٢٣٥ -٢٣٩.

٢) ينظر التفاصيل عن ثورة أصبغ المكناسي : ابن حيان، المقتبس(للقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/٧٩٦ -٨٤٦ م) ١٢٨ -١٢٩ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٤١ ١٤٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٧٢/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٢٧/٤.

٣) ينظر التفاصيل عن ثورة البربر وعبد الجبار المصمودي وأخته جميلة : ابن حيان، المقتبس(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/٧٩٦.٨٤٦ م)، ٤٣٦ -٤٤٥ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٦٥ -١٦٧.

٤) ينظر التفاصيل عن ثورة الجليقي في ماردة : ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/٩١٢.٨٨٨ م) ص ٣٢ -٣٣ ؛ أبو الخيل، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، ص ١٧٢ -١٧٦ ؛ سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية، ص ٢٨٩ -٣٢٨.

٥) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/٩١٢ -٩٦١م) ص ٢٣٨ -٢٤١، ٢٧١.

الأطلسي ، وشمل كذلك قسم من نهر وادي تاجة شمالاً حتى مدينة قلمرية[1] ، واستمرت ماردة بيدهم حتى دخولها في حوزة المرابطين سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م[2].

وفي أواخر عهد المرابطين شهدت الأندلس قيام ثورات عديدة منها ثورة أهل شرق الأندلس وأهل قرطبة ومالقة Malaga[3] ، ثم جاءت ثورة الجنوب الغربي للأندلس لتضع حدا لنفوذ المرابطين هناك ، وكان من زعماء الثورة في غرب الأندلس سيدراي بن عبد الوهاب بن وزير القيسي الذي تمكن من التغلب على الساحل والغرب ثم دخل في صراع مع أحد الثوار في غرب الأندلس وهو أحمد بن الحسين بن قسي في شلب سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م ، إلا أن الثائرين بعد انضمامهما إلى الموحدين اتفقا على محاربة المرابطين وتمكنا من دخول إشبيلية[4] كما دخلت في حوزتهم العديد من مدن الغرب الأندلسي ومنها ماردة[5] ، وعليه فقد دخل الغرب الأندلسي في طاعة الموحدين وكان واليها من قبلهم سيدراي بن وزير القيسي[6].

إلا أن الأمور لم تستقم كثيراً في يد الموحدين إذ اندلعت الثورات ضدهم في الغرب الأندلسي فقد ثار ابن قسي مرة أخرى في شلب وشهدت بطليوس ثورة محمد بن علي بن حجام[7] ، وترجح سالم أن ثورة ابن حجام في بطليوس كانت في سنة٥٤١هـ/١١٤٦م[8].

إن ما حدث من حركات تمرد في معظم مناطق الأندلس وبالأخص في الغرب أعطى فرصة ذهبية لملك البرتغال الطموح الفونسو هنريكيز(٥٢٢-٥٨١هـ/١١٢٨-١١٨٥م) في توسيع نفوذه والاستيلاء على المزيد من المدن في غرب الأندلس والتي بقيت فريسة سهلة بيده

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨١/٢.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٩/٢ ؛ سالم، تاريخ بطليوس ٢/ ١٠٩ -١٤٥.

٣) انظر التفاصيل: السامرائي وآخرون، تاريخ المغرب العربي، ص ٢٧٦ -٢٨١.

٤) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٧١/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣١٢/٦ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٧٠ -٧٥

٥) أشباخ، تاريخ الأندلس ،٢١٧/١.

٦) سالم، تاريخ بطليوس، ٢/ ١٧٤.

٧) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٢٤/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣١٣/٦.

٨) تاريخ بطليوس، ١٨٠/٢.

بعد أن انهارت الجيوش المرابطية في المغرب على أيدي الموحدين وفي الأندلس على أيدي الثوار وبقيت تلك المدن تقاوم بإمكانياتها الذاتية وبدافع الجهاد في سبيل الله دون أي دعم سياسي أو عسكري من دولة تجمعهم ، أو خارجي ، من دولة تساندهم ، فقام بمهاجمة بعض فلول المرابطين على نهر تاجة وأوقع بهم هزيمة في معركة أوريك[١] ، ثم واصل زحفه تجاه مدن الغرب الأندلسي وكانت مدينة لشبونة الهدف الأول له وذلك لموقعها المهم على مصب نهر تاجة وحصانتها ولكونها أحد أهم معاقل المسلمين في المنطقة[٢] وتمكن من احتلالها سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧م[٣].

وبخصوص مدينة ماردة فقد ذكر ابن الأثير إلى أن النصارى تمكنوا من احتلالها سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م ، إذ قال: (وفيها ملك الفرنج ، لعنهم الله ، مدينة شنترين ، وباجة ، وماردة ، وأشبونة ، وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس ، وكانت للمسلمين)[٤] ، فيما أشار ابن أبي زرع إلى أن ذلك كان سنة٥٤٣هـ/١١٤٧م إذ قال: (... ، وملكوا من بلاد الأندلس أشبونة والمرية وطرطوشة وماردة وإفراغة وشنترين وشنترية ، وملكوا ذلك كله على يد رذريق)[٥] ، وكان هذا هو السقوط الأول للمدينة.

كانت مدينة بطليوس الواقعة إلى الغرب من ماردة الهدف الثاني للملك البرتغالي الفونسو هنريكيز إذ تمكن من دخولها سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م[٦] ، إلا أنها لم تدم طويلاً بيد النصارى إذ تمكن الموحدون من استرجاعها في نفس السنة ، فقد أشار ابن أبي زرع إلى ذلك بقوله :(وفي سنة ست وخمسون ملك الموحدون بطليوس وباجة ويابورة وحصن

---

١) السامرائي وآخرون، تاريخ، ص ٢٥٦. العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٢٧.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٤/٣.

٣) انظر عن اقتحام لشبونة : الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٦٠ -٤٦١. أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢٣٥/١ -٢٣٦ ؛ العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٢٨ -١٢٩.

Paiter , History , P. 194.. Payne , History of Spain and Portugal , P , 119 . Barton, Leon and Castile and the struggle against Islam ,

٤) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٦٢.

٥) الأنيس المطرب، ص ٢٦٣.

٦) سالم، تاريخ بطليوس، ١٩٤/٢.

القصر ، فولا عليها عبد المؤمن ، محمد بن علي بن الحاج)[1].

إلا المصادر التي بين أيدينا لم تشر إلى استرجاع الموحدين مدينة ماردة ولكن ابن عذاري أشار إلى أن الفونسو هنريكيز استعان بفارس مغامر يدعى جراندة الجليقي الذي تمكن من السيطرة على عدد من المدن القريبة منها مثل ترجالة ويابرة وحصن جلمانية القريب من بطليوس وذلك في سنة٥٦٠هـ/١١٦٤م و٥٦١هـ/١١٦٥م[2] ، ثم حاصر مدينة بطليوس نفسها في سنة٥٦٤هـ/١١٦٨م إلا أنه فشل في اقتحامها[3] ، وهذا يعني أن مدينة ماردة كانت لا تزال باقية في يد النصارى الذين شهد نشاطهم العسكري معظم المناطق القريبة منها حتى ذلك التاريخ ، ثم حدث أن تحالف الموحدون مع ملك ليون ضد للملك البرتغالي الفونسو هنريكيز واستطاع الموحدون من استعادة العديد من الحصون القريبة من ماردة لاسيما حصن جلمانية[4] ، والراجح أن مدينة ماردة دخلت في حوزة الموحدين في حدود ذلك التاريخ ، ومما عزز موقع المسلمين فيها هي الحملة التي قادها الخليفة المنصور الموحدي سنة٥٩٢هـ/١١٩٥م إلى الغرب الأندلس لاسيما منطقة الجوف حيث مدينة ماردة وتمكن خلالها من تأمين المنطقة واضطر النصارى إلى مهادنته[5].

إلا أن الحدث الأبرز في تاريخ المنطقة في العهد الموحدي هو ما حدث من هزيمتهم في موقعة العقاب Las. Navas de Tolosa سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ، فقد تغير ميزان القوى في الأندلس ، ولم يعد في مقدور الدولة الموحدية حماية الثغور الأندلسية من هجمات النصارى[6] ، وغدا الأندلسيون كالغنم الفاقدة لراعيها في الليلة الشاتية المطيرة ، وعصفت فيها رياح الثورات المحلية وتغلب الطامحون كل في جهته متناسين رياح الشمال العاتية التي باتت

---

١) الأنيس المطرب، ص ٢٠٠.

٢) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٠٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٤/٤.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٠٤ -١٠٧ ؛ سالم، تاريخ بطليوس، ٢٠٤/٢ -٢١٤.

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١١١ -١١٢ ؛ سالم، تاريخ بطليوس، ٢٢١/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٨/٤.

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم لموحدين، ص٢٢٣؛ سالم، تاريخ بطليوس، ٢٤٩/٢ -٢٥٠.

٦) للمزيد من التفاصيل عن موقعة العقاب، ينظر: المراكشي، المعجب، ص ٢٣٥-٢٣٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦-٤١٧ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٧٠/٢ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٤١٩ وما بعدها.

قريبة من مدنهم تعصفهم ذات اليمين وذات الشمال حتى ألجأتهم من حيث أتوا.

وهكذا فمن جهة بدأت الرياح الصفراء تهب على الأندلس وأخذت المدن الأندلسية تتهاوى أمام ضربات النصارى ، واقتسم الملوك النصارى الكعكة فيما بينهم ، فكان الغرب الأندلسي من حصة مملكة البرتغال وليون[1] ، ففي سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م خرج ملك ليون الفونسو التاسع(٥٨٤-٦٢٨هـ/١١٨٨-١٢٣٠ م) نحو بلاد الجوف ووصل إلى ماردة إلا أنه اضطر إلى الانسحاب لخوفه من التوغل كثيراً في بلاد المسلمين[2] ، وفي سنة٦١٤هـ/١٢١٧م اتجه الملك البرتغالي الفونسو الثاني(٦٠٩-٦٣٠هـ/١٢١٢-١٢٢٣م) إلى مدينة قصر أبي دانس وتمكن من دخولها بدعم من قوات صليبية[3] ، وفي سنة٦٢٤هـ/١٢٢٦م هاجم الفونسو التاسع الليوني مدينة قاصرش من بلاد الجوف وانتهى الأمر بسقوطها وهو ما فتح الباب أمامه للاستيلاء على منتانجش وماردة وبطليوس[4].

ومن جهة أخرى أخذ الضعف والتفكك ينتاب بالدولة الموحدية ، فبعد وفاة الخليفة الموحدي المستنصر(٦١٠-٦٢٠هـ/١٢١٣-١٢٢٣م) بايع أهل مراكش عبد الواحد بن يوسف بن عبدالمؤمن(٦٢٠-٦٢١هـ/١٢٢٣-١٢٢٤م) فعارض بيعته ابن أخيه أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور الذي كان والياً على مدينة مرسيةMurcia ، وقد دعا الأخير أشياخ الموحدين إلى بيعته فتم له ذلك سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م ، وتلقب بالعادل(٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٦ م) ، وسار إلى مدينة إشبيلية Sevilla وأخذ في تدبير حكمه ، فأصبح للدولة الموحدية خليفتين أحدهما في مراكش والآخر في إشبيلية ، إلا أن الأمور لم تنتهي إلى هذا الحد ، ذلك إلى أن ابن عم العادل أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن خلع بيعة العادل ودعا لنفسه خليفة للموحدين ، ومما عزز ذلك طاعة أهل جيان وأبذة وبياسة Baea له ، ولقب بالبياسي لأنه اتخذها مقراً له ، وأرسل إلى ملك قشتالة Castella فرناندو الثالث Fernando III

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٧/٤.

٢) سالم، تاريخ بطليوس، ٢٦٠/٢ -٢٦١.

٣) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٥٩/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٧٥ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ٢٤٢ -٢٤٣ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ٤٥٠/٢ -٤٥١.

٤) سالم، تاريخ بطليوس، ٢٦١/٢.

(٦١٤-٦٥١هـ/١٢١٧ ١٢٥٢م) يطلب الخضوع والطاعة له مقابل مساعدته في التصدي للجيش الموحدي ، وتمكن فعلاً من مهاجمة القوات الموحدية في مدينة بياسة وتمكن بمساعدة النصارى من هزيمتهم وهو ما اضطر الخليفة العادل إلى مغادرة الأندلس إلى المغرب[١].

وأخذت الأندلس تموج بالفوضى مما مهد السبيل لقيام ثورات عديدة فيها إلا أن أشهرها ثورة محمد بن يوسف بن هود الجذامي الذي ذاع صيته أول الأمر واستولى على عدد من مناطق شرق ووسط الأندلس وأعلن الخطبة العباسية سنة٦٢٥هـ/١٢٢٧م[٢] وغدا في نظر البعض المنقذ الذي يمكن أن يحافظ على ما تبقى من الأندلس ، ولما كان الغرب الأندلسي ينظر بفارغ الصبر إلى من يخلصه من فكي الليونيين والبرتغاليين لذا سارع أهالي بطليوس وماردة إلى الانضواء تحت لواء ابن هود[٣].

وفي سنة٦٢٧هـ/١٢٢٩م قام ملك ليون الفونسو التاسع بالزحف على مدينة ماردة فيما سارع ابن هود لإنقاذها ، وأشار ابن عذاري إلى ذلك بقوله: (وفي سنة سبع وعشرين وستمائة تحرك المتوكل على الله بن هود بجيوش عظيمة من المسلمين إلى غزو أعداء الله الكافرين فالتقى مع عساكر الروم على ماردة فدفع فيهم بنفسه بنجدته وعزمه ، ثم انهزم إلى ساقته ، فوجد قد ولوا منهزمين هناك من أجل ذلك ، وكان من طبعه ملولاً عجولاً ، وكانت هذه الغزوة من أول غزواته وأضخمها فلم يُنصر فيها)[٤].

وترجح سالم إلى أن ابن هود وصل لإنجاد ماردة بعد سقوطها بيد الملك الليوني[٥] ، ولكننا نرجح أن ابن هود وصل إلى مدينة ماردة قبيل سقوطها وأنه قاتل القوات النصرانية على مشارفها ، وأن دخول النصارى إليها بعد هزيمته وانسحابه منها ، يفهم ذلك من نص ابن عذاري بقوله: (فالتقى مع عساكر الروم على ماردة) ولو كان الأمر كما ذهبت سالم لقال: في ماردة ، ومما يعزز ذلك قول المقري: (ودخل العدو كورة ماردة

---

١) الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٢/٤ -٣٥٣.

٢) ينظر عن ابن هود وثورته : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٦ -٢٨٤ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢ ؛ الإحاطة، ٧٦/٢.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣١/٥ ؛ سالم، تاريخ بطليوس، ٢٦٣/٢.

٤) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٨٩.

٥) تاريخ بطليوس، ٢٧٤/٢.

من محمد بن هود...)[1] ، كما أن إشارة ابن أبي زرع إلى أن دخول النصارى ماردة بالسيف[2] تعني أن معركة كبيرة حدثت فيها.

وهناك بعض الاختلاف عن تاريخ سقوط ماردة فابن عذاري أعلاه ذهب إلى أنها سقطت سنة٦٢٧هـ/١٢٢٩م ، فيما ذهب ابن أبي زرع إلى أنها سقطت بيد النصارى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م بقوله: (وفي سنة ثمان وعشرين وستمئة كانت هزيمة ماردة على المسلمين ، وفيها دخل العدو ماردة بالسيف)[3] ، فيما ذهب كل من ابن خلدون والمقري إلى أن سقوطها كان سنة٦٢٦هـ/١٢٢٨م[4] ، وذهب عنان إلى أن سقوط ماردة كان سنة٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م[5] ، وهو الراجح كون التاريخ أعلاه ورد عند ابن عذري القريب من الأحداث ، ووصف المقري سقوط ماردة بقوله: (... ، وكانت مفتتح المصائب على يده ، أعادها الله تعالى للإسلام ، وهي قاعدة بلاد الجوف في مدة العرب والعجم)[6] ، إذ بعدها مباشرة سقطت مدينة بطليوس القاعدة المهمة الأخرى من مدن الغرب الأندلسي[7].

وبعد دخول الملك الفونسو التاسع الليوني ماردة قام بمصادرة أملاك المسلمين فيها وتوزيعها هبات إلى بعض قادته ، منها بيت لرجل مسلم يدعى عبد الحليم بن طربيطة ، وكذلك سواقي قريبة من المدينة كانت مُلكاً لبزان البطليوسي[8] ، وهكذا سقطت ماردة بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون٥٣٣ سنة.

---

١) نفح الطيب، ٤/٤٥٦.

٢) الأنيس المطرب، ص ٢٧٥.

٣) الأنيس المطرب، ص ٢٧٥.

٤) العبر، ٤/٢١٩ ؛ نفح الطيب، ٤/٤٦٥.

٥) دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٥٩٧.

٦) نفح الطيب، ٤/٤٦٦.

٧) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤/٤٦٦ ؛ سالم، تاريخ بطليوس، ٢/٢٧٦.

٨) سالم، تاريخ بطليوس، ٢/٢٧٥.

مدينة أبذة Ubada الأندلسية

(٩٢ -٦٣٠ هـ/ ٧١٠ -١٢٣٢ م)

ورد اسم المدينة في المصادر بألفاظ مختلفة بعض الشيء ، فجاءت بلفظ(أبذة ، أو أبدة)[١] ، وأشارت المصادر إلى أنها مدينة محدثة ، وهذه اللفظة تدل على أنها أنشأت بعد الفتح الإسلامي لشبه جزيرة أيبيريا Iberia ، إذ يرجع بناؤها إلى عهد الأمير عبدالرحمن الثاني(٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢١-٨٥٢م)[٢].

تعد مدينة أبذة من أعمال كورة جيان Jaen[٣] ، كما أنها تقع بالقرب من مدينة بياسة Baeza[٤] ، وقد أشار إلى ذلك أبو الفدا بقوله: (... ، ومن أعمال جيان مدينة أبذة ، وهي مجاورة لبياسة...)[٥] ، إذ تبعد عن بياسة سبعة أميال[٦] ، في حين أشار ياقوت الحموي إلى أن المسافة بين المدينتين فرسخان[٧] ، كما تبعد مدينة أبذة عن جيان خمسين كيلو متراً[٨].

وتحدث شيخ الربوة عن هذه المدينة عند حديثه عن كورة جيان وأعمالها بقوله: (كورة جيان وتسمى قنسرين وقصبتها مدينة الحاضرة ،... ، ولها من الأعمال بياسة وأبذة ،...)[٩].

---

١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦١/٢ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٥ ؛ ياقوت الحموي، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٦ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٩٠.

٢) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٥ ؛ ياقوت الحموي، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣ ؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٦٧ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٢٩/٥.

٣) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣.

٤) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٧٥/٢.

٥) تقويم البلدان، ص ١٦٧.

٦) الحميري، الروض المعطار، ص ٦.

٧) الأندلس من معجم البلدان، ص ٩٤، والفرسخ يساوي ٦ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٤.

٨) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٢٨ .

٩) نخبة الدهر، ص ٣٢١.

وقد عدها مؤلف مجهول بأنها من مدن متوسطة الأندلس بقوله: (وأما المدن المتوسطة مثل شريش وقرمونة وبسطة وطليطلة وأبدة وبياسة وباجة...)[1].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة إلى تاريخ وكيفية فتح منطقتها ، وربما ذلك يعود إلى أنها مدينة تابعة إلى كورة جيان ، أضف إلى ذلك أن الفاتحين الأوائل ركزوا على المدن الكبيرة ، ولم يولوا اهتماماً كبيراً بتوابعها باعتبار أنها تفتح بفتح أمهاتها ، فبعد انتصار المسلمين بقيادة طارق بن زياد على لوذريق ملك القوط الغربيين Visigoths في معركة وادي لكة Rio Guadalete في شوال من سنة٩٢هـ/٧١٠م ، سار طارق إلى مدينة إستجة التي كانت مركزاً لتجمع فلول الجيش القوطي بعد هزيمتهم ، وتمكن من الانتصار عليهم ، وعلى إثرها قرر التوجه مباشرة إلى مدينة طليطلة Toledo عاصمة القوط الغربيين لغرض فتحها ، وقبل الشروع بذلك ، قرر إرسال فرقاً من قواته لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط وهي قرطبة والبيرة ومالقة Malaga وتدمير Tudmir[2] ، وتمكن المسلمون من فتح هذه المدن بأكملها[3].

أما كورة جيان الواقعة إلى الشرق من قرطبة والتي يمر بها الطريق الروماني القديم والذي يدعى هانيبال ، فإن طارقاً بعد أن عبر نهر الوادي الكبير تقدم شمالاً باتجاه طليطلة سالكاً ذلك الطريق ، وقد أشار إلى ذلك المقري قائلاً : إن طارقاً بعد بعثه بعضاً من جيوشه إلى مناطق شرق الأندلس(سار هو في معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة)[4] ، وهذا يعني أن كورة جيان وتوابعها بما فيها مدينة أبذة قد فتحت على يد طارق بن زياد وهو في طريقه إلى طليطلة.

ومن خلال ذلك يبدو أن مدينة أبذة فتحت في أواخر سنة ٩٢هـ/٧١٠م ، لأن معركة وادي لكة التي انهزم فيها القوط الغربيين كانت كما قال المقري: (يوم الأحد لليلتين بقيتا

---

١) تاريخ الأندلس، ص ٤٥.

٢) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢.

٣) للمزيد من التفاصيل عن هذه الفتوحات، ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ -٢٢ ؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٤٧ وما بعدها ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢.

٤) نفح الطيب، ٢٦١/٢.

من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعد تتمة ثمانية أيام)[١] ، وكان فتح قرطبة في شوال من السنة نفسها[٢] ، ووصل إلى مدينة طليطلة في أوائل سنة٩٣هـ/٧١١م[٣] ، فهذا يعني أن دخول جيان ومنها مدينة أبذة تحت سيطرة المسلمين قبل هذا التاريخ ، أي خلال المدة بين شوال وذي الحجة من سنة ٩٢هـ/٧١٠م.

ظهر اهتمام المسلمين بمدينة أبذة منذ عهد عبدالرحمن الثاني(٢٠٦–٢٣٨ هـ/ ٨٢١–٨٥٢ م) ، الذي بدأ ببناء هذه المدينة ، وبعده ابنه محمد بن عبدالرحمن(٢٣٨–٢٧٣هـ/ ٨٥٢–٨٨٦ م) الذي عمل على استكمال ما بدأ به أبوه ، وقد أشار إلى ذلك ابن غالب بقوله: (... ، ولها مدينة أبذة معروفة بأبذة العرب ، وهي من بنيان عبد الرحمن بن الحكم ، ابنه محمد بن عبد الرحمن زاد فيها ،...)[٤].

ويبدو أن اهتمام الأمير محمد بن عبد الرحمن بمدينة أبذة كان عسكرياً على أثر الأوضاع المتردية في مدينة طليطلة ومدى تأثيرها على الأوضاع العامة في مدينة أبذة ، ذلك أن أهل طليطلة ثاروا على الأمير محمد سنة٢٣٨هـ/٨٥٢م وتمكنوا من توسيع نفوذهم جنوباً باتجاه مدينة قرطبة وهزموا جيش الإمارة ، لذلك شرع ببناء حصن أبذة سنة٢٣٩هـ/٨٥٣م وشحنه بالمقاتلة وذلك لحماية جيان والمناطق الشمالية من قرطبة من احتمال وصول ثوار طليطلة إليها[٥].

وفي عهد الأمير عبد الله بن محمد(٢٧٥–٣٠٠هـ/ ٨٨٨–٩١٢ م) وقعت أبذة تحت نفوذ ابن حفصون حتى تمكن عبدالرحمن الناصر(٣٠٠–٣٥٠هـ/٩١٢–٩٦١م) من استعادتها سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م[٦] فكانت من أولى المناطق التي فتحها بسبب قربها من قرطبة ، هدأت الأوضاع كثيراً خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي في مدينة أبذة والمناطق المحيطة بقرطبة عامة ، وربما يعود السبب في ذلك إلى قوة السلطة في قرطبة وتوجهها نحو الغزو والجهاد لقتال النصارى في الشمال فانشغل الناس بذلك إلى حد كبير ، فلم تشهد

---

١) نفح الطيب، ٢٥٩/١.
٢) المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.
٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.
٤) فرحة الأنفس، ص ١٥.
٥) ابن حيان ،المقتبس(للحقبة ٢٣٢ –٢٦٧ هـ/ ٨٤٦ –٨٨٠ م) ص ٢٩٣ –٢٩٤
٦) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ –٣٣٠ هـ/ ٩١٢ –٩٤١م) ص ٦٣.

المنطقة أحداثاً كبيرة تجعلها تستحق الذكر في المصادر التي بين أيدينا.

وبعد سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م قام الخليفة المستعين على إعطاء كورة جيان وأعمالها بما فيها مدينة أبذة إلى بني يفرن[١] ، وبعدها استولى عليها محمد بن عبد الملك المظفر[٢] ، وكان ذلك سنة٤١٢هـ/١٠٢١م ، وبقيت ضمن نفوذه حتى سنة٤١٩هـ/ ١٠٢٨م[٣].

وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس سنة٤٢٢هـ/١٠٣٠م[٤] ، تمزقت البلاد إلى طوائف ودويلات حيث تناثرت أشلاؤها ، وتعددت الرياسات في أنحائها فكان مدينة أبذة أول الأمر ضمن حدود دولة بني جهور[٥] ، ويبدو أنها لم تدم طويلاً تحت نفوذهم ، إذ قامت في مدينة المرية Almeria دويلة على يد الفتيان العامريين الذين عملوا على توسيع حدود دولتهم حتى شملت مناطق عدة في عهد زهير العامري ومنها مدن جيان مثل أبذة وبياسة[٦] ، وبعد مقتل الأخير سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م[٧] ، دخلت جيان ومدنها تحت نفوذ بني زيري الصنهاجيين حكام غرناطة[٨] حتى سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م حين تمكن المعتمد بن عباد من توسيع نفوذه على حساب مدينة غرناطة فاستولى على مدينة بياسة[٩] بعد أن أخذ قرطبة[١٠] وربما استولى على مدينة

---

١) وهي أسرة مغربية يرجع أصلها إلى قبيلة زناتة البربرية وأول من دخل الأندلس منهم محمد بن يدر بن محمد اليفرني الذي اختلف مع ابن عمّ له فعبر إلى الأندلس في خلافة هشام المؤيد وخدم المنصور بن أبي عامر ولما حدثت الفتنة تسلموا كورة جيان ثم سكنوا تاكرنا وقلعتها رندة، ينظر : ابن عذاري، البيان المغرب، ١١٣/٣، ٢٧٠ -٢٧٣ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٤/٧ وما بعدها.

٢) هو محمد بن عبد الملك المظفر بن محمد بن أبي عامر لم تتأثر مكانته أيام الفتنة بسبب أمّه الذلفاء التي تعاونت مع الثوار، ينظر : ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٣/٣.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٣٣/٣.

٤) ينظر التفاصيل عن سقوط الخلافة الأموية في الأندلس : ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٣١٧/١ - ٣٢١ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٠٩ -٢١٧.

٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١/٢.

٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦٨/٣ -١٦٩.

٧) ابن بلقين، التبيان، ص ٣٤ -٣٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦٦/٣ -١٦٧.

٨) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٣٠/٢ -١٣١.

٩) ابن بلقين، التبيان، ص ٩٦.

١٠) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٥٩/٢.

أبذة القريبة منهما ، وبقيت ضمن دولة بني عباد حتى تمكن المرابطون ٤٨٤هـ/١٠٩١م بعد دخولهم قرطبة من الاستيلاء على بياسة وأبذة وشقورة ، وقد علق ابن أبي زرع على ذلك بقوله: (... ، وكان فتح المرابطين لقرطبة يوم الأربعاء الثالث من صفر سنة أربع وثمانين وأربعمئة ، ثم فتح بياسة وأبذة وحصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة ، ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى لم يبق لابن عباد بلد إلا وقد ملكه المرابطون ما عدا قرمونة وإشبيلية ،...)[١].

وفي نهاية العهد المرابطي سنة٥٤١ هـ/١١٤٦م ، ومستهل عهد الموحدين Almohadea ، Los ، وعلى إثر اضطراب الأوضاع العامة في الأندلس ، فقد استغل النصارى هذه الأوضاع من أجل السيطرة على مدينتي أبذة وبياسة ، وكانت هذه المدن تحت سيطرة الأمير المرابطي يحيى بن غانية ، وقد رأى نصارى مملكة قشتالة أنه من الحكمة مهادنة يحيى بن غانية في قرطبة ليكون سداً بينهم وبين الموحدين على أن يكون تابعاً لهم ، ويؤدي الجزية وذلك في أوائل سنة٥٤١هـ/١١٤٦م[٢] ، وبعد أن أدرك ملك قشتالة الفونسو السابع(السليطين) Alfonso Raimudez(٥٢٠-٥٥٢ هـ/١١٢٦-١١٥٧م) بتوسع نفوذ الموحدين اشتد في مطالبة ابن غانية وأخذ يضيق عليه ، إذ طالبه بالتنازل عن أبذة وبياسة لقاء الاستمرار في محالفته ، ثم طالبه بالتخلي عن كورة جيان بأكملها أو يقوم بمضاعفة الجزية[٣] ، فتم له ما أراد ، وكان سيطرتهم على أبذة وبياسة وجيان كلها في جماد الأولى سنة٥٤٢هـ/١١٤٧م[٤] ، فكان ذلك السقوط الأول لمدينة أبذة بيد نصارى قشتالة ، وجعل ابن أبي زرع سيطرة النصارى على هذه المدن في سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م بقوله: (وفيها أعطا يحيا بن غانية مدينة أبذة وبياسة وما والاهما من الحصون إلى النصارا فملكوها)[٥].

---

١) الأنيس المطرب، ص ١٥٤.

٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٥٣/٢ -٢٥٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٢/٣.

٣) الضبي، بغية الملتمس، ص ٤٥ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٣٠١/٤ ؛ السلاوي، الاستقصا، ١١٨/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٢/٣.

٤) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٦٤ ؛ النويري، نهاية الأرب، ٤١٣/٢٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٤/٣ -٣٣٥.

٥) الأنيس المطرب، ص ٢٦٣.

إلا أن هذه المدن لم تبق طويلاً في يد الفونسو السابع ، إذ سرعان ما قام المسلمون باسترجاعها سنة٥٤٦هـ/١١٥١م[١] بعد أن مكثوا فيها حوالي خمس سنوات ، وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك بقوله: (... ، ثم استعادها المسلمون بعد ذلك منهم ،...)[٢] ، كما علق ابن أبي زرع بالقول: (... ، فحصر السلطين على أبذة وبياسة وكان قد ملكهما فأخلاهما من النصارا...)[٣].

إلا أن اضطراب أوضاع شرق الأندلس قد خدمت بعض الشخصيات ومنهم محمد بن سعد بن مردنيش الذي تحالف مع النصارى وأخذ يوسع نفوذه على حساب المسلمين وتمكن من السيطرة على جيان وأبذة وبياسة سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م[٤] حتى تمكن الموحدون من السيطرة عليها سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦ م[٥].

ويبدو أن مدينة أبذة عاشت هادئة بعيدة عن التوترات الداخلية والخارجية المتمثلة بالنصارى حتى بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، وبالتحديد سنة٦٠٦هـ /١٢٠٩م ، ففي هذه السنة أخذ النصارى الأسبان بزيادة هجماتهم على المدن الأندلسية ولاسيما الثغر الأوسط ، إذ قام ملك قشتالة الفونسو الثامن(٥٥٣-٦١١هـ/١١٥٨-١٢١٤م) بشن الهجمات على مناطق شمال قرطبة ، فسار باتجاه كورة جيان ، وانتسف زروعها وخرب أراضيها ، وتكرر ذلك أيضاً سنة٦٠٧هـ/١٢١٠ م[٦].

وعلى إثر ذلك جهز الخليفة الناصر الموحدي(٥٩٥-٦١٠هـ/١١٩٨-١٢١٣م) حملة عسكرية كبيرة ، وخرج بقواته من مدينة إشبيلية فأبذة وبياسة ، ثم سار شمالاً ، وكان اللقاء بينه وبين النصارى في موضع يعرف بالعقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ، وكانت نتيجة المعركة هزيمة الجيش

---

١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٩٣ ؛ السلاوي، الاستقصا، ١٢٢/٢.
٢) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٦٤.
٣) الأنيس المطرب، ص ١٩٣.
٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ١٢٦/٢.
٥) لمزيد من التفاصيل ينظر : ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٤١٣ وما بعدها ؛ المراكشي، المعجب، ص ١٧٦ وما بعدها، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٦٢/٢ -٢٦٣ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٨/٣ -٥١ ؛ جابر، بنو مردنيش، ص ١٤٧ -١٤٨.
٦) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٨٤/٣ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ٦٠٧/٢.

الموحدي وقتل أعداد كبيرة منهم ، وعلى إثر هذه المعركة تغير ميزان القوى ، ولم يعد في مقدور دولة الموحدين حماية الثغور الأندلسية من هجمات النصارى[1].

وبعد ذلك سار ملك قشتالة الفونسو الثامن لاستثمار النصر إلى مدينتي أبذة وبياسة القريبتين من موقع المعركة ، فبدأ بمدينة بياسة وقتل معظم من وجد بها وأحرق دورها وخرب مسجدها الجامع ، بعدها نزل على مدينة أبذة ، وقد اجتمع فيها عدد كبير من المسلمين الفارين بالإضافة إلى أهالي بياسة وأبذة ، فحاصرها ثلاثة عشر يوماً ، ثم دخلها عنوة فقتل وسبى وغنم ، وأخذ ملك قشتالة من النساء والصبيان أعداداً كبيرة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة[2] ، وقد قدر أشباخ عدد قتلى المسلمين في مدينة أبذة بستين ألفاً[3] ، أما عنان فذكر أن من قتل وسبي من أهل أبذة نقلاً عن الرواية النصرانية بمائة ألف[4].

وقد علق ابن أبي زرع على الأعمال الوحشية التي مارسها ملك قشتالة الفونسو الثامن في مدينة أبذة بالقول: (ولما فرغ الفونسو الثامن لعنه الله من وقعة العقاب سار إلى مدينة أبذة فدخلها على المسلمين بالسيف عنوة فلن يحي فيها ذكراً كبيراً ولا صغيراً ، ومن بعدها لم يزل يملك بلاد الأندلس بلداً بعد بلد حتى استولا على جميع قواعدها ولم يبق بأيدي المسلمين منها إلا النزر اليسير ، ولم يوقفهم على أخذ تلك البقعة إلا حماية الله عز وجل لها .... ، ويقال إنه لم يبق من ملوك الروم الذين حضروا وقعة العقاب ودخول أبذة إلا مات في تلك السنة بعينها)[5].

ويبدو أن الجيش القشتالي لم يبق في المناطق التي فتحها ، بل انسحب منها فوراً إلى طليطلة وذلك لأسباب عدة منها مصاعب التموين والفوضى بين جنود الجيش

١) للمزيد من التفاصيل حول معركة العقاب ينظر، المراكشي، المعجب، ص ٢٣٠ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦ -٤١٧ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٧٠/٢ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٩١ وما بعدها.

٢) المراكشي، المعجب، ص ٢٣٠ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٢٣/٣.

٣) تاريخ الأندلس، ١٢٣/٢ -١٢٤.

٤) دولة الإسلام في الأندلس، ٣٢٣/٣.

٥) الأنيس المطرب، ص ٢٤٠.

الذين امتلأت أيديهم بالغنائم ، ثم انتشار الوباء بينهم من جراء اشتداد الحرارة ، وتعفن الجثث التي غصت بها تلك الوديان ، فارتد الملوك النصارى في قواتهم نحو الشمال ، ودخلوا طليطلة عاصمة قشتالة في موكب ملوكي ضخم[1].

إلا أن انهيار سلطة الموحدين بعد موقعة العقاب شجع النصارى على تكثيف هجماتهم على المدن القريبة من قرطبة فتمكنوا في احتلال بياسة وقيجاطة٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م[2].

أما مدينة أبذة فإنها ظلت تحت الحكم الإسلامي فيما يبدو لبعض الوقت ، ولعلها حُكمت من قبل أسرة بني مردنيش بعد اضمحلال سلطة الموحدين خلال هذه المدة ، وهذا ما يمكن أن نستشفه من نص ابن الخطيب إذ قال: (... ، بادر الرئيس أبو جميل[3] ببلنسية من مستقرة يومئذ بمدينة أبذة ، فدخلها يوم الاثنين السادس والعشرين لصفر سنة٦٢٦هـ ، وسكن القصر وأخذ البيعة لنفسه أول ربيع الأول من السنة ،...)[4].

ويبدو أن تأخر سقوط مدينة أبذة بيد النصارى لبعض الوقت هو بسبب المنافسة بين ملوك اسبانيا على اقتسام مناطق النفوذ في الأندلس ، فقد كان خايمى الأول(٦١٠-٦٧٥هـ /١٢١٣-١٢٧٦م) ملك أراجونAragon ، وفرناندو الثالث ملك قشتالة ، وألفونسو التاسع (٥٨٤-٦٢٨هـ/١١٨٨-١٢٣٠م) ملك ليونLeon ، يسيطر كل منهم ، على مصاير منطقة من شبه الجزيرة ، فملك أراغون يسيطر على مصايرها من ناحية الشرق ، وملك قشتالة يسيطر على مصايرها من ناحية الوسط ، وملك ليون يسيطر على مصايرها من ناحية الغرب ، وكل منهم يرقب الفرص المواتية للانقضاض على الفريسة(الأندلس) التي مزقتها الفتنة ، وفقدت

---

١) دولة الإسلام في الأندلس، ٣٢٣/٣ ؛ وينظر أيضاً : أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٢٤/٢.

٢) الحميري، الروض المعطار، ص ١٢٢ وجعل سقوطهما سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦ م ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ ؛ ابن أبي زرع الأنيس المطرب، ص ٢٧٣.

٣) هو أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدفع بن أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش كان قائداً لأعنة الخيل ببلنسية، ثم ثار في سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م واستولى عليها وهرب حاكمها الموحدي أبي زيد، وبقي حاكماً على بلنسية حتى سقوطها بيد النصارى سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨م، وتوفي سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م، ينظر : ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٦٢/٢، ٣١٠ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٧٢/٢ -٢٧٣.

٤) أعمال الأعلام، ٢٧٢/٢.

وسائل الدفاع الحقيقية ، وأضحت معظم قواعدها تحت رحمة العدو القوي المتحفز[١].

ولما كانت أبذة قد وقعت تحت نفوذ أبي جميل زيان أمير بلنسية Valencia في شرق الأندلس لذلك لم يقدم ملك قشتالة على مهاجمتها لأن شرق الأندلس ضمن حصة مملكة أراغون ، وكان ملك أراغون في هذا الوقت(أي في٦٢٦هـ/١٢٢٩م) مشغولاً بحملة عسكرية كبيرة أرسلها للاستيلاء على جزيرة ميورقة Mallorca[٢].

إلا أن مدينة أبذة لم تستمر طويلاً بيد أبي جميل زيان فقد ظهر منافس آخر له في شرق الأندلس وهو محمد بن يوسف بن هود الجذامي الذي استولى على مرسية Murcia سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م[٣] وأخذ يوسع نفوذه على حساب جاره أبي جميل زيان صاحب بلنسية واشتعلت نار الحرب بينهما ، وحاصر ابن هود بلنسية ثم ارتدّ عنها[٤] ، توجه بعدها إلى أبذة ، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: (... ، سنة ست وعشرين عندما بويع ابن هود بمرسية ، وخرج إلى أبذة...)[٥].

ويبدو أن توسع ابن هود باتجاه مناطق تعدها قشتالة من حصتها دفعها للإسراع بمهاجمة مدينة أبذة لاسيما وأن خايمي الأول ملك أراغون كان معظم اهتمامه منصباً للحصول على بلنسية[٦] مما جعله يغض النظر عن أبذة ، ففي سنة٦٣٠هـ/١٢٣٢م سار الملك القشتالى فرناندو الثالث بقواته من أجل السيطرة عليها ، وكانت أبذة من أمنع مدن جيان وأوفرها سكاناً وأقواها حامية ، لذلك قام فرناندو في البداية بحصارها من أجل إضعافها ، كي يرغم أهلها على التسليم ، واستمر حصاره لها من يناير حتى يوليه سنة ١٢٣٢م/٦٣٠هـ ، فلما عدمت الأقوات ، ولم تصل أي نجدة أو إمدادات لها ، اضطرت المدينة إلى التسليم مقابل أن يؤمن

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٩٩/٣.

٢) ينظر التفاصيل عن حملة ملك أراغون خايمي الأول على جزيرة ميورقة : الدرويش والعلياوي، برشلونة بين الإسلام والنصرانية، ص ٩٣ -٩٧.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٧/٢.

٤) ابن خلدون، العبر، ٢١٤/٤.

٥) العبر، ١٧٢/٤.

٦) ابن الابار، الحلة السيراء، ١٢٧/٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٩ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٤٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٤/٤ -٢١٥.

سكانها على أنفسهم ، وأن يسمح لهم بأن ينقلوا من أموالهم ما يستطيعون حمله معهم وأن تضمن سلامتهم حتى يصلوا إلى مناطق نفوذ المسلمين[1].

وقد أشار ابن عذاري إلى سقوط المدينة بيد النصارى الأسبان سنة٦٣٠هـ/١٢٣٢م بقوله: (وفيها أخذ العدو قصبة مدينة أبذة أعادها الله للإسلام)[2] ، ويبدو أن ابن هود لم يستطع إنقاذ المدينة أو الدفاع عنها أو حتى إرسال نجدة إليها فتركها تواجه مصيرها بنفسها وذلك لأنه كان منشغلاً بقتال منافسه المسلم الآخر الذي ظهر على الساحة الأندلسية وهو محمد بن يوسف بن الأحمر(٦٣٥-٦٧١هـ/١٢٣٧-١٢٧٢م) ، ثم ذهب أكثر من ذلك بأن عقد معاهدة مع الملك القشتالي شرط عليه فيها الأخير أن يؤدي له جزية مقدارها ألف دينار عن كل يوم كي يتفرغ لمحاربة ابن الأحمر ، وقد أشار ابن أبي زرع إلى ذلك بقوله: (عقد ابن هود الصلح مع العدو لانشغاله بقتال ابن الأحمر... فصالحه بألف دينار في كل يوم)[3].

وبسقوط مدينة أبذة نهائياً بيد النصارى ، توالت سقوط العديد من المدن الأندلسية الأخرى بعد مدة وجيزة ، إذ سقطت مدينة قرطبة بيد ملك قشتالة فرناندو الثالث نفسه سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م[4] ، كما سقطت مدينة بلنسية سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م بيد حاكم أراغون وبرشلونة Barcelona خايمي الأول[5] ، وهكذا سقطت مدينة أبذة بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٥٣٨ سنة.

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٠٢/٣.

٢) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٠٣.

٣) الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ ؛ وينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٠٣

٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٥٩ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٦ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٧٦/٤.

٥) ابن الابار، الحلة السيراء، ١٢٧/٢ ؛ ابن سعيد المغرب في حلى المغرب، ٣٠٣/٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٩ ؛ الدرويش والعلياوي، برشلونة بين الإسلام والنصرانية، ص ١٧٨ - ١٨٠.

كورة فحص البلوط Los Pedroches الأندلسية
(٩٢ -٦٣٢ هـ/ ٧١٠ -١٢٣٤ م)

فحص البلوط مدينة أندلسية ، اسمها مشتق من كلمتين هما: الفحص وتعني في اللغة شدة الطلب خلال كل شيء[١] ،ويقال فَحَصَ التراب المطر إذا قلّبه ونحّى بعضه عن بعض ، وأيضاً: هو كل موضع يُسكن ، وهو في الأصل لما استوي من الأرض والجمع فحوص[٢] ،وليس بعيداً عن هذا المعنى عند أهل الأندلس ، فقد أشار ياقوت إلى ذلك قائلاً: (سألت بعض أهل الأندلس: ما تعنون به؟ فقال: كل موضع يُسكن سهلاً كان أو جبلاً بشرط أن يزرع نُسميه فحّصاً ثم صار علماً لعدة مواضع ،..)[٣] ، وقياساً على هذا المعنى فقد عُرف في الأندلس مواضع عدة تدعى فحصاً[٤] ، إلا أن أشهرها وربما أكبرها هو فحص البلوط.

أما البلوط فهو شجر دائم الخضرة امتاز به مناخ البحر المتوسط[٥] ، وهو كبير الحجم يصل علوه إلى خمسة وعشرين متراً وعوده صلب ولحاؤه صلب[٦] ، ويكثر شجر البلوط في هذه المنطقة ، فجاء في العديد من المصادر ما يشير إلى ذلك ، فذكر ابن غالب أن فيها(شجر البلوط الحلو اللذيذ الذي لا يبلغه بلوط في الأندلس)[٧] ، فيما أشار

---

١) الفراهيدي، العين، ١٣٢/٣ ؛ الزبيدي، تاج العروس، ٦٣/١٨(مادة فحص).
٢) الزبيدي، تاج العروس، ٦٤/١٨(مادة فحص).
٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٠١.
٤) هناك عدة أماكن تدعى الفحص، ينظر التفاصيل : ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٠٠ -٢٠١
٥) شرف، المقدمات في الجغرافية الطبيعية، ص ٣٥٦.
٦) رويحة، التداوي بالأعشاب، ص ٨٠.
٧) فرحة الأنفس، ص ٢٠.

الإدريسي إلى ذلك بقوله :(ويحيط بجبالهم وسهولهم شجر البلوط الذي فاق طعمه طعم كل بلوط على وجه الأرض)[١] ، وقال ياقوت :(وأكثر أرضهم شجر البلوط)([٢] ، ومن هنا جاءت تسمية المنطقة بفحص البلوط أي الأرض التي يكثر فيها هذا النوع من الشجر والتي نزلها الناس لأجل ذلك.

ويمكن تحديد موقع منطقة فحص البلوط من خلال تتبع العديد من النصوص في ذلك ، فالرشاطي ذكر أنها(بالأندلس لجهة قرطبة ولجهة بطليوس)[٣] ، فيما قال الإدريسي: إنها من(سار من قرطبة في جهة الشمال إلى عقبة ارلش أحد عشر ميلاً[٤] ومنها إلى دار البقر ستة أميال ثم إلى بطروش أربعون ميلاً... ومن حصن بطروش إلى حصن غافق سبعة أميال... ومن قلعة غافق إلى جبل عافور مرحلة[٥] ثم إلى دار البقر مرحلة ثم إلى قلعة رباح)[٦] ، وأشار ياقوت إلى أنها(بين المغرب والقبلة من أوريط وجوف قرطبة)[٧] ، وذهب ابن الأبار إلى أنها من جوف قرطبة[٨].

من النصوص أعلاه يمكن القول إن منطقة حصن البلوط تقع إلى الشمال من قرطبة مع انحراف إلى الغرب باتجاه قلعة رباح Calatrava وطليطلةToledo ، ولعل وقوعها على الطريق الموصل إلى طليطلة جعل شيخ الربوة يعدها من أحواز طليطلة[٩] ، فيما

---

١) نزهة المشتاق، ٢/٥٨٠.

٢) الأندلس من معجم البلدان، ص ٨٩.

٣) الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ٣٧.

٤) الميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٨.

٥) المرحلة : قال شيخ الربوة إن مقدار مسير الإنسان في الأرض المستقيمة مرحلة وهي ستة فراسخ وثلثا فرسخ، نخبة الدهر، ص ٢٢ ؛ وهي ما يعادل ٤٠ كم على اعتبار أن الفرسخ يساوي ٦ كم، ينظر: هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٤ ؛ فيما ذهب كراتشوفسكي أن المرحلة تساوي ٣٧ كيلو متر ونصف، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ٢/٩٧٣.

٦) نزهة المشتاق، ٢/٥٨٠.

٧) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٠١.

٨) التكملة، ١/١٦٤.

٩) نخبة الدهر، ص ٣٢٢.

جعلها ابن الأبار من عمل قرطبة[1] ، ولكن الراجح أنها عمل قائم بذاته كما أشارت المصادر الجغرافية أعلاه.

لم تشر المصادر المتوفرة بين أيدينا إلى أن فحص البلوط كانت مقر لمدينة قديمة ، وهي كما مرّ بنا عبارة عن فحص أي أرض خصبة صالحة للزراعة ، وهذا يعني أنها تجمعات ريفية استوطنها المزارعون واستغلوا ثرواتها الطبيعية ، ولهذا لم يرد ذكرها في الفتوحات الإسلامية حيث جاء ذكر المدن المهمة القريبة منها كإستجة Ecija وقرطبة وجيان Jaen ثم طليطلة ، وبما أنها واقعة إلى الشمال من قرطبة وعلى الطرق المتجه نحو طليطلة ، فالراجح أنها فُتحت من قبل طارق بن زياد ، إذ أن الأخير لما انتصر على القوط في معركة وادي برباط في رمضان من سنة٩٢هـ/٧١٠م تقدم نحو إستجة ومنها أرسل بعوثه نحو قرطبة ومالقة Malaga وغرناطة Granada فيما سار هو مسرعاً إلى طليطلة[2] سالكاً الطريق الروماني القديم[3] ، وكان فتح قرطبة في شوال من سنة ٩٢ هـ /٧١٠ م[4] ، لذا فالراجح أن فحص البلوط فتحت في نهاية سنة ٩٢ هـ/٧١٠ م.

لم تشهد منطقة فحص البلوط أحداثاً كبيرة طيلة عصري الإمارة(١٣٨-٣١٦ هـ /٧٥٥-٩٢٨م) والخلافة(٣١٦-٤٢٢ هـ/٩٢٨-١٠٣٠ م) والراجح أن ذلك يعود لسببين أولهما: قربها من قرطبة مما جعل قبضة الدولة عليها قوية ، وثانيهما: غنى المنطقة التي كانت تعج بثرواتها المعدنية والزراعية دفع سكانها إلى الابتعاد عن الفتن والمشاكل والحروب حفاظاً على مصالحهم الاقتصادية ، ولهذا نراها في معظم تلك المدة تسير في ركب الدولة فكانت تدفع الضرائب السنوية إليها[5] ، وفي عهد الطوائف(٤٢٢-٤٨٤هـ /١٠٣٠-١٠٩١م) وبحكم موقع فحص البلوط بالقرب من قرطبة أصبحت تابعة لدولة بني جهور(٤٢٢-٤٦٢ هـ/١٠٣٠-١٠٦٩م) ،

---

١) التكملة، ١١٣/١.

٢) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ -٢٠ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢، ١٠، ١١، ١٣.

٣) مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٣٩ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٣٣.

٤) المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.

٥) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٣٦.

وغدت مناطق متوسطة الأندلس في عهدهم حرماً آمناً لمعظم زعماء الطوائف وسادت فيها السكينة والأمن وانتعشت الحياة الاقتصادية بعد أن أمن التجار على أمولهم[1].

ثم شهدت المنطقة صراعاً بين بني عباد(٤١٤-٤٨٤هـ/١٠٢٣-١٠٩١م) وبنو ذي النون(٤٢٧-٤٧٨هـ/١٠٣٥-١٠٨٥ م) إلى أن آل نهاية الصراع إلى سيطرة بني عباد على المنطقة[2] ، واستمرت تحت نفوذهم حتى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م سارت قوات مرابطية نحو قرطبة وافتتحوها وقتل حاكمها الفتح بن المعتمد بن عباد[3] ، وبذلك أصبحت فحص البلوط ضمن أملاك الدولة المرابطية ، وعلى الرغم من تمكن المرابطين من السيطرة الأندلس الأوسط(قرطبة وما حولها) إلا أن المنطقة الواقعة إلى الشمال من قرطبة حتى طليطلة صارت هدفاً لغارات ملك قشتالة Castilla لاسيما بعد سقوط طليطلة سنة٤٧٨هـ/١٠٨٥ م ، وبذلك تحول شمال قرطبة إلى ثغر بعد أن كان طيلة المدة السابقة بعيداً عن مسرح العمليات العسكرية.

ففي سنة٥٢٨هـ/١١٣٣م عبرت القوات القشتالية جبال الشارات واجتمعت إلى الشمال من قرطبة في وقت الحصاد فأمر ملك قشتالة بانتساف حقول القمح والكروم والزيتون وغيرها من الزروع فساد الرعب بين المسلمين وهجروا السهول والقرى إلى الحصون والجبال واستمر الجيش القشتالي في زحفه وهو يحرق المزارع والقرى حتى وصل إلى مشارف إشبيلية ثم ارتدوا إلى طليطلة[4].

تزامنت هذه الأحداث مع انهيارات متلاحقة أصيبت بها الدولة المرابطية في المغرب على أيدي الموحدينLos ، Almohades[5] ، وهو ما شجع العديد من القوى في الأندلس على الخروج على سلطتهم ، والذي يهمنا هو الأحداث في قرطبة وما حولها وانعكاساتها إلى منطقة فحص البلوط ، ففي سنة٥٣٩هـ/١١٤٤م ثار أهالي قرطبة وبايعوا القاضي

---

١) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٢٠.

٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٥٥/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦١/٢

٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٥٤.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ١٤١

٥) ينظر التفاصيل عن تلك الأحداث، ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٧٥ -٤٠٣ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٥٦/٣ -٣٥٤.

حمدين بن محمد بن حمدين وطاردوا المرابطين وأخرجوهم من المدينة ، وكان الوالي المرابطي يحيى بن غانية في غرب الأندلس يصارع المتغلبين فعاد أدراجه نحوها ، من جانبه كان سيف الدولة أحمد المستنصر بن هود[1] قد تحالف مع ملك قشتالة ودخل قرطبة بدعم من ملك قشتالة ، وإزاء ذلك انشق أهالي قرطبة بين القوى الثلاثة التي تريد إحكام سيطرتها عليها وهم : القاضي ابن حمدين ، وابن غانية الوالي المرابطي ، وسيف الدولة بن هود ، ولكن الأخير وبدعم من النصارى استطاع التغلب عليها ولكنه لم يستمر طويلاً إذ لم يطيق أهلها منظر الجند النصارى في مدينتهم فثاروا به وتغلب عليها الفريق المؤيد للقاضي ابن حمدين إلا أن ابن غانية تمكن من دخول قرطبة مرة أخرى وطرد ابن حمدين ، عندها فعل الأخير ما فعله حكام الطوائف السابقين بأن أرسل إلى ملك قشتالة يطمعه في قرطبة فأرسل قوة تمكنت من إرجاع ابن حمدين ودخل القشتاليون المدينة واستباحوا جامعها وأسواقها ، وكان ابن غانية آنذاك يدافعهم في قصبتها ، وفي ذلك الأثناء عبر الجيش الموحدي إلى الأندلس ، فعندما علم الملك

١) وهو آخر أمراء بني هود في الأندلس بعد سقوط سرقسطة ذهب إلى الفونسو السليطين ملك قشتالة وليون رأى فيه سيف الدولة حليفاً أفضل وعقد تحالفاً معه بأن يتنازل له عن حصن روطة على أن ينضوي تحت لوائه مقابل حصون في طليطلة ومناطق أخرى غرب الأندلس، بيد أن الملك النصراني لم يجد من يقبل بسيف الدولة مما اضطره للبقاء في بعض أملاكه بطليطلة ويعلق الذهبي على ذلك بقوله(وبئس للظالمين بدلا)، وبقي في طليطلة بضعة أعوام إلى قامت ثورة في قرطبة في أواخر أيام المرابطين سنة٥٣٩ هـ /١١٤٤ م فاستدعوا سيف الدولة بن هود ليتولى إمارة قرطبة وعندما حلّ لم يمض أيام قلائل حتى ثار عليه القرطبيون ففرّ ناجياً بنفسه إلى جيان، ولم يلبث بها هي الأخرى إلا يسيراً حتى استدعاه أهل غرناطة فتوجه إليها مع ثلة من جنده بعضهم من النصارى فالتقى بالجيش المرابطي وهُزِمَ وقتل العديد من جنده ولم يُفلح في دخولها فرجع إلى قاعدته جيّان، وفي سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م قامت ثورة بمرسية فتوجه إليها سيف الدولة بن هود في جماد الآخرة وبقي فيها حتى هاجمها النصارى في شعبان من نفس السنة فهزم المسلمون هزيمة شنيعة قتل فيها ابن هود، ينظر التفاصيل : ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ويجعلها في سنة ٥٢٧ هـ/ ١١٣٢ م ؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٤٨/٢ -٢٥٠ ؛ ابن سعيد، المغرب، ٤٣٨/٢ -٤٣٩ قال قتله النصارى في معركة السلك ذوو البيوت ؛ الذهبي، سير، ٤٤٨/١٤ -٤٤٩ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٧٣/٢ -١٧٥.

القشتالي بذلك رأى أن يهادن ابن غانية ليكون سداً لبلاده وأن يحكم قرطبة تابعاً له وباسمه[1].

وخلال مدة حكم يحيى بن غانية لقرطبة اضطره الملك القشتالي التنازل عن العديد من الحواضر الإسلامية الواقعة شمال قرطبة ، فقد تنازل له عن حصن أندوجر Andujar وبياسة وأبده Ubeda ثم طالبه بجيان مما دفع ابن غانية إلى التردد في إجابته وأخذ يفكر في التعاون مع الموحدين ضد أطماع الملك القشتالي فذهب إلى غرناطة من أجل ذلك إلا أنه توفي في سنة٥٤٣هـ/ ١١٤٨م[2].

وأشار ابن غالب إلى أن فحص البلوط دخله النصارى بعد سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م[3] فكان ذلك السقوط الأول لها ، والراجح أن ذلك حدث في أيام ولاية يحيى بن غانية المرابطي لقرطبة لأن بياسة وأبده هي الأقرب إلى قرطبة من فحص البلوط.

وعلى الرغم من تمكن الموحدين من استعادة قرطبة من أيدي النصارى في سنة ٥٤٣هـ /١١٤٨م[4] ، إلا أن فحص البلوط بقيت فيما يبدو بيد النصارى حتى سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م ، فقد أشار ابن عذارى إلى أن الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي(٥٢٤-٥٥٨هـ/ ١١٢٩-١١٦٢م) عين على قرطبة سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م أبا زيد عبد الرحمن بن بخيت(فعندما وصل إليها خرج مع الموحدين إلى حصن البطروج وما يليه من الحصون التي فيها النصارى دمرهم الله تعالى وفتح الله به عليهم بهزائم شتى وصحبه النصر على ما يراد ويتأتى وهزم القمط اللعين صاحب بطروج ثم تغلب على الحصن المذكور بعد ذلك وأخذ فيه القمط المذكور وبعث به إلى مراكش.. ثم توالى غزو ابن بخيت من قرطبة لبعض الحصون ونازلها وتغلب عليها منها حصن منتور والمدور وغيرهما وخاطب الحضرة بجميع هذا الفتح)[5].

---

١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٢٩/٢ -٢٣٠ ؛ الإحاطة، ٣٠١/٤ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٧٧ -٨٢.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٣٠٢/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٣٣٣.

٣) فرحة الأنفس، ص ٢٠.

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٢.

٥) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٥٤.

وبذلك فقد عادت منطقة فحص البلوط مرة أخرى إلى المسلمين إلا أنها أصبحت تابعة إلى والي قرطبة الموحدي ، وقد تعزز مركز الدولة الموحدين في الأندلس الأوسط عندما نقل مركز الحكم من إشبيلية إلى قرطبة إذ أصدر الخليفة عبد المؤمن أمراً بذلك وبعث إلى ابنه السيد أبي يعقوب يوسف بالانتقال إليها فوصلها في شوال سنة٥٥٧هـ /١١٦١م ، وقد أشار ابن أبي صاحب الصلاة إلى ذلك بقوله: (أن تكون مقرا للأمر بالأندلس كفعل بني أمية بها في قديم حقبها ، إذ هي متوسطة الأندلس ، وأن تكون أشغال الأعمال مستقرة فيها)[1] فساد الهدوء في أرجائها بعد أن لبثت أعواماً طويلة مسرحاً للفتن وعاد إليها الكثير من أهلها[2] ، ولعل ذلك انعكس ايجابياً على الأوضاع في المناطق القريبة منها مثل فحص البلوط.

إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً ، ففي سنة٥٦٥هـ/١١٦٩م قامت القوات القشتالية بمهاجمة متوسطة الأندلس واخترقوا الأندلس من أقصاها إلى أقصاها حتى وصلوا إلى الجزيرة الخضراء Algecira ثم إلى البحر وقتلوا وسبوا ثم انسحبوا[3] ، وقد استمرت عمليات الكر والفر بين الجانبين طيلة عصر الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٢-١١٨٤ م)[4] ، والذي يبدو أن كلاً من الجانبين لم يستطع أن يغير الخارطة على الأرض بشكل كبير فاستمر تمركز القوات الموحدية في قرطبة واستمرت الغارات القشتالية على أطرافها الشمالية ما يعني أن منطقة فحص البلوط التي ظلت طيلة الحقب السابقة بعيدة عن ساحات المعارك تحولت في هذا العهد إلى ثغر.

ثم جاءت هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م[5] أن دخلت دولتهم

---

١) تاريخ المن بالإمامة، ص ١٩٧.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين، ٣/ ٣٩٢.

٣) ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٤٢٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١١٠.

٤) ينظر الأحداث في الأندلس في عصر أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٩٥ -١٣٠.

٥) لمزيد من التفاصيل عن معركة العقاب ينظر : المراكشي، المعجب، ص ٢٣٠ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ٢٣٩ -٢٤٠ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٧٠ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٩١ وما بعدها.

في مرحلة من الضعف والانحلال ، فشب صراع داخلي على السلطة بين أسرة بني عبد المؤمن ، وفي الأندلس تحفزت القوى المحلية للانفراد بالسلطة في مختلف المناطق والثورة على الموحدين على نفس الصورة التي جرت في أواخر عهد المرابطين ، إلا أن أخطرها على قرطبة وما جاورها هي حركة أبي محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن الذي خلع بيعة العادل الموحدي(٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١١٢٦م) ودعا لنفسه خليفة للموحدين وأطاعه أهل جيّان وأبدة وبيّاسة ، ولقب بالبيّاسي لأنه اتخذها مقراً له وتحالف مع النصارى وذلك سنة٦٢٣هـ/١٢٢٦م[١].

لبثت حركة عبد الله البياسي ثلاثة أعوام كان من أهم نتائجها أنه مهد للنصارى السيطرة على العديد من المدن والحصون المهمة ، ففي سنة٦٢٣هـ/١٢٢٦م قام الملك القشتالي فرناندو الثالث(٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧-١٢٥٢م) باحتلال حصن قبالة المنيع[٢] وأخرج الناس فيه إلى حصن غافق[٣] من فحص البلوط ، والتي يبدو أنه حتى ذلك الوقت لا تزال بأيدي المسلمين ، وفي تقديرنا أن صمود منطقة فحص البلوط بوجه هجمات النصارى على الرغم من ضراوتها يعود إلى بسالة الأهالي في الدفاع عن أرضهم ، وقد أشار الإدريسي إلى ذلك عند حديثه عن حصن ومدينة غافق بقوله :(وحصن غافق حصن حصين ومعقل جليل وفي أهله نجدة وعزم وجلادة وحزم وكثيرا ما تسرى إليهم سرايا الروم فيكتفون بهم في إخراجهم عن أرضهم وإنقاذ غنائمهم منهم والروم يعلمون بأسهم وبسالتهم فينافرون أرضهم ويتحامون عنهم)[٤].

إلا أن جهودهم الذاتية لم تستطع مقاومة الجيوش الكبيرة للدول النصرانية يقابلها غياب كامل لدور الموحدين في الأندلس[٥] ، فيما أخذت نار الفتنة في هذا الأثناء تندلع في

١) ينظر التفاصيل عن حركة البياسي : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ -٢٧٣ ؛ الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية سلسلة رقم(١)، ص ١٤٥ -١٤٩.

٢) وهو من الحصون الواقعة شمال قرطبة، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٠/٣ هامش(١).

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٢/٣.

٤) نزهة المشتاق، ٥٨٠/٢.

٥) ينظر عن نهاية الوجود الموحدي في الأندلس : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٣٨٩ -٣٩٨.

الأندلس بسبب انحسار الدور الموحدي وظهر على الساحة شخصيتين هما محمد بن يوسف بن هود ومحمد بن يوسف بن الأحمر ، وفي أول الأمر ذاع صيت ابن هود واستولى على عدد من مناطق شرق ووسط الأندلس وأعلن الخطبة العباسية ، إلا أنه لم يستطع تجاهل القوة الرئيسة في الأندلس الأوسط(أي ملك قشتالة) فاضطر إلى مهادنته على أن يقره على قرطبة مقابل أن يسلمه ثلاثين حصناً[1] وكان ذلك سنة٦٣٢هـ/١٢٣٤م ، وفي السنة التالية (أي٦٣٣هـ/١٢٣٥م) تمكن ملك قشتالة فرناندو الثالث من الاستيلاء على قرطبة[2] ، وبسقوطها سقطت أيضاً جميع مدن وحصون الأندلس الأوسط ولاسيما تلك التي كانت تقع إلى الشمال منها.

وعلى الرغم من عدم ورود تفاصيل عن تاريخ سقوط فحص البلوط بيد النصارى ، إلا أننا نستطيع من خلال النصوص أعلاه أن نرجح أنها خرجت من أيدي المسلمين قبيل سقوط قرطبة بقليل ، وذلك لأن مدينة غافق وهي قصبة فحص البلوط كانت حتى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م بيد المسلمين ، كما أن ابن هود عقد مع الملك القشتالي هدنة مقابل التنازل له عن ثلاثين حصناً سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م وهذه أغلبها من حصون شمال قرطبة ، وعليه فإن هذا التاريخ هو الأنسب في تقديرنا لسقوط مدن وحصون فحص البلوط بيد النصارى ، وبذلك انتهى حكم المسلمون لمنطقة فحص البلوط بعد أن مكثوا فيها مدة ٥٤٠ سنة.

---

١) ابن خلدون، العبر، ٢١٩/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٧/٣

٢) ينظر عن سقوط قرطبة بيد الملك القشتالي : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٤١.

مدينة فريش Fresh الأندلسية
(٩٢ -٦٣٢ هـ/٧١٠ -١٢٣٤ م)

فريش مدينة أندلسية ضبطها ياقوت بقوله :(بكسر أوله وثانيه ، وسكون ثالثة ثم شين معجمة)[١] ، وفريش لغة تعني ما انبسط على وجه الأرض من النبات ، ولم يقم على ساق ، كما تعني الطريقة المطمئنة من الأرض ولا يكون ذلك إلا فيما اتسع من الأرض واستوى وأصحر[٢] ، ولعل اسمها جاء من طبيعة أرضها إذ وصفتها المصادر أنها ذات مروج كثيرة[٣] ، والمرج هي الأرض الواسعة ذات النبت الكثير تمرج فيها الدواب[٤] والجمع مروج[٥] ، ولا يوجد اختلاف في تسميتها سوى أن المقدسي أسماها قرسيس[٦] ، وشيخ الربوة أسماها قريش[٧] ، فيما يبدو أن ذلك كان تصحيفاً.

أما موقعها فابن غالب ذكر أن فريش تقع غرب فحص البلوطLos Pedroches ، وقرطبة Cordoba[٨] ، وقال ابن الخراط: إنها موضع بالأندلس بين الجوف والغرب من قرطبة[٩] ، فيما كان ياقوت أكثر تحديداً إذ قال: (مدينة بالأندلس غربي فحص البلوط

---

١) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٠٥.

٢) الزبيدي، تاج العروس، ٣١١/١٧(مادة فرش).

٣) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢١ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٦٤ ؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ١٢٥٥/٣ ؛ الزبيدي، تاج العروس، ٢٠٨/٦(مادة مرج)

٤) الفراهيدي، العين، ١٢٠/٦(مادة مرج).

٥) الزبيدي، تاج العروس، ٢٠٧/٦(مادة مرج).

٦) أحسن التقاسيم، ص ٢٣٤.

٧) نخبة الدهر، ص ٣٢٢.

٨) فرحة الأنفس، ص ٢٠.

٩) اختصار اقتباس الأنوار، ص ١٠٦ ؛ ينظر أيضاً : الحميري، الروض المعطار، ص ٤٤٠.

بين الجوف والغرب من قرطبة وأكثر انحرافها إلى الغرب)[١] ، ومن النصوص أعلاه يمكن القول إن فريش تقع إلى الشمال من قرطبة مع انحراف إلى الغرب باتجاه ماردةMerida ، وقد أشار إلى ذلك ابن غالب بقوله إن كورة ماردة تتصل بأحواز فريش[٢].

أما المسافات بينها وبين أمهات المدن الأندلسية وتحديداً ، فالمقدسي ذكر أنها تقع على ستين ميلاً[٣] من قرطبة[٤] ، فيما ذكر ابن الخراط أن بينها وبين قرطبة أربعون ميلاً[٥] ، وإلى ذلك ذهب الحميري أيضاً[٦] ، ولعل التباين أعلاه في قياس المسافة بينها وبين قرطبة الواردة في المصادر ليس كبيراً حسب قياسات ذلك الوقت ، وقد اتفقت معظم المصادر على أنها من مدائن قرطبة وتوابعها[٧].

لم يرد ذكر مدينة فريش في الفتوحات الإسلامية ، إلا أنه جاء ذكر المدن المهمة القريبة منها كإستجة Ecija وقرطبة وجيان Jean ثم طليطلةToledo ، وبما أنها واقعة إلى الشمال من قرطبة وعلى الطرق المتجه نحو طليطلة ، فالراجح أنها فُتحت من قبل طارق بن زياد ، إذ أن الأخير لما انتصر على القوط في معركة وادي برباط في رمضان من سنة ٩٢هـ/٧١٠م تقدم نحو إستجة ومنها أرسل بعوث نحو قرطبة ومالقة Malaga وغرناطة Granada فيما سار هو مسرعاً إلى طليطلة[٨] سالكاً الطريق الروماني القديم[٩].

وكان فتح قرطبة في شوال من سنة٩٢هـ/٧١٠م[١٠] ، توجه بعدها طارق إلى طليطلة

---

١) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٠٥.

٢) فرحة الأنفس، ص ٢١.

٣) الميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.

٤) أحسن التقاسيم، ص ٢٣٤.

٥) اختصار اقتباس الأنوار، ص ١٠٦.

٦) الروض المعطار، ص ٤٤٠.

٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٢٣ ؛ المقري، نفح الطيب، ٦٥/٢.

٨) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ -٢٠ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢، ١٠، ١١، ١٣.

٩) مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٣٩ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٣٣.

١٠) المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.

ودخلها كما يرجح الحجي في ذي القعدة من سنة٩٢هـ/٧١٠م[١] ، وعلى هذا فإن فتح المنطقة المحصورة بين قرطبة وطليطلة ومنها فريش كان في أواخر سنة٩٢هـ/٧١٠م.

لم تشهد مدينة فريش أحداثاً كبيرة طيلة عصر الإمارة(١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م) والخلافة(٣١٦-٤٢٢هـ/٩٢٨-١٠٣٠م) ، والراجح أن ذلك يعود لسببين أولهما: قربها من قرطبة ما جعل قبضة الدولة قوية عليها ، وثانيهما: غنى المنطقة التي كانت تعج بثرواتها المعدنية والزراعية دفع سكانها إلى الابتعاد عن الفتن والمشكلات والحروب حفاظاً على مصالحهم الاقتصادية ، ولهذا نراها في معظم تلك المدة تسير في ركب الدولة فكانت تدفع الضرائب السنوية إليها[٢].

وفي عهد الطوائف(٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) وبحكم موقع مدينة فريش بالقرب من قرطبة أصبحت تابعة لدولة بني جهور[٣] ، ثم ضمها بنو عباد إلى نفوذهم[٤] وأصبحت تحت حكم الإمارة العبادية ، وبقيت قرطبة ومنطقة فريش بيد بني عباد إلى أن تطورت الأوضاع في الأندلس ما حدا بالمرابطين Los، Almoravides إلى إسقاط دول الطوائف Los ، Talfas في الأندلس[٥] ، وفي سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م سارت قوات مرابطية نحو قرطبة وافتتحوها واستولوا على معظم حصونها[٦] ، وبذلك أصبحت فريش ومنطقتها ضمن أملاك الدولة المرابطية.

وفي نهاية عهد المرابطين وخلال مدة حكم يحيى بن غانية لقرطبة اضطره الملك القشتالي التنازل عن العديد من الحواضر الإسلامية الواقعة شمال قرطبة ، فقد تنازل له عن حصن أندوجر Andujar وبياسة وأبده Ubeda ثم طالبه بجيان ما دفع ابن غانية إلى التردد في إجابته وأخذ يفكر في التعاون مع الموحدين ضد أطماع الملك القشتالي فذهب

---

١) التاريخ الأندلسي، ص ٦٦.

٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٣٦.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٢١.

٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٥٥/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦١/٢

٥) ينظر عن بواعث قضاء المرابطين على دول الطوائف : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٩،٣٣٧/٢.

٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٥٤.

إلى غرناطة من أجل ذلك إلا أنه توفي في سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م[١].

وأشار ابن غالب إلى أن منطقة فحص البلوط الملاصقة لمدينة فريش دخلها النصارى بعد سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م[٢] ، والراجح أن ذلك حدث في أيام ولاية يحيى بن غانية المرابطي لقرطبة لأن بياسة وأبده هي الأقرب إلى قرطبة من فحص البلوط وفريش ، وعلى هذا فإن السقوط الأول لمدينة فريش بيد النصارى كان في حدود سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م.

وفي العهد الموحدي وعلى الرغم من تمكنهم من استعادة قرطبة من أيدي النصارى في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م[٣] ، إلا أن فحص البلوط وفريش بقيتا فيما يبدو بيد النصارى حتى سنة٥٥٠هـ/١١٥٥م ، فقد أشار ابن عذارى إلى أن الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٢٩-١١٦٢م) عين على قرطبة سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م أبا زيد عبدالرحمن بن بخيت(فعندما وصل إليها خرج مع الموحدين إلى حصن البطروج وما يليه من الحصون التي فيها النصارى دمرهم الله تعالى وفتح الله به عليهم بهزائم شتى وصحبه النصر على ما يراد ويتأتى وهزم القمط اللعين صاحب بطروج ثم تغلب على الحصن المذكور بعد ذلك وأخذ فيه القمط المذكور وبعث به إلى مراكش... ثم توالى غزو ابن بخيت من قرطبة لبعض الحصون ونازلها وتغلب عليها منها حصن منتور والمدور وغيرهما وخاطب الحضرة بجميع هذا الفتح)[٤] ، وبذلك فقد عادت منطقة فحص البلوط وفريش مرة أخرى إلى المسلمين بعد أن بقيت بيد النصارى حوالي عشر سنوات وأصبحت تابعة إلى والي قرطبة الموحدي.

إلا أن هزيمة الموحدين في العقاب سنة٦٠٩هـ/١٢١٢م[٥] أن دخلت دولتهم في مرحلة من الضعف والانحلال ، فشب صراع داخلي على السلطة بين أسرة بني عبد المؤمن ، وفي الأندلس تحفزت القوى المحلية للانفراد بالسلطة في مختلف المناطق والثورة على الموحدين

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٣٠٢/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٣٣٣.

٢) فرحة الأنفس، ص ٢٠.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٢.

٤) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٥٤.

٥) لمزيد من التفاصيل ينظر : المراكشي، المعجب، ص ٢٣٠ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ٢٣٩ -٢٤٠ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٩١ وما بعدها.

على الصورة نفسها التي جرت في أواخر عهد المرابطين ، إلا أن أخطرها على قرطبة وما جاورها هي حركة أبي محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن الذي خلع بيعة العادل الموحدي(٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١١٢٦م) ودعا لنفسه خليفة للموحدين وأطاعه أهل جيّان وأبدة وبيّاسة ، ولقب بالبيّاسي لأنه اتخذها مقراً له وتحالف مع النصارى وذلك سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م[١].

لبثت حركة عبد الله البياسي ثلاثة أعوام كان من أهم نتائجها أنه مهد للنصارى السيطرة على العديد من المدن والحصون المهمة ، ففي سنة٦٢٣هـ/١٢٢٦م قام الملك القشتالي فرناندو الثالث(٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧-١٢٥٢م) باحتلال حصن قبالة المنيع[٢] وأخرج الناس فيه إلى حصن غافق[٣] من فحص البلوط الملاصق لفريش ، والذي يبدو أنه حتى ذلك الوقت لا تزال بأيدي المسلمين ، وفي تقديرنا أن صمود منطقة فحص البلوط وفريش بوجه هجمات النصارى على الرغم من ضراوتها يعود إلى بسالة الأهالي في الدفاع عن أرضهم[٤].

إلا أن جهودهم الذاتية لم تستطع مقاومة الجيوش الكبيرة للدول النصرانية يقابلها غياب كامل لدور الموحدين في الأندلس[٥] ، فيما أخذت نار الفتنة في هذا الأثناء تندلع في الأندلس بسبب انحسار الدور الموحدي وظهر على الساحة شخصيتان هما محمد بن يوسف بن هود ومحمد بن يوسف بن الأحمر ، وفي أول الأمر ذاع صيت ابن هود واستولى على عدد من مناطق شرق ووسط الأندلس وأعلن الخطبة العباسية ، إلا أنه لم يستطع تجاهل القوة الرئيسة في الأندلس الأوسط(أي ملك قشتالة) فاضطر إلى مهادنته على أن يقره على قرطبة مقابل أن يسلمه ثلاثين حصناً[٦] وكان ذلك سنة٦٣٢هـ/١٢٣٤م ، وفي السنة

---

١) ينظر التفاصيل عن حركة البياسي : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ -٢٧٣ ؛ الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية سلسلة رقم(١)، ص ١٤٥ -١٤٩.

٢) وهو من الحصون الواقعة شمال قرطبة، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/٣٦٠ هامش(١).

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/٣٦٢.

٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/٥٨٠.

٥) ينظر عن نهاية الوجود الموحدي في الأندلس : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٣٨٩ -٣٩٨.

٦) ابن خلدون، العبر، ٢١٩/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٧/٣.

التالية (أي ٦٣٣هـ/١٢٣٥م) تمكن ملك قشتالة فرناندو الثالث من الاستيلاء على قرطبة[1] ، وكان بسقوطها أن سقطت أيضاً جميع مدن وحصون الأندلس الأوسط ولاسيما تلك التي كانت تقع إلى الشمال منها.

وعلى الرغم من عدم ورود تفاصيل عن تاريخ سقوط مدينة فريش بيد النصارى ، إلا أننا نستطيع أن نرجح أنها خرجت من أيدي المسلمين قبيل سقوط قرطبة بقليل ، وذلك لأن مدينة غافق وهي قصبة فحص البلوط الملاصقة لفريش كانت حتى سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦ م بيد المسلمين ، كما أن ابن هود عقد مع الملك القشتالي هدنة مقابل التنازل له عن ثلاثين حصناً سنة٦٣٢ هـ /١٢٣٤ م وهذه أغلبها من حصون شمال قرطبة ، وعليه فإن هذا التاريخ هو الأنسب في تقديرنا لسقوط فريش ومنطقتها بيد النصارى ، وبذلك سقطت فريش بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٥٤٠ سنة.

---

١) ينظر عن سقوط قرطبة بيد الملك القشتالي : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٤١.

مدينة قرطبة Cordoba الأندلسية

(٩٢ -٦٣٣هـ/٧١٠ - ١٢٦٥ م)

وهي قاعدة بلاد الأندلس وأم مدائنها ومتوسطة أرضها وقد أسهب المؤرخون في وصفها ووصف أبنيتها ودورها وأقاليمها وأرباضها ومسجدها وأبوابها[١] ، واخلف في معنى كلمة قرطبة ، فقيل إن معنى قرطبة بلسان القوط: قرظبة بالظاء المعجمة — أي القلوب المختلفة وقيل إن معنى قرظبة آخر: فاسكنها[٢] ، وحاول البعض أن يجد لها في العربية تفسير ذكر ذلك ياقوت بقوله: (بضم أوله ، وسكون ثانيه ، وضم الطاء المهملة أيضاً ، والباء الموحدة ، كلمة فيما أحسب عجمية رومية ولها في العربية مجال يجوز أن يكون من القرطبة وهو العدو الشديد ، قال بعضهم:

إذا رآني قد أتيت قرطبا،... وجال في جحاشه وطرطبا

وقال: القرطبا السيف كأنه من قرطبه أي قطعه)[٣].

أما المسافات فيما بينها وبين مشاهير مدن الأندلس ، فبينها وبين طليطلة تسع مراحل[٤] ، وبينها وبين بطليوس ستة مراحل[٥] ، وبينها وبين مرسية عشرة مراحل[٦] ، وبينها وبين مالقة أربعة أيام[٧] ، وبينها وبين قبرة أربعون ميلاً[٨] ، وبينها وبين إستجة

---

١) ينظر التفاصيل عن وصف قرطبة : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٢١ -١٢٧ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٤/٢ -٥٨٠ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٦ -٣٧ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢١٨ -٢٢٣ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٢٦٦ -٢٦٧ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٥٦ -٤٥٩ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٧٢ -٨٩ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤٥٥/١.

٢) البكري، المسالك والممالك٩٠٠/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٥٨ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤٩٩/١، ٤٥٨.

٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢١٨ -٢١٩.

٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٦/٢.

٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٥/٢.

٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٠/٢.

٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٠/٢.

٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧١/٢.

خمسة وثلاثون ميلاً[1] ، وبينها وبين إشبيلية ثمانون ميلاً[2] ، وبينها وبين المرية ثمانية أيام[3] ، ومن قرطبة إلى غرناطة مائة ميل[4].

أما فتحها فعندما تمكن طارق بن زياد من هزيمة ملك القوط الغربيين Viaigoths لوذريق في معركة وادي لكة Rio Cuadalete في شوال من سنة٩٢هـ/٧١٠م اتجه إلى إشبيلية Sevilla فتمكن من فتحها ثم اتجه إلى مدينة إستجة التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي ، وبعد هزيمتهم قرر التقدم والزحف مباشرة إلى طليطلة Tolodoعاصمة القوط الغربيين ، وقبل أن يشرع أرسل فرقاً من جيشه لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط وهي: قرطبة والبيرة ومالقة Malaga وتدمير Tudmir[5].

وبالنسبة للجيش المتوجه إلى قرطبة فكان بقيادة مغيث مولى الخليفة عبد الملك بن مروان خرج من إستجة سنة ٩٢هـ/٧١٠ م فلما دخلها وجد أغلب أهلها قد فروا منها ولم يبق فيها سوى أربعمائة فارس فحاصرها ثم اقتحمها وفر بعض المدافعين عنها إلى كنيسة فحاصرها ثلاثة أشهر ثم اقتحمها وأسر من فيها[6].

احتلت قرطبة مكان الصدارة في أحداث التاريخ الأندلسي منذ أن عمل الوالي أيوب بن حبيب اللخمي(سنة ١٩٧هـ/٨١٢م وولايته ستة أشهر) على نقل عاصمة المسلمين من إشبيلية إلى قرطبة[7] واستمرت حتى سقوط الخلافة الأموية سنة٤٢٢هـ/١٠٣٠م ، وخلال المدة بين سقوط الدولة العامرية سنة٣٩٩هـ/١٠٠٨م حتى٤٢٢هـ/١٠٣٠م والتي أطلق عليها المؤرخون

---

١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٢.
٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٤/٢.
٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٨٠/٢.
٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٨١/٢.
٥) لمزيد من التفاصيل ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١ -١٩.
٦) ينظر التفاصيل عن فتح قرطبة : ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٤ -٣٥ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ -٢١ ؛ مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص ٢٠ -٢١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢ -١١ ؛ المقري، نفح الطيب، ٣٦١/١ -٣٦٣.
٧) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٨٠ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٩٨/١ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٢٠٧.

اسم الفتنة[1] ، بدأت المحن تحل بقرطبة وفقدت أهميتها[2] ، وقد عبر ابن غالب عن ذلك بقوله: (وبالفتنة الكائنة على رأس الأربعمائة من سنة الهجرة محيت رسوم تلك القرى وغُيرت آثار ذلك العمران فصار أكثرها خلاء تندب ساكنيها)[3].

وممن رثا قرطبة ابن حزم الأندلسي وكان معاصراً لتك الحقبة إذ قال :(وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية ، ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة ، فرأيتها قد محت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى ، وآكلاماً مشوهة بعد الحسن ، وخرائب مفزعة بعد الأمن ، ومآوي للذئاب ، وملاعب للجان ، ومغاني للغيلان ، ومكامن للوحوش ، و مخابئ للصوص ، بعد غنيانها برجال كالسيوف ، وفرسان كالليوث ، تفيض لديهم النعم الفاشية ، وتغص منهم بكثرة القطين الحاشية ، وتكنس في مقاصيرهم ظباء الإنس الفاتنة ، تحت زبرج من غضارة الدنيا تذكر نعيم الآخرة ، حال الدهر عليهم بعد طول النضرة فبدد شملهم حتى صاروا في البلاد أيادي سبا ، تنطق عنهم الموعظة ، فكان تلك المحاريب المنمقة ، والمقاصير المرشقة ، التي كانت في تلك الديار كبروق السماء إشراقاً وبهجة ، يقيد حسنها الأبصار ، ويجلي منظرها الهموم ،كان لم تغن بالأمس ، ولا حلتها سادة الإنس ، قد عبث بها الخراب ، وعمها الهدم ، فأصبحت أوحش من أفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل ما قد بقي ماثلاً فيها ، وتزهدك فيها ، وكررت النظر ، ورددت البصر ، وكدت استطار حزناً عليها ، وتذكرت أيام نشأتي فيها ، وصبابة لداتي بها ، مع كواعب غيد ، إلى مثلهن يصبو الحليم ، ومثلت لنفسي انطواءهن بالفناء ، وكونهن تحت الثرى إثر تقطع جمعنا بالتفرق والجلاء في الآفاق النائية ، والنواحي البعيدة ، وصدقت نفسي عن فناء تلك النصبة ، وانصداع تلك البيضة ، بعد ما عهدته من حسنها ونضارتها وزبرجها وغضارتها ، ونضوته بفراقها من الحال الحسنة ، والمرتبة الرفيعة ، التي رفلت في حللها ناشئاً

---

١) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ /١٠٣٠ م، ينظر : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١/١٥٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٥٣.

٢) ينظر التفاصيل لما حلّ بقرطبة من الخراب أيام الفتنة : سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ١/١٠٩ -١٢١.

٣) فرحة الأنفس، ص ٣٧.

فيها ، وأرعيت سمعي صوت الصدى والبوم زاقياً بها ، بعد حركات تلك الجماعة المنصدعة بعرصاتها ، التي كان ليلها تبعاً لنهارها ، في انتشارها بسكانها ، والتقاء عمارها ، فعاد نهارها تبعاً لليلها في الهدو والاستيحاش ، والخفوت والإخفاش ، فأبكى ذلك عيني على جمودها ، وقرع كبدي على صلابتها ، وهاج بلابلي على تكاثرها)[١].

وخلال عهد المرابطين ومستهل عهد الموحدين(٤٨٣-٥٤٣هـ/١٠٩١-١١٤٨) احتلت قرطبة مرتين من قبل النصارى وذلك في أواخر العهد المرابطي وذلك بسبب اضطراب أحوالهم في المغرب والأندلس ، كان الأول سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م وذلك عندما ثار القاضي أبو جعفر حمدين بن محمد بن حمدين سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م وخلع الدعوة للمرابطين[٢] فتصدى له القائد المرابطي يحيى بن غانية وأرغمه على الفرار من قرطبة فما كان منه إلا أن التجأ إلى النصارى يستصرخهم فأرسلوا قواتهم إلى قرطبة وتمكنوا من دخولها ودخلوا المسجد الجامع وعاثوا فيه خراباً ، وقد وصف ابن غالب ذلك بقوله :(ودخلت النصارى هذا الجامع المكرم عند دخولها قرطبة سنة أربعين وخمسمائة عندما هاجت الفتنة الثانية ثم منّ الله تعالى بخروجهم بعد تسعة أيام)[٣] ، وأشار ابن الخطيب إلى أن احتلال النصارى لها اقتصر على الجانب الشرقي منها[٤] وكان مغادرة النصارى قرطبة بعد أن علموا بعبور الموحدين إلى الأندلس لذا سلموا قرطبة إلى ابن غانية ليكون سداً لهم إمام الموحدين[٥] ، وعلى ما تقدم فإن ذلك يعد السقوط الأول لقرطبة بيد النصارى.

إلا أن الملك القشتالي اشتط في طلباته وأخذ يضيق على ابن غانية وأخذ يطالبه بالتنازل له عن العديد من المدن والحصون لاسيما جيان لذا فضل الانضواء تحت لواء الموحدين إلا أنه توفي قبل أن يتحقق ذلك[٦] ، وقد اغتنم النصارى فرصة مغادرة ابن

---

١) رسائل ابن حزم، ٢١١/١ -٢١٢.
٢) ينظر التفاصيل عن ثورة ابن حمدين : ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٢٨/٢ -٢٣٠ ؛
٣) فرحة الأنفس، ص ٣٠.
٤) أعمال الأعلام، ٢٢٩/٢.
٥) ابن الخطيب، أعمال الأعمال، ٢٢٩/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣١٥/٣.
٦) الضبي، بغية الملتمس، ص ٥٤ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٣٠١/٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣١٤/٦ ؛ السلاوي، الاستقصا، ١١٨/٢؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٣٣٢.

غانية قرطبة وفراغها من حامية قوية تدافع عنها فدخلوها سنة٥٤٣هـ/١١٤٨م وبقي فيها أياماً ثم انسحب عنها عندما هاجمتها القوات الموحدية ، وفي ذلك يقول ابن عذاري : إن الموحدين(سلكوا الطريق الكبير ، فلم يعلم العدو بخبرهم حتى دخلوها ليلاً ثم برزوا عليه من الغد تبريزاً أذهله ، وأذهب طمعه فيها وأقام قليلاً من الأيام وأقلع خائباً لم يحظ بنيل مرام وكان بقرطبة مدة حصارها مجاعة عظيمة أكلوا... بعد إقلاع العدو عنها وأقفرت)[1] ، وهذا يعد الاحتلال الثاني لها من قبل النصارى.

وبعد هزيمة الموحدين في العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م دخلت دولتهم في مرحلة من الضعف والانحلال ، فشب صراع داخلي على السلطة بين أسرة بني عبد المؤمن ، وفي الأندلس تحفزت القوى المحلية للانفراد بالسلطة في مختلف المناطق والثورة على الموحدين على الصورة نفسها التي جرت في أواخر عهد المرابطين ، فقد تولى حكم الدولة الموحدية بعد وفاة الخليفة الناصر ابنه المستنصر بالله(٦١٠- ٦٢٠هـ/١٢١٣-١٢٢٣م) إذ توفي فجأة فبايع أهل مراكش عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن(٦٢٠-٦٢١هـ/١٢٢٣-١٢٢٤م) بالخلافة فعارض بيعته ابن أخيه أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور الذي كان والياً على مرسية بالأندلس فدعا أشياخ الموحدين إلى بيعته فتم له ذلك في سنة٦٢١هـ/١٢٢٤م وتلقب بالعادل (٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٦م)وسار إلى إشبيلية وأخذ في تدبير الأمور ، فأصبح للدولة الموحدية خليفتين أحدهما في مراكش والأخر في إشبيلية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ذلك أن ابن عمّ العادل أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن خلع بيعة العادل ودعا لنفسه خليفة للموحدين وأطاعه أهل جيّان وأبدة وبيّاسة ، ولقب بالبيّاسي لأنه اتخذها مقراً له ، عندها بعث العادل الموحدي جيشاً للقضاء عليه ، فراسل البيّاسي ملك قشتالة يطلب الخضوع والطاعة وأن يسلم إليه قصبة بياسة لقاء مساعدته ، ولما ضرب الجيش حصاراً على مدينة بيّاسة كان الوقت شتاء ومع هطول الإمطار وارتفاع منسوب المياه ، فضلاً عن خشيتهم من مداهمة القشتاليين حلفاء البياسي ، اضطر الجيش الموحدي إلى الانسحاب ، فكرر العادل الموحدي إرسال قوة أخرى إلا أن البياسي تمكن بمساعدة القشتاليين من هزيمتها[2].

---

١) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٢ -٤٣.

٢) الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١.

كان فشل قوات العادل الموحدي القضاء على حركة البياسي سبباً في زيادة طموحه ، فأرسل قواته سنة٦٢٢هـ/١٢٢٥م تجاه مدينة قيجاطة فتمكن من اقتحامها بمساعدة الجند القشتالي ، وفي السنة التالية تمكن مع حلفائه من إخضاع معظم الحصون في كورة جيّان ، ثم قرر التوجه إلى إشبيلية ومعه جيش من النصارى ، وبالقرب من طلياطة(Tliata) اشتبك مع الجيش الموحدي وانزل بهم هزيمة كبيرة وقتل منهم نحو من ألفي رجل وكان نتيجة ذلك أن خضعت للبياسي معظم الحصون الواقعة بين إشبيلية وقرطبة ، وعندما رأى أهل قرطبة ذلك خلعوا طاعة واليهم الموحدي ودخلوا في طاعة البياسي[١].

لبثت ثورة عبد الله البياسي ثلاثة أعوام انتهت بمقتله عندما كان يحاول مد نفوذه إلى إشبيلية[٢] ، وكان من أهم نتائجها أنه مهد للنصارى السيطرة على العديد من المدن والحصون المهمة في شمال قرطبة وأضعف خطوط الدفاع عنها[٣].

إلا أن الحدث الأبرز في تاريخ قرطبة في العهد الموحدي هو ما حدث بعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب Las. Navas de Tolosa سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ، فقد تغير ميزان القوى في الأندلس ، ولم يعد في مقدور الدولة الموحدية حماية الثغور الأندلسية من هجمات النصارى[٤] فضلاً عن قيام العديد من الثورات في الأندلس عليهم وكان من أهمها تلك التي قام بها محمد بن يوسف بن هود الذي ثار على الموحدين سنة٦٢٥هـ/١٢٢٧م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق وحاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي[٥] ما يعني أن قرطبة أصبحت ضمن نفوذه ، إلا أنه دخل في صراع مع ثائر آخر وهو محمد بن يوسف بن الأحمر صاحب حصن أرجونة ونافس ابن هود في السيطرة على قرطبة إلا أن ابن هود تمكن من إعادتها إليه[٦].

إلا أن ابن هود لم يستطع الحفاظ على ممتلكاته أمام هجمات ملك قشتالة فرناندو

---

١) ينظر : الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٣.
٢) الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١.
٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦١/٤.
٤) للمزيد من التفاصيل عن موقعة العقاب، ينظر : المراكشي، المعجب، ص ٢٣٥-٢٣٦ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦-٤١٧ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٧٠/٢ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٤١٩ وما بعدها.
٥) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢.
٦) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٦.

الثالث Fernando III(٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧- ١٢٥٢م) واضطر أن يعقد معه هدنة لثلاث سنوات وتنازل له فيها عن بعض الحصون وأن يدفع إليه إتاوة قدرها مائة وثلاثون ألف دينار وذلك سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤ م[١] ، وعلى الرغم من عدم انقضاء مدة الهدنة فقد عمل الجانب القشتالي على خرقها ، فقامت قوة من فرسان قشتالة النصارى وساروا صوب قرطبة ووضعوا خطة لاقتحامها ، حسب الرواية النصرانية: أن الفرسان القشتاليين أسروا بعض المسلمين من الساخطين على زعمائهم ، وعلموا منهم أن المدينة محروسة بشدة ، وتفاهموا معهم على إحداث ثلمة في سور الشرقية ، واستطاعوا بهذه الطريقة أن يقتحموا السور ، وأن يستولوا على الأبراج في ليلة حالكة عاتية الريح ، وفي رواية أخرى أن بعض المسلمين ، ومنهم بالأخص واحد كان قد تنصر ، ساعدوا القشتاليين على تحقيق خطتهم ، وبينوا لهم أن الشرقية ، ليس بها سوى قليل من السكان ، وأن أسوارها الخارجية ضعيفة الحراسة ، ومن ثم فقد استطاع القشتاليون ، بإرشاد هذا المسلم المتنصر ، أن يتسلقوا السور ، وأن يستولوا على الشرقية بطريق المباغتة ، وكان هذا السور ، هو أول الأسوار الخارجية ، وليس هو السور الذي يفصل الشرقية عن باقي أحياء المدينة ، وقتل من أهل الشرقية عدد كبير ، وهرب الباقون إلى داخل المدينة ، واحتل النصارى بعض الأبراج المنيعة في السور ، وفي الحال وقع الهرج بالمدينة ، وتقدم المدافعون لمهاجمة النصارى ، وقتل عدد من الجانبين ، ولكن النصارى لبثوا صامدين في الأبراج ، وأرسلوا في الحال يطلبون الإمداد[٢].

وتضيف الرواية النصرانية أن الجند القشتاليين حينما رأوا ما حققوه من نصر أرسلوا يطلبون المدد فسارع الملك فرناندو الثالث لما كان يدرك من أهمية قرطبة مع قوة له ووصل إلى قرطبة ثم توالت عليه الحشود من كل صوب ، أما أهالي قرطبة فقد أصابهم الفزع والروع وكان أملهم الوحيد أن ينجدهم ابن هود فأرسلوا إليه بالإسراع إليهم ، ولكنه عندما وصل إلى إستجة وعلم بأن ملك قشتالة على مشارف قرطبة ومعه جيش ضخم تردد في التقدم ، وتضيف الرواية النصرانية أن في جيش ابن هود فارس جليقي يدعى لورنسيوس سوارز كان قد انشق عن الملك القشتالي والتحق بخدمة ابن هود وأصبح محل ثقته فأرسله

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٣١.

٢) أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٨٤/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢٠/٤.

ابن هود إلى قرطبة ليتحقق من الموقف فيها ، فاغتنم الفرصة لكي يحصل على عفو ملكه فرناندو فالتقى بالملك وعرفه الحقيقة وأنه يريد مخادعة المسلمين ويقدم لهم معلومات عن قوة القشتاليين بحيث لم يقدموا على مواجهتها وأمر الملك أن يضاعف من النيران ليلاً ليرهب به المسلمين ، ولما رجع إلى ابن هود اعلمه بأن الجيش النصراني يتفوق عليه كثيراً ، فتردد ابن هود في مواجهته ، وفي هذا الأثناء جاءته أنباء من أبي جميل زيان أمير بلنسية يستصرخه ضد ملك أراغون ، فرغب بالاستيلاء على بلنسية فترك قرطبة لمصيرها وأخذ يمني نفسه بأن أهل قرطبة يمكنهم الدفاع عن مدينتهم وأنه حتى وإن دخل النصارى إليها يمكنه استرجاعها ، وفي ذلك الأثناء كان القرطبيون يقاتلون بشجاعة من أجل الوطن والحرية وأبدوا ضروباً رائعة من الجلد والاحتمال ، لكنهم لما علموا أن ابن هود تركهم لمصيرهم وأنه انسحب نحو بلنسية دخلهم الخور واليأس ، فضلاً عن أن فرناندو شدد عليهم الحصار مما اضطرهم إلى التسليم على أن يحصلوا منه عهد الحفاظ على أنفسهم ولم يسمح لهم بالاحتفاظ بشيء من أملاكهم وأموالهم ، ففي٢٣ شوال سنة٦٣٣هـ/الموافق٢٩ يونيه ١٢٣٥م سقطت قرطبة بيد النصارى بعد أن لبثت تحت حكم المسلمين خمسمائة وخمسة وعشرون عاماً[١].

أما الرواية الإسلامية فكانت مقتضبة ولم تقدم أي تفاصيل عن سقوط قرطبة على الرغم من أهمية المدينة في تاريخ الأندلس ، فابن عذاري قال: (في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة كان دخول النصارى مدينة قرطبة أعادها الله للإسلام: نزل أذفونش أخزاه الله بعساكره الذميمة على مدينة قرطبة فحاصرها وضيق عليها وأقبلت نحوه الحشود من البلاد القاصية والدانية إلى أن ملكها وأخرج المسلمين منها وهذا من أجل مصاب وأعظمه ، ولكن الرضا بما قدره الله وأحكم ، إذ هي أم المدائن ، وقرة عين الوارد والقاطن ، فلقد حل بالأندلس من الروم ما يلين له القاسي ، وتنهد له الجبال الرواسي ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وكان أول ما أخذه العدو قصمه الله شرقيها ثم لازمها حتى استولى عليها في الثالث والعشرين من شوال من السنة ، فكانت بين الحادث في طليطلة والحادث في قرطبة

١) أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢/ ١٨٥ -١٨٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤١٨ -٤٢٤.

ماية سنة وست وخمسون سنة)[1] ، أما ابن الابار فقد أشار إليها عرضاً عند ترجمته لأحمد بن محمد المعروف بابن الطيلسان وقال إنه خرج عن قرطبة بعد تغلب الروم عليها يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال سنة ستمائة وثلاث وثلاثين[2] ، وقال الحميري عن قرطبة: (فلما عثر جدّها وخوى نجمها وضعف أمر الإسلام واختلت بالجزيرة كلمته تغلب عليها النصارى وحكموا عليها ، وذلك في أواخر شوّال من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة)[3] ، وقال ابن أبي زرع في حوادث سنة ٦٣٣هـ /١٢٣٥م: (وفيها غدر النصارا شرقية قرطبة في ثالث شوال عشاء في غفلة السمار وسلم الله عز وجل النساء والذراري حتى لحقوا بالغربية ، وبقي الناس معهم في قتال عظيم ، ولم تزل الغربية محصورة حتى أخذت ملكها النصارا أجمع)[4] ، وقال ابن خلدون عند حديثه عن ابن هود: (ثم حاصر الطاغية مدينة قرطبة وغلب عليها سنة ثلاث وثلاثين)[5] ، كما قال المقري في معرض كلامه عن ابن هود ومداهنته للملك القشتالي: (وأعطاه ابن هود ثلاثين حصاناً في كفّ غربه بسبب ابن الأحمر ، وليعينه على قرطبة ، فتسلّمها ، ثم تغلّب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، أعادها الله ، ثمّ نازل إشبيلية سنة ست وأربعين وابن الأحمر معه ، ثمّ دخلها صلحاً ، وملك أعمالها ، ثمّ ملك مرسية سنة خمس وستين ، ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك المسلمين كورةً كورةً وثغراً ثغراً إلى أن لجأ المسلمون إلى سيف البحر)[6] ، وهكذا فكان سقوط قرطبة إيذاناً بسقوط العديد من كبريات المدن الأندلسية الأخرى ، فقد أشار عنان إلى أن سقوط مدينة قرطبة كان نذيراً بسقوط معظم البلاد والحصون القريبة منها مثل إستجة ، والمدور ، وبيانه ، وبلاي ، ومرشانة ، وقبرة ، وأشونة ، واللسانة ، ومورور وغيرها[7] ، وبذلك انتهى حكم المسلمين لها بعد أن دام ٥٤١ سنة.

---

١) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٣١.
٢) التكملة، ١٠٦/١.
٣) الروض المعطار، ص ٤٥٨ -٤٥٩.
٤) الأنيس المطرب، ص ٢٧٦.
٥) العبر، ٢١٧/٤.
٦) نفح الطيب، ٤٤٨/١.
٧) دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢٥/٤ ؛ ينظر أيضاً : أشباخ، تاريخ الأندلس، ٤٣٤/٢.

مدينة بلنسية Valencia الأندلسية
(٩٤ -٦٣٦ هـ/٧١٢ -١٢٣٨م)

وهي إحدى مدن الشرق الأندلسي ، وتعرف بمدينة التراب[١] ، وقال المراكشي: (كان أهل الأندلس يدعونها فيما سلف من الزمان : مُطَيَّب الأندلس ، والمطيب عندهم: حُزمة يعملونها من أنواع الرياحين ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات ، سموا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها)[٢] ، وتتصل بكورة تدمير وهي شرق تدمير وشرق قرطبة[٣] ، ولها أعمال كثيرة(تزيد على ألف وستمائة قرية في كل قرية جامع ومنبر وقاض وخطبة)[٤] ، وصفها الإدريسي بالقول: (مدينة بلنسية قاعدة من قواعد الأندلس في مستو من الأرض عامرة القطر كثيرة التجار والعمار وبها أسواق وتجارات وحط وإقلاع وبينها وبين البحر ثلاثة أميال مع النهر وهي على نهر جار ينتفع به ويسقي المزارع وعليه بساتين وجنات وعمارات متصلة)[٥].

أما المسافات بينها وبين بقية مدن الأندلس ، فبينها وبين مرباط اثنا عشر ميلاً غرباً ، ومنها إلى سرقسطة تسع مراحل ، ومنها إلى جزيرة شقر ثمانية عشر ميلاً ، ومنها إلى شاطبة اثنان وثلاثون ميلاً ، ومنها إلى دانية على البحر خمسة وستون ميلاً[٦] ، ومنها إلى مرسية خمس مراحل[٧] ، ومنها إلى طرطوشة أربعة أيام[٨] ، وبينها وبين قرطبة على

---

١) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٧ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٦ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٨٥.
٢) المعجب، ص ٢٦٥.
٣) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٦ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٨٥.
٤) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٣٣.
٥) نزهة المشتاق، ٥٥٦/٢.
٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٦/٢.
٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٩/٢.
٨) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٨٥.

طريق بجانة ستة عشر يوماً وعلى الجادة ثلاثة عشر يوماً[١].

لم تشر المصادر المتوفرة إلى عمليات الفتح لمدينة بلنسية مباشرة ، ولكن الراجح أنها فتحت من قبل القائد عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة ٩٤هـ/٧١٢م عندما توجه إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الأيبيرية ، إذ التقى قرب مدينة أوريولة Orihuela بالدوق تدمير Thwodemir حاكم هذه المقاطعة ، وقد قاوم تدمير هجوم المسلمين لبعض الوقت ، ولكنه توصل بعد ذلك إلى عقد معاهدة صلح معهم في رجب سنة ٩٤هـ/نيسان ٧١٢م[٢] ، ويرجح عنان إلى أن منطقة الساحل بين مالقة وبلنسية تم فتحه من قبل عبد العزيز بن موسى[٣].

لم تشهد مدينة بلنسية حوادث كبيرة طيلة عهد الإمارة(١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م) وأغلب عهد الخلافة(٣١٦- ٤٢٢هـ/٩٢٨-١٠٣٠م) حتى سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م وظهور ما يسمى بالفتنة حيث التجأ الفتية العامريين إلى شرق الأندلس ، وتولى في بلنسية مظفر ومبارك العامريين حتى وفاة الأخير سنة ٤٠٨ هـ/١٠١٧ م[٤] ، ثم اتفق أهل بلنسية على تقديم لبيب العامري الصقلبي صاحب طرطوشة ثم أنكروا عليه تعاونه مع النصارى فقدموا على أنفسهم عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر سنة ٤١١ هـ /١٠٢٠ م فلما توفي سنة ٤٥٢ هـ/١٠٦٠ م تولى ابنه عبد الملك مكانه[٥] ، وبعد وفاته استولى المأمون بن ذي النون(٤٣٥-٤٦٧ هـ/١٠٤٣-١٠٧٤م) صاحب طليطلة على بلنسية وذلك سنة٤٥٧ هـ/ ١٠٦٤م وعهد بإدارتها إلى صهره أبي بكر محمد بن عبد العزيز بن رويش ، فلما توفي المأمون سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م استقل أبو بكر بن عبد العزيز في بلنسية حتى وفاته سنة٤٧٨هـ/١٠٨٥م[٦].

خلف أبو بكر ابنه أبو عمرو عثمان إلا أنه لم يمكث طويلاً حيث سقطت في

---

١) الحميري، الروض المعطار، ص ٩٧.

٢) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٢ -١٣.

٣) دولة الإسلام في الأندلس، ٥٥/١.

٤) ينظر عن مظفر ومبارك العامريين : ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥٨/٣ -١٦٣ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٠٦/٢ -٢٠٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٧/٢ -٢٢٠.

٥) ينظر عن حكم عبد العزيز العامري وولده عبد الملك بلنسية : ابن عذاري، البيان المغرب، ١٦٤/٣ - ١٦٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٨٦/٢ -١٨٩ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٠/٢ -٢٢٥

٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣٠٤/٣ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٥/٢ -٢٢٦.

السنة نفسها طليطلة بيد الملك القشتالي الفونسو السادس(٤٥٨-٥٠٢هـ/١٠٦٥-١١٠٨م) وأخرج منها صاحبها القادر بن ذي النون الذي سار إلى بلنسية ومعه قوة من النصارى فخلعوا عثمان بن محمد بن عبد العزيز بن دويش وأصبحت في حوزة القادر الذي كان يدين بالخضوع لملك قشتالة(١).

إلا أن أمر القادر بن ذي النون اضطرب اثر هزيمة الفونسو السادس في الزلاقة سنة ٤٧٩هـ /١٠٨٦ م فثار عليه قاضي المدينة جعفر بن جحاف المعافري وقتل القادر بالله سنة ٤٨٥هـ /١٠٩٢ م ، وعندما علم الفونسو السادس بتطورات الأحداث في بلنسية طمع بالاستيلاء عليها فأرسل فارس قشتالي اشتهر باسم السيد الكمبيادور(٢) Cid Elcampeador ومعه فرقة من ثلاثة آلاف فارس فحاصر بلنسية ثم واستولى عليها وقتل ابن جحاف وأشاع الخراب والدمار فيها وذلك سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م ، واستمرت بيد النصارى حتى تمكن المرابطون من استرجاعها سنة ٤٩٥ هـ/١١٠١م وعملوا على تجديدها وإعمارها(٣).

وفي نهاية عقد الثلاثينات من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بدأت رياح الثورة على المرابطين تدب في أغلب مناطق الأندلس وذلك لضعفهم بسبب الهزائم الكبيرة التي لحقت بهم على أيدي الموحدينAlmohades ، Los في بلاد المغرب(١) ، فاستقل في

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٠٤/٣ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٨/٢.

٢) وهو فارس قشتالي مغامر تزعم فرقة من الفرسان النصارى، وأخذ يجوب شرق الأندلس ويستأجر نفسه لحكامها، ثم يضرب بعضهم ببعض من اجل إضعافهم، وكانت له صداقة مع أحمد المقتدر بن هود، ثم مع ولده يوسف المؤتمن، ولعب دوراً كبيراً في الصراع بين حكام بين هود، ثم لما رأى اختلال الأمور في بلنسية توجه إليها بصحبة المستعين الأصغر بن هود وضرب عليها الحصار مما اضطر أهلها إلى الاستسلام بعد أن عقدوا معه معاهدة تصب في صالحه وأسياده حكام قشتالة، وكان ذلك سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م، وصادر أموال القادر بن ذي النون، ثم نقض الصلح مع أهالي المدينة وقتل القاضي ابن جحاف الذي وقع معه المعاهدة بعد أن عذبه حرقاً بالنار، ثم أمر بإحراق جماعة من أهل المدينة وسام أهلها العذاب، مما اضطر الكثير منهم إلى مغادرتها، ولم ينقذ ذلك الوضع إلا وفاته سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م، ينظر : ابن بسام، الذخيرة، ٧٣/٥ وما بعدها ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣١/٤ -٤٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٢٣١ -٢٣٨.

٣) ينظر عن تفاصيل الأحداث أعلاه : ابن بسام، الذخيرة، ٩٥/٥ -١٠٠ ؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ١٢٥/٢ -١٢٦ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣٠٥/٣ -٣٠٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٤٦/٢ -٢٤٨.

١) ينظر التفاصيل عن الصراع بين المرابطين والموحدين حتى دخول الأخيرين مراكش سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م : ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٣٠ -٣٥٥.

شرق الأندلس عبد الله بن عياض[1] وأصبح أمير شرق الأندلس كله ، واستقر هو في مرسية وجعل صهره عبدالله بن سعد بن مردنيش على بلنسية وذلك سنة ٥٤٠ هـ /١١٤٥ م[2] ، وبعد مقتل ابن عياض سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م خلفه في زعامة شرق الأندلس نائبه محمد بن سعد بن مردنيش الذي ادعى أن ابن عياض هو من أوصى له ، وقيل إن أهل بلنسية هم من بايعوه[3] ، ثم استطاع ابن مردنيش بعد مدة وجيزة من إحكام سيطرته على معظم مناطق شرق الأندلس من طرطوشة Tortosa شمالاً حتى قرطاجنة ولورقة Lorca جنوباً(ومنها مدينة جنجالة) وغدا سيد المنطقة بلا منازع[4] حتى وفاته سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م[5] ، ثم دخل أبناءه من بعد في طاعة الموحدين[6] ، وبعد اضطراب أمر الموحدين عقب هزيمتهم في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ /١٢١٢ م استقل أحد أبناء بني مردنيش وهو أبو زيان جميل بن مردنيش ودعا لنفسه وللخليفة العباسي المستنصر بالله(٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م) في محاولة لإضفاء الشرعية على حكمه وكسب الرأي العام إلى جانبه ، فجاءته البيعة من مختلف مناطق شرق الأندلس[7].

إلا أن مناطق شرق الأندلس لم تكن صافية له ففي مرسية ظهر ثائر آخر وهو محمد بن يوسف بن هود الجذامي وذلك سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧ م[1] ، ما يعني أنها قد خرجت من سلطة الموحدين ، إلا أن كلا الثائرين(ابن زيان في بلنسية وابن هود في

---

١) هو أبو محمد عبد الله بن عياض وصفته المصادر أنه أحد الأعيان الصالحين اشتهر بحروبه للنصارى في شرق الأندلس وتولى الثغر الأعلى الأندلسي في أواخر عهد المرابطين وتوفي بعد ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م، المراكشي، المعجب، ص ١٤٦ -١٤٧ ؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢١٩/٢ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٦٣/١٥.

٢) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢١٩/٢ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٩٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٦/٣.

٣) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٣٢/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ،٢٣٤/٢.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٧/٣ ؛ جابر، بنو مردنيش ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس، ص ٨٤ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٩٤.

٥) ينظر عن وفاة ابن مردنيش : البيذق، أخبار المهدي، ص ٨٩ ؛ ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٥٠٦ ؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٦٨/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٣٦ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ١٠٠.

٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤١/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٦/٤.

٧) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٢/٢.

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٤٧.

مرسية) لم يكونا موحدي المواقف ، فاشتعلت نار الحرب بينهما بسبب مناطق النفوذ ، فقام ابن هود في سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م بالزحف على بلنسية واستمال إلى جانبه بعض أقارب ابن زيان حاكم جزيرة شقر وحاكم شاطبة اللذين أعلنا طاعتهما لابن هود ، وقاموا بمحاصرة بلنسية إلا أنهم فشلوا في اقتحامها[١].

إن هذا الانقسام الذي ساد الجبهة الإسلامية فضلاً عن انحسار نفوذ الموحدين شجع حاكم برشلونة خايمي الأول(٦١٠-٦٧٥هـ/١٢١٣-١٢٧٦م) على الاستيلاء على جزيرة ميورقة سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م[٢] ، ثم أعقبها الاستيلاء على جزيرة يابسة سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٤ م[٣].

بعد هذا النصر ، أدرك حاكم برشلونة وأراغون خايمي الأول مدى الضعف الذي يعاني منه المسلمون ، وأن الدولة الموحدية الراعية لهم هي في حالة انهيار ، وأن الأندلس أخذت تمر بالمرحلة الرابعة من تجربة دويلات الطوائف[٤] ، وهو ما شجعه على مهاجمة مدينة بلنسية والتي كانت تحت حكم زيان بن مردنيش ، وقد وجد خايمي فرصة مناسبة له ، فبدأ باستغلال الأوضاع المتردية في الأندلس ، وباشر بالتخطيط لمهاجمة بلنسية ، وفي المقابل فإن حاكمها زيان بن مردنيش شرع بتحشيد قواته والاستعداد للتصدي لقوات برشلونة وأراغون[٥]

ويبدو أن هناك عدة دوافع دعت حاكم برشلونة وأراغون لمهاجمة بلنسية والسيطرة عليها ، منها هو التنافس بين ملوك أسبانيا لاسيما خايمي الأول وفرناندو الثالث ملك قشتالة (٦١٤- ٦٥٠هـ/١٢١٦-١٢٥٢م) على تحقيق الغنائم من المدن الإسلامية في الأندلس[١] ، أضف إلى ذلك حالة المسلمين في الأندلس ، فهناك التنافس بين محمد بن

---

١) ابن خلدون، العبر، ٢١٤/٤.

٢) ابن الأبار، التكملة، ١٣٣/١ -١٣٤ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٦٨ ؛ المقري، نفح الطيب، ٥٨٥/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٠٦/٤.

٣) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٣١٨/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢ /٢٧٥ -٢٧٧.

٤) مرت الأندلس بأربعة مراحل بما يسمى بعصر الطوائف، كانت الأولى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، والثانية بعد سقوط الخلافة الأموية، والثالثة بعد انهيار الدولة المرابطية، والرابعة بعد انحسار نفوذ الدولة الموحدية عن الأندلس.

٥) أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٧٥/٢ -١٧٦.

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤ /٣٩٩.

يوسف بن الأحمر(٦٣٥– ٦٧١هـ/١٢٣٧-١٢٧٢م) ، ومحمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل ، فضلاً عن زيان بن مردنيش وبقايا الموحدين ، وهؤلاء في حالة صراع شديد لاسيما بعد هروب الأمير الموحدي أبو زيد البيّاسي من مدينة بلنسية إلى النصارى والذي قام بتشجيع حاكم برشلونة وأراغون على غزوها[١] ، كما أن سقوط قرطبة بيد ملك قشتالة فرناندو الثالث Fernando III سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م[٢] ، حفز هذا الأمر حاكم برشلونة لأن يحصل هو الآخر على غنيمة بمستوى قرطبة من حيث الأهمية ، كذلك من الأسباب الأخرى هو مباركة البابا جريجوري التاسع(٦٢٤– ٦٣٨ هـ/ ١٢٢٦-١٢٤٠م) لخطة احتلال مدينة بلنسية ، وعلى إثر مباركة البابا ، جاء إلى برشلونة الكثير من الفرسان والمقاتلين الأوربيين ، استجابة لهذه الدعوة ، كذلك تم تقديم الدعم المالي لها[٣].

ظهرت بوادر هذه الحملة سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م ، عندما قام خايمي الأول بمهاجمة موقع حصن أنيشة ، وكان الأمير زيان قد أدرك خطر وقوعه بيد النصارى فأمر بهدمه ، إلا أن ذلك لم يمنع خايمي الأول من احتلاله ، وشرعت قواته بشن الغارات على مختلف نواحي بلنسية ، وعلى إثر ذلك حشد زيان قواته وسار إلى حصن أنيشة Montesa ، حيث دارت هناك سنة٦٣٤هـ/١٢٣٦م معركة شديدة بين الطرفين انتهت بهزيمة المسلمين[٤].

شجع هذا الانتصار خايمي الأول على المضي بخطته ، فتقدم بقواته التي كانت تضم أيضاً حشوداً القوات الإفرنجية والإنجليزية[٥] ، وقد قدرت هذه القوات بعشرة آلاف مقاتل ، وقامت بمحاصرة مدينة بلنسية سنة٦٣٥هـ/١٢٣٧م ، وشرع الأمير زيان بطلب النجدات من المسلمين داخل الأندلس وخارجها ، إلا أن إحكام النصارى للحصار حول المدينة حال دون وصول النجدة إليها[١].

ومع ذلك واصل أهالي بلنسية بقيادة الأمير زيان الدفاع عن المدينة بكل بسالة ،

---

١) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٣٠٤/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤٥٦/٤.

٢) ابن الأبار، التكملة، ٨٧/١ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٦ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٧٦/٤.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤ / ٤٣٩.

٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٤١ ؛ النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٩ -١٢٠ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٧٢/٤.

٥) أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٧٥/٢ -١٧٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤ / ٤٤٤.

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٨.

ودخلوا مع النصارى في عدة معارك ، أصيب في إحداها حاكم برشلونة وأراغون خايمي الأول بجرح في رأسه ، واستمرت المقاومة من جانب المسلمين والحصار من جانب النصارى لمدة خمسة أشهر حتى انعدمت الأقوات والمؤن ، وتعرضت الأسوار والأبراج للهدم ، فقرر كبار أهالي المدينة وعلى رأسهم زيان بتسليمها عبر المفاوضات قبل أن يقتحمها النصارى ، فجرى التفاوض مع حاكم برشلونة وأراغون في شروط التسليم ، وتم الاتفاق على أن تسلم صلحاً ويغادرها المسلمون ، ثم التقى الأمير زيان بحاكم برشلونة وأراغون خايمي الأول ووقعا معاً شروط التسليم يوم السابع عشر من صفر سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م[١] ، وهكذا سقطت بلنسية بعد أن حكمها المسلمون ٥٤٢ سنة.

وقد وصف ابن الابار لنا الحالة المأساوية التي لحقت ببلنسية إذ كان شاهد عيان بقوله: (ثمَّ ملكها الرّوم ثانية بعد أن حاصرها الطاغية جاقم البرشلوني من يَوم الخَميس الخامس من شهر رمضان سنة خمس وثلاثين وستمائة إِلى يوم الثُّلاثاء السَّابع عشر من صفر سنة ستّ وثلاثين وفِي هذا اليَوم خرج أَبُو جميل زيان بن مدافع بن يُوسف بن سعد الجذامي من المدينَة وهو يَوْمئذ أميرها فِي أهل بَيته ووجوه الطّلبَة والجند وأقبل الطاغية وقد تزيّي بِأَحْسَن زِيّ فِي عُظَمَاء قومه من حيثُ نزل بالرصافة أول هذه المنازلة فتلاقيا بالوجلة واتفقا على أَن يتسلم الطاغية البَلَد سلماً لعشرين يومًا ينْتَقل أَهله أثناءها بِأَمْوَالهِمْ وأسبابهم ، وَحَضَرت ذلك كُله وتوليت العقد عن أبي جميل فِي ذَلك وابتدئ بضعفة النَّاس وسيّروا فِي البَحر إِلى نواحي دانية واتصل انتقَال سَائرهم برّاً وبحراً ، وصبيحة يَوم الجُمُعَة السَّابِع وَالعشرين من صفر المذكُور كان خُرُوج أبِي جميل بِأَهْله من القصر فِي طائفَة يسيرَة أَقَامَت مَعَه وعند ذلك استولى عليها الرّوم أحانهم الله)[٢].

وكان سقوط بلنسية إيذاناً بسقوط معظم مدن شرق الأندلس بيد الارغونيين فتبعتها شاطبة ودانية ولقنت وأريولة وقرطاجنة بين سنتي٦٤١و ٦٤٤هـ/١٢٤٣- ١٢٤٦م ، ثم استسلم أهل مرسية صلحًا لملك قشتالة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ، وهكذا ضاع شرق الأندلس بأكمله

---

١) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٣٠٣/٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٩؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢ /٢٧٣؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٤٩/٤.

٢) الحلة السيراء، ١٢٧/٢؛ ينظر أيضاً: الحميري، الروض المعطار، ص ٩٧.

من يد المسلمين[1].

وكان وقع سقوط بلنسية كبيراً في نفوس الأندلسيين فأكثر الأدباء في رثائها شعراً ونثراً ، ومن ذلك ما قاله الشاعر أبو المطرف بن عميرة[2]:

مـا بـال دمعـك لا يـني مـدراره … أم مـا لقلبـك لا يقـر قـراره
أللوعـة بـين الضـلوع لظـاعن … سـارت ركائبـه وشـطّت داره
أم للشـباب تقاذفـت أوطانـه … بعـد الـدنوّ وأخفقـت أوطـاره
أم للزمـان أتـى بخطـب فـادحٍ … مـن مثـل حادثـه خلـت اعصـاره
بحـر مـن الأحـزان عـب عبابـه … وارتـج مـا بـين الحشـا زخـاره
في كـل قلـب منـه وجـد عنـده … أسـف طويـل لـيس تخبـو نـاره
أمـا بلنسـية فمثـوى كافـر … حفـت بـه في عقرهـا كفـاره
زرع مـن المكـروه حـل حصـاده … عنـد الغـدو غـداة لج حصـاره
وعزيمـة للشـرك جعجـع بالهـدى … أنصـارها إذ خانـه أنصـاره
قـل كيـف تثبـت بعـد تمزيـق العـدا … آثـاره أم كيـف يُـدرك ثـاره
مـا كـان ذاك المِصـر إلا جنـة … للحسـن تجـري تحتـه أنهـاره
طابـت بطيـب نهـاره آصالـه … وتعطـرت بنسـيمه أشـجاره
أمـا السـرار فقـد عـداه وهـل سـوى … قمـر السـماء يـزول عنـه سـراره
قـد كـان يُشـرق بالهدايـة ليلـه … والآن أظلـم بالضـلال نهـاره
ودجـا بـه ليـل الخطـوب فصُـبْحه … أعيـى علـى إبصـاره إسـفاره[1]

---

١) الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٣٥.

٢) أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي كان كاتباً أديباً بليغاً ولد ببلنسية وتوفي سنة ٦٥٨ هـ/١٢٥٩م، ينظر : ابن الابار، تحفة القادم، ص ٢٠٩ -٢١٥ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٣٦٣/٢ -٣٦٤ ؛ المقري، نفح الطيب، ٣١٣/١ -٣٢١.

١) الحميري، الروض المعطار، ص ٩٩-١٠٠ ؛ وينظر القصيدة أيضاً : ابن الابار، تحفة القادم، ٢١٤ -٢١٥

كورة قبرة Cabra الأندلسية

(٩٢ – في حدود ٦٣٨ هـ / ٧١٠ -١٢٤٠ م)

قبرة مدينة أندلسية قديمة ، وهذه اللفظة تدل على أنها كانت موجودة قبل الإسلام ، وقد أشار إلى ذلك مؤلف مجهول بقوله: (ومدينة قبرة ، قبلة من قرطبة ، وهي مدينة كبيرة أزلية ، من بنيان الأول)[١] ، ورسمها قَبْرَة بفتح القاف وسكون الموحدة وفتح الراء تليها هاء[٢] ، وقال ياقوت: هي(بلفظ تأنيث القبر ، أظنها أعجمية رومية)[٣].

كما تحدثت المصادر عن مكانها بالنسبة إلى ما يجاورها من المدن فأشار الإدريسي إلى أن بينها وبين حصن القبذاق مرحلة[٤] خفيفة وأنها متصلة بأرض قرطبة جنوبها قبلة كما تتصل في شرقيها بكورة البيرة Elvia[٥] ، ويتصل بها من ناحية الجنوب والغرب مدينة إليسانة Lucena وهي تلاصق حصن بلاي Poley من حصون قبرة[٦] ، ويمر بها الطريق الذي يربط جيان Jaen بجزيرة طريف Torife وهو الطريق الذي سلكه الرحالة ابن جبير سنة٥٧٨هـ/١١٨٢م ، فذكر أنه خرج من جيان ثم إلى حصن القبذاق ثم إلى حصن قبرة ثم إستجة ثم إلى حصن أشونة Osuna ومنها إلى جزيرة طريف[١].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة عن كيفية فتح المسلمين مدينة قبرة أو تاريخ ذلك ، إلا أنه على ما يبدو أنها فتحت أثناء فتح المسلمين لكورة البيرة وقرطبة

---

١) تاريخ الأندلس، ص ٩٠.

٢) القيسي الدمشقي، توضيح المشتبه، ١٧٨/٧ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢١٧/٢.

٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢١٢.

٤) المرحلة هي مقدار ما يقطعه المسافر في نحو يوم بالسير المعتاد على الدابة وتقدر ٢٤ ميلاً، ينظر : محمد، المكاييل والموازين الشرعية، ص ٥٦.

٥) نزهة المشتاق، ٥٧١/٢ ؛ ينظر أيضاً : ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٤٠.

٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧١/٢ -٥٧٢.

١) رحلة ابن جبير، ص ٨ -٩.

وذلك لأنها تقع إلى الجنوب من قرطبة وغرب البيرة فمن غير المعقول أن تسير الجيوش إلى قرطبة أو البيرة دون أن تمر في كورة قبرة أو بعض منها ، فعندما تمكن طارق بن زياد من هزيمة ملك القوط الغربيين Viaigoths لوذريق في معركة وادي لكة Rio Cuadalete في شوال من سنة٩٢هـ/٧١٠م اتجه إلى إشبيلية Sevilla فتمكن من فتحها ثم اتجه إلى مدينة إستجة التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي ، وبعد هزيمتهم قرر التقدم والزحف مباشرة إلى طليطلة Tolodoعاصمة القوط الغربيين ، وقبل أن يشرع أرسل فرقاً من جيشه لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط وهي: قرطبة والبيرة ومالقة Malaga وتدمير Tudmir[1].

أما بالنسبة للجيش المتجه نحو البيرة فتمكنوا من فتح مدينتها ثم فتحوا غرناطة Granada ثم مضوا إلى تدمير[2] ، ويمكن القول إن ذلك كان في أواخر سنة٩٢هـ /٧١٠م ، لأن معركة وادي لكة التي انهزم فيها القوط كما قال المقري: (كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام ،..)[3] ، وكان فتح قرطبة في شوال من السنة نفسها[4] ، ولما كان طارق في طليطلة أوائل سنة٩٣هـ/٧١١م[5] ، فهذا يعني أن دخول كورة قبرة في حكم المسلمين كان في المدة بين شوال وذي الحجة من سنة ٩٢هـ/٧١٠م.

ويبدو أن كورة قبرة عاشت هادئة بعيدة عن الأحداث التي الكبيرة حتى منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ولعل ذلك راجع إلى قربها من قرطبة وقوة الدولة وحكامها آنذاك ، وكانوا يسندون عملها إلى عمالهم المخلصين كما حدث عندما ولى الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل(١٧٢–١٨٠ هـ/٧٨٨–٧٩٦م) سليمان بن فطيس[1] كورة قبرة[2] ،

---

١) لمزيد من التفاصيل ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١ -١٩.

٢) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٢ -٢٣ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٦.

٣) نفح الطيب، ٢٥٩/١ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٨/٢.

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢ -١٠ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.

٥) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.

١) ينظر عن أسرة بني فطيس : ابن حيان، المقتبس(٢٣٢ -٢٦٧ هـ / ٨٤٦ -٨٨٠ م)، ص ٦٧ ؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ٣٦٥/٢.

٢) ابن الابار، الحلة السيراء، ٣٦٥/٢ ؛ الخلف، نظم حكم الأمويين، ٤٢٦/١.

وكان أهل قبرة يشاركون حكومة قرطبة في غزواتها لاسيما في الثغور ، وقد بلغت مشاركتهم في أحدى الغزوات إلى جليقية Galiclia أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ/ ٨٥٢-٨٨٦ م) ألف وثمانمائة فارس[١].

إلا أن عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الثاني(٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م) شهد العديد من الثورات والفتن الداخلية ، ومن أشهر الثوار هو عمر بن حفصون الذي تمكن من الاستيلاء على قبرة سنة٢٧٣هـ/٨٨٦م[٢] واستمرت حتى تمكن الأمير عبدالرحمن الثالث الناصر(٣٠٠-٣٥٠ هـ/٩١٢-٩٦١م) من استعادتها سنة٣٠٠هـ/٩١٢ م[٣] ، ويبدو أن قبضة حكومة قرطبة استمرت بعد ذلك لعدم ذكر المصادر أحداث مهمة وقعت فيها واستمر ولاء الناس وطاعتهم لها طيلة القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

وبعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس مايسمى بالفتنة[٤] في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وما تلاها من سقوط الخلافة الأموية سنة٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م بدأ عصر جديد في الأندلس أطلق عليه المؤرخون عصر دويلات الطوائف Taifas ، Los (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) ، فكانت كورة قبرة من نصيب بني مناد الصنهاجيين الذين حكموا المنطقة للمدة من٤٠٣-٤٨٣هـ/١٠١٢-١٠٩٠ م[٥] ، وقد امتدت حدود دولتهم إلى جيان ، وبذلك فقد أصبحت قبرة ومنطقتها ضمن دولتهم[٦] ، وفي أواخر أيامهم طمع المعتمد بن عباد بالمنطقة واستولى على قرطبة وما جاورها[١] ، ولم ترد في المصادر التي بين أيدينا عن حالة قبرة ولكن يبدو أن عمّالها حاولوا الاستقلال فيها وتأرجحت ولاءاتهم بين القوى المجاورة لهم مثل بني عباد وبني مناد حتى سقوطها بيد المرابطين Los، Almoravides ،

---

١) ابن حيان، المقتبس(٢٣٢ -٢٦٧ هـ / ٨٤٦ -٨٨٠ م)، ص ٢٧٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٠٩/٢

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ١١٤/٢.

٣) ابن حيان، المقتبس(٣٠٠ – ٣٣٠ هـ/ ٩١٢ -٩٤١م) ص ٥٣.

٤) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ /١٠٣٠ م، ينظر : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٥/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.

٥) ينظر التفاصيل عن دولة بني مناد : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٠/٢ -١٤٦.

٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢١٠/٢.

١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ١٥٥.

والـراجح أن المـرابطين دخلـوا قـبرة أثنـاء تقـدمهم إلى قرطبـة واسـتيلائهم عليهـا سـنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م[1] ، وأهـم حـدث تعرضـت لـه في العهـد المرابطـي هـو أن ملـك أراغـون Argon الفونسو الأول المحارب(٤٩٩-٥٢٩هـ/١١٠٥-١١٣٤م) قام بحملـة مـدمرة اخترق خلالهـا الأنـدلس مـن شمالهـا إلى جنوبهـا ، إذ سـار بجيشـه في أول شـعبان سـنة ٥١٩هـ/١١٢٥م مـن سرقسـطة Saragosa إلى مدينـة غرناطـة في قـوة مختـارة مـن أربعـة آلاف مقاتـل ، ودخـل العديـد مـن الأندلسية وأشاع فيها الخراب والذعر ومنها قبرة إذ مكث فيها عدة أيام ثم انسحب عنها[2].

وفي الحقبة الأولى من العهد الموحدي Almohadas لم تشـر المصـادر التـي بـين أيـدينا إلى أحداث وقعت فيها أو إلى ولاتها ولعل ذلـك مؤشـر على تراجع دورها نظر لتراجع دور قرطبـة في العهـد الموحـدي إذ اتخـذ الموحـدون إشـبيلية المقـر الرئيسـي لحكمهـم في الأندلس[3] ، إلا أن الحدث الأبرز في تاريخ المنطقة في العهد الموحدي هو مـا حـدث بعـد هزيمة المسلمين في موقعـة العقـاب Las. Navas de Tolosa سـنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ، فقـد تغـير ميزان القوى في الأنـدلس ، ولم يعـد في مقـدور الدولـة الموحديـة حمايـة الثغـور الأندلسـية من هجمات النصارى[4] فضلاً عن قيام العديد من الثورات في الأندلس عليهم وكـان مـن أهمها تلك التي قام بهـا محمـد بـن يوسـف بـن الأحمـر سـنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م في أرجونـة وأخذ يوسع نفوذه ، ففي سنة٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م تمكن مـن الـدخول إلى مدينـة جيـان وقرطبـة وبعـض منـاطق غـرب الأنـدلس[5] ثـم أطاعتـه أهـالي مـدينتي بسـطة ووادي آش[1] ، وهـذا يعـني أن قـبرة قـد أصـبحت ضـمن منـاطق نفـوذه ، وهكـذا قـوى أمـره وأخـذ يتطلـع إلى الاستيلاء على القواعد الجنوبية ، إلا أن نصارى قشـتالة اسـتغلوا الظـرف المضـطرب بعـد انهيار سلطة الموحدين وعدم توحد ثوار الأندلس فاستولوا على قرطبة سـنة٦٣٣هـ/١٢٣٥م

---

١) ابن بلقين، التبيان، ص ١١٠.

٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٩١ -٩٦ ؛ الإحاطة، ٢٣/١ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٥٥/١.

٣) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٣٧٩.

٤) للمزيد من التفاصيل عن موقعة العقاب، ينظر : المراكشي، المعجب، ص ٢٣٥-٢٣٦ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦-٤١٧ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٧٠/٢ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٤١٩ وما بعدها.

٥) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ -٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣١ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣٩٥/٦ -٣٩٦.

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٥/٤.

واتخذوها قاعدة لملكهم(١).

إلا أن المصادر لم تفصح عن مصير قبرة وملحقاتها ، ولما كانت قرطبة قد سقطت بيد النصارى سنة٦٣٣هـ/١٢٣٥م وجيان سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م(٢) وفي السنة نفسها سقطت قرمونة أيضاً(٣) فالراجح أن قبرة سقطت بيد نصارى قشتالة بين هاتين السنتين لأن قرطبة تحدها من الشمال وجيان من الشرق وقرمونة من الغرب ، ويشير عنان إلى أن سقوط مدينة قرطبة كان نذيراً بسقوط معظم البلاد والحصون القريبة منها مثل إستجة ، والمدور ، وبيانة ، وبلاي ، ومرشانة ، وقبرة ، وأشونة ، واللسانة ، ومورور وغيرها(٤) ، ونحن نرجح أن سقوطها كان في حدود سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وذلك لأن النصارى بعد استيلائهم على قرطبة سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م عقدوا مع ابن هود هدنة لمدة أربعة سنوات على أن يدفع لهم الأخير مبلغ أربعة آلاف دينار سنوياً(٥) ، ولما انقضت المدة رأى ملك قشتالة فرناندو الثالث(٦١٤-٦٥٠هـ /١٢١٦-١٢٥٢م) أنه في حلٍ من العقد لاسيما وأن ابن هود قد قتل منذ سنة ٦٣٥هـ /١٢٣٧م(٦) ، ومما شجعه على ذلك أيضاً هو إقدام منافسه ملك أراغون خايمي الأول (٦١٠-٦٧٥هـ/١٢١٣-١٢٧٦م) على احتلال بلنسية سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م وضمها لدولته(٧) فلابد له من القيام بعمل يوازي بلنسية فكانت قبرة ، فضلاً عن اتصال أحوازها بأحواز قرطبة يجعل من الضرورة العسكرية السيطرة عليها لتأمين قرطبة التي اصبحت قاعدة ملكه ، وبذلك سقطت قبرة بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون حوالي مدة ٥٤٦ سنة.

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٢ -٣٤٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٧/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٠/٤.

٢) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٧.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٧٦/٤.

٤) دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢٥/٤ ؛ ينظر أيضاً : أشباخ، تاريخ الأندلس، ٤٣٤/٢.

٥) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٦.

٦) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤١.

٧) ينظر عن سقوط بلنسية بيد مالك أراغون : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٩ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٧٣/٢ ؛ الدرويش والعلياوي، برشلونة بين الإسلام والنصرانية، ص ١٧٧ -١٨٠.

مدينة لقنت Alicante الأندلسية

(٩٤ -٦٤٤هـ / ٧١٢ -١٢٤٦ م)

هناك أكثر من مكان في الأندلس يدعى لقنت ، أولها في شرق الأندلس وهي إحدى مدن كورة تدمير Tudmir[١] ، والثانية تقع في غرب الأندلس من عمل ماردة Merida[٢] ، وذهب ياقوت إلى أن لقنت حصنان من أعمال لاردة Lerida[٣] ، وهذا يعني أنها تقع في منطقة الثغر الأعلى الأندلسي ، والراجح أن هناك تصحيف ورد عند ياقوت بخصوص كلمة ماردة فجاءت عنده لاردة ، ومما يرجح ذلك أن ابن عبد الحق(ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) والذي قام باختصار كتاب معجم البلدان لياقوت ذكرها أنها من أعمال ماردة[٤] ، ما يعني أن التصحيف وقع عند نسخ كتاب ياقوت بعد عصر ابن عبد الحق.

والذي يخصنا هنا هو مدينة لقنت التي تقع في شرق الأندلس ، وهي مدينة قديمة[٥] جاء لفظها بفتح أوله وثانيه ، وسكون النون وتاء مثناة[٦] ، وتقع على ساحل بحر الروم (البحر المتوسط)[٧] ، ذلك أن سواحل شبه الجيرة الأيبيرية Iberia المطلة على البحر

---

١) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٤١ ؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٩٣ وأسماها قانت ؛ البكري، المسالك والممالك، ٧٥٦/٢ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ٥، ١٠ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢ ؛ الرشاطي، الأندلس في اقتباس الأنوار، ص١٣٠ ؛ الزهري، الجغرافية، ص ١٠٤ ؛ ابن الخراط، اختصار اقتباس الأنوار، ص ٨٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥١١ ؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٣٢٣ وأسماها لسنت.

٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٥، ٨٠ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٨٨؛ ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/ ٩١٢ -٩٤١م) ص ٢٤١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٢/٢ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٦ وأسماها مدينة القنت.

٣) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٤٩.

٤) مراصد الاطلاع، ١٢٠٧/٣.

٥) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٥.

٦) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/ ٩١٢ -٩٤١م) ص ٢٣٨ ؛ الزهري، الجغرافية، ص ١٠٤.

٧) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٤١ ؛ البكري، المسالك والممالك، ٧٥٦/٢ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٨/٢ ؛ الزهري، الجغرافية، ص ١٠٤ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥١١.

المتوسط تبلغ طولها ١٦٦٣ كم على شكل أقواس ذات طبيعة صخرية ، إلا أن أجملها ذلك الذي يمتد من رأس بالوس إلى رأس ناو والذي تقع فيه مدينة لقنت ، ففي هذا الجزء من الساحل يأخذ شكله بالتغير وتصبح شواطئه رملية وواطئة وواسعة حيث تفترشه مدينة لقنت(١) ، ومما زاد في جمالها أن جانباً من جبل شقورة Segura يطل عليها(٢) ، أقام المسلمون عليه قصبة المدينة لمناعته ، وقد وصفه الإدريسي بالقول :(ولها قصبة منيعة عالية جداً في أعلى جبل يصعد إليه بمشقة وتعب)(٣).

فضلاً عن جمال الموقع ، فقد كان ساحل المدينة ميناءً مهماً على الساحل الشرقي الأندلسي ، أسماه البكري مرسى لقنت(٤) ، ويقابل مرساها داخل البحر جزيرة صغيرة تدعى أبلناصة قال الإدريسي: وبالقرب من لقنت(جزيرة تسمى أبلناصة وهي على ميل(٥) من البر وهي مرسى حسن وهي مكمن لمراكب العدو وهي تقابل طرف الناظور(٦) ومن طرف الناظور إلى مدينة لقنت عشرة أميال)(٧).

كانت مدينة لقنت قبل دخول المسلمين إليها إحدى مدائن كورة تدمير(٨) ، وتدمير Thwodemir حسب العذري هو تدمير بن غندريس كان حاكماً على المنطقة قبيل الفتح الإسلامي(٩) ، ويقال إنه كان أحد كبار قواد الملك القوطي غيطشة(١٠) ، وكان فتح كورة

---

١) حتاملة، أيبيريا، ص ٦١.
٢) حتاملة، أيبيريا، ص ٥١.
٣) نزهة المشتاق، ٥٥٨/٢ ؛ ينظر أيضاً : الحميري، الروض المعطار، ص ٥١١.
٤) المسالك والممالك، ٧٥٦/٢.
٥) الميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.
٦) طرف الناظور ويدعى في الوقت الحاضر رأس ناو وهو عند مدينة دانية، ينظر: حتاملة، أيبيريا، ص٥٠
٧) نزهة المشتاق، ٥٥٨/٢.
٨) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٥ ؛ الرشاطي، الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ١٣٠ ؛ وجدير بالذكر هنا أن كورة تدمير التي سميت على اسم الحاكم القوطي تدمير، كانت تضم عدة مدن وكانت قادة تدمير مدينة أوريولة، واستمر ذلك حتى سنة ٢١٦ هـ /٨٣١م عندما أسس الأمير عبد الرحمن الثاني مدينة مرسية فحلت مرسية مكان أوريولة وأصبحت كورة مرسية قاعدة تضم ما كان تابعاً لتدمير، ينظر : الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٩/٢ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٦٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ٥٣٩ -٥٤٠.
٩) ترصيع الأخبار، ص ٤.
١٠) مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٧٢.

تدمير من قبل القائد عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة ٩٤هـ/٧١٢م[١] ، وذلك بعد أن أرسل موسى بن نصير ابنيه عبد العزيز وعبد الأعلى إلى جنوب وجنوب شرق شبه الجزيرة الأيبيرية واتجه موسى نفسه إلى الغرب ، وتمكن عبد الأعلى من فتح كل من مدينة مالقة Malaga ومدينة البيرة Elvira ، ولا يستبعد أن يكون ذلك بمساعدة أخيه عبد العزيز[٢].

بعد ذلك توجه الأخير إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الأيبيرية ، إذ التقى قرب مدينة أوريولة Orihuela بالدوق تدمير Thwodemir حاكم هذه المقاطعة التي كانت مدينة لقنت جزءاً منها ، وقد قاوم تدمير هجوم المسلمين لبعض الوقت ، ولكنه توصل بعد ذلك إلى عقد معاهدة صلح معهم في رجب سنة ٩٤هـ/نيسان ٧١٢م[٣].

وتضمنت معاهدة الصلح شروط مناسبة حصل تدمير بموجبها على الاعتراف به حاكماً على سبعة مدن تقع ضمن منطقته وهي: أريولة ، ومولهMola ، ولورقة Lorca ، وبلتنله ، ولقنت ، وآنه Iana ، وإلش Elche ، كما احتفظ بإدارته الداخلية لهذه المدن ، مقابل أن يدفع جزية سنوية تقدر بدينار ذهبي واحد مع كميات من القمح والشعير والخل والعسل والزيت لكل فرد حر من أفراد رعيته ، أما العبيد فتؤخذ عنهم نصف هذه الكمية ، وقد وافق تدمير أيضاً بألاّ يقوم أحد من رعيته بتجاهل هذه المعاهدة أو الإخلال بشروطها[٤] ، وعلى هذا فإن فتح مدينة لقنت ودخولها في الدولة الإسلامية كان في سنة٩٤هـ/٧١٢م.

ويبدو أن مدينة لقنت عاشت هادئة بعيدة عن الأحداث الكبيرة التي عانت منها الأندلس في عصري الولاة(٩٥-١٣٨هـ/٧١٣-٧٥٥م) وبداية عصر الإمارة(١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م) ، ولعل ذلك يعود إلى معاهدة الفتح التي عقدها عبد العزيز بن موسى مع تدمير والتي نظمت العلاقة بين السكان الأصليين والفاتحين ، ولكن منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي استقطبت تدمير العديد من الثوار ضد السلطة في قرطبة Cordoba والتي ترجع في معظمها إلى النزاعات القبلية والمنافسة على السلطة بين

---

١) الحميري، الروض المعطار، ص ١٣٢.
٢) ابن الخطيب، الإحاطة، ١٠١/١ ؛ اللمحة البدرية، ص ١٦ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧٥/١.
٣) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٢ -١٣.
٤) الحميري، الروض المعطار، ص ١٣٢.

القيسية واليمانية ، ويبدو أن وجود الخليط من القبائل كان أحد العوامل التي ساعدت ذلك.

ففي سنة١٦٣هـ/٧٧٩م نزل تدمير عبد الرحمن بن حبيب الفهري وسيطر على أجزاء منها ولاسيما الساحلية ، فخرج إليه الأمير عبد الرحمن الداخل(١٣٨- ١٧٢هـ /٧٥٥-٧٨٨م) وتمكن من هزيمته وقتله بمساعدة البربر في المنطقة[١] ، والراجح أن لقنت كانت مسرحاً له كونها مرسى وميناء مهم في المنطقة ، وفي سنة ١٦٩هـ/٧٨٥ م تحرك فهري آخر وهو قاسم بن عبدالرحمن الفهري[٢] فحاربه عبدالرحمن الداخل ثم أمّنه وعفا عنه[٣] ، وفي سنة ٢٠٧هـ /٨٢٢ م شهدت كورة تدمير فتنة استمرت سبع سنين بين المضرية واليمانية ، قال ابن حيان: من أشهر وقائعهم وقعة المصارة قتل فيها من الفريقين ثلاثة آلاف رجل[٤].

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، ثار ديسم بن إسحاق—وهو أحد فرسان عمر بن حفصون—في تدمير وغلب على معادن الفضة فيها وضرب الدراهم باسمه فحاربه الأمير عبد الله بن محمد(٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م) وأرغمه على الطاعة وبقي في مرسية حتى وفاته سنة ٢٩٣هـ/٩٠٥م[٥] .

وفي نهاية عهد الأمير عبدالله بن محمد ثار في تدمير أحد أمراء العرب وهو محمد بن عبدالرحمن المعروف بالشيخ الأسلمي الخزاعي واتخذ حصن قليوشة(قليوسة) مقراً له ثم مدّ سيطرته إلى مدينة لقنت ، فحاربه الأمير عبدالله فركن إلى الصلح على أن يوليه على عمله فكان له ذلك ، وتولى لقنت وما والاها من مدن الساحل واستقام على ذلك ، فلما توفي الأمير عبدالله وتولى حفيده عبدالرحمن بن محمد الثالث(الناصر) (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) عاد محمد بن عبد الرحمن الخزاعي السلمي إلى العصيان وأعلن خروجه عن طاعة

---

١) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١١ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٦/٢.

٢) قال ابن عذاري : عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي، فنزل كورة تدمير ثائراً ؛ فاستقر بها، وإنما لقب بالصقلبي لأنه كان طويلا، أشقر، أزرق، أمعر، البيان المغرب، ٥٥/٢.

٣) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٨/٢ إلا أنه جعلها سنة ١٧١ هـ/٧٨٧ م .

٤) المقتبس(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/ ٧٩٦ - ٨٤٦ م)، ص ٤١١، ٤٢٠.

٥) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ -٩١٢ م)، ص ٢٤ -٢٥ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٣ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٩٧/٢.

حكومة قرطبة ، وتحصن في مدينة لقنت مستغلاً في ذلك كثرة الثوار في بداية حكم الأمير عبد الرحمن الثالث ثم حصانة لقنت وقلعتها فضلاً عن كثرة خيراتها وانفتاحها على البحر ، وقد أشرك في أدارة شؤون عمله ابنه عبد الرحمن ، وأخذ يوسع من مناطق نفوذه ، ولما قتل ابنه في مواجهات مع جند حكومة قرطبة عاد هو إلى تدبير الأمر ، مما اضطر الأمير عبدالرحمن الثالث إلى قائد جيشه إسحاق بن سحيم القرشي الذي أجبره على الدخول في الطاعة واقتاده إلى قرطبة حيث توفي بها[1].

وبسبب قوة الدولة وأخذها زمام المبادرة في مهاجمة أعدائها خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي استقرت الأمور في تدمير وأعمالها ولم تسجل المصادر المتوفرة لدينا أحداثاً كبيرة آنذاك حتى وقعت الفتنة بالأندلس[2] ، فبعد سقوط الدولة العامرية واحتدام الصراع بين محمد بن هشام الملقب بالمهدي وسليمان بن الحكم الملقب بالمستعين فرّ من قرطبة أنصار بني عامر من الصقالبة نحو شرق الأندلس وسيطروا عليها ومن أشهرهم زهير العامري الذي تمكن من إقامة إمارة له هناك حتى وفاته سنة٤٢٩هـ /١٠٣٧م وامتدت من المرية Almeria حتى شاطبة Jativa[3] ، وهذا يعني أن مدينة لقنت أصبحت ضمن أملاكه ، وكان زهير العامري قد أناب عنه في حكم مرسية أبو بكر بن طاهر[4] ، وبعد وفاته تغلب على أعماله صاحب بلنسية Valencia عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن أبي عامر[5] ، فأبقى ابن طاهر مكانه الذي استبد في حكمها حتى وفاته سنة٤٥٥هـ/١٠٦٣ م فخلفه ابنه أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر حتى سنة٤٧١ هـ/١٠٧٨م[6] ، وخلال هذه المدة كانت مرسية

---

١) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ -٩١٢ م)، ٤١ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٣.

٢) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢هـ /١٠٣٠ م، العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٥/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.

٣) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٠٠ -٢٠١ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٦٣/٢.

٤) ينتمي بنو طاهر إلى قيس عيلان وكانوا من أعيان كورة تدمير، ينظر : ابن الابار، الحلة السيراء، ١١٨/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٩١/٢.

٥) وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر قدمه الموالي العامريين على بلنسية أيام الفتنة وذلك سنة ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م واستمر في حكمها مع مناطق عدة من شرق الأندلس حتى وفاته سنة ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠ م، ينظر : ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٨٧/٢ -١٨٨.

٦) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ١١٦/٣، ١٢٥.

وأعمالها(بما فيها لقنت) من تحكم من قبل بني طاهر[١].

كانت شرق الأندلس آنذاك محل أطماع العديد من دول الطوائف المحيطة به ، وقد أدى اضطراب الأوضاع في أواخر أيام ابن طاهر في مرسية إلى خلط الأوراق ، ذلك أن فتنة ثارت في المدينة لم يوفق ابن طاهر في إخمادها ، لذا طلب أعيان المدينة من أمير إشبيلية المعتمد بن عباد تخليصهم والإسراع في فتح المدينة ، وبذا دخلت مرسية وأعمالها (بما فيها لقنت) ضمن أملاك المعتمد بن عباد الذي امتد نفوذه حتى مدينة قونقة (قونكة) الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة بلنسية[٢] ، واستمر ذلك حتى الفتح المرابطي Los ، Almoravides لشرق الأندلس[٣].

وفي نهاية عقد الثلاثينات من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بدأت رياح الثورة على المرابطين تدب في أغلب مناطق الأندلس وذلك لضعفهم بسبب الهزائم الكبيرة التي لحقت بهم على أيدي الموحدينAlmohades ، Los في بلاد المغرب[٤] ، فاستقل في شرق الأندلس عبدالله بن عياض وأصبح أمير شرق الأندلس كلّه ، واستقر هو في مرسية وجعل صهره عبدالله بن سعد بن مردنيش على بلنسية وذلك سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م[٥] ، وفي مناورة ذكية من ابن عياض أعلن انضواءه تحت سلطة سيف الدولة بن هود ، ويعلل أحد الباحثين سبب انضواء ابن عياض وابن مردنيش تحت سلطة ابن هود لما لابن هود من شهرة كونه سليل أسرة بني هود حكام سرقسطة Saragosa فضلاً عن أنه كان تابعاً للنصارى ما يعني تحييد مناطقهم[٦].

وفي سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م قتل ابن هود في مواجهة له مع النصارى[٧] ، فأعلن عبد الله

---

١) ابن الابار، الحلة السيراء، ١١٧/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٧٦/٢.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٧١/٢.

٣) ابن بسام، الذخيرة، ٢٥/٥ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٣٢/٢

٤) ينظر التفاصيل عن الصراع بين المرابطين والموحدين حتى دخول الأخيرين مراكش سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م : ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٣٠ -٣٥٥.

٥) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢١٩/٢ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٩٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٦/٣.

٦) جابر، بنو مردنيش ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس، ص ٨١.

٧) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٥١/٢ -٢٥٢ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤٤٩/١٤.

بن عياض الدعوة لنفسه في بلنسية وأرسل محمد بن سعد بن مردنيش نائباً عنه إلى مرسية ، واتخذ ابن مردنيش مدينة لقنت مقراً له[١] ، وامتد نفوذ ابن عياض ليشمل معظم مناطق شرق الأندلس من بلنسية شمالاً إلى قرطاجنة Cartagena جنوباً[٢].

إلا أن ابن عياض لم يلبث طويلاً إذ أصيب بسهم في أحد مواجهاته مع النصارى سنة٥٤٢هـ/١١٤٧م[٣] ، فخلفه في زعامة شرق الأندلس نائبه محمد بن سعد بن مردنيش الذي ادعى أن ابن عياض هو من أوصى له ، وقيل إن أهل بلنسية هم من بايعوه[٤] ، ثم استطاع ابن مردنيش بعد مدة وجيزة من إحكام سيطرته على معظم مناطق شرق الأندلس من طرطوشة Tortosa شمالاً حتى قرطاجنة ولورقة Lorca جنوباً(ومنها مدينة لقنت) وغدا سيد المنطقة بلا منازع[٥] ، وبعد عبور الموحدين إلى الأندلس بقيت مناطق شرق الأندلس عصية عليهم حتى وفاة زعيمها محمد بن سعد بن مردنيش سنة٥٦٧ هـ /١١٧١م[٦].

وبوفاة محمد بن مردنيش تغيرت طبيعة العلاقة مع الدولة الموحدية إذ بادر أبناءه وأقاربه بإعلان الطاعة والولاء للموحدين وصاهروا الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن(٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٢-١١٨٤م)[٧] ، ومن جانبه عمل الخليفة الموحدي على إبقاء سلطانهم في شرق الأندلس والتي أسندت إلى أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش وذلك سنة٥٦٧هـ/١١٧١م[٨] ، واستمر أبو الحجاج بن مردنيش يحكم مناطق شرق الأندلس نيابة عن الموحدين حتى وفاته سنة٥٨٢هـ/١١٨٦م وخلف ستة من الأولاد اشتهروا في

---

١) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٣٢/٢.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٤/٣ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٩٤.

٣) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٣٢/٢ ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٦٣/١٥.

٤) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٣٢/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ،٢٣٤/٢.

٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٧/٣ ؛ جابر، بنو مردنيش ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس، ص ٨٤ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٩٤.

٦) ينظر عن وفاة ابن مردنيش : البيذق، أخبار المهدي، ص ٨٩ ؛ ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٥٠٦ ؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٦٨/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٣٦ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ١٠٠.

٧) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٠/٢ -٢٤١ ؛ الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ١٨٣ -١٨٤.

٨) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤١/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٦/٤.

أواخر أيام الدولة الموحدية بالأندلس ، وكانوا مثل أبيهم يعرفون بالرؤساء[1].

وأشار ابن الخطيب إلى أنه بعد وفاة المستنصر الموحدي(٦١٠-٦٢٠هـ/١٢١٣-١٢٢٣م) اضطرب أمر شرق الأندلس وخاض أولاد أبي الحجاج يوسف بن مردنيش في الفتنة مع الخائضين[2] ، وذلك لأن الموحدين انقسموا على أنفسهم وظهر بينهم أكثر من مدعي بالخلافة[3] ، والذي يهمنا هنا أمر شرق الأندلس فقد كان على مرسية عبدالله بن يعقوب المنصور الملقب بالعادل(٦٢١- ٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٦م)[4] ، وعلى بلنسية ودانية Denia وشاطبة Jative أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن[5] ، وعندما سمع العادل بوفاة المستنصر ومبايعة عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالمخلوع (٦٢٠-٦٢١ هـ/١٢٢٣-١٢٢٤م) في مراكش رفض العادل بيعته وأعلن نفسه من مرسية خليفة للموحدين[6].

إلا أن تطور أوضاع المغرب دفعت العادل الموحدي إلى مغادرة مرسية إلى مراكش وذلك سنة٦٢٢هـ/١٢٢٥م[7] ، وهذا يعني انفراد السيد أبي زيد عبدالرحمن صاحب بلنسية بشرق الأندلس وكان يسانده في حكم المنطقة أبي جميل زيان بن مدافع بن مردنيش الذي كان بمثابة الوزير له وقائد جيشه ، وقد أشار إلى ذلك المقري بقوله (وكان قائد الأعنة المشار إليه في الدفاع عن بلنسية الأمير زيان بن أبي الحملات ابن أبي الحجاج بن مردنيش)[8] ، إلا أن الأمير الموحدي أبي زيد عبد الرحمن عندما رأى إدبار

---

١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤١/٢ ؛ ينظر أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٩٤/٤ ؛ جابر، بنو مردنيش ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس، ص ١٠٢.

٢) أعمال الأعلام، ٢٤١/٢.

٣) ينظر انقسام الموحدين ومبايعتهم أكثر من خليفة بعد وفاة المستنصر : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٤٨/٤ -٣٦١.

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٦٨ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٤٢

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٠.

٦) الحميري، الروض المعطار، ص ١٧٤ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٤٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣٣٨/٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٠/٤.

٧) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٠.

٨) نفح الطيب، ٤٥٦/٤.

سلطة الموحدين في الأندلس التجأ إلى النصارى ويقال إنه تنصر[1] تاركاً بلنسية ومهمة الدفاع عنها لأبي جميل زيان بن مردنيش وكان ذلك سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م[2] ، إلا أن وقبيل هذا التاريخ كانت مرسية قد شهدت هي الأخرى استيلاء ثائر آخر عليها وهو محمد بن يوسف بن هود الجذامي وذلك سنة٦٢٥هـ/١٢٢٧ م[3] ، الذي امتدت سلطته إلى دانية[4] ، وهذا يعني أن مدينة لقنت أصبحت ضمن نفوذه.

كانت الأندلس آنذاك تموج بالفتنة ويسري إليها دبيب التفكك ، وكانت اسبانيا النصرانية تتطلع بثقة إلى اجتثاثها واقتسام أشلائها ، فكان ملوك اسبانيا الثلاثة ، خايمى الأول (٦١٠-٦٧٥ هـ/١٢١٣-١٢٧٦ م) ملك أراغون Aragon ، وفرناندو الثالث(٦١٤-٦٥٠ هـ /١٢١٦-١٢٥٢م) ملك قشتالة ، وألفونسو التاسع(٥٨٤-٦٢٨هـ/١١٨٨-١٢٣٨م) ملك ليونLeon ، يسيطر كل منهم ، على مصاير منطقة من شبه الجزيرة ، فملك أراجون يسيطر على مصايرها من ناحية الشرق ، وملك قشتالة يسيطر على مصايرها من ناحية الوسط ، وملك ليون يسيطر على مصايرها من ناحية الغرب ، وكل منهم يرقب الفرص المواتية للانقضاض على الفريسة ، على تلك الأندلس ، التي مزقتها الفتنة ، وفقدت وسائل الدفاع الحقيقية ، وأضحت معظم قواعدها تحت رحمة العدو القوي المتحفز[5].

وأمام هذا الخطر الكبير لم يكن قطبي الثورة في شرق الأندلس(ابن زيان في بلنسية وابن هود في مرسية) موحدي المواقف ، بل كانا على العكس ، فاشتعلت نار الحرب بينهما بسبب مناطق النفوذ ، فقام ابن هود في سنة٦٢٩هـ/١٢٣١م بالزحف على بلنسية واستمال إلى جانبه بعض أقارب ابن زيان حاكم جزيرة شقر وحاكم شاطبة اللذين أعلنا طاعتهما لابن هود ، وقاموا بمحاصرة بلنسية إلا أنهم فشلوا في اقتحامها[6] ، وعليه فقد امتد نفوذ ابن هود إلى جنوب بلنسية.

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٨٩ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٤/٤.
٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٨٩ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٤٢.
٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٤٧.
٤) ابن الابار، الحلة السيراء، ٣٠٣/٢.
٥) دولة الإسلام في الأندلس، ٣٩٩/٤.
٦) ابن خلدون، العبر، ٢١٤/٤.

أضعفت هذه الحرب الجانب الإسلامي كثيراً ما دفع ملك أراغون خايمي الأول (٦١٠-٦٧٥ هـ/١٢١٣-١٢٧٦م) إلى وضع خطة محكمة من أجل الاستيلاء على بلنسية بدأها بمهاجمة قواعدها الأمامية منذ سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م واستمر في تنفيذ مشروعة حتى تمكن من احتلالها وانتزاعها من المسلمين سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م ، وخلال تلك المدة أبدى أميرها أبو جميل زيان ضروب من الشجاعة وأرسل نداءاته إلى مختلف المناطق في طلب النجدة دون جدوى ، وتُركت بلنسية لمصيرها[1].

رافق أحداث سقوط مدينة بلنسية اضطراب الأوضاع في مدينة مرسية إذ توفي أميرها محمد بن يوسف بن هود سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م[2] ولم يتمكن ابنه من ضبطها فثار أهل مرسية عليه ووافق ذلك خروج أبو جميل زيان من بلنسية إلى دانية فاستدعاه أهل مرسية ليتولى أمرهم فكان له ذلك في رمضان من سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م[3].

وفي مرسية دعا الأمير أبو جميل زيان للحفصيين في إفريقية وبقي فيها حوالي سنتين حاول خلالها استرضاء ملك قشتالة فرناندو الثالث(٦١٤-٦٥٠هـ/ ١٢١٧- ١٢٥٢م) لعقد سلم معه[4] ، إلا أن ملك قشتالة لم يستجب لطلبه لإدراكه مدى الضعف الذي حلّ بالمسلمين.

وفي سنة ٦٣٧ هـ/١٢٣٩م نازع ابن زيان زعيم آخر على رئاسة على ما تبقى من شرق الأندلس ولاسيما مرسية ولقنت وهو بهاء الدولة محمد بن هود وتمكن بمساعدة أهل مرسية من دخولها وأخرج الأمير زيان منها الذي انتقل بأهله إلى لقنت وذلك سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م[5] وبقي في لقنت حتى سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م ، إذ هاجمها ملك برشلونة وأراغون خايمي الأول وتمكن من الاستيلاء عليها ، فخرج الأمير زيان بعدها إلى تونس ،

---

١) ابن الابار، الحلة السيراء، ١٢٧/٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٩ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٢/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٤/٤ -٢١٥.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤١.

٣) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢/ ١٢٧، ٣١٠ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٥١ ؛ ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ٥٦ إلا أنه جعل ذلك سنة ٦٢٠ هـ /١٢٢٣ م ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٥٧/٤.

٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢٤/٧.

٥) أشار ابن أبي زرع إلى أن الأمير زيان بن مردنيش خرج من مرسية سنة ٦٣٧ هـ /١٢٣٩م وأنه توجه إلى ألش، الذخيرة السنية، ص ٥٧.

وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون بقوله: (ثم هلك ابن هود وانتقض أهل مرسية على ابنه أبي بكر الواثق ، وكان واليه بها أبو بكر بن خطّاب ، فبعثوا إلى زيّان واستدعوه فدخلها وانتهب قصرها وحملهم على البيعة للأمير أبي زكريا على ولاية شرق الأندلس كله ، وذلك سنة سبع وثلاثين ، ثم انتقض عليه ابن عصام بأريولة ولحق به قرابة زيّان بمدينة لقنت فلم يزل بها إلى أن أخذها منه طاغية برشلونة سنة أربع وأربعين فأجاز إلى تونس ، وبها مات سنة ثمان وستين)[1] ، وأضاف في مكان آخر أن الأمير زيان دخل مرسية(ولم يزل بها إلى أن غلبه ابن هود على مرسية ، وخرج عنها إلى لقنت الحصون سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، إلى أن أخذها طاغية برشلونة من يده سنة أربع وأربعين وستمائة ، وأجاز إلى تونس ، والبقاء للَّه)[2].

وعقب دخول النصارى إلى المدينة قاموا ببناء كنيسة على أنقاض جامعها[3] ، وحسب رواية ابن خلدون هذه فإن سقوط مدينة لقنت بيد النصارى كان في سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م ، فيما ذهب ابن أبي زرع إلى أن ذلك كان سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م بقوله: (وفيها– أي سنة٦٤٠هـ – ملك العدو النصراني مدينة دانية ولقنت الكبرا وشنتبور واللش والاريولة وقرطاجنة من بلاد شرق الأندلس)[4] ، ويرجح عنان رواية ابن خلدون بشأن سقوط مدينة لقنت(أي في سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م) وذكر بأن رواية ابن أبي زرع مضطربة بشأن سقوط مناطق شرق الأندلس[5] ، فهو في الوقت الذي ذكر فيه أن مدينة أوريولة سقطت سنة٦٤٠هـ/١٢٤٢ م عاد إلى القول إنها سقطت سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م[6] ، وهكذا سقطت مدينة لقنت بعد أن حكمها المسلمون مدة ٥٥٠ سنة.

---

١) ابن خلدون، العبر، ٢١٥/٤.
٢) العبر، ٣٨٩/٦.
٣) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ١٥٠.
٤) الذخيرة السنية، ص ٦١.
٥) دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٩/٤.
٦) الذخيرة السنية، ص ٨٠.

مدينة جنجالة Chinchilla الأندلسية

(٩٤ -٦٤٤هـ/٧١٢ -١٢٤٦م)

هناك اختلاف كبير في المصادر حول لفظ ورسم الكلمة ، ولكن معظم المصادر المتوفرة لدينا ذكرت لفظ جنجالة[١] ، كما وردت في مصادر أخرى بلفظ شنتجالة[٢] ، وجاءت عند ابن حيان بلفظ شنتجيلة[٣] ، أما العذري فذكرها بلفظ شنتجيالة[٤] ، وعند ياقوت بثلاثة صيغ: جنيجال ، وجنجيلة ، وشنتجالة[٥] ، وهو ما يعكس تردده وعدم جزمه ، وذكر أرسلان أن الأسبان يسمونها شنشيلة[٦] ، والراجح أن ذلك راجع إلى الاختلاف في تلفظ الكلمات الأعجمية عند نقلها إلى العربية من قبل الفاتحين فضلاً عن بعض التصحيفات.

أجمعت المصادر المتوفرة لدينا على أن جنجالة من مدن كورة تدمير Tudmir شرق الأندلس[٧] ، وحددتها(في طرف كورة تدمير بالأندلس مما يلي الجوف)[٨] ، وعن المسافات

١) الإدريسي، نزهة المشتاق٥٦٠/٢ ؛ الرشاطي، الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ٥٨؛ ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٤٢٥؛ ابن الابار، الحلة السيراء٢٥٢/٢، التكملة١٠٤/٢؛ابن عبدالملك، الذيل والتكملة ٥٦٤/١؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٧٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى٢٤٣/٥؛ ابن خلدون، العبر ٢٠٧/٤ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس١٣٧، وهو ما نرجحه لأن كلاً من الجيم والشين مخارجهما واحدة.

٢) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ٣٦/٨ ؛ الرشاطي، الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ٥٨ ؛ ابن الخراط، اختصار اقتباس الأنوار، ص ١١٥ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٥٥٤/٩ ؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، ٤٣٨/١

٣) المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/ ٩١٢ -٩٤١م)، ص ٢٣٨، ٢٥٧.

٤) ترصيع الأخبار، ص ٤، ١٠.

٥) الأندلس من معجم البلدان، ص ١١٣، ١١٤، ١٧١ -١٧٢.

٦) الحلل السندسية، ٤٩/٢.

٧) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/ ٩١٢ -٩٤١م)، ص ٢٣٨ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٠ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢ ؛ الرشاطي، الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ٥٨ ؛ ابن الخراط، اختصار اقتباس الأنوار، ص ١١٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٤٧.

٨) الرشاطي، الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ٥٨ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٢٤٧ .

بينها وبين أمهات المدن المجاورة لها ذكر الإدريسي أنه من(مرسية إلى قرطبة عشر مراحل ومن مرسية إلى حصن شقورة أربع مراحل ومن مرسية إلى جنجالة خمسون ميلاً[1])[2] ، وتبعد عن مدريد Magerit مسافة ٢٩٨ كم[3].

لم تشر المصادر المتوفرة إلى عمليات الفتح لمدينة جنجالة مباشرة ، ولكن الراجح أنها فتحت من قبل القائد عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة٩٤هـ/٧١٢ م[4] ، وذلك بعد أن أرسل موسى بن نصير ابنيه عبد العزيز وعبد الأعلى إلى جنوب وجنوب شرق شبه الجزيرة الأيبيرية واتجه موسى نفسه إلى الغرب ، وتمكن عبد الأعلى من فتح كل من مدينة مالقة Malaga ومدينة البيرة Elvira ، ولا يستبعد أن يكون ذلك بمساعدة أخيه عبد العزيز[5].

بعد ذلك توجه الأخير إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الأيبيرية ، إذ التقى قرب مدينة أوريولة Orihuela[6] بالدوق تدمير Thwodemir حاكم هذه المقاطعة التي تكون مدينة جنجالة جزءاً منها ، وقد قاوم تدمير هجوم المسلمين لبعض الوقت ، ولكنه توصل بعد ذلك إلى عقد معاهدة صلح معهم في رجب سنة ٩٤هـ/نيسان٧١٢ م[7].

وتضمنت معاهدة الصلح شروط مناسبة حصل تدمير بموجبها على الاعتراف به حاكماً على منطقته والمدن التابعة لها(كورة تدمير) كما احتفظ بإدارته الداخلية لهذه المدن ، مقابل أن يدفع جزية سنوية تقدر بدينا ذهبي واحد مع كميات من القمح والشعير والخل والعسل والزيت لكل فرد حر من أفراد رعيته ، أما العبيد فتؤخذ عنهم نصف هذه الكمية ، وقد وافق تدمير أيضاً بأن لا يقوم أحد من رعيته بتجاهل هذه المعاهدة أو الإخلال بشروطها[8].

---

١) الميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.
٢) نزهة المشتاق، ٥٦٠/٢.
٣) أرسلان، الحلل السندسية، ٤٩/٢.
٤) الحميري، الروض المعطار، ص ١٣٢.
٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ١٠١/١ ؛ اللمحة البدرية، ص ١٦ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧٥/١.
٦) وهي مدينة بشرقي الأندلس من ناحية تدمير، ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٨.
٧) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٢ -١٣.
٨) العذري، ترصيع الأخبار، ٤ -٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٣٢.

ويبدو أن مدينة جنجالة عاشت هادئة بعيدة عن الأحداث الكبيرة التي عانت منها الأندلس في عصري الولاة(٩٥-١٣٨ هـ /٧١٣-٧٥٥م) وبداية عصر الإمارة ، ولعل ذلك يعود إلى معاهدة الفتح التي عقدها عبد العزيز بن موسى مع تدمير والتي نظمت العلاقة بين السكان الأصليين والفاتحين ، ولكن منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي استقطبت تدمير العديد من الثوار ضد السلطة في قرطبة Cordoba والتي ترجع في معظمها إلى النزاعات القبلية والمنافسة على السلطة بين القيسية واليمانية ، ويبدو أن وجود الخليط من القبائل كان أحد العوامل التي ساعدت ذلك[١].

وبسبب قوة الدولة وأخذها زمام المبادرة في مهاجمة أعدائها خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي استقرت الأمور في تدمير وأعمالها ولم تسجل المصادر المتوفرة لدينا أحداثاً كبيرة آنذاك حتى وقعت الفتنة بالأندلس[٢] ، فبعد سقوط الدولة العامرية واحتدام الصراع بين محمد بن هشام الملقب بالمهدي وسليمان بن الحكم الملقب بالمستعين فرّ من قرطبة أنصار بني عامر من الصقالبة نحو شرق الأندلس وسيطروا عليها ومن أشهرهم زهير العامري الذي تمكن من إقامة إمارة له هناك حتى وفاته سنة ٤٢٩ هـ /١٠٣٧ م وامتدت من المرية Almeria حتى شاطبة[٣] ، وهذا يعني أن مدينة جنجالة أصبحت ضمن أملاكه.

إلا أن الفتيان العامرين لم يكنوا ليهنئوا وحدهم في شرق الأندلس ، فقد انقسمت الأندلس بعد الفتنة إلى دويلات طوائف متناحرة ، فقد ظهرت أطماع بني ذي النون في شرق الأندلس منذ أيام زعيمهم إسماعيل بن ذي النون الذي تمكن من توسيع نفوذه مستغلاً سوء الأحوال في قرطبة بعد سقوط الدولة العامرية ، فمن مركزه في شنتبرية Santebria أخذ بالتوسع نحو إقليش Ucles ثم قونكةCuenca ، وبعد وفاة زهير

١) ينظر التفاصيل عن أهم الأحداث التي شهدتها جنجالة آنذاك : الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٦)، ص ١٧٠ -١٧٢.

٢) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ /١٠٣٠ م، العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٥/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٦٣/٢.

العامري سنة٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م ضمّ مدينة جنجالة إلى نفوذه[١] ، وهكذا أصبحت جنجالة ضمن أملاك بني ذي النون حكام طليطلةToledo ، وبعد سقوط طليطلة على يد الفونسو السادس Alfonso VI ملك قشتالة(٤٥٨-٥٠٢ هـ/١٠٦٥-١١٠٨م) الذي دخل طليطلة سنة٤٧٨هـ /١٠٨٥ م ضعف نفوذ بني ذي النون وغدت مناطق شرق الأندلس مسرحاً للصراع بين القوى المختلفة سواء المسلمة منها أم النصرانية[٢] ، ولم ينقذ هذا الوضع المضطرب في شرق الأندلس إلا دخول المرابطينAlmoravides ، Los حيث تمكنوا بعد صراع مرير مع القوى أعلاه من السيطرة على مناطق شرق الأندلس وإعلانها ولاية مرابطية سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م[٣].

وفي نهاية عقد الثلاثينات من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بدأت رياح الثورة على المرابطين تدب في أغلب مناطق الأندلس وذلك لضعفهم بسبب الهزائم الكبيرة التي لحقت بهم على أيدي الموحدينAlmohades ، Los في بلاد المغرب[٤] ، فاستقل في شرق الأندلس عبد الله بن عياض وأصبح أمير شرق الأندلس كله ، واستقر هو في مرسية وجعل صهره عبد الله بن سعد بن مردنيش على بلنسية وذلك سنة٥٤٠هـ /١١٤٥م[٥] ، وبعد مقتل ابن عياض سنة٥٤٢هـ/١١٤٧م خلفه في زعامة شرق الأندلس نائبه محمد بن سعد بن مردنيش الذي ادعى أن ابن عياض هو من أوصى له ، وقيل إن أهل بلنسية هم من بايعوه[٦] ، ثم استطاع ابن مردنيش بعد مدة وجيزة من إحكام سيطرته على معظم مناطق شرق الأندلس من طرطوشة Tortosa شمالاً حتى قرطاجنة

---

١) ابن خلدون، العبر، ٢٠٧/٤ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٤٣/٥ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس،ص ٢٥٩.

٢) ينظر التفاصيل عن أهم الأحداث التي شهدتها جنجالة وشرق الأندلس آنذاك : : الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٦)، ص ١٧٥ -١٧٧.

٣) أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢/ ٩٩ - ١٠٠ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٤٧/٢ -٢٤٨ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٥٣.

٤) ينظر التفاصيل عن الصراع بين المرابطين والموحدين حتى دخول الأخيرين مراكش سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م: ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٣٠ -٣٥٥.

٥) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢١٩/٢ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٩٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٦/٣.

٦) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٣٢/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ،٢٣٤/٢.

ولورقة Lorca جنوباً(ومنها مدينة جنجالة) وغدا سيد المنطقة بلا منازع[١] حتى وفاته سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م[٢] ، ثم دخل أبناءه من بعد في طاعة الموحدين[٣] ، وبعد اضطراب أمر الموحدين عقب هزيمتهم في موقعة العقاب سنة٦٠٩هـ/١٢١٢م استقل أحد أبناء بني مردنيش وهو أبو زيان جميل بن مردنيش ودعا لنفسه وللخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م) في محاولة لإضفاء الشرعية على حكمه وكسب الرأي العام إلى جانبه ، فجاءته البيعة من مختلف مناطق شرق الأندلس ، وقد علق ابن الخطيب على ذلك بقوله: (دخلت دانية في بيعته ، فاتسع عمله ورحبت ساحته ،... ، ودخلت جنجالة في بيعته ، فضخم ملكه)[٤].

إلا أن مناطق شرق الأندلس لم تكن صافية ففي مرسية ظهر ثائر آخر وهو محمد بن يوسف بن هود الجذامي وذلك سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٧ م[٥] ، ما يعني أنها قد خرجت من سلطة الموحدين ، إلا أن كلا الثائرين(ابن زيان في بلنسية وابن هود في مرسية) لم يكونا موحدي المواقف على العكس ، فاشتعلت نار الحرب بينهما بسبب مناطق النفوذ ، فقام ابن هود في سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م بالزحف على بلنسية واستمال إلى جانبه بعض أقارب ابن زيان حاكم جزيرة شقر وحاكم شاطبة اللذين أعلنا طاعتهما لابن هود ، وقاموا بمحاصرة بلنسية إلا أنهم فشلوا في اقتحامها[٦].

أضعفت هذه الحرب الجانب الإسلامي كثيراً ما دفع ملك أراغون خايمي الأول (٦١٠-٦٧٥هـ/١٢١٣-١٢٧٦م) إلى وضع خطة محكمة من أجل الاستيلاء على بلنسية

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٧/٣ ؛ جابر، بنو مردنيش ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس، ص ٨٤ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٩٤.

٢) ينظر عن وفاة ابن مردنيش : البيذق، أخبار المهدي، ص ٨٩ ؛ ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٥٠٦ ؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٦٨/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٣٦ ؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ١٠٠.

٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤١/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٦/٤.

٤) أعمال الأعلام، ٢٤٢/٢.

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٤٧.

٦) ابن خلدون، العبر، ٢١٤/٤.

بدأها بمهاجمة قواعدها الأمامية منذ سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م واستمر في تنفيذ مشروعة حتى تمكن من احتلالها وانتزاعها من المسلمين سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م ، وخلال تلك المدة أبدى أميرها أبو جميل زيان ضروب من الشجاعة وأرسل نداءاته إلى مختلف المناطق في طلب النجدة دون جدوى ، وتُركت بلنسية لمصيرها ، وغادرها أبو جميل زيان الذي أخذ ينتقل في بعض مناطق الشرق حتى آل به الأمر إلى الخروج من الأندلس إلى تونس[١].

أما مدينة جنجالة ومصيرها فلم يرد في المصادر المتوفرة عن تاريخ سقوطها بيد النصارى ، ولكن ابن الخطيب أشار إلى أن(الزمان لم يطل بالشرق إلى أن انهار وأجاب الكفار ، فكان آخر العهد ببني مردنيش فهم بين قتيل وشهيد ومنتقل إلى تونس)[٢] ، ولما كانت مدينة دانية الواقعة إلى الشرق من جنجالة استولى عليها النصارى سنة ٦٤٠هـ /١٢٤٢م[٣] ، ومدينة لقنت سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م[٤] ومدينة شاطبة القريبة منها قد استولى عليها النصارى سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م[٥] ، وأشار ابن خلدون في حديثه عن ملك أراغون خايمي الأول إلى أنه(ارتجع شرق الأندلس كلّه شاطبة ودانية وبلنسية وسرقسطة ، وسائر الثغور والقواعد الشرقية)[٦] ، فالراجح أن سقوط مدينة جنجالة بيد ملك أراغون كان في حدود سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦ م إذ ليس من المعقول أن يذهب إلى لقنت الواقعة إلى الجنوب الشرقي من جنجالة ويتركها بيد المسلمين ، وهكذا سقطت مدينة جنجالة بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٥٥٠ سنة.

---

١) ابن الابار، الحلة السيراء، ١٢٧/٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٤٩ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٢/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٤/٤ -٢١٥.

٢) أعمال الأعلام، ٢٤٣/٢.

٣) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ٦١ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٥٩/٤ ويجعل سقوطها سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣ م.

٤) ابن خلدون، العبر، ٢١٥/٤، ٣٨٩/٦.

٥) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٣٤.

٦) العبر، ٢٣٣/٤.

مدينة إشبيلية Sevilla الأندلسية

(٩٣ -٦٤٦ هـ/٧١١ -١٢٤٨م)

وهي إحدى قواعد بـلاد الأنـدلس المهمـة قبـل الإسـلام وقيـل إنهـا مـن بنـاء يليـوس قيصر أقامها على أرض منبسطة التي تعني باللسان الاسباني إشبيلية[١] ، وهي تقع غربـي قرطبة وعلى نهر الوادي الكبير الذي يمر بقرطبة ثم ينحدر نحو إشبيلية ويصب في المحيط الأطلسـي ، وأفاضـت المصـادر في ذكـر المدينـة وموقعهـا وأوصـافها ومـن ذلـك أجمـل الإدريسي وصفها بقوله: (ومدينة إشبيلية مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة وأسواق كثيرة وبيع وشراء وأهلها مياسير وجل تجاراتهم بالزيت يتجهز به منها إلى أقصى المشارق والمغـارب بـراً وبحـراً وهـذا الزيـت عنـدهم يجتمـع مـن الشـرف ، وهـذا الشـرف هـو مسـافة أربعين ميلاً وهذه الأربعون ميلاً كلها تمشـي في ظـل شـجر الزيتـون والـتين أولـه بإشـبيلية وآخره بمدينة لبلة وكله شجر الزيتون وسعته اثنا عشر مـيلاً وأكثـر وفيـه فيمـا يـذكر ثمانيـة آلاف قريـة عـامرة آهلـة بالحمامـات والـديار الحسـنة وبـين الشـرف وإشـبيلية ثلاثـة أميـال والشرف سمي بذلك لأنه مشرف من ناحية إشبيلية ممتد مـن الجنـوب إلى الشـمال وهـو تل تراب أحمر وشجر الزيتون مغروسة به من هذا المكان إلى قنطرة لبلـة واشـبيلية علـى النهر الكبير وهو نهر قرطبة)[٢] ، ولجمالها كانت تسمى عـروس الأنـدلس[٣] ، كمـا كانـت تسمى أثناء حكم الأمويين في الأنـدلس بحمـص وذلـك لأنهـم سمـوا عـدة مـدن بأسمـاء الشام وقيل إن جنـد حمـص هـم مـن سـكنوها فسـميت بهـم[٤] ، وقيـل سميـت إشـبيلية

---

١) البكري، المسالك والممالك، ٩٠٢/٢ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ٩٠ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٣ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١١٢، ١١٣.

٢) نزهة المشتاق، ٥٤١/٢ ؛ ينظر أيضاً : البكري، المسالك والممالك، ٩٠٢/٢ -٩٠٥ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٣١ -٣٢ ؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٤٩٧ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٨ -٦٠ ؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ٦١.

٣) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١١٤.

٤) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١١٨.

حمص لشبهها بها[1].

أما المسافات بينها وبين ما جاورها من مدن الأندلس فبينها وبين قرطبة ثمانون ميلاً[2] ، وبينها وبين بطليوس ستة أيام[3] وبينها وبين طلياطة عشرون ميلاً[4] ، وبينها وبين قرمونة مسيرة ثلاثة أيام[5] ، وبينها وبين لبلة أربعون ميلاً[6] ، وبينها وبين الجزيرة الخضراء مسيرة خمسة أيام وبينها وبين البحر ستون ميلاً[7] ، وبينها وبين مالقة خمس مراحل[8] ، وبينها وبين شريش مرحلتان[9]

أما فتحها فكان على يد موسى بن نصير الذي عبر إلى الأندلس سنة٩٣هـ/٧١١م وسلك غير الطريق الذي سلكه طارق بن زياد فاتجه غرباً نحو قرمونة ثم شذونة ثم نحو إشبيلية فحاصرها عدة أشهر ثم فتحها[10] ، وعندما وصل إلى ماردة وحاصرها ثار أهل إشبيلية فقتلوا من بها من المسلمين فسير إليهم موسى ابنه عبد العزيز فحصرها وفتحها مرة أخرى عنوة[11] ، وفي ذلك ذكر ابن عذاري أنه(لّما اشتغل موسى بن نصير بحصار ماردة ، ثار عجم إشبيلية ، وارتدوا ، وقاموا على من كان فيها من المسلمين ، وتجالب فلهم إليهم من مدينتي ليلة وباجة ، فقتلوا من المسلمين نحو ثمانين رجلاً ، وبلغ الخبر بذلك إلى موسى بن نصير ، فلما استتم فتح ماردة ، بعث ابنه عبدالعزيز بجيش إلى إشبيلية ، فافتتحها)[12] ، وكان الفتح الثاني لإشبيلية في شوال من سنة ٩٤هـ/٧١٢م[13].

---

١) ابن خلدون، العبر، ١٥٣/٤.

٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٨٠/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٨ ؛ وقال العذري إن بينهما تسعون ميلا، ترصيع الأخبار، ص ١٠٩.

٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٥/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٩٣.

٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥.

٥) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٧.

٦) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٤٥.

٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٠/٢.

٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٠/٢.

٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٢/٢.

١٠) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٥ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٤ -٢٥.

١١) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ ص ٤٦، ٤٧.

١٢) البيان المغرب، ١٥/٢ ؛ ينظر أيضاً : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٦.

١٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥/٢.

كانت مدينة إشبيلية منذ الحقبة الأخيرة من عهد الولاة(٩٥-١٣٨هـ/٧١٣-٧٥٥م) مسرحاً للصراع بين القبائل العربية القيسية واليمانية لاسيما خلال مدة حكم الوالي أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي(١٢٥-١٢٧هـ/٧٤٢-٧٤٤م)[١] ، ثم تجدد الصراع في عهد الوالي يوسف بن عبدالرحمن الفهري(١٢٩-١٣٨ هـ/٧٤٦-٧٥٥ م)[٢] ، ولم تهدأ الحياة فيها كثيراً في عهد الإمارة ، ففي عهد عبدالرحمن الداخل(١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٥-٧٨٨م) ثار فيها حيوة بن ملامس الحضرمي وذلك سنة١٥٤هـ/٧٧٠ م ثم ثورة الموالي سنة١٥٥هـ/٧٧٢م[٣] ، كما تعرضت المدينة في سنة٢٢٩هـ/٨٤٣م إلى هجمات النورمان الذين كان أول ظهور لهم سنة ٢٢٩هـ/٨٤٣م وتكرر هجومهم عليها سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م[٤] ، وخلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ثارت فتنة في إشبيلية بسبب اضطراب الأمور آنذاك وقد استقل فيها بنو الحجاج اللخميون ذاتياً إلى أن تمكن الأمير عبد الرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م)من فتح إشبيلية وجلبها إلى الطاعة وعين عليها والياً من قبله وذلك سنة٣٠١هـ/٩١٣م[٥].

وكان لقوة الدولة الإسلامية في الأندلس في عهود الخليفة الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) والخليفة الحكم المستنصر(٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦ م) والحاجب محمد بن أبي عامر(٣٦٦-٣٩٢هـ/٩٧٦-١٠٠١م) ثم ابنه عبد الملك المظفر(٣٩٢-٣٩٩هـ/١٠٠١-١٠٠٨م) أثر كبير في استقرار أوضاعها الداخلية ، ولكن بعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس ما يسمى بالفتنة[٦] في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وما تلاها من سقوط الخلافة الأموية

---

١) ينظر التفاصيل : ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٧٢ -٧٦.

٢) ينظر التفاصيل : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٧٥ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٧٣ -٨٠.

٣) ينظر التفاصيل : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٠١ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٠١ -١٠٢.

٤) ينظر التفاصيل عن هجمات النورمان على مدينة إشبيلية : العذري، ترصيع الأخبار، ص ٩٨ - ١٠٠ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٧٧ -١٨٠.

٥) ينظر التفاصيل عن الفتنة في إشبيلية وبني الحجاج فيها : ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥-٣٠٠ هـ /٨٨٨-٩١٢ م) ص ٩١-١٠٨ ؛ المقتبس(للحقبة ٣٠٠-٣٣٠ هـ/٩١٢-٨٨٨ م) ص ٦٩-٨٤ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٣٥/٢ -٣٦.

٦) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ /١٠٣٠ م، ينظر : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٥/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.

سنة٤٢٢هـ/١٠٣٠م بدأ عصر جديد في الأندلس أطلق عليه المؤرخون عصر دويلات الطوائف Los، Taifas(٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) إذ انقسمت الأندلس إلى دويلات وأصبحت إشبيلية تحت نفوذ بني عباد(٤١٤-٤٨٤هـ/ ١٠٢٣- ١٠٩١م) وقاعدة ملكهم طيلة مدة حكمهم[١] ، وبعد عبور المرابطين استطاعوا من إحكام سيطرتهم على مدينة إشبيلية وذلك سنة ٤٨٤هـ /١٠٩١م[٢] ، وبذلك أصبحت خاضعة لنفوذ المرابطين ، إلا أن اضطراب الأمور في أواخر أيام المرابطين دفع أهالي إشبيلية إلى إرسال وفد للمغرب لدعوة الموحدين ، وقد تم لهم ذلك إذ دخلتها الجيوش الموحدية في شعبان من سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م[٣]

وبعد هزيمة الموحدين في العقاب دخلت دولتهم في مرحلة من الضعف والانحلال ، فشب صراع داخلي على السلطة بين أسرة بني عبد المؤمن ، وفي الأندلس تحفزت القوى المحلية للانفراد بالسلطة في مختلف المناطق والثورة على الموحدين على الصورة نفسها التي جرت في أواخر عهد المرابطين ، وبخصوص مدينة إشبيلية فقد تأثرت بما جرى من منافسات بين أبناء بني عبد المؤمن ، فتولى حكم الدولة الموحدية بعد وفاة الخليفة الناصر ابنه المستنصر بالله[٤] الذي حكم حتى سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م إذ توفي فجأة فبايع أهل مراكش عبدالواحد بن يوسف بن عبد المؤمن(٦٢٠-٦٢١هـ/١٢٢٣-١٢٢٤م) بالخلافة فعارض بيعته ابن أخيه أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور الذي كان والياً على مرسية بالأندلس فدعا أشياخ الموحدين إلى بيعته فتم له ذلك في سنة٦٢١هـ/١٢٢٤م وتلقب بالعادل(٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٦ م) وسار إلى إشبيلية وأخذ في تدبير الأمور ، فأصبح للدولة الموحدية خليفتين أحدهما في مراكش والأخر في إشبيلية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ذلك أن ابن عمّ العادل أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف

---

١) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٠٦ -١٠٨ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٦٠ -٦١ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٤٧/٢ -١٦٦ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢٠٠/٤ -٢٠٣.

٢) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٢١ -٢٢ ؛ المراكشي، المعجب، ص ١٠٣ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣١٢ وما بعدها.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٥ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣١٣/٦ ؛ علام، الدولة بالمغرب، ص ١٨٢.

٤) تولى الخلافة في الدولة الموحدية للمدة ٦١٠ - ٦٢٠ هـ/ ١٢١٣ - ١٢٢٣ م، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٤١ -٢٤٣

بن عبد المؤمن خلع بيعة العادل ودعا لنفسه خليفة للموحدين وأطاعه أهل جيّان وأبدة وبيّاسة ، ولقب بالبيّاسي لأنه اتخذها مقراً له ، عندها بعث العادل الموحدي جيشاً للقضاء عليه ، فراسل البيّاسي ملك قشتالة يطلب الخضوع والطاعة وأن يسلم إليه قصبة بياسة لقاء مساعدته ، ولما ضرب الجيش الموحدي حصاراً على مدينة بيّاسة كان الوقت شتاء ومع هطول الإمطار وارتفاع منسوب المياه ، فضلاً عن خشيتهم من مداهمة القشتاليين حلفاء البياسي ، اضطر إلى الانسحاب ، ثم كرر العادل الموحدي إرسال قوة أخرى إلا أن البياسي تمكن بمساعدة القشتاليين من هزيمتها[1].

كان فشل قوات العادل الموحدي القضاء على حركة البياسي سبباً في زيادة طموحه ، فأرسل قواته سنة٦٢٢هـ/١٢٢٥م تجاه مدينة قيجاطة فتمكن من اقتحامها بمساعدة الجند القشتالي ، وفي السنة التالية تمكن مع حلفائه من إخضاع معظم الحصون في كورة جيّان ، ثم قرر التوجه إلى إشبيلية ومعه جيش من النصارى ، وبالقرب من طلياطة(Tliata) اشتبك مع الجيش الموحدي وأنزل بهم هزيمة كبيرة وقتل منهم نحو من ألفي رجل وكان نتيجة ذلك أن خضعت للبياسي معظم الحصون الواقعة بين إشبيلية وقرطبة ، وعندما رأى أهل قرطبة ذلك خلعوا طاعة واليهم الموحدي ودخلوا في طاعة البياسي[2].

بعدها قرر البياسي ـ بعد أن فرض سيطرته على معظم مناطق الأندلس الوسطى ـ أن يستولي على إشبيلية ويقضي على منافسه نهائياً ، فخرج بقواته صوبها سنة ٦٢٣هـ /١٢٢٦ م فاستعد الجيش الموحدي للقائه ونشبت معركة هُزم فيها البياسي ، ومزق جيشه ، وارتد إلى قرطبة ، ولما رأى أهل قرطبة إفراطه في التحالف مع النصارى وتسليم الحصون إليهم ثاروا ضده ، ففر منها إلى حصن المدور(Almodovardel Roi) ولكن ثوار قرطبة اقتحموا عليه الحصن وقتلوه وبعثوا برأسه إلى حاكم إشبيلية الموحدي[3].

وفي عهد الخليفة الموحدي العادل أيضاً ، تعرض إقليم الشرف المحيط بإشبيلية

---

١) الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١.

٢) ينظر : الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٣.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٤.

لهجوم من قبل نصارى ليون يقودهم مارتن سانشيز وهو ابن غير شرعي لملك البرتغال Portugal[1] سانشو الثاني Sancho II(٦٢٠-٦٤٦هـ/١٢٢٣- ١٢٤٨م) ، ودخل في خدمة ملك ليونLeon ، وقد عبرت قواته جبال الشارات ، وسارت جنوباً حتى وصلت إلى أراضي الشرف ، واستولت على الكثير من الغنائم والسبي ، وقد وجد الخليفة العادل أخوه أبو العلا ووزيره ابن يوجان[٢] عاجزين عن مواجهة النصارى ، وحماية مدينتهم ، لذا استنفر الخليفة العادل الناس ، واحتشدت جموعهم ، إذ اجتمع من الفرسان نحو مائة فارس ، وسارت هذه الجموع إلى غربي إشبيلية لمواجهة النصارى على مقربة من مدينة طلياطة سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ، وعند وصولهم انقض عليهم النصارى ، وقتلوا وأسروا الكثير منهم ، إذ قدر من قتل من المسلمين في هذه الموقعة بعدة آلاف ، وعرفت هذه المعركة باسم موقعة طلياطة[٣].

ولكن اضطراب الأمور في الدولة الموحدية أدى إلى قيام ثورات عديدة في الأندلس ولاسيما في وسط وشرق الأندلس ، أشهرها تلك التي قادها محمد بن يوسف بن هود الجذامي ومحمد بن يوسف بن الأحمر ، وكان الأول قد ثار على الموحدين سنة ٦٢٥هـ /١٢٢٧م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق وحاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي ودخلت إشبيلية في حكمه إذ عين عليها أخاه وذلك سنة٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، وغدا أكبر الثوار الذي سيوحد الأندلس على يديه[٤] ، إلا أن أهالي إشبيلية انتقضوا عليه سنة٦٢٩هـ/١٢٣١م وأخرجوا أخاه وبايعوا رجلاً منهم يدعى أبا مروان الباجي وتسمى بالمعتضد ومد نفوذه إلى قرمونة فأرسل إليه ابن هود قوة حاصرته إلا أنه مدّ يده إلى ابن الأحمر ودخل في طاعته ولكن الأخير غدر به وقتله ودخل إلى إشبيلية وذلك سنة٦٣١هـ/١٢٣٣م وبذلك دخلت في حوزته فرفض أهالي إشبيلية وجوده

---

١) تقع مملكة البرتغال غرب شبه الجزيرة الأيبيرية على مصب نهر آنه على المحيط الأطلسي، ينظر : الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٢٥/٢، ٧٣١.

٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهنتاني وزير الخليفة العادل الموحدي، ينظر : الحميري، الروض المعطار، ص ١٧٤ - ١٧٥ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ٢٤٤.

٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥ ؛ ينظر التفاصيل أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٤/٤

٤) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٥٧/١ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢ ؛ الإحاطة، ٧٦/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٦/٤.

فثاروا علية ودعوا إلى ابن هود ، وبعد مقتل الأخير سنة٦٣٥هـ/١٢٣٧م دخلوا في طاعة الرشيد الموحدي(٦٣٠-٦٤٠هـ/١٢٣٢-١٢٤٢م) واستمروا في دعوة الرشيد حتى وفاته سنة٦٤٠هـ /١٢٤٢م ، ثم بايعوا أبو زكريا بن أبي حفص صاحب تلمسان وسلموا لأحد أقاربه البلد ثم انتفضوا عليه سنة٦٤٣هـ/١٢٤٥ م وقدموا أحد أعيان إشبيلية المدعو أبو عمرو بن الجد الذي استقل في حكمها ، ثم إن ابن الجد داخل ملك قشتالة وصالحه وسرح الجند وأسقطهم من ديوانه وهو ما دفعهم إلى الانتفاض عليه وقتله وتقديم رجل منهم يدعى شفاف[١].

وفي هذا الأثناء أخذ ملك قشتالة فرناندو الثالث(٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧-١٢٥٢م) بمهاجمة المدن الأندلسية مستغلاً حالة الفوضى بين المتغلبين عليها وانحسار نفوذ الموحدين ما ولد فراغاً سياسياً وعسكرياً وغدا الملك القشتالي سيد الموقف ، وأصبحت سائر القواعد الوسطى لاسيما جيان وأحوازها تحت رحمته ، الأمر الذي أجبر ابن الأحمر إلى عقد صلح مع ملك قشتالة ، وفعلاً عقد الصلح بين الطرفين في سنة٦٤٣هـ/١٢٤٥م ، وكان من بنوده عقد هدنة بينهما لمدة عشرين سنة ، كما أعطى ابن الأحمر جيان وبركونة وأرجونة للنصارى ، وصالحهم على ذلك مقابل تأمين غرناطة ، ولم تدخل في هذا الصلح مدينة إشبيلية ولا شريش Jerez de Frontera [٢] ، ما يعد ضوء أخضر للملك القشتالي بالاستيلاء عليهما.

وفعلاً بدأ ملك قشتالة فرناندو الثالث بمهاجمة المدن التي لم تدخل في الصلح لاسيما الواقعة غربي سلطنة غرناطة ، إذ شرع النصارى في حصار إشبيلية سنة٦٤٥هـ /١٢٤٧ م ، وحشد فرناندو الثالث قوات كبيرة جاءت من مختلف أنحاء قشتالة ، كذلك اشترك معه الأمراء والأشراف والأحبار النصارى ، كما دفع الملك القشتالي أسطوله في نهر الوادي الكبير ، إحكاماً لمحاصرة المدينة من جهة البحر ، واضطر ابن الأحمر أن يشترك بقوة من فرسانه مع القشتاليين تنفيذاً للعهد الذي قطعه على نفسه في معاهدة الصلح مع ملك قشتالة ، كما أنه أراد الانتقام من أهل إشبيلية لخذلهم إياه وعدم الدخول في طاعته[١].

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٧٨، ٣٨٠ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣٩٣/٦.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٦٧ ؛ ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ٦٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٢/٤ -٤٣٣.

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٨٠ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣٩٤/٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٤/٥.

استمر حصار إشبيلية زهاء ثمانية عشر شهراً وأبدى المسلمون مقاومة كبيرة في الدفاع عن مدينتهم ، ولم تجد نفعاً صرخات الاستغاثة التي وجهوها المغرب ، ومن ذلك القصيدة التي نظمها أبو موسى هارون بن هارون يرثي أهل إشبيلية وما نالهم من الكرب ويحرض المسلمين فيها على الجهاد[1] ومما جاء فيها:

يا حمص أقصدك المقدور حين رما — لم حق فيك الردى إلا ولا ذمما

جرت عليك يد الدهر ظالمة — لا يعدل الدهر في شيء إذا حكما

ما كنت أحسب أن الحادثات إذا — همت بك السوء لا تلقى لك السلما

قد كان حسنك فتان الشباب فمذ — أصبت عوضت منها القبح والهرما

يا جنة زجرتنا عن زخارفها — ذنوبنا فلزمنا البت والندما

ويمموا حمص في جمع يضيق به — ذرع الفضا بالمرهفات الماع فاكتتما

واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم — جسر منه الفلك لا تشكو به السأما

فكم أسارى غدت في القيد موثقة — تشكوا من الذل أقداما لها حطما

وكم صريع رضيع ظل مختطفا — عن أمه فهو بالأمواج قد فطما

إلى أن قال:

وكم بطريانة أبقى الأسبى ندبا — في القلب يبعث وجدا كلما كلما

يا حسنها عرف للحسن جامعة — ما طار قط لها إلا النعيم جما

يا عين فابك على حمص وقل لها — منك البكاء إذا ما ترسليه دما

وقد أصيبت بها الدنيا وساكنها — حقاً وأصبح ركن الدين قد ثلما

سطا بها الكفر إذ قل النصير بها — فمن معز بها الإسلام ما سلما

يا أهل وادي الحما بالعدوة انتعشوا — هذا الذماء فقد أشفى به سقما

فماذا يبطئكم عنا وحولكم — أن تبصروا دار قوم أصبحت رمما

---

١) ينظر نص القصيدة : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٨١ -٣٨٣.

وحقنــا واجــب فالــدين يجمعنـــا مــع الجــوار الــذي مــازال منتظمــا

وقــد دعونــا فأسمعنــا علــى كثــب بما قد استنفد القرطـاس والقلمـا[1]

ثم اضطر أهل إشبيلية إلى تسليم المدينة على أن يؤمن المسلمون على أنفسهم وأموالهم ، وأن يمهلوا شهراً لتسوية شؤونهم وإخلاء دورهم والتأهب للرحيل ، وبعدها دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية في أوائل رمضان سنة٦٤٦هـ/١٢٤٨م في موكب ضخم ، وقد أشار ابن عذاري إلى هذه الأحداث بقوله: (وفي سنة ست وأربعين وستماية كان استيلاء الطاغية أذفونش على مدينة إشبيلية أعادها الله للإسلام ، بعد ما جرعوا أهلها كأس الحمام ، من كثرة المجاعة وعدم الطعام ، فكل منهم في بحر المنايا غاص وعام ، مما حلّ بهم من الأوجال والآلام ، ما يطول وصفه وشرحه الكلام ، ويستنفد فيه القراطيس والأقلام ، فسلموا لهم المدينة وخرج منها الخاص من أهلها والعام ، وكان ذلك في يوم سبع وعشرين من شهر رمضان المعظم من هذا العام ، وكان نزول الطاغية عليها في شهر جمادي الأولى من العام الفارط ، فكان حصارهم لها مدة عام وخمسة أشهر بعدما ما كانوا يجدونها قبل ذلك بعام ،...)[2] ، كما أشار الحميري إلى ذلك بقوله: (وفي سنة ست وأربعين وستمائة تغلب العدو على مدينة اشبيلية في شعبان منها بعد أن حوصرت أشهراً حتى ساءت أحوال أهلها وخافوا ويئسوا من الإعانة ، فأصفق رأيهم على إسلامها للعدو والخروج عنها فكان ذلك ، وأجلهم الفنش ريثما يستوفون احتمال ما استطاعوا حمله من أموالهم ثم خرجوا عنها وأقامت خالية ثلاثة أيام وسرح معهم الطاغية خيلاً توصلهم إلى مأمنهم وكان صاحب أناة وسياسة ، ويقال إنه لما مات دفن في قبلة جامعها الأعظم)[3] ، وهكذا سقطت إشبيلية بعد أن حكمها المسلمون مدة ٥٥٣ سنة.

---

١) ينظر نص القصيدة : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٨١ -٣٨٣ ؛ وأورد بعضها : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٨٢/٤ -٤٨٣.

٢) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٨٤ ؛ وينظر أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٥/٥.

٣) الروض المعطار، ص ٦٠.

مدينة طلياطة Tejada الأندلسية
(٩٤ -٦٤٦ هـ/ ٧١٢ - ١٢٤٨م)

طلياطة مدينة قديمة ، وهذه اللفظة تدل على أنها كانت موجودة قبل الإسلام ، وقد أشار إلى ذلك مؤلف مجهول بقوله: (ومدينة طلياطة ، وهي أزلية عجيبة الشكل ، رائقة البناء من بنيان الأشبان ،...)[١] ، وتلفظ طلياطة بفتح الأول وسكون الثاني ثم ياء مثناة من تحت وبعد الألف طاء[٢] ، والنسبة إليها طلياطي[٣].

تعد مدينة طلياطة من ضمن إقليم الشرف Aljarafe[٤] التابع لمدينة إشبيلية Sevilla[٥] ، إذ تتبع مدينة إشبيلية العديد من الأقاليم منها الشرف ، وقد أشار إلى ذلك البكري بقوله: (ولإشبيلية من الأقاليم: إقليم المدينة ، إقليم ألية ، إقليم السهل ، إقليم الشعراء ، إقليم البصل ، إقليم طالقة ، إقليم الشرف ، إقليم الوادي ، إقليم طشانة ، إقليم الفحص ، إقليم قرطشانة ، إقليم المنستير)[٦].

كما أن إقليم الشرف والتي تعد مدينة طلياطة من توابعه يقع على بعد ثلاثة أميال[٧] غربي إشبيلية ، وسمي الشرف لأنه مشرف عليها ، وكثيراً ما كان يطلق عليه اسم جبل الشرف ، ويمتد أربعين ميلاً في مثلها من الجنوب إلى الشمال[٨].

وتبعد مدينة طلياطة عن إشبيلية عشرون ميلاً ، والمسافة بينها وبين مدينة لبلة Niebla أيضاً عشرون ميلاً[٩] ، وهذا ما أشار إليه العذري عندما تحدث عن الطريق

---

١) تاريخ الأندلس، ص ١٣٧.
٢) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٢.
٣) السيوطي، لب اللباب، ص ١٦٩.
٤) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٠٤/٢.
٥) البكري، المسالك والممالك، ٩٠٥/٢.
٦) المسالك والممالك، ٩٠٥/٢.
٧) الميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.
٨) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٩ ؛ طه، دراسات أندلسية، ص ١٣٠.
٩) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٠٧.

من إشبيلية إلى لبلة بقوله: (ومنها طريق الزقاق والمحلات ، من إشبيلية إلى طلياطة محلة من عشرين ميلاً ، ومن طلياطة إلى مدينة لبلة محلة من عشرين ميلاً)[1] ، وهي اليوم عبارة عن خرائب مهجورة على بعد٣٠ كم جنوب غرب إشبيلية[2].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة عن كيفية فتح منطقتها ووقت دخول المسلمين إليها ، إلا أنه من الراجح أنها فتحت خلال فتح المسلمين لمدينة إشبيلية ، وذلك لأنها من توابعها ، فبعد عبور الوالي موسى بن نصير سنة٩٣هـ/٧١١م إلى الأندلس عسكر بجيشه بالقرب من مدينة الجزيرة الخضراء Algeciaras حيث عقد مؤتمراً حربياً مع قواده الذين بحثوا معه خطة سير الحملة العسكرية واتجاهها ، وقرر الجميع أن أفضل الخطط هي الاتجاه صوب منطقة إشبيلية وغربي البلاد التي لم يتم فتحها بعد من قبل طارق بن زياد ، فتقدم موسى نحو مدينة شذونةMedia Sidonoa ، ومنها إلى مدينة قرمونة Carmona الحصينة التي لم يفلح في فتحها إلا بعد استخدام حيلة حربية محكمة[3] ، وبعدها سار موسى إلى مدينة إشبيلية ، فضرب عليها الحصار عدة أشهر ، تمكن بعدها من دخول المدينة عنوة حيث هربت حاميتها القوطية إلى مدينة باجةBeja ، وهذا ما أشار إليه ابن عذاري بقوله: (لما فتح موسى قرمونة ، تقدم إلى إشبيلية ، وهي من أعظم قواعد الأندلس شأناً ، وأتقنها بنياناً ،... ، فاحتلَّ بها موسى بن نصير ، وحاصرها أشهراً ، ففتحها الله عليه ، وهرب منها علوجها إلى مدينة باجة)[4].

ويبدو أن موسى بن نصير ترك في إشبيلية حامية عسكرية بالتعاون مع السكان المحليين الموجودين في المدينة ، بمهمة الحفاظ على الأمن والدفاع عنها[5] ، ثم غادرها إلى مدينة لقنت Alicante[6] ومنها إلى مدينة ماردة Merida الذي تمكن من دخولها صلحاً

---

١) ترصيع الأخبار، ص ١١٠.

٢) خلف، نظم حكم الأمويين، ٥٦٢/٢ هامش رقم(٥).

٣) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٦.

٤) البيان المغرب، ١٤/٢.

٥) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٦ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٩٦/١.

٦) هناك أكثر من مكان في الأندلس يدعى لقنت، والمقصودة هنا مدينة تقع غرب الأندلس من أعمال ماردة، ينظر : ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٤٩ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٦.

سنة ٩٤هـ/٧١٢ م[١].

ولكن الأمور في غرب الأندلس لم تكن تسير كما هو مطلوب بالنسبة إلى موسى بن نصير ، فقد تجمعت فلول القوط الهاربة من إشبيلية وغيرها من المدن المفتوحة في الغرب في مدينتي لبلة وباجة ، واستغلت هذه الفلول انشغال موسى بحصار ماردة ، فهاجمت إشبيلية واستطاعت بمساعدة بعض سكانها أن تقتل ثمانين رجلاً من الحامية الإسلامية وتجبر الباقين على الفرار والسيطرة على المدينة[٢].

وعلى إثر ذلك أرسل القائد موسى بن نصير ابنه عبد العزيز لإعادة فتح المدينة ، وفعلاً تمكن الأخير من فتحها وإعادة السيطرة الإسلامية عليها سنة ٩٤هـ/٧١٢م ، وقد أشار ابن عذاري إلى هذه الأحداث بقوله: (... ، وبلغ الخبر بذلك إلى موسى بن نصير ، فلما استتم فتح ماردة ، بعث ابنه عبد العزيز بجيش إلى إشبيلية ، فافتتحها ، وقتل أهلها ،... ، لما استتم فتح إشبيلية ، تقدم عبد العزيز بن موسى بجيشه إلى لبلة ، فافتتحها ، وانصرف إلى إشبيلية ، فدخلها أيضا)[٣] ، وهذا يعني أن موسى لم يفتح لبلة بل تقدم من إشبيلية إلى ماردة ، فلما ثار القوط في إشبيلية أرسل ابنه عبدالعزيز ففتحها ثانية ثم تقدم الأخير نحو لبلة ففتحها ، ولما كانت طلياطة على ميلين من إشبيلية وهي بينها وبين لبلة ، لذا فالراجح أن فتح طلياطة كان من قبل عبدالعزيز بن موسى سنة ٩٤هـ/٧١٢م.

من أوائل الأحداث المهمة التي تعرضت لها طلياطة هو هجوم النورمانNormandos لها أثناء حملتهم على مدينة إشبيلية سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م[٤] ، وفي عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني(٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨- ٩١٢م) أصبحت مدينة طلياطة ضمن نفوذ بني الحجاج في إشبيلية[٥] وبقيت في حوزتهم حتى تمكن الأمير عبدالرحمن الناصر

١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٦ -١٨.

٢) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥/٢.

٣) البيان المغرب، ١٥/٢ ؛ ينظر أيضاً : المقري، نفح الطيب، ٢٧١/١.

٤) ينظر عن هجوم النورمان على طلياطة وإشبيلية : العذري، ترصيع الأخبار، ص ٩٩ – ١٠٠ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٨٧/٢

٥) ينظر التفاصيل : ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/٨٨٨ -٩١٢ م)، ص ٩١ -١٠٨.

إلى إعادتها إلى حوزة حكومة قرطبة سنة ٣٠١هـ/٩١٣م[١] .

وكان لقوة الدولة الإسلامية في الأندلس في عهود الخليفة الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) والخليفة الحكم المستنصر(٣٥٠-٣٦٦ هـ/٩٦١-٩٧٦م) والحاجب محمد بن أبي عامر(٣٦٦-٣٩٢هـ/٩٧٦-١٠٠١م)ثم ابنه عبدالملك المظفر(٣٩٢-٣٩٩هـ/١٠٠١-١٠٠٨م) أثر كبير في استقرار أوضاعها الداخلية ، ولكن بعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس ما يسمى بالفتنة[٢] في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وما تلاها من سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م بدأ عصر جديد في الأندلس أطلق عليه المؤرخون عصر دويلات الطوائف Los، Taifas(٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) إذ انقسمت الأندلس إلى دويلات وأصبحت طلياطة تحت نفوذ بني عباد(٤١٤-٤٨٤هـ/١٠٢٣-١٠٩١م) طيلة مدة حكمهم إذ كانت من أولى المناطق التي ضمها بني عباد إلى ممتلكاتهم عندما استولوا على غرب الأندلس حتى شلب Slives ولبلة[٣] ، وبعد عبور المرابطين استطاعوا من إحكام سيطرتهم على مدينة إشبيلية بما فيها مدينة طلياطة وذلك سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م[٤] ، وبذلك أصبحت خاضعة لنفوذ المرابطين ، وكانت في ظل الحكم المرابطي بعيدة عن الأحداث الساخنة التي تركزت وقتذاك في الثغرين الأعلى والأوسط من الأندلس ، إلا أنه لم تستمر مدينة طلياطة طويلاً تحت الحكم المرابطي ، إذ سرعان ما خرجت عن طاعتهم سنة٥٣٩هـ/١١٤٤م بعد ظهور الدعوة الموحدية Los ، Almohades في أواخر عهدهم[٥] ، ثم دخلتها الجيوش الموحدية سنة٥٤١هـ/١١٤٦م[٦].

وفي عهد الخليفة الموحدي العادل(٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٦م) ، تعرض إقليم الشرف بما فيه مدينة طلياطة لهجوم من قبل نصارى ليون يقودهم مارتن سانشيز وهو ابن غير

---

١) البيان المغرب، ١٢٩/٢ -١٣٠ ؛ ولمزيد من التفاصيل ينظر : سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٢٨١ -٢٨٢.

٢) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ /١٠٣٠ م، ينظر : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٥/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.

٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٥١/٢.

٤) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٢١ -٢٢ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣١٢ وما بعدها.

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٠٥/٤.

٦) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٥ ؛ وينظر أيضاً : علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص ١٨٢.

شرعي لملك البرتغال Portugal[1] سانشو الثاني Sancho II(٦٢٠-٦٤٦هـ/١٢٢٣- ١٢٤٨م) ، ودخل في خدمة ملك ليونLeon ، وقد عبرت قواته جبال الشارات ، وسارت جنوباً حتى وصلت إلى أراضي الشرف ، واستولت على الكثير من الغنائم والسبي ، وقد وجد الخليفة العادل أخوه أبو العلا ووزيره ابن يوجان[2] عاجزين عن مواجهة النصارى ، وحماية مدينتهم ، لذا استنفر الخليفة العادل الناس ، واحتشدت جموعهم ، إذ اجتمع من الفرسان نحو مائة فارس ، وسارت هذه الجموع إلى غربي إشبيلية لمواجهة النصارى على مقربة من مدينة طلياطة سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ، وعند وصولهم انقض عليهم النصارى ، وقتلوا وأسروا الكثير منهم ، إذ قدر من قتل من المسلمين في هذه الموقعة بعدة آلاف ، وعرفت هذه المعركة باسم موقعة طلياطة[3].

ثم طمع النصارى الأسبان في جبهة الغرب لما حققوه من مكاسب ، فبعد عام من هذه النكسة التي حلت بالمسلمين(أي سنة٦٢٣هـ/١٢٢٦م) هاجم النصارى مدينة طلياطة مرة أخرى بقيادة ملك قشتالة Castilla فرنادو الثالثFernando III(٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧-١٢٥٢م) بالتحالف مع البياسي[4] المتمرد على الحكم الموحدي ، إذ سار المتحالفين بقواتهم باتجاه مدينة إشبيلية ، وعبروا نهر الوادي الكبير إلى إقليم الشرف حيث طلياطة ، وعلى إثر ذلك خرجت القوات الموحدية من إشبيلية بقيادة أبي العلاء لصدهم ، واشتبك الطرفان بالقرب من مدينة طلياطة ، وفيها هزم الموحدون هزيمة كبيرة وقتل منهم نحو ألفين[5] ، وعلى إثر خسارة الموحدين للمعركة ، فقد خضعت معظم البلاد والحصون الواقعة بين إشبيلية

---

١) تقع مملكة البرتغال غرب شبه الجزيرة الأيبيرية على مصب نهر آنه على المحيط الأطلسي، ينظر : الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٢٥/٢، ٧٣١.

٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهنتاني وزير الخليفة العادل الموحدي، ينظر : الحميري، الروض المعطار، ص ١٧٤ - ١٧٥ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ٢٤٤.

٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥ ؛ ينظر التفاصيل أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٤/٤

٤) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي خلع بيعة العادل الموحدي وأعلن نفسه خليفة واستعان بالنصارى وهاجم إشبيلية إلا أنه فشل وقتل سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، ينظر : الحميري، الروض المعطار، ص ١٢٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٤.

٥) الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٩/٤.

وقرطبة Cordoba لسلطة البياسي ، ومن ضمنها مدينة طلياطة[1] ، إلا أنه لم يستمر طويلاً ، إذ سرعان ما قامت ثورة ضده من قبل العامة من أهل قرطبة ، وتمكنوا من قتله سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م[2].

وفي تلك الأثناء اضطربت الأوضاع في الدولة الموحدية ، وأدت إلى قيام ثورات عديدة في الأندلس لاسيما تلك التي قادها محمد بن يوسف بن هود الجذامي ،ومحمد بن يوسف بن الأحمر ، وكان الأول قد ثار على الموحدين سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق وحاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي[3] إلا أن مقتله سنة٦٣٥هـ/١٢٣٧م مهد السبيل لابن الأحمر الذي دخل غرناطة واتخذها قادة لملكه ثم بسط نفوذه على عدد من المناطق فدخلت مالقة Malaga في طاعته سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م[4] ، إلا أن مدينة إشبيلية بما فيها طلياطة لم تدخل في طاعة ابن الأحمر ، إذ رفض أهلها الخضوع له ، ولعل ذلك بسبب موقفه من الباجي[5] والغدر به ، وفي هذا الأثناء أخذ ملك قشتالة فرناندو الثالث بمهاجمة المدن الأندلسية ، وأصبحت سائر القواعد الوسطى لاسيما جيان وأحوازها تحت رحمته ، الأمر الذي أجبر ابن الأحمر إلى عقد صلح مع ملك قشتالة ، وفعلاً عقد الصلح بين الطرفين في سنة٦٤٣هـ/١٢٤٥م ، وكان من بنوده عقد هدنة بينهما لمدة عشرين سنة ، كما أعطى ابن الأحمر جيان وبركونة وأرجونة للنصارى ، وصالحهم على ذلك مقابل تأمين غرناطة ، ولم تدخل في هذا الصلح مدينة إشبيلية ولا شريش Jerez de Frontera[6] ، ما يعد ضوء أخضر

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٣.

٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢.

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٩.

٥) ذكر ابن عذاري أن أهالي مدينة إشبيلية طردوا الوالي الموحدي سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣١م ونصبوا عليهم أبا مروان الباجي يرجعون إليه في رأيه، ثم بايعوه، وبقي فيهم حتى قتله ابن هود غدراً سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥ م، ينظر : البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٦.

٦) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٦٧ ؛ ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ٦٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٢/٤ -٤٣٣.

للملك القشتالي بالاستيلاء عليهما.

وفعلاً بدأ ملك قشتالة فرناندو الثالث بمهاجمة المدن التي لم تدخل في الصلح لاسيما الواقعة غربي سلطنة غرناطة ، إذ شرع النصارى في حصار إشبيلية سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م ، وحشد فرناندو الثالث قوات كبيرة جاءت من مختلف أنحاء قشتالة ، كذلك اشترك معه الأمراء والأشراف والأحبار النصارى ، كما دفع الملك القشتالي أسطوله في نهر الوادي الكبير ، إحكاماً لمحاصرة المدينة من جهة البحر ، واضطر ابن الأحمر أن يشترك بقوة من فرسانه مع القشتاليين تنفيذاً للعهد الذي قطعه على نفسه في معاهدة الصلح مع ملك قشتالة ، كما أنه أراد الانتقام من أهل إشبيلية لخذلهم إياه وعدم الدخول في طاعته[١].

استمر حصار إشبيلية زهاء ثمانية عشر شهراً وأبدى المسلمون مقاومة كبيرة في الدفاع عن مدينتهم ، وبعدها اضطر أهل إشبيلية إلى تسليم المدينة على أن يؤمن المسلمون على أنفسهم وأموالهم ، وأن يمهلوا شهراً لتسوية شؤونهم وإخلاء دورهم والتأهب للرحيل ، وبعدها دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية في أوائل رمضان سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م في موكب ضخم بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون[٢].

كان سقوط إشبيلية إيذانا بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب نهر الوادي الكبير ، ومن ضمنها مدينة طلياطة وذلك في السنة نفسها ، كما استولى النصارى تباعاً على شريش وشذونة وروطةRota وأركشArcos وثغر شنتمرية Santa Maria[٣] ، وغيرها من قواعد الوادي الكبير وحصونه ، وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الأندلسية غربي بلاد الأندلس وأخذت رقعة الدولة الإسلامية تنكمش وتنحسر بسرعة كبيرة[٤] ، وبذلك سقطت مدينة طلياطة بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة٥٥٢ سنة.

---

١) ابن خلدون، العبر، ٢٩٢/٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٤/٥.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٨٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٥/٥.

٣) وهي من مدن أكشونبة غرب الأندلس على ساحل المحيط الأطلسي، ينظر : الحميري، الروض المعطار، ص ٣٤٧.

٤) لمزيد من التفاصيل ينظر : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٨٤ وما بعدها ؛ ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ٧١ وما بعدها ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٥/٥ وما بعدها.

جزيرة قادس Cadiz الأندلسية

(٩٣ -٦٦٠هـ/ ٧١١ - ١٢٨٦م)

وصفت المصادر قادس بأنها جزيرة[١] ، والصحيح أنها شبه جزيرة تحيط بها المياه من ثلاثة جوانب ، وأطلق عليها الجغرافيون العرب جزيرة تجاوزاً كقولهم عن الأندلس جزيرة الأندلس وعن بلاد العرب جزيرة العرب[٢] ، فهي عبارة عن لسان ممتد في البحر بحيث تكون شبه جزيرة ضيقة المدخل في الطرق الجنوبي الغربي من شبة الجزيرة الأيبيرية[٣].

ضبطها ياقوت بالقول: (بعد الألف دال مكسورة مهملة ثم سين كذلك: جزيرة في غربي الأندلس تقارب أعمال شذونة ، طولها اثنا عشر ميلاً ، قريبة من البرّ بينها وبين البر الأعظم خليج صغير قد حازها إلى البحر عن البر)[٤] ، وقال عنها القزويني: (جزيرة بقرب الأندلس ، طولها اثنا عشر ميلاً ، بها آبار مياهها عذبة ، وفيها آثار قديمة غيرها الزمان)[٥] ، وحدد موقعها الزهري بالقول: (في الجنوب من إشبيلية مدينة قادس ، وكانت على ضفة البحر الأعظم ، وكان في شرقيها النهر الأعظم المسمى بوادي لكة ، ومنه كانوا يشربون ويغتسلون ، وكانت عليه قنطرة من ثلاثين قوساً على ما ذكرت الروم في تواريخها ، وكان هذا النهر يخرج إلى البحر الأعظم على الفم المسمى بشنت باطر ،

---

١) ينظر : البكري، المسالك والممالك، ٨٩٤/٢ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٦/٢ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٠٧ ؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥٠ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٤٨ ؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ٦٠.

٢) سالم، مدينة قادس، ص ١٨.

٣) سالم، مدينة قادس، ص ١٨.

٤) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٠٧..

٥) آثار البلاد، ص ٥٥٠.

وكانت هذه المدينة متصلة بالموضع المسمى بروطة)[1].

وعدها الحميري من مدن إشبيلية بقوله: (وقادس أيضاً جزيرة بالأندلس عند طالقة من مدن إشبيلية ، وطول جزيرة قادس من القبلة إلى الجوف اثنا عشر ميلاً ، وعرضها في أوسع المواضع ميل)[2].

فيما عدها ابن غالب من مدن كورة شذونة بقوله: (... ومن مدنها مدينة قادس وعجيب مبتناها وأعلاها)[3] ، وكذلك عدها ابن سعيد من كورة شذونة[4] ، فيما ذهب مؤلف مجهول إلى أنها من إشبيلية بقوله: (أما جزيرة قادس فهي من حلق وادي إشبيلية ، وطولها اثني عشر ميلاً ، وهي كلها رملة سهلة ، وفيها ماء عذب من آبار)[5].

أما المسافات بينها وبين ما جاورها من مدن الأندلس ، فمن قادس إلى جزيرة طريف ثلاث وستون ميلاً ، ومنها إلى شليطش مائة ميل[6] ، ومنها إلى شريش اثنا عشر ميلاً ، ومنها إلى القناطر ستة أميال[7].

وأغلب من ذكرها من المؤرخين أشاروا إلى صنمها ونسجوا حوله الكثير من الحكايات والأساطير[8] ، وكان الأكثر واقعية هو الزهري إذ ذكر أن في قادس المنارة العجيبة التي تشبه منارة الإسكندرية وإنما بني ليكون دليلاً على الطريق في البحر[9].

أما فتحها فلم يرد في المصادر المتوفرة إشارة صريحة إلى ذلك ، فالراجح أنه كان على عهد موسى بن نصير ، لأن طارق بن زياد بعد أن هزم القوط في معركة وادي لكة

---

١) الجغرافية، ص ٨٩ -٩٠.

٢) الروض المعطار، ص ٤٤٨.

٣) فرحة الأنفس، ص ٢٥.

٤) المغرب في حلي المغرب، ٣٠٩/١.

٥) تاريخ الأندلس، ص ١١٨.

٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٢/٢.

٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٣/٢.

٨) ينظر على سبيل المثال : البكري، المسالك والممالك، ٨٩٣/٢ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ١٧/١ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٥ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٠٧ ؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥٠ -٥٥١ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٢٠ -١٢١.

٩) الجغرافية، ص ٩١ ؛ وينظر التفاصيل عنه : سالم، مدينة قادس، ص ٤٠ -٤٥.

اتجه مباشرة إلى إستجة ومنها شمالاً حيث قرطبة وطليطلة[1] ، أما موسى فإنه سلك الطريق الآخر المتجه غرباً ففتح شذونة ثم قرمونة ثم إشبيلية[2] ، وأشار ابن القوطية إلى أن موسى أخذ في ساحل شذونة ثم إلى إشبيلية[3] ، وترجح سالم أن فتح جزيرة قادس كان من قبل موسى ، استناداً إلى رواية ابن القوطية إذ أن شذونة لم يكن لها ساحل بل هي مدينة داخلية وقادس هي المواجهة لساحلها ، فبعد أن فتح شذونة اتجه إلى ساحل البحر حيث قادس أو أنه فتح قادس بعد دخوله إشبيلية لقربها منها[4].

ومن أولى الأحداث المهمة التي شهدتها المدينة هي تعرضها إلى هجمات النورمان الذين كان أول ظهور لهم سنة٢٢٩هـ/٨٤٣ م[5] ، ثم عاودوا الهجوم سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩م إلا أن قوات الإمارة الأندلسية تمكنت من صدهم[6].

وفي سنة٤٢٢هـ/١٠٣٠م سقطت الخلافة الأموية في الأندلس وتقسمت البلاد إلى دويلات طوائف متناحرة ، وترجح سالم إلى قادس خضعت أول الأمر إلى بني خزرون[7] من بربر زناتة المتغلبين على كورة شذونة[8] واستمرت في أيديهم حتى انتزعها

---

١) لمزيد من التفاصيل ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤١ -٤٤ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١، ١٩.

٢) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٤ -٢٥.

٣) تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٥.

٤) مدينة قادس، ص ٥٤.

٥) اختلفت المصادر في تحديد ذلك فذهب بعضهم إلى أنه كان في سنة ٢٢٩ هـ/٨٤٣ م، وذهب آخرون أن الهجوم الأول كان عام ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م، ينظر التفاصيل : السامرائي، الثغر، ص ١٨٣ -١٨٤. والراجح عند الحجي هو عام ٢٢٩ هـ/٨٤٣ م، التاريخ الأندلسي، ص ٢٢٨، وهو ما نذهب إليه لأن بقاءهم في السواحل استمر مئة يوم وكان هجومهم على لشبونة في أواخر عام ٢٢٩ هـ/٨٤٣ م في ذي الحجة منه، وكان هجومهم على اشبيلية بعد ذلك وفي بداية سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م، ولعل هذا هو منشأ الاختلاف بين المصادر.

٦) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/ ٧٩٦ -٨٤٦ م)، ص ٣٠٧ -٣٠٨ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٩٦/٢.

٧) ينظر التفاصيل عن بيني خزرون : ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢١٦/٢ -٢١٧.

٨) مدينة قادس، ص ٨٨.

منهم المعتمد بن عباد سنة٤٦١هـ/١٠٦٨م[1].

وبعد دخول المرابطين Los، Almoravides إلى الأندلس وقضائهم على أمراء الطوائف ولاسيما دولة بني عباد أصبح غرب الأندلس بأجمعه تحت سلطان المرابطين منذ سنة٤٨٤هـ/١٠٩١م وتحولت قادس في أيامهم إلى قاعدة بحرية يرابط بها الأسطول المرابطي[2] ، وفي نهاية المرابطين كانت قادس أول من خرجت عن طاعتهم ودخلت في طاعة الموحدين عندما أعلن قائد الأسطول فيها علي بن عيسى بن ميمون طاعته للموحدين سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م[3].

وفي عهد الخليفة المأمون الموحدي(٦٢٤-٦٢٩هـ/١٢٢٦-١٢٣١م) اضطربت الأوضاع في الدولة الموحدية ، وأدت إلى قيام ثورات عديدة في الأندلس لاسيما تلك التي قادها محمد بن يوسف بن هود الجذامي ،ومحمد بن يوسف بن الأحمر ، وكان الأول قد ثار على الموحدين سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧ م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق وحاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي[4] ، وقيل أن مدينة قادس دخلت في حوزته[5] ، وهو ما أثار حفيظة الموحدين فأرسلوا شقيق قائد فرقة النصارى في الجيش الموحدي المدعو غنصلة بالإغارة على قادس وذلك سنة ٦٣١هـ /١٢٣٣م[6] ، وقد أشار ابن عذاري إلى هذه الحادثة بقوله: (وفي هذه السنة وصل الزعيم غنصلة أخو شانجة بعد فتكة فتكها عند جزيرة قادس وأسر جميع من فيها بعد قتل ذريع لأهلها ، وذلك أنه لما استقبل من بلاده أجاز على جزيرة قادس وأعمل الحيلة في الإيقاع بأهلها والغدر بهم فأمكنه الحال من كمال مكره وتمام غدره ، فغدر الجزيرة ومن فيها من المسلمين واستباح كل من بها واستاق من أهلها جماعة إلى رباط أسفي فانتدب المسلمون

---

١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢١٨/٢ ؛ سالم، مدينة قادس، ص ٨٩ -٩٢.

٢) ابن خلدون، العبر، ٣١٦/١ ؛ سالم، مدينة قادس، ص ٩٧.٩٦؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢٠/٣ .

٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٢٤/٢ ؛ ابن خلدون، العبر ٣١٢/٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٢٢/٣.

٤) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢.

٥) سالم، مدينة قادس، ص ١١٥.

٦) سالم، مدينة قادس، ص ١١٥.

لافتكاكهم بالفداء فلم يبق بأدي الروم أحد من المسلمين ، وهذه الفتكة الشنعاء كانت سبباً لخراب جزيرة قادس حتى لم يبق لها رسم واستمر خلاؤها إلى حين تملك النصارى مدينة إشبيلية)[١] وقد مهد ذلك السبيل لسقوطها.

ولكن تطورات الأحداث في الأندلس بعد مقتل ابن هود سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م مهدت السبيل لابن الأحمر الذي دخل غرناطة واتخذها قادة لملكه ثم بسط نفوذه على عدد من المناطق فدخلت مالقة Malaga في طاعته سنة ٦٣٦ هـ/١٢٣٨م[٢] ، إلا أن مدينة إشبيلية لم تدخل في طاعة ابن الأحمر ، إذ رفض أهلها الخضوع له ، ولعل ذلك بسبب موقفه من الباجي[٣] والغدر به ، وفي هذا الأثناء أخذ ملك قشتالة فرناندو الثالث(٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧-١٢٥٢م) بمهاجمة المدن الأندلسية ، فهاجمت القوات النصرانية قادس سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ونهبوها وبقيت خالية حتى تمكن واليها أبو عبد الله الرنداجي من إعادة بنائها[٤].

وأصبحت سائر القواعد الوسطى لاسيما جيان وأحوازها تحت رحمته ، الأمر الذي أجبر ابن الأحمر إلى عقد صلح مع ملك قشتالة ، وفعلاً عقد الصلح بين الطرفين في سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥ م ، وكان من بنوده عقد هدنة بينهما لمدة عشرين سنة ، كما أعطى ابن الأحمر جيان وبركونة وأرجونة وأرض الفرنتيرة La Frontera[٥] للنصارى[٦] ، وصالحهم على ذلك مقابل تأمين غرناطة ، ولم تدخل في هذا الصلح مدينة إشبيلية ولا شريش Jerez de Frontera[٧] ، ما يعد ضوء أخضر للملك القشتالي بالاستيلاء عليهما.

---

١) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٠٧.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٩.

٣) ذكر ابن عذاري أن أهالي مدينة إشبيلية طردوا الوالي الموحدي سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣١م ونصبوا عليهم أبا مروان الباجي يرجعون إليه في رأيه، ثم بايعوه، وبقي فيهم حتى قتله ابن هود غدراً سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥ م، ينظر : البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٦.

٤) ابن أبي زرع، الخيرة السنية، ص ٦٦ ؛ سالم، مدينة قادس، ص ١١٧.

٥) وهى المنطقة الساحلية الواقعة غربي الجزيرة الخضراء والممتدة من ثغر قادس جنوباً حتى طرف الغار، ينظر : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣/٥.

٦) ابن خلدون، العبر، ٢٥٢/٧، ٥٠٨.

٧) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٦٧ ؛ ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ٦٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٢/٤ -٤٣٣.

وفعلاً بدأ ملك قشتالة فرناندو الثالث بمهاجمة المدن التي لم تدخل في الصلح لاسيما الواقعة غربي سلطنة غرناطة ، إذ شرع النصارى في حصار إشبيلية سنة ٦٤٥ هـ /١٢٤٧م ، وحشد فرناندو الثالث قوات كبيرة جاءت من مختلف أنحاء قشتالة ، كذلك اشترك معه الأمراء والأشراف والأحبار النصارى ، كما اشترك معه ابن الأحمر بقوة من فرسانه ، واستمر حصار إشبيلية زهاء ثمانية عشر شهراً وأبدى المسلمون مقاومة كبيرة في الدفاع عن مدينتهم ، وبعدها اضطر أهل إشبيلية إلى تسليم المدينة ودخل فرناندو الثالث إشبيلية في أوائل رمضان سنة٦٤٦هـ/١٢٤٨م في موكب ضخم بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون[١].

كان سقوط إشبيلية إيذانا بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب نهر الوادي الكبير ، كما استولى النصارى تباعاً على شريش وشذونة وروطة Rota وأركش Arcos وثغر شنتمريةSanta Maria ، وغيرها من قواعد الوادي الكبير وحصونه ، وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الأندلسية غربي بلاد الأندلس وأخذت رقعة الدولة الإسلامية تنكمش وتنحسر بسرعة كبيرة[٢] ، وأشار ابن عذاري إلى أن قادس ملكها النصارى بعد سقوط إشبيلية[٣] ، ولعل ذلك حسب الاتفاق السابق مع ابن الأحمر ، وترجح سالم إلى أن ذلك كان مؤقتاً إذ تمكن القائد الرنداجي من استردادها[٤] ، وقد أشار ابن أبي زرع إلى ذلك في حوادث سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩م قائلاً: (وفيها قتل القائد الرنداجي ثمانين من زعماء الروم بجزيرة قادس)[٥]

ويبدو أن القائد الرنداجي بقي يدافع عن قادس منذ سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م حتى سنة

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٨٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢٩٢/٦ ؛ وينظر أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٥/٥.

٢) لمزيد من التفاصيل ينظر : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٨٤ وما بعدها ؛ ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ٧١ وما بعدها ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٥/٥ وما بعدها.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٠٧.

٤) مدينة قادس، ص ١١٧.

٥) الذخيرة السنية، ص ٧٦.

٦٥٣هـ/١٢٥٥ م حيث قتل في هذه السنة بوادي إشبيلية[١] ، وترجح سالم إلى أن مقتله كان على يد النصارى عند مهاجمتهم قادس مما اضطره إلى الانسحاب نحو الداخل فقتل هناك[٢] ، ولم تحدد المصادر المتوفرة سنة استيلاء النصارى النهائي على قادس ، إلا أن ابن عذاري أشار إلى أن النصارى الذين هاجموا مدينة سلا المغربية سنة٦٥٨هـ/١٢٥٩م كانوا قد تجهزوا في قادس[٣] ، وهذا يعني أن قادس في أيديهم في ذلك التاريخ وقد اتخذوا منها قاعدة بحرية لمهاجمة أراضي المسلمين[٤] ، وترجح سالم إلى أن السقوط النهائي لمدينة قادس كان في المدة بين سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م وسنة ٦٥٨ هـ/١٢٥٩م[٥] ، وأشار عنان إلى أن النصارى استولوا على قادس بمساعدة ابن الأحمر[٦] وذلك سنة٦٦٠هـ/ ١٢٦١م إذ قال: وقد استمرت الأحوال على اضطرابها بقادس حتى افتتحها القشتاليون في سنة ١٢٦١م ، وافتتحوا في نفس الوقت شذونة ، والبريجه ، وغيرهما من قواعد الفرنتيرة[٧] ، وبذلك سقطت قادس بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٥٦٧ سنة.

---

١) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ٨١.

٢) مدينة قادس، ص ١٢١.

٣) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٢٢.

٤) سالم، مدينة قادس، ص ١٢٠.

٥) سالم، مدينة قادس، ص ١٢١.

٦) دولة الإسلام في الأندلس، ٤٦/٥.

٧) دولة الإسلام في الأندلس، ص ٤٩٨/٤.

مدينة لبلة Niebla الأندلسية
(٩٤-٦٦٠ هـ/٧١٢-١٢٦١م)

وهي مدينة وكورة بالأندلس يتصل عملها بكورة أكشونية وهي شرق أكشونية وغرب قرطبة وتعد من مدن غرب الأندلس ، وهي مدينة قديمة ترجع إلى قبل الإسلام ، وتعرف بلبلة الحمراء[١] ، وصفها الإدريسي بقوله: (ومدينة لبلة مدينة حسنة أزلية متوسطة القدر ولها سور منيع وبشرقيها نهر يأتيها من ناحية الجبل ويجاز عليه في قنطرة إلى مدينة لبلة وبها أسواق وتجارات ومنافع جمة وشرب أهلها من عيون في مرج من ناحية غربيها وبين مدينة لبلة والبحر المحيط ستة أميال)[٢] ، وانفرد ياقوت بالقول إنها تعرف بالحمراء أيضاً إذ قال: (والحمراء: اسم لمدينة لبلة بالأندلس)[٣] ، وهي واسعة ينتهي حوزها في الغرب أربعون ميلاً يختلط بأحواز باجة وحوزها في الشرق عشرون ميلاً ، وتختلط بأحواز إشبيلية ، ولها من القرى ما يزيد على ألف قرية[٤] ، كما يتبعها ثمانية أقاليم[٥].

أما المسافات فيما بينها وبين بقية مدن الأندلس ، فبينها وبين البحر المحيط ستة أميال[٦] ، وبينها وبين قرطبة أربعون فرسخاً ، وبينها وبين إشبيلية اثنان وأربعون ميلاً[٧] ، وبينها وبين أونبة ستة فراسخ[٨] ، وبينها وبين طلياطة عشرون ميلاً[٩].

---

١) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١١٠ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٣٢ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٤٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٠٧ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١١٠.
٢) نزهة المشتاق، ٥٤١/٢.
٣) معجم البلدان، ٣٠١/٢.
٤) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١١٠ -١١١ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١١١.
٥) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٣٢.
٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤١/٢.
٧) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٤٥.
٨) الحميري، الروض المعطار، ص ٦٣.
٩) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١١٠ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥.

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة عن كيفية فتح منطقتها ووقت دخول المسلمين إليها ، إلا أنه من الراجح أنها فتحت خلال فتح المسلمين لمدينة إشبيلية ، وذلك لقربها منها ، فبعد عبور الوالي موسى بن نصير سنة٩٣هـ/٧١١م إلى الأندلس عسكر بجيشه بالقرب من مدينة الجزيرة الخضراء Algeciaras حيث عقد مؤتمراً حربياً مع قواده الذين بحثوا معه خطة سير الحملة العسكرية واتجاهها ، وقرر الجميع أن أفضل الخطط هي الاتجاه صوب منطقة إشبيلية وغربي البلاد التي لم يتم فتحها بعد من قبل طارق بن زياد ، فتقدم موسى نحو مدينة شذونةMedia Sidonoa ، ومنها إلى مدينة قرمونة Carmona الحصينة التي لم يفلح في فتحها إلا بعد استخدام خطة حربية محكمة[١] ، وبعدها سار موسى إلى مدينة إشبيلية ، فضرب عليها الحصار عدة أشهر ، تمكن بعدها من دخول المدينة عنوة حيث هربت حاميتها القوطية إلى مدينة باجة Beja[٢].

ويبدو أن موسى بن نصير ترك في إشبيلية حامية عسكرية بالتعاون مع السكان المحليين الموجودين في المدينة ، بمهمة الحفاظ على الأمن والدفاع عنها[٣] ، ثم غادرها إلى مدينة لقنت Alicante[٤] ومنها إلى مدينة ماردة Merida الذي تمكن من دخولها صلحاً سنة ٩٤هـ/٧١٢م[٥].

ولكن الأمور في غرب الأندلس لم تكن تسير كما هو مطلوب بالنسبة إلى موسى بن نصير ، فقد تجمعت فلول القوط الهاربة من إشبيلية وغيرها من المدن المفتوحة في الغرب في مدينتي لبلة وباجة ، واستغلت هذه الفلول انشغال موسى بحصار ماردة ، فهاجمت إشبيلية واستطاعت بمساعدة بعض سكانها أن تقتل ثمانين رجلاً من الحامية الإسلامية وتجبر الباقين على الفرار والسيطرة على المدينة[١].

---

١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٦.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٤/٢.

٣) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٦ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٩٦/١.

٤) هناك أكثر من مكان في الأندلس يدعى لقنت، والمقصودة هنا مدينة تقع غرب الأندلس من أعمال ماردة، ينظر : ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٤٩ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٠٦.

٥) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٦ –١٨.

١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥/٢.

وعلى إثر ذلك أرسل القائد موسى بن نصير ابنه عبد العزيز لإعادة فتح المدينة ، وفعلاً تمكن الأخير من فتحها وإعادة السيطرة الإسلامية عليها سنة٩٤هـ/٧١٢م ، وقد أشار ابن عذاري إلى هذه الأحداث بقوله: (... ، وبلغ الخبر بذلك إلى موسى بن نصير ، فلما استتم فتح ماردة ، بعث ابنه عبد العزيز بجيش إلى إشبيلية ، فافتتحها ، وقتل أهلها ،... ، لما استتم فتح إشبيلية ، تقدم عبدالعزيز بن موسى بجيشه إلى لبلة ، فافتتحها ، وانصرف إلى إشبيلية ، فدخلها أيضا)[١] ، وهذا يعني أن موسى لم يفتح لبلة بل تقدم من إشبيلية إلى ماردة ، لذا فإن فتح لبلة كان من قبل عبد العزيز بن موسى سنة ٩٤هـ/٧١٢م.

ومن الأحداث المهمة التي تعرضت لها المدينة في عهد الإمارة(١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م) هي ثورة سعيد اليحصبي المعروف بالمطيري سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م[٢] ، كذلك هجوم النورمان Normandos لها أثناء حملتهم على مدينة إشبيلية سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م[٣] ، وفي عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني(٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨- ٩١٢م) اضطربت الأحوال وامتدت نار الثورة إلى الغرب ، وثار في لبلة عثمان بن عمرون من المولدين سنة ٢٧٦ هـ /٨٨٩م ثم هاجت الفتنة بينهم وبين العرب بزعامة عثمان بن عبد الغافر وعمت الفتنة جميع كورة لبلة ثم امتدت شرقاً إلى إشبيلية[٤] واستمرت حتى وضع لها حداً عبد الرحمن الناصر عندما أجبرهم على الدخول في طاعته سنة ٣٠٤هـ/٩١٦ م([٥].

وكان لقوة الدولة الإسلامية في الأندلس في عهود الخليفة الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) والخليفة الحكم المستنصر(٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م) والحاجب محمد بن أبي عامر(٣٦٦-٣٩٢هـ /٩٧٦-١٠٠١م) ثم ابنه عبد الملك المظفر(٣٩٢-٣٩٩هـ/١٠٠١-١٠٠٨م) أثر كبير في استقرار أوضاعها الداخلية ، ولكن بعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس ما يسمى بالفتنة[١]

---

١) البيان المغرب، ١٥/٢ ؛ ينظر أيضاً : ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٧ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧١/١.

٢) ينظر التفاصيل عن ثورة سعيد اليحصبي : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١١١ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٩٧ -٩٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٥٣/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٥٧/٤.

٣) ينظر عن هجوم النورمان على إشبيلية ولبلة : ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ١٧٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٨٨/٢

٤) ينظر التفاصيل: ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/٨٨٨ -٩١٢ م) ص ٨٩ -٩٠.

٥) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/٩١٢ -٩٤١م) ص ١٢٨.

١) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة=

في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وما تلاها من سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م بدأ عصر جديد في الأندلس أطلق عليه المؤرخون عصر دويلات الطوائف Los، Taifas(٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) إذ انقسمت الأندلس إلى دويلات ، وقد ثار في لبلة أحمد بن يحيى اليحصبي اللبلي وذلك سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣ م وأقام فيها دويلة استمرت حتى سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م عندما ضمها المعتضد بن عباد إلى دولته في إشبيلية[١].

وبعد عبور المرابطين إلى الأندلس استطاعوا من إحكام سيطرتهم على مدينة إشبيلية وبقية مدن الغرب الأندلسي وذلك سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م[٢] ، وبذلك أصبحت خاضعة لنفوذ المرابطين ، واستمرت حتى اضطربت أمور الأندلس في نهاية المرابطين وبداية الموحدين ، ومن الثوار الذين خاضوا غمار الصراع آنذاك في مدينة لبلة يوسف بن أحمد البطروجي[٣] الذي دخل في طاعة الموحدين عند عبورهم إلى الأندلس سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م[٤].

ومن الأحداث المهمة التي واجهت الموحدين هو ثورة أحد رجالات الغرب الأندلسي يدعى علي الوهيبي الذي هاجم لبلة واستولى عليها فبعث الوالي الموحدي في إشبيلية قواته إلى لبلة ودخلها وفتك بأهلها ووضع بهم السيف ولم يرحم أحداً كما باع نساءهم وأولادهم وعلى الرغم من أن الخليفة الموحدي لم يرضى بفعل القائد الموحدي إلا أن ذلك أثار استياء الأهالي من الحكم الموحدي[٥].

وفي عهد الخليفة الموحدي العادل(٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٦م) ، تعرض إقليم الشرف غرب إشبيلية لهجوم من قبل نصارى ليون يقودهم مارتن سانشيز وهو ابن غير شرعي

=الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ /١٠٣٠ م، ينظر : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١/١٥٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٥٣.

١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/١٩٣، ٢٠٤، ٣٠٠ -٣٠١ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/٤٠ -٤٢

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٤/١٤٤.

٣) ينظر عن البطروجي وثورته : ابن الابار، الحلة السيراء، ٢/٢٠٤ ٢٠٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/٢٢٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٦/٣١٢.

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٥ -٣٦.

٥) ينظر التفاصيل : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٥٢ -٥٣ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٩٥.

لملك البرتغال Portugal سانشو الثاني Sancho II(٦٢٠-٦٤٦هـ/١٢٢٣- ١٢٤٨م) ، ودخل في خدمة ملك ليونLeon ، وقد عبرت قواته جبال الشارات ، وسارت جنوباً حتى وصلت إلى أراضي الشرف ، واستولت على الكثير من الغنائم والسبي ، وقد وجد الخليفة العادل أخوه أبو العلا ووزيره ابن يوجان[1] عاجزين عن مواجهة النصارى ، وحماية مدينتهم ، لذا استنفر الخليفة العادل الناس ، واحتشدت جموعهم ، إذ اجتمع من الفرسان نحو مائة فارس ، وسارت هذه الجموع إلى غربي إشبيلية لمواجهة النصارى على مقربة من مدينة لبلة سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ، وعند وصولهم انقض عليهم النصارى ، وقتلوا وأسروا الكثير منهم ، إذ قدر من قتل من المسلمين في هذه الموقعة بعدة آلاف ، وعرفت هذه المعركة باسم موقعة طلياطة[2].

ثم طمع النصارى الأسبان في جبهة الغرب لما حققوه من مكاسب ، فبعد عام من هذه النكسة التي حلت بالمسلمين(أي سنة٦٢٣هـ/١٢٢٦م) هاجم النصارى مدينة طلياطة مرة أخرى بقيادة ملك قشتالة Castilla فرنادو الثالث Fernando III(٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧-١٢٥٢م) بالتحالف مع البياسي[3] المتمرد على الحكم الموحدي ، إذ سار المتحالفون بقواتهم باتجاه مدينة إشبيلية ، وعبروا نهر الوادي الكبير إلى إقليم الشرف على مقربة من لبلة ، وعلى إثر ذلك خرجت القوات الموحدية من إشبيلية بقيادة أبي العلا لصدهم ، واشتبك الطرفان هناك ، وفيها هزم الموحدون هزيمة كبيرة وقتل منهم نحو ألفين[4] ، وعلى إثر خسارة الموحدين للمعركة ، فقد خضعت معظم البلاد والحصون الواقعة بين إشبيلية وقرطبة Cordoba لسلطة البياسي ، ومن ضمنها إقليم الشرف[1] ، إلا أنه لم يستمر طويلاً ، إذ سرعان ما قامت ثورة

---

١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهنتاني وزير الخليفة العادل الموحدي، ينظر : الحميري، الروض المعطار، ص ١٧٤ - ١٧٥ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ٢٤٤.

٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥ ؛ ينظر التفاصيل أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٤/٤

٣) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي خلع بيعة العادل الموحدي وأعلن نفسه خليفة واستعان بالنصارى وهاجم إشبيلية إلا أنه فشل وقتل سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، ينظر : الحميري، الروض المعطار، ص ١٢٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٤.

٤) الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٩/٤.

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧١.

ضده من قبل العامة من أهل قرطبة ، وتمكنوا من قتله سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م[١].

وفي عهد الخليفة المأمون الموحدي(٦٢٤-٦٢٩هـ/١٢٢٦-١٢٣١م) اضطربت الأوضاع في الدولة الموحدية ، وأدت إلى قيام ثورات عديدة في الأندلس لاسيما تلك التي قادها محمد بن يوسف بن هود الجذامي ومحمد بن يوسف بن الأحمر ، والأول ثار على الموحدين سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق وحاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي[٢] ، وقد استغل أهالي لبلة اضطراب الأوضاع في الدولة الموحدية فثاروا بقيادة قاضيها شعيب بن محمد بن محفوظ سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م ودعا لنفسه وتلقب بالمعتصم فسار إليه ابن هود وحاصر لبلة إلا أنه فشل في اقتحامها مما اضطره إلى الانسحاب عنها وذلك عندما علم بأن ملك قشتالة فرناندو الثالث اتجه بقواته صوب جيان فسارع إليه وعقد معه هدنة تنازل له فيها عن عدد من الحصون ودفع إليه مبلغاً من المال[٣]

وفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م قتل ابن هود مما مهد السبيل لابن الأحمر الذي دخل غرناطة واتخذها قادة لملكه ثم بسط نفوذه على عدد من المناطق فدخلت مالقة Malaga في طاعته سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م[٤] ، إلا أن مدينة إشبيلية ومنطقة الغرب لم تدخل في طاعة ابن الأحمر ، إذ رفض أهلها الخضوع له ، وفي هذا الأثناء أخذ ملك قشتالة فرناندو الثالث بمهاجمة المدن الأندلسية ، وأصبحت سائر القواعد الوسطى لاسيما جيان وأحوازها تحت رحمته ، الأمر الذي أجبر ابن الأحمر إلى عقد صلح مع ملك قشتالة ، وفعلاً عقد الصلح بين الطرفين في سنة٦٤٣هـ/١٢٤٥م ، وكان من بنوده عقد هدنة بينهما لمدة عشرين سنة ، كما أعطى ابن الأحمر جيان وبركونة وأرجونة للنصارى ، وصالحهم على ذلك مقابل تأمين غرناطة ، ولم تدخل في هذا الصلح مدينة إشبيلية ولا شريش Jerez de Frontera[٥] ، ما يعد ضوء أخضر للملك القشتالي بالاستيلاء عليهما.

وفعلاً بدأ ملك قشتالة فرناندو الثالث Fernando III(٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧- ١٢٥٢م)

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٣.

٢) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٣١ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٦

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٩.

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٦٧ ؛ ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ٦٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٢/٤ -٤٣٣.

بمهاجمة المدن التي لم تدخل في الصلح لاسيما الواقعة غربي سلطنة غرناطة ، إذ شرع النصارى في حصار إشبيلية سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م ، وحشد فرناندو الثالث قوات كبيرة جاءت من مختلف أنحاء قشتالة ، كذلك اشترك معه الأمراء والأشراف والأحبار النصارى ، كما دفع الملك القشتالي أسطوله في نهر الوادي الكبير ، إحكاماً لمحاصرة المدينة من جهة البحر ، واضطر ابن الأحمر أن يشترك بقوة من فرسانه مع القشتاليين تنفيذاً للعهد الذي قطعه على نفسه في معاهدة الصلح مع ملك قشتالة ، كما أنه أراد الانتقام من أهل إشبيلية لخذلهم إياه وعدم الدخول في طاعته[١].

استمر حصار إشبيلية زهاء ثمانية عشر شهراً وأبدى المسلمون مقاومة كبيرة في الدفاع عن مدينتهم ، وبعدها اضطر أهل إشبيلية إلى تسليم المدينة على أن يؤمن المسلمون على أنفسهم وأموالهم ، وأن يمهلوا شهراً لتسوية شؤونهم وإخلاء دورهم والتأهب للرحيل ، وبعدها دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية في أوائل رمضان سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م في موكب ضخم بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون[٢].

كان القاضي ابن محفوظ الذي سيطر على لبلة منذ سنة٦٣٢هـ/١٢٣٤م قد شعر بالخطر بعد سقوط إشبيلية فقام بمصالحة فرناندو الثالث واعترف بطاعته مقابل التنازل له عن عدد من مدن الغرب الأندلسي مثل طبيرة وشنتمرية الغرب وشلب[٣] ، وأضاف ابن أبي زرع إلى أنه تنازل له أيضاً عن جبل العيون ووادي آنه وشلطيش وشنتيل وذلك سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م[٤].

وبعد وفاة فرناندو الثالث سنة٦٥٠هـ/١٢٥٢م وخلفه ابنه الفونسو العاشر(٦٥٠-٦٨٣هـ/١٢٥٢-١٢٨٤م) اغتنم ابن محفوظ الفرصة وخلع طاعته ورفض دفع الأموال إليه التي كانت مقررة منذ عهد أبيه ، عندها قرر الفونسو العاشر الزحف نحو لبلة ، وتشير الرواية النصرانية إلى أن الفونسو العاشر حاصر لبلة واشترك في حصارها فرقة من جند ابن الأحمر كونها لم تخضع لنفوذه ، وتضيف الرواية النصرانية إلى أن المسلمين ابدوا ضروب من الشجاعة وقاوموا القوات النصرانية عدة أشهر ، وكانوا يقذفون القوات النصرانية بآلات

---

١) ابن خلدون، العبر، ٢٩٢/٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٤/٥.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٨٤؛ وينظر أيضاً: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٥/٥.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٩٠/٤.

٤) الذخيرة السنية، ص ٧٧.

من الحجارة والنار تشبه المدفعية ، ولكن بعد تسعة أشهر من الحصار اضطر أهلها إلى التسليم ، وعوض ألفونسو صاحبها ابن محفوظ مقابل تسليمها ، بأملاك وضياع واسعة في أحواز إشبيلية ، وفي فحص الشرف ، وكان تسليم لبلة في سنة٦٥٧هـ/١٢٥٨م[١].

أما الرواية الإسلامية فجعلت سقوط مدينة لبلة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م ، فقد أشار ابن عذاري إلى ذلك بقوله: (وفي هذه السنة دخل الروم أبادهم الله مدينة لبلة بعد حصار عظيم وأمر جسيم ، وكان صاحبها ابن محفوظ لم يدخل في الصلح المنعقد بين ابن الأحمر والروم ، بل قاطع على نفسه في العام بمال معلوم ، يعطيه في بعض السنين ، وفي بعضها يجاهد في سبيل رب العالمين مع جماعته بزعامته وشهامته إلى أن حاصره الروم فيها في هذا العام ، فلما اشتد حاله ، وانقطعت آماله ، أعطى البلد النصارى وأخرج منها المسلمين أهلها ودخلت الروم إليها ، وقيل بل كان ذلك في آخر السنة التي قبل هذه المؤرخة ، ووصل ابن محفوظ إلى المرتضى[٢] مع جماعته ، فكان بمراكش يركب معهم فيها في جملة الأجناد ، كأحد رؤوس القواد ، إلى أن مات رحمه الله تعالى)[٣].

وتضع رواية ابن عذاري سقوط لبلة في سنة٦٦٠هـ/١٢٦١م أو في سنة٦٦١هـ/١٢٦٢م ، أما الرواية النصرانية فتضعها في سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م ، والراجح أن الرواية الإسلامية أقرب إلى الصحة كون ابن عذاري كان معاصراً للأحداث آنذاك وكون ابن محفوظ يعد من بقايا الموحدين في الأندلس فعندما غادرها رجع إلى مراكش وبقية في خدمتهم حتى وفاته ، وهكذا سقطت مدينة لبلة بعد أم حكمها المسلمون مدة ٥٦٧ سنة.

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٩٢ -٤٩٣.

٢) وهو عمر بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن تولى الدولة الموحدية سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م وقتل سنة ٦٦٥ هـ/١٢٦٦ م، ينظر : ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٥٨ -٢٥٩.

٣) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٣٠.

إستجة Ecija الأندلسية
(٩٢ -٦٦٢ هـ/٧١٠ -١٢٦٣ م)

وهي اسم لمدينة وكورة في الأندلس متصلة بكورة رية وهي بين المغرب والقبلة من قرطبة وتتصل أعمالها بأعمال قرطبة[١] ، وصفها الإدريسي بقوله: (ومدينة إستجة على نهر اغرناطة المسمى شنيل وهي مدينة حسنة ولها قنطرة عجيبة البناء من الصخر المنجور وبها أسواق عامرة ومتاجر قائمة ولها بساتين وجنات ملتفة وحدائق زاهية)[٢] ، وهي مدينة أزلية قديمة ومعنى إستجة (جمعت الفوائد)[٣] ، ووصفها مؤلف مجهول بقوله: (وهي مدينة منفسحة البطاح ، كثيرة المرافق ، وبها ضروب من الفواكه والأزاهر ، ولها أعمال كثيرة تزيد على الألف قرية ما بين حصون وقرى وبروج)[٤].

أما المسافات بينها وبين المدن الأندلسية المحيطة بها ، فبينها وبين قرطبة ثلاثون ميلاً[٥] ، وقيل خمس وثلاثون ميلاً[٦] ، وبينها وبين مرشانة عشرون ميلاً[٧] ، وبينها وبين قرمونة خمسة وأربعون ميلاً[٨] ، وبينها وبين مالقة سبعة أيام[٩] ، وبينها وبين إشبيلية مرحلة[١٠].

---

١) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٦ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٩ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٢٦ -١٢٧.
٢) نزهة المشتاق، ٥٧٢/٢.
٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٣.
٤) تاريخ الأندلس، ص ١٢٧.
٥) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٦ ؛
٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٢/٢.
٧) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٣.
٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٢/٢.
٩) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٧ ؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٤٨.
١٠) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٨.

أما فتحها فإن طارق بن زياد لما هزم القوط في معركة وادي لكة سنة٩٢هـ/٧١٠م سار قسم منهم إلى إستجة فتبعهم طارق وخاض معهم معركة عنيفة في إستجة انهزموا بعدها إلى طليطلة ودخل طارق إستجة في السنة نفسها[١] ، وفي إستجة بعث طارق بعض قواته لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط وهي: قرطبة والبيرة ومالقة Malaga وتدمير Tudmir ثم اتجه هو مباشرة إلى طليطلة [٢].

شهد عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الثاني(٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م) العديد من الثورات والفتن الداخلية ، ومن أشهر الثوار هو عمر بن حفصون الذي تمكن من الاستيلاء على إستجة سنة٢٧٦هـ/٨٨٩م[٣] واستمرت حتى تمكن الأمير عبدالرحمن الثالث الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) من استعادتها سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م[٤] ، ويبدو أن قبضة حكومة قرطبة استمرت بعد ذلك لعدم ذكر المصادر أحداث مهمة وقعت فيها واستمر ولاء الناس وطاعتهم لها طيلة القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

وبعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس ما يسمى بالفتنة في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وما تلاها من سقوط الخلافة الأموية سنة٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م بدأ عصر جديد في الأندلس أطلق عليه المؤرخون عصر دويلات الطوائف Taifas ، Los (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) ، خضعت إستجة وقرمونة لبني برزال[٥] من سنة ٤٠٤هـ /١٠١٣م إلى أن ضمها ابن عباد إلى ملكة سنة٤٥٩هـ/١٠٦٦م[٦] ، إلا أن الأوضاع في مدينة إستجة لم تستقر وذلك للمنافسة بين أمراء الطوائف على المنطقة المحيطة بقرطبة إذ

---

١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤١.

٢) لمزيد من التفاصيل ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١ -١٩.

٣) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ -٩١٢ م)، ص ٧٣.

٤) ابن حيان، المقتبس(٣٠٠ – ٣٣٠ هـ/ ٩١٢ -٩٤١م) ص ٥٤ -٥٥.

٥) ينتمي بنو برزال إلى أحد بطون زناتة من بني يفرن، وبعد سقوط الدولة العامرية استقل أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن برزال في قرمونة وإستجة وأسس إمارة له في المنطقة سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣ م استمرت حتى قضى عليهم بنو عباد سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م، ينظر : ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢١٤/٢ -٢١٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٥٩/٢ -١٥١.

٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٦٧/٣ -٢٦٩، ٣١١ ؛ عنان، دواة الإسلام في الأندلس، ١٥٩/٢ -١٥١.

تأرجحت ولاءات أهلها بين القوى المجاورة لهم مثل بني عباد وبني مناد حتى سقوطها بيد المرابطين Los، Almoravides ، ويبدو أن المرابطين دخلوا إستجة أثناء تقدمهم إلى قرطبة واستيلائهم عليها سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م إذ أخضعوا في طريقهم قرمونة ورندة[١].

وأهم حدث تعرضت له إستجة في العهد المرابطي أن ملك أراغونArgon الفونسو الأول المحارب(٤٩٩-٥٢٩هـ/١١٠٥-١١٣٤م) قام بحملة مدمرة اخترق خلالها الأندلس من شمالها إلى جنوبها ، إذ سار بجيشه في أول شعبان سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م من سرقسطة Saragosa إلى مدينة غرناطة في قوة مختارة من أربعة آلاف مقاتل ، ودخل العديد من المدن الأندلسية وأشاع فيها الخراب والذعر ومنها إستجة ثم انسحب إلى بلاده[٢].

وفي العهد الموحدي قام أحد قادة قشتالة المدعو الكونت خمينو الذي تسميه المصادر العربية القومس في سنة٥٦٨هـ/١١٧٢م بحملة مخربة جال فيها في ربوع الأندلس ، إذ خرج بقواته من آبلة[٣] واخترق قلب الأندلس وعبر نهر الوادي الكبير ووصل إلى قرطبة وإستجة وخرب زروعها وانتهب الأموال وأسر العديد من المسلمين ثم انسحب بعد مطاردة الجيش الموحدي له إلا أنهم تمكنوا من اللحاق به وهزيمة جيشه وقتله[٤] ، ثم أعادوا هجومهم على قرطبة وإستجة سنة٥٧٧هـ/١١٨١م[٥].

إلا أن الحدث الأبرز في تاريخ المنطقة في العهد الموحدي هو ما حدث بعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب Las. Navas de Tolosa سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ، فقد تغير ميزان القوى في الأندلس ، ولم يعد في مقدور الدولة الموحدية حماية الثغور الأندلسية من هجمات النصارى[٦] فضلاً عن قيام العديد من الثورات في الأندلس عليهم وكان من أهمها تلك

---

١) ابن بلقين، التبيان، ص ١٦٩ -١٧١.

٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٩١ -٩٦ ؛ الإحاطة، ٢٣/١ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٥٥/١.

٣) وهي إحدى مدن الشمال الأندلسي تبعد عن شلمنقة خمسون ميلاً، ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ٧٣٢/٢

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٢٤ -١٢٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٨٨/٤ -٨٩.

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٤٥ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣٢٤/٦.

٦) للمزيد من التفاصيل عن موقعة العقاب، ينظر: المراكشي، المعجب، ص ٢٣٥-٢٣٦ ؛ الحميري،الروض المعطار، ص ٤١٦-٤١٧ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٧٠/٢ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤١٩ وما بعدها.

التي قام بها محمد بن يوسف بن هود الذي ثار على الموحدين سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق وحاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي[١] ما يعني أن قرطبة وإستجة أصبحت ضمن نفوذه ، إلا أنه دخل في صراع مع ثائر آخر وهو محمد بن يوسف بن الأحمر صاحب حصن أرجونة ونافس ابن هود في السيطرة على قرطبة ثم إن ابن هود تمكن من إعادتها إليه[٢].

إلا أن ابن هود لم يستطع الحفاظ على ممتلكاته ، ففي سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م سارت قوات قشتالة وضربت الحصار على مدينة قرطبة ولحق بهم الملك القشتالي فرناندو الثالث Fernando III(٦١٤-٦٥٠هـ/١٢١٧ ١٢٥٢م) وأحكموا الحصار عليها ، من جانبه حاول ابن هود إنقاذ المدينة فاتجه بقواته وعسكر في إستجة إلا أنه تقاعس عن نصرة المدينة المحاصرة[٣] التي اضطرت إلى الاستسلام في٢٣ شوال من سنة ٦٣٣هـ/الموافق ٢٩ يونيه ١٢٣٥م[٤].

كان ابن هود في إستجة عندما سقطت قرطبة ثم غادرها متجهاً إلى بلنسية إذ جاءه في ذات الوقت صريخ من أمير بلنسية أبي جميل زيان[٥] ، فيما أشار عنان أنه لم تعرف وجهته[٦] حتى ظهر في المرية في جمادي الأولى سنة٦٣٥هـ/١٢٣٧م حيث قتل هناك[٧].

وفي رواية ابن أبي زرع أن مدينة إستجة سقطت بيد النصارى سنة٦٦٢هـ/١٢٦٣م ، إذ قال: (وفيها أعطى ابن يونس مدينة إستجة إلى دون جيل الرومي ، وأدخله المدينة ،

١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٦.

٣) قيل إن سبب عدم تمكن ابن هود من نصرة أهالي قرطبة هو قسوة الطقس وسقوط الأمطار، وقيل بل خدعة دبرها فارس قشتالي كان معه ومن المقربين إليه، ينظر : أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٨٥/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢١/٤ -٤٢٣.

٤) ينظر التفاصيل عن سقوط قرطبة : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٣١ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٨/٤ -٤٢٥ ؛ سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ١٥٢/١ -١٥٤.

٥) أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٨٥/٢.

٦) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢٦/٤.

٧) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤١.

فأخرج عنها المسلمين ثم قتلهم وسبا حريمهم وأموالهم إلا قليلاً منهم تداركهم دون نونة فأطلقهم من يده ونفاهم للاسنه وقائدهم يومئذ ابن ربيبه وعذل دون جيل على غدره بالمسلمين ولامه على ذلك ، وكان بين الإخراج الأول والثاني ستة أشهر)[١].

ولم توضح المصادر المتوفرة من هو ابن يونس الذي سلم مدينة إستجة للنصارى ، وقد أشار عنان إلى أن سقوط مدينة قرطبة كان نذيراً بسقوط معظم البلاد والحصون القريبة منها مثل إستجة ، والمدور ، وبيانة ، وبلاي ، ومرشانة ، وقبرة ، وأشونة ، واللسانة ، ومورور وغيرها[٢] أي قبل خمسة وعشرون عاماً من هذا التاريخ ، ورجح عنان أن إستجة دخلت في طاعة الملك القشتالي صلحاً وبقيت بيد أهلها المسلمين حتى سنة ٦٦٢هـ /١٢٦٣م عندما غدر بهم القائد القشتالي دون جيل[٣].

أما عن سبب ذلك فالراجح أنه يعود إلى الحملة التي أرسلها بنو مرين إلى الأندلس لمواصلة الجهاد سنة٦٦٢هـ/١٢٦٣ م بقيادة محمد بن إدريس بن عبد الحق وعامر بن إدريس بن عبد الحق(أخوة السلطان المريني يعقوب بن عبدالحق) لذا خشي نصارى قشتالة من أن يؤدي ذلك إلى تقوية مركز المسلمين في الأندلس لاسيما وأن الحملة المرينية أعلاه تمكنت من فتح مدينة شريش[٤] ، لذا سارعوا للإجهاض على ما تبقى من نفوذ المسلمين في المناطق التابعة لهم ، أما الخلاف بين القائدين القشتاليين حول طريقة التعامل مع أهالي إستجة فيبدو أن الثاني كان لا يريد إثارة حفيظة المسلمين في المناطق الأخرى عن طريق إخراجهم من المدينة بأقل ما يمكن من الخسائر بالنسبة للنصارى مع تحقيق نفس الهدف وهو الاستيلاء على المدينة وتوابعها ، وهكذا سقطت مدينة إستجة بعد أن حكمها المسلمون٥٧٠ سنة.

---

١) الذخيرة السنية، ص ١٠١.

٢) دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢٥/٤ ؛ ينظر أيضاً : أشباخ، تاريخ الأندلس، ٤٣٤/٢.

٣) دولة الإسلام في الأندلس، ٤٨/٥ هامش(٢).

٤) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ١٠٠.

مدينة مرسية Murcia الأندلسية

(٩٤ -٦٦٤هـ/٧١٢ -١٢٦٥ م)

وهي إحدى مدن كورة تدمير من بلاد شرق الأندلس ، وأشارت بعض المصادر إلى أن اسم مرسية كانت تدمير ، قال الزهري: (مرسية وتعرف بتدمير)[١] ، وجعل العذري مرسية من أقاليم تدمير[٢] ، واتفقت أغلب المصادر على أن مرسية كمدينة محدثة[٣] بناها الأمير عبد الرحمن الثاني(٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢١-٨٥٢م) سنة ٢١٦هـ/٨٣١م واتخذها قاعدة لبلاد تدمير ودار العمال والقواد[٤] ، وهي قريبة من البحر المتوسط وفرضتها على البحر مدينة قرطاجنة[٥] ، وصفها الحميري بقوله: (مرسية على نهر كبير يسقي جميعها كنيل مصر ، ولها جامع جليل وحمامات وأسواق عامرة ، وهي راخية أكثر الدهر رخيصة الفواكه كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمر ، وبها معادن فضة غزيرة متصلة المادة ، وكانت تصنع بها البسط الرفيعة الشريفة ولأهلها حذق بصنعتها وتجويدها لا يبلغه غيرهم)[٦].

أما المسافات بينها وبين مدن الأندلس الأخرى ، فبينها وبين مدينة أريولة اثنا عشر ميلاً[٧] ، وبينها وبين فرضتها قرطاجنة أربعون ميلاً[٨] ، وبينها وبين بلنسية خمس مراحل وكذلك بينها وبين المرية[٩] ، وبينها وبين قرطبة عشرة مراحل ، وبينها وبين شقورة

---

١) الجغرافية، ص ١٠٠ ؛ ينظر أيضاً : الرشاطي، الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ٦٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٠/١

٢) ترصيع الأخبار، ص ١٠ ؛ ينظر أيضاً : ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٦.

٣) ذهب مؤلف مجهول إلى أن مرسية مدينة قديمة أزلية، تاريخ الأندلس، ص ١٣٥.

٤) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٦ ؛ الرشاطي، الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ٦٢ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٦٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٣٩.

٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٨/٢.

٦) الروض المعطار، ص ٥٣٩.

٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٨/٢.

٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٩/٢.

٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٩/٢.

أربعة مراحل ، وبينها وبين جنجالة خمسون ميلاً[1] ، وبينها وبين لورقة أربعون ميلاً[2].

أما منطقتها فقد فتحت من قبل القائد عبد العزيز بن موسى سنة ٩٤هـ/٧١٢م[3] ، وذلك بعد أن أرسل موسى بن نصير ابنه عبد العزيز إلى جنوب وجنوب شرق شبه الجزيرة الأيبيرية ، إذ التقى قرب مدينة أوريولة(Orihuela) بالدوق تدمير حاكم هذه المقاطعة ، وقد قاوم تدمير هجوم المسلمين لبعض الوقت ، ولكنه توصل بعد ذلك إلى عقد معاهدة صلح معهم في رجب سنة٩٤هـ/نيسان٧١٢م[4] ، وتضمنت معاهدة الصلح شروط مناسبة حصل تدمير بموجبها على الاعتراف به حاكماً على سبعة مدن تقع ضمن منطقته وهي: أوريولة ، ومولة(Mola) ، ولورقة ، وبلنتله ، ولقنت(Alicante) ، وآنه(Iana) ، وإلش(Elche) ، كما احتفظ بإدارته الداخلية لهذه المدن ، مقابل أن يدفع جزية سنوية تقدر بدينار ذهبي واحد مع كميات من القمح والشعير والخل والعسل والزيت لكل فرد حر من أفراد رعيته ، أما العبيد فتؤخذ عنهم نصف هذه الكمية ، وقد وافق تدمير أيضاً بأن لا يقوم أحد من رعيته بتجاهل هذه المعاهدة أو الإخلال بشروطها[5].

ومن الأحداث المهمة التي شهدتها مرسية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ثورة ديسم بن إسحاق الذي غلب على معظم مناطق تدمير سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م واستمر حتى وفاته سنة ٢٩٤هـ/٩٠٦م[6] ولكنها بقيت خارج سيطرة حكومة قرطبة حتى استنزلها عبد الرحمن الناصر سنة٣١٢هـ/٩٢٤م[7].

كانت مدينة مرسية تدار من قبل عمال حكومة قرطبة حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، فعقب سقوط الدولة العامرية تمكن خيران العامري الصقلبي من السيطرة على شرقي الأندلس ، وصارت هذه المناطق ومنها مرسية تحت

---

١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٠/٢.

٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٢/٢.

٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٢.

٤) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٢ -١٣.

٥) ينظر بنود الصلح : العذري، ترصيع الأخبار، ص ٤ -٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٣٢.

٦) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥-٣٠٠ هـ/٨٨٨-٩١٢ م) ص ٢٤-٢٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٤٢/٢.

٧) ابن حيان، المقتبس(٣٠٠ -٣٣٠ هـ/٩١٢ -٩٤١م) ص ١٩٠.

سيطرته وذلك سنة٤٠٣هـ/١٠١٢م وبقيت في طاعته حتى وفاته سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م[١] ، ثم خلفه عليها زهير العامري وبقي فيها حتى مقتله سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م ، بعدها صارت بلاد تدمير بعضها لأبي الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر ومنها مرسية ولورقة وما والاهما[٢] ، وتولى حكم مرسية نيابة عنه أبو بكر بن طاهر وطال حكمه فيها ستة وثلاثين عاماً حتى وفاته سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م فخلفه ابنه عبد الرحمن بن طاهر الذي استمر حتى استيلاء ابن عباد عليها سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م[٣] واستمر حكمها باسمه حتى سقوط إشبيلية بيد المرابطين(Los، Almoravides) سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م[٤].

وشهدت الأندلس في نهاية المرابطين وبداية الموحدين حدوث العديد من الاضطرابات والثورات[٥] ، إذ استغلت بعض الشخصيات هذه الأوضاع ، فتغلب محمد بن سعد بن مردنيش على مدينتي بلنسية ومرسية ، وخضعت لحكمه معظم مناطق شرق الأندلس وذلك سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م ، وامتد سلطانه من أحواز طرطوشة(Tortosa) شمالا حتى قرطاجنة(Cartagena) ولورقة جنوباً[٦] ، واستمر نفوذه هناك حتى دخولها في حوزة الموحدين سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٧].

إلا أنه في نهاية العهد الموحدي تعرضت المدينة لعدة أحداث على أثر اضطراب الأوضاع السياسية داخل الأسرة الموحدية ، فبعد وفاة الخليفة الموحدي المستنصر(٦١٠-٦٢٠هـ /١٢١٣-١٢٢٣م) بايع أهل مراكش عبدالواحد بن يوسف بن عبدالمؤمن(٦٢٠-٦٢١هـ /١٢٢٣-١٢٢٤م) فعارض بيعته ابن أخيه أبي محمد عبدالله بن يعقوب المنصور الذي كان والياً على

---

١) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦.

٢) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦.

٣) ينظر عن حكم بني طاهر لمرسية : ابن الابار، الحلة السيراء، ١١٦/٢ -١٢٥ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٩١/٢ -١٩٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٧٧/٢ -١٨١.

٤) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٢٧٦/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٧/٢.

٥) ينظر عن أحوال شرق الأندلس آنذاك: دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٧٥-٩٥.

٦) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٧/٣ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢٢٥/١.

٧) ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٤٢٨ -٤٢٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١١٢ -١١٣.

مدينة مرسية ، وقد دعا الأخير أشياخ الموحدين إلى بيعته فتم له ذلك سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م ، وتلقب بالعادل(٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٦م) ، وسار إلى مدينة إشبيلية Sevilla وأخذ في تدبير حكمه ، فأصبح للدولة الموحدية خليفتين أحدهما في مراكش والآخر في إشبيلية.

وفي هذا الأثناء تعرضت مدينة مرسية إلى هجوم من قبل النصارى وذلك سنة٦٢١هـ /١٢٢٤ م وتصدى أهالي مرسية للهجوم إلا أنهم انهزموا إمام القوات النصرانية ، وقد علق الحميري على ذلك بقوله: (عفص بالأندلس قرب مرسية ، فيها كانت وقيعة الروم على أهل مرسية سنة٦٢١ في رجبها ، ذهب فيها من أهل مرسية بين قتيل وأسير نحو من أربعة آلاف رجُل ، وكان الروم أغاروا على تلك الجهة فخرج إليهم أهل مرسية ،... ، وكان صاحب الجيش في هذا اليوم أبو علي ابن أشرقي ،... ، وكان عباد الصليب قد وصلوا إلى عفص من عمل مرسية فخرج عسكر مرسية ومعهم العامة ، فقتل منهم كثير وأسر أكثر)[1].

وبعد ضعف وانحسار نفوذ الموحدين في شرق الأندلس ظهر في المنطقة زعيمان من البيوتات القديمة في الأندلس هما أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الذي نجح في مد سيطرته على مرسية وغرناطة ومالقة ، وأبو زيان بن مردنيش الذي انحصر نفوذه في بلنسية[2] ، ورأى النصارى الفرصة سانحة لانتزاع ما أمكنهم من قواعد الأندلس ، ففي الغرب الأندلسي سقطت ماردة وبطليوس في أيديهم سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م ، وفي الوسط سقطت بياسة سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م وأبذة سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م وفحص البلوط وفريش سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م ، وقرطبة سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م ، ولم يستطع ابن هود عمل شيء تجاه ذلك على الرغم من عقده معاهدة مع الملك القشتالي[3] ثم جاء مقتله سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ليفسح المجال أمام ملك أراغون خايمي الأول الملقب بالفاتح(٦١٠-٦٧٥هـ/١٢١٣-١٢٧٦م) للاستيلاء على بلنسية سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م بعد حصار دام خمسة أشهر[4] ، وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً

---

١) الروض المعطار، ص ٤١٥.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٢/٣.

٣) ينظر عن المعاهدة : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٣١.

٤) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٣٠٣/٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٩ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٧٣/٢.

أمامه لانتزاع ما تبقى من مدن شرق الأندلس.

غادر الأمير أبو جميل زيان بلنسية إلى دانية لأنها كانت ضمن نفوذه ويحكمها باسمه ابن عمّه محمد بن سبيع بن يوسف[1]، وذلك في رجب من سنة٦٣٦هـ/١٢٣٨م ودعا بها للأمير أبي زكريا الحفصي[2]، وأشار ابن الخطيب إلى أن نزول أبو جميل زيان دانية كان بالاتفاق مع الملك خايمي الأول[3]، وخلال وجوده في دانية عرض على الملك خايمي أن يسلمه حصن لقنت على أن يمنحه حكم جزيرة منورقة باسمه، فرفض الأخير ذلك لأن لقنت لا تدخل ضمن نطاق فتوحاته حسب الاتفاق بينه وبين ملك قشتالة[4]، عندها اضطر الأمير أبو جميل زيان إلى البحث عن ملاذ آمن.

أما مدينة مرسية التي كانت تحت نفوذ محمد بن يوسف بن هود الجذامي فلما توفي سنة٦٣٥هـ/١٢٣٧م بايع أهلها ابنه أبو بكر بن هود وتلقب بعضد الدولة إلا أن عهده لم يدم طويلاً إذ ثار به أهل المدينة وجعلوا مكانه أبو بكر عزيز بن عبدالملك بن محمد بن خطاب الذي دعا لنفسه وتلقب بضياء الدولة وذلك في محرم من سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م، إلا أنه لم يهنأ بذلك، إذ هاجمه نصارى برشلونة وأراغون وأوقعوا به الهزيمة، عندها ثار عليه أهل مرسية واستدعوا الأمير أبا جميل زيان الذي كان في دانية يرقب الأحداث في مرسية، فسارع إليها ودخلها وقبض على أميرها أبا بكر عزيز وقتله وذلك في رمضان من السنة نفسها[5].

وفي مرسية دعا الأمير أبو جميل زيان للحفصيين في إفريقية وبقي فيها حوالي سنتين حاول خلالها استرضاء ملك قشتالة فراندة الثالث(٦١١-٦٥٠هـ/١٢١٤- ١٢٥٢م) لعقد سلم معه، وذلك لأن مرسية كانت ضمن نطاق فتوحاته حسب الاتفاق بين مملكتي قشتالة وأراغون، إلا أنه لم يوفق في ذلك بسبب اضطراب أحوال الأندلس وكثرة الثائرين وتربص

---

١) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٣١٧/٢ ؛ ابن الخطيب، أعلام الأعلام، ٢ /٢٤٢.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤ /٤٥٦.

٣) أعلام الأعلام، ٢، /٢٤٢(ويسميه حاقمه).

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٥٧/٤.

٥) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٣١٠/٢ ؛ ابن الخطيب، أعلام الأعلام، ٢ /٢٤٣ -٢٤٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٥٧/٤.

ملوك النصارى بها ، فهاجمها الواثق بالله محمد بن هود وتمكن بمساعدة أهل مرسية من دخولها وأخرج الأمير زيان منها الذي انتقل بأهله إلى لقنت وذلك سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وبقي في لقنت حتى سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م ، إذ هاجمها ملك برشلونة وأراغون خايمي الأول وتمكن من الاستيلاء عليها ، فخرج الأمير زيان بعدها إلى تونس ، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون بقوله: (ثم هلك ابن هود وانتقض أهل مرسية على ابنه أبي بكر الواثق ، وكان واليه بها أبو بكر بن خطّاب ، فبعثوا إلى زيّان واستدعوه فدخلها وانتهب قصرها وحملهم على البيعة للأمير أبي زكريا على ولاية شرق الأندلس كله ، وذلك سنة سبع وثلاثين ، ثم انتقض عليه ابن عصام بأريولة ولحق به قرابة زيّان بمدينة لقنت فلم يزل بها إلى أن أخذها منه طاغية برشلونة سنة أربع وأربعين فأجاز إلى تونس ، وبها مات سنة ثمان وستين)[1].

وهكذا استولى الملك خايمي الأول خلال أعوام قليلة على معظم قواعد شرق الأندلس ولم تبق سوى مرسية التي كانت تحت نفوذ الواثق بالله محمد بن هود بعد أن طرد منها الأمير أبي جميل زيان سنة٦٣٨هـ/١٢٤٠م ، وحاول ابن هود الاحتفاظ بمرسية ودفع أطماع ملك برشلونة وأراغون خايمي الأول عن طريق التقرب إلى ملك قشتالة والاعتراف بتبعيته له على أن يمكنه منها وذلك سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ، وقد أشار ابن الابار إلى ذلك بقوله: (قدم أحمد بن مُحَمَّد بن هود ولد وَالي مرسية بجَمَاعَة من وُجُوه النَّصَارَى فملكهم مرسية صلحاً)[2] ، وأشار المقري إلى ذلك أيضاً: (وكان تملك العدو مرسية صلحاً ظهر يوم الخميس العاشر من شوال ، قدم أحمد بن محمد بن هود ولد والي مرسية بجماعة من وجوه النصارى فملكهم إياها صلحاً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[3] ، وعلى هذا الأساس وضع القشتاليون بعض الجند في مرسية والحصون التابعة لها فيما احتفظ أميرها الواثق بالله محمد بن هود بسيادته عليها وعلى بعض أعمالها[4].

وبعد وفاة ملك قشتالة فرناندو الثالث وخلفه ابنه الفونسو العاشر(٦٥٠-٦٨١هـ/١٢٥٢ – ١٢٨٢م) حاول الواثق بالله بن هود الاستقلال عن قشتالة بسبب مضايقة النصارى له ، فطلب مساعدة محمد بن نصر بن الأحمر ملك غرناطة الذي أرسل إليه فرقة من الجند

١) العبر، ٢١٥/٤.
٢) الحلة السيراء، ١٤٥/٢.
٣) نفح الطيب، ٤٧٢/٤.
٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٦١/٤.

بقيادة صهره أبي محمد بن أشقيلولة وتمكن من ضبط أمورها وخطب بها لابن الأحمر ، وقد أشار المقري إلى ذلك قائلاً: (ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروبٌ وخطوب إلى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكّل ، فضايقه الفنش والبرشلوني فبعث بالطاعة لابن الأحمر ، فبعث إليه ابن أشقيلولة ، وتسلم مرسية منه ، وخطب لابن الأحمر بها ، ثم خرج منها راجعاً إلى ابن الأحمر ، فأوقع به النصارى في طريقه ، ثم رجع الواثق إلى مرسية ثالثة)[1].

واستمر الواثق بالله بن هود في مرسية بمساعدة ابن الأحمر حتى سنة٦٦٢هـ/١٢٦٣م ، وكان تلك المدة يدفع الجزية للنصارى الذين استولوا على قصبة المدينة ووضعوا فيها جندهم ، إلا أنهم ضايقوا أهالي المدينة فثاروا عليهم وحاصروهم وطردوهم من القصبة وطلبوا مساعدة ابن الأحمر الذي أرسل ابن أشقيلولة الذي التقى مع النصارى ، إلا أنه لم يتمكن من الصمود فانهزم تاركاً مدينة مرسية تواجه مصيرها ، وقد علق ابن عذاري على ذلك بقوله: (وكان أيضاً أهل شرق الأندلس صالحوا الروم بمال معلوم يدفعونه لهم في كل عام ، وأعطى أهل مرسية قصبتهم للروم الذي هو قصرهم إلى أن وصلهم الروم الساكنون فيه بأذاهم وضرهم فأخرجوهم في هذه السنة—أي سنة٦٦٢هـ- منه بالقتال لهم والحصر ، وسموهم عندهم قيمة القصر ، فقاموا على النصارى وضيقوا بالحصار عليهم ، وحينئذ أخرجوهم بعد ما ألقوا السلاح إليهم ، وكتب أهل مرسية إلى الأمير ابن الأحمر ببيعتهم فبعث الرئيس أبا محمد بن أشقيلولة إليهم والياً عليهم فزحف النصارى إليها ، ونزلوا عليها فبقي الرئيس فيها محصوراً ، وفي نفسه مقهوراً ، فخرج منها ورجله فراراً ، فلم يجد أهل مرسية بعده حماة ولا أنصاراً ، فضاقت عليهم أحوالهم ، بما أصابهم من العدو ونالهم ، وطال عليهم حصارهم وعدموا حماتهم وأنصارهم ، فأعطوا مرسية للنصارى)[2] ، كما أشار المقري إلى ذلك بقوله: فلم يزل ابن هود في مرسية(إلى أن ملكها العدوّ من يده سنة ثمان وستين وستمائة)[3].

وكان الذي تولى اقتحام مدينة مرسية خايمي الأول ملك أراغون وبرشلونة إذ تفاهم مع

---

١) المقري، نفح الطيب، ٤٤٧/١ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤ /٤٦٢.
٢) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٣٢.
٣) نفح الطيب، ٤٤٧/١.

ملك قشتالة الفونسو العاشر الذي كان مريضاً أن يتولى خايمي الأول فتح مرسية ، فجهز حملة قوية سار بها جنوباً وضرب الحصار عليها وضيقوا عليها وقطعوا عنها الإمدادات ، واستمر الحصار بضعة أشهر ، فلما عجز أميرها الواثق بالله بن هود عن المقاومة اضطر إلى تسليم المدينة ، فدخلها الملك البرشلوني خايمي الأول سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م[١].

وذكر ابن خلدون رواية عن سقوط مدينة مرسية فيها بعض الاختلاف ، إذ أشار إلى أن الأمير زيان بعد تغلبه على مرسية وقتله ابن خطاب بقي فيها بضعة أشهر فدخلها محمد بن هود وأخرج منها الأمير زيان وتلقب ببهاء الدولة وبقي فيها حتى وفاته سنة٦٥٧هـ/١٢٥٨م ، فتولى بعده ابنه الأمير أبو جعفر وبقي يحكمها إلى سنة٦٦٢هـ /١٢٦٣هـ إذ أخرجه منها الواثق بالله بن هود وبقي بها أميراً ، فلما ضايقته قوات ملك برشلونة طلب مساعدة ابن الأحمر فبعث إليه ابن أشقيلولة وخطب بها لابن الأحمر ، ثم خرج منها وملكها الواثق بالله ثالثة فلم يزل بها حتى تملكها النصارى سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م[٢].

وبخصوص سنة سقوطها فهناك عدة روايات كما مرّ أعلاه ، فابن عذاري ذكر أنها سقطت بيد النصارى سنة٦٦٢هـ/١٢٦٣م ، فيما ذهب ابن خلدون والمقري أن سقوطها كان سنة٦٦٨هـ/١٢٦٩م ، وأشار ابن أبي زرع أنها سقطت سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م[٣] ، فيما ذهبت الرواية النصرانية إلى أن مرسية سقطت بيد النصارى سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م ، وهو الراجح لاتفاقها مع رواية ابن أبي زرع ، وهكذا سقطت مرسية بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٥٧٠ سنة.

بعهدها استولى ملك برشلونة وأراغون خايمي الأول على سائر مدن الشرق الأندلسي المهمة بعد أكثر من خمسة قرون من الحكم الإسلامي لها.

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤ /٤٦٣.

٢) العبر، ٢١٨/٤.

٣) الذخيرة السنية، ص ١١٤.

مدينة شقورة Seguar الأندلسية
(٩٤ -٦٦٥ هـ / ٧١٢ -١٢٦٦ م)

تقع مدينة شقورة شمالي مدينة مرسية Murcia[١] ، إذ تبعد عنها أربعة مراحل كما تبعد عن مدينة أقليش Ucles ثلاث مراحل ، ومن شقورة إلى مدينة سرته مرحلتان[٢].

تعد مدينة شقورة من أعمال كورة جيان Jaen[٣] ، وتحدث شيخ الربوة عن هذه المدينة الأخيرة وأعمالها بقوله: (كورة جيان وتسمى قنسرين وقصبتها مدينة الحاضرة ،... ، ولها من الأعمال بياسة وأبذة ،... ، وشقورة ،...)[٤].

في حين عدّ الإدريسي مدينة شقورة من ضمن كورة قونكة Cuenca بقوله(... ، ويتصل بكورة قونكه وفيها أوريولة وألش ولقنت وكونكة وشقورة...)[٥] ، ومن ملاحظة الخارطة نرى أنها تقع على طرف ثلاث كور وهي تدميرTudmir وكونكة وجيان ، وهو ما سبب ذلك الاختلاف ، اشتهرت مدينة شقورة بجبالها وأنهارها ، إذ ينبع من جبل شقورة نهران ، الأول نهر قرطبة Cordoba المسمى بالنهر الكبيرRio Gnadalquivir والذي يصب في البحر المحيط[٦] ، والثاني هو النهر الأبيض الذي يمر بمدينة مرسية ويصب في البحر المتوسط[٧].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة إلى تاريخ وكيفية فتح منطقتها ، وربما ذلك يعود إلى أنها مدينة تابعة إلى كورة جيان ، أضف إلى ذلك أن الفاتحين الأوائل ركزوا على المدن الكبيرة ، ولم يولوا اهتماماً كبيراً بتوابعها باعتبار أنها تفتح بفتح أمهاتها ، فبعد انتصار

---

١) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٦٣.
٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٠/٢.
٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٤٩ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٢٢/٥.
٤) نخبة الدهر، ص ٣٢١.
٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢ ؛ وينظر أيضاً : أرسلان، الحلل السندسية، ٧٦/١.
٦) المقصود به المحيط الأطلسي.
٧) نزهة المشتاق، ٥٦٠/٢ ؛ وينظر أيضاً : المراكشي، المعجب، ص ٢٧٢.

المسلمين بقيادة طارق بن زياد على لوذريق ملك القوط الغربيين Visigoths في معركة وادي لكة Rio Guadalete في شوال من سنة٩٢هـ/٧١٠م ، سار طارق إلى مدينة إستجة Ecija التي كانت مركزاً لتجمع فلول الجيش القوطي بعد هزيمتهم ، وتمكن من الانتصار عليهم ، وعلى إثرها قرر التوجه مباشرة إلى مدينة طليطلة Tiledo عاصمة القوط الغربيين لغرض فتحها ، وقبل الشروع بذلك ، قرر إرسال فرقاً من قواته لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط مثل قرطبة والمناطق القريبة منها وتمكن المسلمون من فتحها بأكملها[١].

أما كورة جيان الواقعة إلى الشرق من قرطبة والتي يمر بها الطريق الروماني القديم والذي يدعى هانيبال ، فإن طارقاً بعد أن عبر نهر الوادي الكبير تقدم شمالاً بإتجاه طليطلة سالكاً ذلك الطريق ، وقد أشار إلى ذلك المقري قائلاً: إن طارقاً بعد بعثه بعضاً من جيوشه إلى مناطق شرق الأندلس(سار هو في معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة)[٢] ، وهذا يعني أن كورة جيان وتوابعها فتحت على يد طارق بن زياد وهو في طريقه إلى طليطلة.

ولكن يبدو أن هذا لا ينطبق على مدينة شقورة التابعة لكورة جيان ، إذ أنها في موقعها أقرب إلى تدمير منها إلى جيان إذ تقع شمال مرسية[٣] وبينهما أربعة مراحل[٤] ، بينما تبلغ المسافة من مرسية إلى قرطبة(القريبة من جيان) عشرة مراحل[٥] ، كما أنها بموقعها هذا تكون بعيدة عن الطريق الروماني القديم الذي سلكه طارق بن زياد والذي يمر بمدينة جيان نحو طليطلة.

ولهذا نرجح أن فتح شقورة لم يكن من قِبل طارق بن زياد وإنما من قِبل عبد العزيز بن موسى وذلك بعد أن أرسل موسى بن نصير ابنيه عبد العزيز وعبد الأعلى إلى جنوب وجنوب شرق شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia واتجه موسى نفسه إلى الغرب ، وتمكن عبد الأعلى من فتح كل من مدينة مالقة Malaga ومدينة البيرة Elvira ، ولا

---

١) للمزيد من التفاصيل عن هذه الفتوحات، ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ -٢٢ ؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٤٧ وما بعدها ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ ١١ ؛ المقري، نفح الطيب، ١/ ٢٦٤ -٢٦٥.
٢) نفح الطيب، ٢/ ٢٦١.
٣) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٦٣.
٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/ ٥٦٠.
٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/ ٥٦٠.

يستبعد أن يكون ذلك بمساعدة أخيه عبد العزيز[1] ، بعد ذلك توجه الأخير إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الأيبيرية ، إذ التقى قرب مدينة أوريولة Orihuela – الواقعة على النهر الأبيض الممتد إلى جبل شقورة[2] – بالدوق تدمير Thwodemir حاكم هذه المقاطعة ، وقد قاوم تدمير هجوم المسلمين لبعض الوقت ، ولكنه توصل بعد ذلك إلى عقد معاهدة صلح معهم في رجب سنة٩٤هـ/نيسان ٧١م عاد بعدها إلى إشبيلية بعد استقرت الأمور في المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الأيبيرية[3].

وعليه فالراجح أن مدينة شقورة فتحت من قبل عبد العزيز بن موسى بن نصير عند فتحه كورة تدمير سنة٩٤هـ/٧١٢م.

ويبدو فيما بعد أن مدينة شقورة عاشت هادئة بعيدة عن الأحداث الكبيرة التي عانت منها الأندلس في عصر الإمارة(١٣٨–٣١٦هـ/٧٥٥–٩٢٨م) ، ومن ثم عصر الخلافة (٣١٦–٤٢٢هـ/٩٢٨–١٠٣٠م) إذ لم يظهر—حسب المصادر التي بين أيدينا—أي دور سياسي وعسكري خلال تلك المدة ، وربما ذلك راجع إلى انضوائها تحت كورة جيان جعلت أحداث الأخيرة تطغى عليها ، فضلاً عن أنه خلال تلك المدة كانت المدينة تعد من المناطق الداخلية في الأندلس وبعيدة عن مناطق الصراع في الثغور مع النصارى ، بالإضافة إلى أن الحكومة في قرطبة خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كانت قبضتها على الكثير من المناطق قوية لاسيما القريبة من قرطبة.

وفي عهد دويلات الطوائف Los، Taifas(٤٢٢–٤٨٤هـ/١٠٣٠–١٠٩١م) خضعت مدينة شقورة في البداية لحكم أسرة مجاهد العامري وأبناؤه حتى سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م[4] ، وكان شرق الأندلس آنذاك محل أطماع العديد من دول الطوائف المحيطة به ، وبعد صراع طويل خلصت مدينة شقورة فيما بعد إلى أملاك دولة بني عباد[5] ، إذ امتدت حدود

---

١) ابن الخطيب، الإحاطة، ١٠١/١ ؛ اللمحة البدرية، ص ١٦ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧٥/١.
٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٧/٢.
٣) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٢ -١٣.
٤) ابن خلدون، العبر، ١٦٩/٤ ؛ السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٥١ ؛ الدرويش والعلياوي، برشلونة بين الإسلام والنصرانية، ص ١٢٩ -١٣٠.
٥) ينظر عن الصراع على مدينة شقورة في عهد الطوائف : الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٦) ص ١٢٣ -١٣٣.

دولتهم في الشرق حتى نهر شقورة ومدينة لورقة Lorca القريبة من مرسية[١].

وفي سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م دخل المرابطون مدينة قرطبة[٢] ،ثم توالت مدن الشرق الأندلسي تدخل تحت نفوذهم ومنها مدينة شقورة التي خضعت لحكمهم سنة٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م ، وقد أشار ابن أبي زرع إلى ذلك بقوله: (وفي سنة خمس وثمانين أمر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قائده ابن عائشة أن يسير إلى دانية ، فسار إليها وملكها وملك شاطبة ،... ، ثم سار قائده ابن عائشة إلى مدينة شقورة فملكها ،...)[٣].

وفي نهاية عهد المرابطين ومستهل عهد الموحدين Almohades تمكن محمد بن سعد بن مردنيش من السيطرة على منطقة الشرق الأندلسي سنة٥٤٢هـ/١١٤٧م[٤] ، وقد أرسل ابن مردنيش قائده إبراهيم بن همشك إلى مدينة شقورة من أجل السيطرة عليها من واليها ابن سوار ، ولم تشر المصادر المتوفرة إلى هوية ابن سوار وهل هو من المتغلبين على شقورة أم من أتباع المرابطين ، ولعل ابن مردنيش كان يعتبر مدينة شقورة من متعلقات بلنسية Valencia ، وفعلاً تمكن ابن همشك من دخولها وإخضاعها[٥] ، استمر إبراهيم بن همشك يحكم مدينة شقورة سنوات عدة بالتعاون مع ابن مردنيش وتحت طاعته إلى ما بعد سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م عندما دخل في طاعة الموحدين[٦] ، ثم آل أمرها في٥٦٧ هـ /١١٧١م إلى أبي الحجاج يوسف بن مردنيش الذي حكم مناطق شرق الأندلس – بضمنها شقورة – نيابة عن الموحدين حتى وفاته سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦ م[٧].

وفي هذا الأثناء كان نصارى برشلونة وأراغون Aragon يتربصون بمناطق شرق الأندلس شجعهم على ذلك انهيار سلطة الموحدين في الأندلس ، فقد أشار ابن الخطيب إلى أنه بعد وفاة المستنصر الموحدي(٦١٠-٦٢٠هـ/١٢١٣-١٢٢٣م) اضطرب أمر شرق

---

١) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٩ ؛ السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٧١.
٢) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٥٤.
٣) الأنيس المطرب، ص ١٥٦ ؛ وينظر : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٨/٢، ٣٥٤.
٤) الضبي، بغية الملتمس، ص ٤٤ ؛ المراكشي، المعجب، ص ١٤٧ ؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٣٢/٢.
٥) المراكشي، المعجب، ص ١٤٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٩/٣، ٣٧٢.
٦) الضبي، بغية الملتمس، ص ٤٥ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٩٨/١.
٧) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤١/٢ ؛ ينظر أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٣٩٤ ؛ جابر، بنو مردنيش ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس، ص ١٠٢.

الأندلس وخاض أولاد أبي الحجاج يوسف بن مردنيش في الفتنة مع الخائضين[١] ، وذلك لأن الموحدين انقسموا على أنفسهم وظهر بينهم أكثر من مدعي بالخلافة([٢] ، والذي يهمنا هنا أمر شرق الأندلس فقد كان على مرسية عبدالله بن يعقوب المنصور الملقب بالعادل(٦٢١- ٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٦م)[٣] ، وعلى بلنسية ودانية Denia وشاطبة Jativa أبي زيد عبدالرحمن بن محمد بن يوسف بن عبدالمؤمن[٤] ، وعندما سمع العادل بوفاة المستنصر ومبايعة عبدالواحد بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالمخلوع(٦٢٠-٦٢١هـ/١٢٢٣-١٢٢٤م) في مراكش رفض العادل بيعته وأعلن نفسه من مرسية خليفة للموحدين ، ما يعني أن شقورة كانت آنذاك كانت تابعة للعادل الموحدي.

إلا أن تطور أوضاع المغرب دفعت العادل الموحدي إلى مغادرة مرسية إلى مراكش وذلك سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م[٥] ، وهذا يعني انفراد السيد أبي زيد عبد الرحمن صاحب بلنسية بشرق الأندلس وكان يسانده في حكم المنطقة أبي جميل زيان بن مدافع بن مردنيش الذي كان بمثابة الوزير له وقائد جيشه ، وقد أشار إلى ذلك المقري بقوله: (وكان قائد الأعنة المشار إليه في الدفاع عن بلنسية الأمير زيان بن أبي الحملات ابن أبي الحجاج بن مردنيش)[٦] ، إلا أن الأمير الموحدي أبي زيد عبد الرحمن عندما رأى إدبار سلطة الموحدين في الأندلس التجأ إلى النصارى ويقال إنه تنصر[٧] تاركاً بلنسية التي استولى عليها وقام بمهمة الدفاع عنها لأبي جميل زيان بن مردنيش وكان ذلك سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م[٨] ، وقبيل هذا التاريخ كانت مرسية قد شهدت هي الأخرى استيلاء ثائر آخر عليها وهو محمد بن يوسف بن هود الجذامي وذلك سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م[٩] ، ما

---

١) أعمال الأعلام، ٢/٢٤١.

٢) ينظر انقسام الموحدين ومبايعتهم أكثر من خليفة بعد وفاة المستنصر : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٣٤٨ -٣٦١.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٦٨ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٤٢

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٠.

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٠.

٦) نفح الطيب، ٤/٤٥٦.

٧) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٨٩ ؛ ابن خلدون، العبر، ٤/٢١٤.

٨) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٨٩ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٤٢.

٩) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٤٧.

يعني أن مناطق شرق الأندلس قد خرجت من سلطة الموحدين.

استمر ابن هود يحكم مرسية والمناطق التابعة له بما فيها مدينة شقورة ووصل نفوذه إلى جيان وقرطبة[1] حتى وفاته سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م بايع أهل مرسية بعده ابنه أبو بكر بن هود وتلقب بالواثق بالله إلا أن عهده لم يدم طويلاً إذ ثار به أهل المدينة وجعلوا مكانه أبا بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب الذي دعا لنفسه وتلقب بضياء الدولة وذلك في محرم من سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م ، إلا أنه لم يهنأ بذلك ، إذ هاجمه نصارى برشلونة وأراغون وأوقعوا به الهزيمة ، عندها ثار عليه أهل مرسية واستدعوا الأمير أبا جميل زيان الذي كان في دانية يراقب الأحداث في مرسية ، فسارع إليها ودخلها وقبض على أميرها أبا بكر عزيز وقتله وذلك في رمضان من السنة نفسها[2] وبذلك ورث أبو جميل زيان أملاكه ومنها شقورة.

وفي مرسية دعا الأمير أبو جميل زيان للحفصيين ، وبقي فيها حوالي سنتين حاول خلالها استرضاء ملك قشتالة فرانده الثالث(٦١١-٦٥٠هـ/١٢١٤- ١٢٥٢م) لعقد سلم معه ، وذلك لأن مرسية كانت ضمن نطاق فتوحاته حسب الاتفاق بين مملكتي قشتالة Casttilla وأراغون ، إلا أنه لم يوفق في ذلك بسبب اضطراب أحوال الأندلس وكثرة الثائرين وتربص ملوك النصارى بها ، فهاجمها الواثق بالله محمد بن هود وتمكن بمساعدة أهل مرسية من دخولها وأخرج الأمير زيان منها الذي انتقل بأهله إلى لقنت Alicante وذلك سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وبقي في لقنت حتى سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م ، إذ هاجمها ملك برشلونة وأراغون خايمي الأول وتمكن من الاستيلاء عليها ، فخرج الأمير زيان بعدها إلى تونس[3].

وهكذا استولى الملك خايمي الأول خلال أعوام قليلة على معظم قواعد شرق الأندلس ولم تبق سوى مرسية التي -كما مرّ بنا- كانت تحت نفوذ محمد بن هود بعد أن طرد منها الأمير أبو جميل زيان سنة٦٣٨هـ/١٢٤٠م ، وحاول ابن هود الاحتفاظ بمرسية ودفع أطماع ملك برشلونة وأراغون خايمي الأول Elconqustador I(٦١٠-٦٧٥هـ/١٢١٣- ١٢٧٦م) عن طريق

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٩٢/٣.

٢) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٣١٠/٢ ؛ ابن الخطيب، أعلام الأعلام، ٢٤٣/٢ -٢٤٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٥٦/٣ -٤٥٧.

٣) ابن خلدون، العبر، ٢١٥/٤.

التقرب إلى ملك قشتالة إلا أن الأخير لم يلتزم بوعده ، فطلب مساعدة محمد بن نصر بن الأحمر سلطان غرناطة الذي أرسل إليه فرقة من الجند بقيادة صهره أبي محمد بن أشقيلولة وتمكن من ضبط أمورها وخطب بها لابن الأحمر(١).

واستمر الواثق بالله بن هود في مرسية بمساعدة ابن الأحمر حتى تمكن النصارى من احتلالها(٢) ، وكان الذي تولى اقتحام مدينة مرسية خايمي الأول ملك أراغون وبرشلونة إذ تفاهم مع ملك قشتالة الفونسو العاشر(٦٥٠-٦٨١هـ/١٢٥٢-١٢٨٢م) الذي كان مريضاً أن يتولى خايمي الأول فتح مرسية ، فجهز حملة قوية سار بها جنوباً وضرب الحصار عليها وضيقوا عليها وقطعوا عنها الإمدادات ، واستمر الحصار بضعة أشهر ، فلما عجز أميرها الواثق بالله بن هود عن المقاومة اضطر إلى تسليم المدينة ، فدخلها الملك البرشلوني خايمي الأول سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م(٣).

وبذلك استولى ملك برشلونة وأراغون خايمي الأول على سائر الشرق الأندلسي ومدنه المهمة من بنشكلة Peniscola وقسطلونة Castellon la plana شمالاً ، حتى قرطاجنة Cartagena ولورقة جنوباً ، وذلك في مدة لا تتجاوز الثلاثين عاماً ، وانتهت بذلك سيادة الإسلام في تلك الرقعة الكبيرة من الوطن الأندلسي القديم بعد أكثر من خمسة قرون من الحكم الإسلامي لها(٤) ، وبخصوص سقوط مدينة شقورة فإن المصادر التي بين أيدينا لم تشر إلى تاريخ ذلك ، إلا إننا نرجح أن ذلك كان بين سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م وهي السنة التي حاصر فيها النصارى مدينة مرسية(٥) وسنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م وهي السنة التي تنازل فيها ابن الأحمر للنصارى عن مائة وخمس بين مدينة وحصن قيل إن أكثرها كان في شرق الأندلس(٦) ، وبذلك سقطت مدينة شقورة بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة٥٧١ سنة.

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٣٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٦٢/٣.
٢) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٣٢.
٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٦٣/٣.
٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٦٤/٣.
٥) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٣٢.
٦) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٦٢.

مدينة لورقة Lorca الأندلسية
(٩٤ - ٦٦٥هـ/٧١٢ -١٢٦٦ م)

ورد اسم المدينة في المصادر العربية بألفاظ مختلفة بعض الشيء ، فجاءت بلفظة (لورقة ، أو لرقة ، أو يورقة)[١] ، وذكر العذري أن تفسير لورقة باللطيني تعني الدرع الحصين وهو اسم وافق معناه لأنها تعد من المعاقل الحصينة[٢] ، وذكرت المصادر أنها مدينة محدثة[٣] ، وهذه اللفظة تدل على إنها أنشأت بعد الفتح الإسلامي لشبة الجزيرة الأيبيرية (Iberia).

تقع مدينة لورقة في شرق الأندلس بكورة تدمير(Tudmir) ، شمال مدينة المرية (Almeria)[٤] ، إذ وصفها الحميري قائلا: (لورقة بالأندلس من بلاد تدمير ، إحدى المعاقل السبعة التي عاهد عليها تدمير...)[٥] ، والمعاقل السبعة التي تتكون منها بلاد تدمير هي (أريولة ، ومولة ، ولورقة ، وبلنتله ، ولقنت ، وإيه ، وإلش)[٦] ، وتحدث اليعقوبي عن مدينة لورقة عند ذكره لبلاد الأندلس ، فأشار أن لبلاد تدمير مدينتان ، دون أن يشير إلى مدنها الأخرى ، إذ قال: (...بلاد تدمير هو بلد واسع عامر فيه مدينتان يُقال لإحداهما العسكر وللأخرى لورقة في كل واحدة منبر)[٧] ، وهي تبعد عن مدينة موربيطر(Murviedro) ثلاثون

---

١) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٤٠ ؛ السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، ص ٤٣ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٢.

٢) ترصيع الأخبار، ص ١.

٣) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٦ ؛ مجهول، تاريخ الأندلس(تحقيق بوباية) ص ١٣٧.

٤) ابن الابار، الحلة السيراء، ٦٣/١ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٢.

٥) الروض المعطار، ص ٥١٢.

٦) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٥.

٧) البلدان، ص ١٩٣.

ميلاً وعن مدينة ملينة خمسة وثلاثون ميلاً ، وعن حصن قتورية ثلاثون ميلاً ، ومنها أيضا إلى حصن جيّطيلة اثنان وعشرون ميلاً[1] ، وعن مدينة مرسية (Murcia) أربعون ميلاً[2].

فتحت مدينة لورقة من قبل القائد عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة٩٤هـ/٧١٢م[3] ، وذلك بعد أن أرسل موسى بن نصير ابنيه عبد العزيز وعبد الأعلى إلى جنوب وجنوب شرق شبه الجزيرة الأيبيرية واتجه موسى نفسه إلى الغرب ، وتمكن عبد الأعلى من فتح كل من مدينة مالقة Malaga ومدينة البيرة Elvira ، ولا يستبعد أن يكون ذلك بمساعدة أخيه عبدالعزيز[4].

بعد ذلك توجه الأخير إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الأيبيرية ، إذ التقى قرب مدينة أوريولة(Orihuela) بالدوق تدمير حاكم هذه المقاطعة التي تكون مدينة لورقة جزءاً منها ، وقد قاوم تدمير هجوم المسلمين لبعض الوقت ، ولكنه توصل بعد ذلك إلى عقد معاهدة صلح معهم في رجب سنة ٩٤هـ/نيسان ٧١٢م[5] ، وتضمنت معاهدة الصلح شروط مناسبة حصل تدمير بموجبها على الاعتراف به حاكماً على سبعة مدن تقع ضمن منطقته وهي: أوريولة ، ومولة(Mola) ، ولورقة ، وبلنتله ، ولقنت(Alicante) ، وآنه (Iana) ، وإلش(Elche) ، كما احتفظ بإدارته الداخلية لهذه المدن ، مقابل أن يدفع جزية سنوية تقدر بدينار ذهبي واحد مع كميات من القمح والشعير والخل والعسل والزيت لكل فرد حر من أفراد رعيته ، أما العبيد فتؤخذ عنهم نصف هذه الكمية ، وقد وافق تدمير أيضاً بأن لا يقوم أحد من رعيته بتجاهل هذه المعاهدة أو الإخلال بشروطها[6].

كانت مدينة لورقة تدار من قبل عمال حكومة قرطبة حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، فعقب سقوط الدولة العامرية تمكن خيران العامري الصقلبي من

---

١) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٠ ؛ والميل يساوي ٢ كم، هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.
٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٢.
٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٢.
٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ١٠١/١ ؛ اللمحة البدرية، ص ١٦ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٧٥/١.
٥) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٢ -١٣.
٦) ينظر بنود الصلح : العذري، ترصيع الأخبار، ص ٤ -٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٣٢.

السيطرة على شرقي الأندلس ، وصارت هذه المناطق ومنها لورقة تحت سيطرته وذلك سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م وبقيت هذه المناطق في طاعته حتى وفاته سنة٤١٩هـ/١٠٢٨م[١] ، ثم خلفه عليها زهير العامري وبقي فيها حتى مقتله سنة٤٢٩هـ/١٠٣٧م ، بعدها صارت بلاد تدمير بعضها لأبي الحسن عبد العزيز بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي عامر ومنها مرسية ولورقة وما والاهما ، إلا أنها تستمر طويلاً بيد عبدالعزيز بن أبي عامر ، إذ سرعان خضعت لحكم بني صمادح التجيبيين واستولى على المرية وأعمالها التي كانت تضم لورقة وبياسة(Baeza) ودلاية (Dalias) وأندرش(Andrax) وذلك سنة٤٣٣هـ/١٠٤١م[٢] ، ثم احتدم الصراع على مناطق النفوذ بين دول الطوائف كان آخرهم عليها المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، واستمر على حكمها باسمه حتى سقوط إشبيلية بيد المرابطين(Los، Almoravides) سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م[٣].

وشهدت الأندلس في نهاية المرابطين وبداية الموحدين حدوث العديد من الاضطرابات والثورات[٤] ، إذ استغلت بعض الشخصيات هذه الأوضاع ، فتغلب محمد بن سعد بن مردنيش على مدينتي بلنسية ومرسية ، وخضعت لحكمه معظم مناطق شرق الأندلس وذلك سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧ ، وامتد سلطانه من أحواز طرطوشة(Tortosa) شمالا حتى قرطاجنة (Cartagena) ولورقة جنوباً[٥] ، واستمر نفوذه فيها حتى دخولها في حوزة الموحدين سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٦].

وبعد انحسار نفوذ الموحدين في شرق الأندلس عقب موقعة العقاب وهيمنة محمد ابن هود إلا أن مدينة لورقة لم تخضع له ، فقد استقل فيها أحد أعيانها من المولدين وهو

---

١) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦.

٢) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٥٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ١٦٢.

٣) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٢٧٦/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٦٤/٢.

٤) ينظر عن أحوال شرق الأندلس آنذاك: دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٩٥،٧٥.

٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٦٧/٣ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢٢٥/١.

٦) ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٤٢٨ -٤٢٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١١٢ -١١٣.

محمد بن علي بن أحلى[1] الذي كان عالماً وله كتاب في علم الكلام ، وقد وصف ابن الابار كيفية وصوله إلى حكم لورقة بقوله: (تأمّر بلورقة متنقلاً إلى الرئاسة من الدراسة ، وكان يُجتمع إليه في علم الكلام ، ويؤخذ عنه ، وله فيه تواليف ، وبيته في المولدين تليدُ النباهة–وبذلك استعان على مرامه–إلى ما لأهل بلده من بأس شديد وكثرة عديد)[2] ، فالنص أعلاه يوضح أنه كان من عائلة عريقة في لورقة ، وصاحب مدرسة في علم الكلام وقد استغل منطقه ومكانته من الوصول إلى رئاسة البلد ، فضلاً عن الظروف التي أحاطب بلورقة من تدخلات النصارى وتغلب الثوار دفعت الأهالي إلى الاعتماد على أنفسهم في إدارة شؤونهم بعد انحسار نفوذ الموحدين.

وعلى الرغم من تمدد النفوذ النصراني وتغلبهم على معظم الحواضر الأندلسية ما دفع العديد من أولئك المتغلبين إلى مهادنة النصارى في محاولة للحد من خطرهم ، ففي سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م عقد ابن هود معاهدة مع ملك قشتالة تنازل له فيها عن العديد من المناطق مع أموال طائلة يدفعها له واعتراف له بالطاعة وأداء الجزية لمملكة قشتالة[3] ، إلا أن لورقة احتفظت باستقلالها لبعض الوقت ، فلما فرغ النصارى من ابن هود توجهوا لإخضاع لورقة إلا أن حاكمها ابن أحلى تمكن من دفعهم أول الأمر ثم اضطر أمام ضغط قواتهم الكبيرة إلى الخضوع لهم حيث أشار ابن الابار في ترجمته لابن أحلى إلى ذلك بقوله: (ولما أمكن أهل مرسية منها الروم في شوال سنة أربعين وستمائة ، ضلَّل رأيهم ، وأبدى مخالفتهم ، وجعل يجادلهم بلسانه ، ويجالدهم بسنانه ، فدعا ذلك إلى قصده ، والعيث في جهته ، حتى اضطر إلى المسالمة ، وعلى ذلك بقي إلى أن توفي أول سنة خمس

---

١) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن أحلى أحد المولدين وقيل كان انصارياً بالولاء كان متكلماً صوفياً كما أخذ التصوف والكلام من أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن دهاق المعروف بابن المرأة، وله العديد من المصنفات على مذهبه منها : كتاب العقيدتان الكبرى والصغرى، ومصنف في علم الكلام، وكتاب التذكرة، ورمي بالغلو ومبدأ الحلول توفي سنة ٦٤٥ هـ/١٢٤٧ م، ينظر : ابن الابار، الحلة السيراء، ٢١٤/٢ –٣١٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٤٣٧/٦ –٤٣٩.

٢) الحلة السيراء، ٣١٤/٢ ؛ ينظر أيضا : القلقشندي، صبح الأعشى، ١١٦/٧ –١١٧.

٣) ابن الابار، التكملة لكتاب الصلة، ١٤٥/٢ ؛ الحلة السيراء، ٣١٤/٢.

وأربعين...)[1] ، وبذلك فقد أصبح ابن أحلى يحكم المدينة تحت تبعية ملك قشتالة حتى وفاته سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م.

ولم تشر المصادر التي بين أيدينا إلى من تولى حكم لورقة بعد وفاة حاكمها ابن أحلى ، ويبدو أنها استمرت تحت النفوذ القشتالي يدفعون الجزية لهم حتى سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م إذ ثار أهلها واستدعوا محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر ، وبذلك عادت لورقة إلى حكم المسلمين[2].

ولعل نجاح أهالي لورقة في التحرر من سيطرة النصارى شجع مناطق الأندلس الأخرى وحفزهم على التخلص من الحكم القشتالي ، إذ سرعان ما قامت ثورة في مرسية ومناطقها ضدهم ، وعلى اثر ذلك طلب ملك قشتالة الفونسو العاشر(Alfonso xel Sabio)(٦٥٠– ٦٨١هـ/ ١٢٥٢– ١٢٨٢م) من ملك أراغون خايمي الأول الملقب بالفاتح Elconquistador(٦١٠– ٦٧٥هـ/١٢١٣–١٢٧٦م) مساعدته في القضاء على ثورة مرسية ، لكونها أصبحت تهدد سيادته في مدينة بلنسية والمناطق الأخرى ، وقد لبى خايمي الأول هذا الطلب لاسيما وأنه ارتبط مع الفونسو العاشر برباط المصاهرة والصداقة ، إذ تزوج الأول من ابنة الأخير الأميرة فيولانتي ، وجهز خايمي حملة عسكرية تجاه مرسية واستمر يحاصرها عدة أشهر إلى أن سلمت نفسها لنصارى أراغون وذلك سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م[3] وقيل سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م[4].

أما لورقة فيبدو أنها سقطت بيد النصارى بعد سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م بقليل أيام محمد بن يوسف بن الأحمر ذلك لأنه صالح ملك قشتالة مقابل التنازل له عن عدد كبير من المدن والحصون قدرها ابن أبي زرع بقوله: (إن جملة ما أعطاه ابن الأحمر لأذفونش من بلاد المسلمين من المدن والحصون المسورة مئة مسور وخمس مسورات من بلاد شرق الأندلس)[1] ، كما أشار القلقشندي عند حديثه عن محمد بن يوسف بن الأحمر إلى أنه

---

١) الحلة السيراء، ٣١٤/٢.

٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٦١/٥ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤٤٨/١ ؛

٣) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ١١٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٧١/٤ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤٤٨/١.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٦٣/٣.

١) الذخيرة السنية، ص ١١٢.

في أيامه(... استعاد العدو المخذول من المسلمين أكثر بلاد الأندلس وحصونه وهي بيدهم إلى الآن...)[1] ، وقال ابن خلدون(... ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك الأندلس كورة كورة وثغرا ثغرا إلى أن ألجأ المسلمين إلى سيف البحر ما بين رندة من الغرب والبيرة من شرق الأندلس نحو عشر مراحل من الغرب إلى الشرق وفى مقدار مرحلة أو ما دونها في العرض ما بين البحر والجوف ثم سخط بعد ذلك الشيخ ابن الأحمر وطمع في الاستيلاء على كافة الجزيرة فامتنعت عليه...)[2].

وبذلك استولى ملك أراغون خايمي الأول على سائر ثغور شرقي الأندلس وقواعده من بنشكله وقسطلونية شمالاً ، حتى قرطاجنة ولورقة جنوباً ، وانتهت بذلك سيادة الإسلام على تلك الرقعة الكبيرة من الأندلس ، بعد حكم دام أكثر من خمسة قرون ، وأضحى أهلها الذين آثروا البقاء في أوطانهم واستسلموا إلى قدرهم في ظل حكم النصارى الجدد[3] ، وكان مدة حكم المسلمين للورقة ٥٧١ سنة.

---

١) صبح الأعشى، ٢٥٢/٥.

٢) العبر، ١٧١/٤.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/ ٤٦٤ ؛ التواتي، مأساة، ص ٤٦٣.

الجزائر الشرقية (جزر البليار)

(٢٩٠ -٦٨٦ هـ/٩٠٢ -١٢٨٧ م)

الجزائر الشرقية أو جزائر شرقي الأندلس ، وهو الاسم الذي تطلقه المصادر العربية على الجزر الواقعة شرقي الأندلس في البحر المتوسط[١] ، أما اسمها الحديث فهو جزر البليار[٢] ، وهي مجموعة من الجزر أشهرها ميورقة Mallorca ومنورقة Menorca ويابسة Ibiza ، وأقرب هذه الجزر إلى بر الأندلس جزيرة يابسة القريبة من مدينة دانية ثم تليها ميورقة ثم منورقة ، وقد أوضح ذلك ابن جبير عندما غادر بر الأندلس من مدينة دانية في السادس من ذي القعدة من سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م قال: (وفي صبيحة يوم الجمعة السابع من الشهر المذكور آنفا قابلنا بر جزيرة يابسة ثم يوم السبت بعده قابلنا بجزيرة ميورقة ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة)[٣] ، وهذا يعني أن بين جزيرة وأخرى مسيرة يوم في البحر.

وأكبر هذه الجزر هي جزيرة ميورقة يبلغ طولها سبعون ميلاً وعرضها خمسون ميلاً ويحدها(من القبلة بجاية من بر العدوة ، بينهما ثلاثة مجار ، ومن الجوف برشلونة من بلاد أرغون ، وبينهما مجرى واحد ، ومن الشرق إحدى جزيرتيها منرقة ، وبينهما مجرى في البحر طوله أربعون ميلاً ، وشرقي ميورقة هذه جزيرة سردانية ، بينهما في البحر مجريان ، وغربيها جزيرة يابسة ، بينهما مجرى في البحر طوله سبعون ميلاً)[٤] ، وصفها الزهري بقوله: وهي كثيرة الزرع والفاكهة ، وعندهم كثير من البقر والخيل والبغال ، وهي مرتفعة عن البحر

---

١) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣٢٠ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٦٣/٢، ١٥٥/٣ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٠٢/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢٥١/٦.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٥/١ ؛ حسين، الأدب العربي في جزر البليار، ص ١٣.

٣) رحلة ابن جبير، ص ٨.

٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٦٧.

لا يقدر أحد أن يطلع إليها ولا يهبط منها إلا على أبواب لها ، وهي طيبة الهواء والماء ، ولأهلها ظرف وذمة وحسن وجمال[١].

أما جزيرة منورقة فهي(تقابل برشلونة ، بينهما مجرى ، وبينها وبين سردانية أربعة مجار)[٢] ، وصفها الزهري بقوله: وهي جزيرة صغيرة كثيرة الزرع والكرم وليس في معمور الأرض أطيب من لحم بقرها[٣].

والثالثة جزيرة يابسة طولها عشرة فراسخ وعرضها ثمانية فراسخ[٤] ، وصفها الإدريسي بقوله: (وأما جزيرة يابسة فإنها جزيرة حسنة كثيرة الكروم والأعناب ، وبها مدينة حسنة صغيرة متحضرة ، وأقرب الأندلس إليها مدينة دانية وبينهما مجرى ، وفي شرقي جزيرة يابسة جزيرة ميورقة وبينهما مجرى)[٥] ، وقال عنها ابن سعيد: (جزيرة خصيبة بضد اسمها)[٦].

وهذه الجزر الثلاث محسوبة من بلاد الأندلس ، وقد علل الزهري ذلك بقوله: (وهذه الجزائر الثلاثة تضاف إلى بلاد الأندلس ، لأن أخلاق أهلها وطبائعهم كطبائع أهل الأندلس ، وأمزجتهم واحدة)[٧] ، وأضاف مؤلف مجهول إلى ذلك قائلاً: (وهذه الجزائر معدودة من الأندلس ، فإن لسانهم كان واحداً ولغتهم واحدة وملكهم واحداً)[٨].

أما فتحها من قبل المسلمين ، فقد جرت محاولات منذ وقت مبكر ، ففي سنة ٨٩هـ /٧٠٧م أشار خليفة بن خياط قائلاً: (غزا موسى بن نصير ابنه عبد الله بن موسى فأتى ميورقة ومنورقة جزيرتين بين صقلية والأندلس وافتتحهما ، وهذه الغزاة تدعى غزاة الأشراف

---

١) الجغرافية، ص ١٢٩.
٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٤٩ ؛ ينظر أيضاً : الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٨٢/٢.
٣) الجغرافية، ص ١٢٩.
٤) الزهري، الجغرافية، ص ١٢٨.
٥) نزهة المشتاق، ٥٨٢/٢.
٦) المغرب في حلي المغرب، ٤٧٠/٢.
٧) الجغرافية، ص ١٣٠.
٨) تاريخ الأندلس، ص ١٣٥.

وكان معه أشراف الناس)[1] ، إلا أن المسلمين لم يستقروا فيها بل آثروا الانسحاب بعد ما حصلوا عليه من الغنائم ، وقد علق بن الأثير على ذلك بقوله: إن موسى وجه ابنه عبد الله (في البحر إلى جزيرة ميورقة ، فنهبها وغنم منها ما لا يحصى ، وعاد سالماً)[2] ، وكانت هذه واحدة من حملات عدة شنها المسلمون على جزر البحر المتوسط في خلافة الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦ هـ/٧٠٥-٧١٤ م) ، وهي تعد بمثابة التدريب العملي للقوات البحرية الإسلامية والتي تمخضت عن فتح شبه جزيرة أيبيريا[3].

وأشار ابن عذاري إلى أنه عندما انتهى موسى بن نصير من فتح الأندلس ورجع إلى المشرق لملاقات الخليفة في دمشق اصطحب معه عدد كبير من وجوه أهل المغرب والأندلس وكان من بينهم ملك ميورقة ومنورقة[4] ، والراجح أن اصطحاب ملك الجزيرتين لموسى هو اعتراف منهم بالتبعية للمسلمين وكان لهم عهد بذلك ، ومما يرجح ذلك أن أهل الجزيرتين خرجوا على المعاهدة سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م وهو ما حدا بالأمير عبدالرحمن الأوسط(٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢١-٨٥٢ م) أن أرسل إليهم أسطولاً من ثلاثمائة مركب لنقضهم العهد ، وقد علق ابن حيان على ذلك بقوله: (وفيها أغزى الأمير عبد الرحمن أسطولاً من ثلاثمائة مركب إلى أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة ، لنقضهم العهد ، وإضرارهم بمن يمر إليهم من مراكب المسلمين ، ففتح الله للمسلمين عليهم ، وأظفرهم بهم ، فأصابوا سباياهم ، وفتحوا أكثر جزائرهم ، وأنفذ الأمير فتاه شنظير الخصي إلى ابن ميمون عامل بلنسية ، ليحضر تحصيل الغنائم ويقبض الخمس ، وكان قد صالح بعض أهل تلك الحصون على ثلث أموالهم وأنفسهم ، وأحصيت ربعهم وأموالهم ، وقبض ما عليه صولحوا)[5] ، كما أن قوة الأسطول

---

١) تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٠٢ ؛ جعل صاحب كتاب الإمامة والسياسة غزوة الأشراف سنة٨٥ هـ /٧٠٤ م وكانت نحو صقلية، ابن قتيبة(منسوب)، ٧٩/١.

٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢١/٤.

٣) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٩٥.

٤) البيان المغرب، ٤٥/١.

٥) المقتبس(للحقبة ٢٣٢ -٢٦٧ هـ/٨٤٦ -٨٨٠ م) ص ٢ -٣ ؛ ينظر أيضاً : ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٤٩/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٨٩/٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٩/٢ ويجعل ذلك في سنة ٢٢٥ هـ/٨٣٩م.

الإسلامي ونشاطه في البحر أرغم أهالي الجزيرتين في العام التالي(٢٣٥هـ/٨٤٩م) على إرسال كتاب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط مستغيثين به طالبين رضاه ومجددين العهد معه ، وقد أشار ابن حيان إلى ذلك بقوله: (وفيها ورد كتاب أهل ميورقة على الأمير عبدالرحمن بن الحكم مستغيثين مما دهمهم من سخطه ، مستقيلين لعثراتهم لديه ، راغبين في صلحه وإقالته ، فعطف عليه ، وأقالهم زلتهم ، وأجابهم إلى مسألتهم ، وأعطاهم ذمته وجدد لهم عهده)[١].

إلا أن الفتح المنظم والاستقرار الدائم في هذه الجزر كان في سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م[٢] ، والراجح أن أهالي الجزر استغلوا انشغال حكومة قرطبة بالثورات الداخلية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي لاسيما ثورة ابن حفصون وانشغال الأمير عبدالله(٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م) بمقارعتها فعلموا على نقض العهد وهو ما دفع الأمير عبد الله إلى فتحها ، وقد أشار ابن خلدون إلى أن عاصم الخولاني قائد الحملة كان قد مرّ بجزيرة ميورقة في طريقه إلى الحج إذ عصفت به الريح إلى هناك فخبرها وأطمع الأمير في فتحها (فبعث معه القطائع في البحر ، ونفر الناس معه إلى الجهاد ، فحاصرها أياماً وفتحوها حصناً حصناً إلى أن كمل فتحها ، وكتب عاصم بالفتح إلى الأمير عبدالله ، فكتب له بولايتها فوليها عشر سنين ، وبنا فيها المساجد والفنادق والحمامات)[٣] ، وبعد وفاته خلفه ابنه عبد الله عليها حتى سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م[٤] ، وعبارة بنا فيها المساجد والحمامات والفنادق تدل على ازدياد عدد المسلمين فيها فضلاً عن الوافدين من التجار والمسافرين ، كما أنها أصبحت إدارياً تابعة لحكومة قرطبة ترسل إليها الولاة.

وأشار ابن خلدون إلى أن الخليفة عبد الرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٨٨٨-٩٦١م) في أواخر حكمه ولى على الجزر أحد مواليه من الصقالبة وهو موفق الصقلبي فلما توفي سنة

---

١) المقتبس (للحقبة ٢٣٢ -٢٦٧ هـ/٨٤٦ -٨٨٠ م) ص ٤ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٨٩/٢ وفيه نص كتاب الأمير عبد الرحمن.

٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٦٧ ؛ الخلف، نظم حكم الأمويين، ٥٧١/٢.

٣) العبر، ٢١٠/٤.

٤) ابن خلدون، العبر، ٢١٠/٤.

٣٥٩هـ/٩٦٩م ولي عليها كوثر الصقلبي التي حكمها حتى سنة٣٨٩هـ/٩٩٨م ثم خلفه مقاتل الصقلبي حتى سنة٤٠٣هـ/١٠١٢ م حين قامت الفتنة بعد سقوط الدولة العامرية ، وكان أهم ما يميز مدة حكم هؤلاء الصقالبة هو قيامهم بحملات جهادية على سواحل بلاد الأفرنجة[١].

وفي عهد الفتنة وسقوط الخلافة وما تلاها من قيام دويلات الطوائف(٤٢٢-٤٨٤هـ/ ١٠٣٠-١٠٩١م) كانت الجزائر الشرقية من نصيب الفتية العامريين إذ أن نفوذهم فيها يرجع إلى أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فلما سقطت الدولة العامرية تغلب مجاهد العامري على دانية والجزائر الشرقية وذلك سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م واستمر في حكمها حتى سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م بعد أن حكمها حوالي ثلاثين سنة فتولى بعده حكم الجزائر ولده إقبال الدولة علي بن مجاهد وكان ينيب عنه في الجزائر مولى لأبيه يدعى الأغلب ثم خلفه صهره سليمان بن مشكيان الذي توفي سنة٤٤٢هـ/١٠٥٠م فولى إقبال الدولة مكانه عبد الله المرتضى الذي استمر يحكمها نيابة عن إقبال الدولة حتى سقوط دانية بيد ابن هود وانتهاء حكم إقبال الدولة سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م عندها استقل عبد الله المرتضى في حكم الجزائر الشرقية حتى وفاته سنة٤٨٦هـ /١٠٩٣م فخلفه في حكمها مساعده مبشر بن سليمان الملقب بناصر الدولة[٢] ، وفي هذا الأثناء كانت تطورات كبيرة قد حدثت في الأندلس وهي دخول المرابطين وإسقاطهم دويلات الطوائف فيما كانت الجزائر الشرقية في منأى عن تلك الأحداث وكان حاكمها يراقب ما يجري هناك بحذر شديد[٣].

إلا أن الخطر الأكبر الذي كانت تنتظره الجزائر الشرقية هو من جهة إمارة برشلونة النصرانية وجمهورية بيزا الايطالية ، ذلك أن حكام الجزائر الشرقية لم يفتروا في القيام بحملاتهم الجهادية على سواحل ايطاليا وفرنسا ، لذا قرروا الاستيلاء عليها ، كما أن القوات

---

١) ابن خلدون، العبر، ٢١١/٤.

٢) ينظر التفاصيل عن حكم مجاهد وابنه علي ونوابهما للجزائر الشرقية : ابن بسام، الذخيرة، ٢٢/٥ -٢٤، ٦٥/٧ -٦٧ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٨١ -٢٨٣ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٦١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥٥/٣ -١٥٨ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٠٢/٢-٢٠٦ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٠/٤ -٢١١ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٥١ -٢٥٢.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٠/٢.

المرابطية كانت على مشارف مدينة برشلونة وتهدد باجتياحها وهو ما شجع أمير برشلونة رامون برنجير الثالث الملقب بالبرشلوني Ramon Berenguer III (٤٨٥-٥٢٥هـ/١٠٩٢- ١١٣٠م) على عقد حلف في سنة٥٠٨هـ/١١١٤م مع النصارى الممثلين بمدينتي جنوا وبيزا الإيطاليتين لمساندته ضد المسلمين ، فعقدت هذه الأطراف حلفاً عسكرياً للسيطرة على الجزائر الشرقية[1] ، وقد بارك البابا باسكال الثاني(٤٩٣-٥١٢هـ/١٠٩٩-١١١٨م) هذا المشروع وشجعه[2] ، وخرجت هذه القوات باتجاه الجزائر الشرقية في سنة٥٠٨هـ/١١١٤م ، من مياه جنوا بأساطيلها البالغة ٣٠٠ سفينة ومعها وحدات بحرية من برشلونة ومن بلاد الإفرنج(فرنسا) وقد رست هذه السفن في مياه قطلونية ، ثم سارت صوب جزيرة يابسة Idiza ، وتمكنت من محاصرتها ، ومن ثم السيطرة عليها ، وبعدها توجهت هذه القوات المشتركة إلى جزيرة ميورقة وحاصرتها[3] ، وقد علق على ذلك ابن الكردبوس بقوله: (وفي سنة ثمان وخمسمائة اجتمع أهل بيشه (بيزا) وجنوا وعمروا ثلاثمائة مركب وخرجوا إلى جزيرة يابسة من عمل ميورقة ، فغلبوها وسبوها وانتهبوها ثم انتقلوا إلى جزيرة ميورقة)[4].

وقد حاول أمير الجزائر الشرقية ناصر الدولة مبشر بن سليمان دفع الخطر عن بلاده ، فعرض عليهم الصلح ، وتعهد بدفع نفقات الحملة ، إلا أن التحالف النصراني رفض هذا العرض ، لذلك لم يكن أمام مبشر إلا الاستعداد لمقاومة الحصار ، وبعث إلى أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين(٥٠٠-٥٣٧هـ/١١٠٦-١١٤٢م) يستنجده طالباً مساعدته قبل أن تسقط الجزائر الشرقية بأيدي النصارى على إثر الحصار المفروض عليها[5] ، وقد استمر الحصار طيلة سنة٥٠٨هـ/١١١٤م تقريباً ، وفي أثناء الحصار توفي مبشر بن سليمان ، وتولى الأمر من بعده القائد أبو الربيع سليمان بن لبون[6].

---

١) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٦٧ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٥٦/٥.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١١/٢ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٢٦.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١١/٢ ؛ سالم والعبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٢٤٣ -٢٤٤.

٤) تاريخ الأندلس، ص ١٢٢.

٥) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٢٣ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٥٧/٥.

٦) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٢٣.

ويبدو أن أمير برشلونة رامون برنجير الثالث وقواته لم يستمروا طويلاً مع النصارى في حصارهم جزيرة ميورقة ، إذ اضطروا قبيل سقوط الجزيرة إلى الانسحاب والعودة إلى بلادهم على إثر اشتداد هجمات القوات المرابطية وحصارهم لمدينة برشلونة في تلك المدة والتي كانت بقيادة محمد بن الحاج[١] ، إلا أن انسحاب نصارى برشلونة من حصار ميورقة[٢] ، لم يمنع الجزيرة من السقوط ، فاستطاع النصارى يوم٧ ذي القعدة من سنة٥٠٨هـ/١١١٤م من دخول جزيرة ميورقة بعد حصار دام عشرة أشهر[٣] وعملوا فيها الخراب والدمار بعد قتل الكثير من أهلها[٤] ، وقد أشار الحميري إلى ذلك بقوله :(تغلب عليها العدو البرشلوني وخربها سنة ثمان وخمسمائة ، وهي المرة الأولى ، ودخل المدينة فلم يجد سوى العيال والأطفال والشيخ الفاني ، فلحسابهم أحالوا السيف عليهم ، فلما قضى وطره من هذه الجزيرة أسرع الرجوع إلى بلاده)[٥] ، وكان هذا هو السقوط الأول للجزائر الشرقية بيد النصارى.

وفي أثناء الحصار لجزيرة ميورقة أرسل حاكمها مبشر بن سلمان صريخه إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين على يد بحار شجاع يدعى عبد الله بن ميمون ، وقد وصف ابن الكردبوس شجاعة ابن ميمون بقوله: (وخلال ذلك الحصار كان ناصر الدولة — أي مبشر— كتب إلى أمير المسلمين يستصرخه ويستنصره ، ووجه كتابه مع القائد أبي عبد الله بن ميمون ، وكان إذ ذاك عنده قائد غراب[٦] بين يديه ، فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معمراً ليلاً من دار الصناعة عليه ، فانطلق في الحين يقفو أثره ، وأتبعه نحو عشرة أميال والظلام قد ستره ، فلما قطع يأسه في الظفر به ، رجع خاسئاً على عقبه ، فوصل ابن

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٢/٢ ؛ العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٢٥

٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٢٣.

٣) ابن خلدون، العبر، ٢١٢/٤.

٤) لمزيد من التفاصيل ينظر : سالم والعبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص ١٤٣ ؛ مكي، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، ص ١٢٨ -١٢٩، ١٥٨ -١٦٠

٥) الروض المعطار، ص ٥٦٧.

٦) الغراب وهو نوع من السفن كان يستخدمه الرومان كما استخدمه المسلمون، واسمه مأخوذ من اسم الغراب لأن القدماء كانوا يصنعون بعض سفنهم على أشكال الطيور، ينظر : عبادة، سفن الأسطول الإسلامي، ص ٧.

ميمون بالكتاب إلى أمير المسلمين)[١].

وكان المرابطون يدركون أهمية هذه الجزر لاسيما أن أمير برشلونة كان أحد المشتركين في الهجوم عليها وخطورة ذلك على وجودهم في شرق الأندلس[٢] فأرسلوا أسطولاً ضخماً من ثلاثمائة سفينة بقيادة أمير البحر ابن تفرتاش وعندما علم البيزيون وحلفاءهم أدركوا عدم قدرتهم على المواجهة فانسحبوا من ميورقة والجزر الأخرى حاملين معهم الغنائم والسبي تاركين ميورقة قاعاً صفصفاً وذلك في سنة٥٠٩هـ/١١١٥م وبذلك دخلت الجزر في حوزة المرابطين[٣] ، وقد علق ابن الكردبوس على ذلك بقوله: فأمر أمير المسلمين(بتعمير ثلاثمائة قطعة ، وأن تلقى بعد شهر دفعة ، فامتثل أمره في ذلك ، واندفعت بجملتها من هناك ، وإذ ذاك تعين ابن ميمون عند أمير المسلمين ، فلما شعر العدو بخروج ذلك الأسطول ، أخلى وصدر عن الجزيرة ، وعينه بما احتمل من السبي والأموال قريرة ، فلما وصل الأسطول وجد المدينة خاوية على عروشها محرقة سوداء مظلمة منطبقة ، فعمرها قائد الأسطول ابن تافرطاش ، بمن معه من المرابطين والمجاهدين وأصناف الناس ، وجلب إليها من كان فر عنها إلى الجبال فاستوطنوها وعمروها وسكنوها ، وانصرف الأسطول إلى مكانه)[٤].

واستمرت الجزائر الشرقية تحكم من قبل ولاة المرابطين لاسيما من بني غانية حتى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م ، ثم إن ولاتها رفضوا الخضوع للموحدين بل ناجزوهم القتال وغزوهم في عقر دارهم بالمغرب[٥] ، وكان الموحدون قبل ذلك التاريخ قد قضوا على المرابطين في الأندلس وحلوا محلهم ، فقرروا القضاء على خصومهم بني غانية حكام ميورقة والجزائر ، فأرسل الخليفة الناصر الموحدي(٥٩٥-٦١٠هـ/١١٩٨-١٢١٣م) قواته إلى هناك وتمكنوا من فتح جزيرتي يابسة ومنورقة[١] أولاً ثم حاصروا ميورقة وفتحوها وبذلك انتهى حكم بني غانية للجزر

---

١) تاريخ الأندلس ص ١٢٣.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢/٢١٢.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣/٧٧.

٤) تاريخ الأندلس، ص ١٢٣ -١٢٤.

٥) ينظر التفاصيل عن حروب بني غانية مع الموحدين: المراكشي، المعجب، ص١٩٠ -١٩٤، ١٩٥ -١٩٦.

١) بروفنسال، رسائل موحدية، الرسالة السادسة والثلاثون، ص ٢٤٤.

الشرقية وغدت تحت نفوذ الموحدين ، وقد تحدث المراكشي عن ذلك بقوله: (وبدا له أن يبعث بعثًا إلى جزيرة ميورقة ، ليستأصل شأفة بني غانية ويقطع دابرهم ، فعمر الأسطول والطرائد فيها الخيل والرجال ، واستعمل على الأسطول عمه أبا العلاء إدريس بن يوسف بن عبدالمؤمن ، وعلى الجيش أبا سعيد عثمان بن أبي حفص من أشياخ الموحدين ، فقصد الجزيرة هذان الرجلان ففتحاها عنوة ، وقتلا عبدالله بن إسحاق بن غانية الأمير عليها)[1].

كان فتح الموحدين لجزيرة ميورقة ضربة للممالك النصرانية لاسيما مملكة أراغون المقابلة لها ، فقد أشارت الرسالة التي وجهها الكاتب أبي عبدالله محمد بن عبد العزيز بن عياش إلى الخليفة الناصر الموحدي يبشره بالفتح إلى ذلك بالقول: (... ثم إن الفتح فيهم فتح في النصرانية ، وظهور على ممالكها الساحلية ، ولأخذُ ميورقة على صاحب أراغون وبرشلونة أشد من رشق النبل وأهول من وقع السيف وأوحش من القطع بحلول الممات ، فإنها توجه إما إلى الصغار ، وإما إلى الخسار ، وتلجئه إلى أخذ الخطتين قسراً وقهراً بالرغم والاضطرار)[2].

إلا أن الموحدين لم يهنئوا طويلاً في الجزائر الشرقية فقد عدّ نصارى أراغون ومن ورائهم المدن الايطالية جنوا وبيزا ذلك تهديداً لسيادتهم في البحر المتوسط فجعلوا الاستيلاء على هذه الجزائر في مقدمة اهتماماتهم[3] ، ثم جاءت هزيمة الموحدين في موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م[4] وما أعقبها من قيام الأندلسيين بثورات في نهاية حكم الموحدين[5] لتقوض نفوذهم في الأندلس ، عندها صمم النصارى على انتزاع المدن الأندلسية الواحد تلو الأخرى من أيدي المسلمين كل في مناطق اهتماماته فبينما كانت مملكتي البرتغال وليون يتسابقان في السيطرة على مدن الغرب الأندلسي كانت مملكة قشتالة تنتزع ما أمكنها من مدن وسط

---

١) المعجب، ص ٢٥٥ ؛ ينظر أيضاً : الحميري، الروض المعطار، ص ٥٦٨ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٤٠.

٢) بروفنسال، رسائل موحدية، الرسالة السادسة والثلاثون، ص ٢٤٧.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٦١/٤.

٤) لمزيد من التفاصيل ينظر : المراكشي، المعجب، ص ٢٣٠ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٧٠/٢ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٩١ وما بعدها.

٥) ينظر التفاصيل عن نهاية الموحدين في الأندلس : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٨٩/٤ -٤٠٢.

الأندلس ، أما مملكة أرغون فقد انصب اهتمامها على انتزاع مدن شرق الأندلس وجزائره.

ومنذ فتح الجزائر الشرقية من قبل الموحدين استمروا في تعيين ولاة لها من قبلهم ، وفي عهد أميرها الرابع الذي اختلف في اسمه فالمقري ذكر روايتين عن أبي عميرة المخزومي[١] في الأولى أن محمد بن علي بن موسى وليها سنة٦٠٦هـ/١٢٠٩م واستمر حتى أخذها النصارى منه ، وفي الأخرى قال إن آخر ولاتها هو أبو يحيى ابن أبي عمران التينمللي[٢] ، ويتفق ابن عذاري مع الرواية الثانية بقوله إن الخليفة الناصر الموحدي قدم على ميورقة سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠ م أبا يحيى بن أبي الحسن بن أبي عمران[٣] ، وقد رجح عنان هذه الرواية[٤].

وأياً كان الوالي فإن سبب غزو النصارى لجزيرة ميورقة حسب الرواية أعلاه أن واليها احتاج إلى الخشب فأنفذ بعض سفنه وقطعه البحرية لجلبه من جزيرة يابسة ، فلما علم بذلك والي طرطوشة النصراني جهز إليها من أخذها فحث نفسه بغزو بلاد النصارى ووقع له معهم حروب عدة ، وفي أواخر سنة٦٢٣هـ/١٢٢٦م بلغه أن سفينتين من طرطوشة وبرشلونة نزلا في جزيرة يابسة فأرسل ابنه في قطع من سفنه الحربية وعندما وصل إلى مرسى الجزيرة وجد فيه مركباً كبيراً لأهل جنوا فأخذه ثم سار إلى باقي مراكب النصارى فأخذها ، وقد علق صاحب الرواية على فعله هذا بقوله: إنه(أشأم من عاقر ناقة)[٥] ، وذلك لما جره هذا الفعل من هجوم النصارى عليه.

أما الرواية النصرانية فذهبت إلى أن سبب الحملة على الجزائر الشرقية هو لغناها وما يشكله الوجود الإسلامي هناك من خطر على حركة الملاحة والتجارة وما يقوم به سكانها بين حين لآخر من سبي النصارى ، وقد طرحت الفكرة عندما كان ملك أراغون خايمي

---

١) هو أحمد بن المطرف بن عميرة المخزومي كان عالماً بليغاً وله عناية بالحديث ورحل إلى المشرق لأجل ذلك، كما برع بالأدب والنظم والكتابة، وله كتاب في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها، سافر إلى المغرب وتونس وتولى القضاء للمستنصر الحفصي، كان مولده في جزيرة شقر بالأندلس سنة٥٨٠هـ/١١٨٤م وتوفي بتونس سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، ينظر : ابن الابار، تحفة القادم، ص٢١٥،٢٠٩؛ المقري، نفح الطيب، ١،٣١٤ -٣١٥.

٢) نفح الطيب، ٤/٤٦٩.

٣) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٥٦ ؛ ينظر أيضاً : ابن خلدون، العبر، ٦/٣٣٥.

٤) دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٠٢.

٥) المقري، نفح الطيب، ٤/٤٦٩؛ والمثل يضرب به في الشؤم والشقوة، ينظر : الثعالبي، ثمار القلوب، ص٧٩.

الأول(٦١٠-٦٧٥هـ/١٢١٣-١٢٧٦م) يجتمع بطركونة مع عدد من البارونات والفرسان وفي إحدى المَأدب طرح بيدرو مارتل وهو بحار مجرب من طركونة فكرة غزو ميورقة وحصل على دعم من أهل قطلونية فأعلن الملك استعداده للمبادرة وإشهار الحرب ، وأقسم الملك حينها أنه لن يعتبر نفسه ملكاً شرعياً قبل أن يتم افتتاح ميورقة[١].

ويبدو أن الذي شجع ملك أراغون خايمي الأول على مهاجمة الجزائر الشرقية ، هو انهيار سلطة الموحدين في الأندلس على إثر اضطرام الفتنة بقيام الثورات فيها ، أضف إلى ذلك وصول والي مدينة بلنسية الموحدي أبو زيد[٢] إلى مدينة برشلونة على إثر انشقاقه عن الموحدين ، وتحريضه لخايمي الأول بضرورة مهاجمة المدن الأندلسية وقيامه بإطلاع النصارى على نقاط الضعف عند المسلمين[٣] ، وقد أوهمه الملك الأرغوني بأن الحملة التي أعدت لغزو جزيرة ميورقة كانت من أجله وفي سبيل مساعدته[٤].

وهكذا جهز الملك خايمي الأول حملة عسكرية لافتتاح الجزائر الشرقية ، وقد استدعى الكورتيس[٥] القطلونية في برشلونة سنة٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، وقد أشار عليهم بأن يقوم بحملة ضد جزيرة ميورقة التابعة للجزائر الشرقية لغرض افتتاحها والسيطرة عليها ، وذلك لتأمين تجارة برشلونة في البحر المتوسط ، وقد وافق الكورتيس على هذا الطلب ، وانضم أكابر الأحبار والرهبان إلى هذه الحملة ، وأن يشتركوا بأنفسهم وبمن يحشدونه من الفرسان والجند كل حسب مقدرته وطاقته ، كما تقدم أكابر الأشراف القطلونيين وفي مقدمتهم نونيو سانشيز كونت روسيون ، وهوجو دي أمبرياس ، والأخان رامون وجلين دي مونكادا ، وغيرهم من الأكابر أن يشتركوا في هذه الحملة بأعداد كبيرة من الفرسان والرماة والجند ، فقبل الملك

---

١) أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٧١/٢.

٢) هو أبو زيد محمد بن يوسف بن عبد المؤمن تولى بلنسية وشرق الأندلس سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م وعندما رأى إدبار الدولة الموحدية وانشقاق ولاتها التحق بملك أراغون وانضم إليه وساعده ضد المسلمين، ثم تنصر سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٨م ومات بعد ذلك بيسير، ينظر : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٨٩ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٤/٤، ٢١٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٩٥/٤ -٢٩٨.

٣) ابن خلدون، العبر، ١٧٢/٤ -١٧٣ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٠٤/٤.

٤) أشباخ، تاريخ الأندلس، ١٧٢/٢.

٥) الكورتيس وهم النواب ممثلي مقاطعة قطلونية، ينظر : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٠٤/٢.

بهذه المشاركة ، وتعهد من جانبه بأن يقدم مائتي فارس من أهل برشلونة وأراغون بخيلهم وسلاحهم ، كما تعهد بتقسيم الأراضي المفتوحة ، والغنائم المكتسبة بالعدل بين المشتركين في هذه الحملة كل وفق ما تكبده من النفقات ، محتفظاً لنفسه بالقصور والسيادة العليا على الحصون والقلاع ، وأقسم الجميع على ذلك ، واتفقوا على الاجتماع في مدينة طرطوشة بعد إتمام العدة[1].

وفي ١٤ شوال سنة ٦٢٦هـ/سبتمبر ١٢٢٨م خرج أسطول برشلونة وأراغون بقوات كبيرة من ثغور سالو وطركونة وكامبريلس ، يتكون من مائة وخمس وخمسين سفينة حربية ، وعدد من القطع الخفيفة ، وكان يقودها بحارة مغامرون من الجنويين وغيرهم ، وبلغ عدد المقاتلين ألفاً وخمسمائة من الفرسان وخمسة عسر ألفاً من المشاة ، بالإضافة إلى حشود المتطوعين من أهل جنوا وبروفانس Provence وغيرهم ، وسارت هذه الحملة إلى خليج بالما ، الذي تقع عليه مدينة ميورقة عاصمة الجزيرة ، وكان والي المدينة آنذاك هو أبو يحيى بن أبي عمران ، فلما علم بهذه الحملة الضخمة ، قام من جانبه بالاستعداد للدفاع عن ملكه ، وتمكن من أن يحشد قوة مكونة من ألف فارس ، وكذلك من فرسان الرعية والحضر ألفاً أخرى ، ومن الرجالة ثمانية عشر ألفاً ، وتأهبت هذه الحشود لدفع النصارى[2] ، ولكن السفن النصرانية استطاعت أن تدخل مياه الخليج ليلاً ويمنتهى السرعة ، وأن القوات الإسلامية التي أرسلت لمنعها والمكونة من مائتي فارس وخمسة آلاف راجل لم تستطع من منعها ، إذ كان أول من نزل إلى البر قوة مكونة من سبعمائة مقاتل من النصارى بقيادة برناردو دي ارخنتونا ، وقد تحصنت بإحدى التلال ، وتبعتها فرقة أخرى من فرسان رامون دي مونكادا ، وهاجمت المحلة الإسلامية المقابلة ، ففرقتها ، ثم نزل الفرسان من برشلونة وبعض طوائف أراغون ، وهنا وقعت أول معركة بين الطرفين –الإسلامي والنصراني– وقد بادر المسلمون حالاً بالهجوم على النصارى بعد أن استجمعوا قواهم ، وتمكنوا من هزيمتهم هزيمة شديدة ، إذ قتل منهم عدد من الأشراف والفرسان البرشلونيين ، وفي مقدمتهم جلين دي مونكادا

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٠٤/٤.

٢) المقري، نفح الطيب، ٥٨٤/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٠٥/٤.

وأخوه رامون ، وبسبب ذلك فقد هرعت إمدادات من النصارى لإنجاد الفارين من المعركة[1].

وبعدها ضرب النصارى الحصار حول جزيرة ميورقة ، وأخذوا يضربونها بمختلف الآلات بشدة ، ورد المسلمون على ذلك بأن دفعوا قوة منهم حاولت أن تقطع المياه الذي يمد المحلة النصرانية من الجبل ، فهاجمها النصارى وقتلوا عدداً منها ، إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ، إذ سرعان ما استطاع النصارى أن يقتربوا من الأسوار ، وأن يحطموا أربعة من الأبراج ، لذلك رأى الوالي أبو يحيى أن لا خيار سوى المفاوضة على تسليم المدينة ، فبعث إلى الملك خايمي الأول عن طريق نونيو سانشيز أحد أقطاب الحملة يعاونه يهودي من سرقسطة يسمى باشول كان يعرف العربية ، يعرض عليه ثمناً مقابل انسحابهم ، وذلك بأن يؤدي إليه سائر نفقات الحملة ، منذ أن خرجت من ثغر طركونة إلى يوم انسحابها ، ولكن خايمي الأول رفض ذلك وأصر على أخذ المدينة والدخول إليها ، وبعدها عرض أبو يحيى على خايمي الأول طلب آخر بأن يقوم بتسليم المدينة مقابل أن يسمح له بالخروج إلى المغرب مع أهله وحشمه وأمواله ، وأن تترك له السفن التي تحمله إلى شاطئ إفريقية ، وأن يبقى في الجزيرة من شاء من أهلها المسلمين ، ولكن خايمي الأول رفض هذا العرض أيضاً تحت ضغط الزعماء البرشلونيين لأنهم كانوا يريدون الانتقام لآل مونكادا ، والاستيلاء على غنائم المدينة وثرواتها[2].

وفعلاً هاجم النصارى المدينة محاولين اقتحامها ، فما كان من أبي يحيى إلا أن يدافع عنها ، وقد أحدث النصارى بعد هجومهم ثلمة في السور ، واقتحموا المدينة ، فلقيهم المسلمون في داخلها ، وحدث القتال بينهما في الميادين والشوارع وكانت مواجهة عنيفة ، وكان الوالي أبو يحيى على رأس جنده يحثهم على الثبات ، كما أن خايمي الأول دخل أيضاً أمام جنده في المدينة ، وهو شاهر سيفه ، ولم يمض سوى وقت قليل حتى ظهر التفكك في صفوف المسلمين ، وأخذوا بالفرار من أبواب المدينة ، والنصارى في إثرهم يمعنون فيهم قتلاً ، وتقدر الرواية الإسلامية عدد قتلى المسلمين خلال هذه المعركة بأربعة وعشرين ألفاً وأسر

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٠٥ ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢/١٧٢

٢) المقري، نفح الطيب، ٢/٥٨٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٠٦.

الوالي وعُذب حتى الموت[1].

أما الرواية النصرانية ، فتقدر من هلك فيها من المسلمين بثلاثين ألفاً ، والبعض الآخر يقدرها بخمسين ألفاً[2] ، وعلى الرغم من المبالغة في هذه الأرقام لأن عدد القوات المهاجمة والمدافعة المارة الذكر لم تبلغ ذلك ، إلا أنها تعكس شراسة المعركة واستماتة الطرفين وارتفاع الخسائر البشرية فيها ، وكان سقوط جزيرة ميورقة بيد النصارى في يوم الاثنين الرابع عشر من صفر من سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م[3].

إلا أن احتلال النصارى لجزيرة ميورقة لم لكن نهاية المطاف ذلك أن أحد أقارب الوالي أبو يحيى يدعى أبو حفص بن سيري بعد سقوط المدينة خرج إلى أحد الجبال مع عدد كبير من أتباعه قدر عددهم بستة عشر ألف مقاتل واستمر في القتال حتى قتل في العاشر من ربيع الآخر سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م بعد أكثر من عام من المقاومة ، واستمر أصحابه بعده في المقاومة حوالي ثلاثة أشهر فلما آيسوا من نصرتهم وخرجوا إلى ديار الإسلام ، وقد علق المقري على ذلك بقوله: (وأما ابن سيري فإنه صعد إلى الجبل ، وهو منيع لا يُنال من تحصن فيه ، وجمع عنده ستة عشر ألف مقاتل ، وما زال يقاتل إلى أن قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وجده من آل جبلة بن الأيهم الغساني ، وأما الحصون فأخذت في آخر رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وفي شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين إلى بلاد الإسلام)[4].

ثم إن الملك خايمي قام بتقسيم أراضي الجزيرة وأحياء ميورقة ودورها بين الزعماء الفاتحين ، وفقاً للعهد الذي قطعه على نفسه بذلك ، وتم ذلك على يد هيئة من الأحبار والأكابر ، وكتب بهذا التقسيم كتاب باللغات اللاتينية ، والقطلانية ، والعربية ، عرف بكتاب التقسيم وقام بتحريره في أول يوليه سنة١٢٣٢م ، وأشار عنان إلى أن هذا الكتاب ما زال

---

١) الحميري، الروض المعطار، ص ٥٦٨؛ المقري، نفح الطيب٢/٥٨٥؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٠٦.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٠٧.

٣) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢/٣١٨ ؛ التكملة، ١/١٣٤ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٦٨ ؛ ابن خلدون، العبر، ٤/٢١٩ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤/٤٦٩.

٤) نفح الطيب، ٤/٤٧١ ؛ ينظر أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٤٠٨.

يحفظ حتى اليوم في دار المخطوطات ببلدية ميورقة ، وقد اطلع عليه خلال زيارته لها[1].

أما جزيرة يابسة فقد استمرت بيد المسلمين حتى سنة٦٣٢هـ/١٢٣٤م ، فقد استغل الملك خايمي الأول النزاع بين أبي جميل زيان بن مردنيش حاكم بلنسية ومحمد بن هود حاكم مرسية وبعض مناطق الشرق على دانية[2] ، فأرسل إليها قوة قامت بضرب الحصار عليها حتى تمكنت من الاستيلاء عليها بعد خمسة أشهر[3].

ولكن جزيرة منورقة قُدر لها أن تبقى مدة أطول بيد المسلمين ذلك أن واليها من قِبَلِ أبي يحيى بن عمران حاكم ميورقة استقل بمنورقة بعد سقوط ميورقة بيد النصارى سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م ، وكان يدعى أبا عثمان سعيد بن حكم الأموي القرشي وأصله من طلبيرة في غرب الأندلس تلون به الدهر حتى دخل جزيرة منورقة ووليها لأبي يحيى سنة٦٢٤هـ/١٢٢٦م[4] ثم انفرد بحكمها بعد مقتل الأخير وسقوط ميورقة ، واشتهر بالعدل وحبه للعلم ، وصفه ابن الخطيب بقوله: (ذلل بها الرئاسة لما افترقت الكلمة واختل أمر الموحدين وحسن بها تدبيره ، وعلا قدره ، وأعظمته الملوك ، وكان بعيد الهمة يسعى لاجتلاب أهل العلم ، واصطناعاً لهم ، وافتكاكاً لمن تحصل منهم بيد العدو ولديه خط جزيل لرواية الحديث ، وفرض الشعر ، وحسن الخط ، إلا أنه كان شديد القسوة والعقاب مستهيناً بالدماء...كان من سيرته أن يقتل الناس عقاباً على شرب الخمر ، وكان قد اجتلب المحدث ابن مفوز[5] للرواية عنه وسماع كتاب البخاري عليه ، اغتنم ذلك لبنيه ، قال: فبينا الكتاب يقرأ إذ أُتيَ إليه برجل قد شرب الخمر ، فأمر به فضربت عنقه ، قال: فطوى ابن مفوز الكتاب ، وحلف أن لا يسمع عليه سنة حديثاً ، وقال: حفظك الله تطلب رواية السنة وتصحيحها وتتعدى حدود

---

١) دولة الإسلام في الأندلس، ٤٠٨/٤ ؛ الآثار الأندلسية الباقية، ص ١٣٣ -١٣٦.

٢) ينظر عن الصراع بين أبي جميل زيان وابن هود على دانية : ابن الابار، الحلة السيراء، ٣٠٣/٢، ٣١٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٨/٤.

٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٠٨/٤.

٤) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٣٢/٢.

٥) هو أبو الحسين عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن طاهر المعافري كان فقيهاً وأديباً وناظماً ناثراً له كتاب تشوف الأريب لتألف الغريب، أسمع بمنورقة ثم رحل إلى تونس وتوفي بها سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م، ينظر: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ١٠/١ ؛ ٦/٣.

الله ، هكذا والله ماسمعت مني حرفاً أبداً ، فقال: يا فقيه هذه الجزيرة كثيرة العنب والناس يشربون الخمر بها ويسكرون فيضيعون الاحتراس فيظهر علينا العدو ، فقال له: هذا شيء لا يخلص عند الله لم تترك الشريعة شيئاً من موازين الدنيا والآخرة إلا أعطته حقه ، وانصرف عنه)[1].

أما سياسته مع النصارى لاسيما مملكة أراغون فقد عمل على مصالحتهم على ضريبة معلومة يؤديها لهم واشترط عليهم أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى فضبط الجزيرة واستقام أمره بها وعمها الرخاء وقصدها التجار ، قال ابن الابار: (ودعي بالرئيس وشارط الرّوم على متاركته وبتّ مساكنته بإتاوة لم يخلّ بحملها إِلَيْهِم فِي كل سنة فامتد مهله وحمدت سيرته وَكثر الِانْتِفَاع بِهِ فِي جزيرته حَتَّى يمّمت منتجعاً وَصَارَت للمنقطع بِهِ مفزعاً)[2] ، واستمر حكمه حتى وفاته في سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م[3].

فخلفه في حكم جزيرة منورقة ابنه أبو عمر حكم بن سعيد ، وقد وصفه ابن الخطيب بقوله: (كان أبو عمر أفضل من أبيه في دماثة الخلق والعفة عن الدماء والإيثار والاجتناب للعظائم ، مع حسن الخط ، ورواية الحديث وقرض الشعر ، إلا أنه يستقل استقلال ، ولا نهض نهضته ، فانصرفت أطماع العدو البرجلوني المجاورة لثغره إلى تملكه فتم له ذلك ، ونفذ قدر الله فيه سنة ست وثمانين فاستولى على الجزيرة ، وأجلى عها المسلمين ولحق أبو عمر بسبتة)[4] ، وهكذا سقطت آخر الجزر(أي جزر البليار) في سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م بعد أن حكمها المسلمون مدة ٣٩٦ سنة.

---

١) أعمال الأعلام، ٢/٢٤٤ -٢٤٥.

٢) الحلة السيراء، ٢/٣١٩ ؛ ينظر أيضاً : ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٢/٣٢.

٣) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٢/٣٤ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/٢٤٥.

٤) أعمال الأعلام، ٢/٢٤٥.

مدينة باغة Priego الأندلسية

(٩٢ – ٨٠٩ هـ / ٧١٠ -١٤٠٦ م)

ورد لفظها ببعض الاختلاف ، ففي أغلب المصادر جاءت بلفظ باغة[١] ، وجاءت عند المقدسي بيغوا[٢] ، وذكرها الحميري مرتين الأولى بلفظ بيغو[٣] والأخرى بلفظ باغو[٤] ، وعند ابن الخطيب جاءت مرة بلفظ باغة[٥] وأخرى بلفظ باغو[٦] ، أما اسمها اللاتيني القديم فهو ايباغنوم Epagnumm[٧] ، ولفظها عند الأسبان Priego ، وعندما دخل العرب المسلمون سموها باغة[٨] وبيغو وباغو[٩] ، وهي عند العامة من الناس بيغة[١٠] ، والنسبة إليها بيغي[١١] أو باغي[١٢] ، وهذا الاختلاف لم يخرج عن الشكل العام للكلمة ، ويبدو أنه راجع إلى اختلاف اللهجات أو النقل وربما التصحيف.

---

١) ينظر على سبيل المثال : ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ -٩١٢ م)، ص ١٢٨ ؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص ٨٩ ؛ ابن بسام، الذخيرة، ١٢٣/١ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧١/٢ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٤ ؛ ابن بشكوال، الصلة، ص ١٣٤ ؛ ابن الابار، التكملة، ١١/١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٤/٢.

٢) أحسن التقاسيم، ١٨٦، ١٩٣.

٣) الروض المعطار، ص ١٢٢.

٤) الروض المعطار، ص ٤١٦.

٥) أعمال الأعلام، ٢٢٨/٢، اللمحة البدرية، ص ١٨

٦) أعمال الأعلام، ٢٨/٢ ؛ ينظر أيضاً : ابن عسكر وابن خميس، مطلع الأنوار، ص ٣١٤.

٧) أرسلان، الحلل السندسية، ١٣٠/١.

٨) أرسلان، الحلل السندسية، ١٨٩/١.

٩) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٣٢. ٢٦٧ هـ/ ٨٤٦ -٨٨٠ م)، ص ٥٢٩ تعليقات المحقق محمود علي مكي

١٠) المقري، نفح الطيب، ١٤٩/١ ؛ أرسلان، الحلل السندسية، ١٩٨/١ ؛ الطويل، مملكة غرناطة، ص ٥٦

١١) المقري، نفح الطيب، ١٤٩/١ ؛ أرسلان، الحلل السندسية، ١٨٩/١.

١٢) السيوطي، لب اللباب، ص ٢٧.

أما موقع مدينة باغة ، فذكرت بعض المصادر أنها ضمن كورة البيرة Elvira ، منهم: ابن حيان عند حديثه عن الوفود التي جاءت إلى بلاط الخليفة المستنصر(٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م) للتهنئة بانتصارات المغرب[١] ، وعدّها العذري بأنها أحد أجزاء كورة البيرة[٢] ، وقال ابن غالب عند حديثه عن كورة البيرة: (ولها مدينة باغة)[٣] ، وقال ياقوت: إنها(مدينة بالأندلس من كورة البيرة)[٤] ، وذكرها ابن سعيد من مدن متوسطة الأندلس ضمن كورة البيرة وطرزها بقوله: (كتاب حلي الصباغة فِي حلي مَدِينَة باغة)[٥] ، فيما ذهبت مصادر أخرى إلى أنها من كورة غرناطة Granada ، منهم: ابن الابار الذي قال عند حديثه عن الأديب أحمد بن يوسف الجذامي[٦] إنه من أهل باغة عمل غرناطة[٧] ، وذكرها الحميري بقوله: (مدينة بالأندلس من عمل غرناطة)[٨] ، وإلى الشيء نفسه ذهب ابن الخطيب عندما عدد الأقاليم التابعة إلى غرناطة بقوله: (يرجع إلى هذا الوطن الشريف من الأقاليم ثلاثة وثلاثون إقليماً ، منها:... وإقليم باغة)[٩] وقال المقري عنها :(ومن أعمال غرناطة الكبار عمل باغة)[١٠].

ويبدو أن الخلاف حول أن باغة ضمن البيرة أم غرناطة هو خلاف ترتيب زمني لا خلاف مكاني ، إذ كانت غرناطة مدينة صغيرة تابعة إلى كورة البيرة فلما خُربت البيرة في أحداث الفتنة التي أعقبت سقوط الخلافة الأموية في الأندلس عُمرت غرناطة وضمت جميع مناطق البيرة وغلب اسمها عليها.

---

١) المقتبس(للحقبة ٣٦٠ -٣٦٤هـ / ٩٧٠ -٩٧٤ م) ص ٢٠١.
٢) ترصيع الأخبار، ص ٩٣.
٣) فرحة الأنفس، ص ١٤.
٤) الأندلس من معجم البلدان، ص ٦٢.
٥) المغرب في حلى المغرب، ٩٢/٢.
٦) هو أبو جعفر أحمد بن يوسف الجذامي من بيت أمراء سرقسطة وهو آخر أمراء بني هود في روطة وقتل سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م في موقعة جنجالة، ينظر : ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٤٥/٢ -٢٥٢.
٧) التكملة، ٨٣/١.
٨) الروض المعطار، ص ١٢٢.
٩) اللمحة البدرية، ص ١٨.
١٠) نفح الطيب، ١٤٩/١.

وتحدثت المصادر إلى مكانها بالنسبة إلى من يجاورها من المدن ، فقال ابن غالب إنها بين الغرب والقبلة من البيرة[١] ، وذكر ياقوت أن باغة(مدينة بالأندلس من كورة البيرة بين المغرب والقبلة منها ، وفي قبلي قرطبة Cordoba منحرفة عنها يسيراً)[٢] ، أما المسافات ، فإن بينها وبين البيرة أربعون ميلاً[٣] ، وبينها وبين قرطبة خمسون ميلاً[٤] أي حوالي١١٠ كم إلى الجنوب الشرقي منها[٥] ، وذكر الإدريسي أن مدينة باغة هي ضمن مجموعة من المدن الواقعة بين مالقة Malaga وقرطبة وقال أن بينها وبين حصن القبذاق مرحلة[٦] خفيفة ومن القبذاق إلى جيان Jaen مرحلة خفيفة[٧].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة عن كيفية فتح المسلمين مدينة باغة أو تاريخ ذلك ، إلا أنه على ما يبدو فتحت أثناء فتح المسلمون لكورة البيرة كونها من توابعها ، فعندما تمكن طارق بن زياد من هزيمة ملك القوط الغربيين لوذريق في معركة وادي لكة Rio Cuadalete في شوال من سنة ٩٢هـ/٧١٠م اتجه إلى مدينة إستجة Ecija التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي ، وبعد هزيمتهم قرر التقدم والزحف مباشرة إلى طليطلة Tolodoعاصمة القوط الغربيين ، وقبل أن يشرع أرسل فرقاً من جيشه لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط وهي: قرطبة Cordoba والبيرة ومالقة Malaga وتدمير Tudmir[٨].

أما بالنسبة للجيش المتجه نحو البيرة فتمكنوا من فتح مدينتها ثم فتحوا غرناطة ثم مضوا إلى تدمير[١] ، ويمكن القول إن ذلك كان في أواخر سنة٩٢هـ/٧١٠م ، لأن معركة وادي

---

١) فرحة الأنفس، ص ١٤.
٢) الأندلس من معجم البلدان، ص ٦٢.
٣) العذري، ترصيع الأخبار، ص٨٩، والميل يساوي٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.
٤) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٦٢ ؛ الزبيدي، الأندلس من تاج العروس، ص ٢٨.
٥) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٣٢-٢٦٧ هـ/ ٨٤٦-٨٨٠ م)، ص ٥٢٩ تعليقات المحقق محمود علي مكي.
٦) المرحلة تساوي أربعة وعشرون ميلاً أو ثمانية فراسخ، ينظر : الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، ٥٢١/١.
٧) نزهة المشتاق، ٥٧١/٢.
٨) لمزيد من التفاصيل ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١ -١٩.
١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٢ -٢٣ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٦.

لكة التي انهزم فيها القوط كما قال المقري :(كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام ،...)[1] ، وكان فتح قرطبة في شوال من السنة نفسها[2] ، ولما كان طارق في طليطلة أوائل سنة ٩٣هـ/٧١١م[3] ، فهذا يعني أن دخول البيرة ومنها مدينة باغة في حكم المسلمين كان في المدة بين شوال وذي الحجة من سنة٩٢هـ/٧١٠م.

ويبدو أن مدينة باغة عاشت هادئة بعيدة عن الأحداث الكبيرة حتى منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، ولعل ذلك راجع إلى قربها من قرطبة وقوة الدولة وحكامها آنذاك ، فقد كان أهل مدينة باغة يشاركون حكومة قرطبة في غزواتها لاسيما في الثغور ، وقد بلغت مشاركتهم في أحدى الغزوات إلى جليقية Galiclia أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن(٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م) تسعمائة فارس[4].

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي استفحل أمر الثائر ابن حفصون في إقليم رية وتمكن من ضم باغة إلى نفوذه سنة٢٧٣هـ/٨٨٦م[5] حتى تمكن عبدالرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) سنة٣٠٩هـ/٩٢١م من القضاء على أهل الخلاف بها[6] ، وهكذا عادت مدينة باغة ومنطقتها إلى الطاعة ، وأخذت حكومة قرطبة ترسل إليها الولاة حسب ما تراه ، ويبدو أن ذلك استمر طيلة القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[7]

وبعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس مايسمى بالفتنة[8] في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وما تلاها من سقوط الخلافة الأموية سنة٤٢٢هـ/

---

١) نفح الطيب، ٢٥٩/١ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٨/٢.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢ -١٠ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.

٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.

٤) ابن حيان، المقتبس(٢٣٢ -٢٦٧ هـ / ٨٤٦ -٨٨٠ م)، ص ٢٧٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٠٩/٢

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ١١٤/٢.

٦) ابن حيان، المقتبس(٣٠٠ – ٣٣٠ هـ/ ٩١٢ -٩٤١م)، ص ١٧٣ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٨١/٢.

٧) ينظر التفاصيل: الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٩)، ص ٣٩، ٤١.

٨) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ /١٠٣٠ م، ينظر : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٥/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.

١٠٣٠م بدأ عصر جديد في الأندلس أطلق عليه المؤرخون عصر دويلات الطوائفLos، Taifas (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) وهكذا انقسمت الأندلس إلى دويلات فكانت كورة البيرة من نصيب بني مناد الصنهاجيين الذين حكموا المنطقة للمدة من٤٠٣ -٤٨٣هـ/١٠١٢-١٠٩٠م[١] ، وقد امتدت حدود دولتهم إلى جيان[٢] وبذلك فقد أصبحت مدينة باغة ومنطقتها ضمن دولتهم حتى دخول المرابطين إليها سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م[٣] ، ثم إن مدينة باغة ظلت تابعة إلى أمراء البيت المرابطي الذين اتخذوا من مدينة غرناطة عاصمة لهم وكان آخرهم فيها هو يحيى بن علي بن غانية[٤] ، ثم دخلت غرناطة وأعمالها في حوزة الموحدين Los ، Almohades سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥ م[٥] ، إلا أن الحدث الأبرز في تاريخ المنطقة في العهد الموحدي هو ما حدث بعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب Las. Navas de Tolosa سنة٦٠٩هـ/١٢١٢م ، فقد تغير ميزان القوى في الأندلس ، ولم يعد في مقدور الدولة الموحدية حماية الثغور الأندلسية من هجمات النصارى[٦] ، إذ استولى النصارى مباشرة بعد ذلك على مدينتي بسطة Baza وباغو ، وهذا ما أكده الحميري بقوله: (ثم استولى الروم بعد ذلك على مدينة بسطة وباغو وما جاورهما من القرى والحصون ، وقتلوا الرجال وسبوا الذرية وكانت هذه الوقيعة أول وهن دخل على الموحّدين ، فلم يقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة ...)[٧] ، فكان ذلك السقوط الأول لمدينة باغة بيد النصارى.

ولكن النصارى لم يتمكنوا من الاحتفاظ بالمناطق التي دخلوها في أعقاب هزيمة المسلمين في موقعة العقاب بسبب مصاعب التموين وسادت الفوضى بين جنود الجيش

١) ينظر التفاصيل عن دولة بني مناد : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٠/٢ -١٤٦.

٢) الطويل، مملكة غرناطة، ص ١٠٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٦/٢، ١٣٣.

٣) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ١٥٤/٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٥٦٨/٣.

٤) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٢٠.

٥) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٥٤.

٦) للمزيد من التفاصيل عن موقعة العقاب، ينظر: المراكشي، المعجب، ص ٢٣٥ -٢٣٦ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦ -٤١٧ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٧٠/٢ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤١٩ وما بعدها.

٧) الروض المعطار، ص ٤١٦.

الظافر ، الذين امتلأت أيديهم بالغنائم ، ثم كانت الطامة بانتشار الوباء بينهم من جراء اشتداد الحرارة ، وتعفن الجثث التي غصت بها تلك الوديان ، فارتد الملوك النصارى في قواتهم نحو الشمال ، ودخلوا طليطلة عاصمة قشتالة Castilla في موكب ملوكي ضخم ، وأقيمت صلوات الشكر ابتهاجاً بالنصر(١).

ولكن اضطراب الأمور في الدولة الموحدية أدى إلى قيام ثورات عديدة في الأندلس ولاسيما في وسط وشرق الأندلس ، وبقدر ما يتعلق الأمر بمدينة باغة فإن أشهرها تلك التي قادها محمد بن يوسف بن هود الجذامي ومحمد بن يوسف بن الأحمر ، وكان الأول قد ثار على الموحدين سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق وحاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي وغدا أكبر الثوار الذي سيوحد الأندلس على يديه(٢) ، أما الثاني فدعا لنفسه وبويع أولاً في أرجونة موطن أسرته وأنصاره وفي المناطق القريبة منها وذلك سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م(٣) ، ومن أرجونة أخذ ابن الأحمر يوسع نفوذه ، ففي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م تمكن من الدخول إلى مدينة جيان وقرطبة وبعض مناطق غرب الأندلس(٤) ثم أطاعته أهالي مدينتي بسطة ووادي آش(٥) ، وبعد مواجهات بين ابن الأحمر وابن هود(٦) انحسر نفوذ الأخير وتمكن ابن الأحمر من دخول غرناطة سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧ م واتخذها قاعدة لملكه(٧) ، وبذلك أصبحت المنطقة من جيان إلى غرناطة تحت نفوذه وبضمنها مدينة باغة(١) .

وفي ظل بني الأحمر غدت مدينة باغة ساحة للصراع بين الجانبين الإسلامي

---

١) دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين، ٤/ ٣٢٤.

٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢ ؛ ينظر أيضاً : الإحاطة، ٧٦/٢.

٣) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٦.

٤) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ -٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣١ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣٩٥/٦ -٣٩٦.

٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٥/٤.

٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٦.

٧) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٢ -٣٤٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٧/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٠/٤.

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٥/٥.

والنصراني ، وتناوبها الجانبان بالغزو والاحتلال ، ففي سنة٧٣٣هـ/١٣٣٢م ذكر ابن الخطيب أن قوات بني الأحمر في عهد أبي الحجاج يوسف بن الأحمر(٧٣٣-٧٥٥هـ/١٣٣٢-١٣٥٤م) هاجمت مدينة باغة وتمكنت من فتحها ، وقد علق على ذلك قائلاً: (غزا في السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة بجيش مدينة باغة ، وهي ما هي من الشّهرة ، وكرم البقعة ، فأخذ بمخنّقها ، وشدّ حصارها ، وعاق الصريخ عنها ، فتملّكها عنوة ، وعمّرها بالحماة ، ورتّبها بالمرابطة ، فكان الفتح فيها عظيماً)[١] ، ويفهم من ذلك أن النصارى قبل هذا التاريخ كانوا قد احتلوا المدينة فأعاد بنو الأحمر فتحها وشحنوها بالقاتلة للدفاع عنها.

إلا أن القوات القشتالية عاودت بعد ثمان سنوات(أي في سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م) وهاجمت المدينة وتمكنت من الاستيلاء على مدينة باغة[٢] ، ثم إن قوات بني الأحمر تمكنت بعد من إعادة فتحها ، ففي عهد الغني بالله محمد الخامس(٧٦٣-٧٩٣هـ/١٣٦١-١٣٩٠م) هاجمت القوات الإسلامية مدينة باغة في سنة٧٦٧هـ/١٣٦٥م وتمكنت من دخولها ، وقد علق ابن الخطيب على ذلك بالقول: (... وانصرفوا إلى حصن باغة ، من مشاهد تلك الحفرة ، فناشبوه القتال ، وأذاقوه الوبال ، وفوقوا إليه النّبال ، ففتحه الله فتحا هينا ، لم تفتّ فيه للمسلمين نفس ، ولا تطرّق لنصر التيسير لبس ، فقابلنا بها لشكر هذه النعم المتوالية ، والمنن المتقدّمة والتالية ، وأعدنا الأعلام إلى مراكزها المشرفة المراقب ، والطبول إلى قرعها عملا من الإشارة بالواجب)[٣].

وبعد سنتين زار ابن الخطيب مدينة باغة(أي في سنة٧٦٩هـ/١٣٦٧م) بصحبة الغني بالله وترك لنا وصفاً مزرياً عن حالتها إذ قال :(وعرجنا في هَذَا الإياب العَزيز على مَدينَة باغة الحُجَّرَة ، من بَنَات تِلْكَ الْأُم البائسة ، وفروع تِلْكَ الشَّجَرَة المجتثة ، فَصَارَت سحيراً للسيل ، وملتهم الويل ، ومنتهب الرجل وَالخَيل ، وألفينا قاطنها قد ولى هرباً ، وَاتخذ اللَّيل جملاً ، وبيوتها مشحونة أثاثاً وأقوتا ، وَنعماً أشتاتا ، فَأَخذهَا النهب ، وَفَشَا فِي عيصها الأشب

١) الإحاطة، ٢٩١/١.
٢) ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٩١/٤.
٣) الإحاطة، ٤٤/٢.

العيث ، وتعلقت النَّار بزياتينها لَمكَان العلاقة ، وأغرت بهَا لأجل السلبط ألْسنَة السلاطة ، فَقلب الدمار أعيانها رَمَادا ، وألبسها الْحَرِيق للثكل حدادا)[1].

من هذا النص أعلاه يمكن القول إن المدينة هجرها أهلها هرباً على غير نظام إذ لم يستطيعوا أن يحملوا معهم أمتعتهم ، وتعرضت للنهب ، وأحرقت بساتينها ، وهذا الوصف يوحي بأن معارك طاحنة شهدتها المدينة بين الجانبين تمكن فيها المسلمون من دخولها بعد أن أضحت خاوية على عروشها.

وفي عهد محمد السابع بن أبي الحجاج يوسف الثاني النصري(٧٩٧-٨١١هـ/١٣٩٤-١٤٠٨م) قامت القوات القشتالية في سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م بمهاجمة عدد من حصون سلطنة غرناطة الشمالية وبضمنها مدينة باغة وحصنها وتمكنوا من الاستيلاء عليها[2] ، وبذلك سقطت المدينة بشكل نهائي ولم يستطع المسلمون إنجادها بسبب ما كانت تعانيه سلطنة غرناطة من ضعف وانقسام ، وهكذا سقطت مدينة باغة الأندلسية بعد أن حكمها المسلمون مدة٧١٧ سنة.

---

١) ريحانة الكتاب، ١٦٩/١.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٤١/٥ ؛ خطاب، قادة فتح الأندلس، ١٨٤/٢.

مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras الأندلسية
(٩٢ -٨٦٢ هـ/٧١٠ - ١٤٥٧ م)

وهي إحدى مدن الأندلس الجنوبية المطلة على البحر المتوسط ، ذكرت أغلب المصادر اسمها بالجزيرة الخضراء[١] ، فيما أسماها العذري بالجزيرة وقال: مدينة الجزيرة[٢] ، وقال عنها الحميري: الجزيرة الخضراء(ويقال لها جزيرة أم حكيم ، وهي جارية طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، كان حملها معه فتخلفها بهذه الجزيرة فنسبت إليها ، وعلى مرسى أم حكم مدينة الجزيرة الخضراء)[٣] ، وهي تقع على رأس الزقاق الفاصل بين بر المغرب وبر الأندلس ، قال الإدريسي: (طول هذا المجاز المسمى بالزقاق اثنا عشر ميلاً وعلى طرفه من جهة المشرق المدينة المسماة بالجزيرة الخضراء وعلى طرفه من ناحية المغرب المدينة المسماة بجزيرة طريف ويقابل جزيرة طريف في الضفة الثانية من البحر مرسى القصر المنسوب لمصمودة ويقابل الجزيرة الخضراء في تلك العدوة مدينة سبتة وعرض البحر بين سبتة والجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً وعرض البحر بين جزيرة طريف وقصر مصمودة اثنا عشر ميلاً)[٤].

وهي من جهة الشرق أحوازها تتصل بأحواز شذونة وهي قبلة قرطبة[٥] وقد وصفها

---

١) ينظر على سبيل المثال : البكري، المسالك والممالك، ٣١٨/٢ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٢٧/٢ ؛ الزهري، الجغرافية، ص ٩٣ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٥ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٠٨ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٢٢.

٢) ترصيع الأخبار، ص ١١٧.

٣) الروض المعطار، ص ٢٢٣.

٤) نزهة المشتاق، ٥٢٧/٢.

٥) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١١٨ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٥.

ياقوت بالقول: (مدينة مشهورة بالأندلس ، وقبالتها من البرّ بلاد البربر سبتّة ، وأعمالها متصلة بأعمال شذونة ، وهي شرقي شذونة وقبلي قرطبة ، ومدينتها من أشرف المدن وأطيبها أرضاً ، وسورها يضرب به ماء البحر ، ولا يحيط بها البحر كما تكون الجزائر ، لكنها متصلة ببرّ الأندلس لا حائل من الماء دونها)[1] ، وحدد المراكشي موقعها بالقول: (وفي شرقي الجزيرة الخضراء الجبل المعروف بجبل الفتح ، ويسمى أيضًا جبل طارق ، وله طرف خارج في البحر يسمى طرف الفتح ، وعنده يلتقي البحران بجزيرة الأندلس)[2].

أما المسافات بينها وبين مدن الأندلس الأخرى ، فبينها وبين جبل طارق ستة أميال ، وبينها وبين مالقة مائة ميل ، ويربطها بإشبيلية طريقان طريق في الماء يبلغ طوله ستون ميلاً ، وآخر في البر يبلغ طوله مرحلة[3] ، وبينها وبين المحيط الأعظم(المحيط الأطلسي) ثمانية عشر ميلاً ، وبينها وبين قرطبة خمسة وخمسون فرسخاً[4].

أما فتحها فهي أول مدينة فتحت من الأندلس[5] ،وكان فتحها من قبل طارق بن زياد قيل في رمضان وقيل في رجب من سنة٩٢هـ/٧١٠م[6] ، قال المراكشي: (فأول موضع نزله فيما يقال منها: المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم ، نزلها قبيل الفجر ، فصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات لأصحابه)[7].

وبسبب موقع الجزيرة الخضراء على الطريق الذي يربط الأندلس بالغرب وباعتبارها بوابة الأندلس فقد شهدت العديد من الأحداث خلال تاريخها الطويل حتى سقوطها كان من

---

١) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٠٨.

٢) المعجب، ص ٢٦٤.

٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٤٠/٢ -٥٤١.

٤) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٠٨.

٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٩/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٢٢٤ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٢٢.

٦) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٣ ؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ١٨ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٠ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢.

٧) المعجب، ص ١٧.

أولها ثورة رزق بن النعمان الغساني سنة١٤٣هـ/٧٦٠م على عبدالرحمن الداخل[١] ، ثم ثورة الرماحس بن عبدالعزيز الكناني سنة ١٥٥هـ/٧٧١م[٢].

ومن الأحداث المهمة التي شهدتها المدينة هي تعرضها إلى هجمات النورمان الذين كان أول ظهور لهم سنة٢٢٩هـ/٨٤٣ م ، ثم عاودوا الهجوم سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م إلا أن قوات الإمارة الأندلسية تمكنت من صدهم[٣] ، وتمكنوا في هذه السنة من الوصول إلى الجزيرة الخضراء وإحراق مسجدها الجامع ثم تمكنت قوات الإمارة من دحرهم[٤].

وبعد منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي قام ابن حفصون بثورته في إقليم رية سنة ٢٦٧هـ/٨٨٠م تمكن من بسط نفوذه على مناطق واسعة ومن ضمنها الجزيرة الخضراء[٥] حتى تمكن عبد الرحمن الناصر من استرجاعها سنة٣٠١هـ/٩١٣م[٦].

وكان لقوة الدولة الإسلامية في الأندلس في عهود الخليفة الناصر(٣٠٠-٣٥٠ هـ/٩١٢-٩٦١م) والخليفة الحكم المستنصر(٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م) والحاجب محمد بن أبي عامر (٣٦٦-٣٩٢ هـ/٩٧٦-١٠٠١م) ثم ابنه عبد الملك المظفر(٣٩٢-٣٩٩هـ/١٠٠١-١٠٠٨م) أثر كبير في استقرار أوضاعها الداخلية ، ولكن بعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس ما يسمى بالفتنة[٧] في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وما تلاها من سقوط

---

١) ينظر التفاصيل عن ثورة رزق : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٢٠ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٩٤.

٢) ينظر عن ثورة الرماحس : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١١٧ -١١٨.

٣) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/ ٧٩٦ -٨٤٦ م)، ص ٣٠٧ -٣٠٨ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٩٦/٢.

٤) ينظر التفاصيل عن هجوم النورمان على الجزيرة الخضراء : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١١٨-١١٩.

٥) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٢٧٥-٣٠٠ هـ/٨٨٨-٩١٢ م)، ص ١١٢-١١٣، ١٣٤، ١٤٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٧٩/٤.

٦) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠-٣٣٠ هـ/٩١٢-٩٤١م) ص ٨٦-٨٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٧٧/١.

٧) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ /١٠٣٠ م، ينظر : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٥/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.

الخلافة الأموية سنة٤٢٢ هـ/١٠٣٠م بدأ عصر جديد في الأندلس أطلق عليه المؤرخون عصر دويلات الطوائف Los، Taifas (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) إذ انقسمت الأندلس إلى دويلات وأصبحت الجزيرة الخضراء ضمن نفوذ بني حمود الادارسة وذلك منذ سنة٤٠٣هـ/١٠١٢م بمساعدة الخليفة سليمان المستعين(٤٠٠-٤٠٧ هـ/١٠٠٩-١٠١٦ م)[١] واستمروا حتى القضاء عليهم سنة٤٤٦هـ/١٠٥٤م من قبل بني عباد الذين استولوا على الجزيرة الخضراء سنة٤٤٦ هـ/١٠٥٤م[٢].

وبعد دخول المرابطين Los، Almoravides إلى الأندلس وقضائهم على أمراء الطوائف ولاسيما دولة بني عباد أصبح غرب الأندلس بأجمعه تحت سلطان المرابطين منذ سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، وكانت الجزيرة الخضراء قد استولى عليها المرابطون منذ سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م عندما اشترطوا على ابن عباد أن يسلمهم الجزيرة كي يتمكنوا من العبور فسلمها إليهم ابنه الراضي يزيد بمحضر وشهود[٣] ، وفي نهاية عهد المرابطين واضطراب الأمور عليهم في الأندلس تمكن الموحدون من الاستيلاء على الجزيرة الخضراء سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م[٤].

وفي عهد الخليفة المأمون الموحدي(٦٢٤-٦٢٩هـ/١٢٢٦-١٢٣١م) اضطربت الأوضاع في الدولة الموحدية ، وأدت إلى قيام ثورات عديدة في الأندلس لاسيما تلك التي قادها محمد بن يوسف بن هود الجذامي ، ومحمد بن يوسف بن الأحمر ، وكان الأول قد ثار على الموحدين سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧ م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق وحاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي[٥] ،وقيل إن مدينة الجزيرة الخضراء دخلت في حوزته سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣١م[٦].

---

١) ابن عذاري، البيان المغرب، ١١٣/٣ ؛ وينظر عن دولة بني حمود في الجزيرة الخضراء ومالقة : ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٨٩/٣ -٢٩٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٣٥/٢ -١٣٩.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٤٢/٣ -٢٤٣ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٣٥/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٨/٢.

٣) ابن الابار، الحلة السيراء، ٧٠/٢، ٩٩ ؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٥١ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٢٣/٢ وورد خطأ ذكر سنة ٤٤٩ هـ.

٤) ابن الابار، الحلة السيراء، ١٩٩/٢.

٥) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢.

٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٧/٤.

ولكن تطورات الأحداث في الأندلس بعد مقتل ابن هود سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م مهدت السبيل لابن الأحمر الذي دخل غرناطة واتخذها قادة لملكه ثم بسط نفوذه على عدد من المناطق فدخلت مالقة Malaga والجزيرة الخضراء في طاعته[١].

وفي عهد بني الأحمر تعرضت الجزيرة الخضراء إلى العديد من الهجمات من قبل القوات النصرانية وذلك لإدراكهم أنها مفتاح المؤن والإمدادات التي تتدفق على الأندلس من خلالها لاسيما وأن المغرب بعد سقوط الدولة الموحدية شهد قيام الدولة المرينية واضطلاع حكامها بدور الجهاد في الأندلس ، ففي عهد محمد الفقيه(٦٧١-٧٠١هـ/١٢٧٢-١٣٠١م) أرسل السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور(٦٦٥-٦٨٥هـ/١٢٦٦-١٢٨٦ م) قواته وتمكنت من هزيمة القشتاليين في معركة إستجة سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م[٢] وعند عودته ترك قوة مكونة من ثلاثة آلاف فارس في الجزيرة الخضراء لمعاونة سلطنة غرناطة[٣].

إلا أن سلطان غرناطة محمد الفقيه أخذ يتوجس خيفة من المرينيين فتحالف مع ملك قشتالة الفونسو العاشر الذي أرسل قواته إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الأول سنة٦٧٧ هـ /١٢٧٨م وقد شغلت اضطراب الأحوال في المغرب السلطان المريني من إنقاذها[٤] فكان ذلك السقوط الأول لمدينة الجزيرة الخضراء ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ عاود السلطان المريني إرسال قواته إلى هناك وذلك في ربيع الأول من سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م وتمكنوا بعد قتال عنيف من هزيمة الجيش القشتالي وإعادة فتح الجزيرة[٥] التي غدت قاعدة يشن منها بنو مرين الهجمات على قشتالة.

وفي عهد السلطان نصر بن محمد بن الأحمر(٧٠٨-٧١٣هـ/١٣٠٨-١٣١٣م) هاجم ملك قشتالة في صفر من سنة٧٠٩هـ/١٣٠٩م الجزيرة الخضراء وتمكن من دخولها واستمر فيها

---

١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢، ٢٥٣.

٢) ينظر التفاصيل عن معركة إستجة : ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٣١٦ -٣١٩.

٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٣١٩، ٤٠٥ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢٢٠/٤ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٩٣.

٤) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٣٢٩،٣٣٠، ٤٠٥.

٥) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٣٣١ -٣٣٤.

حوالي أربعة أشهر حيث انسحب عنها في شعبان من السنة نفسها إلا أنه بقي محتفظاً بجبل الفتح[1] ، فكان ذلك السقوط الثاني ، ثم توطدت العلاقة بين بني الأحمر وبني مرين بزواج السلطان المريني سليمان بن عبدالله بن يوسف(٧٠٨-٧١٠هـ/١٣٠٨-١٣١٠م)من أخت الأمير نصر بن الأحمر فأعطى الأخير الجزيرة الخضراء ورندة وأحوازها للمرينيين للمرابطة فيها[2].

وفي عهد سلطان غرناطة محمد الرابع بن إسماعيل(٧٢٥-٧٣٣هـ/١٣٢٤-١٣٣٢م) تمكن بمساعدة بني مرين من إعادة فتح جبل الفتح المقابل للجزيرة الخضراء وذلك في ذي الحجة من سنة٧٣٣هـ/١٣٣٢م بعد أن احتله الجيش القشتالي سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م[3] ولبث في أيديهم أربعة وعشرين عاماً[4].

وفي عهد السلطان أبو الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل بن الأحمر(٧٣٣-٧٥٥هـ/ ١٣٣٣٢-١٣٥٤م) جرت معركة طريف بين كل من قوات ابن الأحمر والسلطان أبي الحسن المريني والقوات القشتالية سنة٧٤١هـ/١٣٤٠م ، ذلك أن السلطان أبا الحجاج أرسل إلى السلطان المريني للمساعدة في مواجهة القشتاليين الذين قاموا بجملة صليبية كبيرة مكونة من سفن قشتالة وأراغون والبرتغال وبمباركة البابوية وحاصروا الجزيرة الخضراء وهنا عبر السلطان المريني أبو الحسن بأسطول ضخم وذلك في محرم من سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م وانضمت إليه قوات ابن الأحمر ونشبت عند ثغر طريف معركة حامية انهزم فيها الجيش المريني والغرناطي ومني بخسارة كبيرة شبهت بهزيمة العقاب اضطر السلطان بعدها الانسحاب إلى المغرب فيما لحق ابن الأحمر بغرناطة واستولى النصارى على طريف[5].

شجعت هذه الانتصارات الملك النصراني على تحقيق المزيد من المكاسب ، فبعد الاستيلاء على طريف طمع أن يستولي على الجزيرة الخضراء ليتحقق له فصل الأندلس

---

١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٦٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣١٧/٧.

٢) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٣٩٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣١٧/٧.

٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٨١.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٤/٥.

٥) ابن خلدون، العبر، ٣٤٦/٧ -٣٤٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٧/٥ -١٢٨.

عن المغرب ، في الوقت نفسه كان سلطان المغرب أبو الحسن متشوق للثأر مما جرى له في طريف ، فلما اكتملت التحضيرات من الجانبين جرت معركة بحرية انهزم فيها الأسطول الإسلامي وذلك سنة٧٤٣هـ/١٣٤٢م ، وقد علق ابن خلدون على هذه المعركة بقوله: (لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالأندلس ، وطمع في التهامهم ، وجمع عساكر النصرانية... ، وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعودة إلى الجهاد لرجع الكرّة وبعث في الأمصار للاستنفار ، وأخرج قوّاده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى اكتمل له منها عدد ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفتها ، وقدّم عساكره إلى العدوة مع وزيره عسكر بن تاحضريت ، وبعث على الجزيرة محمد بن العبّاس بن تاحضريت من قرابة الوزير ، وبعثه إليها مدداً من العسكر مع موسى بن إبراهيم اليرنياني من المرشحين للوزارة ببابه ، وبلغ الطاغية خبره فجهّز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته ، وتلاقت الأساطيل ومحّص الله المسلمين واستشهد منهم أعاد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق وملكوه دون المسلمين وأقبل الطاغية من إشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وفرضة المجاز ، وأمّل أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف ، وحشد الفعلة والصنّاع للآلات ، وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار ، واتخذ أهل المعسكر بيوتا من الخشب للمطاولة ، وجاء السلطان أبو الحجّاج بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة ، وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة ليسرّب عليها المدد من الفرسان والمال والزرع في أحايين الفعلة من أساطيلهم ، وتحت جناح الليل ، فلم يغنهم ذلك ، واشتدّ عليهم الحصار وأصابهم الجهد ، وأجاز إليه السلطان أبو الحجّاج يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية ، بعد إذن الطاغية له في الإجازة مكراً به وترصّد له بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غصّ الريق ، وضاقت أحوال الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان ، وسألوا من الطاغية الأمان على أن ينزلوا عن البلد فبذله وخرجوا فوفّى لهم)[1] ، وبذلك أضحى الثغران الجنوبيان المشرفان على مضيق جبل طارق وهما الجزيرة وطريف في أيدي النصارى ، وأشار

---

١) **العبر**، ٣٤٧/٧ -٣٤٨.

ابن الخطيب إلى ذلك أيضاً بقوله: (وكان هذا الطاغية موهوباً وملكاً مجدوداً ، هبت له الريح وعظمت به في المسلمين النكاية وتملك الخضراء بعد أن أوقع بالمسلمين الوقيعة العظمى بطريف)[1] ، ولم يبق في يد المسلمين سوى جبل طارق يؤدى مهمة الوصل بين المغرب والأندلس[2] ، فكان هذا السقوط الثاني للجزيرة الخضراء بيد النصارى.

وقد عمل السلطان المريني على الاتصال بملك مصر والشام السلطان محمد بن قلاوون وأعلمه ما جرى على المسلمين من نكبة في وقعة طريف ثم سقوط الجزيرة الخضراء بيد النصارى وذلك في صفر من سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م[3] ، فأجابه سلطان مصر برسالة يأسف فيها على سقوط الجزيرة الخضراء ويعزي السلطان المريني بما مني من هزائم وأخبره أن الحرب سجال وفي سلامته الكفاية وأبدى له اغتباطه ببقاء جبل طارق بيد المسلمين[4] ، وذكر المقري رسالة سلطان مصر وهي طويلة جاء في بعض جوابه: (وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها ، ومني به من الكفار حزنها وسهلها ، فإن شق علينا سماعه الذي أنكى أهل الإيمان ، وعدد به ذنوب الزمان ، كل قلب بأنامل الخفقان ، وطالما فزتم بالظفر ، ورزقتم النصر على عدوكم فجر ذيل الهزيمة وفر ، ولكن الحروب سجال ، وكل زمان لدوائه دولة ولرجائه رجال)[5].

واستمرت الجزيرة الخضراء بيد النصارى حتى عهد السلطان الغرناطي الغني بالله (٧٥٥-٧٩٣هـ/ ١٣٥٤-١٣٩٠م) الذي قوى علاقته بسلطان الدولة المرينية أبي فارس عبد العزيز (٧٦٧-٧٧٤هـ/١٣٦٥-١٣٧٢م)[6] ، وكانت مملكة قشتالة قد انشغلت بمنازعات وحروب داخلية مع جيرانها الدويلات النصرانية[7] ، فاستغل الغني بالله ذلك فاستأنف الجهاد وتوغل في

---

١) اللمحة البدرية، ص ٩٥.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٨/٥.

٣) ينظر نص الرسالة : المقري، نفح الطيب، ٤/ ٣٨٦ -٣٩٣.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٩/٥ ؛ وينظر رسالة ملك مصر : المقري، نفح الطيب، ٣٩٤/٤ -

٥) نفح الطيب، ٣٩٦/٤ -٣٩٧.

٦) ابن خلدون، العبر، ٤٣٤/٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٤٨/٥ ؛ دولة بني مرين، ص ١٩٥.

٧) ينظر عن حالة قشتالة أيام ملكها دون بطرة : ابن الخطيب، الإحاطة، ٩/٢، ٢١ -٢٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٤٣/٥ -١٤٤ ؛

أراضي قشتالة ووصلت قواته إلى جيان[1] ، عندها قام بمراسلة السلطان المريني عبد العزيز الذي قام بالزحف على الجزيرة الخضراء وحاصرها سنة٧٧٠هـ/١٣٦٨م وأرغم النصارى على إخلائها بعد قتال مرير إلا أنه عمل على تهديمها كي لا يعاود النصارى الاستيلاء عليها فجعلها قاعاً صفصفا ، وقد علق ابن خلدون على ذلك بقوله: (وفي خلال هذه الفتن بقيت ثغورهم مما يلي أرض المسلمين عورة ، وتشوّف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين ، وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك بما كان فيه من انتقاض أبي الفضل ابن أخيه وعامر بن محمد ، فراسل صاحب الأندلس أن يزحف إليه بعساكره على أنّ عليه عطاءهم وإمداده بالمال والأساطيل على أن يكون مثوبة جهاده خالصة له ، فأجاب إلى ذلك وبعث إليه أحمال المال ، وأوعز إلى أساطيله بسبتة فعمرت وأقلعت من مرسى الجزيرة لحصارها وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العلل ، واستعدّ الآلات للحصار ، فنازلها أياما قلائل ، ثم أيقن النصارى بالهلك لبعدهم عن الصريخ ويأسهم عن مدد ملوكهم ، وألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان إليه ، ونزلوا عن البلد وأقيمت فيها شعائر الإسلام ومراسمه ، ومحيت منها كلمة الكفر وطواغيته ، وكتب الله أجرها لمن أخلص في معاملته وكان ذلك سنة سبعين وسبعمائة وولّى ابن الأحمر عليها من قبله ، ولم تزل لنظره إلى أن تمحّض النظر عن هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها ، فهدمت أعوام ثمانين وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس ، والبقاء للّه وحده)[2] ، وبذلك عادت مدينة الجزيرة الخضراء إلى حوزة المسلمين بعد أن بقيت بيد النصارى حوالي ستة وعشرون عاماً

ولكن المصادر لم تشر إلى سبب قيام الأمير الغني بالله بتخريب مدينة الجزيرة الخضراء بعد عشر سنوات من استرجاعها ، ولعل ذلك يعود إلى تطورات الأحداث في المغرب ، فعندما ساءت علاقة الوزير ابن الخطيب بالغني بالله[3] فرّ الوزير إلى المغرب فأرسل ابن

---

١) ينظر عن جهاد الغني بالله : ابن الخطيب، الإحاطة، ٤٣/٢ -٥٠ ؛ ابن خلدون، العبر، ٤٣٤/٧.

٢) العبر، ٤٣٤/٧ -٤٣٥ ؛ وينظر أيضاً : السلاوي، الاستقصا، ٥٦/٤ -٥٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٤٩/٥.

٣) قيل عن سبب ذلك إن ابن الخطيب كان يغري السلطان المريني بتملك الأندلس فأوغر السعاة=

الأحمر إلى السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز ليسلمه إليه فرفض الأخير ذلك ، ولكن بعد وفاة السلطان عبد العزيز سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م وتملك ابنه أبو زيان(٧٧٤-٧٧٦هـ/١٣٧٢-١٣٧٤م) عاود ابن الأحمر مراسلته في ذلك وعندما لم يذعن لطلبه داخل ابن الأحمر حاكم سبته المريني أبو العباس بن أبي سالم المستنصر بالله(٧٧٦- ٧٨٦هـ/١٣٧٤-١٣٨٤م) وأطمعه في تملك فاس ومساعدته بالمال والرجال بشرط أن ينزل له عن جبل طارق ويسلم إليه ابن الخطيب فكان له ما أراد وقتل ابن الخطيب وتسلم الغني بالله جبل الفتح(جبل طارق) وبذلك انقطعت دعوة بني مرين من وراء البحر[1].

ولعل ابن الأحمر تحول اهتمامه بجبل طارق وهو الطرف الآخر من الجزيرة وأهمل أمر مدينة الجزيرة الخضراء وذلك لمواجهتها لغرناطة فضلاً عن أن عمله هذا يحرم أعداءه لاسيما النصارى من الإفادة منها حال الاستيلاء عليها.

وفي عهد السلطان يوسف بن إسماعيل بن الأحمر(٨٥٨-٨٦٨هـ/ ١٤٥٤-١٤٦٣م) لم يبق من الجزيرة الخضراء بيد المسلمين سوى جبل طارق(جبل الفتح) ، ففي سنة٨٦٢هـ/١٤٥٧م سارت قوة القشتاليين نحو جبل طارق آخر معاقل الجزيرة الخضراء وتمكنوا من الاستيلاء عليه وهو ما أدى إلى انقطاع الإمدادات من المغرب ، فكان قاصمة الظهر لمملكة غرناطة[2] ، وهكذا سقطت الجزيرة الخضراء بأكملها بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٧٧٠ سنة.

=صدر الغني بالله به واتهموه بالزندقة : السلاوي، الاستقصا، ٦٢/٤ -٦٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٤٥/٥.

١) المقري، نفح الطيب، ١٠٦/٥ ؛ السلاوي، الاستقصا، ٦٣/٤.

٢) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٥٥٠ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٧٦/٥ ؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص ٢٩٧.

مدينة لوشة Loja الأندلسية

(٩٢ – ٨٩١ هـ/ ٧١٠ –١٤٨٦ م)

لوشة مدينة بالأندلس تلفظ(بالفتح ثم السكون ، وشين معجمة)[١] ، وتقع إلى الجنوب من قرطبة Corodoba والى الشمال الغربي من غرناطة Granada ، قال ياقوت: (مدينة بالأندلس غربي البيرة قبل قرطبة منحرفة يسيراً)[٢] ، وهي اليوم على الطريق الممتد بين إشبيلية Sevilla وغرناطة[٣].

ذهبت بعض المصادر إلى أنها من أعمال كورة البيرة Elvira[٤] ، فيما ذهب آخرون أنها من أعمال غرناطة[٥] ، وكلا القولين صحيح إذ أن الخلاف حول أن لوشة ضمن البيرة أم غرناطة هو خلاف ترتيب زمني لا خلاف مكاني ، إذ كانت غرناطة مدينة صغيرة تابعة إلى كورة البيرة فلما خُربت البيرة في أحداث الفتنة التي أعقبت سقوط الخلافة الأموية في الأندلس عُمرت غرناطة وضمت جميع مناطق البيرة وغلب اسمها عليها ، فذكر الإدريسي (ومدينة اغرناطة محدثة من أيام الثوار بالأندلس ، وإنما كانت المدينة المقصودة البيرة فخلت وانتقل أهلها منها إلى اغرناطة)[٦] ، وإلى ذلك أيضاً أشار الحميري بقوله: (وكانت حاضرة إلبيرة من قواعد الأندلس الجليلة والأمصار النبيلة فخُربت في الفتنة وانفصل أهلها إلى مدينة غرناطة فهي اليوم قاعدة كورها)[٧] ، فيما أشار ابن الخطيب إلى أن الانتقال من البيرة إلى

---

١) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٢.
٢) الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٢.
٣) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٥.
٤) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٨٩ ؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٥٠٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٣ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٨ ؛
٥) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٦٨ ؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٣٢٠ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٢١٤/٥ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٤٨/١ .
٦) نزهة المشتاق، ٥٦٩/٢.
٧) الروض المعطار، ص ٢٨.

غرناطة كان بعد سنة٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م بقوله: (ولم تزل الأيام تخيف ساكنها ، والعفاء يتبوّأ مساكنها ، والفتن الإسلامية تجوس أماكنها ، حتى شملها الخراب ، وتقسّم قاطنها الاغتراب ، وكلّ الذي فوق التّراب تراب ، وانتقل أهلها مدة أيام الفتنة البربريّة سنة أربعمائة من الهجرة ، فما بعدها ، ولجأوا إلى مدينة غرناطة ، فصارت حاضرة الصّقع ، وأمّ المصر ،...)[١] ، ويُرجح أن تكون البيرة هي المكان نفسه الذي تقوم عليه غرناطة الحديثة[٢].

أما المسافات فإن بينها وبين البيرة ثلاثين ميلاً[٣] ، وبينها وبين قرطبة عشرون فرسخاً[٤] وبينها وبين غرناطة عشرة فراسخ[٥] ، فيما أشار الإدريسي إلى أن بينها وبين غرناطة على النهر خمسة وعشرين ميلاً[٦] ، وقيل إنها على مرحلة[٧] من غرناطة[٨].

أما تسميتها فإن لفظة لوشة أسبانية تعني بلاط مربعة ، وتعني أيضاً فخ لصيد العصافير[٩] ، ولعل المعنى الثاني الأقرب إليها نظراً لطبيعتها المكتظة بالجبال والأنهار والأشجار ، ولها بسيط يحيط بها يمتد على سفوح الجبال القريبة منها وأشهرها جبل شلير[١٠] وفيه كثير من الحصون والقرى ، وقد أثنى ابن سعيد في وصفه لبسيطها بقوله: (بَينهَا وَبَين غرناطة مرحلة من أحسن المراحل بَين أنهارٍ وظلال أشجَار فِي بِسَاط ممتد تبَارك الله الَّذِي أبداه بديعاً فِي حسنه... فَلَو كَانَ للدنيا عروس من أَرْضهَا لَكَانَ ذَلِك الْموضع)[١١] ، كما قال

---

١) الإحاطة، ١٤/١.
٢) الطويل، مملكة غرناطة، ص ٥٥.
٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٣ ؛ والميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.
٤) الفرسخ يساوي ٦ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٤.
٥) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٣٥٢.
٦) نزهة المشتاق، ٥٧٠/٢.
٧) المرحلة تساوي أربعة وعشرون ميلاً أو ثمانية فراسخ، ينظر : الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، ٥٢١/١.
٨) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٦٨ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٢١٤/٥.
٩) دوزي، تكملة المعاجم العربية، ٢٨٧/٩.
١٠) جبل شلير ويسمى جبل الثلج ويدعى الآن سيرانيفادا، وهو يتصل بجبال رية ويلتصق بالجزيرة الخضراء، طوله يومان ولارتفاعه فإن الثلج لا ينفك عنه صيفاً ولا شتاءً، ينظر : الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٩/٢ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٣٩ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٤٣ ؛ حتاملة، أيبيريا، ص ٥٠.
١١) المغرب في حلي المغرب، ١٥٧/٢.

المقري عن لوشة وبسيطها: (وهذا القطر ضخم ينضاف إليه من الحصون والقرى كثير، وقاعدته لوشة)[1] ، وهذا البسيط يشقه نهر شنيل من الجنوب إلى الشمال وهو غربي غرناطة وعلى ضفتيه مسافة أربعين ميلاً(بين بساتين وقرى وضيّع كثيرة البيوت والعلالي وأبراج الحمام وغير ذلك من المباني ، وينتهي فحصها إلى لوشة)[2].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة عن كيفية فتح المسلمين مدينة لوشة أو تاريخ ذلك ، إلا أنه على ما يبدو أنها فتحت أثناء فتح المسلمين لكورة البيرة وقرطبة وذلك لأنها تقع إلى الجنوب من قرطبة وغرب البيرة فمن غير المعقول أن تسير الجيوش إلى قرطبة أو البيرة دون أن تمر في لوشة أو بعض منها ، فعندما تمكن طارق بن زياد من هزيمة ملك القوط الغربيين Viaigoths لوذريق في معركة وادي لكة Rio Cuadalete في شوال من سنة ٩٢هـ/٧١٠م اتجه إلى مدينة إستجة Ecija التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي ، وبعد هزيمتهم قرر التقدم والزحف مباشرة إلى طليطلة Tolodoعاصمة القوط الغربيين ، وقبل أن يشرع أرسل فرقاً من جيشه لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط وهي: قرطبة والبيرة ومالقة Malaga وتدمير Tudmir[3].

أما بالنسبة للجيش المتجه نحو البيرة فتمكنوا من فتح مدينتها ثم فتحوا غرناطة Granada ثم مضوا إلى تدمير[4] ، ويمكن القول إن ذلك كان في أواخر سنة ٩٢هـ/٧١٠م ، لأن معركة وادي لكة التي انهزم فيها القوط كما قال المقري: (كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام ،...)[5] ، وكان فتح قرطبة في شوال من السنة نفسها[6] ، ولما كان طارق في طليطلة أوائل سنة٩٣هـ/٧١١م[7] ، فهذا يعني أن دخول لوشة في حكم المسلمين

---

١) نفح الطيب، ١٤٨/١ ؛ ينظر أيضا : ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٠٤/١.

٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ٢٢٨/٤ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٠٨/٥.

٣) لمزيد من التفاصيل ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١ -١٩.

٤) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٢ -٢٣ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٦.

٥) نفح الطيب، ٢٥٩/١ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٨/٢.

٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢ -١٠ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.

٧) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.

كان في المدة بين شوال وذي الحجة من سنة٩٢هـ/ ٧١٠م ، وذلك بحكم قربها من إستجة التي انطلقت منها جيوش المسلمين لفتح كورة البيرة.

ويبدو أن مدينة لوشة Loja عاشت هادئة بعيدة عن الأحداث التي الكبيرة حتى منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ولعل ذلك راجع إلى قربها من قرطبة وقوة الدولة وحكامها آنذاك فضلاً عن أن الأضواء كانت تسلط على الحواضر الكبرى ، فكانت البيرة هي قصبة الكورة وإليها يقصد العمال والولاة[١].

وبعد ثورة ابن حفصون في إقليم رية سنة٢٦٧هـ/٨٨٠م تمكن من بسط نفوذه على مناطق واسعة ومن ضمنها مدينة لوشة وبقيت في فلكه حتى تمكن الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م) من استعادتها سنة٢٩١هـ/٩٠٣م[٢] ، يبدو أن قبضة حكومة قرطبة استمرت بعد ذلك لعدم ذكر المصادر أحداثاً مهمة وقعت فيها واستمر ولاء الناس وطاعتهم ، ففي سنة٣٦٠هـ/٩٧٠ م استقبل الخليفة الحكم المستنصر بالله(٣٥٠-٣٦٦ هـ/٩٦١-٩٧٦م) وفود أهل الأندلس الذين قدموا عليه لمشاهدة وفد المغرب من زناتة[٣] في بلاط الخليفة وكان في مقدمتهم وفد أهل لوشة[٤].

وبعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس ما يسمى بالفتنة[٥] في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وما تلاها من سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م بدأ عصر جديد في الأندلس أطلق عليه المؤرخون عصر دويلات الطوائفLos، Taifas (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) ، فكانت مدينة لوشة من نصيب بني مناد الصنهاجيين الذين

---

١) ينظر مثلاً : ابن الابار، الحلة السيراء، ١/ ١٥٦، ١٦١، ٢٤١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٠٥/٢، ١٠٩، ١٦٣، ١٨٢.

٢) ابن حيان، المقتبس،(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ -٩١٢ م)، ص ١٦٢ – ١٦٣ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١٤٠/٢ -١٤١.

٣) ينظر التفاصيل عن استقبال وفد زناتة ومعهم جعفر بن علي بن حمدون في الأندلس: ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٦٤.٣٦٠هـ / ٩٧٤.٩٧٠ م) ص ٥٦ -٥٧ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٤٢/٢ .٢٤٣.

٤) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٦٠ -٣٦٤هـ / ٩٧٠ -٩٧٤ م) ص ٥٧.

٥) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ /١٠٣٠ م، ينظر : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٥/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.

حكموا المنطقة للمدة من٤٠٣ -٤٨٣هـ/١٠١٢-١٠٩٠م[١] ، وقد امتدت حدود دولتهم إلى جيان وبسطة Baza وإستجة وما تحت أقسام قرطبة[٢] وبذلك فقد أصبحت لوشة ومنطقتها ضمن دولتهم حتى دخول يوسف بن تاشفين(٤٥٣-٥٠٠هـ/١٠٦١-١١٠٦م) إلى غرناطة في رجب من سنة٤٨٤هـ/١٠٩١م[٣] ، إذ دخلت لوشة في حوزتهم حتى سنة٥٤٣هـ/١١٤٨م عندما دخلها الموحدون[٤].

ولكن اضطراب الأمور في الدولة الموحدية أدى إلى قيام ثورات عديدة في الأندلس ، وبقدر ما يتعلق الأمر بلوشة فإن أشهرها تلك التي قادها محمد بن يوسف بن هود الجذامي ومحمد بن يوسف بن الأحمر ، وكان الأول قد ثار على الموحدين سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق كما حاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي وغدا أكبر الثوار الذي سيوحد الأندلس على يديه ، وقد علق ابن الخطيب على ذلك بقوله: (وصرح له تملك الأندلس ، وأطاعته سبتة ، وملك رباط الفتح)[٥] ، كما ذكر ابن أبي زرع أنه في سنة٦٢٨هـ/١٢٣٠م ملك الأندلس ابن هود ولم يبق للموحدين فيها أمرٌ ولا نهي[٦] ، وعلى هذا فإن لوشة كانت ضمن نفوذه.

إلا أن الذي خطف من ابن هود آماله الثائر الآخر من بني نصر وهو محمد بن يوسف بن الأحمر الملقب بالغالب بالله الذي يرجع نسب عائلته كسادة على حصن أرجونة Arjona الواقعة على مقربة من نهر الوادي الكبيرRio Guadalquivir ، وكان لبني نصر في تلك المنطقة عصبية ووجاهة ، فلما اضطربت الأمور في الدولة الموحدية وظهر ابن هود في شرق الأندلس ، لاحت لمحمد بن يوسف بن الأحمر فرصة الظهور ، فدعا لنفسه وبويع أولاً في أرجونة موطن أسرته وأنصاره وفي المناطق القريبة منها وذلك سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م[٧] ، ومن

---

١) ينظر التفاصيل عن دولة بني مناد : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٠/٢ -١٤٦.
٢) ابن بلقين، التبيان، ص ٣٤، ١٣٧ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٣٨/١ ؛ أعمال الأعلام، ٢١١/٢ ؛ الطويل، مملكة غرناطة، ص ١٤٦.
٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ٣٠٦/٤.
٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ٢١٧/٤.
٥) أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢ ؛ ينظر أيضاً : الإحاطة، ٧٦/٢.
٦) الأنيس المطرب، ص ٢٧٥.
٧) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٦.

أرجونة أخذ ابن الأحمر يوسع نفوذه ، ففي سنة٦٣٠هـ/١٢٣٢م تمكن من الدخول إلى مدينة جيان وقرطبة وبعض مناطق غرب الأندلس[١] ثم أطاعته أهالي مدينتي بسطة ووادي آش[٢] ، وهذا يعني أن لوشة قد أصبحت ضمن مناطق نفوذه ، وهكذا قوى أمره وأخذ يتطلع إلى الاستيلاء على القواعد الجنوبية ، ولكن سقوط قرطبة بيد النصارى سنة٦٣٣هـ/١٢٣٥م[٣] ، دفعت ابن الأحمر إلى الزحف نحو غرناطة ودخلها سنة٦٣٥هـ/١٢٣٧م واتخذها قاعدة لملكه[٤] ، وبذلك غدت المنطقة من جيان إلى غرناطة تحت نفوذه بما فيها مدينة لوشة ، وفي ظل دولة بني الأحمر تحولت مدينة لوشة إلى ثغر ماتطلب إقامة وسائل الدفاع عنها لحمايتها من هجمات النصارى المجاورين لها ، وقد وصفها ابن الخطيب في أيامه بقوله: (وأسباب التطوّف بها متعذرة ، ومنازلها لنزائل الجند نازلة ، وعيون العدو لثغرها الشنيب مغازلة)[٥].

شهدت المرحلة الأخيرة من حياة سلطنة غرناطة(٨٦٨–٨٩٧هـ/١٤٦٣–١٤٩١م) استفحال الصراع الأسري بين حكام بني الأحمر حتى صفت إلى السلطان أبي الحسن علي بن سعد بن الأحمر الذي طال حكمه للمدة(٨٦٨–٨٨٧هـ/١٤٦٣–١٤٨٢م) ، وقد وصفه مؤلف مجهول وهو معاصر له بالقول: (... ، وانقرضت أَعْلَام الْفِتْنَة وخمدت نارها ودانت لَهُ جَمِيع بِلَاد الأندلس وَلم يبْق لَهُ فِيهَا معاند وَهُوَ مَعَ ذَلِك يَغْزُو بِلَاد الرّوم الْمرة بعد الْمرة حَتَّى غزا غزوات كَثِيرَة وَأظْهر الْأَحْكَام وَنظر فِي مصَالح الْحُصُون ونمى الْجَيْش فهابته النَّصَارَى وصالحته براً وبحراً وَكثر الْخَيْر وانبسطت الأرزاق ورخصت الأسعار وانتشر الْأَمْن فِي جَمِيع بِلَاد الأندلس وشملتهم الْعَافِيَة فِي تِلْكَ الْمدَّة وَضربت سكَّة جَدِيدَة طيبَة)[٦] ، وأضاف: إلا

---

١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ –٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣١ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣٩٥/٦ –٣٩٦.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٥/٤.

٣) ينظر عن سقوط قرطبة : الحميري، الروض المعطار، ص ٤٥٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٣١ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٦٧ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٦٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٨/٤ –٤٢٥.

٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٢ –٣٤٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٧/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٠/٤.

٥) معيار الاختيار، ص ١٢٦.

٦) نبذة العصر، ص ٣٦ –٣٧.

أن السلطان بعد حاثة السيل الذي تعرضت له غرناطة سنة٨٨٣هـ/١٤٧٨م[١](اشْتغل باللذات والإنهماك فِي الشَّهَوَات وَاللَّهْو بِالنسَاء المطربات وركن إِلَى الرَّاحَة والغفلات وضيع الْجند وَأسْقط كثيرا من نجدة الفرسان وَثقل المغارم وَكثر الضرائب فِي الْبلدَان ومكس الْأَسْوَاق وَنهب الْأَمْوَال وشح بالعطاء إِلَى غير ذَلِك من الْأُمُور الَّتِي لَا يثبت مَعهَا الْملك)[٢].

وفي المقابل شهدت العلاقات بين مملكتي قشتالة وأراغون تطوراً مهماً كان له أسوأ الأثر على مستقبل مسلمي الأندلس ، ففي سنة٨٧٤هـ/١٤٦٩م تزوجت إيزابيلا بنت خوان الثاني ملك قشتالة وأخت الملك هنري الرابع(٨٥٩-٨٧٩هـ/١٤٥٤-١٤٧٤م) من فرناندو بن خوان الثاني ملك أراغون(٨٦٣-٨٨٤هـ/١٤٥٨-١٤٧٩م) ، وعندما توفي هنري الرابع بدون وريث للعرش توجت أخته إيزابيلا لعرش قشتالة ، كما ورث فرناندو الأرغوني أباه عند وفاته ، فكان ثمرة ذلك الزواج أن اتحدت المملكتان قشتالة وأراغون[٣] ، ولُقبا بالملكين الكاثوليكيين[٤].

في الوقت نفسه حصل تطور خطير على الساحة السياسية في غرناطة هو الفرقة التي حدثت بين السلطان أبي الحسن وولديه أبي عبدالله محمد(الصغير) وأبي الحجاج يوسف ، ويرجع سبب ذلك إلى أن السلطان كان قد تزوج من ابنة عمّه عائشة الحرة[٥] فأولدها ولديه أعلاه ، ثم تزوج من فتاة نصرانية تدعى ثريا[٦] وأولدها ابنيه سعد ونصر فأوغرت صدره على ولديه من عائشة فاعتقلهما مع أمّهما إلا أنهما تمكنا من الفرار والتغلب على السلطة في غرناطة وتربع أبو عبدالله الصغير على عرش غرناطة أواخر سنة٨٨٧هـ/١٤٨٢م ، وكان

---

١) ينظر التفاصيل عن حادثة السيل : مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٤١ -٤٥.
٢) نبذة العصر، ص ٤٥.
٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٨٢/٥ ؛ الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٩.
٤) الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٩.
٥) وهي عائشة بنت الأمير محمد الأيسر ابنة عمّ السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري تزوجها سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م وتوفيت في حدود سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩١م، ينظر: الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ١٩٣ -١٩٦.
٦) وهي جارية رومية كان اسمها إيزابيلا أخذت أسيرة في إحدى المعارك وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فاعتنقت الإسلام وتسمت بثريا وكانت حسناء فتعلق بها السلطان وتزوجها وأولدها اثنين هما سعد ونصر، وبعد سقوط غرناطة لم تغادر الأندلس فقد تنصرت هي وولديها، ينظر : الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ٩٠ -٩١، وذكر إيرفنغ أن اسمها فاطمة ولقبها الزوراء وهي مسيحية بالولادة ابنة القائد سانشو أكزيمنس دي سولي، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٦.

السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها في لوشة للدفاع عنها ، إلا أنه اضطر إلى تجميع أنصاره مكوناً منهم قوة بلغت خمسمائة شخص زحف بها نحو مدينة غرناطة حيث ابنه أبو عبد الله الصغير ، وتمكن مع رجاله من تسلق أسوار مدينة غرناطة وخاض معركة عنيفة مع أنصار ابنه قتل فيها الكثير من أتباعه مما اضطره إلى التراجع والهرب إلى مالقة[1] حيث أخوه أبو عبدالله محمد بن سعد المعروف بالزغل[2].

وقد اغتنم النصارى ذلك الانقسام الذي تزامن مع انقضاء مدة الهدنة التي عقدها السلطان مع قشتالة بمهاجمة أراضي مملكة غرناطة فاستولوا على مدينة الحمة وذلك سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م[3] ، ثم قام الملك القشتالي بمهاجمة مدينة لوشة القريبة من الحمة إذ أن هاتين المدينتين تمهدان الطريق إلى غرناطة.

وبخصوص الأحداث الأخيرة التي أدت إلى سقوط مدينة لوشة هناك روايتان للأحداث الأولى مصدرها مؤلف مجهول مسلم معاصر لتلك الأحداث وهو صاحب كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، والثانية نصرانية مصدرها رجل دين نصراني معاصر للأحداث يدعى أنطونيو آغابيدا استقى واشنطن إيرفنغ معلوماته منه[4].

وحسب الرواية المسلمة ، ففي السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة٨٨٧هـ/١٤٨٢م خرج الملك القشتالي إلى لوشة ونزل عليها ، وكانت حامية المدينة تحت قيادة أحد رجالاتها وهو الشيخ علي العطار(والد مريم زوجة أبي عبدالله الصغير) وكان رغم شيخوخته يعد من أبرع فرسان العصر ، كما سارع السلطان أبو الحسن لنجدة لوشة وتمكنوا من صد النصارى وهزيمتهم بعد خسائر فادحة ، وقد سمى صاحب كتاب مؤلف مجهول المعاصر للأحداث هذه المعركة بمعركة لوشة العظيمة وعلق عليها قائلاً: (خرج صَاحب قشتالة بمحلة عَظيمَة وَقصد مَدينَة لوشة فَنزل عَلَيْهَا بمحلته وَكَانَ قد اجْتمع فِيهَا جملَة من نجدة رجال غرناطة حِين سمعُوا بِخُرُوجه إِلَيْهَا فَلَمَّا قرب من الْبَلَد خرج إِلَيْهِ الرِّجَال والفرسان فقاتلوه قتالاً

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٧ -٩٨.

٢) المقري، نفح الطيب، ٥١٤/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٢/٥.

٣) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٥٤ -٥٦ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٩.

٤) ينظر : أخبار سقوط غرناطة، ص ٤٩.

شَديداً ورده على أعقابه وَقتلُوا كثيرا من النَّصَارَى وَأخذُوا لَهُم من تِلْكَ الْعدة الَّتِي قربوا بهَا من الأنفاط وَغير ذَلِك من عدَّة الْحَرْب ، ثمَّ إِن الْأَمِير أَبَا الْحسن أمدهم بقائد من غرناطة يَقُود جَيْشًا من الفرسان فِي تِلْكَ اللَّيْلَة فاشتدت عِنْد ذَلِك عصبَة الْمُسلمين وقويت قُلُوبهم ، فَلَمَّا أصبح الصَّباح وَرَأى النَّصَارَى الزِّيَادَة فِي جَيش الْمُسلمين مَعَ مَا نالهم من أول اللَّيْل من الْهَزِيمَة وَالْقَتْل وَأخذ الْعدة داخلهم الرعب وَاشْتَدَّ خوفهم فَأخذُوا فِي الإرتحال عَنْهُم فَخرج إِلَيْهِم الْمُسلمُونَ فقاتلوهم قتالا شَدِيدا فَانْهَزَمَ النصاري وَتركُوا كثيرا من أخبيتهم وأمتعتهم وأطعمتهم وَآلَة حربهم وَتركُوا من الدَّقِيق شَيْئا كثيرا فاحتوى الْمُسلمُونَ على جَمِيع ذَلِك كُله وَانْصَرف الْعَدو مهزوما مفلولا إِلَى بَلَده ففرح الْمُسلمُونَ بذلك فَرحا عَظِيما وَكَانَ ذَلِك فِي السَّابِع وَالْعِشْرين من جُمَادَى الأولى من عَام سَبْعَة وَثَمَانِينَ وثمان مئة)[1].

أما الرواية النصرانية فذكرت أن الملك القشتالي غادر قرطبة في نهاية حزيران وحط رحاله حول مدينة الأقصى(لوشنكا — لوشة) ووزع قواته على شاطىء نهر أكزنيل(شنيل) وبين حقول الزيتون ولكن صعوبة الأرض التي تتخلخلها الوديان العميقة جعل تلك القوات منفصلة لا يمكن معونة بعضهم البعض ، وكانت الأقصى(لوشة) تحت زعامة الشيخ العجوز أبو علي العطار وهو في التسعين من عمره ولكنه كان شاب الروح والحركة ، فعمل على مهاجمة فرسان اسبانيا الذين اندفعوا للقائه ففر أمامهم بعد وضع كمين لهم ، فلما ابتعدوا عن مخيمهم كرّ راجعاً عليهم وخرج الكمين مما أوقع بهم خسائر كبيرة مقتل بعض قادتهم وقد أدرك الملك القشتالي خطأ موقعه ، فقرر الانسحاب لحين وصول تعزيزات أخرى له من قرطبة ، وفي هذا الأثناء انتهز علي العطار الفرصة فهاجم الجيش المنسحب مما أشاع الذعر والفوضى بين صفوفه وكاد الملك أن يحاصر بسبب شدة ضربات الجند المسلمين الذين استولوا على العديد من قطع المدفعية التي تركها الجيش القشتالي في المعركة ، واستمر علي العطار يتعقبهم حتى أبعدهم عن لوشة[2].

وفي صفر من سنة٨٨٨هـ/١٤٨٣م استطاع السلطان أبو الحسن هزيمة النصارى في موقعة

---

١) نبذة العصر، ٥٧ -٦٠ ؛ ينظر أيضاً : المقري، نفح الطيب، ٥١٤/٤.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٩ -١٠٣.

مالقة وقتل وأسر أعداداً كبيرة منهم[1] ، وكان صدى هذا النصر كبيراً وارتفعت شعبية السلطان أبو الحسن بين الناس فيما عيب على أبي عبد الله الصغير خنوعه ، لهذا قرر الأخير القيام بعمل ضد النصارى يعيد إليه شعبيته ، وذلك لأن مكانة أي حاكم آنذاك تقاس بمدى انتصاره على النصارى وصد هجماتهم[2].

وفي ربيع الثاني من سنة٨٨٨هـ/١٤٨٣ م أُسر الأمير أبو عبدالله الصغير أمير غرناطة ، ونحن هنا أيضاً أمام روايتين إسلامية ونصرانية ، والرواية الإسلامية مقتضبة وخالية من التفاصيل فيما أسهبت الرواية النصرانية مبتهجة بتحقيق النصر ، وملخص الرواية الإسلامية أن الأمير أبا عبد الله الصغير خرج بأهل غرناطة وهاجم مناطق النصارى ورجع محملاً بالغنائم وعندما وصل بجيشه إلى اللسانة[3] خرج عليهم كمين من النصارى فانهزم المسلمون وتبعهم النصارى قتلاً وأسراً وكان من بين الأسرى الأمير نفسه ولم يعرفوه إلا بعد ذلك فحملوه إلى ملك قشتالة الذي أكرمه وعظمه ورأى أنه سيصل به إلى ما يأمله من أخذ بلاد الأندلس ، وأضاف صاحب الرواية أن(أشنع مَا كَانَ فِيهَا—أي معركة اللسانة– أسر الْأَمِير أبي عبدالله مُحَمَّد بن عَليّ لِأَنَّهُ كَانَ سَببا فِي هَلَاك الوطن)[4].

أما الرواية النصرانية والتي يرويها رجل الدين المتعصب آغابيدا فذكرت أن الأمير أبا عبد الله الصغير كان صهراً لأبي علي العطار قائد لوشة ، فاتصل به وأعلمه ضرورة القيام بعمل يوازي ما حققه والده في مالقة ، فقال له صهره علي العطار أن العدو في حالة ضعف بسبب الهزائم التي مني بها أمام لوشة ثم مالقة لذا فإن الأبواب مفتوحة أمامهم حتى قرطبة ، فشكل الأمير قوة من سبعمائة فارس وتسعة آلاف راجل وعندما وصل إلى لوشة انضمت إليه قوة من فرسان صهره علي العطار ثم انطلقت القوات مخترقة الحدود من بلاد النصارى ففوجئوا باستعدادات عدوهم الكاملة وجرت معركة حامية بين الوديان والشعاب تلقى خلالها الجيش القشتالي المزيد من الإمدادات مما اضطر الجيش الإسلامي

---

١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٢ -٦٥ ؛ المقري، نفح الطيب، ٥١٤/٤.
٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ١٢٠.
٣) اللسانة وهو حصن يقع بالقرب من كورة قبرة، ينظر : ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٣/١.
٤) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٥ -٦٧ ؛ ينظر أيضاً : المقري، نفح الطيب، ٥١٥/٤.

إلى الانسحاب المنظم إلا أنهم عند شاطئ أحد الأنهار وكان الماء فيه يجري بقوة ففر المشاة وبقي الأمير أبو عبد الله مع قلة من فرسانه يقاتلون ثم أحاط به الجنود النصارى وهم لا يعرفونه فعرض عليهم مبلغاً من المال لقاء ولكن أحدهم أراد إمساكه فقتله الأمير عندها جاء أحد قادة الجيش القشتالي فقال له أحد الجنود نحن نريد أن نأسر عربياً يبدو أنه ذو منصب عال وهو يعرض علينا فدية ، فقال الأمير: أنا استسلم لهذا الفارس ، فنقلوه إلى الخلف واستمر الجيش القشتالي يضغط والجيش الإسلامي يتراجع فوضوياً حتى وصلوا إلى نهر شنيل عند مدينة الأقصى(لوشة) ، عندها وقف الشيخ علي العطار على حدود النهر يدافع عنها وعن مدينته لوشة وبسبب تدافع الجند النصارى وانسحاب المشاة المسلمين فقد جرح الشيخ علي العطار فعرضوا عليه الاستسلام فرفض فتلقى ضربة ألقته في النهر واختفت جثته مع التيار ، وهكذا بأسر الأمير أبا عبد الله الصغير ومقتل القائد علي العطار فقد الجيش الإسلامي كل حماسة فكانوا بين منهزم وقتيل وغريق وأسير[1].

استغل الملك القشتالي حالة الفوضى التي حلت في صفوف المسلمين وحالة الزهو التي تمتع بها جيشه فهاجم العديد من الحصون والمدن المحيطة بغرناطة ، ففي الغرب استولى على حصن قرطمة ودكوين سنة٨٩٠هـ/١٤٨٥ م ، وفي السنة نفسها استولى على رندة Ronda ثم حصن قنبيل وما جاوره من الحصون[2].

وكان الأمير أبو الحسن قد طعن في السن وأعياه المرض فتنازل لأخيه أبي عبدالله الزغل حاكم مالقة[3] ، وفي محاولة من ملكي قشتالة تعميق الانشقاق بين أقطاب السلطة في غرناطة أفرجا بعد ذلك عن أبي عبدالله الصغير بعد أن أخذا عليه المواثيق بتبعيته لهم مع جزية سنوية[4].

وعندما أُطلق سراح أبي عبدالله الصغير كان عمّه أبو عبدالله الزغل يُحكم سيطرته على غرناطة ويطمع بالسيطرة على جميع ما تبقى من الأندلس لنفسه ، فعمد الصغير إلى

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ١٢٠ -١٣١.
٢) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٨، ٧٠، ٧٥.
٣) المقري، نفح الطيب، ٥١٥/٤.
٤) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٦ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ١٣٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٤/٥ -٢٠٥.

التوجه إلى شرق الأندلس ودخل حصن بلش Velez بمساعدة قوة من النصارى وأعلن نفسه ملكاً ، وأخذ يبث دعوته ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود مع ملكي قشتالة ، وأنه يضمن للمسلمين الاستقرار والسلم ، وأنه يُطبق في سائر الأنحاء التي تدخل في طاعته(١) ،وقد علّق مؤلف مجهول المعاصر للأحداث على ذلك بقوله: (استولى العَدو على حصن صَالحَة من حصون بلش ثمَّ إِن العَدو دمره الله سرح اَلّأمير اَبا عبدالله مُحَمَّد بن عَليّ إِلَى بعض حصون الشرقية ووعده بالصُلح إِن أطاعه الشّعب فَقَامَتْ بدعوته تِلكَ اَلحُصُون طَمَعاً بِالصُلحِ وبالبقاء فِي اَلحُصُون)(٢).

وهكذا أصبح لغرناطة حاكمين من بني الأحمر استقر أبو عبدالله الصغير في المناطق الشرقية ، فيما يحكم عمّه أبو عبد الله الزغل غرناطة ومالقة والمرية Almeria(٣) ، وفيما كانت نار الفتنة قائمة بين الخصمين كانت جيوش قشتالة قد استولت على العديد من المدن والحصون وأخذت تُضيّق الخناق على غرناطة(٤).

وأشار مؤلف مجهول إلى أن صلحاً وقع بين الأمير أبي عبد الله الصغير وعمّه أبي عبد الله الصغير على أن يسلم إلى عمّه الحكم ويكون هو تابع له وأرسل إلى أنصاره في غرناطة يعلمهم بالصلح مع عمّه وغادر حصون الشرقية إلى لوشة وذلك جماد الأولى سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦ م(٥) ، وأشار المقري إلى الصلح قائلاً :(بأن العمّ يكون له الملك ، وابن أخيه تحت إيالته بلوشة أو بأي المواضع أحب ، ويكونون يداً واحدة على عدو الدين)(٦).

وما كاد الأمير أبو عبد الله الصغير يستقر في لوشة حتى جاء الملك القشتالي بجيش عظيم وضرب عليها الحصار ، وهنا انقسمت الرواية الإسلامية على وجهين ، فمؤلف مجهول الذي كان معاصراً للأحداث أشار إلى أن أهالي لوشة عندما حصل بينهم الأمير أبو عبدالله الصغير وحاصرهم الملك القشتالي تحصنوا وقاتلوا مع أميرهم فلما رأوا أن لا

١) المقري، نفح الطيب، ٥١٦/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٨/٥.
٢) نبذة العصر، ص ٧٦.
٣) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٩/٥
٤) ينظر التفاصيل : مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٩ – ٨٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٣/٥ -٢١٤.
٥) نبذة العصر، ص ٧٧ -٧٨.
٦) نفح الطيب، ٥١٧/٥.

طاقة لهم بالعدو طلبوا الأمان(وَاتَّفَقُوا على أَن يخرجُوا مُؤمَنين بِأَمْوَالهِمْ وَأَوْلَادهمْ وخيلهم وسلاحهم ودوابهم وَجَمِيع مَا يقدرُونَ على حمله ، فأجابهم الْعَدو لذَلِك ووفى لَهُم بِهِ فَأخذُوا فِي إخلاء الْبِلَاد ووصلوا إِلَى غرناطة بِمَا مَعَهم ، وَكَانَ اسْتِيلَاء الْعَدو على مَدِينَة لوشة فِي السَّادِس وَالْعشْرين من جُمَادَى الأولى من عَام إِحْدَى وَتِسْعين وثمان مئة ، وَلم يسرح صَاحب قشتالة الْأَمِير مُحَمَّد بن عَليّ بل حَبسه عِنْده ليستأصل بِهِ بَقِيَّة الأندلس)[1] ، وحسب هذه الرواية فإن الأمير أبا عبدالله الصغير أسر للمرة الثانية في لوشة.

فيما ذكر المقري رواية تتهم فيها الأمير أبو عبد الله الصغير بالتواطؤ مع ملك قشتالة لتسليم لوشة ، إذ قال: (... ، وبينما هم كذلك ، إذا بصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم ومحلة قوية وعدد وعُدد ، ونازل لوشة حيث السلطان أبو عبدالله الذي كان أسيراً ، وضيق بها الحصار ، وكان قد دخلها جماعة من أهل البيازين بنية الجهاد ولمعاضدة وليهم ، وخاف أهل غرناطة وسواها من أن يكون ذلك حيلة ، فلم يأت لنصرته غير البيازين ، واشتد عليهم الحصار ، وكثرت الأقاويل ، وصرحت الألسن بأن ذلك باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة ، ودخل على أهل لوشة في ربضهم ، وخافوا من الاستئصال ، فطلبوا الأمان في أموالهم وأنفسهم وأهليهم ، فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك ، وأخذ البلد في السادس والعشرين لجمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة ،... ، وهاجر أهل لوشة إلى غرناطة ، وبقي السلطان أبو عبدالله الذي كان مأسوراً مع النصراني في لوشة ، فصرح عند ذلك أهل غرناطة بأنه ماجاء للوشة إلاّ ليُدخل إليها العدو الكافر ، ويجعلها فداءً له ، وقيل: إنه سرح له حينئذ ابنه إذ كان مرهوناً في الفداء ، وكثر القيل والقال بينهم وبين أهل البيازين في ذلك ، وظهر ماكان كامناً في القلوب ، ثم رجع صاحب قشتالة إلى بلاده ومعه السلطان المذكور)[2].

أما الرواية النصرانية فلا تختلف كثيراً في مضمونها عن رواية صاحب نبذة العصر إلاّ أنها أكثر تفصيلاً ، فأشارت إلى أنه عندما حاصر الملك القشتالي لوشة كان أبو عبدالله الصغير فيها ، وقد وقع في ورطة في موقفه بين رعيته التي تطالبه بالدفاع عن مدينتهم لوشة وبين تعهداته لملك قشتالة بأن يكون خاضعاً له ، ثم اختار المقاومة ومقاتلة النصارى ، فلبس

---

١) نبذة العصر، ص ٧٩ –٨٠.

٢) نفح الطيب، ٥١٧/٤ –٥١٨.

درعه وانطلق يقاتل مع أربعمائة فارس وأربعة آلاف رجل بكل شجاعة حتى وصل إلى الصفوف الأمامية فأصيب بجروح مما اضطر للانسحاب جريحاً إلى داخل مدينة لوشة ، ومع ذلك لم يتغير الموقف فقد استمر المقاتلون المسلمون يقاتلون بكل ضراوة وسقطت الدماء من الطرفين لأن الجميع يدرك أهمية لوشة ومحيطها بالنسبة لغرناطة ، وفي هذا الأثناء جاءت تعزيزات إلى الجانب النصراني متمثلة بقوات انكليزية ، فاختلطت العمائم بالخوذ الصليبية بصراع عنيف يداً بيد ، إلاّ أن الكفة بدأت تميل لصالح الجيش النصراني بسبب فقدان المسلمين للعديد من قادتهم مما اضطرهم لنقل القتال إلى داخل المدينة بين بيوتها وشوارعها ، عندها دخل الجيش النصراني إلى ضواحي لوشة بمساندة وقوة الجيش الانكليزي الذي جرح قائده وهو ولي العرش في المعركة ، ثم عملوا على نصب المدفعية في ضواحي لوشة وأخذوا يطلقون نيرانها على أحياء المدينة ، وقد وصفت الرواية النصرانية حالة أهالي لوشة آنذاك بالقول: (... ، وفي لحظات مثل هذا اليأس كان الكثير من العرب يخرجون من الأسوار نحو ضواحي المدينة ، ويهاجمون النصارى بالعصي والفؤوس والسيوف والهراوات عسى أن يبعدوهم عن مراكز الضرب والتهديم للمدينة بدون أي مخطط أو تفكير على أمل أنه إذا مات المهاجم هكذا فعوضه الجنة بدل أن ينفق تحت الهدم والردم ، واستمر هذا المشهد لمدة يومين بليلتيهما ، دفعت أهل الحل والعقد في المدينة إلى الشعور باستحالة وعبثية المقاومة ، فملكهم عاجز ، ومعظم قادة جيشهم بين جريح أو قتيل ، وحصونهم لا تزيد عن أنها صارت أنقاضاً ، فمثلما دفعوا بأبي عبد الله أن يدافع ويهاجم صاروا الآن يدفعونه للتسليم)[1].

وكانت شروط تسليم مدينة لوشة حسب الرواية النصرانية هي:

١- تسليم المدينة مع كل النصارى الأسرى فيها.

٢- إخلاؤها من السكان الذين يمكنهم أخذ ما يقدرون على حملة نحو إفريقية ، والذي يختار منهم أن يبقى في اسبانيا عليه أن يبقى في مدن محددة مثل: قشتالة وأراغون وبلنسيةValencia ، على أن يكون خولا للملك فرناند الذي يستطيع أن يعامله كيف يشاء ولا عهد له عليه ولا ذمة.

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢١٢ -٢١٧.

٣- أما الأمير أبو عبد الله الصغير فلن يحاسب على نكثه بقسمه السابق أمام الملك إذا سلم كل سلطنة غرناطة للملك ، شرط أن تسلم هذه المملكة خالية من سيطرة الزغل[١].

وقد علق إيرفنغ على هذه الشروط قائلاً :(وهكذا خرج محاربو هذا الحصن الشامخ نحو ذل الاستسلام الذي كانوا يرفضونه كل هذه المدة الطويلة بشرف وأباء ، وهم يشيعون بصراخ حريمهم وأطفالهم المتجهين نحو المنفى خارج بلادهم)[٢] ، وهكذا سقطت المدينة بيد ملك قشتالة مدعوماً بقوات انكليزية صليبية في٢٦ جماد الأولى سنة ٨٩١هـ/مايو ١٤٨٦ م ، بعد أن حكمها المسلمون مدة٧٩٩ سنة.

وقد علق عنان على موقف الأمير أبي عبدالله الصغير بقوله: إننا نرى على ضوء الرواية الإسلامية ، أن موقف أبي عبدالله من حوادث لوشة ، كان موقفاً مريباً ، والواقع أنه كان يبذل جل جهده للدعوة إلى قضيته ، وإلى مقاومة عمّه ونزعه عن العرش ، وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه ، ولم يكن خافياً أنه يستظل بمظاهرة النصارى وتأييدهم ، وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه ، ولما غادر ملك قشتالة مدينة لوشة أخذ معه أبا عبدالله إما أسيراً أو أنه سار معه ليستمد عونه في تنفيذ خطته للاستيلاء على عرش غرناطة ، وهي خطة يؤيدها ملك قشتالة ويشجعها ، لأنها تخدم أغراضه ومطامعه في القضاء على تلك المملكة الصغيرة التي مزقتها الحرب الأهلية[٣].

ونحن نرى أن ذهاب الأمير أبي عبدالله الصغير إلى لوشة يثير بعض الشكوك ، صحيح أن لوشة مقر أصهاره ، إلا أن توقيت ذهابه إليها بعد اتفاقه مع عمّه ثم محاصرة الملك القشتالي لها ربما أراد منها ثمن فداء لابنه الذي كان رهينة في قشتالة منذ أن أُفرج عنه.

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢١٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٠/٥.

٢) أخبار سقوط غرناطة، ص ٢١٧.

٣) دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٠/٥.

مدينة مالقة Malaga الأندلسية

(٩٢ - ٨٩٢ هـ / ٧١٠ - ١٤٧٨م)

وهي مدينة أندلسية تقع على ساحل البحر المتوسط[١] المقابل لبر العدوة[٢] ، وأصل لفظها أعجمي[٣] ، وهي مدينة قديمة ضمن كورة ريّة[٤] ، وقيل إن مالقة وأعمالها هي كورة رية[٥] ، وتقع بين إشبيلية وغرناطة على بحر الزقاق[٦] ، وصفها الإدريسي بقوله: (ومدينة مالقة مدينة حسنة حصينة ويعلوها جبل يسمى جبل فاره ولها قصبة منيعة وربضان لا أسوار لهما وبهما فنادق وحمامات وبها من شجر التين ما ليس بأرض وهو التين المنسوب إلى رية ومالقة قاعدة رية)[٧] ، كما وصفها الحميري بالقول: (مدينة على شاطئ البحر ، عليها سور صخر ، والبحر في قبليها ، وهي حسنة عامرة آهلة كثيرة الديار ، وفيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها ، وهو يحمل إلى مصر والشام والعراق وربما وصل إلى الهند ، وهو من أحسن التين طيباً وعذوبة ، ولها ربضان كبيران ، وشرب أهلها من الآبار ، ولها واد يجري في زمان الشتاء وليس بدائم الجري ، وهي من تأسيس الأول)[٨].

أما المسافات بينها وبين ما جاورها من مدن الأندلس ، فبينها وبين قرطبة شمالاً مائة

---

١) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٥ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٢٦٦ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٧.

٢) البكري، المسالك والممالك، ٧٦٣/٢ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٨١/٢.

٣) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٥.

٤) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٥ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٥٥ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٢٢.

٥) المراكشي، المعجب، ص ٣١.

٦) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٤٢٢/١.

٧) نزهة المشتاق، ٥٧٠/٢.

٨) الروض المعطار، ص ٥١٧.

ميل ، ومنها إلى المنكب ثمانون ميلاً ، ومنها إلى غرناطة ثمانون ميلاً ، ومنها إلى الجزيرة الخضراء مائة ميل ، ومنها إلى إشبيلية خمس مراحل ، ومنها إلى مربلة أربعون ميلاً[1] ، ومنها إلى أرشذونة ثمانية وعشرون ميلاً[2].

أما فتحها فكان أثناء فتح المسلمين لكورة البيرة ، فعندما تمكن طارق بن زياد من هزيمة ملك القوط الغربيين Viaigoths لوذريق في معركة وادي لكة Rio Cuadalete في شوال من سنة٩٢هـ/٧١٠م اتجه إلى مدينة إستجة Ecija التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي ، وبعد هزيمتهم قرر التقدم والزحف مباشرة إلى طليطلة Tolodoعاصمة القوط الغربيين ، وقبل أن يشرع أرسل فرقاً من جيشه لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط وهي: قرطبة والبيرة ومالقة Malaga وتدمير Tudmir[3].

أما بالنسبة للجيش المتجه نحو البيرة فتمكنوا من فتح مدينتها ثم فتحوا غرناطة Granada ثم مضوا إلى تدمير[4] ، ثم فتح سائر الجيوش ما قصدوا إليه من البلاد[5] ، وأشار ابن عذاري إلى أن طارق بن زياد بعث إليها(من إستجة جيشاً ، وقوَّد عليه قائداً ، وجعل معه ودليلاً من رجال يليان ، فاستفتحها وجميع أعمال رية)[6] ، ويمكن القول إن ذلك كان في أواخر سنة ٩٢هـ/٧١٠م ، لأن معركة وادي لكة التي انهزم فيها القوط كما قال المقري: (كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام ،...)[7] ، وكان فتح قرطبة في شوال من السنة نفسها[8] ، ولما كان طارق في طليطلة أوائل سنة٩٣هـ/٧١١م[1] ، فهذا يعني أن

---

١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٠/٢.

٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٨.

٣) لمزيد من التفاصيل ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٤.٤١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١ -١٩.

٤) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٣.٢٢ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٦ ؛ الإحاطة، ١٩/١.

٥) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٤٤.

٦) البيان المغرب، ١١/٢.

٧) نفح الطيب، ٢٥٩/١ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٨/٢.

٨) ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢ -١٠ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.

١) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.

دخول مالقة في حكم المسلمين كان في المدة بين شوال وذي الحجة من سنة٩٢هـ/٧١٠م.

ويبدو أن كورة رية عاشت هادئة بعيدة عن الأحداث التي الكبيرة حتى منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ولعل ذلك راجع إلى قربها من قرطبة وقوة الدولة وحكامها آنذاك ، وبعد ثورة ابن حفصون في إقليم رية سنة٢٦٧هـ/٨٨٠م تمكن من بسط نفوذه على مناطق واسعة ومن ضمنها كورة رية[١] حتى تمكن عبدالرحمن الناصر من استرجاعها سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م[٢].

وبعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس ما يسمى بالفتنة[٣] في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وما تلاها من سقوط الخلافة الأموية سنة٤٢٢هـ / ١٠٣٠م بدأ عصر جديد في الأندلس أطلق عليه المؤرخون عصر دويلات الطوائفLos، Taifas (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) ، وهكذا انقسمت الأندلس إلى دويلات فكانت مدينة مالقة ضمن دولة بني حمود العلويين الذين تسلموا مالقة من واليها عامر بن فتوح الفائقي مولى الخليفة الحكم المستنصر ووزير ولده المؤيد وذلك سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م[٤] ، واستمر حكمهم بها حتى انتزعها منهم باديس بن حبوس الصنهاجي سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م[٥] وضمها إلى دولة بني مناد في غرناطة[٦] وكان عليها في آخر أيامهم تميم بن بلقين الصنهاجي حيث انتزعها منه المرابطون سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م[١] ، واستمرت مالقة تحكم من قبل المرابطين حتى دخول

---

١) ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٦/٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ١٦٨/٤

٢) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠هـ/٩١٢ -٩٤١م)، ص ٦٥ ؛ابن خلدون، العبر، ١٧٤/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٧٧/١.

٣) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م، ينظر : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٥/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.

٤) ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٤٦ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١٦/٣ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦٥٩/١.

٥) أشار ابن الأثير إلى أن باديس دخل مالقة سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م وانتهى فيها حكم الادارسة العلويين، ينظر : الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٨٦.

٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢١٨/٣، ٢٦٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٣٨/٢.

١) ابن بلقين، التبيان، ص ١٦٢ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢١٤/٢.

الموحدين إليها سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م[1].

ولكن اضطراب الأمور في أواخر أيام الدولة الموحدية أدى إلى قيام ثورات عديدة في الأندلس ولاسيما في وسط وشرق الأندلس ، وبقدر ما يتعلق الأمر بمدينة بمالقة فإن أشهرها تلك التي قادها محمد بن يوسف بن هود الجذامي ومحمد بن يوسف بن الأحمر ، وكان الأول قد ثار على الموحدين سنة٦٢٥هـ/١٢٢٧م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق وحاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي وغدا أكبر الثوار الذي سيوحد الأندلس على يديه[2] ، أما الثاني فدعا لنفسه وبويع أولاً في أرجونة موطن أسرته وأنصاره وفي المناطق القريبة منها وذلك سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م[3] ، ومن أرجونة أخذ ابن الأحمر يوسع نفوذه ، ففي سنة٦٣٠هـ/١٢٣٢م تمكن من الدخول إلى مدينة جيان وقرطبة وبعض مناطق غرب الأندلس[4] ثم أطاعته أهالي مدينتي بسطة ووادي آش[5] ، وبعد مواجهات بين ابن الأحمر وابن هود[6] انحسر نفوذ الأخير وتمكن ابن الأحمر من دخول غرناطة سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م واتخذها قاعدة لملكه[7] ، عندها أرسل أهل مالقة وفداً إلى غرناطة وذلك سنة٦٣٦هـ/١٢٣٨م ودخلوا في طاعته[8].

شهدت المرحلة الأخيرة من حياة سلطنة غرناطة(٨٦٨-٨٩٧هـ/١٤٦٣-١٤٩١م) استفحال الصراع الأسري بين حكام بني الأحمر حتى صفت إلى السلطان أبي الحسن علي بن سعد بن الأحمر الذي طال حكمه للمدة(٨٦٨-٨٨٧هـ/١٤٦٣-١٤٨٢م) ، وقد شهدت الأيام الأخيرة من عهده اضطراب أمور دولته ، إذ(اشّتغل باللذات والإنهماك فِي الشّهَوَات وَاللَّهْو

---

١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٣١/٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٦/٣.

٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢ ؛ ينظر أيضاً : الإحاطة، ٧٦/٢.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٦.

٤) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ -٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣١ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣٩٥/٦ -٣٩٦.

٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٥/٤.

٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٦.

٧) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٢ -٣٤٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٧/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٠/٤.

٨) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٩.

بِالنسَاء المطربات وركن إِلَى الرَّاحَة والغفلات وضيع اَلْجند وَأَسْقط كثيرا من نجدة الفرسان وَثقل المغارم وَكثر الضرائب فِي اَلْبلدَان ومكس اَلْأَسْوَاق وَنهب اَلْأَمْوَال وشح بالعطاء إِلَى غير ذَلك من اَلْأُمُور الَّتِي لَا يثبت مَعهَا اَلْملك)[1].

وفِي المقابل شهدت العلاقات بين مملكتي قشتالة وأراغون تطوراً مهماً كان له أسوأ الأثر على مستقبل مسلمي الأندلس ، ففي سنة٨٧٤هـ/١٤٦٩م تزوجت إيزابيلا بنت خوان الثاني ملك قشتالة وأخت الملك هنري الرابع(٨٥٩-٨٧٩هـ/١٤٥٤-١٤٧٤م) من فرناندو بن خوان الثاني ملك أراغون(٨٦٣-٨٨٤هـ/١٤٥٨-١٤٧٩م) ، وعندما توفي هنري الرابع بدون وريث للعرش توجت أخته إيزابيلا لعرش قشتالة ، كما ورث فرناندو الأرغوني أباه عند وفاته ، فكان ثمرة ذلك الزواج أن اتحدت المملكتان قشتالة وأراغون[2] ، ولُقبا بالملكين الكاثوليكيين[3].

ثم حصل تطور خطير على الساحة السياسية في غرناطة هو الفرقة التي حدثت بين السلطان أبي الحسن وولديه أبي عبد الله محمد(الصغير) وأبي الحجاج يوسف ، ويرجع سبب ذلك إلى أن السلطان كان قد تزوج من ابنة عمّه عائشة الحرة[4] فأولدها ولديه أعلاه ، ثم تزوج من فتاة نصرانية تدعى ثريا[5] وأولدها ابنيه سعد ونصر فأوغرت صدره على ولديه من عائشة فاعتقلهما مع أمّهما إلا أنهما تمكنا من الفرار والتغلب على السلطة في غرناطة وتربع أبو عبد الله الصغير على عرش غرناطة أواخر سنة٨٨٧هـ/١٤٨٢ م ، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها في لوشة للدفاع عنها ، إلا أنه اضطر إلى تجميع أنصاره

---

١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٤٥.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٨٢/٥ ؛ الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٩.

٣) الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٩.

٤) وهي عائشة بنت الأمير محمد الأيسر ابنة عمّ السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري تزوجها سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م وتوفيت في حدود سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩١م، ينظر: الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ١٩٣-١٩٦.

٥) وهي جارية رومية كان اسمها إيزابيلا أخذت أسيرة في إحدى المعارك وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فاعتنقت الإسلام وتسمت بثريا وكانت حسناء فتعلق بها السلطان وتزوجها وأولدها اثنين هما سعد ونصر، وبعد سقوط غرناطة لم تغادر الأندلس فقد تنصرت هي وولديها، ينظر : الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ٩٠ -٩١، وذكر إيرفنغ أن اسمها فاطمة ولقبها الزوراء وهي مسيحية بالولادة ابنة القائد سانشو أكزيمنس دي سولي، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٦.

مكوناً منهم قوة بلغت خمسمائة شخص زحف بها نحو مدينة غرناطة حيث ابنه أبو عبد الله الصغير ، وتمكن مع رجاله من تسلق أسوار مدينة غرناطة وخاض معركة عنيفة مع أنصار ابنه قتل فيها الكثير من أتباعه مما اضطره إلى التراجع والهرب إلى مالقة حيث أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل[1].

وقد اغتنم النصارى ذلك الانقسام الذي تزامن مع انقضاء مدة الهدنة التي عقدها السلطان مع قشتالة بمهاجمة أراضي سلطنة غرناطة فاستولوا على مدينة الحمة وذلك سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م[2] ، ثم قام الملك القشتالي بمهاجمة مدينة لوشة القريبة من الحمة إذ أن هاتين المدينتين تمهدان الطريق إلى غرناطة ، ولكن السلطان أبو الحسن تمكن من هزيمة القوات القشتالية[3].

عندها قرر الملك القشتالي الانتقام من الأمير أبي الحسن ومهاجمة مالقة والاستيلاء عليها ثم لتطويق الأندلس من الجنوب[4] ، وكان في مالقة أخ الأمير أبي الحسن وهو محمد بن سعد الزغل الذي أخذ يستعد للدفاع عنها ، وفي صفر من سنة٨٨٨هـ/١٤٨٣م هاجمت قوات قشتالة مدينة مالقة فكمن لهم المسلمون في الطريق وأثاروا الرعب في نفوسهم ثم خرج لهم الأمير الزغل(فلقي النَّصَارَى من ناحيته فَقتل وَأسر منْهُم أَيْضا خلقا كثيراً وولوا الأدبار وَأسر منْهُم مَا ينيف على ألفي أَسِير فيهم جمَاعَة من قوادهم وأقنادهم وهرب باقيهم وَتركُوا خيلهم ودوابهم ورحالهم وأمتعتهم فاحتوى على ذَلِك كُله الْمُسلمُونَ وَحَمَلُوهُ إِلَى مَدِينَة مالقة فجمعوه بهَا على أَن يقسموه على كل من حضر)[1].

وكان صدى هذا النصر كبيراً وارتفعت شعبية السلطان أبو الحسن وأخوه الزغل بين الناس فيما عيب على أبي عبدالله الصغير خنوعه ، لهذا قرر الأخير القيام بعمل ضد

---

١) المقري، نفح الطيب، ٥١٤/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٢/٥.

٢) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٥٤ -٥٦ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٩.

٣) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ٥٧ -٦٠ ؛ ينظر أيضاً : المقري، نفح الطيب، ٥١٤/٤ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٩ -١٠٣.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٣/٥.

١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٣ -٦٤.

النصارى يعيد إليه شعبيته ، وذلك لأن مكانة أي حاكم آنذاك تقاس بمدى انتصاره على النصارى وصد هجماتهم[1] ، فخرج الأمير أبو عبدالله الصغير بأهل غرناطة وهاجم مناطق النصارى ورجع محملاً بالغنائم وعندما وصل بجيشه إلى اللسانة[2] خرج عليهم كمين من النصارى فانهزم المسلمون وتبعهم النصارى قتلاً وأسراً وكان من بين الأسرى الأمير وقد استغل الملك القشتالي حالة الفوضى التي حلت في صفوف المسلمين وحالة الزهو التي تمتع بها جيشه فهاجم العديد من الحصون والمدن المحيطة بغرناطة ، ففي الغرب استولى على حصن قرطمة ودكوين سنة٨٩٠هـ/١٤٨٥م ، وفي السنة نفسها استولى على رندة Ronda ثم حصن قنبيل وما جاوره من الحصون[4].

وكان الأمير أبو الحسن قد طعن في السن وأعياه المرض فتنازل لأخيه أبي عبدالله الزغل حاكم مالقة[5] ، وفي محاولة من ملكي قشتالة تعميق الانشقاق بين أقطاب السلطة في غرناطة أفرجا بعد ذلك عن أبي عبدالله الصغير بعد أن أخذا عليه المواثيق بتبعيته لهم مع جزية سنوية[6] ، وهكذا أصبح لغرناطة حاكمين من بني الأحمر استقر أبو عبدالله الصغير في المناطق الشرقية ، فيما يحكم عمّه أبو عبدالله الزغل غرناطة ومالقة والمرية Almeria[1] ، وفيما كانت نار الفتنة قائمة بين الخصمين كانت جيوش قشتالة قد استولت على العديد من المدن والحصون وأخذت تُضيّق الخناق على غرناطة[2] ، ففي جماد الأولى سنة٨٩١هـ/

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ١٢٠.

٢) اللسانة وهو حصن يقع بالقرب من كورة قبرة، ينظر : ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٣/١.

٣) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٥ -٦٧ ؛ المقري، نفح الطيب، ٥١٥/٤ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ١٢٠ -١٣١.

٤) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٨، ٧٠، ٧٥.

٥) المقري، نفح الطيب، ٥١٥/٤.

٦) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٦ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ١٣٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٤/٥ -٢٠٥.

١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٩/٥

٢) ينظر التفاصيل : مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٩ – ٨٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٣/٥ -٢١٤.

١٤٨٦م تمكنوا من السيطرة على لوشة وأسروا فيها للمرة الثانية الأمير أبي عبدالله الصغير[١].

ومن أجل إذكاء نار الفتنة بين قطبي الصراع على الحكم في غرناطة بين أبي عبدالله الصغير وعمه أبي عبد الله الزغل ، وبينما كان الأخير في غرناطة ، أطلق الملك القشتالي أبا عبد الله الصغير وأمده بقوة استطاع خلالها إزاحة عمه وخلال الصراع بين الجانبين داخل غرناطة استغل الملك القشتالي الفرصة وأرسل بقواته نحو حصن بلش مالقة Vélez Malaga والذي يعد خط الدفاع الأول عن مالقة وسقوطه يعرض مالقة للخطر[٢] ، وأدرك الزغل ذلك فخرج مع بعض قواته للدفاع عن الحصن وترك البعض الآخر يصارع ابن أخيه في غرناطة ، إلا أنه لم يتمكن من إنقاذ الحصن فسقط بيد النصارى وذلك في ربيع الآخر من سنة٨٩٢هـ /١٤٨٦م ، وقد علق مؤلف مجهول على ذلك بقوله: (فَلَمَّا كَانَ النّصْف من شهر ربيع الثَّانِي عَام اثْنَيْنِ وَتِسْعين وثمان مئة خرج الطاغية بمحلته إِلَى أَرض الْمُسلمين قَاصدا مَدِينَة بلش مالقة وَكَانَت على ذمَّة أَمِير غرناطة فنزلها فَلَمَّا سمع ملك غرناطة بنزوله على مَدِينَة بلش ندب أهل غرناطة وَمن أطاعه من أهل تِلْكَ الْجِهَات وَترك طَائِفَة تقَاتل أهل البيازين وَخرج يُرِيد نصْرَة أهل بلش وَذَلِكَ يَوْم السبت الرَّابِع وَالْعِشْرين لربيع الثَّانِي من عَام التَّارِيخ الْمَذْكُور قبل فَلَمَّا سَار قَرِيبا مِنْهَا وجد الْعَدو قد سبقه بالنزول عَلَيْهَا وَدَار بهَا من كل الْجِهَات... فَبَيْنَمَا هم سائرون إِذْ قَامَت كرة ودهشة فَانْهَزَمُوا فِي ظلام اللَّيْل من غير لقَاء عَدو وَلَا قتال فَرَجَعُوا منهزمين مفلولين إِلَى محلتهم فَبَاتُوا ليلتهم تِلْكَ وَفِي الْغَد أَتَاهُم الْخَبَر أَن الْعَدو استخلص مَدِينَة بلش فَسقط فِي أَيْدِيهِم وانهزموا من غير قتال وَرجع كل وَاحِد مِنْهُم إِلَى وَطنه)[١] ، وعندما أراد الزغل الرجوع إلى غرناطة وصله خبر انهزام جنده فيها وسيطرة ابن أخيه أبي عبد الله الصغير عليها مما اضطره التوجه إلى وادي آش[٢].

وأشار إيرفنغ[٣] إلى أن الملك القشتالي وضع شروطاً مقبولة لاستسلام حصن مالقة

---

١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٩ -٨٠ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢١٢ -٢١٧.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٣/٥.

١) نبذة العصر، ص ٨٩ -٩٠.

٢) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٠ -٩١.

٣) استقى إيرفنغ معظم معلوماته من مخطوطة لمؤلف نصراني معاصر للأحداث يدعى أنطونيو=

فسمح للسكان بمغادرتها مع أغراضهم أو أن يبقوا في أي مكان من قشتالة كل ذلك لأنه كان متشوقاً للوصول إلى مالقة ، وأضاف إلى أنه تبع سقوط حصن بلش مالقة أن أرسل حوالي أربعين مدينة من مدن البشارات طاعتهم للملك القشتالي(١).

كان تركيز الملك القشتالي على مالقة كونها عقدة الوصل الأخيرة بين الأندلس والمغرب لاسيما بعد سقوط جبل طارق فحرص للاستيلاء عليها من أجل قطع الإمدادات التي تصل الأندلس من المغرب(٢).

وفي جمادي الثانية من سنة٨٩٢هـ/يونيو ١٤٨٦م أرسل الملك القشتالي قواته لمحاصرة مدينة مالقة من البر والبحر ، وكانت مالقة آنذاك تابعة للأمير الزغل الذي كان في وادي آش فلم يتمكن من إنجادها خوفاً من ابن أخيه ، وحسب الرواية النصرانية فإن الملك القشتالي أرسل إلى حامد الذعري قائد المدافعين عن مالقة ومن الموالين للأمير الزغل يطلب منه التخلي عن مالقة مقابل أن يعطيه مدينة كوين له ولسلالته كما عرض عليه وعلى أنصاره الأموال لقاء ذلك إلا أن القائد المسلم حامد الذعري رفض ذلك ، فأرسل إليه أن المقاومة تعني اقتحام المدينة والعبودية لكل سكانها(٣).

وهكذا بدأ الحصار الشامل على مالقة من البر والبحر وذلك في شعبان من سنة٨٩٢هـ /١٤٨٦ م حسب رواية صاحب نبذة العصر إذ وصف سقوط مالقة بقوله: (فَلَمَّا استخلص الْعَدو مَدينَة بلش سَار بمحلته نَحْو مَدينَة مالقة فَنزل عَلَيْهَا وقاتلها قتالا شَديدا وحاصرها حصاراً عَظِيما لم ير مثله وأحاط بهَا من كل جَانب وَمَكَان برا وبحرا فتحصن أهل مالقة ببلدهم وأظهروا مَا كَانَ عِنْدهم وَمَعَهُمْ من السِّلَاح وَالْعدة والأنفاط وَكَانَ فيهم جملَة من نجدة الفرسان فَقَاتلُوا الرّوم قتالاً شَديداً وَقتلُوا مِنْهُم خلقا كثيراً حَتَّى إِنَّه قتل من الرّوم فِي يَوْم وَاحِد اثْنَا عشر ألفا وَسبع مئة وَمَعَ ذَلِك بَقِي الْعَدو يفتح عَلَيْهِم أبواباً من الْحَرْب والحيل والمسلمون قائمون بحراسة بلدهم ويغلبون عدوهم وَيقْتلُونَ من قرب إِلَيْهِم مِنْهُم وهم

=آغابيدا، ينظر : أخبار سقوط غرناطة، ص ٤٩.

١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٥٣.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥/٢١٦.

٣) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ٢٥٧.

صَابِرُونَ محتسبون مُدَّة طَوِيلَة حَتَّى ضيق عَلَيْهِم الْعَدو ودور بِالْمَدِينَة سوراً من تُرَاب وسوراً من خشب وحفيراً مَانعاً وَمنع عَلَيْهِم الدَّاخِل وَالْخَارِج فِي الْبر وَمنع عَلَيْهِم فِي الْبَحْر بالمراكب من الدَّاخِل وَالْخَارِج وَشد عَلَيْهِم فِي الْحصار والقتال وهم مَعَ ذَلِك صَابِرُونَ محتسبون يُقَاتلُون أَشد الْقِتَال وَلَا يظهرون جزعاً وَلَا هلعاً وَلَا يطمعون الْعَدو فِي شَيْء مِمَّا يرومه مِنْهُم حَتَّى نفد مَا عِنْدهم من الْأَطْعِمَة والزاد وأكلوا مَا كَانَ عِنْدهم من الْمَوَاشِي من خيل وبغال وحمير وكلاب وجلود وورق الشّجر وَغير ذَلِك من الْأَشْيَاء الَّتِي يُمكن أكلهَا حَتَّى فني ذَلِك كُله وَأثر فيهم الْجُوع أثراً عَظِيما وَمَات كثير من نجدة رِجَالهمْ الَّذين كَانُوا يوالون الْحَرْب والقتال فَحِينَئِذٍ أذعنوا وطلبوا الْأمان فاحتال عَلَيْهِم الْعَدو حَتَّى دخل الْبَلَد بمكر ومكيدة وأسرهم كلهم وسبى نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادهمْ واحتوى على جَمِيع أَمْوَالهم وفرقهم على أهل دَخلته وقواده وَكَانَ مصابهم مصابا عَظِيما تحزن لَهُ الْقُلُوب وتذهل لَهُ النُّفُوس وتذوب وتبكي مصابهم الْعُيُون بالدماء فَإنَّا لله وَإنَّا لَهُ رَاجِعُون وَكَانَ استيلَاء الْعَدو على مَدِينَة مالقة فِي أَوَاخِر شعْبَان عَام اثْنَيْنِ وَتِسْعين وثمان مئة)[1].

أما الرواية النصرانية عن سقوط مالقة فأشارت إلى أنه بعد أن فشلت المساعي أمر الملك القشتالي فرناندو المدعومة بقطعات صليبية جاءت من بلاد الغال ، بتحريك المدفعية نحو المدينة لقصفها من البر والبحر ، ثم تدفق الجيش الصليبي نحو أسوار المدينة وقام الأسطول بإغلاق المنافذ من جهته ، وخلال التجهيزات أخذ العرب يطلقون النار على مواقع الجيش الصليبي حتى أنهم أصابوا الخيمة الملكية التي كانت بمرمى بطاريات المدفعية العربية لذا تم نقلها إلى خلف الجبل ، وحين تمت التحضيرات فتحت القوات الصليبية نيران بطارياتها على المدينة في اللحظة التي أخذ الأسطول يهاجمها من البحر ، وقد علق الأب أنطونيو آغابيدا(وكان شاهد عيان) على ذلك المنظر بقوله: (لقد كان منظراً ماجداً ودقيقاً بالإطباق على هذه المدينة اللامؤمنة من البر والبحر معاً ، بهذا الجيش المسيحي القوي الجبار ، فكل استحكام داخل دائرة هذا الجيش صار يحمل

---

١) مؤلف مجهول، ص ٩٢ -٩٤.

إشارة محارب كاثوليكي بطل ، بقصفه)[1].

واستمر القصف متبادلاً بين الجانبين وهو يحصد الأرواح وكان منظر القصف في الليل مريعاً أكثر من النهار بسبب لمع المدافع وومضات شهب العرادات وأضواء البيوت المشتعلة ، والمدفعية التي لا تهدأ من مدافع النصارى والرد عليها من مدافع العرب ، وقد وصف الأب آغابيدا بسالة المدافعين العرب بقوله: (يبدو أن الكثير من الشياطين قد تقمصت أشكال البشر ، وقد سمح لها أن تنزل من السماء لتدخل بحيازة سكان هذه المدينة التي تظهر بناسها اللامؤمنين)[2].

وأمام القصف والقصف المضاد واستبسال العرب في الدفاع مع كثرة الخسائر بالأرواح بين الجيش الصليبي فشت شائعات بأن العرب سيكسبون المعركة وأن الملكة إيزابيلا طلبت من الملك فرناند الانسحاب خوفاً عليه وعلى الجيش ، ورداً على هذه الشائعات فقد أرسل الملك إلى الملكة أن تحضر بنفسها إلى خيمته وتقيم معه في حصار المدينة وبذلك ارتفعت معنويات الجيش الصليبي ، ولإثبات أن زيارتها غير مؤقتة اصطحبت معها ابنتها الصغيرة وكثير من حاشيتها ، ثم طلبت الملكة من المدفعية وقف إطلاق النار وعرضت على المقاومين من العرب الاستسلام الفوري وإلا فإن الجميع سيكون مصيرهم الرق أو القتل ، ولما رفض العرب العرض استمر القتال والقصف بلا هوادة ولكن دون أن يتمكن كلا الطرفين هزيمة عدوه بشكل كامل[3].

وبسبب الخسائر التي مُني بها الطرفين فقد تلقى الجيش القشتالي دعماً من جميع أنحاء اسبانيا من البر كما جاءته إمدادات من البحر بالعتاد والأسلحة والرجال من البندقية وجنوا وصقلية والبرتغال وهو مما عزز مواقعه بقوات جديدة ورفع من معنويات مقاتليه ، أما الجانب الإسلامي المتمثل بأهالي مالقة فلم يتلقوا أي دعم خارجي بسبب تقوقع أبو عبد الله الزغل في وادي آش وعدم تمكنه من المغادرة إلا أنه وتحت ضغط أهالي وادي آش أرسل

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٦٠.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٦١.

٣) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٦٣ – ٢٦٧.

قوة صغيرة لمساعدة مالقة فاعترضتها قوة أرسلها أبو عبد الله الصغير من غرناطة ولم تمكنها من الوصول إلى مالقة وذلك لإظهار ولائه للملك النصراني ، وقد وصف المؤرخ النصراني إيرفنغ عمل أبو عبد الله الصغير هذا بالقول :(وهكذا ظل بيدول حقيراً حتى في انتصاره ، فهزيمته لقوات عمه التي خرجت لنجدة ملقة أطفأت ولاء اقرب الناس إليه)[1].

وأمام هذه الأوضاع المأساوية في مالقة من شدة الحصار وتزايد الأعداء وتناقص المؤن سيطر شبح المجاعة على المدينة ، وصار الناس يأكلون خيولهم ، ومما زاد في معاناتهم رؤية السفن محملة بالمواد التموينية تنهال على أعدائهم وهم في وسط المدينة يتضورون جوعاً[2] ، وعلى الرغم من ذلك لا يزال الأهالي صابرون صامدون ، وقد عزا الأب آغابيدا ذلك الصمود وعدم قدرة القوات الصليبية وما تكبدته من خسائر إلى ما عند العرب(من أدوات شيطانية أخرى لإلحاق الهزيمة بالأسطول والجيش المسيحي ، حين أي هجوم منهم على العرب)[3].

وفي محاولة أخيرة قرر أهالي المدينة بقيادة حامد المدغري القيام بهجوم كبير على المعسكر الصليبي لفك الحصار الخانق عليهم ، فقاموا بهجوم مباغت من كل الاتجاهات وتمكنوا من قتل وجرح العديد من الجند الصليبي ، وقد وصف إيرفنغ الهجوم بقوله: (فاندفعوا نحو موت محتم ، وهم يقتحمون بجنون الخنادق والمتاريس الترابية والقوات المتراصة لصدهم ، ويسقطون بما يتساقط عليهم من رصاص ونبال ورماح بكثرة المطر ، مما ملأ الخنادق بجثثهم التي تكدست فوق بعضها بعضاً)[1].

وهكذا فشلت المحاولة الأخيرة لفك الحصار وتحت ضغط اليأس اجتمع أعيان مدينة مالقة وأرسلوا إلى الملك فرناند وفداً عارضين عليه الاستسلام وفق شروط محددة ، فرد عليهم الملك بقوله: (ارجعوا إلى أهل بلدكم ، وأخبروهم بأن أيام لمنة والشفقة قد ذهبت ، فدفاعكم اللامجدي اضطرنا إلى إسقاط بلدكم بكل الوسائل ، فعليكم الاستسلام بدون

---

1) أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٧١.

2) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٧٣.

3) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٧٨.

1) أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٨٩.

شرط الآن ، والخضوع لقدركم بأن تُدمروا ، فمن يفضل الموت منكم سيلاقي الموت ، والذي سيقبل بذل الأسر سيعاني منه)[1].

ثم أمر الملك القشتالي قواته بفتح نار المدفعية وجميع الأسلحة على المدينة وتهديمها ، عندها أرسل أهل المدينة إلى الملك فرناند(يطلبون منه الحفاظ على حياتهم كي يسلموه البلد ، وأن يخرجوا منها أحراراً ، وإذا رفض طلبهم هذا سيشنقون على أسوار المدينة ومواقع القتال فيها ألف وخمسمئة أسير نصراني من الرجال والنساء ، وسيدعون كل أطفالهم وشيوخهم ونسائهم في القلعة ليشعلوا النار بالبلد ، ثم يخرجون للقاء الصليبيين بسيوفهم ليقاتلوهم حتى النهاية ، وبهذه الطريقة سيربح الأسبان نصراً دموياً يسجله التاريخ عاراً عليهم على مدى الدهر) ، فردّ الملك فرناند على هذا بقوله: (إن جرح أي أسير مسيحي يعني أنه لم يبق أي عربي مسلم بعده في ملقا بدون أن يضع السيف على رقبته)[2].

وأمام إصرار الملك القشتالي اندفعت قواته نحو المدينة الهزيلة المتعبة والخاوية على عروشها ورُفعَ علم الصليب على برج المدينة ، عندها ركعت الملكة وكل أفراد حاشيتها لإعطاء الشكر لمريم العذراء على هذا النصر العظيم ، وارتفع صوت جوق النصر من الآباء والرهبان الحاضرين والشمامسة في كنيسة الملكة أغنية النصر على الإسلام"Te Deum" وبالاسبانية" Te Deum Laudamus"أي المجد للصليب في السماء ولا للإسلام أو الهلال[3].

أما مصير حامد المدغري فقد اقترح الأب آغابيدا بقوله :(نتيجة الحقد الشيطاني وعناد هذا اللامؤمن ضد قضيتنا المقدسة ، فكان على العقل الراجح لمليكنا الكاثوليكي أن يوقع عليه الجزاء العادل الذي يستحقه ، لذلك أمر فرناند أن يوضع بأغلال ثقيلة ، ويلقى في زنزانات التفتيش)[1].

ثم توجهت الملكة برفقة الكهنة إلى المسجد الجامع وتم تحويله إلى كنيسة ، وبخصوص أهالي مالقة المسلمون فقد قسموا إلى ثلاثة جماعات ، الأولى: تخدم الرب بخدمة أبنائه

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٩١.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٩٢.

٣) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٩٤.

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٩٦.

النصارى ، والثانية: تُعطى لقاءً لمن ساعد في الفتح من الجيوش المسيحية غير الاسبانية ، والثالثة: تباع في الأسواق ، ويُعطى ريعهم إلى حضرة البابا إينوسنت الثامن ويساقون في احتفالات النصر في شوارع روما قبل بيعهم[1] ، وبناءً على هذا تم إهداء ملكة نابولي بإيطاليا خمسين سيدة مسلمة كرقيق وأرسلت ثلاثين سيدة أخرى إلى ملكة البرتغال ثم راحت الملكة تهدي أجمل الأسيرات إلى المقربين منها[2].

وقد وصف إيرفنغ حالة أهل مالقة بعد السقوط بيد النصارى بقوله: (وهكذا كنت ترى الشيوخ والأطفال والنساء الحسناوات ورجال العائلات الثرية وأهلهم محملين بالصناديق نحو القصبة ، بعيون دامعة تنظر إلى السماء بتضرع ، وقد حكم عليهم أن يتشردوا في البلاد ، دون أن يعرفوا ما حل بأهلهم حين بيعوا في الأسواق ، أو تبادلهم الأثرياء النصارى كهدايا وأقنان ، وقد يل في كثير من الأحيان بين الأمّ وطفلها ، كما تتفرق الأرواح من أبدانها ، أو اغتصبت طفلة أمام ناظر أبويها في زوايا الشوارع المعتمة للقصبة ، والملكة تسكن في القصبة مع خليلها ، وتسمع صريخ الضحايا ، وهكذا مزقت عائلات عن بعضها كي لا تجتمع ثانية مدى الدهر ، الآباء عن أبنائهم ، والنساء عن أزواجهم ، والأمهات عن أطفالهم ، وحزنهم وألمهم هو مجال سخرية أعدائهم النصارى ، ودافع لهم كي يعتدوا عليهم أكثر ، من منطق أن الخضوع يزيد من شراسة الغالب ، ياملقة من يقدر أن يرى ما حصل بك دون أن تغرورق عيناه بالدمع والحزن المرير المؤلم)[3] ، وبهذه النهاية المأساوية سقطت مالقة بعد أن حكمها المسلمون مدة ٨٠٠ سنة.

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٩٨.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٩٨.

٣) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٠.

مدينة بسطة Baza الأندلسية

(٩٢ -٨٩٥ هـ/ ٧١٠ -١٤٨٩م)

تقع مدينة بسطة في الجزء الأوسط من الأندلس الذي قاعدته طليطلةToledo ، وقد أشار البكري إلى أنها واحدة من عشرين مدينة في هذا الجزء[١] ، كما ذكر ذلك مؤلف مجهول بقوله :(فأما المدن المتوسطة مثل شريش وقرمونة وبسطة وطليطلة وأبدة وبياسة وباجة... ، فما يحوي عددها الحصر)[٢].

تعد مدينة بسطة من أعمال كورة جيانJean ، وقد أشار إلى ذلك ابن غالب عند حديثه عن جيان بقوله: (ولها مدينة بسطة ،...)[٣] ، إذ أن المسافة بينهما ثلاث مراحل[٤][٥] ، كما تقع بالقرب من قسطلونة Castellon[٦] ، وأيضاً تقع بالقرب من بسطة مدينة وادي آش Guadix[٧] ، إذ أن المسافة بين المدينتين ثلاثون ميلاً[٨][٩] ، وتحدث الإدريسي عن الطريق الذي يربط مدينة وادي آش بمدينة بسطة بقوله: (... ، ومدينة وادي آش رصيف يجتمع به طرق كثيرة فمن أراد منها مدينة بسطة خرج من وادي آش إلى جبل عاصم ثم إلى قرية يورا إلى مدينة بسطة وبينهما ثلاثون ميلاً...)[١٠] ، كما تبعد بسطة عن مدينة لورقة Lorca

---

١) المسالك والممالك، ٨٩٢/٢.
٢) تاريخ الأندلس، ص ٤٥.
٣) فرحة الأنفس، ص ١٥.
٤) المرحلة تساوي مسيرة ٣٧ كم في حالة السير الاعتيادي، ينظر : كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٩٧٣.
٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٩٨/٢.
٦) القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥٣.
٧) الحميري، الروض المعطار، ص ١١٣.
٨) الميل يساوي ٢ كم، ينظر : هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.
٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢.
١٠) نزهة المشتاق، ٢/ ٥٦٨.

ثمانين كيلومتراً[١] ، وهي أيضاً وسطاً بين مدينتي مرسية Murcia وغرناطة Granada[٢] ، ولما كانت المسافة بين مدينة وادي آش وغرناطة ثمانية أميال[٣] ، فعلى هذا فإن المسافة بين مدينة بسطة وغرناطة ٨٣ ميلاً ، أي ما يعادل حوالي ١٦٦ كم.

أما تسميتها فيبدو أنها مشتقة من طبيعتها ، فيقال أرض بسطة بالفتح أي مستوية ، وأرض بسيطة اسم لها[٤] ، وأرض بسيطة أي واسعة عريضة[٥] ، وقد عبر ابن الخطيب عن ذلك بقوله: (بسطة بلد خصيب ، ومدينة لها من اسمها نصيب)[٦] ، ويفهم من قول ابن الخطيب أعلاه أن بسطة اسم يطلق على المدينة والبلد ، وهذا البلد الذي يحيط بالمدينة عبارة عن حدائق غناء مترامية الأطراف تصل إلى جبال غرناطة[٧].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة عن كيفية فتح المسلمين مدينة بسطة أو تاريخ ذلك ، إلا أنه على ما يبدو أنها فتحت أثناء فتح المسلمين لمدينة جيان لقربها منها ومن توابعها ، فعندما تمكن طارق بن زياد من هزيمة ملك القوط الغربيين لوذريق في معركة وادي لكة Rio Cuadalete في شوال من سنة٩٢هـ/ ٧١٠م اتجه إلى مدينة إستجة Ecija التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي ، وبعد هزيمتهم قرر التقدم والزحف مباشرة إلى طليطلة عاصمة القوط الغربيين ، وقبل أن يشرع أرسل فرقاً من جيشه لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط وهي: قرطبة Cordoba والبيرة ومالقة Malaga وتدمير Tudmir[٨].

أما بالنسبة إلى كورة جيان الواقعة إلى الشرق من قرطبة والتي يمر بها الطريق الروماني القديم[٩] ، فقد سلكه طارق بن زياد إلى طليطلة ، فذكر المقري أن طارق بن زياد بعد بعثه

---

١) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٣.
٢) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٣.
٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٧/٢.
٤) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ٤٤٠/٨ -٤٤١(مادة بسط).
٥) الفروزآبادي، القاموس المحيط، ٦٥٩/١ ؛ الزبيدي، تاج العروس، ١٤٥/١٩(مادة بسط).
٦) ريحانة الكتاب، ٢٥١/٢ ؛ معيار الاختيار، ص ١٠٩ ؛ خطرة الطيف، ص ٣٧.
٧) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٤.
٨) لمزيد من التفاصيل ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١ -١٩.
٩) ويسمى أيضاً المحجة العظمى أو السكة العظمى، وهو الطريق الذي يبدأ من قادس وينتهي بأربونة ماراً بقرطبة وإشبيلية وسرقسطة وطركونة، وأشار إليه المقري بقوله :(وباب ابن عبد الجبار وهو=

بعضاً من جيوشه إلى مالقة وغرناطة والبيرة(سار هو في معظم الناس إلى كورة جيّان يريد طليطلة ،...)[1] ،وهذا يدل على أن كورة جيان وتوابعها(ومنها مدينة بسطة) قد فتحت على يد طارق بن زياد وهو في سيره إلى مدينة طليطلة ، وعن تاريخ فتحها فيمكن القول إن ذلك كان في أواخر سنة ٩٢هـ/٧١٠م ، لأن معركة وادي لكة التي انهزم فيها القوط كما قال المقري: (كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام ،...)[2] ،وكان فتح قرطبة في شوال من السنة نفسها[3] ، ولما كان طارق في طليطلة أوائل سنة ٩٣هـ/٧١١م[4] ، فهذا يعني أن دخول جيان ومنها مدينة بسطة في حكم المسلمين كان في المدة بين شوال وذي الحجة من سنة ٩٢هـ/٧١٠م.

ويبدو أن مدينة بسطة عاشت هادئة بعيدة عن الأحداث التي الكبيرة التي عانت منها الأندلس في عصر الولاة وعصر الإمارة إلى عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني(٢٧٥–٣٠٠ هـ/٨٨٨–٩١٢ م) ، إذ شهد عهده العديد من الثورات والفتن الداخلية ومن أشهرها ثورة عمر بن حفصون التي بدأت سنة٢٦٧هـ/٨٨٠م ، وأشار ابن الخطيب إلى أن ابن حفصون(اتسع نظره حتى تملّك كورة ريّه ، والخضراء ، وإلبيرة ، إلى بسطة ، وأبّدة ، وبيّاسة ، وقبرة ، إلى حصن بلي المطل على قرطبة ، وأشرق الخلافة بريقها ،...)[5] ، فهذا يعني أن مدينة بسطة أصبحت ضمن أملاكه بعد هذا التاريخ واستمرت حوالي عشر سنوات عندما تمكنت قوات الإمارة فتحها[6] ،وبقيت هادئة طيلة القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

=باب طليطلة، وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طركونة إلى أربونة مارة في الأرض الكبيرة) نفح الطيب، ٤٦٥/١.

١) نفح الطيب، ٢٦١/١.

٢) نفح الطيب، ٢٥٩/١ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٨/٢.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢ -١٠ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.

٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.

٥) الإحاطة، ٢٦/٤.

٦) ابن حيان، المقتبس، للحقبة(للحقبة ٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢ م)، ص ٧٩ ؛ابن الابار،الحلة السيراء، ١٤٩/١.

وبعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس ما يسمى بالفتنة[1] في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تمكن خيران العامري الصقلبي من السيطرة على شرق الأندلس[2] بما فيها مدينة بسطة[3] ، وعندما انتهى نفوذ العامرين سنة٤٣٣هـ/١٠٤١م ، دخلت المنطقة في صفحة جديدة من الصراع عليها بين دويلات الطوائف المحيطة بها وهم: بنو صمادح التجيبيون في المرية وبنو مناد الصنهاجيون في غرناطة وبنو عباد في إشبيلية وبنو ذو النون في طليطلة[4] ولم ينته ذلك إلا بدخول المرابطينAlmoravides ، Los إلى الأندلس وقضائهم على دول الطوائف إذ دخلت مدينة بسطة وما جاورها من المدن في حوزتهم سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م[5].

وفي العهد المرابطي لم تنعم مدينة بسطة بالهدوء كثيراً ، فقد قام ملك أراغون الفونسو الأول المحارب(٤٩٩-٥٢٩هـ/١١٠٥-١١٣٤م) بحملة مدمرة اخترق خلالها الأندلس من شمالها إلى جنوبها ، حاصر خلالها مدينة بسطة وذلك سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م وحاول منازلتها وافتتاحها لضعف تحصيناتها ، ولكنه لم ينجح فغادرها ، وقد أشار مؤلف مجهول إلى ذلك بقوله: (... ، ثم تحرك إلى مدينة بسطة ، فلحقه الطمع فيها لكونها في بسيط من الأرض ، فأكثر حاراتها غير مسورة ، فلم يعنه الله عليها ، ثم توجه إلى وادي آش...)[6] ، ولعل أهالي بسطة قد أظهروا من المقاومة له والدفاع عن مدينتهم ما اضطره إلى تغيير وجهته نحو وادي آش ثم إلى غرناطة بسبب مراسلة المعاهدين من النصارى له ، وفي ذلك أشار ابن عذاري بقوله: (... ، فبدا نحيث المعاهدة في استدعائه ، وافتضح سرهم في اجتلابه ،...)[7] ، وعلى الرغم من أن الملك الأرغوني لم يستطع تحقيق أهدافه ، إلا أن هذه الحملة كشفت عن ضعف نظم

---

١) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٠ م، ينظر: العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،١/١٥٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/٢٥٣.

٢) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣/١٦٦ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/٢٠١.

٣) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٥٢.

٤) ينظر التفاصيل عن بسطة في عصر الطوائف : الدرويش والعلياوي، مدينة بسطة من الفتح حتى السقوط، ص ٤٦ -٥٥.

٥) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٥٤.

٦) الحلل الموشية، ص ٩٢ -٩٣.

٧) البيان المغرب، ٤/٧٠.

الدفاع في المدن الأندلسية(١).

وفي نهاية عهد المرابطين وبداية الموحدين خضعت مدينة بسطة بعض الوقت لمحمد بن سعد بن مردنيش إذ حكمها للمدة من سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م إلى ٥٦٦هـ/١١٦٩م(٢) عندما تمكنت القوات الموحدية من انتزاعها منه(٣).

وبعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ، تغير ميزان القوى في الأندلس ، ولم يعد في مقدور الدولة الموحدية حماية الثغور الأندلسية من هجمات النصارى(٤) ، إذ استولى النصارى مباشرة بعد ذلك على مدينتي بسطة وباغو(٥) ، وهذا ما أكده الحميري بقوله: (ثم استولى الروم بعد ذلك على مدينة بسطة وباغو وما جاورهما من القرى والحصون ، وقتلوا الرجال وسبوا الذرية وكانت هذه الوقيعة أول وهن دخل على الموحّدين ،...)(٦) ، وكان هذا هو السقوط الأول لمدينة بسطة بيد النصارى ، إلا أنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بالمناطق التي دخلوها في أعقاب هزيمة المسلمين في موقعة العقاب بسبب مصاعب التموين والفوضى بين جنود الجيش الظافر ، الذين امتلأت أيديهم بالغنائم ، ثم انتشار الوباء بينهم من جراء اشتداد الحرارة ، وتعفن الجثث التي غصت بها تلك الوديان ، فارتد الملوك النصارى في قواتهم نحو الشمال ، ودخلوا طليطلة عاصمة قشتالة في موكب ملوكي ضخم ، وأقيمت صلوات الشكر ابتهاجاً بالنصر(٧).

ولكن اضطراب الأمور في الدولة الموحدية أدى إلى قيام ثورات عديدة في الأندلس

---

١) السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٢٥٧.

٢) ينظر عن دور ابن مردنيش في بسطة : الدرويش والعلياوي، مدينة بسطة من الفتح حتى السقوط، ص ٦٦ -٧٥.

٣) ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٤٣٠ ؛ ينظر أيضاً : البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، ص ٨٨ إلا أنه أشار إلى أن أبا حفص بن عبد المؤمن هو من فتح بسطة ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١١٢ -١١٣ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس ٤/٤٨ -٥٠.

٤) للمزيد من التفاصيل عن موقعة العقاب، ينظر : المراكشي، المعجب، ص ٢٣٥-٢٣٦ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦-٤١٧ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٧٠ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤١٩ وما بعدها.

٥) ويطلق عليها أيضاً باغة، وهي مدينة أندلسية من كورة البيرة بين المغرب والقبلة منها، ينظر : ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٤ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٦٢.

٦) الروض المعطار، ص ٤١٦.

٧) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين، ٤/ ٣٢٤.

لاسيما في وسط وشرق الأندلس ، وبقدر ما يتعلق الأمر بمدينة بسطة فإن أشهرها تلك التي قادها محمد بن يوسف بن هود الجذامي ومحمد بن يوسف بن الأحمر ، وكان الأول قد ثار على الموحدين سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٧ م في شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق كما حاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي[١] ، وهكذا شمل نفوذه أرجونة Arjona وجيان وبسطة ووداى آش[٢] ، وعلى هذا فإن مدينة بسطة كانت ضمن دولته.

إلا أن الذي خطف من ابن هود آماله هو ظهور الثائر الآخر من بني نصر وهو محمد بن يوسف بن الأحمر الملقب بالغالب بالله الذي فدعا لنفسه وبويع أولاً في أرجونة موطن أسرته وأنصاره وفي المناطق القريبة منها وذلك سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣١م[٣].

ومن أرجونة أخذ ابن الأحمر يوسع نفوذه ، ففي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م تمكن من الدخول إلى مدينة جيان وقرطبة وبعض مناطق غرب الأندلس[٤] ثم أطاعته أهالي مدينتي بسطة ووادي آش[٥] ، وهكذا قوى أمره وأخذ يتطلع إلى الاستيلاء على القواعد الجنوبية لاسيما بعد مقتل ابن هود سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧ م[٦] ، فدخل غرناطة واتخذها قاعدة لملكه[٧] ،وبذلك غدت مدينة بسطة ضمن أملاك بني الأحمر[٨].

شهدت المرحلة الأخيرة من حياة سلطنة غرناطة(٨٦٨- ٨٩٧ هـ/١٤٦٣-١٤٩١م) استمرار الصراع الأسري بين حكام بني الأحمر حتى صفت إلى السلطان أبي الحسن علي بن

---

١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢ ؛ ينظر أيضاً : الإحاطة، ٧٦/٢.

٢) دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٠/٤.

٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٦.

٤) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ -٢٧٦ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣١ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣٩٥/٦ -٣٩٦.

٥) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١٥/٤.

٦) ينظر عن مقتل محمد بن هود : ابن عسكر وابن خميس، أعلام مالقة، ص ١٧٥ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤١ -٣٤٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ٧٦/٢ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٢٦٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢٧/٤.

٧) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٢ -٣٤٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٧/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٠/٤.

٨) ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص ١٧.

سعد بن الأحمر الذي طال حكمه(٨٦٨-٨٨٧هـ/ ١٤٦٣-١٤٨٢م) الذي انشغل في آخر عهده باللذات والهو والنساء وضيع الجند وأكثر من الضرائب[١] وهو ما أضعف دولته كثيراً ، وفي المقابل شهدت العلاقات بين مملكتي قشتالة Castilla وأراغون Aragon تطوراً مهماً كان له أسوأ الأثر على مستقبل غرناطة ، وذلك بعد أن وقع الاختيار على فرناندو القشتالي ولد خوان الأول ملك قشتالة ملكاً لأراغون لأن أمّه ابنة بيدرو الأول وأخت الملك مرتين(٧٩٨-٨١٣هـ/١٣٩٥-١٤١٠م) فجلس على عرش أراغون سنة٨١٥هـ/١٤١٢م ، ثم في سنة٨٧٤هـ/١٤٦٩م تزوجت إيزابيلا بنت خوان الثاني ملك قشتالة وأخت الملك هنري الرابع(٨٥٩-٨٧٩هـ/١٤٥٤-١٤٧٤ م) من فرناندو بن خوان الثاني ملك أراغون(٨٦٣-٨٨٤هـ/١٤٥٨-١٤٧٩م) ، وعندما توفي هنري الرابع بدون وريث للعرش توجت أخته إيزابيلا لعرش قشتالة ، كما ورث فرناندو الأرغوني أباه عند وفاته ، فكان ثمرة ذلك الزواج أن اتحدت المملكتان قشتالة وأراغون[٢] ، ولُقبا بالملكين الكاثوليكيين[٣] ، وبذلك اتحدت كلاً من قشتالة وأراغون لمواجهة المسلمين في الأندلس.

ثم حصل تطور خطير على الساحة السياسية في غرناطة ألا وهو الفرقة التي حدثت بين السلطان أبي الحسن وولديه أبي عبد الله محمد(الصغير) وأبي الحجاج يوسف ، ويرجع سبب ذلك إلى أن السلطان كان قد تزوج من ابنة عمّه عائشة الحرة فأولدها ولديه أعلاه ، ثم تزوج من فتاة نصرانية تدعى ثريا وأولدها ابنيه سعد ونصر فأوغرت صدره على ولديه من عائشة فاعتقلهما مع أمّهما إلا أنهما تمكنا من الفرار والتغلب على السلطة في غرناطة وتربع أبو عبد الله الصغير على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧ هـ/١٤٨٢ م وفرّ السلطان أبو الحسن إلى مدينة بسطة حيث استقبل هناك من قبل أهالي المدينة ، ثم تمكن من تجميع أنصاره مكوناً منهم قوة بلغت خمسمائة شخص زحف بها نحو مدينة غرناطة حيث ابنه أبو عبد الله الصغير ، وتمكن مع رجاله من تسلق أسوار مدينة غرناطة وخاض معركة عنيفة مع

١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٤٥.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٨٢/٥ ؛ الكتاني انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٩.

٣) الكتاني انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٩.

أنصار ابنه قتل فيها الكثير من أتباعه مما اضطره إلى التراجع والهرب إلى مالقة[١] حيث أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل[٢].

وقد اغتنم النصارى ذلك الانقسام الذي تزامن مع انقضاء مدة الهدنة[٣] التي عقدها السلطان مع قشتالة بمهاجمة أراضي سلطنة غرناطة فاستولوا على مدينة الحمة[٤] (الحامة) Alhama ولوشة Loja[٥] ، كما هاجموا مالقة إلا أن حاكمها أبو عبد الله الزغل تمكن من ردهم سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م[٦] ، عندها اعتزم أبو عبد الله الصغير أن يحذو حذو عمّه في الجهاد فخرج نحو أحواز قرطبة وحقق بعض الانتصارات إلا أن النصارى تمكنوا من أسره في طريق عودته[٧] ورجع جيشه دون أميره فاستدعى أهل غرناطة أباه أبا الحسن ولكنه كان قد أعياه الهرم فتنازل لأخيه أبا عبد الله الزغل حاكم مالقة ، إلا أن ملكا قشتالة أفرجا بعد ذلك عن أبي عبدالله الصغير بعد أن أخذا عليه المواثيق بتبعيته لهم مع جزية سنوية[٨].

وعندما أُطلق سراح أبا عبد الله الصغير كان عمّه أبو عبد الله الزغل يُحكم سيطرته على غرناطة ويطمع بالسيطرة على جميع ما تبقى من الأندلس لنفسه ، فعمد الصغير إلى التوجه إلى شرق الأندلس ودخل حصن بلش Velez القريب من مدينة بسطة بمساعدة قوة من النصارى وأعلن نفسه ملكاً ، وأخذ يبث دعوته ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود مع ملكي قشتالة ، وأنه يضمن للمسلمين الاستقرار والسلم ، وأنه يُطبق في سائر الأنحاء التي تدخل في طاعته[٩] ، وقد علّق مؤلف مجهول المعاصر للأحداث على ذلك بقوله: (استولى العَدو

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٧ -٩٨.

٢) المقري، نفح الطيب، ٥١٤/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٢/٥.

٣) كان السلطان أبو الحسن قد وقع مع قشتالة هدنة سنة ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٨م على إجراء التحكيم فيما وقع من كل منهما على أراضي الآخر من عدوان ترتب عليه قتل أو أسر أو حرق سواء في البر أم البحر وأن يدفع السلطان الجزية لقشتالة، ينظر : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٩٤/٥ -١٩٥.

٤) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٥٤ -٥٦ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٩

٥) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٥٩ -٦٠.

٦) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٤.

٧) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٥ ؛ المقري، نفح الطيب، ٥١٥/٤.

٨) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٦ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ١٣٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٤/٥ -٢٠٥.

٩) المقري، نفح الطيب، ٥١٦/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٨/٥.

على حصن صَالِحَة من حصون بلش ثمَّ إِن العَدو دمره الله سرح الْأَمِير أَبَا عبد الله مُحَمَّد بن عَليّ إِلَى بعض حصون الشرقية ووعده بِالصُّلْحِ إِن أطاعه الشّعب فَقَامَتْ بدعوته تِلْكَ الْحُصُون طَمَعاً بِالصُّلْحِ وبالبقاء فِي الْحُصُون)[1].

وهكذا أصبح لغرناطة حاكمين من بني الأحمر استقر أبو عبد الله الصغير في المناطق الشرقية(بسطة وحصونها) فيما يحكم عمّه أبو الله الزغل غرناطة ومالقة والمرية Almeria[2] ، وفيما كانت نار الفتنة قائمة بين الخصمين كانت جيوش قشتالة قد استولت على العديد من المدن والحصون وأخذت تُضيّق الخناق على غرناطة[3].

وعندما اشتدت حدة الصراع بين العم وابن أخيه استغل النصارى ذلك الاقتتال الداخلي ، وفي محاولة لتخفيف الضغط أيضاً على حليفهم أبي عبدالله الصغير ، زحفوا نحو بلش مالقة في ربيع الثاني من سنة٨٩٢هـ/١٤٨٧م ، وأدرك أبو عبدالله الزغل أهمية بلش مالقة بالنسبة لمالقة نفسها فقسم قواته بعضها لمواجهة أبي عبدالله الصغير في حي البيازين ، وزحف هو لمواجهة النصارى وإنقاذ مالقة بعد أن جاءته تعزيزات من مدينة بسطة ووادي آش والمرية[4] ، إلا أنه لم يستطع إنقاذها فارتد نحو غرناطة ، وخلال غيابه تمكن أبو عبدالله الصغير من دخول غرناطة وتنصيب نفسه مكان عمّه مما اضطر الزغل إلى التوجه إلى وادي آش والتحصن بها مع قواته[5] ، وبذلك انقلب الوضع فانقسمت غرناطة بين حاكمين أحدهما أبو عبدالله الصغير في مدينة غرناطة وما يجاورها ، ووادي آش وأعمالها بيد أبي عبدالله الزغل[6] ، أما مدينة بسطة وأعمالها فلعلها دانت بالطاعة لأبي عبدالله الزغل لقربه منها أولاً ، وكونهم ساعدوه ضد أبي عبدالله الصغير في نزاعه معه في حي البيازين ، وبذلك تحقق ما كان يبتغيه ملكا قشتالة من تمزيق البقية من دولة الإسلام بالأندلس ، تمهيداً للقضاء عليها[7].

---

١) نبذة العصر، ص ٧٦.
٢) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٩/٥
٣) ينظر التفاصيل: مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٩ . ٨٤؛عنان،دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٣/٥، ٢١٤.
٤) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٤٤.
٥) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٥٠ — ٢٥١.
٦) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٨٨ -٩٠ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٣/٥ -٢١٤.
٧) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٤/٥.

كان أولى نتائج ذلك الانقسام هو هجوم الجيش القشتالي على مالقة والاستيلاء عليها سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م[١] وذلك بهدف قطع الإمدادات بالكامل عن مسلمي غرناطة من المغرب والتفرغ للاستيلاء على بقية المدن والحصون[٢].

الهجوم الأول على بسطة وسقوط حصن طشكر سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م

في الوقت الذي كان أبو عبد الله الصغير في غرناطة وقد اعترف بتبعية ملك قشتالة كان عمّه أبو عبدالله الزغل يسيطر على مساحات واسعة تشمل مدينة بسطة ووادي آش والمرية وهو يرفض بشدة هذه التبعية ، وقد أشار إيرنيغ إلى ذلك بقوله: (ورغم أن الزغل لم يكن في هذه الفترة جالساً في قصر الحمراء ، إلا أنه كان يحكم منطقة أوسع من منطقة حكم ابن أخيه ، إذ تمتد حدوده من حدود جين(جيان) على امتداد موريسيا(مرسية) إلى البحر المتوسط ، لتصل إلى مركز المملكة ، وعلى الجبهة الشمالية الشرقية لديه مدينتا بازا(بسطة) وغواديكس(وادي آش) المتوضعتان في قلب المنطقة الخصبة... هذا هو القسم الغني الوعر الذي ظل موالياً للمحارب الكبير مولاي الزغل ، خاصة وأن المعاقل الطبيعية لهذا القسم قد حمته من الغزو والتدمير لهذه الحرب الحالية ، ولذلك هيأ الزغل كل المواقع القتالية في هذه المنطقة لحرب طويلة وشرسة)[٣].

وقد وصف المؤرخ النصراني المعاصر آغابيدا أبا عبدالله الزغل بقوله: (إنه بينما كان الملك فرنانود يتواضع أما الصليب ، ويكرس كل وقته للصلاة كي يدمر الرب عدوه ، كان هذا الوثني الشرس الزغل يعتمد على قوة وبأس ساعده المادي وسيفه الحديدي ، مطلقاً غضبه الشيطاني لتتبع النصارى)[٤] ، وعليه فقد قام أبو عبدالله الزغل بعدة هجمات ناجحة على المناطق الحدودية مع قشتالة لدفعهم عن مناطق حكمه في بسطة ووادي آش ، ومن أهم تلك الهجمات هو هجومه على حصن كولار[٥] وتمكن من اقتحام المناطق المحيطة به

---

١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ٩٢ -٩٤ ؛ المقري، نفح الطيب، ٥٢٠/٤ -٥٢١ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٥٨ -٢٧٠.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٣/٥.

٣) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٢.

٤) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٨ نقلاً عن مخطوطة لآغابيدا.

٥) حصن كولار، يبدو من خلال وصف إيرفنغ له أنه يقع إلى الشمال من وادي آش.

والوصول إلى القلعة المحصنة التي التجأ إليها قائد الحصن حيث ضرب عليها الحصار وتكمن المدافعون عنها من إيقاف تقدم قوات الزغل في معركة دامت خمسة أيام وكان النصارى الاستسلام لولا وصول إمدادات لهم مكنتهم من الانسحاب فدخل أبو عبد الله الزغل بقواته إلى المدينة وقد وجدها خالية فأحرقها ثم انسحب إلى معقله في وادي آش ، وقد علق إيرفنغ على ذلك بقوله: (فلغم العرب السور الخارجي وأحد أبراج الحصن ، واستطاعوا الوصول إلى البلاد الخارجي للقصر ، لكن السيد اعتصم في البرج ليصب على المهاجمين المعادن المنصهرة والحجارة والسهام وكل ما لديه من قذائف ، مما دفع العرب إلى التراجع إلى خارج البلاط ، ليعودوا إلى الهجوم بقوات إضافية ، في معركة ظلت بين أخذ ورد مدة خمسة أيام ، وكاد النصارى أن يستسلموا لولا أن قوّى سيدهم من معنوياتهم ، وحذرهم من أنهم سيلقون حتفهم صبراً لو استسلموا على يد الزغل إلى أن وصلتهم نجدة قوية بقيادة بترو كاريرو لتنقذهم من هذا المصير التعس ، حيث توقف الزغل عن هجومه ، ولكنه أحرق المدينة من خيبة أمله ، وعاد إلى معقله القوي في غواديكس)[١].

وهكذا تمكن أبو عبد الله الزغل أن يزيح خطر النصارى مؤقتاً عن حدوده معتمداً على جنده من مدينتي وادي آش وبسطة ، وقد رأى فيه أهالي المدينتين الأمل الوحيد الذي ينقذهم ويطيل لبعض الوقت إقامتهم في وطنهم ، وغدا الزغل عندهم رجل الساعة بعد أن خذلهم أبو عبدالله الصغير بتواطئه مع النصارى ، وقد وصف المؤرخ النصراني حالة الفزع التي أوقعها أبو عبدالله الزغل في نفوس سكان حدود مملكة قشتالة بقوله: (لقد كان هذا طوفاناً من الأحداث القوية والعظيمة في هذه المملكة القشتالية الأراغونية الممتدة ، كما لو أن أبواب السماء قد فتحت ثانية لطوفان ثانٍ يجتاح الأرض ، يهدر ويعصف ويمزق كل الجبال ، ويزحف على الوديان الوديعة ، والأنهار الخصبة ، ليدمر البيوت حولها ، ويحرق طواحين الغذاء بعنف اقتلاعه ، فالرعاة يرون قطعانهم تؤخذ منهم ومن مراعيها ، لا خيار لهم سوى الفرار بأرواحهم إلى الأبراج والمعاقل العالية ، فقد صار هؤلاء الخاضعون للنصرانية كالبحر المزمجر الذي ملأ حتى سهوب إشبيلية الشقراء بالذعر)[٢].

---

١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٨ -٣٠٩.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٩ نقلاً عن مخطوطة لآغابيدا.

وقد حاول المؤرخ النصراني تعليل سبب هزيمتهم على يد الزغل هو غضب الطبيعة على الدماء التي أراقها الزغل بقوله :(ظهرت الأعاصير الطبيعية في السماء فوق هذه البلاد ، مصحوبة بالزلازل التي كانت تهز المدن ، والأبراج من أسسها ، إلى حد أن بعض السفن التي كانت راسية في الموانيء تحطمت أو ابتلعها الموج أو ألقيت إلى الشاطيء محطمة مهشمة أو متطايرة ، مما أشاع رعباً إضافياً عظيماً ، ولم تهدأ تلك العواصف قبل أن تترك كل أصناف الخراب في البلاد ، براً وبحراً ،... ، إن بعض ذوي القلوب التي لم يرسخ فيها الإيمان قد ظنوا أن هذا من أحداث الطبيعة ، وربطوها بما حدث أو يمكن أن يحدث في أماكن أخرى ، على أساس أنها جزء من الطقس ، ولكنها في الواقع نتيجة الدماء البريئة التي غمس فيها الزغل يديه مع جماعته الغزاة من المسلمين)[1].

ويبدو أن هناك نوع من التهويل الإعلامي حاول مؤرخ البلاط القشتالي أنطونيو آغابيدا إشاعته لحشد المزيد من الدعم لملكه عن طريق تصوير حاكم بسطة ووادي آش والمرية أبو عبد الله الزغل بالرجل القوي الذي يمتلك من أدوات البطش ما يمكنه استعادة أمجاد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية لو تُرك في معقله القوي المحصن ، ولكن الواقع لا يؤيد ذلك ، فعلى الرغم من أن أبا عبد الله الزغل يتميز بقوة العزم والشجاعة إلا أن الظروف المحيطة به كانت صعبة ، فهناك ابن أخيه في غرناطة يتربص به مدعوماً بفرقة من الجيش النصراني لاستخلاص مدينتي وادي آش وبسطة منه وهو لا يأمن الانقضاض عليه في أية لحظة ، كما أن أهالي المناطق أصيبوا بالذعر والهلع لما حلّ بدولتهم من الضعف والانقسام والاقتتال فيما بين أبناء الأسرة الحاكمة ، وبسبب ذلك – كما سنرى – فإن القوات القشتالية اجتاحت عدد من الحصون الشمالية الشرقية لمدينة بسطة بدون مقاومة.

ومما يرجح ما ذهبنا إليه أن الملكين الكاثوليكيين دعوا إلى حملة صليبية كبرى للقضاء على سلطنة غرناطة وطرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكانت هذه الدعوة قد وجهت منذ عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م حيث تجمعت في قرطبة قوات من فرنسا وانكلترا وألمانية وبقية مناطق أوربا وجرى لتلك القوات استعراض كبير حضره إضافة إلى الملكين فرناندو

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٩ -٣١٠.

وإزابيلا قادة من تلك المناطق ، وقد وصف المؤرخ النصراني المعاصر ذلك التجمع من الجيوش بقوله: (إنه كان مشهداً رائعاً للقضاء على هؤلاء الكفرة على يد من خرج من قرطبة من أكثر فرسان البلاد ورعاً وتصميماً وأباءً ، وهؤلاء الفرسان يبدون من بعيد كما لو أنهم يسبحون على بحر من أعلام الصليب باتجاه الهلال .... ، من المجد والنصر حمل علم الإيمان ليلعب في كل مكان ، مما يعكس بأن هذا الجيش ليس جيشاً أرضياً ، يهدف إلى تحقيق نفع مادي من طموح أو ثأر بل جيشاً مسيحياً حقيقياً يهدف إلى انتزاع بذرة الشر المحمدي من الأرض بحملة صليبية ، لكي تعم سيطرة الكنيسة وحدها على كل العالم)[1] ، بهذه الروح الصليبية تمكن ملكا قشتالة من حشد التأييد وجمع المال اللازم لاجتياح مدن بسطة ووادي آش والمرية وغيرها من الأراضي التي كانت تحت زعامة أبي عبد الله الزغل.

وهنا جاء قرار الملكي القشتالي بالهجوم على مدينة بسطة ، لأنها كانت من الأعمال التابعة لأبي عبد الله الزغل للقضاء على سلطانه لما كان يخشاه من عزمة وشجاعته وشدة بأسه[2] ، وابتدأ أولاً بواحد من أهم حصونها وهو حصن أشكر(طشكر) الذي وُصف بأنه (فاق جميع حصون الأندلس منعة وعلواً ورفعة وطيب تربة وهواء ، وليس لأحد موضع يصعد منه إلى هذا الحصن إلا موضعان وبين الموضع والموضع اثنا عشر ميلاً على طرق مثل شراك النعل ومدارج النمل)[3] ، ووصفه ياقوت بالقول: إنه(حصن حصين في كورة جيّان من أعمال الأندلس لا يرتقى إلا بالسلاليم)[4] ، ولعل مناعته كانت واحداً من أسباب تأجيل اقتحامه من قبل النصارى حتى إرهاق أهله وإضعاف معنوياتهم وهو ما حدث فعلاً ، جدير بالذكر هنا أن مدينة بسطة وحصونها كانت داخلة في صلح مع ملك قشتالة أبرمه معه السلطان أبو عبد الله الصغير بعد إطلاقه من الأسر وأن أمده لم ينته بعد ، وكان عليه أن ينتظر حتى ينتهي أمد الصلح ، ولكنه يفعل ذلك ونقض عهده[5].

فبعد أن أطبقت قوات قشتالة على غرناطة من كل جانب أيقن أهالي الحصن أنهم في

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٠٥ عن مخطوطة لآغابيدا.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٥/٥.

٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢.

٤) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٠.

٥) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٣/٥.

جيب بعيد لا مخرج منه إلا بالاستسلام وهو ما حدث ، ففي ربيع من سنة٨٩٣هـ/١٤٨٧م زحف فرناندو الثاني Ferdinand II(٨٨٤-٩٢٢هـ/١٤٧٩-١٥١٦م) على أطراف سلطنة غرناطة الشمالية الشرقية ناقضاً للصلح الذي كان بينهما فاستولى على أهم حصونها وهو حصن أشكر(طشكر) ويسميه إيرفنغ(قصار)[١] ، وقد أشار مؤلف مجهول إلى ذلك بقوله: (وَفِي سنة ثَلَاث وَتسْعين وثمان مئة خرج العَدو نَحْو حصون الشرقية وَكَانَت فِي صلحه فاستولى على تِلْكَ الْحُصُون كلهَا غدراً ومكراً من غير قتال وَلَا حصَار وَلَا تَعب وَصَارَت جَمِيع حصون الشرقية فِي قَبضته وَتَحْت إيالته ثمَّ رَجَعَ إِلَى بِلَاده من قشتالة)[٢] ، كما أشار المقري إلى مهاجمة ملك قشتالة لحصون المنطقة الشرقية ونكثه العهد الأول ثم عقد صلحاً آخر معهم بقوله: (وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو الكافر إلى الشرقية وبلش التي كانت في الصلح ، فاستولى عليها ، واحتجوا بالصلح ، فلم يلتفت إليهم ، وأخذ تلك البلاد كلها صلحاً ، ثم رجع لبلاده)[٣].

فيما أشار إيرفنغ إلى أن الملك القشتالي أدرك أنه لا يمكنه التقدم إلى مدينة بسطة إلا بعد أن يؤمن عدداً من القلاع والحصون المحيطة بها وإلا نقضت على جيشه من الخلف ولاسيما(قصار) التي تقدم نحوها(فقاوم بعضها مقاومة باسلة وخاصة مدينة كقصار ، التي هدم النصارى سورها بكل ما يملكون من أدوات ومكائن تهديم الحصون ، لكن السيد الشجاع حبوس بن عبدالعال[٤] كان يقاوم كل قوة بمثلها ، وكل ماكنة أو مدفع بمثله ، وقد شحن أبراجه بأشجع رجاله الذين كانوا يمطرون عدوهم بالقذائف من كل نوع ، كما ربط مراجله التي تصب الزيوت والمعادن الحارقة على المهاجمين ببعضها بسلاسل حديدية وكان يقلبها دفعة واحدة على الأبراج الخشبية التي تحركها الدبابات الخشبية نحو أبراجه ، ليحرقها بمن فيها دفعة واحدة ، ولذلك صد الهجوم لعدة أيام ، ولكن كثرة العدو كانت أغلب من شجاعة هذا السيد ، الذي استطاع أن ينتزع شروطاً مشرفة لاستسلامه)[٥].

١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.
٢) نبذة العصر، ص ٩٥.
٣) نفح الطيب، ٥٢١/٤.
٤) واضح من النص أنه والي حصن طشكر من قبل أبي عبد الله الزغل.
٥) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.

وأشار عنان إلى أنه يوجد في بلدية أشكر وثيقة عهد وقعها الملكان الكاثوليكيان لأهل حصن أشكر(طشكر) جاء فيها : يتعهد الملكان ، بقبول أهل أشكر بين رعاياهما وتحت حمايتهما ، وأن لا يؤخذ شيء من أمتعتهم أو يصيبهم أي مكروه ، وألاّ يدفعوا من الضرائب إلا ما كانوا يؤدونه لملوكهم المسلمين ، وألاّ يُرغموا على محاربة إخوانهم مسلمي غرناطة ، وأن يسمح لهم باستبقاء زعمائهم وفقهائهم ، وعوائدهم وشريعتهم ، وأنه يحق لهم الإقامة في أي جزء من أراضي مملكة قشتالة ، كما يحق لهم العبور إلى المغرب أحراراً ودون أي قيد ، وأن يعامل السكان جميعاً ذكوراً أو إناثاً ، بالرفق والكرامة وألا يغصبهم أحد في دورهم ، أو يسيء إليهم أو يتلف شيئاً من أمتعتهم أو محاصيلهم ، وألاّ يعاشر نصراني مسلمة ، أو مسلم نصرانية ، ومن فعل ذلك يعاقب بالموت وتصادر أملاكه ، وأن يُدفع الكراء العادل لمن يطلب منهم للعمل في بناء حصن المدينة[1].

ويمكن أن نستشف من بنود هذه الوثيقة أن مناعة الحصن وصعوبة اقتحامه كانت من أسباب إبرامها ، إذ أدرك ملكا قشتالة أن دخولهم الحصن بالقوة سيكلفهم الكثير من الخسائر ، لذا أوهموا الأهالي بهذه الشروط المغرية التي تعهدوا بها من أجل الدخول إلى الحصن المنيع دون أي نية صادقة في الوفاء بها ، ومن جانب آخر فإن قائد حامية حصن طشكر حبوس بن عبد العال أدرك أنه يصعب عليه المقاومة كثيراً وسط غياب أي دعم له من أبي عبد الله الزغل الذي كما يبدو لم يستطع أن ينجده خوفاً هجوم محتمل قد يقوم به ابن أخيه أبو عبد الله الصغير ، لذا ترك الحصن المنيع يواجه مصيره بنفسه.

الهجوم الثاني على مدينة بسطة وحصارها سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م

كانت مدينة بسطة حسب خطة الملك القشتالي تعد(مفتاحاً لكل ما بقي بجوزة العرب من الأندلس ، فإذا أخذ هذا المعقل الهام تبعه غواديكس والمرية حتماً ، وبذلك ينتهي نفوذ الزغل إلى الأبد)[2] ، وكان الجيش القشتالي قد تأخر في الهجوم على مدينة بسطة بسبب المقاومة التي لاقاها في حصن طشكر ، فكان عليه الانتظار حتى نهاية الشتاء من سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م ، وعندما حلّ الربيع اجتمعت القوات الصليبية على حدود جيان المواجهة

---

١) دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٣/٥ -٢٢٤.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.

لمدينة بسطة وكانت الملكة إيزابيلا قد اصطحبت الجيش إلى هناك ، وقد وصف إيرفنغ الجيش الصليبي المجتمع في جيان والمتأهب للهجوم على بسطة بقوله: (وبزوال الشتاء العاصف وتقدم الربيع عام١٤٨٩م ، ورغم تساقط الأمطار الكثيفة التي عطلت الطرقات ، ورغم أن الينابيع ممتلئة والسواقي فياضة ، والأنهار فائضة وخطيرة ، رغم كل هذا اجتمعت القوات الصليبية على حدود جين أي جيان – لأجل حروب الصائفة ، ولكن هذه القوات كانت بطيئة الوصول بقوافلها التي كان يصعب عليها اجتياز أي جدول مهما ضحل ، فلم يكتمل التجمع إلا في آيار/مايو ، حتى يبدأ الغزو ، وأخيراً تجمع جيش من ثلاثة عشر ألف فارس وأربعين ألف راجل على الحدود ، وبقيت الملكة في مدينة جين مع أولادها ، بصحبة كاردينال أسبانيا الأكبر ، ومن يساعدها من مستشارين في هذه الحرب المقدسة)[1].

وحسب إيرفنغ فإن تأخر الجيش الصليبي أمام طشكر قد مكن أبو عبدالله الزغل من تزويد مدينة بسطة بكل ما تحتاج إليه لمواجهة الحصار ، كما أرسل نداءات استغاثة لكل المناطق للجهاد في سبيل الله ، فلباه المسلمون من كل أنحاء الأندلس متطوعين للدفاع عن بسطة ، ولم يمنع تواجد القوات النصرانية في غرناطة مع أبي عبدالله الصغير من تسلسل الكثير من الفرسان من أهالي غرناطة والتوجه إلى بسطة للمشاركة في الدفاع عنها ، كما أرسل أبو عبدالله الزغل إلى واليه على المرية وصهره يحيى النيار بن سليم والذي يسميه إيرفنغ بسيدي يحيى بالتوجه إلى بسطة بأسرع وقت ممكن ، فأسرع القائد يحيى ومعه عشرة آلاف مقاتل ، وعندما وصلوا إلى مدينة بسطة خرج الأهالي لاستقبالهم ، وانضمت إليه القوات المنسحبة من حصن طشكر بقيادة حبوس بن عبد العال ، فضلاً عن قوات المدينة نفسها ، وبذلك بلغ عدد القوات الإسلامية المدافعة عن مدينة بسطة عشرين ألف مقاتل ، وكان سيدي يحيى هو القائد العام لهذه القوات[2] ، أما أبو عبدالله الزغل فإنه لم يستطع مغادرة مقره في مدينة وادي آش خشية أن يهاجمه ابن أخيه أبو عبدالله الصغير في غيبته[3].

---

١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٣.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٥/٥.

لم تكن الطبيعة المحيطة بمدينة بسطة سهلة المنال ، فهناك شبكة كبيرة من الأنهار والجداول التي تغطيها غابات كثيفة من أشجار الفاكهة والزروع تبدو للناظر كالغابة فضلاً عن سور المدينة والأبراج المحيطة بها والتي تؤمن الحماية لها ، وقد وصف إيرفنغ تلك التحصينات المحيطة بمدينة بسطة بقوله: (أما مدينة بازا فكانت في وادٍ عظيم خصب ، بطول حوالي أربعة وعشرين ميلاً وتسعة أميال عرضاً ، ويسمى حوض بازاً الذي تحيط به الجبال المسماة سيرا إكسا بالالكول التي منها تندفع مجموعة من الجداول وتجتمع بنهرين يسقيان هذه البلاد الخصيبة ، ورغم أن المدينة مبنية في السهول إلا أن جزءاً منها يستند ويحتمي بالجبل وعليها قلاع قوية ، ويحيط بالمدينة سور عالٍ وشديد ، فيه أبراج هائلة ، وللمدينة ضاحية من جهة السهل محمية بجدار طيني سيء —دكّ— وأمام هذه الضاحية مصاطب مزروعة بالحدائق طولها حوالي ثلاثة أميال ، وبها زراعة كثيفة جعلها تبدو كغابة ، يمتلكها سكان المدينة بشبه تساوٍ ، بحيث أن لكل منهم تقريباً حديقته الخاصة التي يزرع فيها حاجته من الفواكه والأزهار والخضار ، ويسقي هذه المصاطب جداول مائية صناعية تتحكم بها عبارات من الماء الذي يأتي من جانب الأبراج الدفاعية للمدينة ويمكن التحكم بها منها ، من خلال مجموعة سكور تشكل نوعاً من الحماية لهذا الجانب من المدينة الذي يمكن إغراقه إذا فتحت ، فيستحيل المرور بهذه المصاطب - الجروف — أو يصعب إلى أقصى الحدود ، مما يؤمن الدفاع عن المدينة من هذا الجانب)[1].

وعندما أخذ الجيش الصليبي يتقدم باتجاه مدينة بسطة عمل أهالي المدينة على حصاد زروعهم فضلاً عن قطعان المواشي والأغذية إلى داخل المدينة فأصبحت لديهم من التجهيزات والأغذية ما يمكنهم من الصمود خمسة عشر شهراً[2].

وفي رجب من سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م تقدمت قوات قشتالة بقيادة الملك فرناندو مع باقي القوات الصليبية إلى مدينة بسطة واستولت أولاً على العديد من الحصون القريبة منها ، ولإدراكه بقوة حامية المدينة وقوة تحصيناتها ترك قسماً من قواته تضرب الحصار عليها فيما

١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٣.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٤.

سار هو نحو ميناء المنكب Almunecr[1] في محاولة ذكية منه بقصد إطالة أمد الحصار على أهل بسطة وإرهاقهم أولاً ثم لتقسم سلطنة غرناطة إلى قسمين ، لأن استيلاءه على ميناء المنكب يجعل مدينة المرية معزولة تماماً يمنع من خلالها أي مساعدات قد تصل إلى غرناطة عن طريق البحر لاسيما وأنه كان قد استولى على مالقة منذ سنة٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م ، كما أصبحت غرناطة وما يليها من أراضي المسلمين معزولة تماماً عن البحر.

وأخيراً نصب الملك القشتالي فرناندو خيمته أمام مدينة بسطة وأحاطت بقية القوات الصليبية بالمدينة من معظم جهاتها وأخذت عليها المنافذ ، ثم أرسل طلبه إلى سكان المدينة بالاستسلام واعداً إياهم بأحسن الشروط إذا نفذوا طلبه وهددهم بأشد العواقب في حالة رفضه وحذرهم بأنه مع باقي قواته سيواصلون الحصار مهما طال الوقت[2].

عندما قرأ قائد مدينة بسطة يحيى النيار الطلب شعر بالإهانة وأعلن أنه لن يستسلم حتى لو دُفن تحت الأنقاض ، إلا أنه تراجع عن قراره هذا بعد عقده مجلس حرب مع أعيان المدينة تشاوروا خلاله طلب الملك القشتالي ، فقرروا إرسال جواب أكثر ليونة شكروه فيه على شروطه ثم أوضحوا له أنهم موجودون للدفاع عن المدينة لا لتسليمها[3].

عندها قرر الملك القشتالي تشديد الحصار على مدينة بسطة وحاول دفع بعض قواته التقدم إلى ما وراء الحدائق المحيطة بالمدينة والوصول بالقرب من أسوارها كي يمكن بطاريات المدفعية أن تضرب الأسوار ، وما أن تقدمت قوات الخيالة النصرانية نحو الحدائق حتى خرجت إليهم قوة مشاة من أهالي بسطة بقيادة يحيى النيار(الذي تسميه الرواية النصرانية بسيدي يحيى) للتصدي لهم ، فقد أدرك المدافعون أهمية الحدائق كخط دفاعي ، وأخذ يحيى النيار يثير حماس قواته بأنهم يدافعون عن الأهل والنفس والوطن والدين ، فاشتبكوا مع القوة القشتالية ، وبسبب كثافة الأشجار والجداول اضطرت القوة القشتالية إلى الترجل لعدم إمكانية الخيل في المناورة في تلك البيئة ، ودارت رحى معركة طاحنة وصفها إيرفنغ بقوله: (... ، فصارت مذبحة تحت ظل كل شجرة ووردة تختلف باختلاف موقعها ، وتتفق

---

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥/٢٢٤.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٤.

٣) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٥.

بشكل وحشيتها بشكل متميز ، لذلك لم يكن أحد يرى سوى ما حوله من منظر سفك دم ، ولا أحد بالتالي يعرف أي شيء عن تطور المعركة ككل ، وكل نداءات المقدمين ، وكل أبواق النفير ، ذهبت هباء ولم تسمع عبر صوت الأسنة ، وأنين الجرحى ، وزمجرة الرجال ، التي صارت عامة شاملة ، فلم يلتف واحد حول علمه ، ورح كل واحد يقاتل حسب ما تملي عليه حماسته الشخصية ، فكان للنصارى تقدم في بعض المواقع ، والعكس للعرب ، ليقع المتقدم الذي يطارد خصمه في خضم جيش الخصم دون أن يلاحظه ، فيصير الهارب مهاجماً والمهاجم هارباً ، بموجات متداخلة مع بعضها في هذا الصنف من القتال ، حتى أن البعض من شدة ارتباكه يلجأ لعدوه ، دون أن يتمكن أحد من معرفة صديقه من عدوه خلال هذا الصراع المبتذل ، لكن العرب كانوا الأمهر في هذا الصنف من المواجهة بالقتال ، لمرونتهم وخفتهم ورشاقتهم وسرعتهم بالضغط على الخصوم كراً وفراً ، فكرٌ ثانية مما كان يرهق خصومهم)[1].

وكان الملك فرناندو يراقب المعركة من حافات لحدائق ويشجع جنوده بالصمود وهو يرى المعركة أخذت بغير صالحهم ، فأخذ بإرسال تعزيزات لرفع معنوياتهم ، وفي المقابل ومن فوق أسوار مدينة بسطة كان النساء والأطفال يرسلون صرخاتهم لمقاتليهم بالصمود ، إلا أن تلك التعزيزات مكنت الجانب النصراني من تعزيز وجدوده واضطر المسلمون من أهالي بسطة إلى التراجع المنظم ووضع متاريس جديدة ، وبعد اثنتي عشرة ساعة من المعارك الضارية جاء الظلام ليرخي سدوله بين الفريقين وقد خيم الإعياء على الجانبين إلا أنه كان أشد على الجانب النصراني كونه في أرض جديدة وقريب من الأسوار فهم في مرمى أهالي وجيش مدينة بسطة ، وطوال الليل كثف أهالي بسطة رشقاتهم على النصارى مما منعهم من النوم والراحة وأوقعوا بهم جراحات بليغة ، وما أن سطعت أضواء صباح اليوم التالي أمام سور مدينة بسطة وإذا الجيش النصراني المنهك يصحو على جثث الكثير ممن فتك بهم المسلمون طوال الليل فضلاً عن العدد الكبير من الجرحى الذين صعب عليهم إنقاذهم ، وأمام هذا الموقف الصعب قرر الملك القشتالي سحب قواته إلى خلف الحدائق[2].

---

١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٥ – ٣١٦.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٧ -٣١٩.

أوقع هذا الهجوم الفاشل الإرباك في صفوف النصارى ، فتمركزه خارج حدود الحدائق والغابات يعرضه للكثير من المخاطر ، فالمدفعية لم تستطع أن تنال من أسوار المدينة ، كما أن كثرة المياه والأشجار والأدغال سيعرض الجيش للأمراض ، فضلاً عن أن الأمطار إذا عادت ستغرق الجداول والمنطقة بالمياه وتعزل المدينة عن الجيش النصراني المحاصر لها ، وأما هذا الموقف قرر الملك القشتالي فرناندو إرسال رسوله إلى الملكة إيزابيلا المقيمة في مدينة جيان طالباً منها الرأي وفيما يعمل ، فردت الملكة فوراً بأنها خولت الملك وقادته بتقدير الأمر واتخاذ ما يلزم ، وفي حال استمرارهم بالقتال تعهدت بإرسال المزيد من المال والعتاد والرجال حتى تستسلم المدينة أو تؤخذ عنوة[1] ، فساهم هذا الرد من الملكة على رفع معنويات الجيش الصليبي النصراني وقرروا الاستمرار في حصار بسطة.

كانت المنطقة الخضراء الكثيفة التي تحيط بمناطق من محيط مدينة بسطة تعد أهم معوقات تقدم الجيش الصليبي نحوها ، لذا قرروا اقتلاع تلك الأشجار ، فتقدم أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل من المشاة نحو أحد جهات المدينة فيما تقدم ستة آلاف فارس وعدد كبير من الشاة من الجهة المقابلة لهم ، وكان أغلب أولائك الفرسان من فرنسا والنمسا ، وهم مزودون بكل آلات الهدم والفؤوس ، وأخذوا يعملون بقطع الأشجار من أجل إزالة ذلك الغطاء الشجري الذي كان يحول بينهم وبين التقدم نحو المدينة ، وعبثاً حاول المدافعون من أهالي بسطة إيقاف ذلك ، وقد سخر الملك القشتالي معظم قواته لتحقيق ذلك الهدف ، وقد وصف إيرفنغ ذلك العمل الشاق بقوله كان فرناندو :(يعرف مدى أهمية إزاحة هذا الحاجز الشجري الذي يشكل ما شيبه الستارة الحامية للمدينة ، فسخر كل قواته لقلعها ، رغم ما في هذا العمل من جهد عظيم مضنٍ ، وما يحتاجه إلى صبر وَجَلَد ، لأن الأشجار كانت ضخمة جداً ومتراصة وممتدة على مسافة شاسعة يصعب قطعها ، لكن الذي سخرهم الملك لهذا الشأن ، كانوا أربعة آلاف رجل ، ورغم كل ذلك كانوا لا يقطعون أكثر من عشرة أمتار – خطوات – مربعة في اليوم ، بما فيه من مقاطعة لعملهم بسبب مهاجمة العرب المتكررة ، لذلك استغرق العمل مدة أربعين يوماً كاملة ، قبل إزالة كل أشجار هذه

1) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٩ -٣٢٠.

– المصاطب – الحديقة)[1].

وهكـذا أصـبحت مدينـة بسـطة عاريـة مـن بسـاطها الأخضـر ومكشـوفة بعـد إزاحـة أشجارها ، ثم عملوا على إحكام طوق حصار خانق حول المدينة في محاولة لعزلها تماماً ومنع وصول أي إمدادات إليها من الخارج ، فقاموا بحفر خندق عميق طوله ثلاثة أميال(أي ٦ كم) يربط بين المعسكرين اللذَيْن طوقا المدينة ، وعنه حولوا مياه الجداول وحموه بالمتاريس ، وبنو على طوله خمسة عشر برجاً للمراقبة ، كما حفروا خندقاً آخر عميقاً لمسافة ستة أميال(أي ١٨ كم) عبر الجبال خلف المدينة ليصلوا بين معسكرَيْهم من خلفها ، ودعموه بحائط ترابي وصخري ، كما حاول فرناندو بعد أن أطبق جيشه الصليبي على مدينة بسطة من جميع جوانبها قطع المياه عن المدينة باقتراح من القس والمؤرخ النصراني آغابيدا الذي قال له: (أهم لهؤلاء اللامؤمنين من الخبز ، لأنهم يغتسلون به يومياً من أجل وضوئهم الذي يجعلهم لامعين ، فيتمتع بذلك رجال دينهم الشياطين ، بألف طريقة وثنية بالحمامات وسواها من مقرات اللذائذ ، التي لا نهتم بها نحن الإسبنيار المسيحيين)[2] ، وعندما علم المسلمون عمدوا إلى نافورة قريبة منهم وحفروا منها قناة يتسرب منها الماء إلى داخل المدينة بحيث يصعب على النصارى تحويلها[3].

وفي الوقت الذي استمر الجيش الصليبي يحاصر مدينة بسطة وهي شا مخة بوجهه ، حاول الملك القشتالي القيام بعملية لرفع معنويات جنده ، فأرسل عدد من جنوده بحملة تعرضية على مدينة وادي آش التي يتحصن بها السلطان أبو عبد الله الزغل ، وذهب إيرفنغ إلى أن هذه العملية كانت تهدف إلى مباغتة مدينة وادي آش والحصول على الغنائم ، وتشكلت القوة من ثلاثمئة فارس ومئتي راجل وتحركوا تحت جناح الظلام ووصلوا إلى أطراف مدينة وادي آش ونهبوها وساقوا معهم قطعان المواشي وعدد من الأسرى وانسحبوا ، وعندما أحس الزغل بذلك أرسل في إثرهم قوة تمكن الفرسان النصارى من هزيمتها ورجعوا إلى معسكرهم محملين بالغنائم وقد نالوا بذلك ثناء الملك القشتالي واستحسانه[4].

كان صدى هذه الهزيمة التي حلت بجند أبي عبد الله الزغل فضلاً عن حصار مدينة

---

١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٢٢.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٢ نقلاً عن آغابيدا.

٣) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٢.

٤) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٣ –٣٢٥.

بسطة وعجزه عن نجدتها ومعاناة أهلها وصرخاتهم تدوي في معظم أنحاء ما تبقى بيد المسلمين من الأندلس لاسيما غرناطة التي بقي فيها أبو عبد الله الصغير يتفرج لا يحرك ساكناً ، لذا تحرك العديد من أهالي غرناطة لنجدة المدينة المحاصرة وفعلاً تسلل العديد منهم إليها ، وحينما علم فرناندو بذلك قام بقطع(كل إمداد يصل إلى المدينة ، ولتعترض أي قوة متطوعة من غرناطة ، ولأجل هذا الغرض بنى فرناندو أيضاً أراجاً جديدة على كل مرتفع إطلاق الإنذارات حين رؤية أية عمامة قادمة ، وهكذا بالتدريج أطبق بحصاره على سيدي يحيى ورفاقه الشجعان داخل أسوارهم ، بعزلهم عن بقية العالم ، وخط الأبراج المواجه للمدينة كان يُعزز دوماً بقوات صليبية جديدة وإضافية من كل العالم المسيحي في كل أسبوع بعد أسبوع ، وعلى هذا المنوال راحت الأيام تمر وفرناندو ينتظر من الحامية الخوّر أو المجاعة كي تستسلم)[1].

وخلال أيام الحصار تلك لم يخلو يوم من مواجهات وهي كرّ وفرّ من الجانبين ، وكانت الكمائن تُنصب من الجانبين توقع الخسائر بهم جميعاً ، كما تخلل ذلك أيضاً العديد من المبارزات الفردية التي تقع أمام الأسوار أو عند حافة الجبل القريب من بسطة ، وقد تفوق المسلمون أثناءها بشكل واضح وأوقعوا خسائر في العديد من رجالات النصارى ، مما دفع فرناندو إلى منع هذه المبارزات الفردية لأنه يعرف أن المسلمين متفوقون فيها مما سيضعف الروح المعنوية لجنده ، لذا فأنه كان يفضل القيام بهجمات بأعداد كبيرة ، وكان معول المسلمين الوحيد بعد أن انقطع أملهم بمساعدات من الزغل أو غيره هو أن يتعب النصارى من الحصار ويسود بينهم التذمر فينسحبوا[2]

محاولات الاستغاثة

وفي تلك الأثناء أرسل أبو عبد الله الزغل استغاثة إلى سلطان مصر الملك الأشرف قايتباي المحمودي[3] لنجدة المسلمين في الأندلس ، فأرسل الأخير عدة سفارات إلى بعض زعماء النصارى آنذاك منهم البابا في روما وكذلك إلى ملكي قشتالة ، وبخصوص السفارة

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٧.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٧ -٣٢٨.

٣) وهو أحد سلاطين المماليك الشراكسة حكم مصر للمدة(٨٧٣ -٩٠١ هـ/١٤٦٨ -١٤٩٥ م)، ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ١٢٢/٢.

الأخيرة فقد أرسل اثنين من قساوسة بيت المقدس أحدهما يعرف أنطونيو ميلان ، وقد وصلا إلى أسبانيا في أواخر خريف سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م وهما يحملان رسالة من سلطان مصر إلى بلاط قشتالة يعاتبان فيها ملوك النصارى على ما يتعرض له المسلمون في الأندلس وغرناطة من غزو أراضيهم وسفك دمائهم في وقت كان الملايين من النصارى في مصر وبيت المقدس يتمتعون بجميع الحريات آمنين على أموالهم وأنفسهم وعقيدتهم ، وطالب بالكف عن الاعتداء عن المسلمين وإيقاف غزو أراضيهم ، وبعكسه فإن السلطان سوف يضطر إلى المعاملة بالمثل لرعاياه النصارى ويمنع دخولهم إلى الأراضي المقدسة ، بل وقد يعمل على هدم قبر المسيح عيسى وكل الأديرة والمعابد في بلاده[1].

وأضاف المؤرخ والقس آغابيدا المعاصر للأحداث ، بعد أن أعطى وصفاً دقيقاً للسفيرين ، أنهما هددا(ما لم تقف هذه الحرب ، ويستعيد مسلمو مملكة غرناطة كل ممتلكاتهم التي هُجّروا منها ، سوف يعمد إلى قتل كل نصارى بلاده ، وإزالة كنائسهم وأماكن عبادتهم ، وأكثر من ذلك سوف يدمر كنيسة المهد والصليب المقدس ، هذا التهديد المرعب انتشر في كل الجزيرة)[2].

وقد جرت هذه المقابلة بين السفيرين وملك قشتالة فرناندو تحت أسوار مدينة بسطة وهو محاصر لها ، وجرى لهما استقبالاً حافلاً ومميزاً ، ثم سلما له رسالة سلطان مصر ، وقد وصف آغابيدا ذلك بقوله: (لذلك استقبل فرناند هذين الرجلين بكل تميز أكثر من سواهم ممن يلبس لباس الرهبنة في قصره ويميز نفسه به ، وأمضى معهما أحاديث طويلة عن البلاد المقدسة ، ووضع المسيحيين والكنائس فيها تحت حكم هذا السلطان المصري ، وسياسة هذا الكافر تجاهها ، وكان جواب الفرنسيسكان صريحاً وواضحاً ، بينما كان الملك يظهر مدى تميزه اللغوي في عصره ، رغم أنه قد أصغى في الواقع إلى همس صاحبيه المليء بالحكمة والتواضع والوضوح والطلاقة)[3].

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٠ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢١/٥.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٠ عن مخطوطة آغابيدا.

٣) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣١ عن آغابيدا.

وقد زعم آغابيدا أن السفيرين أظهرا نوعاً من العطف والارتياح لما شاهداه من بطولات أبناء دينهم من النصارى وهم يجالدون أعداءهم المسلمين على أسوار مدينة بسطة وأخذوا بالدعاء لهم على عدوهم ، وتمنوا أن يمكنهم الرب من حملة صليبية أخرى إلى البلاد المقدسة ، إذ قال: (إن ما سمعاه المبعوثان من الملك ، وما شاهداه في المخيم ، وهما محاطان بالفرسان والمجاهدين ، كان درساً حقيقياً لهما جعلهما يرسخان إيمانهما بالأراضي المقدسة أرض الصليب المقدس للرب سيدنا ، ومعاناة من يحفظهما من إخوانهم ، وما يقدمه لها الحجاج من نذورهم رغم كل الصعاب ، فهي باب النجاة التي ستظل مشعة على قلوب هؤلاء الرجال وهم يلبسون الزرد والحديد ، لكي يرفعوا من شأن الصليب بكل أباء على العدو ، وتواضع فيما بينهم ، يظهر بمدى عمق تبجيلهم لهؤلاء الزوار ، وخفض أصواتهم أمامهم ، وهم يخبرونهم أخباراً وقصصاً عمّا حصل لهم من معارك مع هؤلاء الزنادقة ، وهم يقبضون على مقابض سيوفهم ، ويصرون على أسنانهم لما سيحصل مع إخوانهم هناك في الأراضي المقدسة ، وفي الوقت نفسه يصلون لهم دائماً ، ويدعون الرب أن يمكنهم من حملة صليبية أخرى إلى تلك البلاد)[1].

وبعد انتهاء مهمة السفيرين في مقابلة الملك القشتالي فرناندو ودعهما بمثل ما استقبلهما من حفاوة ، توجها إلى مدينة جيان لمقابلة الملكة إيزابيلا وقد وصف إيرفنغ نقلاً عن آغابيدا تلك المقابلة بقوله: (واتجهوا نحو جين لزيارة أرفع ملكة كاثوليكية ، يعتبرون قلبها مقراً لكل شفقة وإحسان — حين كانت تصلي وتسمع اغتصاب الأطفال أمامها في قصبة ملقة[2]– فاستقبلتهم كرجال مقدسين بهم ما يزيد عن كل كرامة إنسانية وظلوا بحضرتها طوال إقامتهم في المدينة ، وكان المحترم الأب السفير قد أغدق جلالتها بعباراته الأدبية اللاتينية

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٢ عن آغابيدا.

٢) وصف إيرفنغ ما حصل لأطفال ونساء مالقة عندما دخلها ملكي قشتالة بقوله :(وقد حيل في كثير من الأحيان بين الأم وطفلها، كما تتفرق الأرواح عن أبدانها، أو اغتصبت طفلة أمام ناظر أبويها في زوايا الشوارع المعتمة للقصبة، وهكذا مزقت عائلات عن بعضها لكي لا تجتمع ثانية مدى الدهر، والأبناء عن آبائهم، والنساء عن أزواجهم، والأمهات عن أطفالهم، وحزنهم وألمهم هو مجال سخرية أعدائهم، النصارى، دافعهم لهم كي يعتدوا عليهم أكثر، من منطق أن الخضوع يزيد من شراسة الغالب)، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٠.

الفخمة ، كما لاحظ مرافقوه الذين وجدوا إذناً صاغية من الملكة لها دوماً ، وكان هذا الحلس[1] الملس[2] ينال دوماً الجوائز على تواضعه ، فقد أكد آغابيدا : أنها ضمنت له دخلاً سنوياً بقيمة ألف دوقة من الذهب لينفقها كما يشاء على رهبان الصليب المقدس في القدس ، وأكثر من ذلك وفي لحظة وداع هؤلاء السفراء قدمت لهما الملكة الكاثوليكية الورعة شالاً حاكته يداها الغاليتان ، كي يوضع فوق كنيسة القيامة في مكان الصليب المقدس ، كأثمن هدية دفعت إلى كل عبارات الشكر من حاملها ، مما دفع بالدموع إلى عيني كل هذا الحضور المقدس)[3].

ونرى أن ما أبدياه الملكان الكاثوليكيان تجاه سفراء سلطان مصر من حفاوة واستقبال يمثل قمة الدبلوماسية المزيفة ، فهما في الوقت الذي يظهران احترامهما للوفد الإسلامي كانا يمارسان أقسى أنواع التجويع والتهجير والقتل بحق المدن والقرى الإسلامية حول مدينة غرناطة ، ومع ذلك أجابا السلطان بكل أدب ومجاملة: (أنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين ، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية)[4].

وهكذا انتهت هذه المهمة دون أن نرى نتائج ملموسة لنجدة المسلمين في الأندلس ، وقد أشار عنان إلى ذلك بقوله: ولسنا نعرف ماذا كان مصير هذه الرسالة ، ولكننا نرجع أنها وصلت إلى بلاط القاهرة ، وإن كنا لا نلمس لها أثراً في حوادث هذا العصر ، وليس في تصرفات حكومة مصر يومئذ ما يدل على أن السلطان نفّذ وعيده ، باتخاذ إجراءات معينة ضد النصارى أو ضد الآثار النصرانية المقدسة ، والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بحركات بايزيد الثاني[5] ، وصد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية ،

---

١) الحلس الكبير من الناس الذي لا يبرح مكانه وهو ذم لأنه لا يصلح إلا للزوم البيت، ينظر : الزبيدي، تاج العروس، ٥٤٦/١٥(مادة حلس).

٢) الملس قيل الخصي، وقيل الذي بيع الشيء ولا يضمن عهدته، وقيل الملس من الإفلات، وقيل الملس هو اللين الشديد، وهي كلها صفة ذم، ينظر : الزبيدي، تاج العروس، ٥١٥/١٦ -٥٢١(مادة ملس).

٣) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٢ -٣٣٣.

٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٢/٥.

٥) حكم السلطان بايزيد الثاني الدولة العثمانية للمدة(٨٨٦ -٩١٢ هـ/ ١٤٨١ -١٥٠٦ م)، ينظر:=

وكان الاضطراب من جهة أخرى يسود شئون مصر الداخلية ، ومن ثم فإنه يبدو أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس قد وقفت عند هذا الحد ، ولم تتعد قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال الظروف والمؤثرات الدينية ، وهكذا فشلت هذه المحاولة الدبلوماسية الفطنة التي بذلتها مصر ، وتركت الأندلس إلى قضائها المحتوم[1] ، كما علق خطاب على ذلك قائلاً : ومن الواضح ، أن وعيد سلطان مصر كان كاذباً ، كما أن جواب الملكين له كان كاذباً أيضاً ، لا يصدقه كاتبه ولا غيره[2].

سقوط مدينة بسطة واستسلامها للنصارى سنة ٨٩٥ هـ/ ١٤٨٩م

بعد أن انقطع أمل أهالي مدينة بسطة والمدافعين عنها من كل معين خارجي ، كان معولهم الوحيد هو أن يأتي الشتاء وتفيض الجداول فيضطر المحاصرون إلى التراجع تحت ضغط الطبيعة ، وقد أشار إيرفنغ إلى أن قائد بسطة كان يعول على ذلك بقوله: (إن موسم الأمطار على وشك الهطول ، وسينزل الفيضان من الجبال ، وستملأ الأنهار والوادي بالماء ، والملك الصليبي يعرف هذا جيداً ، وهو لم يجرأ على مواجهة هذا الموسم بوادٍ معزول عن العالم بأقنيته ومياهه الفياضة ، فعاصفة شتوية من جبالنا سوف تزيل مدينته المطرزة هذه ، وكل شوارعها المزخرفة برشة بردٍ يعقبها هطول)[3].

لم يكن ذلك التفكير ليغيب عن الملك القشتالي وزوجته ، فقد قررا أن يُحوّل المخيم إلى مدينة ثابتة بإمكانها أن تصمد لمقاومة الشتاء ، ولكي يقنع المسلمين أنه مصر على الاستمرار في الحصار واقتحام مدينة بسطة ، ولذا استدعى عدد كبير من المهندسين لسرعة البناء وانجاز العمل ، وما أن انتهوا من ذلك حتى فاجأهم المطر ينزل بغزارة فانهارت الكثير من البيوت التي تم بناؤها ، وتقطعت الطرقات وفاضت الجداول والأنهار ، وانقطعت الإمدادات ليوم واحد ، فساد الذعر في معسكر النصارى ، إلا أن الأمطار لم تستمر إذ توقفت ، وعادت مجاري الأنهار إلى وضعها السابق ، وما أن وصل الخبر إلى إيزابيلا في

=فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٧٩ -١٨٧.

١) دولة الإسلام في الأندلس، ٥/٢٢٢.

٢) قادة فتح الأندلس، ٢/٢٣١.

٣) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٦.

جيان حتى جندت ستة آلاف شخص واستدعت الخبراء في إصلاح الطرق والجسور وأمدتهم بكل ما يحتاجونه من مال ومعدات حتى أعادت كل ما هدمته الأمطار ، وبذلك تواصل تدفق الإمدادات إلى الجيش الصليبي المحاصر لمدينة بسطة[1].

وخلال شتاء سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م أخذ المسلمون المُحاصرون في مدينة بسطة يكثفون من غاراتهم على القوات الصليبية بقيادة الملك القشتالي فرناندو أملاً منهم في زعزعة موقف الأخير تحت ضغط الشتاء القاسي ، وفي الوقت نفسه أخذت الآمال تضيق بالمدافعين بسبب قلة التموين ونفاذ الأموال ، ومن أجل رفع معنوياتهم واستغلال وقت الشتاء حاطب القائد المسلم سيدي يحيى أهالي بسطة المقاتلين قائلاً: (إن العدو لا يجروأ أن يواجه الشتاء وهجماتنا معاً ، لذلك سوف يرحل عنكم قريباً ، لتعودوا إلى أسركم ، ولكن عليكم تأمين رواتب الجند حتى تحميكم ، فقد فرغت خزينتنا ، وقطع عنا المدد ، فمن المحال أن نظل ندافع دون عونكم)[2].

وقد لبى أهالي بسطة ذلك النداء من أجل إنقاذ مدينتهم من السقوط بيد الصليبيين ، فجمع النساء حُليهنّ من ذهب وفضة لدفع رواتب الجند ، وقد علق إيرفنغ على ذلك قائلاً: (وهكذا صارت نساء بازا لا تبخل بحليها من أجل ذلك ، فليس من الحكمة أن تُصّف المجوهرات على أيديهنّ وبلادهنّ والمدافعون عنها بحاجة إلى الخبز ، وهكذا رحنّ يقدمنّ أساورهنّ وأطواقهنّ وكل مجوهراتهنّ إلى هذا السيد المدافع ، لكي يستمر بحمايتهنّ وحماية أسرهنّ ، لأنه إذا سقطت بازا فلا حاجة لهنّ بأي حليّ ، يفرح بها ناهبوها ، وهنّ سبايا لهم)[3].

وبذلك تمكن القائد يحيى النيار من دفع رواتب جنده لكي يتمكنوا من الدفاع عن بسطة بروح عالية ، وعندما سمع الملك فرناندو بما فعل سكان بسطة من دفع المال للجند على أمل انسحاب جيشه وترك الحصار قال: (سأعطيهم برهاناً مقنعاً عن خطأ آمالهم هذه ، فكتب إلى إيزابيلا طالباً منها أن تحضر إلى المعسكر مع كل حاشيتها بشكل علني ، وتأخذ مكانها للإقامة معه في الشتاء ، وبذلك يقتنع العرب بتصميم الملكين النهائي على استمرار

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٧ -٣٣٨.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٠.

٣) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٠.

الحصار حتى تستسلم المدينة ، وقد تأكد بأن هذا سيسرع في إسقاطها)[1].

في الوقت أخذ الذي بعض الأمل يسود صفوف المسلمين المدافعين عن بسطة بأن صمودهم سيسهم في رفع الحصار ، إذ سمعوا هتافات الفرح في صفوف الجيش الصليبي وأطلقت مدفعيتهم إحدى وعشرين طلقة تحيي زائراً كبيراً وصلهم ، فإذا هو موكب الملكة إيزابيلا مع جميع حاشيتها وحرسها ورجال بلاطها ، وقد وصف إيرفنغ الموكب بقوله: (... ، إنها الملكة ، وهي تركب بغلاً عليه غلالة مطرزة بالذهب وتحف بالأرض ، وعلى يمينها تركب ابنتها الأميرة إيزابيلا الصغيرة على مطية مزخرفة بشكل مشابه رائع ، وعلى يسارها كاردينال أسبانيا الأكبر ، ويتبعهم نساء البلاط وكوكبة من الفرسان ، مع حرس من ذوي الرتب العالية بسلاحهم الفائق)[2].

وعندما تأكد أهالي مدينة بسطة من وصول الملكة إلى المعسكر الصليبي وانضمامها إلى زوجها سُقِطَ في أيديهم ، وقد علق أحد قادتهم على ذلك قائلاً: (أيها الفرسان لقد حُسِمَ مصير بازا)[3] ، وقد اقترح البعض استغلال انشغال الجيش الصليبي بالملكة ومهاجمة ذلك الموكب ، فاعترض القائد يحيى النيار على ذلك قائلاً: إن (شخصية الملكة كأنثى تظل محترمة من كل الفرسان ، عرباً كانوا أم أسباناً ، وكل فرسانه يجسدون هذا الفهم الفروسي للأمور الذي تقره كل روح بطلة وثّابة ، خاصة وأنهم من خيرة وأنبل فرسان هذه الأمة)[4].

وأشار إيرفنغ بأن أهالي مدينة بسطة هبوا بأجمعهم لمشاهدة ذلك الموكب وقد تدافعوا من على السور والأبراج ومنارات المساجد وكل شيء مرتفع للإطلال على هذا المنظر إذ (بعد أن تلاقى الملكان وتبادلا القُبل والتحيات الرسمية ، ليدخلا المعسكر على أنغام عسكرية ، ليجعلوا أعين اللامؤمنين تزيغ بين لمع حرابهم ودروعهم المزركشة بالذهب ، وسروج خيولهم الحريرية المطرزة بالخيوط الذهبية والفضية بألوانها البراقة ، وبين الأنغام العسكرية التي تضرب الطبول والأبواق بكل عنف مع أصوات الهتافات التي يطلقها الجند

---

١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٠ -٣٤١.

٢) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٢.

٣) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٢.

٤) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٢.

لتشق عنان السماء)[1] ، وأشار أيضاً أنه أمام انبهار أهالي بسطة وجندها ودهشتهم وفرح النصارى بمليكهم توقفت كل الأعمال الحربية بين الجانبين[2]

أدرك أهالي بسطة والقادة المدافعون عنها أن لا جدوى للمقامة وأن أي عناد سيؤدي إلى سفك المزيد من الدماء بدون مقابل ، لذا طلب قائد مدينة بسطة من الجانب القشتالي التفاوض ، وتشكلت هيئة من الجانبين اجتمعوا بين المعسكر النصراني والمدينة ، وقد حذر الجانب النصراني الوفد المسلم من عواقب ما حصل بمالقة بسبب العناد ، ووعد بأن المدينة إذا سلمت فوراً أن يعاملون كرعايا وتحمى أملاكهم وحريتهم ودينهم ، عندها طلب الوفد المسلم الرجوع إلى المدينة للتشاور ، وبعد مشاورات بين القادة ووجهاء مدينة بسطة قرروا الطلب من الجانب النصراني السماح لهم بمفاتحة السلطان الزغل في مدينة وادي آش عن شروط الاستسلام ، وقد وافق الجانب النصراني على ذلك ، وسهل مهمة ذلك الوفد الذي سيقابل السلطان الزغل[3].

وصل وفد مدينة بسطة إلى وادي آش واجتمعوا مع الزغل وسلموه رسالة القائد يحيى النيار التي شرح له فيها ما وصل إليه حال مدينة بسطة وما حلت بهم من مصيبة ، عندها طلب الزغل منهم مشاورة أهل الحل والعقد والفقهاء بما يمكن عمله تجاه بسطة ، إلا أنهم لم يتمكنوا من الوصول قرار واحد ، وقد وصف إيرفنغ حالة الاضطراب التي حلت بالسلطان الزغل وحاشيته بقوله: (والواقع أن الزغل ما كان يثق بهذه الرسالة لو أنها جاءت من شخص آخر ، ولكنه كان يثق بسيدي يحيى كما يثق بنفسه ، لذلك أصابه ما في هذه الرسالة بالقلب ، فبعد أن قرأها شرد ذهنه طويلاً ، وظل في صمت مطبق ، ورأسه منحن على صدره ، وأخيراً عاد إلى نفسه طلب أهل الحل والعقد والفقهاء في غواديكس ، وأخبرهم بما حصل في بازا طالباً نصحهم ، والزغل حين يطلب نصح الآخرين يكون منهك القلب ، قد هدأت روحه القتالية ، لأنه رأى نهاية حكمه تقترب ، ولم يفعل هؤلاء أكثر من إضفاء المزيد من البلبلة على فكره ، باختلاف آرائهم التي كانت كلها عقيمة ، فما لم تدعم

---

١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٣.
٢) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٣.
٣) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٣ -٣٤٤.

بازا بجيش قوي ، لم تصمد ، وقد ثبت استحالة دعمها بشكل فعال)[1].

وهكذا لم يتوصل المجتمعون في وادي آش من حسم الموقف ، عندها اجتمع الزغل بالوفد بشكل منفرد وحملهم رسالة إلى القائد يحيى النيار يطلب منه فيها أن يتصرف بما يراه مناسباً وأنه لا يمكنه مساعدته ، وعندما عاد الوفد إلى مدينة بسطة ، وقرر القائد يحيى النيار عقد شروط الاستسلام التي تضمنت: السماح (لكل الجنود والفرسان الذين جاؤوا للدفاع عن المدينة من أماكن مختلفة أن يغادروا بسلاحهم وخيولهم وكل عتادهم ، أو أن يبقوا في الضاحية ويتمتعوا بدينهم وقوانينهم ، بعد حلف اليمين للملك ، ودفع الضرائب التي كانوا يدفعونها الملوك العرب له ، على أن تُسلّم المدينة وقلعتها خلال ستة أيام ، خلالها يستطيع السكان الخروج بكل ما يملكون ، وأثناء ذلك يستلم قائد ليون خمسة عشر طفلاً من أبناء وجوه البلد ، وحين سيسلم سيدي يحيى وسيدي محمد[2] هؤلاء الرهائن الذين من بينهم أولادهما ، يؤديا فروض الطاعة للملك والملكة)[3].

وهكذا بعد حصار دام ستة أشهر وعشرين يوماً استسلمت مدينة بسطة ، إذ أن حصار المدينة بدأ في رجب من سنة٨٩٤هـ/١٤٨٨م ، ودخلوها في العاشر من محرم سنة٨٩٥هـ/ الموافق الرابع عشر من ديسمبر ١٤٨٩م[4] ، وأشار إيرفنغ عقب ذلك بقوله: (ودخل الملك والملكة في اليوم التالي من الفاتحين ، وقد أخرجوا منها خمسمئة أسير مسيحي ، استقبلهم المعسكر بالتهليل والفرح العام ... ، وقد كانت خسائر الصليبيين في هذا الحصار عشرين ألف رجل ، مات منهم سبعة عشر ألفاً بالأمراض)[5].

وقد وصف مؤلف مجهول مسلم معاصر للأحداث حالة المسلمين في مدينة بسطة وظروف تسليمها إلى النصارى بقوله: (والمسلمون قائمون ببلدهم غالبون لعدوهم فَكلما

---

١) **أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٧.**

٢) **وهو محمد بن حسان من وجوه مدينة بسطة وأحد القادة الذين شاركوا في الدفاع عنها، ينظر : إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٣.**

٣) **إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٨ ؛ ينظر أيضاً : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٦/٥.**

٤) **مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٧ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص ٢٢٦ ؛ الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٥٣ ؛ خطاب، قادة فتح الأندلس، ٢٣٥/٢.**

٥) **أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩.**

أَرَادَ الدنو من الْبَلَد قمعوه وردوه على عقبه خائباً خاسراً ، وَلم يقدر على نصب نفط وَلَا عدَّة من آلَة الْحَرْب ، فَلَمَّا كَانَ شهر شَوَّال شدّ عَلَيْهِم الحصار وَعمل على الْبَلَد سوراً من خشب وحفيراً عَظِيماً وَجعل على ذَلِك الرِّجَال والحرس لِئَلَّا يدْخل دَاخل من أنجاد الرِّجَال إِلَيْهِم الَّذين يأْتونَ لنصرتهم وإعانتهم على عدوهم وَلَا من يجلب لَهُم الطَّعَام ، فَلم يعبأ الْمُسلمُونَ بِمَا صنع بل كَانُوا يخرجُون من النقب ويهبطون من على الأسوار ويقتلونهم فِي محلتهم ، وَفِي كل مَسْلَك يسلكونه حَتَّى قتلوا مِنْهُم خلقا كثيراً ، وَكَانُوا يحملون الْمُسلمين الواردين عَلَيْهِم لنصرتهم بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ من الطَّعَام فبقوا على هَذِه الْحَالة من شدَّة الْحصار شهر شَوَّال وَذَا الْقعدَة وَذَا الْحجَّة ، وَفِي آخر ذِي الْحجَّة من عَام التَّارِيخ تفقد أَعْيَان الْبَلَد مَا بَقِي فِي بلدهم من الطَّعَام وَذَلِكَ فِي خُفْيَة من الْعَامَّة فَلم يجدوا إِلَّا مَا يُقَام بِهِ أَيَّامًا قَلَائِل ، فبعثوا لملك الرّوم وطلبوا مِنْهُ الْأمان على شُرُوط اشترطوها فوجدوه رَاغِبًا فِي ذَلِك فجعلُوا بَينهم هدنة وَالْكَلَام يتَرَدَّد بَينهم فِي خُفْيَة من الْعَامَّة فأجابهم بِجَمِيعِ مَا طلبوه مِنْهُ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْم الْجُمُعَة عَاشر محرم الْحَرَام فاتح عَام خَمْسَة وَتِسْعين وثمان مئة أدخل قواد الْبِلَاد جمعاً من النَّصَارَى للقصبة على حِين غَفلَة من الْعَامَّة فملكوا القصبة وقهروا من كَانَ بِالْبَلَد من الْعَامَّة وَغَيرهم وَسقط فِي أَيْدِيهِم ثمَّ إِنَّهُم سرحوا من كَانَ عِنْدهم من أنجاد الرِّجَال والفرسان الَّذين كَانُوا عِنْدهم يعينونهم على نصْرَة عدوهم فَخَرجُوا مُؤمنين بخيلهم وأسلحتهم وأمتعتهم كَمَا شَرط عَلَيْهِ قواد الْبَلَد فَسَارُوا إِلَى مَدِينَة وَادي آش وأخلوا الْبَلَد للنَّصَارَى وَخَرجُوا إِلَى الأرباض بِمَا مَعَهم من أَمْوَالهم وأمتعتهم مُؤمنين وَلم يتْركُوا شَيْئاً)[1].

أما عن مصير قائد المدينة يحيى النيار ومساعده محمد بن حسان اللذين طالما وقفا مقاتلَين مدافعَين مجاهدَين عن دينهم وبلدهم ومدينتهم ببسالة وإخلاص ، فإن صاحب نبذة العصر لم يشر إلى ذلك ، أما الرواية النصرانية فذهبت إلى أنهما وتحت بؤس النكسة ولحظات اليأس ومغريات الدنيا هبطا في درك الخيانة ، واستسلما لمغريات الملكين الكاثوليكيين فارتدا عن دينهم واعتنقوا النصرانية ، فتوجا لهما نهاية سوء ، وقد علق إيرفنغ

---

١) نبذة العصر، ص ٩٦ –٩٨.

ذلك بقوله: (فاستقبلهما الملك والملكة بحفاوة بالغة وبلطف زائد ، وأهدياهما من أفخر الهدايا ، كذلك قدما الهدايا إلى كل الفرسان معهما ، وتضمنت المال والثياب والخيول وباقي الأشياء الثمينة ، فامتن سيدي يحيى لهذه المقابلة ، ولهذا الكرم من فرناند وإيزابيلا إلى درجة أنه أقسم أن لا يرفع سيفه ثانية ضد مثل هذين الملكين الكريمين ، أما الملكة ولإعجابها بصموده وقدراته العسكرية وإخلاصه ، أكدت له أن وجوده إلى جانبها قد أنهى الحرب التي تدمر غرناطة ، وهكذا كانت الكلمات والمجاملات تخرج قوية من شفاه الملكين ، مما جعل سيدي يحيى النيار يعجب ويغمر بالكلام الذي تقوله إيزابيلا ، فشعر بولاء مفاجيء لها ، فطلب منها أن تضمه إلى حاشيتها ليخدمها ، وفي غمرة هذا الحماس المفاجئ طلب أن لا يكون سيفه في خدمتها فقط بل أن يستعمل كل نفوذه الذي كان عظيماً بإقناع مولاي الزغل بأن يسلم لها مدينتي غواديكس والمرية ، وأن يكف عن عدائه للملكين ، وقد كان تأثير هذا اللقاء الملكي قوياً جداً على هذا الفارس ، ليصل الأمر إلى دينه ، فقد تنور فجأة بأن المحمدية بدعة هرطوقية ، وأعجب بالنصرانية كحقيقة دينية مستنيرة تخرّج ملوكاً بهذا الشأن ، ولذا طلب أن يُعمّد ، وأن يُحمل فوراً إلى الكنيسة)[1] ، وجدير بالذكر هنا أن تحول القائد يحيى النيار إلى النصرانية وتعميده كان سرياً كي لا يعد مرتداً في عين شعبه[2] ، كما أنه سيجند كل طاقته بعد ذلك لخدمة الملك النصراني عن طريق تخذيل الناس وثنيهم عن المقاومة.

وأشار عنان إلى الوثيقة التي وقعها يحيى النيار مع مندوب الملك فرناندو في٢٥ديسمبر سنة ١٤٨٩م(محرم ٨٩٥هـ) وفيها يؤكد فرناندو للقائد يحيى النيار زعيم بسطة والمرية ، بأنه سوف يستقبله تحت حمايته هو وولده وأبناء عمه ، وينزلهم في داره ، ويعاملهم بما يليق بهم معاملة أشراف مملكته ، ويدافع عنهم وعن أملاكهم وأتباعهم ، ثم يقول ملك قشتالة مخاطباً يحيى: وأنه إذا صحت عزيمتكم حقاً على اعتناق النصرانية ، وعلى أن تخدمني وتعاونني برجالك ، فإني سوف أكتم ذلك طول مدة الفتح ، حتى لا يتقوّل عليك رجالك ، ولهذا فإنك تستقبل التعميد المقدس سراً في غرفتي ، حتى لا يعرفه المسلمون إلا بعد تسليم

---

١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٨.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩.

وادي آش ، وأن الكروم والقرى والحصون التي تؤول إليك بالميراث عن والدك أمير ألمرية ، أهبها لك لتملكها وتتصرف فيها كما تشاء ، وعهدي لك بذلك أنا والملكة زوجي ، وأنه لن تدفع أنت وابنك وأبناء عمك وأعقابك وحشمك ، أي مغرم أو جزية في سائر مملكتي إلى الأبد ، وأنه تشريفاً لشخصك يسمح لك بأن يصحبك عشرون فارساً مسلحون بكل ما يرغبون ، وأن تتجول بهم حيث شئت في أنحاء مملكتي ، ويتمتع ولدك بمثل ذلك ، وأنه إذا تنازل صهرك ملك وادي آش عن نصف الملاحات التي أهبها إليه ، فإني أهبك دخلاً قدره خمسمائة وخمسون ألف مرافيدي في ملاحات دلاية[1] ، وفضلا عن ذلك ، فإنه إذا تم تسليم وادي آش في الموعد المتفق عليه ، فإني مكافأة لك على جهودك في خدمتي لدى ملك وادي آش وغيره من القادة ، أهبك عشرة آلاف ريال ، وأقدم لك سائر البراءات اللازمة بما تقدم[2].

نتائج سقوط مدينة بسطة على الأندلس

كان من أولى نتائج سقوط مدينة بسطة بيد القوات الصليبية بقيادة ملكي قشتالة أن ساد حالة من الذعر في معظم المناطق التي كانت في حوزة المسلمين من الأندلس ولاسيما مناطق شرق غرناطة ، فسارعت معظم المدن والحصون القريبة من بسطة إلى التسليم والدخول في طاعة ملك النصارى ، وقد علق صاحب نبذة العصر(وهو معاصر للأحداث) على ذلك بقوله: (ثمَّ إن ملك الرّوم دمره الله جعل فِي الْبَلَد قائداً من قواده حَاكماً ورتبه وأشحنه بِمَا يحْتَاج إِلَيْهِ من أَطْعمَة وَزَاد وَآلَة حَرْب ، وارتحل من مَدِينَة بسطة يُرِيد المرية فَلم يمر على حصن وَلَا على قَرْيَة إِلَّا وَدخل أَهلهَا فِي ذمَّته وَتَحْت طَاعَته من غير حِصَار وَلَا قتال)[3] ،ولم تختلف عن ذلك الرواية النصرانية ، فقد أشار إيرفنغ إلى أنه بعد سقوط بازا (بسطة) استسلمت معظم الحصون والجبال القريبة بشكل سريع إذ(كان الناس يأملون بالحصول على شروط جيدة شبيهة بالتي أعطيت لهذه المدينة ، كما أمل أسياد هذه المناطق بجوائز مشابهة للتي حصل عليها قادتهم ، ولم يخب أمل أيّ منهم ، فقد سمح ببقاء

---

١) دلاية بلد بالأندلس قرب المرية، ينظر : ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٢٢.

٢) دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٥/٥ -٢٢٦ ؛ ينظر أيضاً : خطاب، قادة فتح الأندلس، ٢٣٦/٢.

٣) مؤلف مجهول، ص ٩٨.

السكان كخول للنصارى ليبقوا في أملاكهم وعلى دينهم ، أما أسيادهم الذين راحوا يتوافدون على المعسكر لإعلان ولائهم ، فكان فرناندو يستقبلهم بشكل متميز ، ويحملهم الهدايا والأموال حسب أهمية المكان الذي كان تحت قيادتهم وسلموه ، وكان الملك حريصاً على عدم التعرض لكرامتهم أو جرح كبريائهم ، لذلك كانت الأموال تدفع لهم جزاء خدماتهم للحكومة السابقة ، وهكذا بعد أن كان فرناندو يفتح البلاد بالسيف ، وجد بعد بازا أن الذهب يكلفه أقل)[1].

وهكذا تحول يحيى النيار من مجاهد بطل إلى معول هدم وقدوة سيئة لبقية زعماء تلك الحصون الذين سارعوا إلى الارتماء في الخيانة وسلموا ما تحت أيديهم دون مقاومة مقابل شراء ذممهم بالأموال التي أغدقها عليهم الملك النصراني ضانين أن ما فعله المجاهد والورع يحيى النيار هو الأصلح لبلدهم ودينهم دون أن يطلعوا على خفاياه.

إلا أن علي بن فهر قائد حصن برشانة ، وهو أحد الحصون التابعة لبسطة—عندما رأى زعيمه يحيى النيار وبقية رؤساء الحصون يتهافتون على هدايا الملك النصراني وقف صامتاً حين تسليم حصنه ، وعندما قُدمت له الهدايا من قبل فرناندو رفضها بكل إباءٍ كما ذكر إيرفنغ قائلاً: (أنا مسلم ومن أصول عربية ومغربية ، وسيد مدينة وقلعة برشينا وباتريا اللتين عُهِدتا لي كي أدافع عنهما ، ولكن من عهدهما قف فقد كل قوته وشجاعته ، وطلب الأمن والدعة فقط ، وهذه الحصون قد صارت إليك أيها الملك ، لأنه لم يعد معي من أدافع عنها به ، ولك أن ترسل من تشاء لأخذها ، فقد تركتها الحاميات التي فيها ، فأمر فرناند بمال كثير له لأهمية هاتين القلعتين ، لكن السيد رفضها بكل إباءٍ قائلاً: لم آت لبيع ما لا أملك لمن لا يستحق ، ولكن لأخضع بعد أن خضع سادتي ، فتأكد ياصاحب الجلالة أنه لو تركت لي الفرصة لاخترت الموت على هذا الموقف المهين ببيع قلاعي ، فلا حاجة لي بذهبك)[2].

وقد أُعجب الملكان الكاثوليكيان من جرأة هذا القائد المسلم وشهامته ، فطلبت منه الملكة إيزابيلا أن يكون في خدمتها قائلة: (بماذا يمكننا أن نكافئك؟ فأجاب: لقد تركت

---

١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩.

٢) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٥٠.

في الوادي والبلاد التي كنت أحميها الكثير من العائلات التعيسة مع أبنائها وشيوخها الذين لا يمكن قلعهم من وطنهم ، وكل ما أريده هو وعد من جلالتكم بأن يبقوا ، وتحمونهم وتبقوا على دينهم وبيوتهم ، فأجابت الملكة: لك هذا ، أما لنفسك فماذا ، ماذا تطلب لنفسك؟ ، فرد: لا شيء سوى أن أغادر دون أن أنهب أنا وحصاني هذا إلى إفريقيا)[1] ، وأضاف إيرفنغ أن الملكين زوداه براحلة فخمة وملئوا خرجها ذهباً ، لكن علي بن فهر رفض ركوبها ، مؤكداً لهما أنه يعتبر نفسه مجرماً ، لو فعل وأبناء بلاده في هذه الحال ، ورفض كل مال يناله من خراب بلاده ، واكتفى بجواز سفر منهما تحرك به مع حشمه وخدمه ودروعه وكل أدواته الحربية ، مودعاً أصحابه وبلاده دون أن يذرف قطرة دمع واحدة ، ثم وجه حصانه العربي بعيداً عن هذا الوادي الرائع موطنه المغلوب ، مغادراً بقافلته الصغيرة الوحيدة بكرامته نحو الرمال المحرقة الإفريقية)[2].

ومن النتائج المباشرة لسقوط بسطة هو استيلاء النصارى على مدينة المرية ، إذا بعد شهر من سقوط بسطة توجه فرناندو نحو مدينة المرية التي سلمت هي الأخرى دون قتال وذلك في ربيع من سنة٨٩٥هـ/شباط١٤٨٩م ، وكانت شروط تسليمها قريبة من تلك التي منحوها لمدينة بسطة وخلاصتها: (أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم ، وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب ، وألاّ يولى عليهم يهودي ، وألاّ يدخل نصراني في الجماعة ، وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات من النصارى لأنفسهم ، الدين الذي يريدون عند البلوغ)[3].

وهكذا بعد سقوط كل من مدينتي بسطة والمرية والحصون التي بينهم لم يبق أمام الملك النصراني سوى مدينة وادي آش التي كان يتحصن بها الزغل ، وهنا جاء دور القائد يحيى النيار الذي لم يطلع أحد على خيانته ، فأرسله الملك النصراني إلى صهره أبي عبد الله الزغل ليقنعه بعدم جدوى المقاومة وضرورة تسليم مدينة وادي آش والانضواء تحت طاعة الملك النصراني ، وخلال المقابلة تمكن النيار من إقناع الزغل وأثمرت خيانته لدى صهره الزغل ، وقد علق صاحب نبذة العصر(وهو معاصر للأحداث) على ذلك بقوله :(ثمَّ خرج الْأَمِير مُحَمَّد بن سعد من مَدِينَة وَادي آش تَابعاً لصَاحب قشتالة فَلَمَّا لحقه بَايعه وَدخل فِي

1) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٥٠.
2) أخبار سقوط غرناطة، ٣٥٠.
3) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٧/٥.

ذمته وَتَحْت طَاعَته على أَن يُعْطيه مَدينَة وَادي آش وكل مَدينَة وحصن وقرية كَانَت تَحت طَاعَته وَحكمه ، فَأَجَابَهُ إِلَى مطلبه وَرجع مَعَه إِلَى وَادي آش وَهُوَ فَرح مسرور فَدَخلهَا الْعَدو وَقبض قصبتها وَاسْتولى عَلَيْهَا فِي الْعشْر الأول من شهر صفر عَام خَمْسَة وَتسْعين وثمان مئة وَدخل فِي ذمَّته جَمِيع فرسَان الْأَمِير مُحَمَّد بن سعد وَجَمِيع قواده وصاروا لَهُ عوناً على الْمُسلمين وطوعوا لَهُ جَمِيع الْبِلَاد والقرى والحصون الَّتِي كَانَت تَحت طاعتهم من مَدينَة المرية إِلَى مَدينَة الْمنْكب وَمن مَدينَة الْمنْكب إِلَى قَرْيَة البذول فَقبض صَاحب قشتالة ذَلِك كُله من غير قتال وَلا حصار وَلَا تَعب وَلَا نصب فَإنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْه رَاجِعُون ، وَجعل فِي كل قَصَبَة قائدا نَصْرَانِيّا مَعَ جمَاعَة من النَّصَارَى يحكم فِي ذَلِك الْموضع ، وَفِي هَذَا الشَّهْر خلصت جميع بِلَاد الأندلس لصَاحب قشتالة وَدخلت تَحت طَاعَته وتدجن جَمِيع أَهلهَا وَلم يبْق لِلْمُسلمين فِي الأندلس غير مَدينَة غرناطة وَمَا حولهَا من الْقرى خَاصَّة)[١].

لم يبق أمام ملكي قشتالة سوى غرناطة ، وكان أبو عبد الله الصغير قد دخل في طاعتهما ولم يحرك ساكناً طيلة مدة الصراع الذي دار بين عمّه الزغل وبين النصارى ، بل كان خنجر خاصرة له عن إنجاد مدينة بسطة عندما حاصرها النصارى ، لذلك بعد سقوط بسطة ووادي آش واستسلام عمّه الزغل ، اضطر أبو عبدالله الصغير إلى تجديد المعاهدة مع ملكي قشتالة ، وقد أنحى أبو عبدالله الصغير بالأئمة على خصمه أبي عبدالله الزغل لما آلت إليه الأمور في غرناطة ، ففي رسالة وجهها إلى قائد بلدة أجيجر نعى فيها(على معارضيه مواقفهم ،التي انتهت بسقوط بسطة: التي أفجعت المسلمين ،وفلّت غرب الدين)[٢].

وعليه فإن سقوط مدينة بسطة كان فاتحة لسقوط معظم المدن والحصون الأندلسية بسهولة ويسر وبدون قتال ، وهذا أدى إلى عزل مدينة غرناطة التي بات سقوطها أيضاً محتوماً ، وقد تحقق للنصارى ذلك بعد حوالي سنتين من سقوط بسطة ، إذ تمكن الملكان الكاثوليكيان من الاستيلاء عليها في الثاني من ربيع الأول سنة٨٩٧هـ/الموافق الثاني من كانون الثاني ١٤٩١م[٣] ، وكان مدة حكم المسلمين لمدينة بسطة ٨٠٣ سنة.

---

١) مؤلف مجهول، ص ٩٩ -١٠٠.

٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣٠/٥ ؛ خطاب، قادة فتح الأندلس، ٢٤٠/٢.

٣) ينظر التفاصيل عن سقوط غرناطة : مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ١٢٠ -١٢٨ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٥٤ وما بعدها ؛ السلاوي، الاستقصا، ١٠٣/٤ -١٠٦ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٩/٥ -٢٦٤.

مدينة المرية Almaria الأندلسية

(٩٢ - ٨٩٥هـ/ ٧١٠ - ١٤٨٩م)

وهي مدينة محدثة في الإسلام وكانت قبلها بجانة وهي الأخرى محدثة ، والمنطقة جميعها كانت من توابع كورة البيرة[١] ، قال ابن حوقل عند حديثه عن الأندلس: (وجميع مدنها قديمة أزليّة لم يحدث بها في الإسلام غير مدينة بجانة وهى المريّة وهى على حدود رستاق لبيرة)[٢] ، وعد البكري المرية أحد مدن إقليم بجانة[٣] ، والأخيرة قريبة من الساحل نزلها البحريون الأندلسيون من أهل اليمن وابتنوا فيها الحصون والدور والمنازل وعمرت أحسن عمارة وذلك سنة٢٧١هـ/٨٨٤م[٤] ، كما ابتنوا فيها قوة بحرية أخذت على عاتقها حماية السواحل كما ازدهرت فيها الحركة التجارية[٥] ، إلا أنها شملتها الاضطرابات التي حدثت في عهد الأمير عبدالله(٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م) وتأثرت بثورات العرب في البيرة[٦] ، حتى استنزلها عبدالرحمن الناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) سنة ٣١٠هـ/٩٢٢ م[٧] ، ثم أخذت بجانة تفقد أهميتها بالتدريج أمام فرضة المرية المقابلة لبجانة حتى أمر الخليفة الناصر ببنائها سنة٣٤٤هـ/٩٥٥ م واتخذها قادة بحرية للأسطول الأندلسي[٨] ، وقد أشار الإدريسي إلى ذلك بقوله: (ومدينة بجانة كانت المدينة المشهورة قبل المرية فانتقل أهلها إلى المرية فعمرت وخربت بجانة فلم يبق منها الآن إلا آثار بنيانها ومسجد جامعها قائم بذاته)[٩] ، وكان خرابها كما قال

---

١) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٢.

٢) صورة الأرض، ص ١١٠.

٣) المسالك والممالك، ٥٣٧/٢.

٤) الرشاطي، الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ٢٩ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٧٩.

٥) سالم، تاريخ مدينة المرية، ص ٢٧.

٦) ينظر التفاصيل : ابن حيان، المقتبس(٢٧٥ -٣٠٠ هـ/٨٨٨ -٩١٢ م)، ص ٥٠ -٥٣.

٧) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/٩١٢ -٩٤١م)، ص ١٨١.

٨) سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ٣٧ ؛ أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية الأندلسية، ص ٥٦.

٩) نزهة المشتاق، ٥٦٦/٢ ؛ ينظر أيضاً : الحميري، الروض المعطار، ص ٨٠.

الرشاطي: (..حتى كانت فتنة البربر فانتقل أهل بجانة عنها إلى المرية سنة اثنتين وأربعمائة)[١].

أما المسافات بينها وبين المدن الأندلسية القريبة منها ، فبين المرية وبجانة أربعة أميال[٢] ، وبينها وبين بلنسية تسع مراحل[٣] ، وبينها وبين مرسية خمس مراحل[٤] ، وبينها وبين مالقة على البحر مائة وثمانون ميلاً[٥] ، وبينها وبين المنكب على البحر مائة ميل[٦] ، وبينها وبين قرطبة مسرة ثمانية أيام[٧] ، وبينها وبين غرناطة مائة ميل[٨].

ولما كانت المرية تعد من مناطق البيرة فإن فتح منطقتها كان مع فتح كورة البيرة ، فعندما تمكن طارق بن زياد من هزيمة ملك القوط الغربيين Viaigoths لوذريق في معركة وادي لكة Rio Cuadalete في شوال من سنة٩٢هـ/٧١٠م اتجه إلى مدينة إستجة التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي ، وبعد هزيمتهم قرر التقدم والزحف مباشرة إلى طليطلة Tolodoعاصمة القوط الغربيين ، وقبل أن يشرع أرسل فرقاً من جيشه لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط وهي: قرطبة والبيرة ومالقة Malaga وتدمير Tudmir[٩] ، أما بالنسبة للجيش المتجه نحو البيرة فتمكنوا من فتح مدينتها ثم فتحوا غرناطة Granada ثم مضوا إلى تدمير[١٠] ، ويمكن القول إن ذلك كان في أواخر سنة٩٢هـ/٧١٠م ، لأن معركة وادي لكة التي انهزم فيها القوط كما قال المقري: (كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام ،...)[١١] ، وكان فتح قرطبة في شوال من السنة نفسها[١] ، ولما كان طارق في طليطلة أوائل سنة٩٣هـ/٧١١م[٢] ، فهذا يعني

---

١) الأندلس من اقتباس الأنوار، ص ٢٩.
٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٢/٢.
٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٦/٢.
٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٥٩/٢.
٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٣/٢.
٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٠/٢.
٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٨٠/٢.
٨) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٦٤.
٩) لمزيد من التفاصيل ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١ -١٩.
١٠) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٢ -٢٣ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٦ ؛ الإحاطة، ١٩/١
١١) نفح الطيب، ٢٥٩/١ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٨/٢.
١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢ -١٠ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.
٢) ابن الابار، الحلة السيراء، ٩٠/٢ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.

أن دخول البيرة في حكم المسلمين كان في المدة بين شوال وذي الحجة من سنة٩٢هـ/٧١٠م.

ظلت مدينة المرية طوال عهد الإمارة والخلافة تتبع الحكومة المركزية في قرطبة حتى سقوط الدولة العامرية وبدأ عهد الفتنة وما أعقبها من سقوط الخلافة الأموية وظهور ما يسمى بعصر دويلات الطوائف كانت المرية تحت نفوذ الفتية العامريين أولهم فيها خيران العامري (٤٠٥-٤١٨ هـ /١٠١٤-١٠٢٧ م) ثم زهير العامري(٤١٩-٤٢٩ هـ/ ١٠٢٨-١٠٣٧ م)[١] ، ثم سيطر عليها بنو صمادح التجيبيون سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م واستمرت تحت حكمهم حتى الفتح المرابطي لها سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م[٢].

وفي العهد المرابطي بلغت مدينة المرية ذروة مجدها ، فقد وصفها الإدريسي بالقول: (ومدينة المرية كانت في أيام الملثم مدينة الإسلام وكان بها من كل الصناعات كل غريبة وذلك أنه كان بها من طرز الحرير ثماني مائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهاني والجرجاني والستور المكللة والثياب المعينة والخمر والعتابي والمعاجر وصنوف أنواع الحرير وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف آلات النحاس والحديد إلى سائر الصناعات ما لا يحد ولا يكيف وكان بها من فواكه واديها الشيء الكثير الرخيص)[٣].

إلا أنه في نهاية المرابطين وبداية الموحدين وبسبب اضطراب أمر الأندلس وكثرة الثوار في أرجائها[٤] كان في المرية أبو يحيى الرميمي[٥] ، فاستغل الملك القشتالي الفونسو السابع (٥٢٠-٥٥٢هـ/١١٢٦-١١٥٧م) الملقب عند المسلمين بالسليطين ، تلك الأوضاع ودعا إلى حملة صليبية كبيرة انضمت إليها قوات من فرنسا وإيطاليا فضلاً عن ملوك أسبانيا من أجل الاستيلاء على مدينة المرية ، وكان اختيارهم لها كونها معقل الأسطول الإسلامي الذي

---

١) المراكشي، المعجب، ص ٦١ ؛ وينظر التفاصيل عن المرية في عهد العامريين : أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية الأندلسية، ص ٧٥ -١٠٠ ؛ سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ٥٨ -٧٣ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٥٨/٢ -١٦٤.

٢) المراكشي، المعجب، ص ٦١ ؛ وينظر التفاصيل عن المرية في عهد بني صمادح : أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية الأندلسية، ص ١٠١ -١٣٤ ؛ سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ٧٤ -٨٢ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٦٤/٢ -١٧٣.

٣) نزهة المشتاق، ٥٦٢/٢.

٤) ينظر التفاصيل عن الثوار في الشرق الأندلسي في نهاية المرابطين وبداية الموحدين : دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٧٦ -٩٤.

٥) المراكشي، المعجب، ص ١٥٥.

ينطلق منه البحارة المسلمون للإغارة على شواطئ برشلونة وفرنسا وإيطاليا[1] ، وهيئوا لذلك قوات برية وبحرية وحددوا موعد الهجوم في أوغسطس سنة١١٤٧م الموافق ربيع الأول٥٤٢هـ /١١٤٧م[2].

وكانت الرواية الإسلامية مقتضبة ، فذكر ابن غالب(ملتكها النصارى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ومكثت فيها عشرة أعوام ثم استرجعها عثمان بن عبد المؤمن سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة)[3] ، وقال ابن الأثير: (في هذه السنة ، في جمادي الأولى ، حصر الفرنج المرية من الأندلس ، وضيقوا عليها براً وبحراً ، فملكوها عنوة ، وأكثروا القتل بها والنهب ، وملكوا أيضاً مدينة بياسة وولاية جيان ، وكلها من الأندلس)[4] ، فيما جعل ابن أبي زرع دخول النصارى المرية سنة٥٤٠هـ/١١٤٥م بقوله: (وفيها نازل العدو المرية بثمانين جفناً ، فأحرق أرياضها وانصرف عنها)[5].

أما الرواية النصرانية ، فلا تختلف كثيراً في مضمونها عن الرواية العربية لكنها أكثر تفصيلاً ، إذ أشارت إلى أن حصار المرية بدأ في أوغسطس ، حيث التقى أمامها أسطول الجنويين والبيزيين بالكونت ريموند صاحب برشلونة ، وجيوم صاحب مونبلييه ، واستمر حتى١٧ أوكتوبر سنة١١٤٧م ، ثم أخذت المدينة عنوة ، وقتلت حاميتها بعد دفاع شديد ، واستولى الظافرون على غنائم عظيمة مما جمع الفرسان في المدينة ، وكان أثمن ما حصل عليه الجنويون قطعة من الزجاج الأخضر ، قيل إنها من الزمرد ولم تكن كذلك ، وبعد أن قسمت الغنائم على الجند ، وحصل الجنويون والبيزيون على أوفر نصيب ، وحصل الكونت ريموند على جميع الأسرى ، دخل القيصر المرية في قوة كبيرة ، وعند اقتراب الشتاء عاد كل فريق إلى بلاده)[1] ، وكان هذا السقوط الأول لمدينة المرية على أيدي النصارى.

بقيت مدينة المرية تحت سيطرة النصارى عشر سنوات كان الموحدون شغلوا خلالها

---

١) أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢٣٤/١.
٢) سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ١١٣ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٤٦/٣.
٣) فرحة الأنفس، ص ١٥.
٤) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٢٦٤.
٥) الأنيس المطرب، ص ٢٦٢ ؛ ينظر أيضاً المقري، نفح الطيب، ٤٦١/٤ وجعلها سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م.
١) أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢٣٥/١.

بمقارعة الثوار في الأندلس ، فلما تمكنوا من فتح غرناطة في سنة٥٥١ هـ/١١٥٦م[1] كان الطريق مفتوحاً أمامهم إلى المرية ، فضلاً عن أن وجود النصارى في المرية يقف عائقاً كبيراً إمام تقدمهم إلى الشرق الأندلسي ويعيق حركة أسطولهم هناك لهذا كان طرد النصارى منها من أهم أهدافهم ، ففي رسالة للخليفة الموحدي عبد المؤمن بن على(٥٢٤-٥٥٨ هـ/١١٢٩-١١٦٢م) من إنشاء كاتبه أبي عقيل بن عطية[2] ، أشار فيها إلى أهمية المرية وضرورة استرجاعها من أيدي النصارى وما تم لهم من فتحها ، إذ قال: (... ، رأينا أن أمر المرية –حرسها الله– من أهم الأمور ، وآكدها في هذا الغرض المبرور ، والأمل الميسور ، لكونها ناظمة بين الجهات الشرقية والغربية ، ورابطة بين البلاد البرية والبحرية ، واتفق عند ذلك نفوذ الطلبة الذين بغرناطة –أعزهم الله– إلى جهاتهم وانصرافهم ، لحماية أكنافهم وأطرافهم ، فلما وصلوا إليها ، وردوا عليها ، فلم يلقوا عصا التسيار ، ولم تتركهم دواعي البساط والانبساط للمكث والاستقرار ، وعند ما انتظموا على هذا القصد والتأموا ، وركبوا الخيل للجهاد واستلاموا ، ساروا على بركة الله واليمن يقدمهم ، والسعد يخدمهم ، والعناية تصحبهم وتلزمهم ، ووافوا المرية –حرسها الله– وقد انتشر من كان بها من الكفرة على تلك الربى والاباطح ، واختلط المرعي بالمهمل في تلك المراحات والمسارح ، فابتدرهم جنود الله بطعنهم مخلوجة وسلكى ، وتريق دمهم الهدر سفحاً وسفكاً ، وحازوا هنالك من النفل الكريم ، والخير العميم ، ما ملأ عيونهم قرة ، ونفوسهم مسرة ، واقتحموا على بقية الكافرين أبواب المرية –حرسها الله– فانتجز لهم الوعد الموعود ، وتيسر لهم الفتح المعهود ، وتساقت دماء أساود الكفرة تلك الأسود ، واستولوا عليها استيلاء من عضدته السعود... ولم يبق للمشركين في تلك الطحمة الهاجمة ، والنقمة الداهمة ، إلا من انحصر في القصبة ، فراراً من الغلبة ، وحذاراً من تلك الصوارم المرهفة واللهاذم المذربة ، وأقام الموحدون –أعزهم الله– بظاهر المطل ، وشرفها المقل ، مسرورين برفعة الحال والمحل ، مستبشرين بانتشار ذلك النظم المنحل ، ولما اتصل بابن مردنيش ما هاله من هذا النبأ المفلق رأى أن ينهض بجملته البائسة على نية الغياث ، ومبادرة

---

١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٩٦.

٢) هو أبو عبد أحمد بن عطية وزر الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي ثم نقم عليه وقتله سنة٥٥٢ هـ /١١٥٧ م، ينظر : ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٩٦.

خيله قبل الانتقاص والانتكاث ، وأن يتطاول الاستنصار بالاستنسار تطاول البغاث ، فاستصرخ بالسليطين استصراخ الملهوف ، تقوية لأمره المضعوف ، ورجاء في استنقاذه من الحتوف ، ولما حس بندائه ، ورأى ما أخذوا عليه من دائه ، وبادروا إليه من غذائه ، بادر بنفسه ، واعتقد نصرته في كفالة بأسه ، وتضافرت جموعهم البائدة ، وجنودهم الحائدة ، على المرية —حرسها الله— في أحفل عدد ، وأوفر مدد ، فلم يزد الموحدين ذلك إلا شهامة وصرامة ، ولا تعرفوا بنزول الكفرة إلا عدة وكرامة ، واستمروا على حصر القصبة المذكورة والكافرون يرون إخوانهم في قبضة الأسرة ، وحالة العسرة ، فيخترقون فناء الحسرة ، ويشرقون بعد العبرة والزفرة ،... ، فولوا على الأدبار وهلاً ووجلاً ، وتنافست أقدامهم في الفرار سرعة وعجلاً ،... ، كتب في العشر الأول من شعبان المكرم سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة)[1].

وكان من أهم نتائج تلك الحروب التي شهدتها المرية هي الخراب والدمار الذي لحق بها ، فقد أشار المقري إلى ذلك قائلاً: (ودخل الموحدون المدينة ، وقد خربت وضعفت)[2] ، كما أشار إلى ذلك الإدريسي بقوله: (والمرية في هذا الوقت الذي ألفنا كتابنا هذا فيه صارت ملكا بأيدي الروم وقد غيروا محاسنها وسبوا أهلها وخربوا ديارها وهدموا مشيد بنيانها ولم يبقوا على شيء منها)[3] ، وأشار سالم إلى أن المرية لم تعد بعد أن استردها الموحدون كما هو عليه الحال أيام المرابطين إذ أخذت في الذبول ولم تعد تلعب دور الطليعة في مدن الأندلس حتى سقوطها النهائي بيد الملك القشتالي فرناندو الكاثوليكي[4].

وفي نهاية عهد الموحدين لم يعد في مقدورهم حماية المدن والثغور الأندلسية من هجمات النصارى[1] فضلاً عن قيام العديد من الثورات في الأندلس عليهم وكان من أهمها تلك التي قام بها محمد بن يوسف بن هود الذي ثار على الموحدين سنة٦٢٥هـ/١٢٢٧م في

---

١) بروفنسال، مجموع رسائل موحدية، ص ٧٣ -٨١ ؛ وينظر أيضاً عن استرجاع الموحدين للمرية : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٥٣ -٥٤ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤/٤٦٣.

٢) نفح الطيب، ٤/٤٦٣.

٣) نزهة المشتاق، ٢/٥٦٣.

٤) تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ٩٩.

١) للمزيد من التفاصيل عن موقعة العقاب، ينظر: المراكشي، المعجب، ص٢٣٥-٢٣٦ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٦-٤١٧ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢/ ٢٧٠ ؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤١٩ وما بعدها.

شرق الأندلس وسرعان ما تمكن من السيطرة على معظم مناطق الأندلس في الوسط والشرق وحاول مدّ نفوذه إلى الغرب الأندلسي[1] ، وقد قام بدعوته في مدينة المرية أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن أبي يحيى الرميمي حفيد واليها السابق سنة٦٢٦هـ/١٢٢٨م[2] ، إلا أن ابن هود دخل في صراع مع ثائر آخر وهو محمد بن يوسف بن الأحمر صاحب حصن أرجونة ونافس ابن هود في السيطرة على العديد من المدن الأندلسية ثم جاء مقتل ابن هود سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م[3] أن مهد السبيل لابن الأحمر أن يسيطر على معظم القسم الجنوبي من الأندلس ، إذ قام بعد مقتل ابن هود بالسيطرة على المرية في السنة نفسها كما قال ابن عذاري[4] ، فيما ذهب ابن خلدون إلى أن ابن الأحمر ملك المرية من ابن الرميمي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م[5] وبذلك أصبحت المرية ضمن أملاك إمارة بني الأحمر في غرناطة(وبقيت في يد أولاده بعده إلى أن أخذها العدو الكافر عندما طوي بساط بلاد الأندلس)[6].

وفي ظل بني الأحمر غدت المرية واحدة من أهم ولايات إمارة بني الأحمر إلى جانب غرناطة ومالقة[7] ، ومن أهم الأحداث التي شهدتها المرية في ظل بني الأحمر هي مهاجمة النصارى لها سنة٧٠٩هـ/١٣٠٩م إلا أن قوات بني الأحمر بمساعدة قوات بني مرين تمكنوا من هزيمتهم[1] ،وكانت المرية تشكل آنذاك واحدة من ثلاث منافذ بحرية مهمة لدولة بني الأحمر إلى جانب مالقة والمنكب ، ولكن بسقوط مالقة بيد النصارى سنة٨٩٢هـ/١٤٨٦ م[2] ،

---

١) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٧٥ ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٨/٢.

٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٨٨ ؛ المقري، نفح الطيب، ٤٦٤/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢٦/٤.

٣) ينظر عن مقتل ابن هود : ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤١.

٤) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٣ ؛ ينظر أيضا : المقري، نفح الطيب، ٤٦٤/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٠/٤.

٥) العبر، ٣٩٥/٦.

٦) المقري، نفح الطيب، ٤٦٤/٤.

٧) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣١/٤ ؛ سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ١٠٢.

١) ينظر التفاصيل عن مهاجمة النصارى مدينة المرية : ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٤، ٦٢ ؛ ابن خلدون، العبر، ٣٢٩/٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١١٥/٥.

٢) ينظر التفاصيل عن سقوط مالقة : مؤلف مجهول، نبذة العصر، ٩٢ -٩٤ ؛ المقري، نفح الطيب، ٥٢٠/٤ -٥٢١ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٥٨ -٢٧٠.

والمنكب سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م[١] ، أن غدت المرية المنفذ الوحيد الذي يصل غرناطة ببر العدوة المغربية حيث الإمدادات إليها ، لذا قرر ملكي قشتالة فرناندو وإيزابيلا(٨٨٤-٩٢٢هـ/١٤٧٩-١٥١٦م) الاستيلاء عليها ، وكانت إمارة غرناطة آنذاك تمر بمرحلة عصيبة بسبب الانقسام الحاد والمنافسة بين أبناء بني الأحمر ، فكانت غرناطة من نصيب الأمير أبي عبدالله الصغير وكانت المرية وبسطة ووادي آش من نصيب عمه أبي عبد الله الزغل[٢] ، وفي سنة ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م تمكن النصارى من الاستيلاء على مدينة بسطة[٣].

كان من أولى نتائج سقوط مدينة بسطة بيد القوات الصليبية بقيادة ملكي قشتالة أن ساد حالة من الذعر في معظم المناطق التي كانت في حوزة المسلمين من الأندلس ولاسيما مناطق شرق غرناطة ، فسارعت معظم المدن والحصون القريبة من بسطة إلى التسليم والدخول في طاعة ملك النصارى[٤] ،ولم تختلف عن ذلك الرواية النصرانية ، فقد أشار إيرفنغ إلى أنه بعد سقوط بازا(بسطة) استسلمت معظم الحصون والجبال القريبة بشكل سريع إذ(كان الناس يأملون بالحصول على شروط جيدة شبيهة بالتي أعطيت لهذه المدينة ، كما أمل أسياد هذه المناطق بجوائز مشابهة للتي حصل عليها قادتهم ، ولم يخب أمل أيّ منهم ، فقد سمح ببقاء السكان كخول للنصارى ليبقوا في أملاكهم وعلى دينهم ، أما أسيادهم الذين راحوا يتوافدون على المعسكر لإعلان ولائهم ، فكان فرناندو يستقبلهم بشكل متميز ، ويحملهم الهدايا والأموال حسب أهمية المكان الذي كان تحت قيادتهم وسلموه ، وكان الملك حريصاً على عدم التعرض لكرامتهم أو جرح كبريائهم ، لذلك كانت الأموال تدفع لهم جزاء خدماتهم للحكومة السابقة ، وهكذا بعد أن كان فرناندو يفتح البلاد بالسيف ، وجد بعد بازا أن الذهب يكلفه أقل)[١].

---

١) ينظر التفاصيل عن سقوط ميناء المنكب بيد النصارى : المقري، نفح الطيب، ٥٢٣/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٤/٥.

٢) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٨٨ -٩٠ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٣/٥ -٢١٤.

٣) ينظر التفاصيل عن سقوط مدينة بسطة : مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٦ -٩٨ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩ ؛ الدرويش والعلياوي، مدينة بسطة الأندلسية من الفتح حتى السقوط، ص ١٢٧ -١٤٤.

٤) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٨.

١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩.

وهكذا كان من النتائج المباشرة لسقوط بسطة هو استيلاء النصارى على مدينة المرية وذلك في ربيع سنة٨٩٥هـ/١٤٨٩م ، إذ أن أبا عبد الله الزغل الذي استسلم للنصارى كانت المرية ضمن أملاكه ، وقد أشار إلى ذلك مؤلف مجهول معاصر للأحداث بقوله: (ثمَّ خرج الْأَمِير مُحَمَّد بن سعد من مَدينَة وَادي آش تَابعاً لصَاحب قشتالة فَلَمَّا لحقه بَايعه وَدخل فِي ذمته وَتَحْت طَاعَته على أَن يُعْطِيه مَدينَة وَادي آش وكل مَدينَة وحصن وقرية كَانَت تَحت طَاعَته وَحكمه ، فَأَجَابَهُ إِلَى مطلبه وَرجع مَعَه إِلَى وَادي آش وَهُوَ فَرح مسرور فَدَخلَهَا الْعَدو وَقبض قصبتها وَاسْتولى عَلَيْهَا فِي الْعشْر الأول من شهر صفر عَام خَمْسَة وَتِسْعين وثمان مئة وَدخل فِي ذمَّته جَمِيع فرسَان الْأَمِير مُحَمَّد بن سعد وَجَمِيع قواده وصاروا لَهُ عوناً على الْمُسلمين وطوعوا لَهُ جَمِيع الْبِلَاد والقرى والحصون الَّتِي كَانَت تَحت طاعتهم من مَدينَة المرية إِلَى مَدينَة الْمنْكب وَمن مَدينَة الْمنْكب إِلَى قَرْيَة البذول فَقبض صَاحب قشتالة ذَلِك كُله من غير قتال ولا حصار وَلَا تَعب وَلَا نصب فَإنَّا لله وَإنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون ، وَجعل فِي كل قَصَبَة قائدا نَصْرَانِيّا مَعَ جمَاعَة من النَّصَارَى يحكم فِي ذَلِك الْموضع ، وَفِي هَذَا الشَّهْر خلصت جميع بِلَاد الأندلس لصَاحب قشتالة وَدخلت تَحت طَاعَته وتدجن جَمِيع أَهلهَا وَلم يبْق للْمُسلمين فِي الأندلس غير مَدينَة غرناطة وَمَا حولهَا من الْقرى خَاصَّة)[1].

وكانت شروط تسليم المرية قريبة من تلك التي منحوها لمدينة بسطة وخلاصتها: (أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم ، وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب ، وألاّ يولى عليهم يهودي ، وألاّ يدخل نصراني في الجماعة ، وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات من النصارى لأنفسهم ، الدين الذي يريدون عند البلوغ)[1] ، وهكذا سقطت المرية بيد النصارى بعد أن حكمها المسلمون مدة ٨٠٣ سنة.

---

١) نبذة العصر، ص ٩٩ -١٠٠.

١) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٧/٥.

مدينة غرناطة Granada الأندلسية
(٩٢ – ٨٩٧ هـ/ ٧١٠ –١٤٩٢ م)

وتلفظ غرناطة وأغرناطة[١] ، قال ابن الخطيب: وكلاهما أعجمي[٢] ، وقال ياقوت :(قال أبو بكر بن طرخان بن بجكم[٣]: قال لي أبو محمد عَفّان[٤] الصحيح أغرناطة بالألف في أوله أسقطها العامّة كما أسقطوها من البيرة فقالوا لبيرة)[٥] ، وأضاف: (ومعنى غرناطة رُمّانة بلسان عجم الأندلس سمّي البلد لحسنه بذلك)[٦] ، ويرى عنان أن: غَرناطة أو إغرناطة اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط وأنه مشتق من الكلمة الرومانية Granata أي الرمانة ، وأنها سميت كذلك لجمالها ، ولكثرة حدائق الرمان التي تحيط بها[٧] ، وتسمى أيضاً سنام الأندلس[٨].

وهي من أقدم مدن كورة البيرة[٩] ، وتعرف أيضاً بمدينة اليهودي[١٠] ، وعلل الحميري ذلك بقوله: (وتعرف بأغرناطة اليهود لأن نازلتها كانوا يهوداً)[١١] ، وقيل إن عدد سكانها من

---

١) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٨٤ ؛ ابن الخراط، اقتباس الأنوار، ص ١٧٤ ؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٤ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٩ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٣/١ ؛
٢) الإحاطة، ١٣/١.
٣) هو أبو بكر أبو بكر محمد بن طرخان بن بلتكين بن مبارز التركي البغدادي الشافعي سبق ترجمته..
٤ هو أبو محمد عفان بن غالب بن أيوب بن خلف الازدي السبتي، قال ابن النجار كان من أعرف الناس بالتواريخ وجمع من كتب التواريخ ما لم يجمعه أحد، ذيل تاريخ بغداد، ١٩٢/٢.
٥) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٩.
٦) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٩.
٧) دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢/٥.
٨) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٢.
٩) ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٤ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٩.
١٠) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٢٥.
١١) الروض المعطار، ص ٤٥.

اليهود فاق عدد المسلمين بها لذا سميت بغرناطة اليهود[1] ، وغرناطة مدينة محدثة[2] ، وكانت أول الأمر مدينة صغيرة تابعة لكورة البيرة ، قال الحميري: (وهي محدثة من أيام الثوار بالأندلس وإنما كانت المدينة المقصودة إلبيرة فخلت وانتقل أهلها إلى أغرناطة ومدنها وحصن أسوارها وبنا قصبتها حبوس الصنهاجي ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس ، فكملت في أيامه وعمرت إلى الآن)[3] ، وأشار ابن الخطيب إلى أن الانتقال من البيرة إلى غرناطة كان بعد سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م بقوله: (ولم تزل الأيام تخيف ساكنها ، والعفاء يتبوّأ مساكنها ، والفتن الإسلامية تجوس أماكنها ، حتى شملها الخراب ، وتقسّم قاطنها الاغتراب ، وكلّ الذي فوق التّراب تراب ، وانتقل أهلها مدة أيام الفتنة البربريّة سنة أربعمائة من الهجرة ، فما بعدها ، ولجأوا إلى مدينة غرناطة ، فصارت حاضرة الصّقع ، وأمّ المصر ...)[4] ، ويُرجح أن تكون البيرة هي المكان نفسه الذي تقوم عليه غرناطة الحديثة[5].

أما المسافات بينها وبين بقية مدن الأندلس ، فبينها وبين البيرة أربعة فراسخ وبينها وبين قرطبة ثلاثون فرسخاً[6] ، وبينها وبين وادي آش أربعون ميلاً[7] ، وبينها وبين مدينة المنكب على البحر أربعون ميلاً[8] ، ومنها إلى لوشة خمسة وعشرون ميلاً ، وبينها وبين جيان خمسون ميلاً[9] ، ولخص ابن الخطيب حدودها بقوله: (بينها وبين دار الملك الأول قرطبة — أعادها الله — تسعون ميلاً ، وهي منها بين الشرق وقبلة ، والبحر الشامي بين غرب وقبلة على أربعة بُرد ، والجبال بين شرق وقبلة)[10] ، أما حد موضعها فمن الجنوب جبل شلير ، ومن

---

١) سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٦٥.

٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/٥٦٩ ؛

٣) الروض المعطار، ص ٤٥.

٤) الإحاطة، ١/١٤.

٥) الطويل، مملكة غرناطة، ص ٥٥.

٦) ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٠٠.

٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/٥٦٩ ؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٣٣ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٥.

٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/٥٦٤.

٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/٥٧٠.

١٠) اللمحة البدرية، ص ١٢.

الشرق جبل شلير ومدينة المرية ومن الشمال كورة جيان ، ومن الغرب مدينة لوشة ونهر شنيل[١].

ولغرناطة نهران عظيمان هما نهر شنيل(سنجل) الذي ينحدر من جبل شلير بجنوبها ونهر حدرة الذي ينحدر من جبل بناحية وادي آش فيدخل غرناطة ويقسمها نصفين[٢].

أما فتحها فكان أثناء فتح المسلمين لكورة البيرة ، فعندما تمكن طارق بن زياد من هزيمة ملك القوط الغربيين Viaigoths لوذريق في معركة وادي لكة Rio Cuadalete في شوال من سنة ٩٢هـ/٧١٠م اتجه إلى مدينة إستجة Ecija التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي ، وبعد هزيمتهم قرر التقدم والزحف مباشرة إلى طليطلة Tolodoعاصمة القوط الغربيين ، وقبل أن يشرع أرسل فرقاً من جيشه لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط وهي : قرطبة والبيرة ومالقة Malaga وتدمير Tudmir[٣].

أما بالنسبة للجيش المتجه نحو البيرة فتمكنوا من فتح مدينتها ثم فتحوا غرناطة Granada ثم مضوا إلى تدمير[٤] ، ويمكن القول إن ذلك كان في أواخر سنة٩٢هـ/ ٧١٠م ، لأن معركة وادي لكة التي انهزم فيها القوط كما قال المقري: (كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام ...)[٥] ، وكان فتح قرطبة في شوال من السنة نفسها[٦] ، ولما كان طارق في طليطلة أوائل سنة٩٣هـ/٧١١م[٧] ، فهذا يعني أن دخول غرناطة في حكم المسلمين كان في المدة بين شوال وذي الحجة من سنة٩٢هـ/٧١٠م.

ويبدو أن كورة البيرة عاشت هادئة بعيدة عن الأحداث التي الكبيرة حتى منتصف

---

١) الطويل، مملكة غرناطة، ص ٣٠.

٢) ينظر عن أنهار غرناطة : الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٩/٢ ؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ٢٢٧/٤ -٢٢٨.؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٢٥ ؛

٣) لمزيد من التفاصيل ينظر : مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١ -١٩.

٤) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٣-٢٢ ؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٦ ؛ الإحاطة، ١٩/١.

٥) نفح الطيب، ٢٥٩/١ ؛ ينظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب، ٨/٢.

٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢ -١٠ ؛ المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.

٧) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.

القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ولعل ذلك راجع إلى قربها من قرطبة وقوة الدولة وحكامها آنذاك ، وبعد ثورة ابن حفصون في إقليم رية سنة٢٦٧هـ/٨٨٠م تمكن من بسط نفوذه على مناطق واسعة ومن ضمنها كورة البيرة[١] حتى تمكن عبد الرحمن الناصر من استرجاعها سنة٣٠٠هـ/٩١٢ م[٢].

وبعد سقوط الدولة العامرية وظهور في الأندلس ما يسمى بالفتنة[٣] في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وما تلاها من سقوط الخلافة الأموية سنة٤٢٢هـ/١٠٣٠م بدأ عصر جديد في الأندلس أطلق عليه المؤرخون عصر دويلات الطوائفLos، Taifas (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣٠-١٠٩١م) ، وهكذا انقسمت الأندلس إلى دويلات فكانت مدينة غرناطة من نصيب بني مناد الصنهاجيين[٤] الذين حكموا المنطقة للمدة من٤٠٣-٤٨٣هـ/١٠١٢-١٠٩٠م[٥] ، ثم أعقبهم العهد المرابطي الذي استمر حتى سنة٥٥١هـ/١١٥٦م[٦] ،ثم تملكها الموحدون حتى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م[٧] حين سيطر عليها لمدة وجيزة محمد بن يوسف بن هود الجذامي حيث قتل سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م[٨] وهو ما دفع ابن الأحمر إلى الزحف نحو غرناطة ودخلها سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م واتخذها قاعدة لملكه[٩] ، ليبدأ لها عهد جديد استمر حتى سقوطها بيد النصارى الأسبان سنة٨٩٧هـ/١٢٩٢م.

شهدت المرحلة الأخيرة من حياة سلطنة غرناطة(٨٦٨-٨٩٧هـ/١٤٦٣-١٤٩٢م) استفحال الصراع الأسري بين حكام بني الأحمر حتى صفت إلى السلطان أبي الحسن علي بن

---

١) ابن الخطيب، الإحاطة، ٢٦/٤ -٢٧.

٢) ابن حيان، المقتبس(للحقبة ٣٠٠-٣٣٠ هـ/٩١٢-٩٤١م)، ص ٥٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٧٥/١-٣٧٦.

٣) يقصد بالفتنة هي المدة التي تلت سقوط الدولة العامرية سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م، ينظر : العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٦ ؛ المراكشي، المعجب، ص ٧١ ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١٥٥/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.

٤) ينظر عن نسب بني مناد في غرناطة : ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٩٥ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢٣٨/٦ ؛ القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٣١٧.

٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ٤٠/١ -٤١ ؛ وينظر التفاصيل عن دولة بني مناد الصنهاجيين في غرناطة : عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٠/٢ -١٤٦.

٦) ابن الخطيب، الإحاطة، ٤١/١.

٧) ابن الخطيب، الإحاطة، ٧٦/٢.

٨) ابن الخطيب، الإحاطة، ٧٦/٢.

٩) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٢ -٣٤٤ ؛ ابن خلدون، العبر، ٢١٧/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣٠/٤.

سعد بن الأحمر الذي طال حكمه للمدة(٨٦٨-٨٨٧هـ/١٤٦٣-١٤٨٢م) ، وقد وصفه مؤلف مجهول وهو معاصر له بالقول: (... ، وانقرضت أَعْلَام الْفِتْنَة وخمدت نارها ودانت لَهُ جَمِيع بِلَاد الأندلس وَلم يبْق لَهُ فِيهَا معاند وَهُوَ مَعَ ذَلِك يَغْزُو بِلَاد الرّوم الْمرة بعد الْمرة حَتَّى غزا غزوات كَثِيرَة وَأظْهر الْأَحْكَام وَنظر فِي مصَالح الْحُصُون ونمى الْجَيْش فهابته النَّصَارَى وصالحته براً وبحراً وَكثر الْخَيْر وانبسطت الأرزاق ورخصت الأسعار وانتشر الْأَمْن فِي جَمِيع بِلَاد الأندلس وشملتهم الْعَافِيَة فِي تِلْكَ الْمدَّة وَضربت سكَّة جَدِيدَة طيبَة)[١] ، وأضاف: إلا أن السلطان بعد حاثة السيل الذي تعرضت له غرناطة سنة٨٨٣هـ/١٤٧٨م[٢](اشْتغل باللذات والإنهماك فِي الشَّهَوَات وَاللَّهْو بِالنسَاء المطربات وركن إِلَى الرَّاحَة والغفلات وضيع الْجند وَأسْقط كثيرا من نجدة الفرسان وَثقل المغارم وَكثر الضرائب فِي الْبلدَان ومكس الْأَسْوَاق وَنهب الْأَمْوَال وشح بالعطاء إِلَى غير ذَلِك من الْأُمُور الَّتِي لَا يثبت مَعهَا الْملك)[٣].

وفي المقابل شهدت العلاقات بين مملكتي قشتالة وأراغون تطوراً مهماً كان له أسوأ الأثر على مستقبل مسلمي الأندلس ، ففي سنة٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م تزوجت إيزابيلا بنت خوان الثاني ملك قشتالة وأخت الملك هنري الرابع(٨٥٩-٨٧٩ هـ/١٤٥٤-١٤٧٤م) من فرناندو بن خوان الثاني ملك أراغون(٨٦٣-٨٨٤هـ/١٤٥٨-١٤٧٩م) ، وعندما توفي هنري الرابع بدون وريث للعرش توجت أخته إيزابيلا لعرش قشتالة ، كما ورث فرناندو الأرغوني أباه عند وفاته ، فكان ثمرة ذلك الزواج أن اتحدت المملكتين قشتالة وأراغون[٤] ، ولُقبا بالملكين الكاثوليكيين[٥].

في الوقت نفسه حصل تطور خطير على الساحة السياسية في غرناطة هو الفرقة التي حدثت بين السلطان أبي الحسن وولديه أبي عبدالله محمد(الصغير) وأبي الحجاج يوسف ، ويرجع سبب ذلك إلى أن السلطان كان قد تزوج من ابنة عمّه عائشة الحرة[٦] فأولدها ولديه

---

١) نبذة العصر، ص ٣٦ -٣٧.
٢) ينظر التفاصيل عن حادثة السيل : مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٤١ -٤٥.
٣) نبذة العصر، ص ٤٥.
٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٨٢/٥ ؛ الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٩.
٥) الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٩.
٦) وهي عائشة بنت الأمير محمد الأيسر ابنة عمّ السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري تزوجها سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م وتوفيت في حدود سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩١م، ينظر : الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ١٩٣-١٩٦.

أعلاه ، ثم تزوج من فتاة نصرانية تدعى ثريا(١) وأولدها ابنيه سعد ونصر فأوغرت صدره على ولديه من عائشة فاعتقلهما مع أمّهما إلا أنهما تمكنا من الفرار والتغلب على السلطة في غرناطة وتربع أبو عبد الله الصغير على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م ، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها في لوشة للدفاع عنها ، إلا أنه اضطر إلى تجميع أنصاره مكوناً منهم قوة بلغت خمسمائة شخص زحف بها نحو مدينة غرناطة حيث ابنه أبو عبدالله الصغير ، وتمكن مع رجاله من تسلق أسوار مدينة غرناطة وخاض معركة عنيفة مع أنصار ابنه قتل فيها الكثير من أتباعه مما اضطره إلى التراجع والهرب إلى مالقة(٢) حيث أخوه أبو عبدالله محمد بن سعد المعروف بالزغل(٣).

وقد اغتنم النصارى ذلك الانقسام الذي تزامن مع انقضاء مدة الهدنة التي عقدها السلطان مع قشتالة بمهاجمة أراضي مملكة غرناطة فاستولوا على مدينة الحمة وذلك سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م(٤) ، ثم قام الملك القشتالي بمهاجمة مدينة لوشة القريبة من الحمة إذ أن هاتين المدينتين تمهدان الطريق إلى غرناطة.

وفي ربيع الثاني من سنة٨٨٨هـ/١٤٨٣م أُسر الأمير أبو عبدالله الصغير أمير غرناطة ، ذلك أن الأمير أبا عبدالله الصغير خرج بأهل غرناطة وهاجم مناطق النصارى ورجع محملاً بالغنائم وعندما وصل بجيشه إلى اللسانة خرج عليهم كمين من النصارى فانهزم المسلمون وتبعهم النصارى قتلاً وأسراً وكان من بين الأسرى الأمير نفسه ولم يعرفوه إلا بعد ذلك فحملوه إلى ملك قشتالة الذي أكرمه وعظمه ورأى أنه سيصل به إلى ما يأمله من أخذ بلاد الأندلس ، وأضاف صاحب الرواية أن(أشنع مَا كَانَ فِيهَا—أي معركة اللسانة– أسر

---

١) وهي جارية رومية كان اسمها إيزابيلا أخذت أسيرة في إحدى المعارك وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فاعتنقت الإسلام وتسمت بثريا وكانت حسناء فتعلق بها السلطان وتزوجها وأولدها اثنين هما سعد ونصر، وبعد سقوط غرناطة لم تغادر الأندلس فقد تنصرت هي وولديها، ينظر : الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ٩٠ -٩١، وذكر إيرفنغ أن اسمها فاطمة ولقبها الزوراء وهي مسيحية بالولادة ابنة القائد سانشو أكزيمنس دي سولي، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٦.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٧ -٩٨.

٣) المقري، نفح الطيب، ٥١٤/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٢/٥.

٤) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٥٤ -٥٦ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٩.

اَلّأَمِير أبي عبدالله مُحَمَّد بن عَليّ لِأَنَّهُ كَانَ سَببا فِي هَلَاك الوطن)[1] ، وهكذا بأسر الأمير أبي عبدالله الصغير فقد الجيش الإسلامي كل حماسة فكانوا بين منهزم وقتيل وغريق وأسير[2].

استغل الملك القشتالي حالة الفوضى التي حلت في صفوف المسلمين وحالة الزهو التي تمتع بها جيشه فهاجم العديد من الحصون والمدن المحيطة بغرناطة ، ففي الغرب استولى على حصن قرطمة ودكوين سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٥ م ، وفي السنة نفسها استولى على رندة Ronda ثم حصن قنبيل وما جاوره من الحصون[3].

وكان الأمير أبو الحسن قد طعن في السن وأعياه المرض فتنازل لأخيه أبي عبد الله الزغل حاكم مالقة[4] ، وفي محاولة من ملكي قشتالة تعميق الانشقاق بين أقطاب السلطة في غرناطة أفرجا بعد ذلك عن أبي عبد الله الصغير بعد أن أخذا عليه المواثيق بتبعيته لهم مع جزية سنوية[5].

وعندما أُطلق سراح أبي عبدالله الصغير كان عمّه أبو عبدالله الزغل يُحكم سيطرته على غرناطة ويطمع بالسيطرة على جميع ما تبقى من الأندلس لنفسه ، فعمد الصغير إلى التوجه إلى شرق الأندلس ودخل حصن بلش Velez بمساعدة قوة من النصارى وأعلن نفسه ملكاً ، وأخذ يبث دعوته ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود مع ملكي قشتالة ، وأنه يضمن للمسلمين الاستقرار والسلم ، وأنه يُطبق في سائر الأنحاء التي تدخل في طاعته[6] ، وقد علّق مؤلف مجهول المعاصر للأحداث على ذلك بقوله: (استولى العَدو على حصن صَالحَة من حصون بلش ثمَّ إِن العَدو دمره الله سرح اَلّأَمِير أَبَا عبد الله مُحَمَّد بن عَليّ إِلَى بعض حصون الشرقية ووعده بِالصُّلْحِ إِن أطاعه الشّعب فَقَامَتْ بدعوته تِلْكَ الْحُصُون طَمَعاً

١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٥ -٦٧ ؛ ينظر أيضاً : المقري، نفح الطيب، ٥١٥/٤.

٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ١٢٠ -١٣١.

٣) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٨، ٧٠، ٧٥.

٤) المقري، نفح الطيب، ٥١٥/٤.

٥) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٦ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ١٣٥ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٤/٥ -٢٠٥.

٦) المقري، نفح الطيب، ٥١٦/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٨/٥.

بِالصُلّحِ وبالبقاء فِي اَلحُصُون)[1].

وهكذا أصبح لغرناطة حاكمين من بني الأحمر ، استقر أبو عبدالله الصغير في المناطق الشرقية ، فيما يحكم عمّه أبو عبد الله الزغل غرناطة ومالقة والمرية Almeria[2] ، وفيما كانت نار الفتنة قائمة بين الخصمين كانت جيوش قشتالة قد استولت على العديد من المدن والحصون وأخذت تُضيّق الخناق على غرناطة[3].

وأشار مؤلف مجهول إلى أن صلحاً وقع بين الأمير أبي عبدالله الصغير وعمّه أبي عبد الله الزغل على أن يسلم إلى عمه الحكم ويكون هو تابع له وأرسل إلى أنصاره في غرناطة يعلمهم بالصلح مع عمّه وغادر حصون الشرقية إلى لوشة وذلك جماد الأولى سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م[4] ، وأشار المقري إلى الصلح قائلاً: (بأن العمّ يكون له الملك ، وابن أخيه تحت إيالته بلوشة أو بأي المواضع أحب ، ويكونون يداً واحدة على عدو الدين)[5].

وما كاد الأمير أبو عبدالله الصغير يستقر في لوشة حتى جاء الملك القشتالي بجيش عظيم وضرب عليها الحصار ثم استطاع اقتحامها ، وهكذا سقطت المدينة بيد ملك قشتالة مدعوماً بقوات انكليزية صليبية في٢٦ جماد الأولى سنة٨٩١هـ/مايو١٤٨٦م[6] ، ثم واصل استثمار انتصاراته فهاجم مدينة بلش في ربيع الآخر من سنة٨٩٢هـ/١٤٨٦م ولم يستطع أبو عبد الله الزغل إنجادها ، وسقط على إثرها معظم المعاقل والحصون التي تليها[7] ، وفي طريق عودة الأخير إلى غرناطة فوجئ بدخول ابن أخيه أبي عبدالله الصغير إلى غرناطة وهو ما اضطره إلى الذهاب إلى مدينة وادي آش[8] ، وفي هذا الأثناء استغل ملك قشتالة الوضع المتأزم بين زعيمي غرناطة فزحف نحو مالقة وتمكن اقتحامها

---

١) نبذة العصر، ص ٧٦.

٢) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٨ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٩/٥

٣) ينظر التفاصيل: مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص٨٤.٧٩؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٤.٢١٣/٥.

٤) نبذة العصر، ص ٧٧ –٧٨.

٥) نفح الطيب، ٥١٧/٥.

٦) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٩ –٨٠ ؛ المقري، نفح الطيب، ٥١٧/٤ –٥١٨ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢١٢ –٢١٧.

٧) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٨٨ –٩٠.

٨) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٠.

وذلك في شعبان من سنة٨٩٢ هـ /١٤٨٦م[١].

وفي سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م قصد الملك القشتالي مدينة بسطة وبعد حصار دام ستة أشهر وعشرين يوماً تمكن من دخولها في العاشر من محرم سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م الموافق الرابع عشر من ديسمبر ١٤٨٩م[٢] ، وكان من أولى نتائج سقوط مدينة بسطة بيد القوات الصليبية بقيادة ملكي قشتالة أن ساد حالة من الذعر في معظم المناطق التي كانت في حوزة المسلمين من الأندلس ولاسيما مناطق شرق غرناطة ، فسارعت معظم المدن والحصون القريبة من بسطة إلى التسليم والدخول في طاعة ملك النصارى ، وقد علق صاحب نبذة العصر(وهو معاصر للأحداث) على ذلك بقوله :(ثمَّ إن ملك الرّوم دمره الله جعل فِي الْبَلَد قائداً من قواده حَاكماً ورتبه وأشحنه بِمَا يَحْتَاج إِلَيْهِ من أطْعمَة وَزَاد وَآلَة حَرْب ، وارتحل من مَدِينَة بسطة يُرِيد المرية فَلم يمر على حصن وَلَا على قَرْيَة إِلَّا وَدخل أَهلهَا فِي ذمَّته وَتَحْت طَاعَته من غير حصَار وَلَا قتال)[٣].

وهكذا بعد سقوط كل من مدينتي بسطة والمرية والحصون التي بينهم لم يبق أما الملك النصراني سوى مدينة وادي آش التي كان يتحصن بها الزغل فراسله الملك النصراني وأقنعه بعدم جدوى المقاومة وضرورة تسليم مدينة وادي آش والانضواء تحت طاعته فتسلمها من دون مقاومة وذلك في صفر من سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م ثم ساعده على ضم معظم المناطق والحصون التي كانت تحت طاعته ، وقد علق مؤلف مجهول على ذلك بقوله :(فَدَخلَهَا الْعَدو وَقبض قصبتها وَاسْتولى عَلَيْهَا فِي الْعشْر الأول من شهر صفر عَام خَمْسَة وَتسْعين وثمان مئة وَدخل فِي ذمَّته جَمِيع فرسَان الْأَمِير مُحَمَّد بن سعد وَجَمِيع قواده وصاروا لَهُ عونا على الْمُسلمين وطوعوا لَهُ جَمِيع الْبِلَاد والقرى والحصون الَّتِي كَانَت تَحت طاعتهم من مَدِينَة المرية إِلَى مَدِينَة الْمنْكب وَمن مَدِينَة الْمنْكب إِلَى قَرْيَة البذول فَقبض صَاحب قشتالة ذَلِك كُله من غير قتال ولا حصار وَلَا تَعب وَلَا نصب فَإنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون

---

١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٤.

٢) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٧ ؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص ٢٢٦ ؛ الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٥٣ ؛ خطاب، قادة فتح الأندلس، ٢٣٥/٢.

٣) مؤلف مجهول، ص ٩٨.

وَجعل فِي كل قَصَبَة قائدا نَصْرَانِيّا مَعَ جمَاعَة من النَّصَارَى يحكم فِي ذَلِك الْموضع وَفِي هَذَا الشَّهْر خلصت جمِيع بِلَاد الأنـدلس لصَاحب قشتالة وَدخلت تَحت طَاعَته وتدجن جَمِيع أَهلهَا وَلم يبْق للْمُسلمين فِي الأندلس غير مَدِينَة غرناطة وَمَا حولهَا من الْقرى)[١].

كان استسلام أبا عبد الله الزغل ثم مغادرته الأندلس إلى المغرب[٢] يعد امتحان عسير لأبي عبد الله الصغير سلطان غرناطة فهو سبق وأن وقع مع ملكي قشتالة معاهدة صلح يدخل بموجبها في طاعتهما وأن يسلمهما غرناطة ويبقى في حمايتهما[٣] ، وأشار صاحب نبذة العصر إلى أن ملك قشتالة بعث إلى أبي عبد الله الصغير أن يسلمه مدينة الحمراء وبعض جهات غرناطة وأن يدخل في ذمته ، استشار أبو عبدالله الصغير أعيان المدينة في ذلك فرفضوا ذلك ، وعلق مؤلف مجهول على ذلك بقوله: (فَلَمَّا بلغ الْخَبَر أهل غرناطة بِخُرُوج صَاحب قشتالة وَأَنه قادم عَلَيْهِم حَسْبَمَا ذكر جمع أَمِير غرناطة مُحَمَّد بن عَليّ خاصتهم وعامتهم وَأخْبرهمْ بِمُرَاد طاغية النَّصَارَى وَمَا طلب وَمَا خُرُوجه إِلَّا ليدْخل الْبَلَد على الصّفة الْمَذْكُورَة واستشارهم فِي ذَلِك فَأَجْمعُوا أمرهم كلهم على قِتَاله ومدافعته عَنْهُم بِمَا أمكن حَتَّى يفتح الله عَلَيْهِم أَو يهْلكُوا عَن آخِرهم وتعاهدوا مَعَ أَمِيرهمْ أَن يَكُونُوا يدا وَاحِدَة على قتال عدوهم)[٤].

وهكذا بدأت المواجهات التي استهلها الملك القشتالي بمهاجمة غرناطة في رجب من سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م واستطاع أهالي غرناطة مع أميرهم أبي عبد الله الصغير من ردهم ثم تحولوا إلى الهجوم وتمكنوا من تحقيق بعض الانتصارات واسترجاع بعض المناطق التي سيطر عليها الملك القشتالي ولاسيما حصن أندراش[٥] ثم واصل الجيش الغرناطي زحفه واسترجع قرية همذان[٦] في رمضان من سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م ، بعدها توجهوا نحو حصن شلوبانية وفي

---

١) نبذة العصر، ص ١٠٠.

٢) ينظر : مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٧/٥ -٢٢٨.

٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣٠/٥.

٤) نبذة العصر، ص ١٠٢ ؛ ينظر أيضاً المقري، نفح الطيب، ٥٢٣/٤.

٥) تقع أندرش Andarax جنوب شرقي غرناطة على مقربة من البحر الأبيض المتوسط، ينظر: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣٤/٥.

٦) تقع قرية همدان Alhendin، جنوب غربي غرناطة على قيد بضعة كيلومترات منها، ينظر: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣٤/٥.

أثناء الحصار جاءت الأخبار أن ملك قشتالة يريد مهاجمة غرناطة مما اضطر الأمير إلى الانسحاب إليها للدفاع عنها[1] ، ثم ساد جو من الحماس لدى المسلمين في غرناطة وما جاورها من المناطق وعزموا على مهاجمة الحاميات النصرانية وهو ما دفع الملك القشتالي إلى الإسراع في محاصرة غرناطة قبل أن تعم روح الثورة في المناطق التي بين يديه[2].

ففي جماد الآخرة من سنة٨٩٦هـ/١٤٩٠ م خرج الملك القشتالي بجيش كبير وضرب الحصار على غرناطة وبنا معسكراً لقواته تحسباً لطول الحصار وأخذ ينتسف القرى والمزارع حول غرناطة من اجل منع التموين عنها ، واستمرت الحرب سجالاً والمسلمون يقاومون محتسبون ، وقد علق مؤلف مجهول على ذلك بقوله: (وَفي كل ملحمة من هَذه الْمَلَاحم يثخن كثير من أنجاد الفرسان بالجراحات من الْمُسلمين وَيسْتَشْهد آخَرُونَ وَمن النَّصَارَى أَضْعَاف ذَلك والمسلمون فَوق ذَلك صَابرُونَ محتسبون واثقون بنصر الله تَعَالَى يُقَاتلُون عدوهم بنية صَادقَة وَقُلُوب صَافيَة... وَمَعَ ذَلك لم تزل الْحَرْب مُتَّصلَة بَين الْمُسلمين وَالنَّصَارَى وَالْقَتْل والجراحات فاشيان في الْفَرِيقَيْن سَبْعَة أشهر إِلَى أَن فنيت خيل الْمُسلمُونَ بِالْقَتْلِ وَلم يبْق منْهَا إِلَّا الْقَلِيل وفني أَيْضا كثير من نجدة الرِّجَال بِالْقَتْلِ والجراحات)[3].

وبعد طول مدة الحصار أيس المدافعون عنها فقرروا الاستسلام ، وقد صور لنا مؤلف مجهول(وهو معاصر للأحداث) تسليم مدينة غرناطة وما حلّ بها ودخول النصارى إليها بقوله: (وَمَا زَالَ حَال الْبَلَد يضعف ويقل من الطَّعَام وَالرِّجَال إِلَى أَن دخل شهر الْمحرم عَام سَبْعَة وَتسْعين وثمان مئة وَدخل فصل الشتَاء والثلج نَازل بِالْجَبَلِ وَقطع الطَّرِيق من الْبشرَة فَقل الطَّعَام عِنْد ذَلك في أسواق الْمُسلمين فِي غرناطة وَاشْتَدَّ الغلاء وَأدْركَ الْجُوع كثيرا من النَّاس وَكثر السُّؤَال والعدو سَاكن ببَلَده ومحلته وَلَقَد منع الفحص كُله وَمنع الْمُسلمين من الْحَرْث والزراعة وَقطع الْحَرْب في هَذه الْمدَّة بَين الْفَرِيقَيْن فَلَمَّا دخل شهر صفر من عَام التَّارِيخ اشْتَدَّ الْحَال على النَّاس بِالْجُوعِ وَقلة الطَّعَام وَأدْركَ الْجُوع كثيرا من النَّاس الموسرين فَاجْتمع أَعْيَان النَّاس من الْخَاصَّة والعامة وَالْفُقَهَاء والأمناء والأشياخ والعرفاء ، وَمن

---

١) ينظر التفاصيل : مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص١٠٣ -١١٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ٥٢٣/٤ -٥٢٤.
٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣٥/٥.
٣) نبذة العصر، ص ١٢٠.

بَقِي من أنجاد الفرسان وَمن لَهُم النّظر بغرناطة وَسَارُوا إِلَى أَميرهمْ مُحَمَّد بن عَليّ فأعلموه بِحَال النَّاس وَمَا هم فِيهِ من الضعْف وَشدَّة الْجُوع وَقلة الطَّعَام وَأَن بلدهم بلد كَبِير لَا يقوم بِهِ طَعَام مجلوب فَكيف وَلم يجلب إِلَيْهِ شَيْء وَأَن الطَّرِيق الَّتِي كَانَت يَأْتِيهم عَلَيْهَا الطَّعَام والفواكه من الْبشرَة انْقَطَعت وَأَن أنجاد الفرسان هَلَكُوا وفنوا وَمن بَقِي مِنْهُم أثخن بالجراحات وَقد امْتنع عَنْهُم الطَّعَام وَالزَّرْع والحرث وَأَن رِجَالهمْ هَلَكُوا فِي تِلْكَ الْمَلَاحم ثمَّ قَالُوا لَهُ إِن إِخْوَاننَا الْمُسلمين من أهل عدوة الْمغرب بعثنَا إِلَيْهِم فَلم يأتنا أحد مِنْهُم وَلَا عرج على نصرتنا وإغاثتنا وعدونا قد بنى علينا وَسكن مَعنا وَهُوَ يزْدَاد قُوَّة وَنحن نزداد ضعفا والمدد يَأْتِيهِ من بِلَاده وَنحن لَا مدد لنا وَهَذَا فصل الشتَاء قد دخل ومحلة عدونا قد تَفَرَّقت وضعفت وَقد قطع عَنَّا الْحَرْب وَإِن تكلمنا مَعَه الْآن قبل منا وأعطانا كل مَا نطلب مِنْهُ وَإِن بَقينَا حَتَّى يدْخل فصل الرّبيع تَجْتَمِع عَلَيْهِ جيوشه مَعَ مَا يلحقنا نَحن من الضعْف والقلة فَلَنْ يعود يقبل منا مَا نطلبه مِنْهُ وَلَا نَأْمَن نَحن على أَنْفُسنَا من الْغَلَبَة وَلَا على بلدنا مِنْهُ فَإِنَّهُ قد هرب لمحلته من بلدنا أنَاس كَثِيرُونَ يدلونه على عوراتنا ويستعين بهم علينا فَقَالَ لَهُم الْأَمِير مُحَمَّد بن عَليّ انْظُرُوا مَا يظْهر لكم وَمَا تتفقون عَلَيْهِ من الرَّأْي الَّذِي فِيهِ صلاحكم ، فاتفق رَأْي الْجَمِيع من الْخَاصَّة والعامة أَن يبعثوا لملك الرّوم من يتَكَلَّم مَعَه فِي أَمرهم وَأمر بلدهم وَقد زعم كثير من النَّاس أَن أَمِير غرناطة ووزيره وقواده كَانَ قد تقدم بَينهم وَبَين ملك النَّصَارَى النَّازِل عَلَيْهِم الْكَلَام فِي إِعْطَاء الْبَلَد إِلَّا أَنهم خَافُوا من الْعَامَّة وَكَانُوا يحتالون عَلَيْهِم ويلاطفونهم فحين أتوهم بِمَا كَانُوا اضمروا عَلَيْهِ أسعفوهم من حينهم وَلأَجل ذَلِك قد قطع عَنْهُم الْحَرْب فِي تِلْكَ الْمدَّة الْمَذْكُورَة حَتَّى وجدوا لذَلِك الْكَلَام مسلكا مَعَ الْعَامَّة فَلَمَّا بعثوا لملك الرّوم بذلك وجدوه رَاغِبًا فِيهِ فأنعم لَهُم بِجَمِيعِ مَا طلبُوا مِنْهُ وَمَا شرطُوا عَلَيْهِ.

وَمن جملَة الشُّرُوط الَّتِي أهل غرناطة على ملك الرّوم:

أَن يؤمنهم على أنفسهم وبلادهم وَنسَائِهِمْ وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وَجَمِيع مَا بِأَيْدِيهِم ولايغرمون إِلَّا الزَّكَاة وَالْعشر لمن أَرَادَ الْإِقَامَة بِبَلَدِه غرناطة وَمن أَرَادَ الْخُرُوج مِنْهَا يَبِيع أَصله بِمَا يرضاه من الثّمن لمن يُرِيدهُ من الْمُسلمين وَالنَّصَارَى من غير غبن وَمن أَرَادَ الْجَوَاز لبلاد العدوة بالغرب يَبِيع أَصله وَيحمل أمتعته ويحمله فِي مراكبه إِلَى أَي أَرض أَرَادَ من بِلَاد الْمُسلمين من غير كِرَاء وَلَا شَيْء يلْزمه

لُمدَّة من ثَلَاث سنِين وَمن أَرَادَ الْإِقَامَة بغرناطة من الْمُسلمين فَلهُ الْأمان على نَحْو مَا ذكر وَقد كتب لَهُم ملك الرّوم بذلك كتابا وَأخذُوا عَلَيْهِ عهودا ومواثيق فِي دينه مُغَلّظَة على أَنه يُوفي لَهُم بِجَمِيع مَا شرطوه عَلَيْهِ.

فَلَمَّا تمت هَذِه الْعُقُود والمواثيق قُرِئت على أهل غرناطة ، فَلَمَّا سمعُوا مَا فِيهَا اطمأنوا إِلَيْهَا وانقادوا لطاعته وَكَتَبُوا بيعتهم وأرسلوها لصَاحب قشتالة وسمحوا لَهُ فِي الدُّخُول إِلَيّ مَدِينَة الْحَمْرَاء وَإِلَى غرناطة ، فَعنْدَ ذَلِك أَمر أَمِير غرناطة مُحَمَّد بن عَليّ بإخلاء مَدِينَة الْحَمْرَاء فأخليت دورها وقصورها ومنازلها وَأَقَامُوا ينتظرون دُخُول النَّصَارَى لقبضها.

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْم الثَّانِي لربيع الأول من عَام سَبْعَة وَتِسْعين وثمان مئة أقبل ملك الرّوم بجيوشه حَتَّى قرب من الْبَلَد وَبعث جنَاحا من جَيْشه فَدَخَلُوا مَدِينَة الْحَمْرَاء وَبَقِي هُوَ بِبَقِيَّة الْجَيْش خَارج الْبَلَد لِأَنَّهُ كَانَ يخَاف من الْغدر وَكَانَ طلب من أهل الْبَلَد حِين وَقع بَينهم الإتفاق على مَا ذكر رهونا من أهل الْبَلَد ليطمَئِن بذلك فَأَعْطوهُ خمس مئة رجل مِنْهُم وأقعدهم بمحلته فَحِينَئِذٍ قدم كَمَا ذكرنَا ، فَلَمَّا اطْمَأَن من أهل الْبَلَد وَلم ير مِنْهُم غدرا سرح جُنُوده لدُخُول الْبَلَد والحمراء فَدخل مِنْهُم خلق كثير وَبَقِي هُوَ خَارج الْبَلَد وأشحن الْحَمْرَاء بِكَثِير من الدَّقِيق وَالطَّعَام وَالْعدة وَترك بهَا قائدا من قواده وَانْصَرف رَاجعا إِلَى محلته وَبَقِي حِينَئِذٍ يخْتَلف بالدقيق والعلوفات وأنواع الطَّعَام وَالْعدة وَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَقدم فِي الْبَلَد قوادا وحكاما وبوابين وَمَا يحْتَاج الْبَلَد إِلَيْهِ من الْأُمُور وَصَارَ الْمُسلمُونَ يَخْتَلِفُونَ إِلَى الْمحلة للبيع وَالشِّرَاء وَالنَّصَارَى كَذَلِك بالبلد ، فَلَمَّا سمع أهل الْبشرَة أن أهل غرناطة دخلُوا تَحت ذمَّة النَّصَارَى أرسلُوا بيعتهم إِلَى ملك النَّصَارَى ودخلوا فِي ذمَّته وَلم يبْق حِينَئِذٍ لِلْمُسلمين مَوضِع بالأندلس فَإنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون)[1].

وهكذا سقطت غرناطة آخر موضع للمسلمين في الأندلس في الثاني من ربيع الأول سنة٨٩٧هـ/الثاني من يناير ١٤٩٢م[2] ، بعد أن حكمها المسلمون مدة ٨٠٥ سنة.

---

١) نبذة العصر، ص ١٢١ -١٢٦ ؛ وينظر التفاصيل أيضاً : المقري، نفح الطيب، ٥٢٥/٤ -٥٢٧ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣٦/٥ -٢٥٦.

٢) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ١٢٦ ؛ المقري، نفح الطيب، ٢٥٢/٤ ؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٥٧/٥.

مصادر ومراجع البحث

أولاً: المصادر الأولية

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله(ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩م)

١ - تحفة القادم، علق علية إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦ م.

٢ - التكملة لكتاب الصلة، عني بنشره وصححه السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة، ١٩٥٦ م

٣ - الحُلة السِّيراء، تحقيق حسين مؤنس، ط ٢، مصر ١٩٨٥ م.

- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم بن عبد الكريم الجزري(ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م)

٤ – الأندلس من الكامل في التاريخ، جمعه وحقق نصوصه جاسم ياسين الدرويش، ط١، دمشق٢٠١٥م.

- الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحميري الحسني (ت٥٦٠هـ/١١٦٤م)

٥ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م.

- الاصطخري، أبو إسحاق محمد بن إبراهيم الفارسي(ت منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي)

٦ - المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، مراجعة محمد شفيق غربال، القاهرة ١٩٦١م.

- إينهارد(ت ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م)

٧ - سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٩م.

ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني(ت ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م)

٨ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت٢٠٠٠م.

- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك(ت ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م)

٩ - الصلة في تاريخ علماء الأندلس، قدم له وضبطه صلاح الدين الهواري، ط ٢، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٥ م.

- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي(ت ٧٧٩ هـ /١٣٧٧م)

١٠ - رحلة ابن بطوطة، الرباط، ١٤١٧ هـ.

- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز(ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م)

١١ - المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢ م.

- ابن بلقين، عبد الله(ت ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م).

١٢ - مذكرات الأمير عبد الله المسمى بكتاب التبيان، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٥٥ م .

- البيذق، أبو بكر علي الصنهاجي(ت قبل ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م)

١٣ - أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة، والوراقة، الرباط، ١٩٧١م.

- ابن تغري بردى، يوسف بن تغري بردى بن عبد الملك الظاهري(ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

١٤ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، مصر.

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(ت ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م)

١٥ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة.
- ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني الأندلسي(ت ٦١٤هـ / ١٢١٧ م)
١٦ - رحلة ابن جبير، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني الشافعي(ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م)
١٧ - تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، تحقيق محمد علي النجار، المطتبة العلمية، بيروت.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد(ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م)
١٨ - جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم، ط ٤، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٧ م
١٩ - رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، بيروت، ١٩٨٧ م.
- الحميدي، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي(ت ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م)
٢٠ - جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر، تحقيق صلاح الدين الهواري، ط ١، بيروت ٢٠٠٤ م.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم(ت: حوالي ٧١٠هـ/١٣١٠ م)
٢١ - الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي(ت ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م)
٢٢ - صورة الأرض، ط ٢، ليدن ١٩٣٨م.
- ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف(ت ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م)
٢٣ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس(للحقبة ١٨٠ -٢٣٢ هـ/٧٩٦ -٨٤٦ م)، تحقيق محمود علي مكي، ط ١، الرياض، ٢٠٠٣ م.
٢٤ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس(للحقبة ٢٣٢ -٢٦٧ هـ/ ٨٤٦ -٨٨٠ م) تحقيق محمود علي مكي، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣ م.
٢٥ - المقتبس(للحقبة ٢٧٥ -٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ -٩١٢ م)، تحقيق إسماعيل العربي، ط ١، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٠ م.
٢٦ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس(للحقبة ٣٠٠ -٣٣٠ هـ/٩١٢ -٩٤١م)، تحقيق ب. شالميتا بالتعاون مع كور نيطي و م. صبح، منشورات المعهد العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٩م.
٢٧ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس(للحقبة ٣٦٠ -٣٦٤هـ/ ٩٧٠ -٩٧٤م)، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥ م.
- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الاشبيلي(ت ٥٢٩ هـ/١١٣٤ م)
٢٨ - قلائد العقيان في محاسن الأعيان، طبعة بولاق، ١٨٦٦ م.
ابن الخراط، أبو محمد(ت ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م)
٢٩ - اختصار اقتباس الأنوار، تقديم و تحقيق ايميليومولينا و خافينتو بوسيك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون العربي، مدريد ١٩٩٠ م.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد التلمساني(ت ٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م).
٣٠ - الإحاطة في أخبار غرناطة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ.
٣١ - أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام المسمى بتاريخ اسبانيا الإسلامية، تحقيق سيد كسروي حسن، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣ م.
٣٢ - خطرة الطيف في رحلات في المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، بيروت، ٢٠٠٣ م.
٣٣ - ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط ١، بيروت، ١٩٨٠ م.

٣٤ - كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق محمد كمال شبانة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٦ م.
٣٥ - اللمحة البدرية في الدولة النصرية، صححه ووضع فهارسه ونشره، محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧ هـ.
٣٦ - معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م)
٣٧ - تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، تحقيق خليل شحادة، ط ٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد(ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م).
٣٨ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،تحقيق إحسان عباس، لبنان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩م.
- خليفة بن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني(ت ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م)
٣٩ - تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط ٢، بيروت، ١٣٩٧ هـ.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز(ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م)
٤٠ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٣ م.
٤١ - سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦ م.
٤٢ - المستلمح من كتاب التكملة، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠٠٨م.
- الرشاطي، أبو محمد(ت ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م)
٤٣ - الأندلس من اقتباس الأنوار، تقديم وتحقيق ايميليو مولينا وخاثينتو بوتيك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، ١٩٨٠ م.
- الزبيدي، حمد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني(ت ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ م)
٤٤ - تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بيروت.
- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله(كان حيا سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م)
٤٥ - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢ م.
٤٦ - الذخيرة السنية السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، ١٩٧٢ م.
- الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي)
٤٧ - كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، المركز الإسلامي للطباعة، مصر، د. ت.
- ابن السباط، حمزة بن أحمد بن عمر(ت ٩٢٦ هـ/ ١٥١٩م)
٤٨ - صدق الأخبار، تاريخ ابن السباط، عني به وحققه عمر عبد السلام تدمري، ط ١، طرابلس، لبنان، ١٩٩٣ م.
- السخاوي، علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد المصري(ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥ م)
٤٩ - سفر السعادة وسفير الإفادة، تحقيق محمد الدالي، ط ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥ م.
- ابن سعيد، علي بن موسى(ت ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤ م أو ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م)
٥٠ - اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، تحقيق إبراهيم الابياري، القاهرة، ١٩٥٩م.
٥١ - كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، ١٩٧٠ م.
٥٢ - المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ج ١، ١٩٥٣ م.
- السلفي، أبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصفهاني(ت ٥٧٦ هـ/١١٨٠ م)

٥٣ - معجم السفر، تحقيق عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل(ت ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ م)
٥٤ - المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠ م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م)
٥٥ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، ١٩٦٧ م.
٥٦ - لب اللباب في تحرير الأنساب، دار صادر، بيروت.
- ابن الشباط، محمد بن علي بن محمد بن الشباط المصري التوزي(ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م)
٥٧ - صلة السمط وسمة المرط، تحقيق أحمد مختار العبادي، طبع مع كتاب تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، مدريد، ١٩٧١م.
- الشربيني، شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب(ت ٩٧٧ هـ/ ١٥٧٠ م)
٥٨ - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤ م.
- شيخ الربوة، أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري(ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م)
٥٩ - نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.
- ابن أبي صاحب الصلاة، عبد الملك(ت حوالي(ت ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م)
٦٠ - تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٧٩م.
- الضبي، أبو جعفر أحمد بن عيسى(ت ٥٩٩ هـ/١٢٠٢ م)
٦١ - بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧ م
- ابن عبد الحق، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي(ت ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨م)
٦٢ - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، ط ١، بيروت، ١٤١٢ هـ.
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله(ت ٢٥٧ هـ/٩٦٧ م)
٦٣ - فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، ١٤١٥ هـ.
- ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك(ت ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣ م)
٦٤ - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٥ م.
- ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد(ت بعد ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م)
٦٥ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ١، تحقيق ومراجعة جـ.س كولان وإ -ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥١م ؛ ج٢، ج ٣ تحقيق ومراجعة. ج. س. كولان وإ -ليفي بروفنسال، ط ٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣ م ؛ والجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٧ م، والجزء الخاص بالموحدين تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥ م.
- العذري، أحمد بن عمر بن أنس(ت ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م)
٦٦ - نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، د. ت.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله(ت ٥٧١ هـ/١١٧٥ م)
٦٧ - تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥ م.
-ابن عسكر، أبو عبدالله بن عسكر(ت٦٣٦هـ/١٢٢٨م،وابن خميس، أبو بكر بن خميس(ت٦٣٩هـ/١٢٤١م)

٦٨ - مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار، تقديم وتخريج وتعليق عبد الله المرابط، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ودار الأمان، الرباط، ١٩٩٩م.
- ابن غالب، محمد بن أيوب بن غالب البلنسي(ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م)
٦٩ - قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٥٦ م.
- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر(ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١م)
٧٠ - تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠ م.
٧١ - المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، مصر.
ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم(ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م)
٧٢ - تاريخ ابن الفرات، تحقيق حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة، البصرة، ١٩٦٩م.
- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري(ت ١٧٠ هـ/٧٨٦ م)
٧٣ - العين، تحقيق مهدي مخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري(ت ٧٩٩ هـ/١٣٩٦ م)
٧٤ - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق وتعليق محمد الأحمدي، القاهرة.
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى القرشي العدوي(ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩م)
٧٥ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٣هـ.
- الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي(ت ٨١٧ هـ/ ١٤١٥ م)
٧٦ - البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، دار سعد للطباعة، بيروت، ٢٠٠٠ م.
٧٧ - القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط ٨، بيروت، ٢٠٠٥ م.
- القاضي عياض، عياض بن موسى اليحصبي(ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م)
٧٨ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق سعيد أحمد أعراب، ط ١، المغرب، ١٩٨٣ م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم(ت ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩م)
٧٩ - الإمامة والسياسة(منسوب)، تحقيق علي شيري، ط ١، المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(ت ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م).
٨٠ - آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م.
ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الكتاني(ت ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م)
٨١ - نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، تطوان، المغرب، ١٩٦٥ م
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي(ت ٨٢١ هـ/١٤١٨م)
٨٢ - صبح الأعشى في صناعة الأنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٦٣ م.
٨٣ - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب العربي، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠ م.
ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر(ت ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م)
٨٤ - تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، ١٩٥٧ م.
- القيسي الدمشقي، شمس الدين محمد بن عبد الله بن أبي بكر(ت ٨٤٢ هـ/ ١٤٣٨م)
٨٥ - توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣ م.
- ابن كثير عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي(ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢ م)

٨٦ - البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م.
- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك التوزري(من علماء القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي)
٨٧ - تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان، تحقيق أحمد مختار العبادي، مطبعة الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١م.
- مجهول، مؤلف(ت القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي).
٨٨ - أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، مجريط، ١٨٦٧ م.
- مؤلف مجهول(ت القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي)
٨٩ - الاستبصار في عجائب الأمصار، بغداد، ١٩٨٦ م.
- مجهول، مؤلف(ت في حدود ٨٩٥ هـ/١٤٨٩م).
٩٠ - تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧ م، والنسخة الأخرى بتحقيق لويس مولينا، بعنوان ذكر بلاد الأندلس، مدريد، ١٩٨٣ م.
- مجهول، مؤلف،(من أهل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)
٩١ - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، ١٩٧٨م
- مجهول، مؤلف(آخر خبره في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي)
٩٢ - فتح الأندلس، تحقيق لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الأسبانية للتعاون الدولي، مدريد ١٩٩٤ م.
- مجهول، مؤلف(كان حياً ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م)
٩٣ - مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، ط ١، الرباط، ٢٠٠٥ م.
- مؤلف مجهول(كان حياً سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩١م)
٩٤ - نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق محمد رضوان الدية، دار حسان، دمشق، ١٤٠٤هـ.
- المراكشي، عبد الواحد بن علي(ت ٦٤٧ هـ/١٢٤٩م)
٩٥ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥ م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين(ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)
٩٦ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف البقاعي، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠١١م
- المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري(ت ٣٨٠ هـ/٩٤٧ م)
٩٧ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، ١٩٩١م.
- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني(ت : ١٠٤١ هـ / ١٦٣١م).
٩٨ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
- المنجم، إسحاق بن الحسين(ت القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي)
٩٩ - آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨ هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي(ت ٧١١ هـ/ ١٣١١م)
١٠٠ - لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.

- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم(ت ٥١٨ هـ/١١٢٤ م)
١٠١ - مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.
- النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله المالقي الأندلسي(ت ٧٩٢ هـ/١٣٨٩م)
١٠٢ - تاريخ قضاة الأندلس المسمى(المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٥، ١٩٨٣ م.
النويري، أحمد بن عبد الوهاب(ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١م)
١٠٣ - نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
- الهيثمي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي السعدي(ت ٩٧٤هـ/١٥٦٧ م)
١٠٤ - الفتاوى الحديثية، دار الفكر، بيروت.
- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد البكري القرشي(٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م)
١٠٥ - تاريخ ابن الوردي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦ م.
- ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر بن مظفر البكري القرشي(ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٧ م)
١٠٦ - خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- اليافعي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي(ت ٧٦٨ هـ/١٣٦٧ م)
١٠٧ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م.
- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي الحموي(ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م)
١٠٨ - الأندلس من معجم البلدان، حققه وعلق عليه جاسم ياسين الدرويش، ط ١، البصرة ٢٠١٢ م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح(ت ٢٨٤هـ ٨٩٧ م أو بعد ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م)
١٠٩ - البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م.

ثانياً : المراجع الحديثة

- أرسلان، شكيب
١ - تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٣ م.
٢ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٣٦ م.
- أشباخ، يوسف
٣ - تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠ م.
- إيرفنغ، واشنطن
٤ - أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هادي يحيى نصري، مؤسسة الانتشار العربي، ط ١، بيروت ٢٠٠٢ م.
- بروفنسال، إ. ليفي
٥ - مجموع رسائل موحدية من إنشاء كُتاب الدولة المؤمنية، الجزء العاشر، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، ١٩٤١م.
- دائرة المعارف الإسلامية، مادة برشلونة).
٦ - مدينة سالم، دار المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنشناوي وآخرون.
- البستاني، المعلم بطرس

٧ - مدينة طركونة، دائرة المعارف، بيروت.
- البهادلي، سعاد بدير هاشم
٨ - قطلونية دراسة في أحوالها العامة من الفتح إلى سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣٠ م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ابن رشد، ٢٠١٥ م.
- التميمي، فؤاد حسين
٩ - التجيبيون في الأندلس ودورهم السياسي والفكري من الفتح حتى منتصف القرن السادس الهجري، قم، ٢٠١٧.
جابر، جابر خليفة
١٠ - بنو مردنيش ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس(٥٢٨ -٦٣٦ هـ /١١٣٤ - ١٢٣٨م) ط ١، دمشق ٢٠١٧ م.
- الجبوري، عذراء نوري
١١ - عبد المؤمن بن علي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٠٦ م.
-جمال محمد
١٢ - مدينة سالم الأندلسية على الموقع الالكتروني:
http://djelfa.info/vb/archive/index.php?t-3696.html
الحايك، سيمون
١٣ - عبد الرحمن الداخل صقر قريش قصة وحضارة، لبنان، ١٩٨٢ م.
- الحجي، عبد الرحمن علي.
١١٤ - أندلسيات، ط ١، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩م.
١٥ - التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة(٨٩٧.٩٢ هـ/ ١٤٩١.٧١٠م) ط ١، بغداد، ١٩٧٦ م
- حتاملة، محمد عبده
١٦ - أيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، عمان، ١٩٩٦ م.
- الحساني، فائزة عبد الله
١٧ - تاريخ مدينة سرقسطة منذ عصر الخلافة الأموية حتى سقوطها(٣١٦ -٥١٢ هـ/٨٢٨ – ١١١٨م) دراسة سياسية حضارية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٣٠ هـ.
- حسين، حمدي عبد المنعم محمد
١٨ - ثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية(٣١٦.١٣٨ هـ/٩٢٨.٧٥٦م)، الإسكندرية، ١٩٩٣ م.
- حسين، عبد الرزاق
١٩ - الأدب العربي في جزر البليار، الكويت، ٢٠٠٤ م.
- حمودة، علي محمد
٢٠ - تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، ط١، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٧ م.
- خطاب، محمود شيت
٢١ - قادة فتح الأندلس، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ٢٠٠٣ م.
- الخطابي، محمد محمد
٢٢ - مدريد، حضور إسلامي على امتداد العصور، على الموقع الالكتروني m.hwspress.com.
- الخفاجي، كاظم عبد نتيش

٢٣ - التشيع في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢ -٨٩٧ هـ/٧١١ -١٤٩٢ م، مؤسسة الرافد، بغداد، ٢٠١٢ م.

- الخلف، سالم بن عبد الله

٢٤ - نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، المدينة المنورة، ٢٠٠٣ م.

- الخوند، مسعود

٢٥ - الموسوعة الجغرافية التاريخية، دار رواد النهضة، بيروت، ١٩٩٤ م.

- أبو الخيل، محمد إبراهيم

٢٦ - الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، الرياض، ١٩٩٥ م.

- الدرويش، جاسم ياسين

٢٧ - أعلام نساء الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٧ م.

- الدرويش، جاسم ياسين، والعياوي، حسين جبار

٢٨ - برشلونة بين الإسلام والنصرانية، دار تموز، دمشق، ٢٠١٧ م.

٢٩ - دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(١)، دار تموز، دمشق، ٢٠١٧ م.

٣٠ - دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٣)، دار تموز، دمشق، ٢٠١٨م

٣١ - دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٤)، دار تموز، دمشق، ٢٠١٨م.

٣٢ - دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٥)، دار تموز، دمشق، ٢٠١٩م.

٣٣ - دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٦)، دار تموز، دمشق، ٢٠١٩م.

٣٤ - دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم(٩)، دار تموز، دمشق، ٢٠٢٢ م.

٣٥ - مدينة بسطة الأندلسية من الفتح حتى السقوط(٩٢ -٨٩٥ هـ/٧١٠ -١٤٨٩م)، سلسلة رقم(٧)، دار تموز، دمشق، ٢٠٢٠ م.

- دندش، عصمت عبد اللطيف

٣٦ - الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.

- دوزي، رينهرت

٣٧ - تاريخ مسلمي أسبانيا، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥ م.

٣٨ - تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية محمد سليم النعيمي وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ٢٠٠٠ م.

٣٩ - المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، مصر، ١٩٩٤ م.

٤٠ - ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، ط ١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، ١٩٣٣ م.

- ذنون، عبد الحكيم

٤١ - آفاق غرناطة، بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي، دار المعرفة، دمشق، ١٩٨٨م.

- رويحة، أمين

٤٢ - التداوي بالأعشاب، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ.

- الساعدي، نسرين خلف جوي

٤٣ - بنو قسي ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس(٩٤ -٣١٧ هـ/٧١٢ -٩٢٩م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، ٢٠١٧ م.

- سالم، سحر عبد العزيز

٤٤ - تاريخ بطليوس الإسلامية، أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩١م.
٤٥ - مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري في الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٠ م.
- سالم، السيد عبد العزيز
٤٦ - تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، مؤسسة الشباب، الإسكندرية، ١٩٨٤ م.
٤٧ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف، لبنان، ١٩٦٢ م.
٤٨ - قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس(دراسة تاريخية، عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي)، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١م.
٤٩ - المساجد في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦ م.
- سالم، السيد عبد العزيز، والعبادي، أحمد مختار
٥٠ - تاريخ البحرية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٩م.
- السامرائي، خليل إبراهيم.
٥١ - الثغر الأعلى الأندلسي دراسة في أحواله السياسية ٩٥ -٣١٦ هـ/ ٧١٣ -٩٢٨م، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦ م.
٥٢ - علاقات المرابطين بالممالك الأسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، دار الحرية للطباعة، بغدد، ١٩٨٦ م.
- السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون.
٥٣ - تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٦ م.
٥٤ - تاريخ المغرب العربي، الموصل، ١٩٨٨م.
- السامرائي، عبد الحميد حسين أحمد
٥٥ - الثغر الأدنى الأندلسي، دراسة في أحواله السياسية خلال فترة الولاة والإمارة ٩٥ -٣١٦ هـ /٧١٤ -٩٢٨م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٧ م.
- السرجاني، راغب
٥٦ - العاصمة الأوربية التي أنشأها العرب، على الموقع الالكتروني : islamicstory.com.
- السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد الناصري
٥٧ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء.
- السلمي، إبراهيم عطية الله بن هلال
٥٨ - تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي، دراسة تاريخية حضارية ٩٢ -٤٧٨ هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥ هـ.
- شرف، عبد العزيز طريح
٥٩ - المقدمات في الجغرافيا الطبيعية، مركز الإسكندرية للكتاب، بدون تاريخ.
- الشمري، يوسف كاظم جغيل
٦٠ - العلاقات السياسية لسلطنة غرناطة في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بابل ٢٠٠٣ م.
- شمهود، طاظم

٦١ - مدينة وادي الحجارة الأندلسية، آثار وعمارة، مقالة على الموقع الالكتروني:
http://almothaqaf.com .
- الشيخ، محمد محمد مرسي
٦٢ - دولة الإفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي(١٣٨ -٣٦٦هـ / ٧٥٥ -٩٧٦ م)، الإسكندرية، ١٩٨١م.
- الصوفي، خالد
٦٣ - تاريخ العرب في أسبانيا حتى نهاية الخلافة في الأندلس، ط ١، حلب ١٩٦٣ م.
- طرخان، إبراهيم علي
٦٤ - المسلمون في أوربا في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٦ م.
— طه، عبد الواحد ذو النون
٦٥ - دراسات أندلسية، ط ١، الموصل، ١٩٨٦ م.
٦٦ - الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، منشورات وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، ١٩٨٢ م.
الطويل، مريم قاسم
٦٧ - مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر ٤٠٣ -٤٨٣هـ/ ١٠١٢ -١٠٩٠ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤ م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح
٦٨ - أوربا في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو مصرية، ط ٩، القاهرة، ١٩٨٣ م.
- عبادة، عبد الفتاح
٦٩ - سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها في الإسلام، مصر، ١٩١٣ م.
- العبادي، أحمد مختار
٧٠ - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ط ١، الإسكندرية، ١٩٦٨م.
٧١ - في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، ب، ت.
- أبو عبية، طه عبد المقصود
٧٢ - موجز عن الفتوحات الإسلامية، دار النشر للجامعات، القاهرة.
- العتبي والعامري، محمد سعيد رضا علو، ومحمد بشير حسن راضي
٧٣ — تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، دار الجامعية للطباعة، بغداد، ٢٠٠٢ م.
عجاج، أمين
٧٤ - مدريد، تاريخ عربي يلفه النسيان، مقال على الموقع الالكتروني: www.aljazeera.net.
- علام، عبد الله
٧٥ - الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦ م.
- العلياوي، حسين جبار
٧٦ - البشكنس ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس حتى سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م، ط ١، دار أمل الجديدة، دمشق، ٢٠١٧ م.
٧٧ - الحملات الصليبية على الأندلس حتى نهاية دولة المرابطين(٩٦ -٥٤١ هـ/٧٤١ -١١٤٦ م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة البصرة، ٢٠٠٥ م.
- العمايرة، محمد نايف

٧٨ - مراحل سقوط الثغور الأندلسية بيد الأسبان، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٨٩م.
- عنان، محمد عبد الله
٧٩ - الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال دراسة تاريخية أثرية، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٧ م.
٨٠ - دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، جـ ١، ٥، ط الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، جـ ٣، ٤، ط ٢، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
٨١ - مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ط ١، القاهرة، ١٩٦٢ م.
- الغنيمي، عبد الفتاح مقلد
٨٢ - كيف ضاع الإسلام من الأندلس بعد ثمانية قرون(مأساة الفردوس المفقود) ٩٢ -٨٩٧ هـ/ ٧١١ -١٤٩٢ م، د. م، ١٩٩٣ م.
- فريد بك، محمد
٨٣ - تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، بيروت، ١٩٨١م.
- أبو الفضل، محمد أحمد
٨٤ - تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، دار المعرفة، الاسكندرية، ١٩٩٦ م.
- الكتاني، علي بن محمد المنتصر
٨٥ - انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥ م.
- كراتشوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش
٨٦ - تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- كولان، ج. س
٨٧ - الأندلس، ترجمة دائرة المعرف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، ط ١، بيروت، ١٩٨٠ م.
- لودر، دروثي
٨٨ - اسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة طارق فودة، القاهرة، ١٩٦٥ م.
- المالكي، إخلاص جبار كاطع
٨٩ - حركة البياسي وآثارها على الأندلس(٦٢٠ -٦٣٦ هـ/١٢٢٣ -١٢٣٨م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، ٢٠٢٠ م.
- محمد، علي جمعة
٩٠ - المكاييل والموازين الشرعية، ط ٢، القاهرة، ٢٠٠١م.
- محمود، حسن أحمد
٩١ - قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧ م.
- محمود، منى حسن
٩٢ - المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالأفرنجة(٩٢ -٢٠٦ هـ/٧١٠ -٨٢١م) دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦ م.
- مكي، محمود علي
٩٣ - البرتغال الإسلامية، مجلة العربي، العدد ٢١٩، الكويت، ١٩٧٧ م.
٩٤ - وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، م ٧، ٨، ١٩٥٩ -١٩٦٠ م.

- مؤنس، حسين
٩٥ - الثغر الأعلى الأندلس وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة ٥١٢ هـ/١١١٨م، مع أربع وثائق جديدة، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، المجلد ١١، ج ٢، القاهرة، ١٩٤٩م.
٩٦ - فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية ٩٢ - ١٣٨هـ / ٧١٠ -٧٥٥ م، ط ١، القاهرة، ١٩٥٩م.
- المياح، عبد الرحمن رشك
٩٧ - أوربا في كتب البلدانيين العرب المسلمين، دراسة في الأحوال الطبيعية والبشرية والاقتصادية، ق ٣ -٨ هـ/ ٩ -١٤ م، بغداد، ٢٠٠٨م.
- المياحي، شكري ناصر، والعلياوي، حسين جبار
٩٨ - الموقف الشعبي من هجمات النصارى على الأندلس حتى نهاية الدولة العامرية(١١٤ -٣٩٩ هـ/٧٣٢ -١٠٠٨م) بحث منشور في مجلة آداب ذي قار، العدد ٦، المجلد ٢، لسنة ٢٠١٢ م.
- ناجي، عبد الجبار
٩٩ - دراسات في تاريخ المدن الإسلامية، جامعة البصرة، ١٩٨٦ م.
هنتس، فالتر
١٠٠ - المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن الألمانية كامل العسلي، عمّان ١٩٧٠

- Paiter،Sidney
101-;History of the Middle Ages 284-1500، New York 1954
Payne،Stanley
102- History of Spain and Portugal ،The Library of Iberian Resources ،University ofWisconsin ،1973.
Stewart ،Jules -
-٩٢ 103-Madrid the History. London ،Tauris ،2012.
- ١٠٤Wikipedia،org. مقالة عن مالقة الأندلسية ، .
- ١٠٥ ar.wikipedia.org. مادة جرندة .
- ١٠٦ar.m.wikipedia.org. مادة مدريد ،

المحتويات

- **مدينة قصر أبي دانس** Alcacer do Sal **الأندلسية**
٩٣ – ٦١٤هـ/ ٧١١ –١٢١٧ م . . . .
- **مدينة باجة** Beja **الأندلسية ٩٤ –٦١٥ هـ / ٧١٢ –١٢١٨م** . . . . . .
-مدينة قيجاطة Quesada **الأندلسية ٩٢ –٦٢٢ هـ/٧١٠ –١٢٢٥ م** . . . .
- **مدينة بيّاسة** Baeza **الأندلسية ٩٢ –٦٢٣هـ / ٧١٠ –١٢٢٦ م** . . . . .
- **مدينة ماردة** Merida **الأندلسية ٩٤ –٦٢٧ هـ/٧١٢ –١٢٢٩م** . . . . . .
- **مدينة أبذة** Ubada **الأندلسية(٩٢ –٦٣٠ هـ/ ٧١٠ –١٢٣٢ م)** . . . . . .
- **كورة فحص البلوط** Los Pedroches **الأندلسية**
٩٢ –٦٣٢ هـ/٧١٠ –١٢٣٤ م . . . .
- **مدينة فريش** Fresh **الأندلسية ٩٢ –٦٣٢ هـ/٧١٠ –١٢٣٤ م** . . . . . .
- **مدينة قرطبة** Cordoba **الأندلسية ٩٢ –٦٣٣هـ/٧١٠ – ١٢٦٥ م** . . .
- **مدينة بلنسية** Valencia **الأندلسية ٩٤ –٦٣٦ هـ/٧١٢ –١٢٣٨م** . . .
- **كورة قبرة** Cabra **الأندلسية ٩٢ – في حدود ٦٣٨ هـ / ٧١٠ –١٢٤٠ م**
- **مدينة لقنت** Alicante **الأندلسية ٩٤ –٦٤٤هـ / ٧١٢ –١٢٤٦ م** . . . . .
- **مدينة جنجالة** Chinchilla **الأندلسية ٩٤ –٦٤٤هـ/ ٧١٢ –١٢٤٦ م** . .
- **مدينة إشبيلية** Sevilla **الأندلسية ٩٣ –٦٤٦ هـ/٧١١ –١٢٤٨م** . . . . .
- **مدينة طلياطة** Tejada **الأندلسية ٩٤ –٦٤٦ هـ/ ٧١٢ – ١٢٤٨م** . . . . .
- **جزيرة قادس** Cadiz **الأندلسية ٩٣ –٦٦٠ هـ/ ٧١١ – ١٢٨٦ م** . . . . . .
- **مدينة لبلة** Niebla **الأندلسية ٩٤ –٦٦٠ هـ/٧١٢ –١٢٦١م** . . . . . .
- **مدينة إستجة** Ecija **الأندلسية ٩٢ –٦٦٢ هـ/٧١٠ –١٢٦٣ م** . . . . . .
- **مدينة مرسية** Murcia **الأندلسية ٩٤ –٦٦٤هـ/٧١٢ –١٢٦٥ م** . . . . .
- **مدينة شقورة** Seguar **الأندلسية ٩٤ –٦٦٥ هـ / ٧١٢ –١٢٦٦ م** . . . . .
- **مدينة لورقة** Lorca **الأندلسية ٩٤ – ٦٦٥ هـ / ٧١٢ –١٢٦٦ م** . . . . .
- **الجزائر الشرقية(جزر البليار) ٢٩٠ –٦٨٦ هـ/٩٠٢ –١٢٨٧ م** . . . . . .
- **مدينة باغة** Priego **الأندلسية ٩٢ – ٨٠٩ هـ / ٧١٠ –١٤٠٦ م** . . . . . .
- **مدينة الجزيرة الخضراء** Algeciras **الأندلسية ٩٢ –٨٦٢ هـ/٧١٠ – ١٤٥٧ م**
- **مدينة لوشة** Loja **الأندلسية ٩٢ – ٨٩١ هـ/ ٧١٠ –١٤٨٦ م** . . . . . .
- **مدينة مالقة** Malaga **الأندلسية ٩٢ – ٨٩٢ هـ / ٧١٠ – ١٤٧٨م** . . . . .
- **مدينة بسطة** Baza **الأندلسية ٩٢ –٨٩٥ هـ/ ٧١٠ –١٤٨٩م** . . . . . .
- **مدينة المرية** Almaria **الأندلسية ٩٢ – ٨٩٥ هـ/ ٧١٠ – ١٤٨٩م** . . . . .
- **مدينة غرناطة** Granada **الأندلسية ٩٢ – ٨٩٧ هـ/ ٧١٠ –١٤٩٢ م** . . . . .